

الكتب الأربعة المقدسة

ترجمة محسن فرجاني

الكتب الأربعة المقدسة

ترجمة
محسن فرجاني



الكتب الأربعة المقدسة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٨٨ ١

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

كلمة المؤلِّف

بمناسبة صدور الطبعة الإلكترونية من ترجمة الكلاسيكيات الصينية إلى العربية، يُسعدني ويُشرِّفني أن تَصدر الطبعة الإلكترونية من عيون التراث الصيني، التي ترجمتُها إلى العربية، عن مؤسسة هنداوي للنشر؛ لأسبابٍ كثيرة، منها أن اللغة العربية كانت وسيطًا للتعريف بالصين على مستوًى عالمي، في فترةٍ مهمة من تاريخ الحضارة العربية، إبَّان عصورٍ مضَتْ، وقد جاء الوقت المناسب لمُواصلة هذا الدور في عصرٍ حاضر، خصوصًا عن طريقِ مؤسسةٍ تُتيح تقديم النصوص المُترجَمة إلى القارئ باللغة العربية عَبْر وسيلة إلكترونية أكثر حداثةً وانتشارًا؛ ومنها أيضًا أن المطبعة العربية الورقية، على مدى تاريخها، كانت مُخلِصة لجهود الكتابة عن الصين، في مدوَّنات الرحَّالة والجغرافيين، لكنها تأخَّرت طويلًا في الترجمة عن الصين، وقد حانت فرصةُ تَدارُك ما فاتها، عَبْر وسيلتَين متوازيتَين، هما: تلبية حاجة المكتبة العربية إلى هذه الترجمة التي تركَّزت على مصادر الفكر والإبداع الصيني القديم، وتجاوُز حدود النشر الورقي بالتطوُّر إلى آفاقٍ إلكترونية، وصولًا إلى ساحةِ اطِّلاعٍ أكبر، وتعويضًا عمَّا فات المكتبةَ العربيةَ ترجمتُه من الكلاسيكيات الصينية. وفي تقديري أن قراءة مصادر الفكر الصيني في مدارسه الأساسية؛ الكونفوشية والطاوية والموهية والتشريعية ... إلخ، يمكن أن تُفيد، على نحوٍ ما، في التعريف بالشخصية الثقافية والحضارية للصين، وفي دَعْم جسور الاتصال التاريخي معها، فضلًا عن شيءٍ آخَر أظنُّه من ضِمن واجبات أو مسئوليات النشاط الترجمي في الحضارات العريقة، ومنها مصر، وهو الحفاظ على الذاكرة الثقافية للحضارات الإنسانية الكبرى، وهو مجهود يتجاوز حدودَ أيِّ فردٍ مهما حاول، ومهما ادَّعى من إجادةٍ أو إتقانٍ في أدوات النقل بواسطة الترجمة. وبالمناسبة، فربما يلزم هنا التنويه، أو الاعتراف، بأن ما قمتُ به من ترجمةٍ

لأهم كتب التراث الصيني، مثل: كتاب الحوار، والطاو، وسياسات الدول المتحاربة، وكتاب الأغاني (أو الشِّعر القديم)، وفن الحرب، وغيرها؛ كان يهدف إلى تعريف القارئ العام بمحتوى هذه النصوص، وذلك حين تَبنَّت صحيفة «أخبار الأدب» (دار أخبار اليوم) هذا المشروعَ ودعمَته، منذ اللحظة الأولى؛ ومن هنا فقد رُوعي في مستوى الترجمة البساطةُ والوضوح والسهولة، قَدْر الإمكان، دونَ الغوص فيما تستوجبه ضروراتُ النقل الأكاديمي المتخصِّص، أو التحقيق العلمي الدقيق لنصوصٍ شكَّلت الخصائصَ الذهنية لمنطقةٍ ممتدة في شرق آسيا، أوسعَ كثيرًا من حدود الصين الجغرافية، لتشمل اليابان وكوريا وفيتنام، بل ربما ما هو أبعد من ذلك. ولعلَّ هذا هو الدافع الأساسي الذي شجَّعني على التعاون مع مؤسسة هنداوي؛ ذلك أن مساحة النشر الإلكتروني بمداها الواسع وآفاقها الرحيبة، يُمكِن أن تُسهِم في تحقيق الهدف الأصلي لترجمة هذه النصوص. مع تحياتي وتقديري للقارئ وللمؤسسة، معًا!

محسن فرجاني

القاهرة، في يناير ٢٠٢٢م

مقدمة الكتب الأربعة

أهمُّ وأقدمُ تراثٍ مدوَّنٍ في الصين هو التراث الكونفوشي (ولو أنَّه ليس من الصَّحيح نسبةُ الأفكار الفلسفية إلى أسماء روَّادها، فذلك تقليدٌ أوروبيٌّ، وتُعزى هذه التَّسمية إلى الدَّارسين الغربيين) والصَّحيح، أن يُقال: المدرسة الكلاسيكية «الرُّوجية» (نسبةً إلى «روجيا»، أي: الكلاسيكية، بلفظها العلمي الصِّيني) وعلى أيَّة حالٍ، فالتُّراث الكونفوشي المدوَّن بمنزلة الكتب المقدَّسة؛ فهو يتكوَّن من المدوَّنات الأعمق تأثيرًا والأخلد ذكرًا في تاريخ الصين القديم والمعاصر؛ بل لا نبالغ إذا قلنا بأنَّها الأكثر انتشارًا في منطقة شرق آسيا، فيما يتجاوز حدود الصين نفسها؛ فالفكر الكونفوشي (باعتباره اتجاهًا فلسفيًّا أو منهجًا عقائديًّا) منتشرٌ في الكثير من بلاد أقصى الشرق الآسيوي: اليابان، الكوريتَيْن، بورما، فيتنام، لاوس، كمبوديا ... إلخ.

ولم يقتصر نطلق التأثير على مناطق الجوار الجغرافي؛ بل امتدَّ، في بعض الأحيان لينشط في حقب مختلفة من الزمان، فهذه أوروبا القرن السابع عشر والثامن عشر تتلقَّى عن كونفوشيوس ومنشيوس بواسطة الترجمات ما دفع في أشرعة الإصلاح برياحٍ حقيقيةٍ.

بل إنَّ الكثير مما روَّجت له وسائط الاتصال المتعددة — ولو بصورةٍ تجاريةٍ فجَّةٍ — من رياضات روحية؛ كاليوغا، أو ممارسات الطب الشعبي، وما تجاوز حد الانبهار برهبان التبت ... والولع بفنون القتال الجسدية (الكونغ فو، التايكوندو ... إلخ) ليس إلَّا نتاج التقاليد أو الطقوس العقائدية التي وجدت طريقها، بصورةٍ ما، إلى خارج أركان المعابد الصينية والهندية.

«الكتب الأربعة» هي التراث المقدس للمدرسة الكلاسيكية القديمة، وتشتمل على: كتاب المحاورات لكونفوشيوس، وكتابَي المعرفة الكبرى، والاعتدال (أو رسالة مذهب الوسطية)

وهما في الأصل أجزاء من كتاب «آداب المعاملات»، ثم كتاب منشيوس ويقع في المرتبة الثانية من الأهمية «والقداسة» بعد كتاب المُعلم الأول «كونفوشيوس».

وكان كونفوشيوس، في حياته قد ذكر لتلاميذه الكثير من أمثلة ومعايير السلوك الأخلاقي، وجاء التابعون من بعده ووضعوا كتاب «المحاورات» على النحو الذي تصوَّروا أنَّه يفي برسالة أستاذهم ويحفظ بقاءها للأجيال، ثم إنَّ تلميذ كونفوشيوس «سنغ زي» أحسَّ بأنَّ أهمَّ نقطةٍ ذكرها أستاذه كانت: الاستقامة، والإخلاص، أو القلب المستقيم بالإخلاص. فكتب كتابًا يشتمل على تلك العناصر التي تَصوَّر أنَّها أساسية، ذلك هو كتاب «المعرفة الكبرى»، وعلى هذا المنوال نفسه، رأى «زيس» تلميذ سنغ زي — وحفيد كونفوشيوس — أنَّ جدَّه وأستاذه لم يشرحا بشكلٍ مستفيضٍ مسائل وأساليب الحياة؛ فوضع نصًّا يتناول عدة مسائل تستكمل شرح ما غفل عنه السابقون، فذلك كتاب «الاعتدال»، وجاء منشيوس — تلميذ زيس — ليُقرِّر أنَّ أهمَّ المسائل جميعًا هو ما يتعلق منها بالطبيعة الإنسانية، وأشكال السلوك الأخلاقي.

وهكذا راح تلاميذ منشيوس، حسب رؤى أستاذهم، يتناولون أشكال السلوك الأخلاقي بالدراسة والتحليل، وهو الجهد الذي أثمر «كتاب منشيوس».

ويُسعدني أن أقدم للقارئ العربي الترجمة الكاملة لهذه الكتب في مجلدٍ واحدٍ، وأتمنى أن أكون بهذه الترجمة، قد أضفت إلى المكتبة العربية واحدًا من أهم كنوز التراث الإنساني، وأقدم الفلسفات التي ما زالت باقيةً بعد عشرات القرون، حتى اليوم (صحيح أنَّ خُطى التقدم في الصين الأم — البر الصيني — كانت وثَّابةً في سعيها نحو المستقبل والإبداع، فتجاوزت — أو بدا لها أنَّها يُمكن أن تتجاوز — بالنقد والإبداع ميراثها القديم؛ ومع ذلك، فالمراقِب لأحوال الصين، يدرك أنَّ فلسفةً إنسانيةً مثل الكونفوشية تشكَّلت وسط حشود الناس وعاشت معهم تلك العصور، ومن ثم فقد اكتسبت قوة بقاء فوق الناس أنفسهم. صحيحٌ أيضًا أنَّ مقدرة البشر على زحزحة الكيانات والرواسب الثقافية القديمة ممكنةٌ بالوعي والعلم، لكن «الثقافة» نفسها كمفهوم وظاهرة ما زالت تتحدَّى التعريف العلمي (مائة تعريف حتى الآن، أشهرها من وضع سير: إدوارد تايلور!)).

الكونفوشية، كتراث ثقافي، من أكثر التقاليد القديمة ثباتًا وتشبثًا بالبقاء، لذلك لا ندهش عندما نكتشف أنَّ رجلًا مثل «بان كي مون» سكرتير عام الأمم المتحدة، وهو على قمة أكبر مؤسسة ذات طابعٍ دوليٍّ، يحتفظ في جيبه بقصاصةٍ ورقيةٍ (مثل تميمةٍ) مكتوب عليها عبارات منقولة عن كتاب منشيوس، أحد أهم النصوص المقدسة بعد المحاورات (كما صرَّح هو بنفسه ذات مرةٍ لمندوب وكالة شينخوا للأنباء الصينية، في حديثٍ صحفيٍّ معه).

ولا نعجب إذا قرأنا في صفحات التاريخ الحديث للصين أنَّ الدكتور صن يات صن، رائد الوطنية الصينية، كان — وهو يضع اللمسات الأخيرة في البناء الدستوري لأول جمهوريةٍ وطنيةٍ للصين الحديثة، في أوائل القرن العشرين — حريصًا على التأكيد بأنَّ الصين ستتطلع إلى تجارب التقدم العلمي (الأوروبي)، عند استلهام النماذج المتطورة في تصوُّر البناء الحضاري للصين، لكنَّه يستثني، من ذلك، الفلسفة السياسية والرؤى النظرية الأساسية التي تقود خطى بلاده نحو آفاق المدنية، لماذا؟ لأنَّ الصين — في رأيه — لم تكن لتأخذ عن أحدٍ شيئًا في ذلك المضمار، ما دامت تملك الرصيد الكونفوشي الهائل (الذي يغنيها عن التطلع إلى ما لدى الآخرين من فلسفات في السياسة ونظرياتٍ في قواعد الحكم الرشيد)!

لذلك فقد رأيت أن تكون نقطة البداية في ترجمة عيون التراث الصيني، هي الأعمال الكونفوشية الكاملة ... وأولها، هذه الكتب الأربعة.

وأتمنى أن يُحالفني التوفيق في ترجمة المؤلفات الخمسة، وهي وإن لم تكن كُتبًا مقدسةً إلَّا أنَّها — كالمعلقات في أشعار العرب — ذات قيمةٍ تاريخيةٍ وثقافيةٍ، وهي: كتاب الشِّعر القديم، حوليات الربيع والخريف «مدوَّنة تاريخية»، كتاب الطقوس، كتاب التغيرات، كتاب شوجين «وثائق تاريخية».

ويُقال بأنَّه لا يُمكن لأحدٍ أن يدَّعي معرفةً بالثقافة الصينية دون الاطلاع على الكتب الأربعة والمؤلفات الخمسة، فماذا إذن عن كتاب الطاو، وفن الحرب، وتسوجوان، وأشعار تانغ ... إلخ. أليست هذه كُتبًا ذات قيمةٍ أيضًا؟

كلها، بالطبع، ذات أكثر من قيمة، والتراث الصيني لا يقتصر على عددٍ محدودٍ، وربما كان الحصر العددي يقتبس تقليدًا بوذيًّا في استلهام قداسةٍ ما من الأعداد والأرقام (ولنتذكر أيضًا أنَّ عناصر الطبيعة في الفلسفة الصينية خمسة عناصر، وأنَّ مبادئ الأخلاق الكونفوشية أربعة)، ثم إنَّ نصوص التراث القديم تمَّ تدوينها في مراحل زمنية متفاوتة لم تكن تحفل كثيرًا بالتوثيق، فأنت تجد نصوصًا من كتاب فن الحرب مبثوثةً في ثنايا كتاب تسوجوان، ثم تقرأ صفحاتٍ كاملةً من كتاب سياسات الدُّول مكتوبةً في تضاعيف كتابٍ آخر، مثل كوان تسو — مثلًا — حتى كتاب منشيوس، وهو أحد معالم الكتابات المقدسة، تجده يحوي نصوصًا من مذاهب أخرى تختلف عنه مذهبيًّا (من الطاوية والتشريعية!) وكما قلت في مقدمة كتاب سياسات الدُّول المتحاربة، فإنَّ نسبة الكتب إلى أصحابها (أو بمعنًى أدق: توثيق النصوص الصينية) كان يتبع التقاليد أكثر مما يحرص على الدقة، وكثيرًا ما كان يُمكن أن يُنسب إلى مؤلِّفٍ ما كتاباتٌ معينةٌ لمجرد أنَّه من المفروض أن يكون هو قائلها!

ولا أريد — سيدي القارئ — لجهد ترجمة التراث الصيني أن يتقدم بغير خطةٍ أو ترتيبٍ واحدٍ، ولئن كنت استطعت، هذه المرة، تقديم ترجمةً للكتب الكونفوشية الأربعة، فسأحاول فيما بعد استقصاء نسقٍ واحدٍ في تقديم ترجمةٍ وافيةٍ للمؤلفات الخمسة، على أن يتخلل ذلك، بين الحين والآخر، القيام بترجمات لكتبٍ مختلفةٍ من عيون التراث الصيني؛ بحيث يستطيع القارئ (والمترجِم معًا) الوقوف على الصورة الكاملة والواضحة في تصورات الفلسفة الصينية ومذاهبها المختلفة؛ ذلك أنَّ ترجمة كتابٍ مهمٍّ مثل «تشوانغ تسي» قبل قراءة كتاب الطاو، سوف تكون مجرد عبثٍ، لا قيمة له، وربما أوقعت القارئ في دروب الحيرة والغموض أكثر مما أضاءت له من جنبات الفكر الطاوي، وبالمثل أيضًا، فإنَّ قراءة كتاب مشهور جدًّا مثل كتاب «فن الحرب» لن تُسعف القارئ بأفكارٍ واضحةٍ عن معالم الفكر الاستراتيجي في الصين القديمة قبل قراءة كتاب «كوان تسي» (أهم كتابٍ في الفكر السياسي) … إلخ.

وليس من الصواب أن يمدَّ المترجم يده إلى أول كتابٍ يُصادفه فوق أرفف التراث، باعتبار أنَّ المحتويات كلها قديمةٌ بالجملة!

وأود أن أشير، هنا — للتوثيق — إلى أنَّ النسخة التي ترجمت عنها النص الكامل للكتب الأربعة — وهي مُودعةٌ بمكتبة الألسن، قسم اللغة الصينية، بجامعة عين شمس (تحت رقم ٦٩٨٣) — وضعت ترتيب المتون مبتدئةً بكتاب «المعرفة الكبرى»، ﻓ «كتاب الاعتدال»، ثم كتابَيْ: «المحاورات» و«منشيوس»؛ إلَّا أنَّني عدَلت عن ذلك النمط في الترجمة العربية، ووضعت ترتيبًا مغايرًا بدأت فيه بالكتاب الأكثر شهرةً: المحاورات … ثم ثنَّيت بالكتاب التالي من حيث الأهمية في التراث الكونفوشي «منشيوس»، وجعلت الكتابَين الآخرين ملحقين بهما، على النحو الذي يعكس مقدار ما يحظيان به من أهميةٍ في الميراث الكلاسيكي الصيني.

ولا بد أن أذكر، في كل مرةٍ أقدِّم فيها ترجمةً لنصٍّ جديدٍ، أنَّ مشروع نقل التراث الصيني إلى العربية، يتواصل بتكليفٍ أدبيٍّ من الأستاذ جمال الغيطاني، وتلك قيمةٌ يعتز بها المترجِم كثيرًا؛ فليس — فيما أظن — أحسن من أن يحظى جهد نقل التراث الفكري والثقافي القديم للحضارة الصينية بتوجيه وتشجيع مبدعٍ عربيٍّ كبيرٍ، يعرف ما يمثِّله التراث من أهميةٍ ومكانةٍ في الثقافتَيْن العربية والصينية.

محسن فرجاني

الكتاب الأول

محاورات كونفوشيوس

المقدمة

«محاورات كونفوشيوس» هي مجموعةٌ من التسجيلات الكتابية لتعاليم كونفوشيوس وتعليقات تلاميذه، وقد تمَّ تدوينها بوصفها أقوالًا ومواعظ مناسبةً لحلقات الفكر والدراسة، وكان هذا هو السبب وراء اختيار عنوان الكتاب «المحاورات»، وكان واحدًا من تلاميذه (تسنغ شن) هو الذي جمع الأقوال المتناثرة وضمَّها بين دفتي كتاب، وذلك أثناء فترةٍ مهمةٍ في التاريخ الصيني، هي عصر الدول المتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق.م.)، وكانت القاعدة العامة في المدارس والاتجاهات الفكرية والدراسية حينئذٍ تلجأ إلى تدوين الأفكار كتابيًّا، إلَّا أنَّ كونفوشيوس، وهو صاحب اتجاه فلسفي (الكونفوشية)، رفض التدوين الكتابي لأفكاره زاعمًا أنَّه مجرد «وسيط» وليس «مبدعًا»، مجرد «مجتهدٍ» وليس «مكتشفًا»، وكان ذلك صحيحًا إلى حدٍّ بعيدٍ!

فقد كان الزمن الذي ظهر فيه كونفوشيوس يشهد الانتقال من نظام الإقطاع العشائري (أسرة يين الإمبراطورية) إلى نظام الملكية الأوتوقراطية (الدول المتحاربة)، وبطبيعة فترات الانتقال المفصلية الحادة، وسط ظروف تعج بفوضى إعادة الترتيب، من نظامٍ قديمٍ انهارت دعائمه إلى نظامٍ جديدٍ لم تثبت جدرانه، فقد برزت الكونفوشية نتيجةً وليست سببًا ومن وجهة نظر ما. قُل إنَّها كانت المشعل الحضاري الذي عبر متوهجًا بالروح الحضاري الصيني التقليدي من أطلال عصر «أسرة يين جو» ليضم أطرافه وينثر أنواره في جنبات كيانٍ جديدٍ على هدى أفكارٍ ارتأت أنَّ المجتمع الإنساني عبارةٌ عن جسدٍ جمعيٍّ نمطيٍّ يتحدَّد سلوكه بمعيار الأخلاق والتراحم؛ سعيًا للسلام والرفاهية لكل الناس، ويتشكل قوامه من معايير قيميَّة يلتزم بها الفرد، تتمثل في ثقافةٍ أخلاقيةٍ متجردة

بالإخلاص والولاء والتراحم والاحترام والتبجيل والإيمان والحكمة والشجاعة والصبر ... تلك التي صُبَّت جميعًا فيما عُرف بالمنهاج، الطريق ... «الطاو» الذي امتدَّ عبر الأفق في مسارَيْن أساسيَّيْن: الإيمان، والصبر.

تلك، بتلخيصٍ أو تركيزٍ شديدٍ، هي الكونفوشية ... قلب الثقافة الصينية، نواتها كما كانت قديمًا، وهي أيضًا الأساس لما عُرف في ملفات الحضارة الصينية بـ «المدرسة الكونفوشية»، الـ «روجيا» العتيدة العريقة، بلفظها الحيِّ في اللغة الصينية، التي انقسم ... أو انشطر مبحثها النقدي العام، مع طول التجربة وعمق المجرى وثقل الوزن الحضاري، قسمَيْن: أحدهما انتقاديٌّ، يراجع بالبحث والدراسة، موضوعيًّا، مقولاتها، منتقدًا عنصرها الإقطاعي البارز. والآخر مذهبيٌّ، يعترف ويُسلم بجوهرها الثقافي الأصيل ورمزها الباقي للتقاليد التاريخية الصينية، ودار الجدل على محاورَ كثيرةٍ:

- في المحتوى النظري للكونفوشية: كان الفكر الإقطاعي والاستبداد موضع انتقادٍ؛ بينما التلميحات القليلة إلى التقدمية والتنبؤ بالديمقراطية موضع إشادةٍ.
- في الجانب السياسي: انتقد الباحثون الاستعلاء المكي السيادي، والسلطة الملكية (الكاريزمية)، وهتف المذهبيون لإشاراتٍ تحترم الرأي العام وتنادي بالمساواة.
- في الجانب الاجتماعي: انتقدت بوصفها دفاعًا عن الأوتوقراطية الملكية، قُبِلت كقيمةٍ نظريةٍ وفلسفيةٍ تحتل موقع الصدارة في التاريخ الثقافي للصين، وبوصفها موضوعًا للدراسات التراثية ذا قيمةٍ بحثيةٍ عاليةٍ.

كان لكونفوشيوس مكانته الشخصية ومركزه في الثقافة الصينية الكلاسيكية من حيث إنَّه:

- حافظ على الإرث الثقافي الصيني من الضياع، وذلك بتحقيقه وتصويبه لأهمِّ كُتب التراث في الصين القديمة، مثل: «كتاب الأغاني»، «كتاب التاريخ»، «كتاب التغيرات».
- ولأنَّه كان الأول في التاريخ الصيني كله الذي دعا إلى إتاحة فرصة التعليم للعامة والبسطاء؛ ليكسر احتكار الموظفين والوجهاء للعلم، وكانت دعوته الشهيرة لأن «يكون التعليم كالماء والهواء للجميع دون أيَّة فروقٍ طبقيةٍ»، و«أن يراعى التخصص في التعليم بحسب استعداد الطالب وميوله وقدراته الشخصية، وأن يكون التنوع والترفيه وسيلةً لاكتساب المعرفة» ... وغيرها من مبادئ ترسَّخت في

التربويات الصينية العريقة، والتي يضمها جميعًا «كتاب المحاورات»، وهو أشهر وأهم الأوراق الكونفوشية على الإطلاق.

ففي أسرة «الهان» الإمبراطورية — زمن المجد القديم — كانت هناك ثلاثُ طبعاتٍ من الكتاب اتُّخذت مادةً أساسية للدارسين في كل مراحل التعليم، وفي عهد أسرة «نانغ» الملكية سُجلت نسخةٌ من الكتاب رسميًّا بوصفها واحدة من أهمِّ اثنتي عشرة مدوَّنةً تراثيةً في التاريخ الثقافي الصيني، وفي عهد أسرة «جين الغربية» الحاكمة (٢٨٥ ميلادية) دخل الكتاب إلى اليابان، وقيل فيما بعد (بمبالغةٍ واضحةٍ) إنَّه كان أول كتاب يقرؤه اليابانيون في حياتهم!

والنسخة التي اعتمدتُها للترجمة إلى العربية هي نسخة أحد النبلاء الصينيين في العصر القديم ويُدعى «جانيو»، وهي النسخة التي حققها بنفسه في أواخر عهدة أسرة هان الغربية الإمبراطورية (٢٠٦ق.م.–٢٤ ميلادية).

ومحتوى كتاب «المحاورات» يُسجِّل بوضوحٍ ما تبقَّى في ذهن كونفوشيوس من رؤًى تتعلق في جوهرها — وربما هذا هو دافع كثيرين لتصنيفها في إطار الموضوع الديني — بالتدبير الإلهي المتحكم في مصير البشر والعالم كله، والمتسبب في بلائه، أو مجازاته خيرًا وشرًّا ... يعني فكرة الإيمان بالقدر السماوي، لكن من المهم الانتباه إلى أنَّ رؤية كونفوشيوس للسماء/الإله لم تكن قاطعةً محددةً، فهو أحيانًا يراها غير قادرةٍ على التفريق بين الخير والشر أو السعادة والشقاء «تزيد الأشقياء شقاءً، وتمنح السعداء كل الخير!» وأحيانًا أخرى يراها عادلةً مقسطةً، تُعطي لكلٍّ بحسب ما يستحق.

وفي خلاصةٍ، لم تكن رؤى كونفوشيوس متجاوزةً للإطار الفكري السائد في الإقطاع العشائري، ومن ثم جاءت موعظته تحثُّ على الرضوخ الاتكالي ليد القدر، والقبول — سلبًا — بنمط الإخلاص والقيم الاجتماعية السائدة، وكان هدفه الأساسي هو التوجُّه بأفكاره إلى المثقفين والدارسين، الذين تجاوزتهم فرص الانتخاب المناسب للترقي والتقدم، فبقُوا في أسفل السُّلَّم الاجتماعي مع القطاع العريض من الشعب الصيني تنتظر مصيرها تحت سيف القدر المسلط على الأعناق، ولقد فقدت نظرية القدر وظلالها الدينية قيمتها عند المدارس الكونفوشية اللاحقة.

لكن، كان يُمكن لفكر المدرسة الكونفوشية أن يستمر ويؤثر ويلاحق — تاريخيًّا — مجتمعًا صينيًّا معاصرًا، فلم يكن في جوهره فكرًا دينيًّا متساميًا ومستقلًّا عن العالم الدنيوي (مثل المسيحية) — راجع فشل الاختراق التبشيري للصين! — ولم يكن نمطًا

فلسفيًّا للتأمل الفني الجمالي — بمعناه المطلق! — لكنَّه «نظام عقيدةٍ يمتزج بالجمالي والمعرفي معًا» لذلك، لم يكن غريبًا أن يزدهر البعث الكونفوشي في صين التسعينيات، رغم أنَّ صين أول القرن العشرين (٤ مايو ١٩١٩م) أسقطت الثقافة الكونفوشية من حسابها، وهي تخطو إلى عتبات القرن في تيار التحديث العنيف (العلم، الديمقراطية) إلَّا أنَّها تعود الآن، فكيف ذلك؟!

الحق، أنَّ موقف النقد الظاهري للكونفوشية، كان — ربما في باطنه — مصحوبًا باعترافٍ ضمنيٍّ ثابتٍ بقيمته الروحية، وكانت هناك في خلفية مفكري الاستنارة الصينية جذور تعليمٍ قديمٍ تنهل من الجذر الكونفوشي، فكان من السهل عليهم — تقريبًا — انتقاد مقولات كونفوشيوس، لكنَّه لم يكن سهلًا أبدًا نبذ التقاليد الكونفوشية ... والفرق واضح!

والحقيقة، أنَّ الصين المعاصرة، تفتح — بطريقٍ غير مباشرٍ — الباب واسعًا للبعث الكونفوشي، فالظرف التاريخي الآن يشهد طغيان مظاهر العصر الدنيوي: أضوائهِ الباهرة، سرعةِ تقدمه الخاطفة، تحولاته العنيفة، أسعاره، أوراقه المالية، أبراجه السكنية العملاقة، سياراته، نجوم غنائه ... إلخ، وهو يعني فاصلًا آخر بين عصرَيْن، يُهدد الروح الصيني ويضغط على انسجامه الداخلي، ويسمح بإعادة إنتاج ظروف الكونفوشية الأولى، ويستدعيها من مكمنها.

والشائع، أنَّ البعض يردد بأنَّ الكونفوشية حقَّقت تطبيقًا جزئيًّا في إحداث نقلةٍ تطوريةٍ هائلةٍ في اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة، وجنوب الشرق الآسيوي بنموره وسلاحفه ... ومظاهر تطوره الهائل، لكن ... هذه بالذات مسألة معقدة جدًّا تحتاج لتفصيلات أوسع لا تفي بها مساحة المقدمة العاجلة هذه.

والموضوع كله أصعب مما يُطرح عرضًا واستسهالًا ... ذلك أنَّ عودة الروح للمدرسة الكونفوشية كانت مرهونةً دائمًا بمدى ملاءمة شروط التعبير العصري في خلفيةٍ ثقافيةٍ وتاريخيةٍ جديدةٍ تمامًا، تجعل من البحث عن نقطة بدايةٍ جديدةٍ واعدة بالاستمرار والنضج عملًا شاقًّا، لأنَّ الخطر والتحدي الحقيقي يأتي من تفاصيل الحياة ذاتها وليس من النقد التنظيري (التعميمي) المريح، ثم إنَّ مواجهة التحدي والتغلب على الخطر لا يعني تمكين الكونفوشية من استعادة مكانتها الفريدة أو اعتلائها مسرح الأيديولوجيا مرةً أخرى، فالمسألة تكمن في تفعيل دور الكونفوشية بوصفها مرجعًا روحيًّا قادرًا على الحياة والتواصل والتأثير إيجابيًّا وسط ظروفٍ ثقافيةٍ متعددة الروافد وعناصر التلقِّي، ولكن.

هل صحيح أنَّ الكونفوشية ستنتعش وتملك ناصية القرن الواحد والعشرين؟

• الكونفوشيون الجدد يتنبئون بأكثر من ذلك؛ بل ويريدون تأسيس المملكة السماوية الثقافية والفكر الإنساني كله على النمط الكونفوشي، وحجتهم أنَّ مستقبل الثقافة العالمية سينهض على تعميم تيار العلم الكونفوشي الذي تتكون عناصر معادلته من:

$$\frac{\text{الفكر الكونفوشي + الديمقراطية}}{\text{العلم}} = \text{ثقافة مستقبلية بشرية}$$

• واشتط البعض منهم معللًا بأنَّ الفكر الإنساني على النمط الكونفوشي يستطيع التوافق مع الديمقراطية والعلوم الغربية، ويصلح كمحدد اتجاه إنسانيٍّ جديدٍ يدفع تقدم الحياة الثقافية «كذا».

• وآخرون من ورثة التقاليد الكونفوشية يؤكدون على فائدتها التطبيقية؛ انطلاقًا من أهمية استخدام الفلسفة في الممارسة الاجتماعية.

وربما كان من المبالغة كثيرًا أن نردد مع الآخرين نبوءةً تجعل من القرن الواحد والعشرين بكامله قرنَ الكونفوشية وأوان ازدهارها الموعود، صحيحٌ أنَّها ليست مجرد أيديولوجية مجتمعٍ إقطاعيٍّ، وبالتالي فهي ليست معرضةً للضياع أو التفكك، كما حدث للنظام الاجتماعي القديم الذي عاشت في داره سنين.

لكنَّها أيضًا ليست مثل الأديان السماوية المعهودة، وليست لها مرجعية تنظيمٍ اجتماعيٍّ خارج المجتمع الدنيوي، وليس هناك سوى النظرية/المقولات الكونفوشية بجناحيها في الفكر والروح الاجتماعي ... ليس هذا فقط، بل لم تعد الكونفوشية المنسحبة خارج المجتمع هي نفسها الكونفوشية الأصلية، وإذا رُئِي — مثلًا — إنجاز الأعمال استنادًا إلى المُثل العليا لدى الكونفوشية، فسيتوغل الصينيون في مشكلة التقاليد التي لا تُحلُّ، ولن يصبح الطريق ممهدًا أمام مخرجٍ جديدٍ للاقتصاد الصيني الوطني وحياة شعبها، وتظل قدرة الفكر الأخلاقي على التوافق مع الحاجات المعقدة في الوقت الحاضر موضع شكٍّ كبيرٍ.

ورغم أنَّ هناك كثيرين يرون أنَّ «التفوق الداخلي» حالةٌ قائمةٌ باستمرارٍ في فكر المدرسة الكونفوشية، إلَّا أنَّ المشكلة هي أنَّ الروح في تلك المدرسة ترهَّلت للغاية، ولم تعد تناسب الجسد الاجتماعي الذي تغيَّر كثيرًا وما زال يواصل تغييره.

وربما تبدَّت في أحيانٍ مختلفةٍ، وفي بواطن الدلالات وليس في صدارتها، إشاراتٌ تومئ إلى مشاعرَ متضاربةٍ إزاء انهيار صرح القيم القديمة، استندت فيها ظواهر الاضطراب

الفكري وضلال القيم إلى تعليلات من الحالة النفسية الحزينة «المتشردة» التي جابت أطراف العالم بحثًا عن صيغة موفقة تُعيد الدم إلى القلب الكونفوشي القديم، لتعود إلى التقاليد وعينها على التحديث ... أو العكس!

ووجهة النظر الغالبة، هي أنَّ الكونفوشية، بجذرٍ تاريخيٍّ عميقٍ — لكنَّه بعيدٌ! — ووزنٍ ثقافيٍّ ضخمٍ، يُمكن أن تعود أو تبقى:

- كونفوشية تقاليد تاريخية، بوصفها موضوعًا للتأمل الفكري والبحث النظري المجرد، وليس شيئًا آخر غير ذلك!
- كونفوشية تدخل القرن الواحد والعشرين الميلادي بوصفها: «الروح القومي الشريد» معزولةً بأسوارٍ جغرافيةٍ ومنكفئةً على ذات تاريخيةٍ شديدة الحساسية، ومن ثَم تجد نفسها أقرب مزاجيًّا إلى التفاعل مع مركب الآلام: العزلة، تضخم الشعور بالذات، الاضطهاد، الشتات (بعض مدارس الكونفوشية تنشط في المهجر!)، الدياسبورا! وكثيرًا جدًّا مما يُمكن قراءته بين السطور!
- حتى بأكثر التقديرات شططًا ومبالغةً، يصعب التنبؤ بعودة التيار الكونفوشي، بالمعنى الحقيقي له، وإنَّما يظل موضوعًا قابلًا للحياة في إطار الأدب الكونفوشي العجوز والدراسات التاريخية والأدبية القديمة.

مبالغة هائلة أن يُقال إنَّ القرن الواحد والعشرين هو قرن الفكر الكونفوشي وحده، وإن كان يُمكن القطع بأنَّه لن يطلع فجر قرنٍ آخر جديد بغير كونفوشية جديدة تلمع عند منبت النور في مشرقه الأقصى.

الباب الأول

«شيوآر»[1]

وجملته ستة عشر فصلًا

(١–١) قال كونفوشيوس: «كم هو ممتعٌ أن تتعلم وأن تراجع ما تعلمت، وكم هو ممتعٌ أن تلقى صديقًا حميمًا يأتيك من سفرٍ بعيدٍ، ويا له من رجلٍ مهذبٍ ذلك الذي يتجاوز عن تجاهل الناس لمكانته العالية.»

(١–٢) قال يوزي (أنبغ تلاميذ المُعلم): «هناك صنفٌ من الناس ينثني تمجيدًا لأبيه وأمه، احترامًا لأهله وإخوته، وينتصب بقامته جريئًا أمام أصحاب النفوذ. هادئٌ، لين الطبع أمام أهله، عنيفٌ قاسٍ مع الحمقى قساة القلب، فهو صنفٌ نادرٌ من البشر. وهناك مَن يعظمون رؤساءهم رغم طبيعتهم التوَّاقة إلى التمرد والعصيان، وهؤلاء يندر وجود أمثالهم؛ لذا وجب على الشريف المهذب أن يتحلى بهذه الصفات، فإذا تمكَّنت منه صارت أصلًا، وإذا صارت أصلًا أنبتت الإحسان والفضيلة. وإنَّ أطيب ما أثمرت الفضائل جميعًا: احترام الوالدين وإكبار الإخوة والأشقاء.»

(١–٣) قال كونفوشيوس: «إذا ما قابلتَ مَن يتظاهرون بمحاسن الأخلاق، ويبالغون في معسول الكلام، فاحذر، فنادرًا ما تعرف الفضائل طريق هؤلاء.»

[1] يحتوي كتاب «المحاورات» على عشرين بابًا، تتركَّب أوائل عناوينها من النطق الصوتي لأول كلمتين بالمتن الأصلي، أي على الطريقة التوراتية القديمة في تسمية أوائل الأسفار بمفتتح آياتها.

(١–٤) قال سنغ زي:[٢] «في نهاية كل يومٍ أراجع نفسي في ثلاثة أمورٍ، فأتساءل: هل بذلت كل ما أستطيع لمساعدة الآخرين بإخلاص وتفانٍ، وهل كنت صادقًا وفيًّا طوال اليوم لأصدقائي، وهل راجعت واستفدت شيئًا من العلم والحكمة.»

(١–٥) قال كونفوشيوس: «مَن يحكم بلدًا مترامي الأطراف، عظيم الاتساع، فليحرص على الجد في سياسته وليضع ثقته في مواطنيه، وليحذر التبذير، وليقرِّب إلى مجلسه الأجدرَ والأعقلَ، وليضع الناس جميعًا تحت إمرته ما شاء إلَّا أن يكون في ذلك إهلاك لزرع أو خراب لحرث وحصاد.»

(١–٦) قال كونفوشيوس: «مَن مكث من الشباب في داره فليطع آباءه، ومَن قصد إلى العلم فليطع أستاذه؛ فالأمانة على مَن عمل، والصدق على مَن قال: ولتكن الصداقة للأوفياء والمعاملة بالحب لجميع الناس. وبعد، فمَن بقي لديه فائض من وقتٍ، فليطالع كتب الأقدمين وليتأمل سيرة التاريخ.»

(١–٧) قال زيشيا:[٣] «إنَّ رجلًا تزوج، وأحسن الاختيار فأكبر الخُلُق على الجمال، وبرَّ والديه، فبذل لهما دم قلبه، وخدم رؤساءه، فثابر وتفانى، وصادق فصدق، وتعارف فأخلص الروح والضمير ... رجلٌ مثل هذا، حتى وإن كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، فهو عندي أفضل الناس علمًا ووعيًا.»

(١–٨) قال كونفوشيوس: «لا بد للعاقل الشريف أن يتحلَّى بوقارِ الجدية، إذ لا مهابة لمن لا جدية له، ولا بد أن يثابر ويتعمق في دراسته، فقليل من العلم لا ينفع بشيءٍ، فإذا تولَّى شئونًا عامة، فليعمل بنزاهةٍ وإخلاصٍ، إذ هما المبدأ والأصل، ولا يصاحِبَنَّ مَن هم دونه علمًا ومكانةً، وليسبِقْ إلى الصواب إذا وقع في محظورٍ أو زلَّ به الخطأ.»

(١–٩) قال سنغ زي: «إنَّ إقامة الصلوات على أرواح الموتى من الآباء والأجداد، تصقل الإيمان وكرم الأخلاق، وترتفع بأخلاقيات العامة والبسطاء إلى مستوى رفيع من النبل والأصالة.»

---

[٢] سنغ زي: أحد تلاميذ الفيلسوف (٥٠٥–٤٣٦ق.م.) اسمه الأصلي سنشن، ولقبه «زايو»، اشتهر بفضائله وحسن أخلاقه، ويُنسب إليه تأليف كتاب «العلم الكبير» أحد الكتب الأربعة التراثية في تاريخ الفكر الصيني القديم.

[٣] زيشيا: أحد التلاميذ (٥٠٧ق.م.–؟) اسمه الأصلي بوشانغ. وقد عمل لفترة ما حاكمًا عامًّا لإقليم «جوقو» بدولة «جين» القديمة. اشتهر ببراعته في الدراسات الأدبية، وأُشيع أنَّه أول من دوَّن مخطوطة «كتاب الأغاني» و«حوليات الربيع والخريف»، وكلاهما من أهم كتب التراث الصيني.

(١–١٠) جاء زيشين[٤] إلى تسيكون[٥] وسأله، قائلًا: «أرى أستاذنا ما إن ينزل بلدًا حتى تأتيه أخبارها وأسرارها، وإني لأتساءل: أهي مهارته في السعي وراء المعرفة، أم هم الآخرون الذين يسعون إلى إخباره؟ فأجابه تسيكون: بل هو بأدبه وحصافته، ولين جانبه، وبراعته، وتواضعه الجم، بكل ذلك يُحيط بأسرار وخفايا الأخبار، وهي، لعَمري، طريقة في جمع المعلومات، تختلف عمَّا أَلِفنا من طرائق.»

(١–١١) قال كونفوشيوس: «على الشاب أن يهتدي بإرشادات أبيه الذي على قيد الحياة، فإن تُوفي الأب فلينتهج الولد سيرته، فمَن بقي يسلك سلوك أبيه في الحياة، ويترسَّم آثاره من بعده استحق أن يُعد الابن البار المطيع.»

(١–١٢) قال يوزي:[٦] «إنَّ قواعد المعاملات الحسنة لا بد أن تقود إلى الإتقان والتفاني في أمور الحياة. وقد كان الملوك والأباطرة في كل زمن يعظمون أثرها ويلتزمون بها فيما عرض لهم من أمور زاد أو نقص خطرها، وأيًّا ما كان، فلا ينبغي تفضيل الإتقان على المعاملة الطيبة، فالخير لأجل وجه الخير لا ينفع؛ وإنَّما الأمور مزيج من إحسان وإتقان.»

(١–١٣) قال يوزي: «الالتزام رديف الثقة، والثقة قوامها الأخلاق؛ لأنَّ مَن وعد وأخلص فقد فاز. واعلم أنَّ التواضع والخلق الكريم لا يقومان في قلب رجلٍ ما لم يزينه التأسي بالأسوة الحسنة، ومَن كانت تلك شيمته، فعليك بصداقته.»

(١–١٤) قال كونفوشيوس: «لا ينبغي للعاقل أن يجعل ملذات العيش غاية أمله؛ فليزهد في حلٍّ وترحالٍ، وملبسٍ ومالٍ، وليكن مسعاه إلى عملٍ بإتقان، ولسانٍ مصانٍ، وحرصٍ على القول وأمانةٍ في العمل، وليحاذر في الصحبة؛ فلا يُجالسنَّ إلَّا مَن كملت أخلاقه وحسُنت صفاته؛ فلعله مستزيدٌ من فضائل أو مستصوبٌ لهفوات النفس، وإنَّه لهو الطريق السالك إلى أحسن العلم.»

(١–١٥) جاء تسيكون إلى كونفوشيوس وسأله: «ما رأيك يا سيدي في فقير لا يتملَّق، وغني لا يتكبر؟ فأجابه، قائلًا: نِعم الخلق إذن؛ لكن أين ذلك من فقير قانع، وغني كريم

---

[٤] زيشين: اسمه الأصلي شن كانغ، لقبه «زيكانغ»، لا يكاد يُعلم عنه شيء أكثر من ذلك في ملفات التراث القديم.

[٥] تسيكون: أحد التلاميذ (٥٢٠ق.م.–؟) اسمه الأصلي «دوانموسي»، اشتهر بفصاحته وبراعة بيانه، حتى قيل إنَّ السماء منحته لسانًا ذهبيًّا يقطر لؤلؤًا وياقوتًا.

[٦] يوزي: أحد التلاميذ (٥١٨ق.م.–؟) اسمه الأصلي يوروا.

الخلق. فقال تسيكون: وإنَّه ليستوجب ترويض النفس وتطويعها لتصير تلك الخصال مركوزةً فيها، أو كما قيل في كتاب الشِّعر قديمًا:

«هو شيء كالحَفر على رخامٍ ... على صوانٍ، كالنقش على جوهرةٍ من ماس ... في حجم حبات رمال.»

أليس هو كذلك يا سيدي؟ فأجاب المُعلم: أي «دوانموسي»، أيها الذكي النابغ، فالآن لا يسعني إلَّا أن أتبارى وإياك فيما جاء به كتاب الشِّعر من ذخائر، فقد بدا لي من توقُّد ذهنك وكشفك للمُعَمَّى بما دعت قريحتك، ما حملني على ما سمعت.»

(١–١٦) قال كونفوشيوس: «لا أخشى أن يجهلني الناس؛ بل كل ما أخشاه، هو أن أجهلهم، أن تخفى عني حقيقتهم.»

الباب الثاني

ويجين

وجملته أربعة وعشرون فصلًا

(٢–١) قال كونفوشيوس: «مَن جعل الأخلاق أساس الحكم، صار كمثل نجمٍ قطبيٍّ، يثبت بالنور مكانه، وتهيم في مداره أفلاكٌ من كواكب سيارةٍ.»

(٢–٢) قال كونفوشيوس: «حوى «كتاب الشِّعر» أكثر من ثلاثمائة قصيدةٍ، يُمكن إيجازها في عبارة واحدة: «ليس أطهر من هذا الشِّعر وقائله».»[١]

(٢–٣) قال كونفوشيوس: «إنَّ الهداية بقوة القانون، وإنَّ الرشاد بسَن العقوبة والنص عليها في متون التشريع … كل ذلك قد يُجبر الناس على اجتناب الرذيلة، لكنَّه لا يقنعهم بفداحتها، ولا يُبَغِّضها في نفوسهم تبغيضًا. أمَّا الموعظة بمكارم الأخلاق، والتهذيب بالحض على التقوى ومحامد السلوك، فيوقد الخشية في القلوب، ويلهب الرعب في الضمير ويقود النفس بزمام إرادتها طائعةً مختارةً إلى صادق التوبة وأزكى المثاب.»

---

[١] ربما شاع في زمن كونفوشيوس اتجاه نقدي يرى الشعر بوصفه إبداعًا سلبيًّا منافيًا للذوق والأخلاق، ثم جاء كونفوشيوس فدعا الشُّعراء إلى الالتزام بالصدق والجمال وسلامة التعبير والأداء، مقابل النظم المبتذل الرخيص والمتنحي عن القيمة، من هنا كان التأكيد على «الطهر» في كتاب الشعر القديم، وكونفوشيوس بجانب هذا كله يرى قيمة الشعر بوصفه أساسًا للتربية الوجدانية والأخلاقية، وفي تحليل تراثي للعبارة هنا، يخلص تأكيد الفيلسوف على صياغة فنية موجزة تركز على: المحتوى – الواقعية – الموقف الإبداعي. ويُقال بأنَّ تعليق كونفوشيوس هذا كان أول ما قيل في تاريخ النقد الأدبي الصيني.

(٢–٤) قال كونفوشيوس: «كنت وأنا ابن خمس عشرة سنةً أتوق إلى التعلُّم، فلما بلغت الثلاثين، أدركت الحلم، فوعيت الأصول وقواعد السلوك، ثم أدركت الأربعين، فخَبِرت من أمور الدنيا ما ثبتت به قدمي، وفي الخمسين بَصُرت الحياة وفهمت معنى الوجود والقدر، ثم كنت وأنا في الستين، أعاين مقاصد الرجل وخبايا نفسه من كلمة يقولها، فما بلغت السبعين حتى كنت أطلق لنفسي العنان، تجوب أنَّى شاءت، وتأتي ما بدا لها، فما تجاوزَت قدرًا، ولا بلغت حد غلوائها.»

(٢–٥) جاء مينيتز[٢] إلى كونفوشيوس، وسأله عن طاعة الوالدين ماذا يُقصد بها؟ فأجابه: «هي ألَّا تُخيِّب رجاء والديك». فما مضى وقت طويل حتى كان كونفوشيوس في صحبة تلميذه «بان شي» فبادره المُعلم قائلًا: «أتعرف أنَّ واحدًا من عائلة «منغ» سألني عن طاعة الوالدين، فأجبته بأنَّ المعنى في ذلك هو ألَّا تُخيب رجاءهما!»، وسأله محاوره: «وماذا تقصد بذلك يا سيدي؟»، فأجابه: «أن تُحسن معاملة والديك في حياتهما، ثم أن تفي بحق أرواحهما في طقوس جنائزية لائقة عند الممات.»

(٢–٦) جاء منغويو (بن «مينيتز» ... رجل البلاط الشهير) إلى المُعلم، وسأله عن معنى الطاعة، فأجابه: «هي ألَّا يكون في الدنيا كلها شيء يشغل الأبناء عن السهر على راحة وصحة آبائهم.»

(٢–٧) جاء زايو[٣] إلى كونفوشيوس، وسأله عن طاعة الوالدين، فأجابه: «صار الناس يظنون أنَّ البر بالوالدين يعني إطعامهما بما لذَّ وطاب؛ لكن المخلوقات الأليفة أيضًا تجد من يُطعمها ويسقيها بأفخر وأبهى طعام وشراب؛ إنَّ الإكرام بغير احترام، لا يختلف كثيرًا عن اقتناء القطط والجياد.»

(٢–٨) جاء زيشيا إلى المُعلم وسأله عن طاعة الوالدين، فأجابه قائلًا: «إذا كانت الأمور تُقاس بمقدار الجهد، فالبر إذن أن تمد يد المساعدة، أو كما قلت آنفًا ... أن تهيئ لوالديك مآدب الطعام الفاخرة، فيشبعان «ويمتلئان» من خبزك وخمرك؛ إذ يبدو لي أنَّ أحدًا لم يعد يقدر هذه الأيام أن يحمل ابتسامةً صافيةً على وجهه ويدخل بها على أبويه، فيملأ قلبيهما بالسعادة، عرفانًا وحبًّا خالصًا.»

---

[٢] مينيتز: من أشهر رجال البلاط في دولة «لوقو»، كان يتردَّد على كونفوشيوس، ويستمع إلى محاضراته.

[٣] زايو: (٥٠٦ق.م.–؟) أحد تلاميذ كونفوشيوس، اسمه الأصلي يانفان، اشتهر بعبقريته الأدبية، وعمل لفترة حاكمًا لإقليم «أوتشن» في دولة «أوقو» القديمة.

(٢–٩) قال كونفوشيوس: «كثيرًا ما ألقيت دروسي على أنبغ تلاميذي «يان هوي» فما وجدته عارضني بشيءٍ أو فتح فمه بسؤال، حتى ظننت به بلادة الحس وخمود العقل، وما هو إلَّا أن تكشَّف لي من سلوكه وتصرفاته معي ومع الآخرين نبوغٌ في العلم، وطلاقة في الفهم والبيان، فما رأت عيني ولا وعى قلبي رجلًا مثله في حدة العقل وجلاء البصيرة.»

(٢–١٠) قال كونفوشيوس: «راقب تصرفات واحد من الناس، بما فيها من طيب أو خبث، ولاحظ الدوافع وراء تلك التصرفات، ثم راقب مدى رضاء الفرد أو سخطه على ما بدر منه، وهيهات أن تخفى عنك كوامن النفس أو تغمض عليك دخائل الوجدان والضمير.»

(٢–١١) قال كونفوشيوس: «راجع دومًا ما سبق لك تحصيله من معرفه، تنكشف لك حُجب فهم جديد، وتَصر جديرًا بكرسي المُعلم نفسه.»

(٢–١٢) قال كونفوشيوس: «إنَّ رجلًا ذا علم وموهبة لا يجدر به أن يعمل مثل آلة صماء، مثل أداة منزلية رخيصة متواضعة.»

(٢–١٣) جاء تسيكون إلى كونفوشيوس وسأله: كيف يصير الرجل عاقلًا فاضلًا؟ فأجابه، قال: «بأن تكون أفعاله مقدمةً لأقواله … يُبادر إلى العمل ثم يتبعه بالقول.»

(٢–١٤) قال كونفوشيوس: «العاقل مَن يوازي في علاقاته، وينأى بنفسه عن عصبة متحزبة، أمَّا الغافل، فيلقي بنفسه وسط زمرة من الأصفياء، يتحزب ولا يُخالط، حتى تكاد تضيق عليه الدوائر.»

(٢–١٥) قال كونفوشيوس: «القراءة بغير تحليل وفهم، إرباك للذهن بلا طائل، والفكر المجرد بغير قراءة، هو عين الهلاك.»

(٢–١٦) قال كونفوشيوس: «إنَّ كل الأفكار الضالة التي حادت عن فكر قويم، تحمل بذور خطر داهم، ولا سبيل إلى دفع الخطر إلَّا بتصحيح الفكر وتنقية الفهم من شائبة الأباطيل.»

(٢–١٧) قال كونفوشيوس: لتلميذه «يوه»:[٤] «أعلمك شيئًا فاحفظ عني: لا تقل «أعرف» إلَّا إذا عرفت، فإن جهلت شيئًا، فقل لا أعرف، فهذا هو رأس الحكمة.»

[٤] «يو» (٥٤٢–٤٨٠ق.م.) أحد تلاميذ الفيلسوف، اسمه الأصلي «زيلو»، اشتهر ببسالته وفروسيته، أصيب بطعنات نافذة مات على أثرها، وذلك أثناء أحد الانقلابات الدموية بين صفوف النبلاء.

(٢–١٨) جاء زيجانغ[٥] إلى كونفوشيوس وسأله: بماذا يرتقي المرء منصبًا ذا شرف ووجاهة؟ فأجابه: «بأن يُجيد الإنصات، ثم يحتفظ في ذهنه بما لم يفهم، وأن يُحاذر عن القول، فلا ينطق إلَّا بما قد فهم حقًّا، فذلك يعصم من الزلل، ثم ليتأمل كثيرًا وليستبق في عقله ما لم يستسغه الفهم، فإن انطلق إلى العمل، فلا يَقربنَّ بيده إلَّا ما وعى فعله، فذلك يعصم من الندم، فهكذا يصير الرجل حريصًا في قوله، أمينًا في عمله، فتلك تبلغ به مبلغ الشرف وعظيم المكانة.»

(٢–١٩) جاء الأمير «إيكونغ» إلى كونفوشيوس، وسأله: كيف أقود الناس في إمارتي إلى الطاعة؟ فأجابه: «أكرِم الأمين واضرب اللئيم ينقادوا لك، وانصر المحتال أو اظلم الشريف ينقلبوا عليك.»

(٢–٢٠) جاء جيكانزي[٦] إلى المُعلم، فسأله: ما الوسيلة إلى نيل احترام الناس وإخلاصهم، ثم إفشاء الأمانة والتراحم فيما بينهم؟ فأجابه: «إن تسيدت عليهم بالجد والوقار لقيت منهم التبجيل، وإن رحمت كبيرهم وأشفقت على صغيرهم بذلوا لك الإخلاص، فإن مجَّدت الكريم وأعنت ذا الحاجة فقد أشعت بينهم البر والإحسان وروح الخير والتفاني.»

(٢–٢١) جاء رجل إلى كونفوشيوس، وسأله: لماذا لا ترتقي منصبًا حكوميًّا وتُشارك في «المهام السيادية العليا»؟ فأجابه: «ورد في نسخة نادرة من «سجلات تاريخية» ما مفاده أنَّ أعظم الأعمال وأجلها هي الطاعة لأبويك والإخلاص لإخوتك، وحبذا لو تساميت بهذه الروح إلى آفاق «المفاهيم السيادية الراقية»، فذلك أيضًا نوع من المشاركة في ممارسة السلطة، فلماذا نتصور دائمًا أنَّ الممارسة السياسية لا تتأتى إلَّا بارتقاء منصب حكومي مرموق!»

(٢–٢٢) قال كونفوشيوس: «لا خير فيمن لا يَصدق، ولا جدوى من كاذب ضال، لأنَّ الصدق في الرجال أعنَّتُهم، فما نفعك من فرس جامح بلا عنان؟!»

(٢–٢٣) جاء «زيكانغ» إلى المُعلم، فسأله: أيمكن يا سيدي، معرفة ما تصير إليه الأحوال في نظم الحكم بعد عشرة أجيال قادمة؟ فأجابه: «أجل ... فيُمكن، مثلًا، استقراء ما تصير إليه الأوضاع إذا ما تحقَّقنا من صحة الغرض بأنَّ مملكة «شاو» تقتبس نظم

---

[٥] «زيجانغ» ... أحد التلاميذ (٥٣٠ق.م.–؟) اسمه الأصلي توانسون شي.

[٦] «جيكانزي» ... من رجال البلاط الحاكم، في عهد مملكة «لوقو»، اسمه الأصلي، جيسون فاي.

وتقاليد دولة «شيا»، وهو ما يستتبعه بالضرورة عملية فرز وانتقاء تفضي، غالبًا، إلى مسلكين: إمَّا الأخذ بما يلائم، وإمَّا النبذ والتعديل لما يخالف، وهذا أمر يُمكن التنبؤ به، أو أن تقتبس دولة «شيا» سياسة ونظم مملكة «شاو» ثم تُجري بدورها ما يناسبها من فرز وتعديل وانتقاء، وهذا يمكن أيضًا استقراؤه، فمن ثم أستطيع أن أخبرك بما تصير إليه أحوال الملوك والممالك والظروف التي سيجدونها ماثلة أمامهم، في دولة «شاو» مثلًا، ولو بعد عشرة أجيال كاملة.»

(٢–٢٤) قال كونفوشيوس: «أن تبذل الوفاء والعرفان لَمن لا يستحق، فذلك هو النفاق، وأن تقصر همتك عن أداء الواجب والاضطلاع بما تمليه عليك المسئولية، فذلك هو التخاذل بعينه.»

الباب الثالث

بايو

وجملته ستة وعشرون فصلًا

(٣–١) تحدث كونفوشيوس منتقدًا مظاهر الإسراف التي اشتهر بها الأمير «جي»، فقال: «إذا كان «جي شي»، وهو سيد قومه، قد تجاوز الحد فيما جرت عليه عادات الناس، فبلغ الشطط؛ إذ أقام شعائر جنائزية على روح أجداده، فبذل فيها غاية البذخ وبالغ في المجون، فلئن كان هذا مسلكه في مثل هذا الموقف، فكيف له في غيره من الأمور؟!»

(٣–٢) أبلغ أحد التلاميذ كونفوشيوس بما مؤداه أنَّ أفرادًا من العائلات الثلاث الكبار: منغسون، شوسون، جيسن، أقاموا الشعائر الجنائزية على روح أجدادهم، إلَّا أنَّهم أنشدوا التراتيل الخاصة لملك الملوك، فتجاوزوا حدودًا ليس لهم حق المساس بها، فقال كونفوشيوس: «هؤلاء يعوزهم البصر والبصيرة؛ فإنَّ هذه التراتيل موضوعة للأباطرة تطالبهم هم وأحفادهم بأداء طقوس ومراسم خاصة تقتصر عليهم فقط، فكيف لهؤلاء الناس إذا سلكوا في غير طريقهم، والسالك في غير طريقه ضالٌّ، فلكل سائرٍ دربٌ، ولكل خطوٍ طريقٌ.»

(٣–٣) قال كونفوشيوس: «إذا صار قلب الرجل خلوًا من الإنسانية، فما النفع مِن تمسُّكه بقواعد المعاملات الكريمة؟ إذا فرغ قلب امرئ من معنى الإنسانية فلن يكون لشيء في حياته معنًى، حتى وإن ملأ الدنيا كلامًا وخُطبًا ومواعظ حول المعاني الراقية الجميلة.»

(٣–٤) جاء رجل اسمه «لين فانغ» وسأل كونفوشيوس أن يعظه بموعظة يضعها نصب عينيه، فأجابه: «إنَّ مسألتك لعظيمةٌ جدًّا، فاعلم، حتى وإن أقمت مأتمًا، لا تُفْرِط،

فليس الحداد على ميت بعدد ما أوقدت من شموع في جنازته، وإنَّما بجلال أحزانك بالصدق المتقد في عميق وجدانك.»

(٣–٥) قال كونفوشيوس في فورة حماسةٍ وطنية: «إنَّها قبائل همجية تلك التي تتناثر على تلال بلادنا، وإن سادها كِرام الملوك، فالمجد أبدًا للسهول الصينية وإن غمرتها الفوضى وتنازعها الشقاق.»

(٣–٦) ذهب سيد قبيلة «جي» لتقديم القرابين إلى آلهة جبل «تاي»، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال لتلميذه «ران»: «اذهب وانصح له بالرجوع، فذلك مما يُخالف الأعراف». فأجابه التلميذ بأنَّه لا يقدر على ذلك، فتعجَّب كونفوشيوس قائلًا: «أيعظم الرجل وتهون الآلهة؟ أيكون العابد أكرم من المعبود؟!»

(٣–٧) قال كونفوشيوس: «ليس للماجد أن ينازع أحدًا من الناس الشرف، أو يستلبه العز والسيادة، فإن لم يكن بد من صولة الجاه، فليتنكب القوس والسهم ولينزل إلى ساحة الرماية، وليحرص على تحية منافسه قبل النِّزال، فإذا ما انتهت الجولة — نصرًا أو هزيمة — فإنَّه لَمِن كرم المَحْتِدِ وأصيل السجايا أن يقبل على صاحبه باشًّا متلطفًا، مبادلًا إياه نخب الامتنان والشرف.»

(٣–٨) جاء «زيشيا» إلى كونفوشيوس وسأل عن المعنى فيما جاء بقصيدة في «كتاب الشِّعر» مطلعها:

«يا مَن سرى الفجر بخديك حلوًا كابتسامة،
عيناك ظلال ... وشموع تراتيل،
بهاؤك فتنة ... زينة أزيان
كألوان تزهر في أحراش،
نقوش على ثوب أبيض،
زخارف ... موشاة في منديل.»

واستفهم السائل: أين يكون الجمال هنا، أيكون في الوصف قبل الموصوف؟ فأجابه المُعلم: «كلا ... لا يكون الأمر كذلك، ففي البدء كان الموصوف، ثم ازدان بمظاهر الجمال، فصار قابلًا للوصف بما يليق به». فقال زيشيا: إذن فالصفات تسبقها أصول، كقولك: إنَّ الفضائل لا تقوم إلَّا على أساس من الإنسانية. فهتف كونفوشيوس: «أي ... بوشانغ! وإنَّك لتوقظ في عقلي دفائن الفكر والتأمل! فهلم نفكر معًا في خبايا المعنى مما جاء بكتاب الشِّعر!»

(٣–٩) قال كونفوشيوس: «أستطيع أن أروي للناس ما مضى من أخبار مملكة «شيا»، لكن المؤسف أنَّ ما تلا ذلك العهد من أبناء دولة «تشي» فلا أملك شاهدًا كافيًا لتوثيقه. وأستطيع أن أقص على الملأ الكثير من البراهين ما وقع إبان حكم دولة «سونغ» التي جاءت في إثرها. إنَّ رواية التاريخ لا يُمكن أن تتكامل فصولها بغير شاهدين: توثيق صامت، مرجعه سجل مكتوب، وتوثيق صائب، دليله: شاهد عيان، سليم العقل، نقي الضمير، ولأنَّني لا أجد المزيد منهما، فلن أجد الحجة المقنعة أو البرهان الساطع.»

(٣–١٠) قال كونفوشيوس: «رأيت، ذات مرة، طقوس عزاء للموتى من أجداد مملكة «لوقو»، فما راعني إلَّا أن رأيتهم قد جاءوا ببدع وضلالات، تخالف المعهود والشرائع، فما رأيت لهم طقوسًا بعدها قط إلَّا ازددت نفورًا، وفكرت في الانصراف، فليس أظلَم من انتهاك شرائع سَرَت في العهود، من الأزل، ميثاق قداسة.»

(٣–١١) جاء رجل إلى كونفوشيوس وسأله عن المغزى الحقيقي في إقامة طقوس تمجيد الأجداد، فأجابه قائلًا: «لا أدري بأي شيء أجيبك، لكن قصارى ما أستطيع أن أقوله لك هو أنَّ مَن يدرك ذروة الحكمة فيها، فقد أوتي حكمة الزمان أوله وآخره، وصار عليمًا بأحوال الدنيا والبشر، كأنَّه يقلِّبها ها هنا»، ثم أشار إلى كفيه.

(٣–١٢) قال كونفوشيوس يُقيم الصلوات على روح أجداده، فبذل في ذلك كل الجهد، بإخلاص واحترام، فكان موتاه أحياءً شهودًا. وكان إذا تقرب بقربان يتمثل الآلهة أمامه تحصي عليه أفعاله. ومما أُثر عنه في هذا المقام قوله: «حتى لو عرض لي عارض منعني من الصلاة والأضحية، فذهب غيري فأداها عني لبقيت مسهدًا تفزعني الظنون، ونفسي تحدثني بأنَّ مكنون القلب من تقوى وإخلاص لا يرتقيان معارج السماء بإنابة وسيط أو بتعهد وكالة.»

(٣–١٣) جاء وانغ سونجيا (أحد كبار القادة في مملكة «ويغو») إلى كونفوشيوس، وقال له: الناس يرددون المَثل السائر، الذي مفاده أنَّ: «الآلهة القريبة أفضل من البعيدة! والآلهة التي في ركن حجرتك القريبة أفضل من التي في مطبخك (البعيد).»، فما رأيك في هذا القول يا سيدي؟ فأجابه: «هذا هو الباطل بعينه، لأنَّ فكرة العبادة بحد ذاتها لا تتسق مع انتقاءات التفضيل والاحتقار بين مراتب الآلهة. إنَّ المساس بجلال الاعتقاد إذا طال قدسية السماء، فقد أبطل مغزى العبادة وقوَّض ركنها الأعلى.»

(٣–١٤) قال كونفوشيوس: «إنَّ جملة الشرائع والدساتير التي جرت صياغتها في مملكة «تشوغو» تُعد أبرع ما جرت به الأقلام قاطبةً، فما تركت شيئًا مما خلَّفه الأقدمون

في دولتَي «شيا» و«إين» إلَّا أخذته بنصيب وافر من الدرس والمراجعة، فلهذا أقف منها موقف التبجيل، بل النصرة والتأييد.»

(٣–١٥) كان كونفوشيوس قد دخل أحد المعابد، لأول مرة في حياته، وتصادف أن وافق ذلك ذكرى تأبين الدوق «جو»، فما دلف من الباب حتى أخذ يرقب الطقوس الجنائزية، ويسأل ويستفسر كل مَن يصادفه عمَّا خفي عليه من أصول الصلوات والتراتيل، ثم إنَّ أحد الحاضرين صاح (ساخرًا) وقال: ويل لابن شوليانغ هي (يقصد كونفوشيوس) يدخل المعبد فيستقصي ويستخبر عن هذه وتلك، ما أبعد ذلك عن أخلاق الدين! فسمعه كونفوشيوس وردَّ عليه قائلًا: «على رِسْلِك يا هذا! لقد سألت حذرًا من الوقوع في خطأ، واستفتيت درءًا لخطيئة، وإنَّه لرأس العلم وركن الإيمان.»

(٣–١٦) قال كونفوشيوس: «ليست الرماية سواعد مفتولةً، ونصالًا مارقةً عن الأقواس، وإنَّما براعة في التصويب وإحكام في التسديد، وانطلاقة واثقة في قلب الهدف.»

(٣–١٧) في عهد مملكة «لوقو» أراد تسيكون أن يقضي على أحد الطقوس الشكلية التي اعتادت التضحية بكبش فداء في مذبح العبد عند أول كل شهر قمري، فلمَّا بلغ الأمر كونفوشيوس على لسان تسيكون نفسه، التفت وقال له: «لست أوافقك الرأي على ما تريد، فالطقوس إن بطل مغزاها باتت ركنًا من العقيدة، فحذارِ أن تفتن الناس فيما آمنوا به وإنَّك لحريص على رقاب الكباش، وإنِّي لحريص على شعائر الدين وطقوس المعابد.»

(٣–١٨) قال كونفوشيوس: «بذلتُ الطاعة والاحترام لرؤسائي وأولي الفضل من الناس، كما اقتضت الأصول، ثم قال القائل بأنَّه الرياء والتزلُّف، فويل لخبث الظنون.»

(٣–١٩) جاء الدوق «دينغ» إلى كونفوشيوس، وسأله: كيف ينبغي أن يكون الأمر بين الأمير ووزرائه؟ فأجابه: «على الأمير أن يتخذ وزراءه حسب القواعد المتبعة، وعلى وزرائه أن يبذلوا له الإخلاص والتفاني.»

(٣–٢٠) قال كونفوشيوس: «في كتاب «الشِّعر» قصيدة بعنوان: «كوان جيو» فهي أروع ما كتب شعرًا، تفيض عشقًا بغير تبذُّل، وتفطر آلامًا بغير نواح.»

(٣–٢١) جاء إيكونغ إلى الخطيب المفوَّه «زايو» وسأله عن نوع الأخشاب التي يجب عليه تقديمها قربانًا في معبد آلهة الأرض، فأجابه قائلًا: كان الحكَّام على عهد دولة «شيا» يستخدمون خشب الأرز، أمَّا حكَّام «إين» فقد استخدموا خشب السدر، ثم كان أباطرة أسرة «تشو» يفصلون خشب جوز الهند، اعتقادًا منهم أنَّه يُثير الإجلال والرهبة في نفوس رعاياهم. وكان كونفوشيوس حاضرًا، فما إن سمع قول زايو حتى صاح فيه

معاتبًا: «الفطنة يا رجل ... أما علمت أنَّه لا جناح مع ما فات، ولا موعظة لما انقضى، فما هلك في الدهر، لا يجديه التحرز؛ إذ مقارعة الماضي حكم بغير حكمة.»

(٣–٢٢) قال كونفوشيوس: «ما رأيت أحدًا تقاعست به الهمة وتخاذلت به التطلعات مثل السيد «كوانجون» تولى رئاسة الوزارة في دولة «تشيغو» القديمة»، فقام رجل وقال: وما يدريك، فعساه كان يُضيِّق على نفسه وعلى بلاده، خشية الإسراف مع ضيق الموارد. فأجابه: «لا، بل كان أغزر الناس موردًا، وبلاده يومئذٍ أغنى الممالك عددًا وعُدةً.» ثم راجعه الرجل ثانية قائلًا: فلعله قد أغنت عنه حصافته ومراعاته لأصول المعاملات! فأجابه المُعلم: «ما أغنت الحصافة عن أحد شيئًا، وكيف يكون الرجل حصيفًا وقد رضي بأقل النجاح، فتقاعس عن بلوغ آفاق التطور والإنجازات الكبرى.»

(٣–٢٣) قيل إنَّ كونفوشيوس التقى بشيخ العزف والغناء في دولة «لوقو» فتحدثا عن الموسيقى، فقال له كونفوشيوس: «إنَّ الأساس في عزف الألحان يتبع قاعدةً معلومةً، فلا بد في البدء من توافق الأداء ووفرة النغم، ثم تلا ذلك مرحلة تطور العزف لتبلغ أتم عنفوانها، فيصدح الإيقاع، ويُشرق اللحن باذخًا يصل انسجام الصوت بعنفوان الرنين، يتجاوب في الأفق ... نشوة انعتاق حر، أصيل، فإذا بلغ اللحن منتهاه، وقف عند نقطة في المدى، تسمح لرجع الصدى أن يهمس في الأسماع ببقايا لحن يعزفه السكون.»

(٣–٢٤) أراد أحد القادة في حصن بلدة «أيا» أن يُقابل كونفوشيوس، قال: ما مر بي رجل فاضل ذو علم واطلاع إلَّا كانت لي معه لقاءات وحوارات. فذهب بعضهم إلى كونفوشيوس، فاصطحبوه لمقابلته، وذهب إليه وتحدث معه طويلًا، فلمَّا خرج المُعلم من عنده، قال القائد للتلاميذ: ما أعجبت إلَّا بسعيكم وراء أغراض زائلة، وفيكم مثل الحكيم. لقد أصاب الدنيا شرٌّ وبيلٌ طال به المكث بين ظهرانينا، وما أرى إلَّا أنَّ إرادة السماء قد اصطفت لنا هذا الرجل، لصحوة الضمائر وإيقاظ الغافلين.

(٣–٢٥) تحدث كونفوشيوس عن موسيقى الـ «شاو» التي وضعها الإمبراطور «شون» فقال: «إنَّها أعذب الألحان، تعبيرًا وأداءً» (وكان الإمبراطور شون، هو الذي نشر الأمان في ربوع مملكة آلت إليه بالسلم). وتحدَّث عن موسيقى الـ «آو» التي وضعها الملك أوانغ، فقال: «لا بأس بأدائها؛ لكنَّها فقيرة التعبير.»

(٣–٢٦) قال كونفوشيوس: «إنَّ رجلًا تقلَّد منصبًا رفيعًا، فظلم مَن تحته، وعُرضت عليه آداب المعاملات فأبى واستكبر، فلمَّا مشى في جنازة خلع العِذَار والأحزان عن سيماه ... رجل مثل هذا ... هيهات أن تمجد سيرته، هيهات أن تحمد أفعاله، فبئست الخصال والرجال.»

الباب الرابع

ليران

وجملته ستة وعشرون فصلًا

(٤–١) قال كونفوشيوس: «ليس أفضل من السكنى بجوار جار طيب النفس، كريم الخلق، فمَن غفل عن ذلك، فقد تناءت عنه الحكمة، وازورَّ عنه الرشاد.»

(٤–٢) قال كونفوشيوس: «إذا فرغ قلب رجل من الإنسانية، فلا الفقر يزجره ولا الغنى ينفعه، فهو في الأولى مارقٌ جاحد، وفي الثانية مسرفٌ باذخ، فمَن عَمر قلبه بالرحمة، توطَّدت في أعماقه نوازع الخير، واعلم أنَّ العاقل مَن ابتغى إلى التراحم سبيلًا يجني به نفعًا، إن لم يكن غاية، تحسن بها صفاته، وتكمل بها أخلاقه.»

(٤–٣) قال كونفوشيوس: «الطيبون فقط هم الذين يقدرون على حب الخير وكراهية الشر.»

(٤–٤) قال كونفوشيوس: «لو تكاتف الناس حول معنى الإنسانية لانتهى الشر من العالم.»

(٤–٥) قال كونفوشيوس: «الثروة والمجد والجاه غاية كل فرد، بشرط نزاهة الوسيلة؛ وإلَّا فإنَّ العاقل لن يبتغي إليها طريقًا، أمَّا المسغبة والفقر والإملاق، فعنها تزورُّ النفس الكريمة، بشرط استقامة المسلك؛ وإلَّا فإنَّ الشريف الماجد لن يُبالي الضعة والهوان. ليس للكريم أن يلوث نقاء يده، ولا الشريف أن يقصر عن نبل مقصده، وأصالة أخلاقه؛ وإلَّا فما النفع من الحياة بغير تلك الخصال؟! ليس للعاقل أن يضيع نزاهته ولو مات جوعًا، ولو تشتت به السبل، أو غمرته الدنيا بعاجل غوايتها.»

(٤–٦) قال كونفوشيوس: «ما رأيت في حياتي قط امرأً يحب الخير مخلصًا لوجه الخير، ولا عرفت امرأً يبغض الشر بغض الموت؛ ذلك أنَّ مَن أحب الخير بصدق اتخذه نبض قلب وروح وجود، ومَن أبغض الشر تجنب حبائله، ولئن سئلت إن كان في الدنيا كلها رجل يسلك اليوم كله من فجره إلى غسقه كادحًا صادقًا لمعنى الخير، فقد قلت بأنَّي ما رأيت مخلوقًا بهذا الوصف، ولعله موجود يسعى حيًّا بيننا، لكني لم ألتقِ به حتى هذه اللحظة.»

(٤–٧) قال كونفوشيوس: «إنَّ هفوات النفس دليل على طباع المرء ومزاجه، فأحيانًا ما تكشف الأخطاء الصغيرة عن حقائق هائلة تختبئ خلف جدار النفوس.»

(٤–٨) قال كونفوشيوس: «إن أدركت الحقيقة ذات صباح، فلن أخشى أن يعاجلني الموت في المساء.»

(٤–٩) قال كونفوشيوس: «إن صادفت ساعيًا إلى العلم، قاصدًا إلى نور الحقيقة، تخزيه رداءة طعامه وشظف عيشه، أمسكت عن محاورته، فمثله غير جدير بعبء الدرس وعناء التحصيل.»

(٤–١٠) قال كونفوشيوس: «كل أحداث العالم وشئونه لا تجديها التناولات بأقصى وجهات النظر: إمَّا رفض مطلق، أو قبول بغير شروط. فالعاقل مَن يحسن التدبير في معالجة الأمور، مسترشدًا بمعيار التوسط (الاعتدال) والأخلاق.»

(٤–١١) قال كونفوشيوس: «الشريف بما كملت أخلاقه، والدنيء بما اغترف من المال وبهجة العيش، والماجد مَن اهتدى بأصول الأعراف، وأمَّا الذليل فيجتزئ عدوانًا، ثم يستجدي العفو وصفح الصدور.»

(٤–١٢) قال كونفوشيوس: «مَن يجعل منفعته غاية أمله، يجلب على نفسه الحسرة والندم.»

(٤–١٣) تساءل كونفوشيوس: «ألا يُمكن اتخاذ الأخلاق السامية أساسًا للحكم؟! أهو أمر يعسر على التطبيق في الواقع؟! ولئن كانت الحال كذلك، فما نفع المبادئ، وما جدوى الفضائل؟!»

(٤–١٤) قال كونفوشيوس: «إنَّ تقلد المناصب المرموقة ليس هو المشكلة، وإنَّما امتلاك الجدارة لاستحقاق القيام بأعبائها هو المحك والأساس، وليست الشهرة بالشيء المهم، فالأهم منها هو حاصل القدرة المبدعة بالتمكن التام، عن طريق المهارة الواعية، إذ إنَّها الركيزة والأساس.»

(٤–١٥) قال كونفوشيوس محدثًا أحد تلاميذه: «أي سنشن … اعلم أنَّ كل أفكاري تنبع من مبدأ واحد، وكل كلماتي تنتظمها كلمة واحدة لا أكثر». فأجابه، قائلًا: صدقت يا سيدي … هو ذاك. فما خرج المُعلم حتى أقبل باقي التلاميذ يستفسرون من سنشن عن معنى قول الفيلسوف، فأجابهم قائلًا: المغزى فيما قال إنَّ فلسفته كلها تصدر عن مبدأ خلاصته: الإخلاص والتسامح.

(٤–١٦) قال كونفوشيوس: «النبيل لا يسعى إلَّا للفضائل، رفعةً ومجدًا، والحقير لا تحدوه إلَّا منفعته، أنانيةً وجشعًا.»

(٤–١٧) قال كونفوشيوس: «تعلم من النبيل مكارم أخلاقه، راقبه واحتذ حذوه، وتعلم من السفيه نقيض أفعاله، راقبه وراقب نفسك واسلك غير طريقه.»

(٤–١٨) قال كونفوشيوس: «قم على رعاية والديك بالحسنى، فإن صادفت منها ما يستوجب النصح فانصح لهما؛ لكن بتأدب شديد واحترام جم، فإن ألفيت منهما نفورًا وازورارًا، فعليك أن تحترم مسلكهما، على أي وجه كان، وابذل روحك لأجلهما بتفانٍ، فإياك وبغض الوالدين.»

(٤–١٩) قال كونفوشيوس: «لا يحق للأبناء أن يسهدوا جفن والديهم بعذاب السفر والرحيل بعيدًا عنهم، فإن لم يكن بد من داعي السفر، فليكن لهم خارج أوطانهم مقار سُكنى دائمة، لأجل أن تقر عين ذويهم.»

(٤–٢٠) قال كونفوشيوس: «إذا بقي الابن يواصل عمل أبيه المتوفى، ويصل ذكراه في الدنيا، على مدى آجال طويلة، فهو جدير بلقب الابن البار المخلص.»[١]

(٤–٢١) قال كونفوشيوس: «لا ينبغي للأبناء أن يغفلوا عن عدد سني حياة والديهم، فهو أمر يشيع السعادة مثلما يجلب القلق معًا، فهو خير إذا كانت الصحة تاجًا والعافية تُزين الجبين، وقلق إذا ما رذل العمر وأزفت الشيخوخة.»

(٤–٢٢) قال كونفوشيوس: «لم تكن عادة القدماء أن يقطعوا على أنفسهم العهود بسهولة؛ إذ المحك ليس في تقديم الوعود، وإنَّما في الوفاء بها.»

(٤–٢٣) قال كونفوشيوس: «من النادر جدًّا أن يكون الإفراط في الحرص أو المغالاة في الحذر سببًا للوقوع في الخطأ.»

[١] هذه العبارة، في حقيقتها تكرار للعبارة رقم أحد عشر (الواردة في الباب الأول «شيواز»).

(٤–٢٤) قال كونفوشيوس: «العاقل مَن زاد فعله عن قوله، والذكي مَن تعجل الفعل، وتمهل القول.»

(٤–٢٥) قال كونفوشيوس: «ما كانت العزلة قط من مكارم الأخلاق؛ بل الفاضل من اتخذ الصاحب والصديق.»

(٤–٢٦) قال زايو: «التكلف في خدمة الأمراء مجلبة للهوان، والتصنع في معاملة الأصدقاء حماقة لا تجلب إلَّا الخسران.»

الباب الخامس

كونغ إيشانغ

وجملته ثمانية وعشرون فصلًا

(٥–١) ما برح كونفوشيوس يُذكِّر تلاميذه بالخير، حتى قال ذات مرة عن كونغ إيشانغ:[١] «هو رجل حسنت صفاته، حتى أنِّي آمن على ابنتي زوجة له.» ذُكِرَ له أنَّ كونغ إيشانغ هذا، كان نزيل سجون، فأجاب: «فلا بد أنَّه قدرٌ حلَّ به فلم يملك له دفعًا.» ثم إنَّه عقد له على ابنته فعلًا.

(٥–٢) تحدَّث كونفوشيوس عن تلميذه «نان رونغ»، فقال: «هو رجل ذو همة في وقت الجد، وذو هيبة والناس لئام.» ثم إنَّه عقد له على ابنة أخيه الأكبر وزوَّجه بها.

(٥–٣) تحدَّث كونفوشيوس ممتدحًا أخلاق تلميذه زيجيان،[٢] فقال: «هو رجل اجتمعت فيه الفضائل: الخلق، والكياسة، فعجبًا لمن سبَّ أهل مملكة «لوقو» وذمَّ أخلاقهم، فما استقام الخير إلَّا في أهله.»

(٥–٤) جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله: قد قلت رأيك في كل واحد من تلاميذك، فكيف تراني؟ فأجابه: «إن كان يوصف الرجل بأنَّه حكيم عاقل، فأنت بذاتك الحكمة.»

---

[١] كونغ إيشانغ: أحد تلاميذ كونفوشيوس، لقبه زيشانغ، وهو من مواطني دولة «لوقو» القديمة، كان يمت بصلة مصاهرة للفيلسوف، فهو زوج ابنته، وقد زعمت كتب التاريخ أنَّه كان غزير العلوم، حتى إنَّه أجاد لغة الطير.

[٢] زيجيان (٥٢١ق.م.–؟) اسمه الأصلي بوتشي، من مواطني دولة «لوقو» القديمة.

فسأله: وكيف ذاك يا سيدي؟ فقال: «قد نظرت فما رأيت أحدًا أكثر درايةً منك بأمور الحكم في طول البلاد وعرضها.»

(٥–٥) جاء أحدهم إلى كونفوشيوس، وقال له: أرى أنَّ تلميذك «ران يونغ»، برغم تواضع أخلاقه وأدبه الرفيع؛ لكنَّه يفتقد دقة المنطق وطلاقة اللسان. فأجابه: «ليست لباقة اللسان ميزة في كل الأحوال، فكثيرًا ما يكون ذلك سببًا في استجلاب كراهية الناس ومقتهم، ولا أدري إن كان «ران يونغ» مهذب الخلق أم لا، لكن فصاحة البيان هنا لا تستأهل أيَّة قيمة.»

(٥–٦) أسند كونفوشيوس إلى تلميذه شيدياوكاي[٣] إحدى الوظائف الرسمية الرفيعة، اعتذر الرجل عن قبول ذلك قائلًا: «لست أجد نفسي مؤهلًا لمثل هذا المنصب». وبرغم ما في الرد من جفاء الرفض، إلَّا أنَّ المُعلم تهلل فرحًا بما احتواه المعنى النبيل من صراحةٍ وصدقٍ مع النفس.

(٥–٧) قال كونفوشيوس: «لو لم يُكتب لأفكاري الصمود، لركبت قاربًا خشبيًّا، وُجُبْتُ البحار والأرض، ولن أجد مَن يتبعني حينئذٍ سوى السيد «كونغ يو».» ثم إنَّ هذا الأخير تهلل حماسةً وفرحًا، فقال له كونفوشيوس: «على رِسْلك يا رجل، إنَّ شجاعتك تُغريك، وحماستك للمغامرة وركوب الأهوال تتجاوز حماستي أضعافًا، فهل تمهلت، فإنَّها ليست مما يستسيغه العقل الراجح.»

(٥–٨) جاء «منغ أوبو»[٤] إلى كونفوشيوس، وسأله عن أخلاق الرجل المُسمى «زيلو». فأجابه قائلًا: «لا أعرف عن ذلك شيئًا.» فأعاد السائل سؤاله. فأجابه: «إنَّ الرجل الذي سألت عنه يملك القدرة على أن يُصبح قائدَ فرقةٍ عسكرية قوامها ألف عربةٍ مقاتلة هائلة العدد والمئونة. أمَّا أخلاقه فلا عِلم لي بها.» فسأله منغ أوبو ثانيةً: فما رأيك إذن في السيد «رانشيو»؟[٥] فأجابه كونفوشيوس: «هو يستطيع أن يصبح حاكم مدينة تقطنها آلاف الأُسر، أو إقطاعية كثيرة الثروة والنماء، أمَّا سلوكه الشخصي، فلا علم لي به.» ثم سأله

[٣] شيدياوكاي: (٥٤٠ق.م.–؟) اسمه الأصلي تسيكاي، من مواطني «لوقو»، اشتهر بأدبه الجم وأخلاقه الفاضلة.

[٤] منغ أوبو: أحد أمراء مملكة «لوقو»، اسمه الأصلي جونسون تشي.

[٥] رانشيو (٥٢٢–٤٨٩ق.م.) اسمه الأصلي «زايو»، عمل لفترة وزيرًا في مملكة «لوقو» القديمة.

ثانيةً: فما رأيك إذن في كونغشي تشي؟[٦] فأجابه: «إنَّه لا يحتاج إلَّا إلى زِي أحد رجال البلاط من المختصين بالشئون الخارجية فيستقبل الضيوف والبعثات الأجنبية؛ إذ إنَّ لدية الموهبة والمقدرة معًا في هذا المجال. أمَّا أخلاقه وفضائله، فلا أدري عنها شيئًا، ولا أُبالي.»

(٥–٩) أقبل كونفوشيوس على تسيكون، فسأله: «أيكما الأحسن، أنت أم «يان هوي»؟[٧]» فأجابه: وكيف لمثلي أن يبلغ مثل هذه الدرجة؟ أما علمت أنَّ «يان هوي» رجلٌ ذكي العقل، متوقِّد الذهن، يبلغ مقصدك قبل أن تنتهي من كلامك! أمَّا دوانموسي ... الذي هو شخصي المتواضع البسيط، فهيهات أن يبلغ هذا. فقال له المُعلم: «الصدق ما قلت، حقًّا، شتَّان ما بينكما.»

(٥–١٠) كان «زايو» أفصح تلاميذ كونفوشيوس، تأخذه سِنَةٌ من النعاس أثناء دروس النهار، وهو المفوه البارع الذي اشتهر بدعوته إلى الجد والتحصيل، فلاحظ المُعلم ذلك، وقال: «إنَّ الأخشاب العفنة لا تصلح للنحت والزينة، مثلما أنَّ نفايات الرمل والحصى لا تُقيم جدارًا صلبًا متماسكًا، ولطالما نصحت لـ «زايو» وعنفته كثيرًا فما ارعوى.» ثم أضاف قائلًا: «كنت فيما مضى يُعجبني قول المرء، فأظن أنَّ عمله مطواع للسانه، أمَّا الآن فلا آخذ من القول إلَّا ما صدَّقه العمل، فبسبب «زايو» بدلت مواقفي وأفكاري.»

(٥–١١) قال كونفوشيوس: «ما صادفت في حياتي قط امرأً قوي الإرادة نافذ العزيمة.» فألمح له بعض الحاضرين أنَّ تلميذه «شن جان» يستحق أن يوصف بالشجاعة[٨] لشدة شكيمته، فأجابهم المُعلم قائلًا: «بل إنَّ شن جان هذا يتبع هوى نفسه، وتسيطر عليه أنانيته، فكيف لرجل هذه صفته أن يتحلى بالعزم والإرادة.»

(٥–١٢) قال تسيكون: ما أحببت قط أن ينالني أحد بشيء أكرهه، كما قد عاهدت نفسي ألَّا أنال أحدًا بسوء. فقال له كونفوشيوس: «أي ... دوانموسي، وإنَّه لأمر يعجزك، فما أراك قادرًا على ما انتويت.»

---

[٦] كونغشي تشي: اسمه الأصلي «زيهوا» من مواطني مملكة «لوقو» القديمة، اشتهر بإجادته شئون المراسيم والطقوس.

[٧] يان هوي: (٥٢١–٤٩٠ق.م.) اسمه الأصلي «زيهوي»، من مواطني «لوقو»، اشتهر بغزارة علمه وحسن أخلاقه، فلمَّا مات، فُجع كونفوشيوس بوفاته، وحزن عليه حزنًا شديدًا.

[٨] شن جان: اسمه الأصلي «زيجو»، لم يرد عنه الشيء الكثير في كتب التراث القديم.

(٥–١٣) قال تسيكون: «لقد حدثتَنا أيها المُعلم، عن الأدب القديم، فأفضت وبيَّنت، لكنَّك لم تُفسر لنا طبيعة البشر والوجود.»

(٥–١٤) كان أحد رجال كونفوشيوس إذا تعلَّم شيئًا، وعجز عن تطبيقه، أخذ نفسه بالشدة، فما أقدم على درس جديد إلَّا إذا فقه ووعى ما قبله.

(٥–١٥) أقبل تسيكون على كونفوشيوس وسأله: لأي سبب مُنح السيد كون ونزي لقبًا فخريًّا بعد وفاته؟ فأجابه: «كان الرجل ذكيًّا نابهًا محبًّا للعلم، وزاده التواضع رفعةً، فما استنكف أن يستوضح أمرًا ممن هم دونه؛ فما أراه جديرًا إلَّا بما نال.»

(٥–١٦) تحدث كونفوشيوس عن تلميذه «زينشان»[٩] فقال: «به أربع خصال تؤهله للسؤدد والشرف: التواضع الجم، والتفاني والاحترام في سلوكه مع رؤسائه، والإخلاص والعطف في معاملاته مع مرءوسيه، والعدالة والنزاهة في تصريف شئون عامة الناس.»

(٥–١٧) قال كونفوشيوس: «لم أرَ قط في حياتي رجلًا يجيد حفظ الصديق مثل «يان بين جونغ»؛[١٠] لا تبدله الأيام، ولا الزمان ينال من كنز وفائه.»

(٥–١٨) قال كونفوشيوس: «بلغني أنَّ الوزير «سان أونجون»[١١] قد اقتنى في بيته سلحفاة نادرة، فخصَّص لها غرفةً كبيرةً، وأحاطها بما يُشبه السياج الطبيعي، مزينًا بأشكال الورود والنباتات وصنوفه مزخرفة على هيئة مناظر التلال والوديان … وإنِّي لأتساءل: إن لم يكن ذلك البذخ هو الحمق والغباء بعينه، فماذا عساه يكون؟»

(٥–١٩) جاء «زيجانغ» إلى كونفوشيوس، وسأله: لئن كان الوزير «زوين» في عهد دولة «تشو» قد تقلَّد عدة مناصب قيادية، إلَّا أنَّه لم يتهلل فرحًا بذلك، فلمَّا أُقيل من وظيفته ثلاث مرات، لم يحزن، بل كان يحرص على تسليم مهام عمله بنفسه إلى خَلَفه الجديد، فما قولك في رجل كهذا يا سيدي؟ فأجابه المُعلم: «هو رجل مخلص لعمله ووطنه.» فقال زيجانغ: هل يُمكن اعتبار ذلك من علامات التسامح وكرم الأخلاق؟ فأجابه: «لا أعرف، ولكن كيف يُمكن اعتبار تلك الخصال تسامحًا؟» ثم سأله السائل

[٩] زينشان: (؟–٥٢٢ق.م.)، هذا هو اسمه الأصلي، ويُدعى أيضًا كونون شياو، تولى أحد المناصب الرسمية في بلاط مملكة «تشيغو».

[١٠] يان بين جونغ: (؟–٥٠٠ق.م.)، اسمه الأصلي «يانينغ»، تولى منصبًا رفيعًا في مملكة «تشيغو».

[١١] سان أونجون: (؟–٦١٧ق.م.)، اسمه الأصلي أونجون، تولى منصبًا وزاريًّا في حكومة مملكة «لوقو».

ثانية: لَمَّا اعتدى «تسوي جو» على النبيل «تشي جوانغ» وقتله، فإنَّ المدعو «شن أون» — أحد أشهر الأثرياء — ترك أمواله وخيوله المسرجة، وغادر بلاده، فلمَّا انتهى به الترحال إلى إحدى البقاع نظر وقال: إنَّ الناس هنا جميعًا على شاكلة القاتل «تسوي جو». قال: والسادة هنا أيضًا إخوة القاتل «تسوي جو». فقام وخرج يضرب في القفار البعيدة، فما رأيك في هذا الرجل يا سيدي؟ فأجابه كونفوشيوس: «رجل شريف، نقي الضمير.» فقال زيجانغ: أيُمكن اعتباره رمزًا للخُلق الكريم والإنسانية؟ فأجابه: «لا أدري، ولكن أين ذلك من معنى الإنسانية؟!»

(٥–٢٠) كان جيونزي (وزير في دولة «لوكو») يتردَّد كثيرًا عند اتخاذ قراراته، ويتفكر مليًّا حتى تشتد عليه الحيرة، فلمَّا بلغ ذلك كونفوشيوس، نصح له قائلًا: «يكفيك أن تُراجع أي قرار مرتين اثنتين فقط.»

(٥–٢١) قال كونفوشيوس: «عجبًا للسيد نينغ أوتسي؛[١٢] فهو حكيم الزمان إذا هدأت الأحوال وانتشر السلام، فإذا اضطربت البلاد والممالك، ادَّعى الحمق والجهالة «فيثور» ليحمي، ويتهور ليدافع عن بلاده، وإنَّ حكمته لقريبة، وذكاءه مثال يُحتذى، أمَّا مقدرته على ادعاء الحماقة والجنون، فتلك ما لا سبيل لأحدٍ بفهمها وإدراك أغوارها.»

(٥–٢٢) كان كونفوشيوس قد طال به المقام في دولة «تشن»، وقد مرَّ عليه زمانٌ بلا طائل، فتنهد حسرةً، وقال: «ما عاد لي أن أبقى ها هنا، فالعودة العودة؛ فقد تركت في موطني «لوكو» أنبغ الطلاب، وأحرصهم على بلوغ ذروة المجد، وفي مَلَكتهم الأدبية سعة من علمٍ، وفيض من همةٍ، فويل لي إن تقاعست عن تمهيد الطريق وهداية السالك.»

(٥–٢٣) قال كونفوشيوس: «لقد تمكَّن كل من «بويي» «وشوتسي»[١٣] من التسامح وتطهير القلب من الضغائن، فلأجل ذلك احتميا من غليل الصدور إلَّا قليلًا.»

---

[١٢] نينغ أوتسي: اسمه الأصلي «نينغ يو»، مسئول عظيم بدولة «ويغو».

[١٣] بويي، وشوتسي: كانا شقيقين، أبوهما هو الأمير كوجو، أدرك أواخر سنوات حكم أسرة «شانغ»، وقد نصَّب الولد الأكبر «شوتسي» خلفًا له، فلمَّا قضى أجله، وافق شوتسي أن يتنازل لأخيه الأصغر عن العرش، ولكن هذا الأخير رفض بشدة، ثم إنَّهما، ذهبا فيما بعد ليحتميا بقصر «آل جو»، وقد اتخذا موقفًا معارضًا إزاء الحملات التأديبية التي كان يشنها صاحب القصر … الملك «جو» ضد أسرة «شانغ»، فلمَّا قضى الملك على دابر تلك الأسرة، وهرب الشقيقان إلى كهف بجبل «شويان»، حيث امتنعا عن الأكل احتجاجًا … وفضلا الموت جوعًا على أن يقربا الطعام الذي كان يأتيهما من القصر الملكي.

(٥–٢٤) قال كونفوشيوس: «مَن ذا الذي زعم بأنَّ السيد ويشنكاو[١٤] صدوق صريح، فقد جاءه يومًا مَن سأله أن يقرضه زيت الطعام، ولم يكن عنده شيء، فاستكبر أن يُعرف عنه الإملاق، فاقترض من جاره، وأعطى السائل ما سأل.»

(٥–٢٥) قال كونفوشيوس: «ثلاث خصالٍ كان يذمها الماجد الفاضل تسوشومينغ (أحد رجال البلاط في مملكة «لوقو»، كان معاصرًا لكونفوشيوس)، وكذلك أذمها أنا، وأستصغر مَن اتسمت بها أخلاقه: قول ظاهره معسول وباطنه سمٌّ ناقع، ووجه زائف يقطر بشاشة ويُخفي ضغائن، وتبجيل مسرف يوحي باحترام صادق، وتحوشه دواهي الفتن والكراهية، وما ذمَّ «تسوشومينغ» أحدًا كمَن تقنَّع بالود وطيب المعشر؛ بينما سريرته مترعة بالحقد وسوء الظن، فبئست الخصلة ومَن تحلى بها.»

(٥–٢٦) اجتمع كل من يان يوان وزيلو في حضور كونفوشيوس، فقال لهم: «ألَا يخبرني كل منكما بتطلعاته وأهدافه في الحياة؟» فقال «زيلو»: قد آليت على نفسي أن أقتسم كل ممتلكاتي مع أصدقائي، وأن أتطهر من الأنانية، فلهم مثل ما لي من المركبات المطهمة والخيل المسرجة، ينعمون بحقها كاملًا ما أصلحوها، فإن أفسدوها، ما تبرمت ولا اشتكيت. قال «يان يوان»: أمَّا أنا فقد عاهدت نفسي ألَّا أتعالى بفضلٍ أو أتباهي بمكرمةٍ. ثم إنَّ زيلو دار بالسؤال على السائل، إذ قال لكونفوشيوس: فهلَّا أبلغتنا أنت يا سيدي بفلسفتك في الحياة؟ فأجابه: «غايتي دائمًا أن يجد الكبير ملاذ حياة آمنة، وأن يتواصى الصديق بصديقه ودًّا وثقةً، وأن نُحيط صغارنا بكل رعاية واهتمام.»

(٥–٢٧) قال كونفوشيوس: «وا أسفاه، ما صادفت في حياتي قط مَن اعترف بنقائصه أو أقرَّ بأخطائه أملًا في مراجعة النفس والضمير.»

(٥–٢٨) قال كونفوشيوس: «لست قديسًا ولا نابغة زمان، وإنَّما أنا واحد من آلافٍ مؤلفة لا يخلو منهم موضع على وجه الأرض، حتى لو كانت قرية نائية يسكنها رهطٌ من الناس، فلا بد أنَّك ملتقٍ فيها بكونفوشيوس آخر، لا فرق بيني وبينه، سوى أنَّي ما زلت حريصًا على تحصيل العلم والدراسة.»

[١٤] ويشنكاو: رجل اشتهر بالكرم، دون وجه حق يوجب ذلك.

الباب السادس

يونغي

وجملته ثلاثون فصلًا

(٦–١) قال كونفوشيوس: «إنَّ ما علمته من سجايا النبيل الشريف رانيونغ[1] يحملني على أن أرشِّحه ليرتقي أرفع منصبٍ رسمي بجدارة.»

(٦–٢) جاء رانيونغ إلى كونفوشيوس، وسأله رأيه في زيسانغ بوتسي. فأجابه: «لا بأس به، فهو رجل بسيط ومتواضع.» فقال جونكون: إذا اتصف الرجل بثبات الفكر وقوة العزم، مع ميل واضح في سلوكه إلى التبسيط والاعتدال، فهذا ما يشهد له بالكفاءة ليتولى مقاليد الحكم. أمَّا التبسيط والتواضع بغير حزم ووعي وجدية فلا يشفعان بجدارة القيام على شئون الناس والتزام حد المسئولية. فقال كونفوشيوس: «الحق ما قاله رانيونغ.»

(٦–٣) جاء النبيل إيكونغ من دولة «لوقو»، وسأل كونفوشيوس: مَن أكثر تلاميذك حبًّا للعلم؟ فأجابه: «إنَّه الذكي النابغ «يان هوي»، ولقد جمع في شخصه بين الاجتهاد في التحصيل والتحلِّي بمكارم الأخلاق، فحاز العلم والفضائل في جديةِ دارسٍ ونبالةِ فارسٍ، فما ارتفع صوته حانقًا في وجه أحد، ولا وقع في خطأ واحد مرتين؛ لكنَّ الموت عاجله وهو بعدُ في الثلاثين، فما عدت أجد له الآن نظيرًا.»

---

[1] رانيونغ: (٥٢٢ق.م.–؟) اسمه الأصلي «جونكون»، من مواطني دولة «لوقو»، من أسرة اشتهرت بالتواضع الجم.

(٦–٤) كان كونفوشيوس قد أرسل «كون شيهوا»[٢] إلى مملكة «تشيغو» في إحدى المهام الرسمية الطارئة، وراح «رانيو» إلى كونفوشيوس راجيًا إياه أن يرسل شيئًا من الغلال والدقيق إلى بيت «كون شيهوا»، حيث تقيم والدته، فقال له: «أعطها إذن، أربعًا وستين كيلةً من القمح.» فطلب إليه «رانيو» أن يزيد قليلًا، فسمح له المُعلم أن يُضيف أربعًا وعشرين كيلةً أخرى. ثم إنَّ «رانيو» تصرف من تلقاء نفسه وأعطى ثماني آلاف كيلةً، فلمَّا بلغ ذلك كونفوشيوس، قال: «لَمَّا كان كون شيهوا في طريقه إلى مملكة «تشيغو»، فقد كانت ركائبه، تشمل: جيادًا مسرجةً وعرباتٍ مطهَّمةً، بينما كان يرفل في ديباج ورغد عيش، وقد قيل فيما مضى بأنَّ الماجد الكريم، هو مَن أعان المعسر ذا الحاجة، وليس مَن أتخم معدة الأغنياء.»

(٦–٥) كان كونفوشيوس قد تقلَّد منصبًا رسميًّا في إحدى المقاطعات الحكومية فأصدر أمرًا بتعيين تلميذه يوانس[٣] حاكمًا عامًّا، وأمدَّه بتسعمائة كيلة من الحبوب والغلال، فاعتذر عن قبولها، فقال له كونفوشيوس: «عندما تقضي اللوائح الرسمية بإمداد نقدي أو غذائي فليس من الأوفق إلغاؤه أو التنازل عنه كليَّة، وإنَّما من الأصوب قبوله أو التبرع به إلى مَن هم في أمسِّ الحاجة إليه.»

(٦–٦) قال كونفوشيوس لتلميذه «جونكون»: «هل تأملت صغار الغزلان، بقرونها الصغيرة المشرعة، وجلدها الطري الأملس ... ترى لو أعفيناها من مذبح القربان، فهل تعفيها الآلهة من قدر الموت هلاكًا!»

(٦–٧) قال كونفوشيوس: «كنت أراقب تلاميذي عن كثب، فلم أجد سوى «يان هوي» أكثر التزامًا ووفاءً للمبادئ الإنسانية، فهكذا رأيت مصير المبادئ بين الناس: قلة مثابرة يطويها الزمن، وكثرة لاهية ما زالت تزداد أبدًا.»

(٦–٨) جاء جيكانزي إلى كونفوشيوس، وسأله: هل ترى أنَّ السيد «جونيو» يصلح للاضطلاع بمهام رسمية؟ فأجابه المُعلم: «لا بأس به أبدًا، فهو الحازم السديد.» ثم سأله

[٢] كون شيهوا: اسمه الأصلي «زيهوا» من مواطني «لوقو»، اشتهر بإجادته لقواعد الأخلاق، ومعرفته التامة بشئون المراسم وأصول المعاملات الاجتماعية.

[٣] يوانس: (٥١٥ق.م.–؟) يُدعى أيضًا يوان شيان، اعتزل المجتمع بعد وفاة كونفوشيوس، وظلَّ بقية حياته معتكفًا وحده في بيته.

ثانيةً: وهل يصلح لها السيد «دوانموسي»؟ فأجابه: «أجل، وإنَّه لأفضل مَن يضطلع بها؛ فما رأيت أحدًا في مثل كياسته وفطنته.» فسأله ثالثة: وما رأيك في السيد «رانشيو»؟ أتراه يصلح للقيام على شئون الحكم وأعباء المسئوليات الجِسام؟ فأجابه: «قد عرفته واسع الحيلة، سريع البديهة، حسن التصرف، وإنَّها لمزيةٌ تفضل كل المزايا، ورجل هذا شأنه، يصير هو الأنسب والأقدر.»

(٦–٩) أرسل شيخ عائلة «جيشي» إلى السيد مينزيشيان[٤] يرجوه أن يُرشح نفسه محافظًا لإقليم «فيدي»، فقال زيشيان للرسول الذي جاءه بفحوى هذا الأمر: «أبلغ سيدك اعتذاري، وقل له، عن لساني، قولًا كريمًا، فإن أعادك إليَّ ثانيةً بالرسالة نفسها، فسأقوم إلى هذا البحر أمامك — يقصد نهر ونشيو — أمتطيه وأعبر إلى الشاطئ الآخر، وأمكث هناك، فلا أهبط أرضكم أبدًا.»

(٦–١٠) لزم «بونيو»[٥] الفراش مريضًا، وساءت حالته كثيرًا، حتى أشرف على الموت، فعاده كونفوشيوس، فلمَّا رآه، مدَّ إليه يده من خلال النافذة، فشدَّ على يديه وهو يتمتم قائلًا: «لا أرى إلَّا أنَّ الموت سابق، والحياة تزول، وإنَّما هي آجالٌ مقدرة في كف السماء، فلا تنزل المحن إلَّا بالأخيار، ولا تفتك المنايا إلَّا بأحسن الرجال.»

(٦–١١) قال كونفوشيوس: «ما رأيت أحدًا قط في مثل كرم أخلاق «يان هوي»: بسيط العيس، قانع بلا ضجر، تكفيه كسرة خبز وشربة ماء، ولا يستنكف أن يأوي إلى كوخ خشبي متواضع، يُطيق من الحياة ما لا يُطيقه الناس، فلذلك استحقَّ منهل نعيم لا ينضب، ولذة سعادة غامرة، لا تفيض على أحد غيره من الناس.»

(٦–١٢) جاء «رانشيو» إلى كونفوشيوس وقال له: لقد قرَّرت أن أتراجع يا سيدي، ولا يعني هذا أني أرغب عن حكمتك وأفكارك، وإنَّما تقصر همَّتي وتفتر قوتي عن أن أواصل قدمًا على الطريق. فقال له كونفوشيوس: «خذلك بيانك يا رجل، وأردت غير ما قلت، فالعاجزون حقًّا، هم الذي يتوقفون عند منتصف الطريق، إذ يعسر عليهم المسير، أمَّا أنت فلم تضع قدمك على الطريق بعد … فلا حكم بغير معيار، ولا تقدير إلَّا بتجربة.»

[٤] مينزيشيان: (٥٣٦–٤٨٧ق.م.)، اسمه الأصلي مينسون، لقبه زيشيان، أحد تلاميذ كونفوشيوس.

[٥] بونيو: (٥٤٤ق.م.–؟) اسمه الأصلي راكنغ، اشتهر بين تلاميذ كونفوشيوس بالأخلاق الكريمة والأدب الجم.

(٦–١٣) قال كونفوشيوس لـ «زيشيا»، وهو ينصح له: «اعلم أنَّ طالب العلم نوعان: واحد يسعى للهداية بشرف العقل وسمو الروح معًا أملًا في قبس من حقيقة، وواحد يسعى للتجمُّل بوقار زائف رياءً وتكلفًا، فاختر لنفسك أحسن طريق.»

(٦–١٤) حدث أن تقلَّد «زايو»، تلميذ كونفوشيوس، منصب الحاكم العام بولاية «أوتشنغ»، فسأله المُعلم قائلًا: «حدثني عن مرءوسيك، هل وجدت بينهم أحدًا ذا كفاءة؟» فأجابه: هناك واحد اسمه: دانتاي مينينغ،[٦] ما جربت عليه خيانةً قط، مستقيم الخلق، ليس بالماكر ولا بالمراوغ، لا يطرق بابي إلَّا لضرورة تُمليها واجبات الوظيفة الرسمية.[٧]

(٦–١٥) قال كونفوشيوس: «لم أعهد السيد «منغ جيفان» (مسئول عظيم في دولة «لوقو») مختالًا متكبرًا، يُباهي الناس بخصاله، وإنَّ ما فعله يوم انسحاب الجنود خير دليل على ذلك؛ إذ دارت الدائرة على الجيوش، فانهزمت وتقهقرت عائدةً، وظلَّ هو وسط الصفوف يحمي وينظِّم انسحابها، فلمَّا دخلت الأفواج بوابة المدينة، وبقي هو في المؤخرة، جعل يحث فرسه، ويقول للناس: «لا تظنوا بي الشجاعة أن كنت آخر العائدين، وإنَّما هو حصاني الهزيل، لا يقوى على السير»!»

(٦–١٦) قال كونفوشيوس: «أساس المرء جمال وبلاغة، أي أخلاق حسنة ولسان كريم، فإن رأيت أخا الفضائل، مثل الأمير جاو[٨] بأخلاقه الملكية الكريمة وصفاته المثلى، فقد أشبه الشيخ جوتو،[٩] بلسانه الحاد وقلبه الغليظ، فقد أوشكت السماء أن تنطبق على الأرض، وقُل على الدنيا السلام.»

---

[٦] دانتاي مينينغ: (٥١٢ق.م.–؟) من مواطني دولة «لوقو» — مقاطعة شانتونغ، بحسب التقسيم الإداري لجمهورية الصين الشعبية حاليًّا (١٩٩٨م) — وكان برغم قبح منظره، طيب الخلق، مهذب السلوك.

[٧] ورد في أحد فصول كتاب «سجلات تاريخية» رواية أخرى لتلك الحادثة، نصها: كان رجل يُقيم بولاية أوتشنغ، وكان دميم الوجه، بشع المنظر، ثم إنَّه قصد إلى كونفوشيوس، وصار واحدًا من تلاميذه، وكان المُعلم يزدريه، ولا يُحسن النية به، فلمَّا أتمَّ زمنًا على يد أستاذه تفقَّه في العلم، وعاد إلى بلده، واجتمعت له صفات حسنة للغاية، فصار يترقى في التحصيل والأخلاق، حتى قصدت إليه مواكب الطلاب تسأله وتستفتيه، فذاعت شهرته وشهد الناس له بمكارم الأخلاق، وبلغ كونفوشيوس شيء من هذه الأخبار، فقال: «إنَّها قد غلبت عليَّ جهالتي، فمن الخطأ أن يؤاخذ الناس بسيماهم.» وحسب سياق النص الأصلي المروي في متن «المحاورات» وباستقراء ما توحي به عبارة «زايو» هنا، فالمرجح أنَّ زمن الخطاب كان سابقًا على مرحلة إتمام «دانتاي» لدروسه، والعودة إلى موطنه.

[٨] جاو: أمير في مملكة «سونغ»، اشتُهر بمكارم الأخلاق.

[٩] جوتو: كان مسئولًا عن إقامة طقوس العبادة في قاعة المعبد الإمبراطوري إبان حكم دولة «ويغو».

(٦–١٧) قال كونفوشيوس: «كيف للناس يسيرون بغير سبيل هدى، كيف للسالك أن يهتدي بغير دليل وطريق!»

(٦–١٨) قال كونفوشيوس: «إذا طغت البساطة على التأنق، كانت السوقية الرعناء هي سيدة الموقف،[١٠] وإذا تجاوز التأنق حد البساطة، أصبحت السطحية الجوفاء هي العنصر المسيطر، فاعلم أنَّ العاقل مَن يتميز لنفسه الحد الأمثل والمنزلة الوسطى.»

(٦–١٩) قال كونفوشيوس: «بغير الشرف والاستقامة، لا يستطيع الماجد الكريم أن يشق طريق حياته قدمًا وصعودًا، فائزًا موفقًا، ولئن كان الأشقياء، هم أيضًا، يملكون أحيانًا القدرة على البقاء طويلًا، فذلك لا يحدث إلَّا بالحظ السعيد أو بمحض المصادفة!»

(٦–٢٠) قال كونفوشيوس: «ليس مَن فهم العلم كمَن أحبَّه، وليس مَن أحبَّه كمَن أسعده أن يهب حياته كلها لأجل تحصيله وتعليمه لبني البشر.»

(٦–٢١) قال كونفوشيوس: «لكل إنسانٍ طاقته الذهنية واستعداده الأول، لذلك لا يقدر على فهم منطق العلوم الفائقة، وسبرٍ أغوارها العميقة إلَّا عبقري موهوب، فإذا أعطيت أسرار علومك لغير النابهين فقد زرعت بغير جني.»[١١]

---

[١٠] فكرة «السوقية» هنا تحتمل مداخل فكرية وسياقات تأويلٍ متعددة، خاصة عندما يتعلق الطرح هنا بظلال تكتنف — في قليل أو كثير — مجهود الإبداع الأدبي/أو النقدي، ولا بد أنَّ القارئ — ببداهة — سيُعيد مقولات كونفوشيوس إلى منطق زمانها وارتباطاتها بظروف التراتب الطبقي الاجتماعي السائد في زمانها. ولا يخفى على القارئ الكريم أنَّ هذه النصوص وغيرها من عيون التراث الصيني القديم، تعرَّضت — وربما ما تزال — لتقييم نقدي تجاوز حد التطرف أحيانًا، على مدى سنوات شهدت أيديولوجيات استهدفت تأسيسات اجتماعية شاملة وجديدة، بطرح بديل فكري أكثر انطلاقًا وتطورًا.

[١١] القاعدة الأساسية في الفكر التربوي الكونفوشي، هي أن يكون التعليم بحسب الاستعداد الذهني الطبيعي للدارسين، وكان المعيار الأساسي في التقسيم يعتمد على ثلاث درجات أصلية، هي: «النابغون، فالمتوسطون، فالمتخلفون»، وفي أحد التأويلات ورد معيار آخر يعتمد الاستعداد الفطري لدى الدارسين، ينقسم إلى تسع درجات، كالتالي:

أول الأول – متوسط – آخر الأول.
أول الأوسط – متوسط الأوسط – آخر الأوسط.
أخير متقدم – متوسط الأخير – آخر الأخير.

وأول الأول هو العبقري، الأشد ذكاءً بالفطرة، وآخر الأخير هو النقيض لذلك، وعلى أساس هذا التقسيم يصير من الممكن تدريس العلوم المركبة شديدة التعقيد للأنواع الأربعة قبل «متوسط الأوسط».

(٦–٢٢) جاء فانش[١٢] إلى كونفوشيوس وسأله: كيف لمن أراد القيام على شئون الناس أن يبلغ الحكمة؟ فأجابه: «عليه أن يُلزم نفسه والناس طريق العدالة والأخلاق، وأن يحترم العقائد بإجلال يتناسب مع وقارها، دون شططٍ إلحادي أو إيغالٍ متزمت.» ثم سألته ثانية: وكيف السبيل إلى مكارم الأخلاق؟ فقال له: «بأداء ما عليك قبل أن تطلب ما هو لك، وبأن تبذل تمام جهد العمل، قبل أن تسعى إلى لذيذ ترف الراحة.»

(٦–٢٣) قال كونفوشيوس: «الأذكياء يحبون الأنهار، لكن الطيبين يحبون الجبال. الأذكياء يتدفقون نشاطًا وحيوية، أمَّا الطيبون فيميلون إلى الدعة والهدوء. والأذكياء مرحون دائمًا، ويتمتعون بكل لحظة في عمرهم الذي ينقضي سريعًا، بينما الطيبون غالبًا ما يعمرون طويلًا.»

(٦–٢٤) قال كونفوشيوس: «تحتاج مملكة «تشي» أن تعدل من مجمل قواعد سياستها العامة، لكي تتمكَّن من اللحاق بمملكة «لوكو» — في ظروفها القائمة حينئذ — بينما تحتاج مملكة «لوكو» (للمفارقة)! أن تُغيِّر كل أسس فلسفتها الحاكمة لتبلغ المبدأ الأول الصحيح لمعنى الشرف والنزاهة.»

(٦–٢٥) تنهَّد كونفوشيوس متحسرًا، وقال: «لقد تغيَّرت كثيرًا طقوس وشعائر؛ طالت البدع أركان المعابد مثلما انتهكت جدران اللهو والترف، وفرغت كئوس الراح مثلما انطفأت شموع التراتيل من أزمان غابرة، فوا أسفا على مَن يضيعون تراث مجد مؤثل أو تهون عليهم تقاليد ماضٍ عريق.»

(٦–٢٦) جاء زايو إلى كونفوشيوس، وسأله: ما صفات الرجل الشريف الطيب؟ أترى هو الرجل الذي إذا قلت له إنَّ واحدًا من الناس سقط في البئر، شمَّر عن أكمامه ونزل لينقذه في الحال؟ فردَّ عليه المُعلم، قائلًا: «وما الذي يحمله على هذا التصرف؟! إنَّ الطيب ذا المروءة سيُفكر معك في طريقة ناجحة لإنقاذ المكروب، دون أن يُلقي بنفسه في التهلكة، فربما تستطيع الكذب على الطيبين، لكنَّك لا تقدر أبدًا أن تجعل منهم أضحوكةً.»

(٦–٢٧) قال كونفوشيوس: «مَن تعمَّق في مطالعة سجلات التاريخ، ونهل من معينٍ أدبي عريق، ثم تحصَّن بمبادئ الخُلق القويم، فقد عصم نفسه من الانحراف عن جادة الصواب والعدل والإنسانية.»

[١٢] فانش: «٥١٥ق.م.–؟» أحد تلاميذ كونفوشيوس، اسمه الأصلي زيشي، من مواطني دولة «تشيغو».

(٦–٢٨) ذهب كونفوشيوس في زيارة شخصية إلى السيدة نانزي[١٣] فاعترض تلميذه «زيلو» على القيام بهذه الزيارة، وساورته الظنون، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فأقسم على مسمع ومرأى من الناس، قائلًا: «ليس لمثلي أن يرتكب حماقةً أبدًا، ولتسحقني السماء لو فعلت، وعين السماء ترى وتشهد مكنون الخفاء.»

(٦–٢٩) قال كونفوشيوس: «إنَّ الاعتدال هو تاج الفضائل، والتوسط هو خير الأمور جميعها، وقد مرَّ على الناس زمانٌ وهم في غفلة عن تلك الحقيقة.»

(٦–٣٠) جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله: ماذا لو عرفت أنَّ رجلًا بذل كل ما يملك لأجل إسعاد الناس، والعمل على راحتهم، أتراه جديرًا بأن يوصف بالكرم والمروءة؟ فأجابه المُعلم مستدركًا: «بل بما يفوق الكرم والمروءة، فإنَّما هو قديس، أو ملاك طاهر، لا يدانيه في ذلك الشيخان: «ياو» و«شون»[١٤] بما عُرِفَ عنهما من مروءة وحكمة، فالكريم تتسع همته للجميع، ويغمر بفضله آلافًا مؤلفةً، ويُعامل الناس بما يُحب أن يعاملوه به، فتلك هي خصال الكرم، وعلامات المروءة.»

[١٣] نانزي: هي السيدة «لي»، إحدى أميرات أسرة سونغ الملكية، تزوَّجت من الدوق «لينغ» أمير مقاطعة «واي»، وقد اشتهرت السيدة نانزي بشبقها الجنسي الزائد، وعلاقاتها المشينة وفضائحها مع رجال القصر.

[١٤] «ياو»، «شون»، «يوي»: ثلاثة أباطرة في الصين القديمة، اشتهروا بالحكمة. وتروي سجلات التاريخ أنَّ الإمبراطور «ياو» قضى ثلاث سنوات وهو يراقب الأمير «شون» ويفحص أحواله، قبل أن يختاره خلفًا له، وفعل «شون» الشيء نفسه مع خلفه «يوي»، وظلَّت تلك القاعدة تُتوارث باعتبارها تقليدًا أساسيًا في ترشيح وتنصيب الأباطرة لخلفائهم على العرش، وهو التقليد الذي ذاع فيما بعد، تحت اسم: «مراسم تسليم التاج».

الباب السابع

شوآريوتزو

وجملته ثمانية وثلاثون فصلًا

(٧–١) قال كونفوشيوس: «لأن يعرفني الناس ناقلًا ومفسرًا لكتب التراث القديم، أفضل عندي من أن يعدُّوني مؤلفًا أو مبدعًا فوضويًّا، ولقد كان شغفي وإخلاصي للثقافة القديمة، هو الذي يُعطيني الحق في أن أضع نفسي في مرتبة موازية لكل مَن لاوتسي[١] و«بنغ زو».»[٢]

(٧–٢) قال كونفوشيوس: «لطالما كنت أُسائل نفسي حول ثلاثة أمور أساسية في حياتي؛ أولها: هل استطعت أن أغلق في سريرتي كل خزائن الأسرار بكل ما وعت مما رأيت وسمعت من حولي. وثانيها: هل أفلحت في أن أبقى طوال الوقت طالبًا للعلم مجتهدًا في التحصيل إلى ما لا نهاية. وثالثها: هل نجحت في أن أقف طويلًا إلى منصة المُعلم أشرح وأُفسر وأُدرِّس على مدى سنين بلا كللٍ؟!»

(٧–٣) قال كونفوشيوس: «أربعة أمور كانت تستحوذ على تفكيري وتؤرقني: أن يكون صدر عنِّي ما يخالف الخصال الكريمة من زلة لسان أو سوء تصرف، أو أن

[١] لاوتسي: مفكر صيني، عاش في نهاية فترة «الربيع والخريف» (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) وهو مؤسس «المدرسة الطاوية».

[٢] «بنغ زو»: شخصية خرافية.

أتوانى عن طلب العلم فأستثقل عبء تحصيله، وأن أتخاذل عن نصرة الحق وإنصاف وجه العدالة، أو أقصر عن مراجعة النفس ومواجهة أخطاء الذات بشجاعة النقد وإرادة التصحيح.»

(٧–٤) في أوقات الفراغ القليلة التي كان يقضيها كونفوشيوس في بيته، كان يحرص على سمت المظهر والاحتفاظ بملامح يعلوها شموخ ووقار ومسحة هدوء وثقة، لطالما كانت تكتسي بها ملامحه.

(٧–٥) قال كونفوشيوس: «عرفت أنَّ سنين عمري على الأرض قد طالت كثيرًا، وأنَّي صرت عجوزًا خرفًا عندما انقضت فترة طويلة دون أن أرى في منامي أستاذي جوكونغ.»[٣]

(٧–٦) قال كونفوشيوس: «اعلم أنَّ أحسن الطرق هو طريق الحق، وأنَّ أرسخ أساس هو ما بُني على مكارم الأخلاق، وأنَّ خير المبادئ جميعًا هو ما قام على التراحم والإنسانية، وأنَّ أفضل ما يُسلي به الرجل نفسه من لهو عفيف، أو يشغل به حسه من متعة راقية، هو أن يُمارس الفنون الستة الأصلية.» (يقصد: الموسيقى، الرماية، آداب المجاملات، الفروسية، الآداب القديمة، «علم» الحساب).

(٧–٧) قال كونفوشيوس: «لم أستنكف في حياتي قط أن أَقبَل طالب علم قصدني، ما دام قد بلغ سن الرشد، وعقد فوق رأسه ضفيرة البلوغ.»[٤]

(٧–٨) قال كونفوشيوس: «من عاداتي ألَّا أُلقي دروس العلم إلَّا على طالب يشتاق للمعرفة، ولا أشرح أو أفسر معضلة من المسائل إلَّا على طالب أُجهد عقلُه وذهنُه بحثًا عن إجابات قاطعة، وإنَّ الطالب الذي يعجز عن أن يستدل بنفسه على ثلاثة أضلاع المربع الباقية، بعد أن تكون قد شرحت له ضلعًا واحدًا منها، لن يكون جديرًا بتعبك وجهدك … أنت تتعب رأسك، وهو يضيع وقته ووقتك معه.»

---

[٣] جوكونغ: ابن الملك «أون» حاكم دولة «تشوغو»، ويُعد المؤسس الأول لملكة «لوقو»، ويُقال بأنَّه هو الذي وضع نظام الطقوس والشعائر لدولة «تشو» الغربية، كان كونفوشيوس يعده من أفضل حكماء الزمان.

[٤] في المتن الأصلي، فإنَّ كلمة «سوشيو» تقبل تأويلات كثيرة في الصينية الكلاسيكية، منها: «ضفيرة شعر مزينة بقطعة من الحرير» أو القماش الملوَّن، للدلالة على بلوغ سن النضج. وكان من المعتاد لمن بلغ الخامسة عشرة من الذكور أن يعقد هذه الضفيرة فوق رأسه. هذا، وهناك دلالة أخرى، مفادها: «قطعة كبيرة من اللحم المجفف» … تُقدَّم للمُعلم نظير حصص درس خاص.

(٧–٩) كان كونفوشيوس إذا ما دَهَمت أحد أصدقائه كارثة أو فجيعة، يحرص على المواساة والتعازي، وما كان يملأ فمه من صحفة طعام وهو بصحبة رجل حزين أو منكوب.

(٧–١٠) كان من عادة كونفوشيوس أن يترنم بالألحان، أو يرفع عقيرته بالغناء، فإذا ما وقعت الخطوب أو نزلت نوازل الدهر يظل طوال يومه ساهمًا حزينًا.

(٧–١١) قال كونفوشيوس لـ «يان يوان»: «ليس هناك إلَّا كلانا فقط، أنا وأنت، نبذل أرواحنا بإخلاص إذا ما أوكلت إلينا أمور جِسام، ونتوارى في الظل قانعين دون سخط إذا أهملوا ذكرنا واستغنوا عنَّا.» ثم إنَّ «زيلو» قام فسأله: هب أنَّك أصبحت قائدًا عسكريًّا، وأُوكلت إليك مهام قتال، فمع أي نوع من الناس تفضل أن تتعاون؟ فأجابه: «في تلك الظروف، لن أختار رجلًا يزهو بشجاعته و«يصعق النمر بقبضة واحدة»، ولن أصطفي مقاتلًا يعبر النهر واقفًا على سطح الماء بقدميه العاريتين (هكذا في المتن!)، ولن أتخير جنديًّا لا يُبالي الموت، مهما كانت التضحية نبيلة والاندفاع شريفًا، وإنَّما سأتخير وأصطفي مَن يحسب للأمور حسابها ويقدر العواقب بمنتهى التحوُّط والحذر، مالكًا زمام نفسه، واصلًا بحسن التقدير إلى تحقيق أغراضه بدقة كاملة.»

(٧–١٢) قال كونفوشيوس: «لو كان الفوز بالغنى والثروة متاحًا، ومن سبيل مشروعة، لبذلت في ذلك كل جهد، ولما استنكفت أن أعمل في مهنة يراها الناس وضيعة. أمَّا إذا كان الطريق إليها ممتنعًا، أو لا يتأتَّى إلَّا من طريق غير شريفة، فإنِّي أفضِّل أن أزاول عملًا أحبُّه وأتفانى فيه وإن كان بغير عائد.»

(٧–١٣) كان كونفوشيوس يهتم كثيرًا بثلاثة أشياء، ويتناولها ببالغ العناية والحذر، وهي: المجاعة، والحرب، والمرض.

(٧–١٤) استمع كونفوشيوس، ذات مرة إلى موسيقى الـ «شاو» في دولة «تشيغو»، واستولى على قلبه اللحن والنغم، حتى إنَّه بقي زمنًا، يأكل اللحم فلا يُميز له طعمًا، ثم إنَّه أخذ يتعجب، قائلًا: «ما ظنَّنت قبل الآن أنَّ للموسيقى مثل هذا التأثير على النفس.»

(٧–١٥) ذهب «رانيو» إلى تسيكون، وسأله: أتظن أن يقف المُعلم (يقصد كونفوشيوس) بكل ثقله مؤيدًا أمير دولة «ويغو» (الأمير «كوايجه»، وكان يتصارع مع والده لاعتلاء العرش)؟ فقال تسيكون: فلأذهب أولًا لأستطلع رأيه بهذا الشأن، ثم إنَّه قام وذهب إلى كونفوشيوس، وسأله: ما رأيك في كل من «بويي» و«شوتسي»؟

فأجابه: «كريمان، ابنا كرم، قد هلكا في الدهر.» وعاد تسيكون يسأله: ألم يحدث مرةً أن ندما على تصورهما المثالي للفضائل، أو دبَّت بينهما البغضاء؟ فأجابه: «كانا يسعيان إلى تجسيد معنى ماثل للخير والإيثار، فتمَّ لهما ما أرادا، فأنَّى للبغضاء بينهما؟!» وخرج تسيكون يقول لصاحبه: لا أحسب أن يقف أستاذنا في صف الأمير جو.

(٧–١٦) قال كونفوشيوس: «هناك أيضًا متعة خاصة في حياة خشنة؛ بخبز طعامها اليابس، ومائها العكر الملح، وملبسها القليل المتواضع، وذراع منثنية تحت خد النائم … وسادته الخالدة أينما أوى إلى فراش. فذلك أفضل بكثير من ثروة طائلة «غير مشروعة» تُحلِّق حينًا عبر سماوات واعدة بالمجد ثم تنحسر رويدًا مثل سحابات من دخان.»

(٧–١٧) قال كونفوشيوس: «أعطني مزيدًا من سنوات العمر لكي أعيد قراءة أعظم مؤلفات في التراث الصيني كله «كتاب التغيرات الكبرى»، وأؤكد لك بأني لن أجسر بعدها على الوقوع في خطأ أو خطيئة.»

(٧–١٨) كان كونفوشيوس حريصًا على التحدث باللغة الصينية الفصحى، خصوصًا عند أداء طقوس العبادات، وكذلك عند مناقشة موضوعات الكتب الكلاسيكية التاريخية، وذلك إعلاءً للسان أسرة «جو» على اللهجة العامية المستخدمة في مملكة «لوكو».

(٧–١٩) جاء السيد «إيكون» إلى «زيلو» وسأله أن يصف له كونفوشيوس، لكن زيلو حار جوابًا وتلعثم. ثم إنَّ المُعلم عرف بالأمر، فقال له: «كان أحرى بك أن تُقدِّمني له قائلًا بأنِّي أكد وأثابر في عملي حتى أنسى غذاء بطني، وأمرح وأضحك، فلا أعرف للحياة همومًا، وأعيش أيامي بطولها وعرضها، غير عابئٍ بزمن شبيبة ماضٍ، أو بيوم شيبة آتٍ.»

(٧–٢٠) قال كونفوشيوس: «لم أولد فيلسوفًا حكيمًا، وإنَّما كان تعلقي بأخبار الأقدمين وكتاباتهم هو الذي دفعني عبر السنين من دأب البحث والفكر والمطالعة إلى تحصيل المعارف والشغف بها.»

(٧–٢١) لم يكن كونفوشيوس يكترث بمناقشة ما يتصل بالموضوعات الغريبة والخوارق والمعجزات، والصراعات الحزبية والطائفية، وكذلك الدسائس والمؤامرات، وفتن التمرد والعصيان وضلالات السحر والكهانة والأشباح والخرافات الأسطورية.

(٧–٢٢) قال كونفوشيوس: «إذا مشيت مع نفر من الناس، فلا بد أن يكون أحدهم، على الأقل، ذا أخلاق وفضائل طيبة، ذلك لأني أقتدي بما يعنُّ لي من عظيم السجايا، وأنبذ من طبعي ما عساه يتكشَّف لي من خبيث الخصال.»

(٧–٢٣) قال كونفوشيوس: «مَن حفظته السماء فلا مضيِّع له، وقد حبَتني السماء بنَعمائها وحكمتها وسابغ فضلها، ها أنا ذا قد نجوت، وحبط عمل «هوان كوي»[٥] فخاب مسعاه وفشلت مكائده.»

(٧–٢٤) قال كونفوشيوس لتلاميذه: «اعلموا أنِّي ما أخفيت عنكم شيئًا من أفكاري ولا حجبت دونكم شيئًا من العلم والمعرفة، فدونكم كل ما اشتغلت به النفس وجادت به القريحة، وما كنت متخذًا معكم أو مع غيركم شأنًا آخر غير هذا، فإنَّما هو طبع مركوز في النفس لا فكاك منه ولا محيد عنه.»

(٧–٢٥) كان كونفوشيوس يُدرِّس لطلابه أربعة أبواب من العلم، هي: الدراسات الأدبية القديمة، وعلم الاجتماع، وقواعد السلوك الرسمي، ومبادئ الأخلاق.

(٧–٢٦) قال كونفوشيوس: «لم أعد أتوقع أن أجد بين الناس ملائكة وقديسين، لكن قصارى ما أمنِّي نفسي به هو أن أجد رجلًا مهذبًا كريم الخلق.» ثم أضاف قائلًا: «ولا أظن — حتى بأكثر التوقعات جموحًا — أنَّ على وجه الأرض، الآن، رجلًا معصومًا من الزلل، لكن يكفيني أن أعرف أنَّ هناك إنسانًا يروِّض نفسه، ويملك زمام مبادئه بإرادته، فإذا كان هناك مَن يزعم أنَّه يملك الدنيا بأسرها بينما هو خالي الوفاض، أو يدَّعي حكمة الزمان بينما هو فارغ العقل، أو يتكلف مظاهر الثراء الفاحش بينما هو فقير مُعدم، فذلك أبعد شيء عن المبادئ والأعراف والأخلاقيات.»

(٧–٢٧) كان كونفوشيوس يستعمل الخطاف في صيد الأسماك، ولم يستخدم قط شبكة كبيرة، كما أنَّه لم يصطد طيورًا تبيت مع أفراخها أو تنام في أعشاشها.

(٧–٢٨) قال كونفوشيوس: «هناك نوع من الناس يدَّعي العلم مكابرةً وتكلفًا، فأولئك هم شر الجهلة، ولقد كان مسلكي دائمًا هو مناقشة الأمور من كل جانب، مع الاستبصار بوجهات النظر المتباينة ثم اختيار أصوب الجوانب واختبارها بمعيار التطبيق العملي واستخلاص الصحيح الثابت فيها مع استبقائه في الوعي الحاضر، ولئن كان مثل هذا المنهج لا يرقى إلى مستوى المعرفة الباطنية المولود بها الإنسان، إلَّا أنَّه يظل منهاجًا لمعرفة موثوق بها إلى حدٍّ بعيد.»

---

[٥] هوان كوي: ضابط عظيم بدولة «سون» كان يدبر لاغتيال كونفوشيوس أثناء إقامة طقوس العبادات، وانكشفت المكيدة، وراح التلاميذ يستحثون كونفوشيوس على مغادرة المكان خشية تكرار المحاولة، فهدَّأ من روعهم وقال هذه العبارة.

(٧–٢٩) كانت قرية هوشيانغ أشبه بغابة بدائية تنضح بالجهل والتخلف، ومرَّ بها كونفوشيوس ورجاله، فما استطاعوا أن يمكثوا فيها، إلَّا أنَّ غلامًا صغيرًا من أبنائها جاء يطلب العلم، فاستقبله كونفوشيوس بترحابٍ شديد، فاستغرب التلاميذ، فخاطبهم المُعلم قائلًا: «لقد أكبرت في الغلام سعيه إلى العلم والمعرفة بدلًا من رضوخه للجهل، فواجبنا أن نقدِّر للآخرين نواياهم وآمالهم الصادقة للتقدم والتصحيح، فلا ينبغي أن نعلق أنظارنا دائمًا على آثار ماضٍ كريه ويحاول أصحابه هم أنفسهم أن ينبذوه وراءهم.»

(٧–٣٠) قال كونفوشيوس: «هل صحيح أنَّ مكارم الأخلاق تبدو دائمًا مستعصيةً بعيدة المنال؟ لا أظن أنَّ هذا صحيحًا! إذ يكفي أن يُشير الإنسان بأطراف أصابعه فيجدها حاضرةً بأقرب مما يتصوَّر.»

(٧–٣١) جاء «شن سباي» إلى كونفوشيوس، وسأله عن أخلاق الأمير «جاو» بمملكة «لوكو» ومدى احترامه لقواعد السلوك القويم والأعراف الفاضلة، فردَّ عليه كونفوشيوس بالإيجاب، مقرًّا بحميد خصاله، فلمَّا مضى المُعلم لبعض شئونه أقبل «شن سباي» على أوماتشي (تلميذ كونفوشيوس) وقال له: لقد عرفنا أنَّ الماجد المهذب لا ينحاز ولا يجامل، فلماذا ينحاز سيدك ظلمًا وباطلًا؟! ألا يعرف أنَّ الأمير «جاو» قد تزوَّج بامرأة من دولة «أوغو» برغم مما في هذا الزواج من انتهاك للتقاليد والأعراف؟! فلمَّا ذهب أوماتشي وأطْلع أستاذه على حقيقة الأمر، أجابه قائلًا: «لا بد أنَّني محظوظ حقًّا، فما إن تزل بي زلةٌ، أو تصدر عني هفوةٌ، حتى أجد مَن يذكرني ويراجعني.»[٦]

(٧–٣٢) كان من عادة كونفوشيوس أن يصاحب المغنين بصوته، فإذا أعجبه صوت أحدهم، طلب إليه أن يردِّد اللحن من جديد حتى يحفظه ثم يُصاحبه في الأداء حتى النهاية.

[٦] كان مفروضًا — حسب التقاليد — أن تُلقَّب السيدة «أومنغسي»، وهي السيدة الأولى في مملكة «لوقو» حينئذ، بلقب «أوجي»، ومن ثم، فقد كان احتفاظها بهذه التسمية «أومنغسي» محاولة لحجب حقيقة اشتراكها في اسم العائلة مع زوجها الأمير، والمقرر حينئذ هو أن يبطُل مثل هذا الزواج، وإلَّا عُدَّ انتهاكًا فاحشًا لأعراف مستقرة وضوابط معلومة بالاتفاق الجمعي، فمن هنا كانت ملحوظة شن سباي التي أمَّن عليها كونفوشيوس متحملًا اللوم — بلباقة — ومفضلًا إياه على الخوض في أمور شخصية تمس هيبة الأسرة الحاكمة.

(٧–٣٣) قال كونفوشيوس: «في باب المعرفة والاطلاع، أستطيع أن أجد لنفسي ترتيبًا مساويًا للآخرين، أمَّا في مجال التطبيق الفعلي للمبادئ السلوكية، فما زلت أقصِّر عن بلوغ مكانة السيد المهذب مكتمل الفضائل والخصال.»

(٧–٣٤) قال كونفوشيوس: «لا أظنني أستحق لقب «الحكيم» أو «الفاضل الكبير»، فما أنا إلَّا طالب علم يجتهد في التحصيل، ومُعلم بسيط لا يتوانى عن الشرح والتفسير.» ثم إنَّ تلميذه «كون شيهوا» ردَّ عليه قائلًا: وتلك — يا سيدي — هي المعادلة التي نعجز عن الإتيان بها.

(٧–٣٥) أُصيب كونفوشيوس بمرض شديد، أقعده الفراش، وعاده «زيلو» واقترح عليه أن يُصلي لآلهة الشفاء صلاةً تبْرئه من مرضه، فسأله المُعلم: «أهناك صلاة لهذا الغرض؟!» فأجابه: نعم، وصيغة الصلاة هكذا: «رحمتك آلهة المساء، شِفاك آلهة الأرض، إليكما أقصد بالدعاء!» ثم إنَّ كونفوشيوس أجابه ساخرًا: «لا عليك، فقد تلوت هذه الصلاة قبلك دهرًا طويلًا (وها أنا كما ترى)!»

(٧–٣٦) قال كونفوشيوس: «الترف مدعاة للخيلاء والغرور، والبساطة الزائدة قرينة التواضع، وهذه — كما هو معلوم — أفضل كثيرًا من الغرور.»

(٧–٣٧) قال كونفوشيوس: «غالبًا ما يكون صدر الرجل الماجد رحبًا كريمًا، أمَّا الدنيء، فهو دائمًا ضيِّق الصدر، مهموم البال.»

(٧–٣٨) كان كونفوشيوس هادئ الطبع، لكن في جديةٍ وحزم شديدين، مهيب الملامح، فلا هو بالعابس الغشوم، ولا بالجهم المتبلد، وقورًا مهذبًا في لين وسماحة خلق.

الباب الثامن

تابوتشي

وجملته واحد وعشرون فصلًا

(٨–١) قال كونفوشيوس: ««تايبو»[1] هو الرجل الذي حاز أعلى درجات الشرف والفضيلة؛ فقد تنازل عن عرش إمبراطورية عظمى لأخيه الأصغر ثلاث مرات، وهو يتنحَّى عن صولجان المجد، كريمًا شريفًا. وإن كل كلمات المديح والمجاملات التي تعارف عليها الناس، لا تكفي ثناءً عليه.»

(٨–٢) قال كونفوشيوس: «إنَّ المجاملات من غير قواعد منظمة للسلوك تصبح مجرد صيغ جامدة مملة ومكرورة. والحذر بغير أصول محسوبة يصبح تهيبًا جبانًا، كما أنَّ الشجاعة من دون ضوابط معقولة تؤدي غالبًا إلى تهورات طيش مهلكة، والصراحة من غير مرجعية مبادئ مقررة تُفضي حتمًا إلى مشاعر مستعرة بوخزات حساسية موجعة. والشيء الثابت هو أنَّ المعنى العام للتعاون والإنسانية يتحدَّد على نمط ما يُبديه رجال الحكم من قدوة مناسبة لمواطنيهم، وعندما يُبدي هؤلاء الرجال قدرًا من العرفان والولاء

[1] تايبو: الابن الأكبر للأمير «دانفو» وهو الجد الأكبر للأسرة الإمبراطورية المعروفة باسم: أسرة «جوكو»، وكان للأمير ثلاثة أولاد: «تايبو»، «جوينونغ»، «جيلي»، ثم إنَّه أوصى بالعرش لهذا الأخير، متخطيًا بذلك أخاه الأكبر «تايبو»، ورغم ذلك فقد وقف الأخ الأكبر إلى جوار الملك الجديد، أخيه الأصغر، احترامًا لوصية الوالد، وولاء لقواعد السلوك «وشائج القربى»، مظهرًا بالغ الود والاحترام، فمن ثم كان تعليق كونفوشيوس في هذا الفصل.

لزملائهم وخُلَصائهم القدامى، فإنَّ ذلك يسري أيضًا سريان شعاع من النور بين جموع الناس، ومن المستحيل عليهم بعدها أن يتبنوا مشاعر الجمود والتبلد واللامبالاة.»

(٨–٣) لَّما اشتدَّ المرض على «تسنغ زي» — أحد التلاميذ — دعا زملاءه وإخوانه للمثول إلى جواره، فلمَّا حضروا وأحاطوا به وهو ممددٌ على فراش الاحتضار، نظر إليهم، وقال: «تأملوا قدميَّ ويديَّ هاتين، ففي كتاب «الشِّعر القديم» قصيدة، يقول مطلعها:

«أعطني قدمًا تسعى بين الخلائق في حذر،
أعطني قدمًا تخشى وطء دروب الجحيم ...
قدمًا تعبر صفحة ماء ... تمرق جمع سحاب ...
بلا ضجيج ولا كدر».»

ثم إنَّه اعتدل، وقال: «أما وإنِّي الآن أمضي من غير ضجيج ولا كدر كما ترون، فعليكم بأنفسكم، وانتبهوا فيما أنتم فيه سائرون.»

(٨–٤) لَّما اشتد المرض على «تسنغ زي» ذهب جينز — وزير في مملكة «لوقو» — إليه يعوده في مرضه، فقال له «تسنغ زي» فيما يُشبه الوصية: «عندما يحين موت الطيور يصبح لصوتها تغريد حزين، لا تخطئه أُذن، وإذا قربت نهاية إنسان صَفَت نفسه كثيرًا، فلا ينطق بباطل، وإنِّي أقول لك الحق، فاسمع واحفظ: إنَّ ثلاثًا إذا فعلها إنسان، صار مستحقًّا أسمى مكانة في الوجود، وهي: أن يتخذ مظهر الحزم، فيكفي نفسه تهافت خليع أو فوضى متكاسل، وأن يتخذ مظهر الجد، فيوثق بكلامه عند سامعيه، وأن يسبق فكره لسانه، ليتخير صحيح اللفظ وسديد العبارة، عصمة من زلل، واجتنابًا لهفوات تزل لهولها أعناق سامقة. أمَّا عن قواعد السلوك والمعاملات وطرائق المجاملات والعبادات، فتلك لها فقهاؤها وكهنتها، هم أدرى بشئونها خير درايةٍ.»

(٨–٥) قال تسنغ زي:[٢] «كنت أعرف صديقًا تزينه أفضل الخصال: فقد كان برغم قوته البادية لا يستنكف أن يسأل الضعفاء المهزولين النصح، وبرغم سعة اطلاعه، فلم يكن يملُّ من مشاورة الأقل علمًا ومعرفةً، وبرغم علمه الغزير، فقد كان يواظب على الدرس

[٢] تسنغ زي: (٥٠٥–٤٣٦ق.م.) من مواطني أوتشنغ — مقاطعة شاندونغ حاليًا — اشتهر بولائه واحترامه للتقاليد الأسرية، ويُعْزَى إليه تأليف كتاب «العلم الكبير».

ويجتهد في التحصيل، كأنَّه تلميذٌ مبتدئ، ومع أنَّ السماء قد حَبَته بعقل عبقري نادر المثال، إلَّا أنَّه كان يحرص على مظهر الفهم المتواضع، فيستزيد من الشرح والاستفهام، حتى يحسبه الناس بليدًا غبيًّا، ثم إنَّه لم يكن يكترث بالرد على ألسنة الشتم والتطاول.»

(٨–٦) قال تسنغ زي: «هب أنَّ فردًا ما أوكلت إليه مهمة تربية طفل يتيم، فأداها على أحسن وجه، أو أسندت إليه مهام جسيمة تتعلق بمصائر كبرى في وقت شدة وزمن جد، فقام بها خير قيام، فهل يُمكن أن يعد مثل هذا الفرد رجلًا عظيمًا؟! وأقول: نعم، بل هو الرجل العظيم بكل ما تعنيه الكلمة.»

(٨–٧) قال تسنغ زي: «أكثر مَن يحتاج إلى إرادة صلبة وصمود متجدد هو رجل العلم، إذ إنَّ أمانته ثقيلة، وطريق كفاحه طويل، وليس أثقل في ميزان الأمانة من عبء تحقيق مثال الخير والفضيلة للناس جميعًا، وليس أشق في دروب السير من طريق يبدأ من نعومة الأظفار وينتهي عند أبواب القبور.»

(٨–٨) قال كونفوشيوس: «لا أجد إلهامًا مضيئًا للوجدان إلَّا في كتاب «الشِّعر القديم»، ولا أجد أصولًا مكتملةً لقواعد الحياة، إلَّا في أصول الآداب والفضائل، وليس مثل الموسيقى شرحًا للصدور وتطهيرًا لشوائب النفس.»

(٨–٩) قال كونفوشيوس: «قد يتحتم أن تُلزم الناس بالانقياد على الطريق المحدد سلفًا، والالتزام بالسبل الموضوعة؛ لكنَّك لست ملزمًا باطلاعهم على السبب الذي يدعوهم للاستجابة لك.»

(٨–١٠) قال كونفوشيوس: «إنَّ النابهين والطامحين الأذكياء والكرماء والفضلاء من الناس، الهاربين من وجه الفقر، العاجزين عن احتمال شظف العيش، يعدون ذخيرة حية تساعد على إشعال شرارة التمرد والعصيان، كما أنَّ البغاة والمنحرفين وذوي البأس، ممن يفتقدون الرعاية الواعية والإشباع الكافي، يستطيعون تدمير الدنيا بأسرها من أقصاها إلى أقصاها.»

(٨–١١) قال كونفوشيوس: «أسوأ الخصال أن يجتمع في نفس امرئ البخل والغرور، فإنَّهما ما اجتمعا في مخلوق إلَّا أعرض عنه الخير وذهبت محاسنه سُدًى، وتفرق عنه خلصاؤه، حتى وإن بلغت عبقريته عنان السماء.» (في الأصل: حتى وإن أوتي عبقرية الشيخ جوكون!).

(٨–١٢) قال كونفوشيوس: «لا أظن أنَّ أحدًا في زماننا هذا، يذهب إلى حلقات العلم والدرس، دون أن يراوده طموح المنصب الرسمي الكبير، بكل ما يعنيه من شرف الامتياز وعظيم المكانة.»

(٨–١٣) قال كونفوشيوس: «على المرء أن يكون أمينًا مثابرًا، مقبلًا بعقله وقلبه على التعلم، مخلصًا للمبادئ حتى آخر رمق، واعلم أنَّ العاقل لا يدخل بلدًا يموج بالتذمر والعصيان، ولا يزج بنفسه وسط فوضى عارمة، والذكي مَن يشمر عن ذراعه، ويطلق العنان لمواهبه في أوان السلم وعند هدوء الأحوال، فإذا عصفت عواصف الشقاق، وألقت برءوسها الفتن، تنحَّى بلباقة، واستظلَّ بركن بعيد هادئ، حيث عُزلة بشرف أكرم من شرف أعزل. وإنَّ من البلاء أن يقبع المرء فقيرًا في بلد موفور الغنى والترف، كما أنَّه من الخسة والعار أن يزهو الفتى مختالًا وسط أجواء محدقة بالبؤس والحرمان.»

(٨–١٤) قال كونفوشيوس: «لا تشغل نفسك بأعباء وظيفة لم تتسلم مقاليد التصرف الرسمي فيها بعد.»

(٨–١٥) قال كونفوشيوس: «لقد استمعت إلى عزف للموسيقيِّ العبقري «شيجي» (بدولة لوقو) في قطعة بدأها بمنوعات نغمية رائعة، وختمها بلحن «كوانجو» العذب، ولقد ظلَّت الأنغام، لفرط عذوبتها، تتردد في مسمعي طوال اليوم.»

(٨–١٦) قال كونفوشيوس: «ثلاثة من الرجال أحار كثيرًا في تبرير سلوكهم: رجل جرئ جسور في غير الحق، ورجل ساذج في غير الصدق، ورجل ضعيف الحيلة يملأ الدنيا خداعًا ومراوغةً.»

(٨–١٧) قال كونفوشيوس: «كن سبَّاقًا في تحصيل العلم، ولا تدعَنَّ الزمن يتجاوزك، واجعل من عقلك وعاءً نشيطًا لمكنون الذاكرة، فالعلم بغير ذاكرة واعية جهل مطبق.»

(٨–١٨) قال كونفوشيوس: «ما أنبل وأكرم السيدَين الجليلَين «شون»، و«ياو»؛ فقد كان لكل منهما صولجان وعرش وممالك من أقصى الأرض إلى أقصاها، ومع ذلك بلغ من نزاهتهما أنْ كفَّا أيديَهما عن أي مكسب ذاتي أناني، فخرجا من إمبراطورية عظمى كما دخلاها بيدٍ خالية من الدنس، وذمة ناصعة بيضاء.»

(٨–١٩) قال كونفوشيوس: «ما أنبلَ الحكيمَ «ياو»، وما أنزه خصالَه! ولئن كانت السماء هي وحدها الأعظم قدرًا والأقدس جلالًا ورفعة، فإنَّ الحكيم «ياو» هو وحده الذي دانت له قطوف من السُّمُو والجلال وعظيم السجايا (بين البشر!)، ولقد بلغ من ذلك منزلة عالية، شهد له بها الناس كافةً، فما خلف أحدٌ سيرةً صالحةً مثله، ولا جرَّب الناس متعبدًا ورعًا يدانيه إيمانًا وإخلاصًا.»

(٨–٢٠) كان في بلاط الإمبراطور «شون» خمسة من أكفأ الوزراء، استتبَّ الحكم على أيديهم، وسارت أحوال البلاد على نحو لم يعهد له مثيل في زمانهم، فلمَّا بلغ ذلك الملك «أوانغ» في عهد مملكة «جوقو»، قال: ... وأنا أيضًا عندي عشرة من أكفأ الوزراء، وأقدر

رجال الحكم على الإطلاق. فعقَّب كونفوشيوس على هذا التقرير بقوله: «ليس في هذه الدنيا أثمن ولا أندر من الأكفاء الموهوبين، ولقد قيل إنَّ زمرة منهم حكموا إبان عهدَي «تانغ يو» و«يوشون»، ثم إنَّ قول الملك «أوانغ» ينطوي على مبالغة، فمن بين الوزراء العشرة الذين يُشير إليهم، هناك امرأة، وأنا أستثنيها من جملة العدد، وهكذا، فلا يتبقى إلَّا تسعةٌ فقط، ولقد بلغنا عن السلف الصالح أنَّ «أونوانغ»، وبرغم امتلاكه ثلثي الأرض الواقعة في حدود مملكته، إلَّا أنَّه ظل يُقدَّم فرض الولاء لإمبراطور أسرة «جو» الحاكمة، وتلك — فيما أظن — من أنبل وأشرف مظاهر الفضل وكرم الأخلاق.»

(٨–٢١) قال كونفوشيوس: «نظرت فلم أجد عيبًا في سلوك السيد «يو»،[٣] فهو يقتِّر في طعامه كثيرًا؛ لكنَّه يتقرب إلى السماء بأثمن أضحية، ويرتدي الخشن الغليظ من الثياب؛ لكنَّه يتخذ أبهى ملبسٍ وأجمل زينةٍ عند إقامة الشعائر المقدسة، ولئن كان يقبع في كوخ خشبي متواضع، فقد سبق أن بذل كل جهده وماله في وجوه البر والإحسان، فهو الرجل الذي لا تمسه شائبةٌ، ولا يعتريه عيبٌ أو نقصان.»

[٣] السيد «يو»: المؤسس الأول لأسرة «شيا» الحاكمة، اشتهر بإصلاحاته الكبرى في مجال الري، ومشروعات مواجهة الفيضان.

الباب التاسع

زيهان

وجملته واحد وثلاثون فصلًا

(٩–١) كان كونفوشيوس يُدقِّق كثيرًا في حديثه عن المنفعة، والقدر، والإحسان.

(٩–٢) جاء رجل من بلدة «تاشياندان»، وقال: يُعجبني في كونفوشيوس سمو قدره، وغزير علمه؛ لكن الشيء المؤسف حقًّا أنَّه لم يتخذ حرفةً يتخصَّص فيها لتُدِر عليه رزقًا وشهرة وصيتًا ذائعًا يملأ الأسماع. فلمَّا بلغ ذلك كونفوشيوس نفسه، قال لتلاميذه: «فماذا ترون لي من حرفةٍ مناسبة إذن! أأَجُرُّ المركبات بدلًا من الخيل؟! أم أعمل قواسًا، أحمل السهام وأرمي بها؟ ... وربما كان من الأنسب أن أعمل حوذيًّا، فتلك خير على كل حال.»

(٩–٣) قال كونفوشيوس: «كانت قبعات الطقوس تُصنع — بحسب ما استقر في العرف — من الكتان، فصار الناس الآن يتخذونها من الحرير الأسود، اقتصادًا في التكلفة، وتوفيرًا في النفقات، وأنا أحبِّذ هذا المسك. وقد جرت العادة أيضًا بأن ينحني المسئولون الراغبون في مقابلة الحاكم برءوسهم راكعين عند أول درجات السلم المفضية إلى قاعة العرش، وكذلك عند استقبال القاعة بعد الصعود، إلَّا أنَّهم في أيامنا هذه أبطلوا الانحناءة الأولى، واقتصروا على الثانية التي يدخلون بها البهو الملكي الكبير، وإنَّها لبدعة جائرة وضلال بعيد، فما ضرهم لو عادوا سيرتهم الأولى؟ أليس ذلك أقوم وأكثر إجلالًا واحترامًا؟»

(٩–٤) أربع خصال كان يتجنبها كونفوشيوس بكل ما أوتي من جهد: التواكل، والتسرع، والعناد، والتكبر.

(٩–٥) كان المُعلم مارًّا بمدينة «كوانغ» في طريقه إلى دولة «تشنكو»، ولشدة الشبه بينه وبين «يانهو» الطاغية المستبد، الذي قتل آلافًا مؤلفةً من أبناء المدينة، فقد تداخل الأمر على الأهالي فاقتادوا كونفوشيوس، بظن أنَّه «يانهو» ووضعوه في الحبس، فقال لهم، في معرض حديثه عن نفسه: «أنا الرجل الذي ورث الفكر والعلم عن جلالة الإمبراطور «أونوانغ»، فلو لم يكن هذا العلم يدعو إلى الخير لأفنته السماء وصيَّرته إلى العدم وحالت بيني وبينه، ولئن كانت السماء ترعاه وتحفظه وتعينني على أمره، فمَن ذا الذي يستطيع منكم أن يحجب إرادة السماء؟!»

(٩–٦) جاء مسئول حكومي كبير إلى «تسيكون» وسأله قائلًا: إذا كان أستاذكم صاحب فلسفة وحكمة كما تقولون، فأنَّى له بهذا الإلمام الواسع بضروب المهن والحرف المختلفة؟ فأجابه: السماء هي التي أنزلت عليه الحكمة وعلمَّته من لدنها أسرار صناعات شتى. فبلغ ذلك أسماع كونفوشيوس علَّق بقوله: «يبدو لي أنَّ السائل أعلم من المجيب؛ فقد وُلدت في أسرة فقيرة، واضطرتني الظروف أن أتعلَّم الكثير من المهارات المتواضعة، كي أتحصَّل على معاش حياتي وقُوت يومي، وعلى أيَّة حال، فإنَّ الرجل الفاضل لا حاجة به للتمرس في فنون متنوعة وحيل كثيرة «زائدة عن الحد المعقول»!»

(٩–٧) جاء على لسان «لاو» — أحد التلاميذ — ما مفاده أنَّ كونفوشيوس تحدَّث إليه، ذات مرة، فقال: «لم تواتني، طوال حياتي، فرصة العمل في وظيفة رسمية؛ لذلك فقد اضطررت إلى تعلم الكثير من المهن والمهارات.»

(٩–٨) قال كونفوشيوس: «أتساءل أحيانًا: هل أنا حقًّا واسع المعرفة، غزير الاطلاع؟ وأُجيب على أسئلتي بالنفي؛ فقد صادفت ذات مرة أحد الفلَّاحين، وسألني سؤالًا تحيَّرت منه أفكاري، وأخذت أقلب فيه النظر كثيرًا، وأنا أعرضه على كل الوجوه ... ووجدتني برغم ذلك عاجزًا عن إجابة وافية.»

(٩–٩) قال كونفوشيوس: «ما عادت العنقاء ترفرف في سمائنا، وما عاد النهر الأصفر يرمي إلى شواطئنا بألواح مزينة على أجساد التنانين، فما أرى إلَّا نهاية عمري، وأوان انقطاع الأجل.»[١]

[١] تظهر العنقاء، بحسب ما ترويه الأساطير الصينية، في أزمنة تسودها ملامح النهضة والتطور الحافل، مثلما يظهر أيضًا حصان مجنَّح على هيئة تنين عظيم يحمل على ظهره لوحة النبوءات الكبرى.

(٩–١٠) كان كونفوشيوس يُبدي توقيرًا وتبجيلًا زائدًا إذا مرَّ به كفيف أو بائس متشح بثوبِ حِداد، أو متأنق في الزي الخاص بالطقوس الدينية أو الرسمية، من علامة ذلك أنَّه كان يقف من جلسته أو يتنحى بلباقة عن طريق الواحد منهم إن كان ماشيًا، لا فرق عنده بين صغيرهم وكبيرهم.

(٩–١١) تحدث يان يوان[٢] في نبرة لها مغزاها، قائلًا: «كلما أمعنت النظر في صرح المبادئ التي درَّسها لنا أستاذنا بدت لي سامقة شامخة، تسمو في الآفاق، وكلما حاولت التعمق في ثنايا دلالاتها، بدت عسيرة المنال، عميقة الغور، ولكما سنحت حتى خِلتُها قريبةَ المأخذ (تحت يدي)، نظرت فإذا هي بعيدة (خلف ظهري)، تتسربل بالغموض ودقة المسلك، ولئن كان الأستاذ يرشدنا إلى بدايات الطريق وأول الخطو درجة فدرجة، بعبقريته الفريدة في التوجيه وتمهيد السبيل، يفتح لأذهاننا حدود آفاق رحبة، تزخر بألوان شتى من الفكر والآداب، ويكبح جماح نفوسنا بهدى من قواعد الأخلاق، فأنا ما زلت عند أول الطريق، وبرغم فداحة المسئولية وعبء الدأب والجد، فلا أملك أن أحيد عن طريق العلم (… حتى لو رغبت في ذلك!) ويتهيأ لي، بعد كل ما بذلته من الجهد، أنِّي كلما أوغلت قدمًا جهلت أضعافًا مضاعفة.»

(٩–١٢) اشتدَّ المرض على كونفوشيوس، فأقبل «زيلو» على تلاميذه ومريديه، فطلب إليهم أن يتدبروا إجراءات إقامة جنازة رسمية «تحسبًا لوفاة المُعلم» وأن يقوموا «شكليًّا» بأدوار تبرز وجاهة أستاذهم[٣] وعظيم منزلته، فلما شُفي كونفوشيوس من مرضه، واستردَّ عافيته، وعلم بهذا الأمر، انتقد «زيلو» قائلًا له: «ذلك هو الخداع بعينه، وإلَّا فما معنى التظاهر بما لا نملكه؟ ولماذا؟ أتظننا بذلك نخدع مَن؟! هل نخدع السماء؟! ثم إنَّ مِيتَة كريمة بين أيديكم أفضل عندي من ميتة تحوطها أحزان حداد رسمي متكلف، زائف، لماذا نتصور أنَّ الموتى بغير جنازات مهيبة ليسوا إلَّا أقذار نفايات فقيرة متنحية على حافة الطريق!»

[٢] يان يوان: هو نفسه «يان هوي» … راجع هامش رقم (٢٠).

[٣] كان المتبع حينئذ أن يقتصر اتخاذ الخدم والحشم على الوزراء وكبار رجال الحكم، وفي مناسبات كبرى؛ كجنازة أو غير ذلك، كان ينصرف الاهتمام إلى إبراز الواجهة الاجتماعية للمتوفى، وبرغم شغل كونفوشيوس منصب «الوزير» في فترة ما، إلَّا أنَّه اعتزل المنصب، ورفض فكرة مرافقة الخدم والأتباع له، وهنا يعود ليرفض القيود الشكلية مرة أخرى.

(٩–١٣) جاء «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: هب أنَّ لديك جوهرة ثمينة، أتحفظها في صندوق؟ أم تبيعها لَمن يعرف قدرها؟ فأجابه المُعلم: «بل أبيعها، نعم بالتأكيد، وإنِّي لمنتظر مَن يقدِّر قيمتها كما ينبغي.»[٤]

(٩–١٤) أراد كونفوشيوس الانتقال إلى مسكن جديد بمنطقة «جويي» (وهي، إذ ذاك، بقعةٌ منعزلة، غير راقية)، فقيل له: إنَّها ليست بمكان مناسب لك؛ فهي نائية وغير متحضرة، فكيف تقيم هناك؟ فأجاب بقوله: «ترى لو كان رجلًا حكيمًا فاضلًا، مهذب السلوك، كريم المنبت، ذهب فأقام فيها قبلَنا، أكنا نقول نفس هذا الرأي؟!»

(٩–١٥) قال كونفوشيوس: «بعدد عودتي من مملكة «ويغو» إلى «لوقو» قمت بتصنيف بحور كتاب «لشو القديم» فوجدتها نوعين لا ثالث لهما، وهما: «يا» و«سونغ».[٥]

(٩–١٦) قال كونفوشيوس: «ليس في الدنيا أعظم من أن تُبجِّل رؤساءك وتؤدي عملك بإخلاص، فإن عدت إلى منزلك فعليك بمعاونة إخوتك وإطاعة والديك، ولا تنسَ أن تشعل القناديل في زمان الفرح، وأن تُوقد شموع التراتيل إذا ما أطلَّت الأحزان، وليبقَ عقلك في رأسك إذا ما دارت الأقداح، فإياك والثمالة! ... وما أحوج الواعظ أن ينفع نفسه بما ينصح به الآخرين، فيا ليتني أروض النفس بتلك الخصال!»

(٩–١٧) وقف كونفوشيوس إلى شاطئ النهر، ونظر إلى المياه الجارية، وقال: «والأيام أيضًا تنقضي مثل تلك المياه العابرة، تنساب رويدًا بلا نهاية بين الشطآن.»

(٩–١٨) قال كونفوشيوس: «لم أصادف في حياتي أحدًا يعشق الفضيلة عشقه للجمال.»

---

[٤] المجاز هنا يُشير إلى «المثقف الذكي العاقل»، الذي يُساوي قيمة «جوهرة كريمة»، والمفاضلة تقوم بين أن يعتزل بكرامة أو ينخرط في العمل العام، ويُصبح طرفًا في معادلة المثقف/السلطة ... تلك القضية القائمة أزلًا ... وكونفوشيوس يُفضِّل الخيار الثاني، على أنَّ عنصر الحسم هنا، أو شرط المفاضلة، بوضوح هو معيار التقدير العادل، حيث تنتهي المبادلة بجوهرة ثمينة في يد خبير عارف وبثمن مكافئ ... وتستقيم أطراف المعادلة كلها بالرجل المناسب في مكانه المناسب وبالتقدير الملائم تمامًا.

[٥] تنقسم القصائد في كتاب «الشعر القديم» إلى هذين القسمين، وكتاب الشعر هو أقدم مجموعة من القصائد الصينية، وجمعها كونفوشيوس فحقَّقها وصنفها، وأعدَّها بالشكل الذي صارت تُطبع به وتوزَّع من بعده.

(٩–١٩) قال كونفوشيوس: «إنَّ حفنة من الرمال قد لا تكفي لتعلية قمة جبل شامخ، لكنَّها تكفي تمامًا، بالمزيد من الجهد والمثابرة وكمية مضافة من الحصى لردم حفرة عميقة على سطح الأرض.»

(٩–٢٠) قال كونفوشيوس: «ربما كان «يان هوي» هو الوحيد من بين الناس جميعًا، الذي وجدت فيه مثابرة على الإنصات والتحصيل، ودأبًا على الالتزام بلا توانٍ أو كلل.»

(٩–٢١) تحدث كونفوشيوس عن تلميذه «يان يوان» (في مناسبة تأبينه)، فقال: «عجبًا للموت الذي يتخيَّر من بيننا أفضل الناس، أولئك الأكثر تفوقًا ونبوغًا ورغبةً صادقةً في النجاح والأمل والحياة!»

(٩–٢٢) قال كونفوشيوس: «هناك أشخاص تتعهدهم أوطانهم بالرعاية، فإذا هم في آخر المطاف جهد ضائع؛ فلربما أنبتت البذور براعم بلا زهور، وقد تثمر الأغصان زهرات بلا عناقيد.»

(٩–٢٣) قال كونفوشيوس: «أخطر الآمال جميعًا هو ما خبأته يد المستقبل في قلب الأجيال الشابة، فلعلها في قادم الأيام تحاذينا الركب، ومَن عساه يدري، فربما تسبقنا كثيرًا! فالمجد دائمًا للشباب! ومَن بلغ الأربعين أو الخمسين من دون أن يبني لنفسه مجدًا أو يُسمع الناس صوتًا، فما أظنه يقدر أن يفعل بعدها شيئًا ذا قيمة.»

(٩–٢٤) قال كونفوشيوس: «أيمكن أن يُعْرِض الإنسان عن كلمات معاتبة مخلصة صيغت من روح المبادئ؟ لكن قبول النقد لا يكفي، فالتقويم أجدى وأهم. وهل من الممكن ألَّا تسعد النفوس بما يشنف الآذان من الإطراء والمديح؟ لكن السعادة وحدها لا تكفي، فالمراجعة والتحليل لنقاط القوة وأنفع وأولى، ذلك أنَّ مشاعر الفرح بغير تقدير عملي، وكذلك قبول النقد بغير تصويب فعلي، كلاهما، لا يُبشر بأي جدوى.»

(٩–٢٥) قال كونفوشيوس: «على المرء أن يلزم جانب الولاء والإخلاص، ولا يُصادق مَن هم دونه، وإن سقطت به زلة فلا يستنكف أن يرجع إلى الحق؛ فإنَّه أهدى.»

(٩–٢٦) قال كونفوشيوس: «ربما كان من الجائز أن تُنَحي قائدًا مغوارًا عن جيش مهول؛ لكنك لا تستطيع أن تنزع إرادة صلبة من قلب رجل بسيط.»

(٩–٢٧) قال كونفوشيوس: «نظرت فلم أجد سوى «جونغ يو» هو وحده الذي يملك ما يكفي من غنى النفس، فلا يُخزيه أن يجلس بأسماله البالية إلى جوار مَن يرفلون في

الديباج وألوان من الفراء النادر، فربما يصدق عليه ما جاء في كتاب «الشِّعر» من تلك الأبيات:

«فأنت الرجل الذي
تهفو إليك القصائد؛
تعمر ساحتك،
وتخجل منك الدنايا؛
فكأنَّك واسطة عقد،
لا غضوب ولا مغاضب.
أتغار أنت؟
بل تغار منك تيجان وقلائد.»

فلمَّا بلغ «جونغ يو» أخذ يُردد تلك الأبيات مزهوًّا، فعاتبه كونفوشيوس، قائلًا: «أتظن أنَّ خصلة طيبة واحدة في الرجل تكفيه كل هذا الفخر؟»

(٩–٢٨) قال كونفوشيوس: «كان الشتاء هو الذي علَّمنا صمود المقاومة، فكم بقيت أشجار السرو تقاوم برد الثلج العاصف حتى آخر رمق؛ فهي آخر مَن يفقد أوراقه من فصائل الشجر جميعًا.»

(٩–٢٩) قال كونفوشيوس: «الذكي لا ينخدع، والكريم لا يندم، والشجاع لا يفزع أبدًا.»

(٩–٣٠) قال كونفوشيوس: «هناك نوع من الناس تجد فيه زمالة مثمرة على طريق العلم والدراسة؛ ولكنَّك لا تجد فيه صداقة متعاونة على طريق البحث عن الحقيقة، حتى لو وجدت فيه صداقة مؤازرة، ساعية إلى الحقيقة، فلعلك تعجز وإياه عن بلوغ هدف مأمول؛ بل إنَّك حتى لو توصَّلت معه إلى نجاح ذي قيمة، فلربما كان ذلك سببًا كافيًا لأن تدب بينكما ألوان من الشقاق والصراع.»

(٩–٣١) جاء في مطلع قصيدة صينية قديمة ما نصُّه:

«... أوراق مثل فراشات
تنثر، كالشِّعر، الجناح.
أوراق شجر الكرز
تخفق وتميل ... تتفتَّح.

ترقص!
تهمس لك بأن اشتياقي
أشجار كرز، شوق فراشات،
أوراق عشق أبدية ... وأنا ...
أشتاق إليك؛
لكن بيتك بعيد،
والطريق إليك أسفار،
وأشواك برية ...»

فلمَّا كان كونفوشيوس يستمع إلى تلك الأبيات، أشاح بيده معترضًا عند هذا المقطع قائلًا: «كلا ... هذا مما يقوله الشُّعراء، ولا يقوله العشَّاق أبدًا، فالمشتاق حقًّا لا يكترث لبعد المسافة بينه وبين بيتها مهما طالت الأسفار وامتدَّت الآماد.»

الباب العاشر

شيانغ دان

وجملته فصل واحد يقع في سبعة وعشرين قسمًا

(١٠–١) كان كونفوشيوس عندما يعود إلى مسقط رأسه يُقيم في مكان بسيط، ويجلس هادئًا صامتًا، لا يتحدث بشيء، كأنَّه نسي الكلام، فإذا ذهب إلى المعبد الجنائزي، أو إلى البهو الإمبراطوري، انطلق الكلام من فيه حلوًا طلقًا، كأنَّه امتلك ناصية البيان.

(١٠–٢) وفي لقائه مع صغار الموظفين في القصر الإمبراطوري، كان كونفوشيوس لطيف الحديث، رقيق الحاشية؛ أمَّا مع كبار الوزراء فقد كان يُبدي قدرًا من الجد والتوقير، فإذا جاء سيد المماليك (صاحب الجلالة الإمبراطور!) بدت على كونفوشيوس أمارات الإكبار والتبجيل (مع قدر ملحوظ من التهيُّب)!

(١٠–٣) وقد كان كونفوشيوس حريصًا على قواعد المظهر اللائق والسلوك القويم؛ فكان إذا ما كلفه الملك باستقبال الوفود الأجنبية أظهر الجد والاهتمام، ثم مشى بكل تؤده «كما يقضي البروتوكول!» نحو بهو الاستقبال الكبير، ويُشيع في الجو روح الود والاحترام بوجه صافٍ ولسانٍ طلقٍ، ومنظر متأنق، فإذا ما انتهت المراسم وغادر الضيوف، عاد إلى الملك بتقرير وافٍ عن المقابلة، فلا يدع كبيرة ولا صغيرة إلَّا أحصاها.

(١٠–٤) كان كونفوشيوس وهو يدلف من بوابة القصر الإمبراطوري الكبير يتصرف طبقًا للقواعد المتبعة في حرص بالغ، فإذا مرَّ أمام منصة العرش، اتخذ ملامح الجد، وأسرع قليلًا في مشيته، وغضَّ من صوته. فإذا ارتقى السلم المؤدي إلى المنصة، أمسك بجانب ردائه وأشاح به قليلًا، وصارت أفعاله تصدر في غاية الهدوء واللباقة. ثمَّ إذا عاد

أدراجه، نزل السلم في خطوات سريعة صوت، وقد بدت عليه علامات ارتياح، ثم ينطلق إلى مكانه المخصص له، فيجلس هادئًا رزينًا.

(١٠–٥) في المهام الرسمية التي أُوفَد فيها كونفوشيوس خارج البلاد، كان يرفع الجوهرة الملكية في الصندوق بكلتا يديه، ويعرضها حسب ما تقضي به المراسيم على جمهور الحاضرين، فيرفعها عاليًا بإجلال، ثم يخفضها منحنيًا باحترام، كأنَّه يتأهب لتسليمها ليد ضيف كريم، بينما تنطق ملامحه أثناء ذلك بالفخر والاعتزاز، فإذا مشى في الردهة الطويلة، اتَّخذ مسارًا مستقيمًا، كأنَّه يمشي على خيط رفيع. وكان يحرص على إظهار الحفاوة والبهجة أثناء حفلات تقديم الهدايا، ثم كان إذا جلس إلى مائدة المفاوضات مع أعضاء الوفود الأجنبية، ظلَّ محافظًا على مظهر يفيض بالود والثقافة.

(١٠–٦) العاقل مَن يدقق في أناقته ومظهره العام، واختيار المناسب من الثياب؛ ففيما يخص الملابس اليومية العادية (غير الرسمية) فليُعرض عن الحُلل ذات الحواف الرمادية أو البنفسجية أو الحمراء الوردية، فكلها لا تليق، أمَّا في شهور الصيف القائظ، فليس أكثر من الثياب الكتَّانية غير المبطنة، على أن تليها صديرية خفيفة. أمَّا الثياب الثقيلة (المناسبة للشتاء!) فأفضلها المبطَّن أو المزيَّن بالفراء، بشرط أن تتوافق درجات الألوان بين الأردية الظاهرة وما يبطنها من الفراء؛ فالمعطف الجلدي الأسود من جلود الضأن، يناسبه فراء أسود. أمَّا السترة الجلدية البيضاء، التي من جلد الغزلان، فبطانتها من الفراء الأبيض كذلك، والصفراء بطانتها فراء أصفر، من الفصيلة الثعلبية، ويفضَّل أن تكون الملابس اليومية فضفاضة وطويلة، على أن يقصر الكم الأيمن قليلًا إلى ما فوق الرسغ. ثم إنَّ مقدار طول بطانية النوم لا بد أن يكون بحساب طول الشخص مرة ونصف المرة. ويُفضَّل أن تبطن حشايا متكأ الجلوس، بأجود فراء الثعالب، وفيما خلا فترة الحداد، يستطيع المرء أن يرتدي ما وافق رغبته، فلا ينبغي أن يزيد طول المئزر أكثر من المعتاد، وذلك باستثناء ثياب العمل الرسمية. وليس لعاقل أن يذهب للمواساة بثياب جلدية سوداء مبطنة بفراء ولا بقبعة سوداء أيضًا، ويفضَّل أن يذهب السادة المهذبون إلى القصر الإمبراطوري في أوائل الشهور القمرية بثيابهم الرسمية الكاملة.

(١٠–٧) ومن الآداب القويمة، أثناء فترة الصوم، أن يرتدي الصائم لباس استحمام قطنيًّا، وألَّا يقرب الخمر أو اللحوم مطلقًا، كما ينبغي ألَّا يُقيم الرجل مع امرأته في غرفة واحدة أو يمسها طوال فترة الصوم.

(١٠–٨) لا ينبغي أن يغسل الأرز حتى يبيض لونه، ولا يقطع اللحم حتى يصير نتفًا بالغة الصغر، ولا يأكل طعامًا تحلَّلت أجزاؤه، أو تغير لونه، وأنتنت رائحته، وحذار

من طعام نيئ أو أكلة قليلة لا تشبع، ويتعفَّف عن ذبيحة مرَّت برقبتها السكين — على غير ما أقرته الشرائع المعهودة — ولا يأكل لحمًا بغير توابل. وإذا جلس إلى مأدبة فليكن طبقه المفضل هو الأرز وليس اللحم، فتلك من آداب المائدة. وأن يشرب من الخمر بالقدر الذي لا يضيع منه عقله، وليحذر ما تبيعه الأسواق العامة من لحوم أو خمور (فاسدة، غير مناسبة للاستهلاك!). واعلم أنَّ القليل من الأعشاب العطرة بعد الأكل، يشد اللثة ويروق النكهة، ويلطف اللعاب، ويذهب برائحة الطعام من الفم.

(١٠–٩) كان كونفوشيوس يُشارك الأباطرة في الأعياد الرسمية لتقديم القرابين، فكان إذا منحوه قطعةً من اللحم، تناولها فأكلها في اليوم نفسه، فلا يدع منها شيئًا في خزانة مطبخه، وقد اعتاد ألَّا يقرب لحوم القرابين، إذا مرَّت عليها ثلاث ليالٍ كاملة.[١]

(١٠–١٠) لم يكن كونفوشيوس يُحرك لسانه بالكلام عند الطعام وعند النوم.

(١٠–١١) كان كونفوشيوس مواظبًا على تقديم القرابين؛ ينتقيها مما تيسر له من الطعام، ومن أطايب المائدة، مُتْبِعًا ذلك بفروض الاحترام الواجبة.

(١٠–١٢) بلغت بكونفوشيوس عزة النفس والأنفة، أنَّه لم يكن يجلس على كرسي لم يُعَدَّ له حسب قواعد الآداب العامة.

(١٠–١٣) كان كونفوشيوس يختلف إلى مآدب السمر في قريته، يتحدث ويشرب مع الفلاحين، ولم يكن يغادر مجلسه، حتى يسبقه أكبر الناس سنًّا (مبالغة في الاحترام!)

(١٠–١٤) ولطالما شارك المُعلم في المناسبات الدينية والعقائدية التي كان يقيمها أهالي قريته من الريفيين البسطاء؛ فكان يرتدي زيه الرسمي، ويقف عند المدخل الأيمن للمعبد، وهو المكان المخصص للضيوف والزوار.

(١٠–١٥) كان من عادة كونفوشيوس، إذا عهد إلى رسول بإبلاغ تحية أو إرسال خطاب إلى صديق بعيد، أن يرافقه حتى أول طريق السفر ثم يودعه وهو ينحني له مرتين، احترامًا وعرفانًا.

(١٠–١٦) تلقى كونفوشيوس، من السيد «جيكانزي» مجموعة من الأعشاب الطبية النادرة، فقبِلها منه، وانحنى له احترامًا، لكنَّه قال: «بالرغم من أنِّي قبِلت تلك الأعشاب

---

[١] جرت العادة في الصين قديمًا، أن يصحب الوزراء ملوكهم أثناء حفلات تقديم القرابين «لروح الموتى»، فكان ينال الواحد منهم قطعة من اللحم المقدس، من باب المجاملة، ولمَّا كانت الأعياد تستمر مدة يومين كاملين، فقد اضطر بعضهم إلى تناول حصته في اليوم الثالث، وكان رأي المُعلم أنَّ اللحم يتلف، ولا يصلح طعامًا آدميًّا فوق ثلاث ليال.

الطبية؛ لكني لن أستعملها، وذلك لأنِّي لا أعرف شيئًا عن خصائصها ومدى نفعها وضررها، فليس كل دواء يشفي، ولا كل داء يُميت.»

(١٠–١٧) كان حريق هائل قد شبَّ في مذود للخيول، فهرع كونفوشيوس إلى مكان الحادث، وطفق يسأل: «هل أُصيب إنسان؟»، ولم يكترث لما أصاب الخيل، ولا سأل عنها في تلك الساعة.

(١٠–١٨) كان كونفوشيوس عارفًا بأصول الآداب مع أباطرة المماليك في زمنه، فكان إذا أرسل إليه الملك طعامًا، تناول منه شيئًا بسيطًا ليتذوقه، ثم يشكر سيده على الفضل والإنعام، فإذا جاءوا له من القصر بلحم نيئ، طبخه، وأخذ منه قدرًا يسيرًا ليقدمه قربانًا للموتى، فإذا أرسل إليه الأمير طيورًا نادرة أو حيوانات أليفة، على سبيل التحية، أخذها فترفق بها وأطعمها واعتنى بها غاية الاعتناء، وإذا دُعيَ إلى مأدبة ملكية بادر إلى الطبق الموضوع أمام جلالة الملك فأكل منه نزرًا يسيرًا، بحسب ما تقضي به الأعراف.

(١٠–١٩) ذهب جلالة الإمبراطور إلى كونفوشيوس، ليعوده في مرضه الذي ألمَّ به، وبالرغم من آثار المرض الذي أقعده ومنعه عن الحركة، فقد اجتهد المُعلم في تحية الزائر المهيب، فغطى نفسه وهو راقد بالزي الرسمي، وعقد حول جسده شارة التاج الإمبراطوري، وأدار وجهه ناحية الشرق، تعبيرًا عن الإجلال والإكبار.

(١٠–٢٠) أرسل جلالة الإمبراطور يستدعي كونفوشيوس في أمر عاجل، فذهب إليه، يهرول على قدميه، ولم ينتظر، حتى، ليسرجوا له الخيل ويعدوا له الموكب.

(١٠–٢١) كان من عادة كونفوشيوس إذا دخل معبدًا في مملكة «تشوغو» أن يتفقَّد كل الزوايا والأركان، مستفسرًا عن أدق التفاصيل، تلافيًا للوقوع في محظور، وتجنبًا للإساءة إلى مشاعر المصلين وطقوس العبادة.[٢]

(١٠–٢٢) كان كونفوشيوس إذا مات له صديق، ولم يجد كفنًا ولا أهلًا يشيعونه، تقدَّم فبادر بنفسه إلى القيام بكل أعباء الدفن والجنازة.

(١٠–٢٣) لم يكن كونفوشيوس يحب أن يحني رأسه، حتى وهو يستقبل هدايا أصدقائه الفاخرة الثمينة، إلَّا إذا كانت الهدية لحم قربان مقدس، فكان ذلك استثناءً فريدًا.

[٢] هذا الفصل تكرار لما جاء في متن الفصل الخامس عشر من الباب الثالث.

(١٠–٢٤) لم يكن من عادة كونفوشيوس وهو نائم، أن ينبطح أو يستلقي ممددًا على سريره مثل جثة هامدة. ولم يكن في حياته الشخصية (في بيته) يتصرف بمنتهى الحيطة والجدية اللتين اتسم بهما في مظهره أثناء العمل أو العبادة، وإنَّما كان يتبسَّط كثيرًا ويُلين عريكته.

(١٠–٢٥) لم يكن كونفوشيوس يتوانى عن مواساة محزون في ثياب حِداد، سواء أكان صديقًا له، أو من آحاد الناس، وكان يقف تحيةً للمسئول الحكومي الكبير، وللكفيف فاقد البصر، ولكل مَن يحمل كتبًا وصحائف «من الدارسين»، أو لنعشٍ في جنازة، فكان يميل برأسه نحوهم، أو يترجل إن كان راكبًا، فإذا دُعيَ إلى مأدبة فاخرة، حيًّا القوم بما يناسبهم من التقدير والاحترام، وكان إلى جانب هذا كله، رقيق الوجه والوجدان، تفزع ملامحه إذا عصفت الريح أو أرعد البرق في السماء.

(١٠–٢٦) كان كونفوشيوس شديد الحرص على قواعد السلوك، حتى وهو يصعد إلى مركبته؛ فكان يقف معتدل الجسد، ويقبض بكفيه على مقبض الأمان مستندًا إليه، ثم يصعد متمهلًا واثقًا، فإذا ما استوى قاعدًا، هدأت حركته، فلا يلتفت خلفه، ولا يصيح بصوته، ولا يُشير أو يلوِّح بيده كثيرًا ... أو نحو ذلك من الأفعال المحظورة على الراكب.

(١٠–٢٧) كان «زيلو» وكونفوشيوس يتجوَّلان قريبًا من أحد الأودية، ففيما هما سائران، إذ دبَّت أقدامهما على أرض مليئة بالحجارة فتعثَّرت بها وأصدرت ضجةً صاخبة، فإذا أسراب من الطيور تخرج من بين الأغصان والأعشاش وتفرُّ هاربةً إلى ربوة عالية، فلمَّا هدأ الجو حلَّقت فعادت إلى مواضعها الأولى، فقال كونفوشيوس: «يا لذكاء تلك الطيور؛ ولَّت هاربةً عندما استشعرت خطرًا، وحطَّت عائدةً لَمَّا أدركت الأمان، فلا بد أنَّ لديها عقلًا يُدرك ويُحلل ويستجيب ويتألف على نحو بالغ الدقة والإتقان!» ثم إنَّ «زيلو» اتجه نحو الطيور ملوِّحًا لها بالتحية، فتقافزت الأسراب ذعرًا، وحلَّقت عاليًا في السماء.[٣]

[٣] تتفق بعض التحليلات التراثية الصينية على صعوبة تقديم اجتهاد تأويلي واضح لهذا الفصل، لذلك فقد بقي، بألفاظه الحالية، مستعصيًا على الفهم والشرح والتفسير لدى مختلف المدارس الكونفوشية، والسبب في ذلك يرجع — تقريبًا — إلى الأخطاء اللغوية الكامنة في بنية المتن الأصلي، أو لتسرب بعض الألفاظ إلى هذا المتن، سواء: بالنقد، أو الحذف، أو الإضافة، أثناء عملية الإملاء.

الباب الحادي عشر

شيانجين

وجملته ستة وعشرون فصلًا

(١١–١) قال كونفوشيوس: «إنَّ المتعلمين من أولاد البسطاء يبدءون طريق حياتهم بتحصيل العلوم والفنون ومبادئ الذوق الرفيع، عبورًا إلى الترقي في سلك الوظائف العامة والمراكز الاجتماعية، أمَّا أبناء الذوات فيقفزون مباشرةً إلى الوظائف المرموقة والمراكز الاجتماعية المتقدمة، وبعدها يتخبطون دروبًا ومسالكَ وعِرةً لاكتساب ما فاتهم من علمٍ وفنٍّ وذوقٍ أصيلٍ، ولو خُيِّرتُ لفضلتُ الذين يبدءون بالعلوم والفنون.»

(١١–٢) قال كونفوشيوس: «إن نسيتُ، فلن أنسى — ما حييت — أولئك الذين قاسوا معي أهوال الترحال والسغب والمشقة في منطقتَي «تشن» و«ساي»،[1] لقد ذهبوا وما عاد أحد منهم باقيًا إلى الآن.»

(١١–٣) تميَّزت كل طائفة من تلاميذ كونفوشيوس بنبوغها وتفوقها الخاص في ميادين العلم المختلفة، ففي الأخلاق والفضائل، كان هناك «يان يوان»، و«مينزي تشين»، «ران بونيو»، «جون كونغ»، وفي البلاغة والبيان: «زايو»، «تسيكون»، وفي أصول الحكم وقواعد الإدارة: «رانيو»، و«زيلو»، أمَّا في التراث والأدب القديم، فقد برع كلٌّ من: «زايو» و«زيشيا».

[1] تشين و«ساي» مدينتان، كان كونفوشيوس أثناء تجواله بهما قد فقد الأثر، وضلَّ الطريق، وكان تلامذته معه، ثم إنَّ طعامهم نفد، وقاسوا أهوالًا، فلمَّا اهتدوا إلى مملكة «لوقو» ذهب كلٌّ إلى وجهته، وشغلتهم الحياة. فمِن ثَم كان التلميح مشحونًا بـ «نوستالجيا» الحنين والتذكار.

(١١–٤) قال كونفوشيوس: «لا أظن أنَّ «يان هوي» هو خير الأصحاب وأقرب المخلصين؛ فهو يوافقني على كل ما أقوله وتعجبه كل آرائي، ويهز لي رأسه طربًا إذا كلمته ... كلا ... هذا الرجل لن ينفعني بشيء (لا يصلح لصداقتي)!»

(١١–٥) قال كونفوشيوس: «كم أحسد «زيشيان» على وفائه لأسرته؛ فهو وإياهم في رباط ود متين، حتى أظن أنَّ أهل الأرض جميعًا لا يقدرون أن يزيِّفوا قلبه أو يفسدوا إخلاصه.»

(١١–٦) كان «نان رونغ» — تلميذ كونفوشيوس — يردد الكثير من أبيات الشِّعر القديم، وبخاصةٍ ما ورد في «كتاب القصائد»، فأُعجب المُعلم بحسه المرهف وذوقه الراقي، حتى إنَّه زوَّجه بابنة أخيه.[٢]

(١١–٧) جاء «جيكانزي» إلى كونفوشيوس، وسأله: أي تلاميذك أكثر شغفًا بالعلم والدراسة؟ فأجابه: «كان «يان هوي» وحده أدأب وأحرص الناس على الدرس والتحصيل، حبًّا وشرفًا وغايةً، إلَّا أنَّه مات صغيرًا، ولم أجد على شاكلته أحدًا من بعده.»

(١١–٨) لَمَّا توفي «يان يوان» جاء أبوه «يان لو» — تلميذ كونفوشيوس أيضًا — إلى المُعلم ورجاه أن يفعل أي شيء كي يصنع للمتوفى صندوقًا جنائزيًّا مهيبًا، حتى لو اقتضى الأمر أن يبيع «يعني ... كونفوشيوس» مركبته الرسمية، فأجابه المُعلم قائلًا: «أيًّا كان الأمر، فقد سبق أن مات لي ولد يقصد ابنه (كونغ لي) ولم أصنع له إلَّا كفنًا بسيطًا، ولست مستعدًّا لأن أبيع مركبتي كي أشتري صندوق جنازة؛ فتلك العربة أُهديت لي مكافأة نظير

---

[٢] القصيدة التي كان يرددها «نان رونغ» كثيرًا هي قصيدة «باكوي» أو «الجوهر الكريم»، وقد وردت في كتاب القصائد، ومن أشهر أبياتها (التي تغنَّى بها نان رونغ):

«لا عليك من حبة رمل
علقت بوجه ياقوتة زهراء.
تلك ... أمور بسيطة،
تلك كذبة بيضاء
قلها ... ولكن ...
حذار من كلمة قاسية
مدببة ... قاتلة ...
فليس أقتَل من حروف الكلمات.»

عملي كوزير سابق في بلاط جلالة الإمبراطور، ولا يجوز لي — حسب التقاليد — أن أمشي بين الناس من دون مركبة رسمية.»

(١١–٩) في اليوم الذي توفِّي فيه «يان يوان» (أحب تلاميذ كونفوشيوس إلى نفسه … كان يُعِدُّه ليخلفه على عرش الحكمة والفلسفة الصينية … لولا الموت الذي عاجله!) وقف المُعلم بين تلاميذه، وشخص ببصره إلى السماء وهو يبكي ويقول: «أيتها السموات … لقد فجعتِني بموته … قتلتِني بفقده!»

(١١–١٠) عندما توفِّي «يان يوان» حزن عليه كونفوشيوس، وانتحب، حتى أخذ بعض تلاميذه يواسونه ويهدئون خاطره قائلين: لقد انفطر كبدك حزنًا عليه يا سيدي، وإنَّك لتجزع لموته، مثلما لم تجزع لأحد قبله … فهوِّن عليك! فأجابهم: «لم أُصَب بمثله قط، فلهذا تبكيه عيني بدموع حياتي كلها!»

(١١–١١) عندما توفِّي «يان يوان» فكَّر زملاؤه في إقامة مراسم جنائزية مهيبة، فاعترض كونفوشيوس متعللًا بأنَّ ذلك أمر غير جائز أصلًا، إلَّا أنَّ التلاميذ تشبثوا بفكرتهم، ونفَّذوا رأيهم. فلمَّا بلغ ذلك المُعلم، قال لهم: «لقد كان يان يوان يعاملني ببالغ الود والاحترام، وكأني أبوه الذي تعهده بالتربية والرعاية، إلَّا أنِّي لم أكن أحب أن أعامله بوصف واحدًا من أبنائي (حتى لا تثور أنفسكم بتفضيلي إياه!) ولم أكن لأوافق أبدًا على فكرة الجنازة المهيبة تلك؛ بل أنتم الذين اقترحتم، وقمتم بكل الترتيبات (برغم معارضتي إياكم!).»

(١١–١٢) جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله عن أفضل الطقوس الممكنة لاسترضاء الأرواح الهائمة في الملكوت، فأجابه قائلًا: «وهل فعلنا ما يُرضي البشر، حتى نسعى لإرضاء الأرواح؟» ثم إنَّ الرجل سأله ثانيةً: أتدري سيدي، ما هو الموت؟! فأجابه: «لئن كنَّا لم نفهم كُنهَ الحياة بعد، فكيف لنا أن نعرف ماهية الموت؟»

(١١–١٣) كان مينزيشيان مؤدبًا فاضلًا، يُعامل أستاذه «كونفوشيوس» باحترام وإكبار، أمَّا «زيلو» فقد كان سمحًا كريمًا، مع صلابة في الطبع، بينما تميَّز كل من: «رانيو»، و«تسيكون» بخفة الروح ودماثة الخُلق، مع ميل واضح إلى مزاج التبسط والمرح، فهؤلاء النفر من الرجال كانوا أقرب مكانة وألطف ودًّا إلى كونفوشيوس، وكان يُثني عليهم؛ إلَّا أنَّه قال عنهم ذات مرة: «أشد ما أخشى على «زيلو» من تقلبات الدهر؛ فقد لاحظت في خصاله غلظة بادية ونزوعًا إلى الصلف والمعاندة، ومثل هؤلاء الناس (بهاتيك الصفات!) يموتون ميتة شنعاء.»

(١١–١٤) كان المسئولون في حكومة مملكة «لوقو» قد قرَّروا إنشاء مركز جديد لمبنى الخزانة العامة، وكان مينزيشيان حاضرًا أثناء المناقشات، فعلَّق على هذا المشروع بقوله: ما الداعي إلى إقامة مبنى جديد؟ ألا يُمكن تجديد وترميم المبنى القائم بحيث يُراعى تطويره حسب النظم الحديثة؟! فبلغ ذلك المُعلم، فقال: «عجبًا لهذا الرجل، يسكت دهورًا، وينطق جوهرًا منثورًا.»

(١١–١٥) قال كونفوشيوس: «بئس ما فعل «جونيو»، ألا يُدرك أنَّ إزعاج الآخرين غير مقبول! كيف يجرؤ على إحضار قيثارته ليعزف ويلهو في بيتي!» ثم إنَّ باقي التلاميذ عرفوا بهذا الأمر، فاستصغروا «جونيو»، وحقروه للغاية. وعلم كونفوشيوس بذلك، فانتقدهم قائلًا: «إياكم والتقليل من شأنه، وانظروا إلى اجتهاده في التحصيل (والنواحي الإيجابية في شخصيته!)، فقد درس علومًا لا بأس بها، ولا ينقصه إلَّا النزر اليسير!»

(١١–١٦) جاء «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: أي تلميذَيك الأشد ذكاءً، «توانسون شي»،[٣] أم «بوشانغ»؟[٤] فأجابه: «أولهما شديد الذكاء والنبوغ أكثر من اللازم، والآخر ذكاؤه أقل من اللازم!» فسأله تسيكون: إذن … فهل يمكن القول بأنَّ «توانسون شي» أفضل من زميله؟ فردَّ عليه قائلًا: «في الحق، فإنَّ شدة الذكاء، مثل منتهى الغباء، كلاهما متطرف، كلاهما لا يصلح.»

(١١–١٧) كان «جيسون» رئيس عائلة «سونشي» أكثر ثراءً من الأمير «جوكون»، إلَّا أنَّه كان طمَّاعًا جشعًا. ثم إنَّ رانشيو[٥] أخذ يناصره ويتحيَّل له أخبث الوسائل ليزداد ثروةً. وبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال لتلاميذه: «إذا رأيتم «رانشيو» فأبلغوه بأنِّي لن أفتح

[٣] توانسو شي (٥٣٠ق.م.–؟) اسمه الأصلي «زيشانغ»، تلميذ كونفوشيوس، من دولة «تشنقو».

[٤] بوشانغ (٥٠٧ق.م.–؟) اسمه الأصلي زيشيا، من مواطني «جينقو»، عمل محافظًا لمقاطعة «جوفو»، ويُعتقد بأنَّه نقل وحقَّق الكثير من روائع التراث الصيني القديم عن كونفوشيوس مباشرة، من هذه الروائع: كتاب الشعر القديم، و«حوليات الربيع والخريف».

[٥] كان «رانشيو» وكيلًا لأعمال «جيسون»، وقد أراد هذا الأخير أن يزيد مقدار الضريبة المفروضة على الإقطاعيات، وأرسل «رانشيو» يسأل «كونفوشيوس» النصيحة، فأجابه، ونصحه صراحةً بأن يعدل عن الفكرة، إلَّا أنَّ رانشيو اتبع أهواء جيسون، ونفَّذ قرارات فرض الضريبة، فساءت أحوال الناس نتيجة لتفاقم الاستغلال، فمن هنا نَبَذَه كونفوشيوس، وطالب تلاميذه بأن يطاردوه ليكشفوا أمره.

له باب بيتي منذ اليوم، فما عاد تلميذي بعد فعلته هذه، وإنَّه عندي مذموم محتقر، ويُمكنكم أن تلهجوا بسيرته بين الناس وتفضحوا أعماله على الملأ، وإنَّه لمستحقٌّ لذلك!»

(١١–١٨) قال كونفوشيوس: «نظرت فإذا «كوتشاي»[٦] أقل تلاميذي فطنةً، أمَّا «سندشن» فقد كان أقلهم نشاطًا، وكان «جوانسون» أكثرهم تطرفًا في الرأي، ولم يكن سوى «جونيو» أكثرهم طيشًا من دون تبصر للعواقب.»

(١١–١٩) قال كونفوشيوس: «ليس أغرب من الأقدار! ولقد تأملت فرأيت «يان هوي» من أكثر تلاميذي نبوغًا في العلم ورفعة في الخلق والفضائل، لكنَّه، مع ذلك، يُعاني الفقر المدقع، والعوز المرير، بينما كان «دوانموسي» من أشد تلاميذي سخطًا على الواقع المؤلم، فلمَّا انخرط في الأعمال التجارية، ازدهرت حاله، وصارت الأيام تزيده هناءة وعيشًا رغِدًا.»

(١١–٢٠) جاء «زيجانغ» إلى كونفوشيوس، وسأله عمَّا يجب أن يفعله المرء كي تسمو أخلاقه، ويسلك طريق الخير والفضيلة، فأجابه بقوله: «الماجد لا ينهج طريقًا سهلًا سلك به السابقون، ولا يطمح إلى ارتقاء درجة القداسة والاكتمال، فذلك مما لا يبلغه إنسان أبدًا.»

(١١–٢١) قال كونفوشيوس: «يعجبني في الرجل إخلاصه ومروءته، وحميد خصاله، لكني أتمهَّل كثيرًا، وأتأمل أكثر، قبل أن أشهد له ببلوغ منزلة الشرف العظيم، فمَن يدري إن كان نزيهًا صادقًا أو دعيًّا كاذبًا.»

(١١–٢٢) قام «زيلو» إلى كونفوشيوس، فسأله: أترى ينبغي على المرء أن يتبع النظر بالعمل، وأن يقرن الفكر بالتطبيق والممارسة؟ فأجابه: «ولماذا تنطلق مباشرةً من خير الفكر إلى مجال العمل دون التروي والتدبر، أليس لك أب تستشيره، أو أخ ترجع إليه؟!» ثم قام «رانشيو» أيضًا وسأله السؤال نفسه (بصيغة مختلفة بعض الشيء!) فأجابه المُعلم: «نعم، لا مراء في أنَّه يجب على المرء أن يقرن الفكر بالتطبيق.» وهنا، قام كون شيهوا، وقال لكونفوشيوس: أنت تحيرني يا سيدي، فقد سلك كلاهمًا أمرًا واحدًا فأجبت إجابتين مختلفتين، فهلَّا تفضَّلت بإيضاح المُعمَّى وإزالة العجمة؟! فقال له المُعلم: «أمَّا «رانشيو» فهيَّاب متردد؛ فشجعته على الإقدام، لكن «زيلو» طائش أرعن؛ فأردت كبح جماحه!»

---

[٦] كوتشاي: أحد التلاميذ، كان قصيرًا، رَبعةً، وبرغم غبائه الشديد، فقد اشتهر بإخلاصه ووفائه لأسرته.

(١١–٢٣) لمَّا وقع كونفوشيوس في أسر الحصار ببلدة «كونغ»، لحق به كل تلاميذه، ما عدا «يان يوان»؛ فقد ضلَّ الطريق، ووصل متأخرًا، فقال له كونفوشيوس: «أين كنت؟ لقد ظننت أنَّك هلكت وانقضى أمرك.» فأجابه «يان يوان»، قال: كيف أموت وأنت حي ترزق … لقد ظننت أنَّه لا ينبغي للتلميذ أن يسبق أستاذه، حتى في تلك الأمور!

(١١–٢٤) جاء «جيزيان» (أحد كبار عائلة جيسون) إلى كونفوشيوس، وسأله: أيصلح كل من «جونيو» و«رانشيو» للمناصب الوزارية؟ فأجابه قائلًا: «ما أحرى بك أن تسأل غيري، أما وقد سألتني، فأود أن أنبهك أولًا أنَّ من مقتضيات ذلك المنصب الخطير، خالص الولاء للأمير، ومنتهى الوفاء لمبادئ الأخلاق، وإلَّا فالاستقالة شرف وكرامة، وبعد، وبحسب ما ذكرت، فليس أكفأ عندي من «جونيو» و«رانشيو» لهذا المنصب.» فسأله الرجل ثانية: أتظنهما يبلغان مبلغ الطاعة العمياء لرؤسائهما؟ فأجابه: «إلَّا في غدر بصاحب الجلالة، أو عقوق بأهل.»

(١١–٢٥) قام «زيلو» بترشيح وتزكية «تسيكاو»[٧] لمنصب الحاكم العام لمنطقة «فيشيان»، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال له مُحتجًّا: «كيف تُرشح لهذا المنصب رجلًا لم يحصل على مؤهلات علمية كافية وجديرة لأعباء المسئولية؟ إنَّك بذلك تُفسد الحاكم والمحكوم!» فأجابه «زيلو» قائلًا: هناك، سيجد العمل والموظفين والإدارات الحكومية، والكفاءات المكملة (والآلهة وطقوس المعابد!)، فما حاجته إلى العلوم والشهادات الدراسية؟ فأجابه المُعلم بقوله: «لأنَّه رجل لن تجد على لسانه سوى هذه المراوغة و«السفسطة» التي تتحدث أنت بها الآن!»

(١١–٢٦) كان التلاميذ الأربعة: «زيلو»، و«سنغشي»، و«رانشيو»، و«كون شيهوا» يتجاذبون أطراف الحديث، وتشعَّب بهم الحوار. ثم إنَّ كونفوشيوس قال لهم: «أمَّا وإنِّي الآن قد شاخ عمري ونالت مني الأيام، فلست أطمح إلى منافسة أحد، ولا أظنني في موقع يسمح لي بأن أزاحم آخرين، ولقد كنتم تشكون دائمًا من عدم تقدير الناس لأفكاركم واكتراثهم لوجهات نظركم، فماذا لو ظهر أمامنا الآن مَن يُصغي إليكم ببالغ الانتباه والتقدير، أترى كنتم تقولون شيئًا؟!»

[٧] تسيكاو: هذا هو اسمه الأصلي، وقد عمل حاكمًا لأحد الأقاليم التابعة لدولة «تشوكو» في الصين القديمة. أحيانًا يُلقب بـ «شين جولين».

فانطلق زيلو من فوره، فقال: لو كنت صاحب سلطة في بلد ذات موارد لا تنضب لحكمتُ فيها بالإرادة، ولارتفعتُ بها إلى آفاق المجد، حتى لو كانت ترزح تحت نير احتلال، أو تئن تحت وطأة مجاعة، وما كنت أزيد على ثلاث سنوات، حتى أبث في روح أهلها الشجاعة والعنفوان، فأخوض بهم حربًا مهولة مظفرة، تبلغ بهم حد الكرامة والإنسانية. فتبسَّم المُعلم، وأشار ناحية «رانشيو»، وقال: «وأنت، فماذا عنك؟» فأجابه: لو ملكتني بلدًا كثير الأصقاع، مترامي الأنحاء، لجعلت أهله أوفر الناس رخاءً وأكثرهم ثروةً، وملكًا عريضًا، أمَّا العبادات والشعائر، فلا حيلة في هذا الأمر، إذ إنَّه من اختصاص أولي العلم والفضل. ثم التفت كونفوشيوس ناحية كون شيهوا، فسأله عن آماله وتطلعاته، فأجابه قائلًا: ما تمنيت قط سوى أن أعمل خادمًا في معبد، أؤدي الطقوس والصلوات، وأرافق النبلاء والأمراء في مواكب الاجتماعات واللقاءات الرسمية، وليس ذلك لأنِّي أتقن هذا العمل بثقة وتمكُّن الخبير العارف، وإنَّما لأنِّي أريد الاستزادة في التحصيل والعلم بروح الطالب المستطلع المثابر. وأخيرًا، نظر المُعلم ناحية «سنغشي»، وسأله: «فماذا عنك؟» وكان سنغشي مشغولًا بالعزف على قيثارته، فلمَّا سأله المعلم، وضع آلته جانبًا، وقال: لست كهؤلاء الثلاثة، وليس لي مثل ما لهم من تطلعات. فاستدركه كونفوشيوس: «لكنَّنا لم نرد ذلك، وإنَّما رأينا أن نخبر عمَّا تنطوي الجوانح وتختزنه سرائر النفوس». فانطلق «كون شيهوا» يقول: لا أطمح في أكثر من كساء قشيب، وجماعة من خير الأصدقاء، وليال ربيعية دافئة عند شواطئ أنهار جارية، حيث أستجم من فيض الشطآن وأتعطر من ريح السهول ونفثات المعابد المقدسة، ثم أعود إلى بيتي بقلب يتراقص بهجةً وهناءً.

ثم تنهَّد كونفوشيوس طويلًا، وقال: «أشد ما أميل إلى ما قاله «سنغشي»!» فلمَّا خرج كل من زيلو، ورانيو، وكون شيهوا تقدَّم سنغشي إلى المُعلم، وسأله: ما رأيك يا سيدي فيما سمعت من أولئك الثلاثة؟ فأجابه: «هي ليست إلَّا وجهات نظر تُرد إلى أصحابها.» فسأله: فلمَ ضحكتَ من قول زيلو؟ فردَّ عليه قائلًا: «لأنَّه لمَّا كان أساس الحكم هو التواضع والكياسة والتأني، كان لزامًا عليه أن يُبدي شيئًا منها، لكنَّه كان بعيدًا غاية البعد عن ذلك، فلهذا ضحكتُ!»

وسأله سنغشي ثانيةً: ألا ترى رانشيو وكون شيهوا — كليهما — قد أظهرا مقدرةً على تقلُّد زمام الحكم والقيادة أيضًا؟ فأجابه بقوله: «على رِسْلك! فإن كنتُ ضحكتُ على مقولة، فإنَّما لأنَّ قائلها لم يظهر التواضع الكافي، لكنِّي لا أشك أبدًا في مقدرته على القيادة أو تمكُّنه من فنون الحكم، أمَّا عن كُون شيهوا فقد تعجَّبت مما قاله كثيرًا: فعلى الرغم

من إجادته لكل قواعد المجاملات والطقوس، التي هي جزء من صميم شئون القيادة وأصول إدارة الممالك وأسس الأخلاق، إلَّا إنَّه يقنع بالعمل مساعدًا من الدرجة الثانية للأمراء والمسئولين، فمَن غيره يتولَّى زمام الأمر ويرتقي الدرجة العالية الشريفة!»

الباب الثاني عشر

يان يوان

وجملته أربعة وعشرون فصلًا

(١٢–١) جاء يان يوان إلى كونفوشيوس، وسأله: ما الإحسان؟ فأجابه: «أن تأخذ نفسك بالشدة والحزم حتى تروضها بما يلائم المبادئ الموضوعة، فذاك هو الإحسان، لأنَّك إن فعلت ذلك، شهد لك الخلق شهادة حق، واعترفوا لك بما لا يشوبه الباطل، فعليك بنفسك، بعزم إرادتك الفردية؛ فهي أمور لا تنفع فيها نصرة أو مدد.» ثم سأله يان يوان: فما السبيل إلى ذلك؟ وأنَّى لي بالوسيلة؟ فأجابه: «لا تنظرن إلى شيء يُخالف الشرائع، ولا تميلَن بأذنك إلى قول يجافيها، ولا تأتيَن قولًا أو فعلًا ينقض ركنها المتين.» فعندئذٍ قال يان يوان: فأنا على هذا المنهاج أسلك مريدًا مثابرًا، حتى لو بلغت العثرات أعناق السحاب.

(١٢–٢) جاء «جونكون» وسأل كونفوشيوس عن الإحسان، ما هو؟ فأجابه: أن تؤدي عملك بإتقان وإخلاص وأمانة، كأنَّك تبذل في سبيله ما تبذله لضيف عزيز غالٍ، وأن تعامل الذين تحت إمرتك بالحُسنى (بالخشية والحذر، كأنَّك تقيم شعائر العبادات!) ولا تفرضَن على غيرك ما لا تطيقه أنت [حرفيًّا: ما تكرهه لنفسك، لا تحبه لغيرك!]، فلا يبقيَن في الأرض مكان لشكوى أو تذمر.» وهنا قال جونكون: فأنا على طريقك يا سيدي، برغم أهواء النفس وهفوات العقل الجامح.

(١٢–٣) جاء سيمانيو[١] إلى كونفوشيوس، وسأله عمَّا يكون الإحسان؟ فقال: «أن تحذر في قولك، وتعصم لسانك من الزلل.» فسأله ثانيةً: أيكون الإحسان هكذا ... مجرد

[١] سيمانيو: من دولة «شونغ»، كان خطيبًا مفوَّهًا، صاحب بلاغة وبيان وفصاحة.

حذر في القول؟ فأجابه كونفوشيوس: «إنَّ مَن يؤاخذ نفسه بما فعلت يداه، فيعرف حدود قوته وضعفه لا بد سيدقق كثيرًا قبل أن يُحرك لسانه في فمه. [حرفيًّا: كيف يجازف بالقول السهل مَن يُقدِّر دقة المخاطر وجدية العمل؟!]»[٢]

(١٢–٤) جاء سيمانيو إلى كونفوشيوس وسأله عن أعظم الناس أخلاقًا كيف يكون؟ وبم يُعرف بين الورى؟ فأجابه: «مَن حسنت أخلاقه، تشرق سيماه وتصفو، بغير أثر لضيق أو خوف في ملامحه.» فتعجب سيمانيو، وقال: أهو ذاك؛ أيكون الرجل الفاضل مشرق الطلعة، لا خائف ولا قلق ... ؟ (أهذا كل ما في الموضوع؟) فأجابه المعلم: «وكيف يجرب الخوف أو القلق مَن لم يقترف إثمًا يكبل ضميره، أو شائنة تثقل على وجدانه؟!»

(١٢–٥) جاء سيمانيو إلى زيشيا، وتحدَّث إليه بصوت مِلؤه الأسى، قال: يحزنني كثيرًا يا سيدي ألا يكون لي إخوة أشقاء مثل باقي الناس! فردَّ عليه مواسيًا، قال: «هناك حكمة قديمة مفادها أنَّ الحياة والموت بيد القدر، كما أنَّ الثروة والجاه تقدير من السماء، فليعمل الإنسان صالحًا وليحفظ نفسه من الزلل، وليترفق بالناس، فإنَّما الكل إخوةٌ!»

(١٢–٦) جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: ما السبيل إلى الكياسة والفطنة؟ فأجابه قائلًا: «اعلم أنَّ المرء يصير حكيمًا عاقلًا عندما يبلغه طوفان هادر من خبيث الأقاويل كسيل البحر، فيخسر عند قدميه زبد موج خائر، ولا يعد الرجل فطنًا ثاقب النظر إلَّا إذا أزال عن عينيه غشاوة من أكاذيب مغرضة تحجب أخفى أسرار الحقائق.»

(١٢–٧) جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، فسأله عن أساس الحكم في الممالك الكبرى، فأنبأه بذلك قائلًا: «أُسس الحكم تتمثل في ثلاث: احتياطي من غذاء وافر، قوة جيش ضاربة، وثقة بين الحاكم والمحكوم!» وعاد تسيكون يسأله: فماذا لو دعتني الحاجة إلى اختيار واحدة فقط من بين هذه الثلاث، فأيها ألقي جانبًا؟ فأجابه: «قوة الجيش الضارب.» فسأله ثانيةً: فأيًّا من الاثنتين الباقيتين أغفل من حسابي، إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك؟ فقال له المُعلم: «لك أن تدع احتياطي الغذاء الوافر، برغم ما قد ينجم عن ذلك من خطر الهلاك والمجاعة؛ لكن مسيرة الزمن علمتنا أنَّ الموت قدرٌ محتوم على الإنسان، في

[٢] تعليق كونفوشيوس هنا يتعلَّق — على نحو خاص — بسلوك «سيمانيو» المُشين في أحاديثه؛ باندفاعه الزائد في القول دون التبصر بالعواقب، فلمَّا ذهب ثلاثة من التلاميذ وسألوا كونفوشيوس عن التسامح، قام «سيمانيو» وسأله مثلهم، وبالطبع فقد أعطى الفيلسوف لكل واحد إجابة تتجادل بطرافة وملائمة مع طباع السائل.

كل الأحوال، شبعَ أم جاع، وإنَّما شر الهلاك ورأس البلاء جميعًا فقدان الثقة بين الشعب وحكومته.»

(١٢–٨) جاء «جيزشن» (أحد الوزراء في دولة «ويقو» بالصين القديمة)، إلى تسيكون، وسأله: قد عرفنا أنَّ الرجل بمخبره لا بمظهره، بشخصه المركوز في طبعه، وليس بسيماه البادية! ففيم إذن تأكيدكم على أهمية «الشكليات» الطقوسية وآداب المجاملات العامة؟ فأجابه: «مما يؤسف له أن يأتي هذا السؤال على لسانك يا سيدي وأنت الشريف الجليل، العليم بالأصول! لكنَّها كلمة سبقت (وما خرج من فم لا يعود) والكلمات مثل ركض الخيول، إذا انطلقت لا تنكص على أعقابها ولا ترجع القهقرى. والحق أنَّ المظهر والمخبر كليهما على قدر واحد من الأهمية؛ فأنت إن سلخت الجلد والفراء تساوت في ناظريك النمور مع الفهود وتشابهت الحملان مع الذئاب.»

(١٢–٩) جاء الدوق «أيكون» إلى «يورو»[٣] وقلبه مشغول بمسألة تُحيره، وقال له: لا ندري كيف نجد موارد كافية لإصلاح الأحوال المالية المتعثرة، وما العمل وقد أجدبت الأرض وهزل الزرع والحصاد في عامنا هذا؟ فنصح له «يورو» بتطبيق نظام جباية الضرائب بالنسبة العشرية، فردَّ عليه الدوق قائلًا: لو فعلت، فلن يعود عليَّ هذا بما يكفي، حتى لو رفعت الضريبة إلى عشرين بالمائة، فلن تغلَّ شيئًا ذا بال. فأجابه يورو: «إنَّه لأمر عجيب أن يعسر الحاكم وتوسر الرعية، والأعجب، بل والأغرب منه، أن يُعبِّئ الحاكم خزائنه على حساب رعية فقيرة معسرة!»

(١٢–١٠) جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، فسأله عمَّا تحسُن به أخلاق المرء، وما يَهدي إلى التبصر في الأمور وتبيان الحق من الباطل، فأجابه: «عليك بالمخلصين الصادقين، فعندهم منابع الفضيلة، فانهل مما تجده عندهم تحسن أخلاقك، ثم إنَّك إذا أحببت إنسانًا تمنَّيت له الخير وطول البقاء، وإذا أبغضت أحدًا لعنته وتمنَّيت له المنايا، أليس كذلك؟! لكنَّك إن كنت في موقف تدعو فيه بالخير والشر معًا، تُحب شيئًا وتبغضه في آن واحد، فذلك هو الضلال بعينه، فافهم ذلك!»[٤]

---

[٣] يورو: هو نفسه «يوزي» — أحد التلاميذ — راجع رقم (٦) من الهامش.

[٤] جاء في نهاية المتن الأصلي لهذا الفصل، اقتباس شعري من «كتاب القصائد»، عبارة عن أبيات شعرية قليلة، تقص حكاية فتاة تزوَّجت وأقامت بمنطقة نائية مع زوج يُحب التغيير، لمجد الولع بالمظاهر وحب الاستعراض، مما أوغر صدر الزوجة ضده، الأبيات تقول:

(١٢–١١) جاء الأمير «جين» من دولة «تشيقو» وسأل كونفوشيوس عن فلسفة الحكم في البلاد، فأجابه: «الأساس عندي هو أن يلزم كل كاهن معبده، وكل شيخ طريقته، فللأمير إمارته، وللوزير مكانته، وللوالد مسئوليته، كما على الابن طاعته.» فردَّ الأمير من فوره: صدقت وأحسنت يا سيدي، فلو لم يكن الأمير أميرًا، والوزير وزيرًا، ولكلٍّ حدودُ طقوسِه، ومجال نفوذه، لفسدت الأحوال والممالك، ولما وجدنا ما نقتات به، حتى لو تكدَّست الغلال في المخازن.

(١٢–١٢) قال كونفوشيوس: «نظرت فلم أجد سوى «جونيو» وحده هو الذي يملك القدرة على أن يحكم في قضية شائكة، مكتفيًا بشهادة طرف واحد في النزاع؛ ذلك لأنَّه، بما عُرف عنه من نزاهة وصدق وإخلاص، يستخلص شهادة الحق من ضمير المتخاصمين لديه.» [٥]

(١٢–١٣) قال كونفوشيوس: «لَمَّا كنت متوليًا شئون القضاء في دولة «لوقو»، فقد كنت أنظر في القضايا القانونية، ولم أكن أتبع منهاجًا يخالف الشرائع المعهودة؛ فما تقاعست يومًا عن فض المنازعات، ولا عطَّلت إقامة الدعاوى أو الشروع في التمهيد لإجراءاتها بأيَّة حال.»

(١٢–١٤) جاء «زيجانغ» إلى كونفوشيوس، وسأله النصيحة في مجال الوظائف الرسمية، فقال له: «على من يتولَّى منصبًا رسميًّا عامًّا أن يُدقق فيما يصدر على لسانه،

كل ألوان الطيف بقلبك …
قلب مطاطي،
لا يثبت، لا يفزع،
لا يعرف إلَّا البغض لماضي السنوات.
يئد أحلى الذكريات،
ويلهثضراعة لليالٍ وهمية.
شعائر طقوس حجرية … (إلخ … إلخ).

وقد ظلَّت هذه الأبيات لغزًا محيرًا أمام المفسرين، وتميل معظم آراء النقد الكلاسيكي إلى اعتبارها نقلًا مشوهًا، أو خطأ في ترتيب فصول المتن القديم، إذ لا تلتحم عضويًّا بنص السرد السابق عليها. (المترجم)

[٥] هناك جملة أخرى ملحقة في نهاية النص الأصلي، ترجمتها: «لقد عرفت «زيلو» زمنًا، فهو الرجل الذي لا يحنث أبدًا بوعوده». وكما هو واضح، فليست هناك رابطة منطقية بينها وبين جذر المعنى في السرد الأصلي للنص، لذلك، يعدها بعض النقَّاد حشوًا ارتجاليًّا ناتجًا عن خطأ في التبويب القديم. (المترجم)

فلا يقولن إلَّا ما هو حق، وألَّا يُقصِّر أو يتراخى في مستوى أدائه العام، وأن يُطبِّق اللوائح والنظام بكل إخلاص وتفانٍ.»

(١٢–١٥) قال كونفوشيوس: «إنَّه لا يضل أبدًا مَن طالع الآداب القديمة، ووعاها بقلبه وعقله، ثم أدَّب نفسه بالمبادئ القويمة والنهج الشريف العالي.»

(١٢–١٦) قال كونفوشيوس: «الماجد الشريف يُعين على فعل الخير، ولا يُعطي يده للشر، أمَّا الدنيء الأحمق، فيسلك عكس ذلك تمامًا.»

(١٢–١٧) جاء «جيكانزي» إلى كونفوشيوس وسأله عن أساس الحكم، كيف يكون؟ وما هو؟ فأجابه: «الحكم كلمة صيغت من معنى الإحكام والضبط والاستقامة بلا عوج، فإن لزمت هذا المعنى ووطدت نفسك عليه انقادت لك الدنيا بأَسرها.»

(١٢–١٨) اشتكى «جيكانزي» من كثرة قضايا السرقة والنهب في مملكته، فذهب إلى كونفوشيوس يطلب مشورته، فأجابه: «إن نهيت نفسك عن اشتهاء الثروات وجشع العيش وباذخ الترف، لما جرؤ أحد على السرقة، حتى ولو حرَّضته عليها تحريضًا.»

(١٢–١٩) ذهب «جيكانزي» إلى كونفوشيوس فسأله في موضوع يتصل بشئون الحكم فقال: ما رأيك لو ضربت رقاب المفسدين جميعًا، وتقرَّبت إلى المصلحين الأخيار، أتكون تلك سياسة حكم داخلية يحالفها التوفيق؟ فأجابه المُعلم: «لماذا يتحتَّم ضرب رقاب الناس لكي تكون سياسة الحكم موفقة؟! من أين لك بتلك الضلالات؟ أما علمت أنَّك إذا أردت إصلاح البلاد، وسعيت مخلصًا في سبيل هذا الغرض استجاب لك العامة، وصارت لك مددًا يفوق المدى؟ فمثل الحاكم كمثل الريح المدوية الشديدة، ومثل الشعوب كمثل أهداب الزرع والنبات، تميل دائمًا في اتجاه العاصفة، وتومئ بأعناقها نحو مسارها وغايتها.»

(١٢–٢٠) ذهب زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: ما الوسيلة التي يتمكَّن بها طالب العلم من امتلاك ناصية المعرفة؟ فأجابه: أن يعلو شأنه ويذيع صيته في الأنحاء، سواء أَعَمِلَ في البلاط الملكي أم في مكتب رسمي متواضع القيمة. فردَّ عليه كونفوشيوس، قائلًا: «إذن، فأنت تقصد بريق الشهرة والصيت الذائع … يعني أن يكون المرء معروفًا لدى الكافة، أمَّا أن يملك زمام المعرفة فذلك شيء آخر، إذ إنَّه يعني أن يحوز الفرد إخلاصًا واستقامة واحترامًا إلى جانب مقدرته على الوعي بالدنيا والحياة والناس من حوله، وتقدير الآراء والانفعالات [كذا] بدقة متناهية، فذاك هو صاحب العلوم وسيد المعرفة، تلك هي

خصاله، سواء أعمل في أعلى السُّلم الاجتماعي أم في أدنى درجةٍ منه؛ أمَّا طالب الشهرة، فمتكلفُ فضائل، يُحرك بها لسانه وتنفر منها يده، فهذا هو المرائي، سواء كان رجل دولة عظيم المكانة أو عاملًا بسيطًا في ديوان حكومي زهيد القيمة.»

(١٢–٢١) خرج فانش بصحبة كونفوشيوس، وتوجها ناحية المذبح المقدس، وبينما هما يتجوَّلان، إذ سأله قائلًا: قل لي يا سيدي، كيف السبيل إلى تأصيل الفضائل والأخلاق في طبع الإنسان؟ قل لي كيف السبيل إلى استئصال جذور الشر من الوجدان؟ وكيف يدرك المرء أنَّه فاقد الصواب؟ وأجابه كونفوشيوس، قال: «هذا سؤال جيد، لكن دعني أسألك أنا: أليست المبادرة إلى عمل السواعد قبل الحديث عن المكسب والخسارة أجدى وأنفع من الناحية السلوكية؟! أليست مراجعة النفس والنقد الذاتي — بدلًا من مراقبة الآخرين وملاحظة أخطائهم — أصوب وأحق في اكتساب الفضائل؟ ثم، ألا ترى معي أنَّ لحظة غضب أو حمق طائشة، يُمكن أن تورد موارد التهلكة، فيبطش بأهله، أو يظلم نفسه، ويحيق به ما لا قِبل له به، فاعلم ذلك وتأمله!»

(١٢–٢٢) جاء «فانش» إلى كونفوشيوس، وسأله عن معنى «الإحسان»، فأجابه: «الإحسان هو المحبة.» فعاد وسأله: وما هي الحكمة؟ فردَّ عليه قائلًا: «الحكمة هي البصيرة، والقدرة على التمييز بين الجيد والرديء.» فهزَّ «فانش» رأسه بما يدل على غموض المعنى، ودقة الدلالة. وراح المُعلم يزيده شرحًا بقوله: «أما علمت بأنَّك لو أنعمت على نخبة الأخيار بالجاه وعظيم المكانة، وجَّهت طموح المفسدين إلى السلوك القويم والعمل الصالح؟!» فخرج «فانش» وقد غمض عليه المعنى، ثم إنَّه قابل «زيشيا»، فقال له: كنت عند الأستاذ، وسألته عن الحكمة، فأجابني بأنَّها تعني تمكين الصلحاء من دفة الأمور، حتى تنصلح النفوس الدنيئة، فما معنى هذا؟ وردَّ عليه زيشيا قائلًا: المعنى هنا عميق الغور، فانظر وتأمَّل، فعندما تقلَّد الإمبراطور «شون» صولجان الحكم، بادرَ فاختار الحكيم «جاديو» إلى جانبه، وولاه أهم المناصب، اضطر المفسدون إلى التقهقر والانكماش، وعندما جاء الإمبراطور «تانغ»، اصطفى الماجد الشريف «آييني» فعيَّنه رئيسًا للوزراء، فما بقي للزمرة الدنيئة إلَّا أن تفر إلى جحورها، وتذوي في غياهب النسيان.»

(١٢–٢٣) ذهب «تسيكون» إلى كونفوشيوس وسأله عن كيفية معاملة الصديق لصديقه، فأجابه: «لصديقك عليك حق: أن تخلص له وتصدقه النصيحة، فإن لم يمتثل، فلا تراجعه، ولا تكن لحوحًا فإنَّ كثرة النصح تفقد الهيبة.»

(١٢–٢٤) قال «سنشن»:[٦] «العاقل يتخذ من الوعي الأدبي أساسًا لصداقاته مع الآخرين، بمثل ما يتخذ من صداقته دعمًا لكيان الفضائل والأخلاق الكريمة.»

[٦] شنشن: هو نفسه «سنغ زي»، راجع الهامش رقم (٢).

الباب الثالث عشر

زيلو

وجملته ثلاثون فصلًا

(١٣–١) جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله عن المثل الأعلى في القيام على شئون الحكم، ما هو هذا المثل وكيف يكون؟ فأجابه قائلًا: «هو أن تحث مواطنيك على التفاني في العمل، وذلك بأن تجعل من نفسك القدوة والنموذج الأول.»

(١٣–٢) لَمَّا تم تعيين «جونكون» وكيلًا لشئون أسرة «جي» الحاكمة، قصد من فوره إلى كونفوشيوس، ليستشيره في موضوع الإدارة الحكومية، ويطلب منه النصح، فأجابه قائلًا: «اجعل من نفسك قدوة لمرءوسيك، وتغاضَ عن طفيف التجاوز وهامش الخطأ، وارفع الكفء الجدير مرتبة عالية، واجعله في أرقى المناصب.» وسأله جونكون: فكيف لي أن أُفرِّق بين الكفء والدعيِّ؟ فأجابه: «ابدأ بمَن تعرف من الرجال ذوي الكفاءة والفضل، واجعل ذلك تقليدًا راسخًا يتبعك فيه التابعون.»

(١٣–٣) جاء «زيلو» وقال لكونفوشيوس: إنَّ أمير دولة «ويقو» ينتظر قدومك لتتولى شئون الإدارة الحكومية في البلاد، فماذا عساك تتخذ من إجراءات فور تقلدك زمام الأمور؟ فأجابه قائلًا: «سأبدأ قبل كل شيء بإصلاح نظام «الفئات الاسمية»[١] ليعود

[١] كانت دولة «ويقو» تمر بأزمة صراع حاد على السلطة بين أفراد العائلة الملكية في زمانها، وفي أجواء تغلي بالأزمات سقطت معايير وتقاليد ومواضعات اجتماعية مرتبطة بحدود الدور الاجتماعي والطبقي لكل من: الوالد – الابن – الإمبراطور – الوزير، لذلك رأى كونفوشيوس ضرورة الرجوع إلى المعيار الأهم وهو تصحيح نظام التراتب الاسمي «الذي يُمكن أن يحفظ الكيان كله من الفوضى والاضطراب».

إلى مساره الصحيح». فاستغرب «زيلو» قائلًا: وما الذي يدفعك إلى مثل هذا الإجراء التقليدي؟ وما الذي يُفيدك من قوالب متزمتة (عفا عليها الزمن)؟! فأجابه المُعلم: «ما أنضب قريحتك! أما علمت أنَّه لا ينبغي للعاقل أن يُدلي برأيه في مسألة لا يفقه أصولها! فإنَّ زلة لسان، يُمكنها أن تعصف بمنطق بيان، والمنطق إن لم يستوفِ أركانه بطلت قاعدته، وإن بطلت القواعد فسدت الصنائع، فإذا فسدت الصنائع انهدم ركن الشعائر وأساس المعاملات والقيم والفنون، فإذا ما انهار ذلك الصرح العتيد اختلَّ ميزان الثواب والعقاب، وطاشت مقارع القوانين، فإذا حُقِّرت رهبة الردع في النفوس اختلَّت الأمور، وفقد الناس رشدهم، واختلطت عليهم المسالك، فلذلك كان لزامًا على الماجد الأشرف أن يحرص في قوله وأفعاله على أصول المعاملات والتراتب الاجتماعي، ولا ينطق إلَّا عن ميثاق حق وبيان لا لَبس فيه ولا غموض، ولا يتحدث ارتجالًا بمزاج الصدفة والهوى، فحينئذٍ، تنفذ الأقوال سديدةً محكمةً إلى حيز الواقع المعقول!»

(١٣–٤) قصد «فانش» إلى كونفوشيوس، وسأله عن كيفية الزرع والري والحصاد؟ فأجابه قائلًا: «لا ينبئك في هذا مثل خبير؛ فأنا لست بزارع ولا حاصد.» ثم سأله «فانش» عن كيفية تنسيق حدائق الفاكهة والخضروات، فأجابه قائلًا: «فهذه كتِلك، لا علم لي بها» فخرج فانش وذهب إلى حال سبيله، فقال كونفوشيوس: «يا له من جهول أحمق! أما عَلِمَ أنَّ الناس يسلكون درب ملوكهم؟ فمَن يجرؤ على انتهاك شرائع قدَّستها الأباطرة؟ مَن يجرؤ من الناس على إزاغة طريق استقامت على يد الحكام، وكيف يجرؤ الناس على الكذب وقد صدقت أفواه أمرائهم؟! فهي أمور لو تأملها أصحاب الجلالة لسعت إليهم أفواج الخلائق تذعن بالخضوع والتفاني، فليت شعري، ما سر اهتمام صاحبنا بالزرع والمحاصيل والغلال؟!»

(١٣–٥) قال كونفوشيوس: «عجبت ممن قرأ «كتاب القصائد» كله بمحتواه البالغ ثلاثمائة قصيدة، ثم يفشل في أداء مهام مسئوليته الوظيفية الرسمية! وعجبت أكثر ممن حفظ القصائد عن ظهر قلب، ثم إذا به يعجز عن التصرف بمرونة ولباقة في بعثة (دبلوماسية) خارج الوطن، فكم هناك من قراءات ضائعة، قراءات، برغم كثرتها العددية، فهي لا تُغني فتيلًا!»

(١٣–٦) قال كونفوشيوس: «إذا التزم الأباطرة حدود الحق والعدل انقادت الشعوب راضيةً طائعةً، واستتبَّ الأمن ولو بغير قانون، أمَّا إذا جارت وزاغت عن جادة الصواب، انقلبت العامة ناكصةً عن الطاعة وشقَّت لواء العصيان، واستقبلت نداء الواجب والقانون بوجوه معرضة وآذان مقطوعة (لا تسمع ولا تُصغي)!»

(١٣–٧) قال كونفوشيوس: «إنَّ نُظُم الحكم في دولتَي «لوقو» و«ويقو» تتشابه لدرجة التماثل التام، فإذا البلدان كشقيقين توأمين أو فرسي رِهان.»[٢]

(١٣–٨) تحدث كونفوشيوس عن الأمير «جينغ»[٣] أمير دولة «ويقو»، فقال: «أكرم به من قانع عاقل؛ فهو — والناس تدري مَن هو — يتبسط في مسكنه وفرشه للغاية، إذ لَمَّا ابتنوا له منزلًا صغيرًا قنع به، وقال لِمَن حوله: «هذا هو ما أريده، لا أكثر ولا أقل»، فلمَّا فسَّحوا فيه قليلًا قال هذا يكفي تمامًا، لا تزيدوا على ذلك»، فلما رفعوا سقفه عاليًا بعض الشيء أشار إلى البنَّائين قائلًا: «حسبكم! لا تزيدوا في الارتفاع … فما أحقرها من غواية للنفس ومجلبة للدعة والترف!»

(١٣–٩) ذهب كونفوشيوس في زيارة إلى دولة «ويقو»، فاستقبله «رانيو» مُرَحِّبًا به، وأخذ بلجامِ فرسه، فقال له المعلم: «ما لي أرى الناس في بلادكم كثرة لا تُحصى أعدادهم؟!» فأجابه رانيو قائلًا: أعداد الناس هنا متزايدة فعلًا، فماذا ترانا فاعلين (حيال ذلك)؟! فقال له كونفوشيوس: «أوسعوا لهم في العيش والرفاهية.» فعاد يسأله: فماذا نصنع لهم بعد سعة العيش وترف الحياة؟ فردَّ عليه قائلًا: «فقِّهوهم في العلوم والآداب!»

(١٣–١٠) قال كونفوشيوس: «لو مُنحتُ وظيفةً رسميةً لعدَدتُها مسئوليةً عظيمةً، ولما انقضى عام واحد حتى يشهد الناس بكفاءة أدائي، ولما كنت أحتاج لأكثر من ثلاث سنوات حتى أبذل من الجد والإنجاز ما تشهد الكافة بتميزه وعظيم أهميته.»

(١٣–١١) قال كونفوشيوس: «لقد قيل إنَّه لو تقلَّد صولجان الحكم إمبراطور صالح لمدة قرن واحد من الزمان، لاستطاع أن يقضي على كل ألوان الفظائع والشرور وإهدار الدماء، وأقول: نعم، هذا صحيح تمامًا!»

(١٣–١٢) قال كونفوشيوس: «حتى لو اعتلى منصة الحكم قديس طاهر، حكيم زمان، فأقل ما يحتاجه ثلاثون عامًا؛ ليضع أساس دولة للخير والصلاح.»

---

[٢] كانت دولة «لوقو» في الأصل إقطاعية تتبع «جيدان» أمير مملكة «جو»، بينما كانت دولة «ويقو» تخص الأمير «كانشو» شقيق «جيدان»، وكانت العلاقات بين الدولتين طيبة للغاية، تمامًا كنظم حكمها المتماثل، فمن ثم كانت مقولة كونفوشيوس تتضمن تورية خفية. (المترجم)

[٣] كان الأمير «جينغ» يشغل مَنصبًا بارزًا في دولة «ويقو»، وكانت مظاهر الثراء في عهد الممالك القديمة تقليدًا شائعًا بين أمراء الإقطاع؛ فمن ثم كانت ملحوظة كونفوشيوس حول بساطة الأمير وسلوكه المقتصد المتقشف … مفارقة استلزمت الانتباه والتقدير.

(١٣–١٣) قال كونفوشيوس: «لا توجد صعوبة في فرض النظام وإقامة الأحكام، ما دام الأباطرة أنفسهم ينهجون بالرشاد والاستقامة، فإذا تأودت بهم السبل أو مالت منهم الموازين، فأنَّى لهم بفرض معايير ومبادئ هم أنفسهم أول مَن ينتهك أصولها؟!»

(١٣–١٤) عاد «رانيو» من عمله في ساعة متأخرة، فسأله كونفوشيوس عن سبب تأخيره، فأجابه: تعطلت بسبب الانشغال بالشئون الحكومية. فاستدركه المُعلم قائلًا: «بل قل شئون العمل التقليدية أو المعتادة، فذلك هو التعبير الصحيح منطقيًّا، أمَّا «الشئون الحكومية» فهي تعني ما يُشار إليه عادة من السياسات الرسمية العامة، مبادئها، أصولها، صياغاتها النظرية العامة، والتي يتم إبلاغي بها من حين لآخر، برغم أني أصبحت خارج دائرة المسئولية المباشرة بالتوظف الرسمي.»

(١٣–١٥) جاء الأمير «دينغ» من دولة «لوقو» إلى كونفوشيوس، وسأله: أصحيح ما يُقال من أنَّ كلمة واحدة يُمكن أن تزدهر بها عروش ممالك وتسمو بها بلدان؟ فأجابه المُعلم قائلًا: «ما هكذا يقول العاقل، فما أظن كلمة، مهما بلغت، تبلغ هذا التأثير؛ لكنَّه قيل قديمًا: «ليس الأمير كالوزير» ... ذلك أنَّ مسئولية الأمير أفدح، وأعباءه أخطر، فلو انصرف التأكيد هنا إلى إدراك الأمير لخطورة وكثرة أعبائه والتزاماته بالقدر الذي يثير حافز الجد والحذر، فتلك أقرب في دلالة مَن قال بأنَّ كلمةً قد تبني أوطانًا.» ثم إنَّ الأمير «دينغ» سأله ثانيةً: أصحيح أيضًا ما يُشاع من أنَّ كلمةً قد تهدم أمةً؟! فأجابه كونفوشيوس قائلًا: «هيهات أن تكون لكلمة مثل هذا القدر من الجسامة، إلَّا أنَّ واحدًا قال ذات مرة: «كنت أميرًا مهيبًا مسموعًا في قومي، فما وجدت سعادة تعدل ما كنت أجده من إنصات الناس لي دومًا بغير اعتراض أو مقاطعة»، ولا غبار على القائل إن كان سديد البيان، واضح العزم، فيكتفي بقوله؛ أمَّا إن كان السكوت عن كلماته خشية انتقاد أو مخالفة مصير الاجتراء عن اعتراضه، فتلك هي الكلمة التي خرَّبت أمة.»

(١٣–١٦) قصد الأمير «أيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله عن فلسفة الحكم، فقال له: «الحكمة في هذا الأمر أن تُدخل البهجة إلى قلوب رعاياك، وتملأ بالإعجاب عيون الغرباء، فيقصدوا بلادك من شتى الأنحاء.»

(١٣–١٧) لمَّا صار «زيشيا» حاكمًا عامًّا لإقليم «جوفو» ذهب إلى كونفوشيوس يسأله أن يُعلِّمه شيئًا من فنون الحُكم وفلسفة الإدارة، فقال له: «اقصد في أمورك، فلا تكن عجولًا متلهفًا، وأفسح لرؤيتك أوسع مجال، فلا تستعين وراء جشع خائب، فالاستعجال

يقصر بك عن أهدافك المأمولة، والجشع المتهالك يضيع اسمك وإنجازاتك وتاريخ مجدك الباهر.»

(١٣–١٨) ذهب الأمير «أيكون» إلى كونفوشيوس، وقال له: في بلدتنا رجل فاضل صريح الخلق، شجاع الرأي، يواجه القبيح عينًا بعين، ويُمسك السارق من تلابيبه ويقوده إلى المخفر، حتى لو كان أبوه هو السارق. فردَّ عليه كونفوشيوس بقوله: «لكنَّ الرجل الفاضل الصريح الخلق، الشجاع الرأي في بلدتنا ليس مثل رجلكم وأبيه، فعندنا يتجاوز الرجل عن فعلة أبيه، ويغض الوالد بصره عن قُبح ولده، فذلك أيضًا جانب من الآداب الحسنة والخلق الكريم.»[٤]

(١٣–١٩) جاء «فانش» إلى كونفوشيوس، وسأله عن أحسن الخُلق، ما هو؟ فأجابه: «البر بالوالدين، وإتقان العمل، والإخلاص للصديق. وإنَّها خصال ثلاث لا يختلف عليها امرؤ في مشارق الأرض ومغاربها.»

(١٣–٢٠) ذهب «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: قُل لي يا سيدي، كيف يكون الرجل المهذَّب الذي يستحق بجدارة لقب «النابغ الفطن»، فأجابه: «هو الرجل الذي إذا ندت عنه زلة أدمت قلبه خجلًا، وإذا اؤتمن حفظ الأمانة، ثم إنَّه لا يُخَيِّب أبدًا رجاء أهله ومعلميه.» وعاد تسيكون يسأله: فمَن يليه في المرتبة الثانية؟ فأجابه: «الذي يليه هو الرجل الذي يشهد له أهله والجميع (القاصي والداني) ببره ووفائه لإخوانه.» ثم سأله السائل: فمَن الأدنى مرتبةً من ذلك؟ فقال: «هو الذي لا يكذب في حديثه، ولا يتردَّد في أمره، وهو الأدنى درجةً؛ لأنَّه يؤدي ما وُكِّل إليه بأمانة (فلا يُفرق بين خير الأمور وشرها، حسنها وقبيحها!)، وهو، على حسمه وثبات جنانه، أقل النابغين منزلةً.» وأخيرًا سأله تسيكون: فما رأيك في أباطرة وأمراء زماننا؟ فأجابه مهللًا: «فإنَّما هؤلاء حواصل متخمة، وصدور ضيقة، لا يقع فيها العلم إلَّا لفظته، فهم دائمًا خارج القسمة: زبد ماء، وغثاء سيل.»

(١٣–٢١) قال كونفوشيوس: «اغتنم فرصة التعرُّف إلى صديق معتدل الرأي والمزاج والحياة؛ لا هو بالمتطرف المتهور، ولا بالجامد المتزمت، فإن لم تجده فسارع إلى معرفه اثنين: المتفائل الطموح، والطيب نقي القلب. فالمتفائل يشدك معه صاعدًا نحو الأمل، والطيب لا يؤذيك أبدًا ما حييت.»

---

[٤] لاحظ أنَّ جذر فلسفة الأخلاق عند كونفوشيوس يتمثل في مبدأَي: «عطف الآباء» و«البر بالوالدين».

(١٣–٢٢) قال كونفوشيوس: «هناك حكمة يتناقلها الجنوبيون مفادها أنَّ: «مَن لم يكن دواؤه الصبر والمثابرة، أعجزه أحقر الداء!»، وهي حكمة سديدة، وقد وردت عبارة في كتاب «التغيرات»[٥] تقول: «لا مفر لَمَن يحمل في صدره قلبين وثلاثَ إرادات متنازعة، (كناية عن التردد!).»

(١٣–٢٣) قال كونفوشيوس: «الذكي العاقل مَن سعى إلى فهم الآخرين، بالمشاركة الفكرية الواعية، دون انقياد أعمى، أمَّا الجاهل فإنَّه ينساق مع السائد في تبعية ببغائية ساذجة، بينما يطوي قلبه وعقله بعيدًا عن حميمية المشاركة الصادقة.»

(١٣–٢٤) ذهب «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: ما رأيك في رجل يحبه كل أهل بلدته؟ فأجابه المُعلم: «كلا، هذا محال!» فسأله ثانية: «فما رأيك في رجل يكرهه كل أهل بلدته؟» فأجابه: «وهذا أيضًا محال! فلا يكون الرجل صالحًا حقًّا حتى يُحبه كل الأخيار؛ بينما يكرهه كل الفجار في بلده.»

(١٣–٢٥) قال كونفوشيوس: «إنَّ تجربة العمل مع الرجل الفاضل العاقل سهلة دائمًا، لكنَّك لا تستطيع إرضاءه بسهولة؛ ذلك أنَّ وسائل التقرب المعهودة والمجالات (الملتوية!) لا تنطلي عليه، فهو جاد وذكي ويعرف كيف يختار رجاله بحسب الكفاءة والمهارة المناسبة، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ العمل عند الجاهل ليس سهلًا أبدًا، لكن أبسط وسائل المدارة والنفاق الرخيص تسعده للغاية، وتستحوذ على عقله، ولأنَّه مُدَّعٍ غبي، فإنه يُبالغ في شروط تعيين المتقدمين لديه، ويميل إلى التدقيق والتهويل في أتفه الأمور.»

(١٣–٢٦) قال كونفوشيوس: «المهذب العاقل دائمًا ما يكون ثابت الجنان، معتدل الطبع بغير تكلف ولا أَنَفَة، أمَّا المتهور الماجن، فغالبًا ما تجده متكبرًا صلِفًا، غليظ النفس والطبع.»

(١٣–٢٧) قال كونفوشيوس: «أربع خصال مَن كنَّ فيه، أنبت في قلبه أعرق الفضائل، وهي: العَزم، والحسم، والتواضع، والحذر عند الكلام.»

(١٣–٢٨) جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله: ما وسيلة المرء لكي يبلغ حد الكمال وحميد الخصال؟ فأجابه بقوله: «أن يُجيد لين القول وخشنَه، فلربما نصيحة موجعة استقام بها حال الصديق، ولعلها كلمة تشد إليه مودة الأخ الشقيق!»

[٥] كتاب التغيرات: أحد أهم كتب التراث الصيني القديم، يجمع بين علوم: الفلك والسحر والتنجيم.

(١٣–٢٩) قال كونفوشيوس: «سبع سنوات من التدريب العسكري الجيد، يُمكن أن تؤهل الفرد العادي لخوض معركة قتالية ناجحة.»

(١٣–٣٠) قال كونفوشيوس: «أن ترسل أفرادًا غير مدربين عسكريًّا إلى ميدان قتال لا يعني إلَّا أنَّك تُشيعهم إلى قبورهم.»

الباب الرابع عشر

شيانون

وجملته أربعة وأربعون فصلًا

(١٤–١) جاء «يوانشيان»[1] إلى كونفوشيوس، وسأله عمَّا يجلب الخزي والعار، فأجابه: «لئن كان من الطبيعي في وقت ازدهار الأمة أن يلتحق المرء بوظيفة رسمية، وأن يوسع على نفسه في العيش، يهنأ بما تدر عليه من دخل ومكانة طيبة، فإنَّه من غير الطبيعي؛ بل من المخزي، أن يظل المرء متمتعًا بنفس الوظيفة والراتب والمكانة في ساعة المحنة، عندما تضيق الحال وتتدهور البلاد.» ثم سأله «يوانشيان» ثانيةً: أيمكن أن يُشهد للرجل بالمروءة إذا تجنَّب البغضاء، والتكبر، والأنانية والجشع؟ فأجابه كونفوشيوس: «مثل هذا المسعى يستحق التقدير على كل حال!»

(١٤–٢) قال كونفوشيوس: «لا يليق بالمثقف الحقيقي (طالب المعرفة … أيضًا!) أن ينعم برغد العيش، ولا أن يلتذ بحياة سهلة مترفة.»

(١٤–٣) قال كونفوشيوس: «ليس على المرء حرجة في ظل دولة رشيدة طامحة، أن يتحرَّى الحقيقة والصراحة في الرأي والشجاعة في السلوك، أمَّا في دولة الظلام والفساد، فلئن كانت الاستقامة مسلكًا فاضلًا، إلَّا أنَّ كلمة الحق ينبغي لها أن تتلمس الطريق في حذر بالغ.»

[1] يوانشيان: (٥١٥ق.م.–؟) أحد تلاميذ كونفوشيوس، وقد اعتزل المجتمع بعد وفاة أستاذه، ولزم بيته فيما بقي من عمره.

(١٤–٤) قال كونفوشيوس: «من الجائز أن يقول الرجل المهذب حكمةً بالغةً أو حقيقةً دامغةً، لكن ليس لزامًا أن يكون كل مَن قال حكمة أو حقيقة رجلًا مهذبًا، ولئن كان المخلص الشريف يتصف بالجرأة والشجاعة، فليس كل جرئ بالضرورة مخلصًا شريفًا.»

(١٤–٥) جاء «نانكون» — أحد الدارسين — إلى كونفوشيوس، وقال له: «كان الملك «يوانغ»[٢] بارعًا في الرماية، وكان الحاكم «ياو»[٣] مقاتلًا بحريًّا من الطراز الأول، ومع ذلك فقد مات كلاهما ميتةً بشعةً؛ أمَّا الإمبراطور «يو»[٤] والسلطان «جي»[٥] اللذان بدآ حياتهما مزارعَيْن متواضعَيْن، فقد بلغا صولجان الحكم وعرش الأباطرة! فكيف تُفسر لنا تلك الأحجية التاريخية الغريبة؟ ثُمَّ إنَّ كونفوشيوس سكت ولم يرد بشيء، فلمَّا قام السائل وخرج، تحدَّث عنه المُعلم بإعجاب شديد ممتدحًا أخلاقه واتجاهه المنادي بالمنافسة الشريفة (كوسيلة مشروعة للوصول إلى كرسي الحكم بدلًا من الانقلابات الدموية!)

(١٤–٦) قال كونفوشيوس: «ربما أتوقع أن أجد بين المهذبين بعضًا ممن قست قلوبهم، لكني لا أتوقع أبدًا أن أجد بين الحمقى الجهلاء واحدًا مهذب الخلق.»

(١٤–٧) قال كونفوشيوس: «كيف يُمكنك أن تزعم إخلاصك لشخص، دون أن تبذل له النصيحة، وكيف تقدر أن تدعي الحب لإنسان دون أن تحثه على الكد والاجتهاد والعمل.»

(١٤–٨) قال كونفوشيوس: «كانت صياغة اللوائح والقوانين في مملكة «تشنغ» مسألة تجري في غاية الدقة والضبط، فقد كان بيشن[٦] هو الذي يتولى الصياغة الأولى

---

[٢] الملك «يوانغ»: تروي السير أنَّه كان حاكم إقليم «يوشونغ» في عهد أسرة «شيا» الحاكمة، وكان بارعًا في الرماية، وقد قيل إنَّه بعد استيلائه على الحكم بالقوة من يد الملك «تايكانغ»، جرى اغتياله هو الآخر — بالغدر — على يد الوزير «هانجو».

[٣] الحاكم «ياو»: تروي السير الشعبية أنَّه ابن «هانجو» — المتقدم ذكره — وكان مقدامًا جريئًا بارعًا في فنون القتال البحري، وقد قتل على يد الإمبراطور «شاوكان».

[٤] الإمبراطور «يو»: كان — حسب النصوص التراثية — إمبراطورًا حكيمًا في زمانه، حقَّق إنجازات ضخمة في إقامة الخزانات والسدود المائية، وفي الإصلاح الزراعي بصورة عامة.

[٥] السلطان «جي»: المؤسس الأول (المزعوم!) لأسرة «تشو» الحاكمة، وهو الذي علَّم الصينيين كيفية زراعة الحبوب، حتى اتخذه القدماء إلهًا للمزارع.

[٦] ★ بيشن، شيشو، زايو، يشان: كلهم وزراء بمملكة تشنغ.

للقواعد القانونية المبدئية، ثم يتسلمها «شيشو»٦* فيتفحصها ويُبدي ملاحظاته المحددة، ثم يناولها إلى «زايو»٦* الذي يقوم بتنقيح الصياغة وضبط المتن بنصوص وهوامشه، وأخيرًا، يأتي «زيشان»٦* فيحرر ويوثِّق النسخة المعدَّة للاعتماد الرسمي كنسخة نهائية ومضبوطة وصالحة للعمل العام. وقد كان من النادر، في ظل هذا الإشراف الرباعي المشترك، أن تشوب تلك النسخة أيَّة أخطاء.»

(١٤–٩) جاء رجل إلى كونفوشيوس، وسأله عن أخلاق «زيشان»، فأجابه: «هو جواد شريف الأخلاق.» ثم سأله عن «زيشي»، فأشاح كونفوشيوس بوجهه بما معناه أنَّه دنيء لا يستحق الذكر، ثم سأله عن كوانجون — المتحدث الرسمي لدولة تشيقو — فأجابه: «لقد كان شديد البأس؛ فقد استولى على ثلاثمائة منزل من إقطاعية تخص أسرة «بوش»، مما نتج عنه تخريب هائل في مستوى المعيشة في الإقطاعية، إلَّا أنَّ شيخ الأسرة تكتَّم الأمر بلباقة ولم ينله بسوء حتى تُوفِّي.»

(١٤–١٠) قال كونفوشيوس: «من السهل على الغني الميسور أن يُعرض عن الخيلاء والزهو والمباهاة بمظاهر الثروة والترف، لكن من الصعب جدًّا على الفقير ألَّا يئن بالشكوى تحت وطأة الحرمان والفاقة.»

(١٤–١١) قال كونفوشيوس: «لعلي لا أتجاوز إذا قلت إنَّ رجلًا مثل «منكونشو» — مسئول كبير بمملكة «لوقو» — يصلح لمنصب المستشار الخاص لإمارتَي «جاو» و«وي» في دولة «جينقو»، لكنني أتجاوز كثيرًا؛ بل أبالغ بما يفوق طاقة المعقول، إذا قدَّرت أنَّه يصلح للعمل وزيرًا لأي من الإمارات الصغيرة، مثل: «تانغ» أو «شيوي».

(١٤–١٢) جاء «زيلو» إلى كونفوشيوس، وسأله: كيف يحوز الرجل تمام الأخلاق؟ فأجابه: «يحوز المرء عظيم الصفات وأتم السجايا، إذا اجتمعت له حكمة «زانوشون»[٧] — مسئول كبير بمملكة «لوقو» —، وورع «منكونشو»، وشجاعة «بيانشوانزي»، وذكاء «رانيو»؛ فإذا تمَّ له ذلك اتخذ من الموسيقى والفنون والآداب الراقية وسيلةً لتهذيب النفس، وترقية الحس.» ثم إنَّه صمت قليلًا، وعاد يقول: «إلَّا إنَّ هذه الصفات لا تُعد شرطًا لازمًا في كل زمان، فيُمكن أن يُعد الرجل مهذبًا فاضلًا في أواننا هذا، إذا استطاع

[٧] كان «زانشون» مسئولًا عظيمًا بمملكة «لوقو»، كان قد توقَّع، بتصوراته الدقيقة النافذة، سقوط أمير إقطاعية «شوانغ»، فقدَّم استقالته، واقترح سحب اختصاصات الإقطاعية منه، فما انقضت مدة من الزمن، حتى سقط الأمير مضرجًا في دمائه إثر عملية اغتيال، فاشتهر برؤيته الثاقبة.

أن يقاوم غواية الفحش والجشع والفساد، كما أنَّ المعيار الأساسي للإنسان الكريم الحر يبقى دائمًا في استعداده للتضحية بنفسه لأجل المبدأ، وفي وفائه لأمل الحياة، مهما كان شظف العيش.»

(١٤–١٣) ذهب كونفوشيوس إلى «كونمين جيا» — أحد الدارسين — وسأله عن «كوانشونز» — مسئول كبير بدولة تشيقو — قائلًا: «أصحيح أنَّ سيدك لم يكن يتكلم أو يضحك أو يخالط أحدًا من الناس؟» فأجابه الرجل بقوله: كلا ... هذا افتراء عليه، وقد كذب مَن أبلغك بهذا؛ فقد لزمت سيدي «كونمين» دهرًا، فما وجدته يتكلم إلَّا لضرورة؛ لئلا يتزيد. ولا يضحك إلَّا لسبب يوجب الضحك؛ لئلا يبتذل ويذمم. ولم يكن يأخذ شيئًا من أحد إلَّا بحقه، ولا يُعطي شيئًا إلَّا لِمَن يستحقه. ثم إنَّ كونفوشيوس تطلَّع إليه، قائلًا: «ما دريت أنَّ الأمر هكذا!»

(١٤–١٤) قال كونفوشيوس: «كان «زانجون» — وزير بدولة «لوقو» — قد تحايل على الأعراف والتقاليد ودفع أحد الأمراء بدولة «لوكو» لأجل إصدار مرسوم يقضي بتولي أولاده مناصب رسمية عظمى في المملكة، وقد أُشيع أنَّ هذا التصرف لا يُعد استغلالًا للنفوذ، فهل هذا معقول؟!»

(١٤–١٥) قال كونفوشيوس: «كان الأمير «أونكون» بدولة «جينقو» سقيم الضمير، ولم يكن على خلق مستقيم بأي حال، أمَّا الأمير «هوانكون» الذي بإمارة «تشيقو» فهو كريم النفس، سليم الطوية، غير خبيث ولا مخادع.»[8]

(١٤–١٦) جاء «زيلو» إلى كونفوشيوس، وقال له: لما قتل الأمير «هوانكون» أخاه الأكبر «زيشو» تأثر واحد من أتباعه، فقتل نفسه ومات منتحرًا؛ أمَّا ذلك المدعو «كوانشون»، وبرغم كونه الخادم المخلص لـ «زيشو»، فلم يكترث لما حدث، ولم يتأثر لفقده سيده؛ بل سرعان ما هرول نحو الأمير «هوانكون» وصار من خُدَّامه، فيا له من متلبد، غشوم، غليظ القلب، أيكون هذا الرجل إنسانًا مثل الآدميين حقًّا؟! فأجابه المُعلم بقوله: «أما تذكر أنَّ

[8] كان الأمير «أونكون» واحدًا من أشهر القادة في الفترة التاريخية المعروفة بـ «حقبة الربيع والخريف» في التاريخ الصيني القديم، وقد أجبر كل الأمراء على تقديس ملك دولة «جوكو»، لذلك اعتبره كونفوشيوس منافقًا؛ أمَّا الأمير «هوانكون» فهو أيضًا من أبرز رجال الفترة التاريخية نفسها، وقد قام بحملات تأديبية في المناطق النائية، وضمها تحت سيادة ملك دولة «جوكو» في شجاعة وتفانٍ، لذلك تحدَّث عنه المُعلم بإعجاب.

الأمير «هوانكون»، كثيرًا ما جمع الأمراء والقادة وألَّف بينهم حقنًا للدماء؟ لقد فعل ذلك بفضل مجهود «كوانشون» نفسه، الذي لولاه، لدبَّت الحروب ونشبت الصراعات، فكيف نغمطه حقه؟ إنَّه هو الإنسان بكل معنى الكلمة.»

(١٤–١٧) جاء «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وقال له: أيُمكن أن يُقال بأنَّ «كوانشون» إنسان ذو ضمير حي؟ لقد رأى سيده يُقتل أمام عينيه، فلا هو دافع عنه، ولا هو قتل نفسه وفاءً لسيده وصديقه؛ بل الأدهى من هذا أنَّه بذل نفسه لخدمة القاتل وصار طوع يده. فأجابه كونفوشيوس قائلًا: «نعم، هذا صحيح، لقد أصبح طوع يدِه وواحدًا من أتباعه؛ ولكنَّه ما فعل ذلك إلَّا ليوحِّد به الصف ويجمع به كلمة الأمراء، ويوحِّد الدويلات والبلدان كلها على قلب رجل واحد، ولولاه لما صار الناس يرفلون في هذا النعيم الذي تراه اليوم، ولأصبحوا كقطعان الماشية، أو الخراف الضالة تهيم في بوادي الهمجية والتخلف، ترسل شعورها على الأكتاف، وتضم قمصانها إلى اليسار [الزي القومي للأقليات الصينية قديمًا!]، هل كان مطلوبًا منه ليصبح إنسانًا في نظرك أن يُلقي بنفسه في أخدود جبلي مجهول، ليُدق عنقه ويموت ميتة تعسة مثل جرذان الجبل، بغير ضجة أو قيمة أو شرف؟!»

(١٤–١٨) كان السيد «تشوان» في أول أمره وكيلًا لشئون أسرة «كونشوانز» الملكية، فلمَّا رشحه أميرها الأكبر لمنصب الوزارة، انتشر الخبر حتى بلغ كونفوشيوس، فعلَّق على ذلك، قائلًا: «هو يستحق الترقية، ويستحق قبل أي شيء أن يُمنح لقب «رجل دولة من الطراز الأول».»

(١٤–١٩) كان كونفوشيوس شديد الانتقاد لسياسة الأمير «لينغ» في مملكة «ويقو»، فكلَّمه «جيكانزي» في هذا الأمر، وسأله: فما دام الأمير يسلك سبيل الحماقة، كما ترى، فكيف إذن بقي عرشه قائمًا للآن ولماذا لم يَزُلْ مُلكه، وتتبدَّد مملكته؟ فأجابه المُعلم قائلًا: «من المستحيل أن تسقط مملكة يقوم على شئونها الخارجية واحد في مثل عبقرية «جونشيو»، ويتولى إقامة طقوسها وشعائرها الدينية الزاهد الورع «جوتو»، ويترأَّس ألويتها المحاربة قائد محنك داهية، مثل «وانسون جيا».»

(١٤–٢٠) قال كونفوشيوس: «مَن وعد بالمستحيل تعذَّر عليه الوفاء!»

(١٤–٢١) لمَّا تآمر «شن هنز» على قائده الأمير «جانكون» وقتله غدرًا وغيلةً، بلغ الأمر كونفوشيوس، الذي كان يتعبد، وقتئذٍ، في محرابه، فقام وذهب إلى «أيكون» أمير «لوقو» فأخبره بما حدث، وقال له: «أرى أن ترسل حملةً عسكرية لتأديب ذلك المارق الغادر!»

فأجابه الأمير، ووافقه الرأي، وطلب إليه الذهاب إلى الوزراء الثلاثة الكبار، فيبلغهم — على لسانه وباسمه — ضرورة اتخاذ اللازم، وصار كونفوشيوس وهو خارج من عنده يقول بين نفسه: «لولا سابق عملي وخبرتي كوزير مسئول لما قدَّرت خطورة هذا الوضع.» ثم إنَّه قصد إلى الوزراء الثلاثة الكبار: جيسون، وجون شن، وفنغون، لكنَّهم رفضوا، ثلاثتهم، القيام بتلك الحملات التأديبية. فنظر كونفوشيوس إليهم، وقال: «قد عرفت من رصيد تجربتي الفعلية مدى خطورة الأمر، فكان لزامًا عليَّ أن أحضر إليكم وأشعل فتيل الخطر.»

(١٤–٢٢) جاء «زيلو» إلى كونفوشيوس، وسأله: «كيف للمهذب أن يُرضي قائده الأمير؟» فأجابه: «بأن يبذل له الإخلاص، فلا يخدعه، ويبذل له النصح الأمين، ولو كان كوخز الشوك، فلا يمالئه ولا يتملقه.»

(١٤–٢٣) قال كونفوشيوس: «لا يعز المرء إلَّا إذا اشتغل قلبه بمبادئ العدل والإنسانية والمُثل العليا، ولا يذل إلَّا إذا جعل المنفعة والتربح والثراء الفاحش جُلَّ همِّه.»

(١٤–٢٤) قال كونفوشيوس: «ما أقبلَ القدماءُ على أبواب المعرفة إلَّا طلبًا للحكمة، وسعيًا لأجل مكارم الأخلاق وإشراق الهداية في مكامن الوجدان؛ أمَّا أهل زماننا فيتخذون مظاهر العلم زينةً وزخرف حياة، تشد إليهم إعجاب الناظرين.»

(١٤–٢٥) كان «شوبوي» — مسئول عظيم بمملكة «لوقو» — قد أرسل رسولًا إلى كونفوشيوس يبلغه تحياته، فاستقبله المعلم بترحاب شديد وأجلسه إلى جواره، ثم سأله عن سيده، وماذا يفعل، فأجابه المبعوث قائلًا: هو بخير، وما يزال يراقب أخطاءه ويحصيها على نفسه متمنيًا أن يعصم نفسه من الزلل، فهذا هو حاله في كل أوان. ثم إنَّ الرجل قام ومضى، وكونفوشيوس يرنو إليه بإعجاب، قائلًا: «أكرِم به من مبعوث ذكي فطن، فهكذا ينبغي أن تكون أخلاق الرجال نحو سادتهم الأجلاء.»

(١٤–٢٦) قال كونفوشيوس: «لا ينبغي للعاقل أن يتورَّط في شئون حكومية متخصصة لا يملك مسوغ البت فيها، ولا مسئولية القيام بأعبائها.»

(١٤–٢٧) قال كونفوشيوس: «ليس في الدنيا خصلة تأباها أخلاق الرجل الفاضل الشريف مثل أن تكون أقواله أكثر من أفعاله.»

(١٤–٢٨) قال كونفوشيوس: «ثلاث خصال كريمة، فشلتُ في أن أتخلق بها، وهي: سماحة الكريم، ثقة العارف الخبير، جرأة الشجاع ذي البأس.» ثم إنَّ «تسيكون» علَّق على ذلك قائلًا: لئن قال أستاذنا ذلك، فإنَّما كان على سبيل التواضع وكسر أَنَفة النفس المباهية الجموح.»

(١٤–٢٩) اعتاد «تسيكون» أن يسخر من زملائه، وأن يلغو بسيرتهم، فقال له كونفوشيوس: «أراك تسخر من الناس، وكأنَّك وُلدت بغير عيوب، أمَّا وأنِّي لا أجد متعةً في ملاحقة نقائص الناس، فلست مستعدًّا لإضاعة وقتي في هذا العبث الدنيء.»

(١٤–٣٠) قال كونفوشيوس: «لا عليك بمَن لا يُقدِّر كفاءتك حق قدرها، فالعبرة بما تملكه من مهارة حقيقية ومعرفة واعية.»

(١٤–٣١) قال كونفوشيوس: «ليست الفطنة أن تنظر بعين الشك إلى الآخرين طوال الوقت، ولا أن ترميهم، جزافًا، بالغدر والنفاق، وإنَّما الفطنة والكياسة في أن تتحقَّق من نواياهم الخبيثة — إن وجِدَت — في الوقت المناسب (قبل أن يطولك أذاهم)!»

(١٤–٣٢) جاء «ويشن مو»[٩] إلى كونفوشيوس، وقال له: ما الذي يدعوك إلى التنقل في أنحاء الأرض هكذا، لا تَقَر بمكان، ولا تهدأ لك حال، ففيمَ كل هذا التعب؟ لعلي بك تبغي أن تمد شهرتك وتتباهى بفصاحتك في الآفاق! فأجابه المُعلم: «لا هذا ولا ذاك، فما ظننت قط أني جدير بشهرة أو كفء لفصاحة، وإنَّما هو سعي دائم وجهد مقيم، أملًا في رقي الفكر، ودرءًا لضلالات الجمود والتعصب.»

(١٤–٣٣) قال كونفوشيوس: «ليست الخيل بقوة أجسادها أو متانة سيقانها، وإنَّما بطيب عنصرها وأصالة منبتها.»

(١٤–٣٤) جاء رجل إلى كونفوشيوس، وسأله: ما رأيك فيمَن يرد على الإساءة بالإحسان؟ فقال المُعلم: «فكيف ينبغي إذن أن نرد على الإحسان نفسه؟ (ما الذي يتبقى للرد على المعاملة الحسنة؟) فاعلم ألَّا راد للإساءة إلَّا بتمكين من نزاهة العدل (لرد الاعتبار) وشرف الاستقامة، ولا يكون جزاء الإحسان إلَّا الإحسان نفسه!»

(١٤–٣٥) قال كونفوشيوس: «لم أجد أحدًا من الناس يفهمني!» فسأله تسيكون: لماذا تقول ذلك يا سيدي؟ فأجابه: «لست أقصد أن ألقي اللوم على أحد؛ وإنَّما أقصد أنِّي تعمَّقت في علوم أهل الأرض (في دنيا البشر!) وحلَّقت في علوم السماء، فبلغت جذر الحق وأصل الحقيقة، فلست أجد طريقًا موصولًا بالفهم إلَّا بالسموات العُلا.»

(١٤–٣٦) كان «كونبولياو» قد تحدَّث بما يُسيء إلى «زيلو» في حضور السيد «جيسون»، ثم إنَّ الأمر كله بلغ أسماع «زيفو جينبو» — مسئول عظيم بمملكة «لوكو» —

---

[٩] «ويشن مو»: شخص غير معروف، يُرجح — حسب السياق — أنَّه رجل كبير السن.

فذهب إلى كونفوشيوس، وأخبره بذلك قائلًا: يبدو أنَّ السيد «جيسون» قد صدَّق كل ما زعمه له «كونبولياو»، لكنَّي أؤكد لك أنِّي أستطيع أن أقتُل هذا الأخير، وأُمثِّل بجثته، وأجعله عبرةً لمن يعتبر! فأجابه كونفوشيوس، قال: «مهما أبديت من آراء واقتراحات في هذا الموضوع، فسيكون للقدَر اليد الطولى دائمًا، فلست أملك مقالة تُفيده أو تضره بشيء إلَّا إذا كان القدر سابقًا من قبل ومن بعد، فأين يفر المرء مما هو مُقدَّر وكائن!»

(١٤–٣٧) قال كونفوشيوس: «هناك البعض من أهل المروءة والفضل، من الدرجة العالية الشريفة، يعتكفون في بيوتهم، يعتزلون الدنيا كلها، اتقاءً لشر الناس. وهناك مَن هم أدنى درجةً: الذين يُهاجرون إلى ديار في جوار الخير والصلاح. أمَّا الأدنى درجةً، فهم أولئك الذين يضربون صفحًا عن النظر في وجه الناس، ويليهم الأقل منهم: أولئك الذين يُعْرِضُون عن سماع المسبَّة الفاحشة وبذيء القول.» ثم إنَّ كونفوشيوس زاد على ذلك بقوله: «… ولقد عرفت[١٠] سبعة رجال فقط على هذه الشاكلة.»

(١٤–٣٨) كان «زيلو» قد بات ليلة عند البوابة الحجرية الضخمة، فلمَّا أصبح اليوم التالي قام وقصد الدخول إلى المدينة، فأوقفه رجال الحرس وسألوه عن مبتدأ سفره وخاتمته، فقال بأنَّه جاء من البلد الذي يقطن به كونفوشيوس، فقال له الحارس: أأنت من عند ذلك الرجل الذي ينطح رأس أفكاره … بجلمود الصمت وصخر المستحيل؟!»

(١٤–٣٩) لَمَّا كان كونفوشيوس مُقيمًا بمملكة «ويقو» ذهب ذات يوم لأداء الشعائر وإنشاد التراتيل في أحد المعابد، وتصادف أن مرَّ به رجل يحمل سلالًا خشبية، فرآه وهو يرتل، فتوقَّف وأخذ ينصت، ثم إنَّ الرجل قال لكونفوشيوس: أنت تنشد وكأنَّك تفكر بعمق، ويبدو أنَّ ما تفكر فيه لا يستحق هذا التأمل؛ لكأنِّي بك تتألم في صمت، تشكو عزلة أفكارك لنفسك، فلو كنتُ مكانك لاخترت اعتزالًا عاقلًا وشريفًا، فأنت كسابحٍ في بحر، يُصانع إذا عصف التيار، ويُسابق الريح مواتية.» فلمَّا انتهى من قوله، التفت نحو كونفوشيوس، وقال: ها هو ذا رجل حنَّكته أيام عمره، فكيف لي بمجادلته؟!

(١٤–٤٠) جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله قائلًا: ورد في كتاب «التاريخ» ما نصه: «إنَّ الأمير «كوزون» أقام في الحداد على سلفه مدة ثلاث سنوات، بقي أثناءها ساكنًا بقصر «شون لو»، فلم يقرب ديوان المملكة، ولم ينظر في شئون الحكم، حتى انقضت تلك المدة» فهل هذا صحيح؟ وأجابه الُمعلم قائلًا: «لم يكن «كوزون» وحده يتبع هذا التقليد،

[١٠] الرجال السبعة هم: بواي – سوتشن – إيجون – آيي – جوجان – ليوشياوي – شاوليان.

وإنَّما كان القدماء كلهم كذلك؛ إذا مات بينهم الحاكم، وانتقل الصولجان إلى خلفه، أقاموا في الحداد ثلاث سنوات، تحت إمرة رئيس وزرائهم، بينما يظل الملك الجديد — احترامًا لذكرى سلفه — بعيدًا عن مباشرة مهام الحكم الرسمية.»

(١٤–٤١) قال كونفوشيوس: «يصير الشعب أسلس قيادًا، وأخلص طاعة، ما دام أولو الأمر يراعون الحقوق ويصونون القواعد الرسمية المقررة.»

(١٤–٤٢) ذهب «زيلو» إلى كونفوشيوس، وسأله: كيف يكون الحاكم مهيبًا عادلًا؟ فأجابه: «بعظيم فضائله، وجليل أعماله.» ثم إنَّ «زيلو» سأله ثانيةً: أفي ذلك كفاية؟! فقال له: «مَن عظمت فضائله وجلَّت أعماله، استضاءت أركان مملكته بالعدل والسلام.» فسأله السائل: أفي ذلك الكفاية؟ فأجابه المُعلم: «أليس تحقيق الأمن والسلام هو غاية المنى؟ أما تعلم بأنَّ الأباطرة العظام، أمثال: «ياو» و«شون» — بكل مثاليتهما! — لم يبلغها هذه الدرجة.»

(١٤–٤٣) دخل كونفوشيوس إحدى القاعات، فوجد «يوان ران»[١١] — أحد شيعته — جالسًا بغير تأدب، واضعًا ساقًا على ساق! فنهره قائلًا: «يا لجرأتك، أما آن لك أن تتبصر وترعوي؟! قد كنتَ في صباك غرًّا لا تراعي حق الكبير، ولا تُلين قناتك للصغير، وأراك هرمت دون أن تعي من أصول المعاملات شيئًا، فلا أنت حي تفقه مبادئ استقرت من الأزل، ولا أنت ميت لتدرك قدَرًا محتمًا فتُريح وتستريح إلى الأبد.»

(١٤–٤٤) قدم على كونفوشيوس فتى من إحدى مراحل القرى المجاورة، يرجو لقاءه بصفته مبعوثًا يحمل خطابًا رسميًّا، فلمَّا انتهت المقابلة، وغادر الفتى عائدًا، جاء واحد إلى كونفوشيوس، وسأله: ما رأيك في ذلك الفتى، أتراه ذكيًّا، طموحًا، ذا مستقبل يعد بالمجد؟! فأجابه المعلم: «قد رأيته يجلس إلى الأريكة الرسمية العالية، ويزوَرُّ عن الكرسي الخشبي البسيط، ثم لمحته يتودَّد كثيرًا إلى أصحاب النفوذ والسطوة، فهو إذن، وبالقطع، لا يطمح إلى المجد والتفوق، لكنَّه يسعى — وبأقصر الطرق — إلى بريق النفوذ، مفتونًا بمظاهر السبق والسطوة والسيطرة.»

[١١] يوان ران: واحد من المقربين إلى كونفوشيوس، وكان مشايعًا للفلسفة «الطاوية»؛ ومن ثم فقد كان أكثر تحررًا وانبساطًا في سلوكه!

الباب الخامس عشر

ويلينغ

وجملته اثنان وأربعون فصلًا

(١٥–١) ذهب الأمير «لينكون» أمير دولة «ويقو» إلى كونفوشيوس، وسأله عن أمور تتعلق بالخطط القتالية والتجهيزات العسكرية. فأجابه المُعلم قائلًا: «أستطيع أن أبحث معك أيَّة مسألة تختص بقواعد الأخلاق وأصول المعاملات، فذلك هو الموضوع الذي أفقهه وأدرسه؛ أمَّا الحرب وشئونها، فذلك ما لا قِبل لي به.» ثم إنَّ كونفوشيوس قام في اليوم التالي ورحل عن المملكة.

(١٥–٢) بينما كان كونفوشيوس في إحدى جولاته البعيدة مع مريديه في أنحاء الممالك المختلفة، نفذت منه أجولة القمح، وأشرف على المجاعة والهلاك — وذلك عند حدود مملكة «تشنقو» — وتساقط تلاميذه بين مريض ومحتضر. وحدث أن تقابل مع «زيلو»، فشكا إليه هذا الأخير سوء الحال، وسأله: قل لي يا سيدي، أترى الماجد الشريف يُجرِّب في حياته مثل هذا الضنك وقلة الحيلة؟ فأجابه المُعلم: «نعم، لكنَّ الماجد الشريف يُثابر ويصبر في وقت المحنة، أمَّا الدنيء فيقترف الآثام والمفاسد، وينكص على عقبيه (متراجعًا عن مبادئ الأخلاق) باسم الضائقة شديدة الوطء، متعللًا بالظروف بالغة القسوة.»

(١٥–٣) كان كونفوشيوس يتحاور ذات مرة مع «تسيكون»، فقال له: «أوتظن أنِّي أعتمد على ذاكرتي للأحداث أو مذكراتي وحفظي لقواعد العلوم؟» فاستغرب «تسيكون» ونظر إليه مندهشًا مستنكرًا، فراح كونفوشيوس يُفسر له الأمر بقوله: «المسألة عندي لا

ذاكرة ولا مذاكرة، وإنَّما فقط فكرة أساسية، ومبدأ أصيل ثابت، أُقيم عليه تصوراتي، وأنظم به شتات الأفكار.»

(١٥–٤) تحدث كونفوشيوس إلى أحد أتباعه قائلًا: «ما أقل الناس الطيبين في هذه الدنيا، يا جونيو.»

(١٥–٥) قال كونفوشيوس: «لم نعرف — فيما نعهد — حاكمًا استتبَّ له الأمر، ورضخت له الممالك طائعةً راضيةً، إلَّا الإمبراطور «شون»، هو وحده الذي كان يستطيع أن يجلس إلى عرش إمبراطورية عظمى هادئ البال، مطمئن النفس، تاركًا للمقادير أعِنَّتَها.»

(١٥–٦) جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: كيف للمرء أن يصير مسموع الكلمة، نافذ الرأي؟ فأجابه قائلًا: «يصير المرء كذلك بأن يخلص في القول والعمل، فهي مفتاح الصدق في كل مكان وزمان، مهما تناءت الأصقاع أو قدمت العهود، وإيَّاك والغش أو التهور الأخرق، فإنَّها تسد عليك أبواب بيتك، وتذهب عنك الجار والصديق، فاحفظ تلك الكلمات «واحفرها» في قلبك، وفي عقلك، وفي مخيلتك، وأمام ناظريك طوال الوقت، مخلصًا صادقًا، يستقِم مسعاك ويفُز رجاؤك.» ثم إنَّ زيجانغ أخذ يكتب هذه الكلمات على قميصه (في الأصل: على حزامه!) ليقع عليها بصره في كل حين.

(١٥–٧) قال كونفوشيوس: «ما أعظم استقامة «شيو» (مسئول ومؤرخ بمملكة «ويقو»)؛ فقد ظلَّ ثابتًا على مبادئه، مستقيمًا، نزيهَ اليد والذمة، إبان ازدهار المملكة وانتكاستها، وما أنبل الكريم الأمثل «تشيبوي»؛ فقد كان فارسًا وشهمًا وكريمًا، سواء وهو يؤدي عمله باقتدار أيام مجد الإمبراطورية، أو وهو يعتزل ويتوارى بلباقة، عندما دالت دولة الجاه، وعمَّت الفوضى في كل مكان.»

(١٥–٨) قال كونفوشيوس: «إن تدع الحديث مع عاقل متفتح الذهن، فتلك هي الفرصة الضائعة، أمَّا أن تطول حواراتك مع سفيه سقيم الفكر، فتلك هي الأوقات الضائعة. والعاقل لا يُضيِّع الفرص ولا الأوقات.»

(١٥–٩) قال كونفوشيوس: «إنَّ النبيل، صاحب المبادئ والمُثل، لا يُضحي بالفضائل حرصًا على حياته، وإنَّما يُضحي بحياته نفسها لأجل الخير والفضيلة.»

(١٥–١٠) ذهب تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله عن كيفية تحقيق المبادئ الفاضلة، فأجابه: «تأمَّل الصانع وهو يشحذ عدته ويُجهز أدواته، قبل أن يشرع في عملية إنتاج معقدة وطويلة لكنَّها ناجحة. واتخذ لك أصدقاء من أكرم الناس وأفاضلهم، إذا استقر بك المقام في أرض بعيدة (تجد ما أردت)!»

(١٥–١١) جاء «يان يوان» إلى كونفوشيوس، وسأله عن أفضل كيفية لحكم البلاد، فأجابه قائلًا: «إذا أردت أن توطد أركان سلطانك فعليك بتعميم استخدام التقويم الزراعي الذي وضعته أسرة «شيا» الملكية، وأن تستعمل العربات المصممة إبان حكم أسرة «إينشو»، فتلك أبسط الطُّرز وأمتنها، وأن تأمر الناس بارتداء الزي الرسمي لأسرة «جوشاو» الملكية بفخامته وجاذبيته، وأن تعزف في دور الموسيقى مقطوعات من مؤلفات الـ «يو» والـ «شاو» الراقصة، وأن تنأى بمواطنيك عن مهازل موسيقى مملكة «تشنكو» ورجالها المنافقين، فموسيقاها مبتذلة خليعة، ومنافقوها أخطر الكوارث الداهمة.»

(١٥–١٢) قال كونفوشيوس: «مَن لم يمد بصره بالتأمل الواعي والتخطيط الذكي على المدى الطويل، وجد عند كل خطوة عَثْرة، وعند كل مفترق عقبةٍ كَأْداء.»

(١٥–١٣) قال كونفوشيوس: «لقد بحثت عبثًا بلا طائل، بحثت ولم أجد أحدًا يُفضِّل حب الخير على عشق الجمال.»

(١٥–١٤) قال كونفوشيوس: «دلائل كثيرة تُشير إلى أنَّ زانوشون[١] كان يستغل منصبه أبشع استغلال، من ذلك مثلًا أنَّه أحجم عن تعيين السيد «هويليوشيا» — موظف عظيم بمملكة «لوقو» — برغم علمه بكفاءته وجدارته لشغل منصب رسمي.»

(١٥–١٥) قال كونفوشيوس: «مَن أراد أن يتقي كيد الكائدين، فليكن متسامحًا، لينًا مع الناس، متشددًا وقاسيًا مع نفسه».

(١٥–١٦) قال كونفوشيوس: «وأنا أيضًا لا أملك أن أفعل شيئًا لمَن لا يقدرون على كيفية التصرف الواعي في الطوارئ والأزمات.»

(١٥–١٧) قال كونفوشيوس: «لا فلاح لمن كان جُل همه طوال يومه أن يثرثر قيما لا يُفيد، ولا نجاح لمن لم يقل حسنًا و«ينبذ» الحكمة من فمه.»

(١٥–١٨) قال كونفوشيوس: «الماجد المهذب مَن اتخذ الاستقامة سلوكًا أصيلًا، وسار على مبادئ الأخلاق الكريمة، فسلك بين الناس بالتواضع والإخلاص.»

(١٥–١٩) قال كونفوشيوس: «لا يضير العاقل أن يصير مجهولًا وسط الناس، وإنَّما يضيره بالغ الضرر أن يجهل قدراته الذاتية ومواضع كفاءته، فيفقد ثقته بنفسه.»

(١٥–٢٠) قال كونفوشيوس: «ينبغي للعاقل أن يخلف على الأرض اسمًا طيبًا بعد موته (أن يتدبر سيرة صالحة يتداولها الناس بعد موته)!»

---

[١] زانشون: (؟–٦١٧ق.م.)، وزير شئون الدولة في «لوقو».

(١٥–٢١) قال كونفوشيوس: «العاقل المهذب يفرض على ذاته التزامات قاسية، ويُطالب نفسه بالكثير؛ بينما الجاهل الدنيء يفرض على الآخرين ما لا يُمكن تبريره، ثم يجأر بالشكوى والتذمر في كل مكان!»

(١٥–٢٢) قال كونفوشيوس: «العاقل ثابت الجنان، مهيب الجانب، مع لين طبع، وسماحة صدر، يُخالط الناس، كل الناس، لا ينعزل ولا يتخذ عصبة أو جماعة، ولا يتحزَّب مع نفر دون آخرين.»

(١٥–٢٣) قال كونفوشيوس: «المهذب العاقل لا يُحابي منافقًا ذَرِبَ اللسان، فيبذل له المال والجاه بغير حق، كما أنَّه لا يذل رجلًا تكلم بالحق، حتى لو كانت الكلمات ثقيلة غليظة.»

(١٥–٢٤) جاء «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: ألا تدلني يا سيدي على كلمة تهديني على مدى الأيام؟ فأجابه المُعلم قائلًا: «إنَّها كلمة «الرحمة» بمعناها الواسع! إذ لا ينبغي أن نضع على كاهل الآخرين ما لا نتحمَّله من أعباء.»

(١٥–٢٥) قال كونفوشيوس: «ليس من عادتي أن أذم أحدًا من الناس أو أمدحه بغير داعٍ، فما مدحت أحدًا إلَّا إذا كان تفوقه ومثابرته جديرَين بذلك، فهناك دائمًا الاختبارات والقواعد المحايدة التي تُحدد درجة استحقاق التفوق، ولست وحدي المبتكر لهذه «المعايير»! وإنَّما كان الحكَّام السابقون في الأُسر الإمبراطورية الثلاث: (شيا، شانغ، جو)، هم الذين ساروا على هذا المبدأ فدانت لهم الشعوب بالطاعة، وحسنت سيرتهم.»

(١٥–٢٦) قال كونفوشيوس: «كثيرًا ما صادفت في كتب التاريخ مسائل تُثير التشكك أكثر مما تقود إلى التسليم بصدق المرويَّات، من ذلك مثلًا: (تقرأ ما مفاده): أنَّ الرجل الذي كانت عنده خيول كثيرة، لم يكن يبخل ببعض منها على[٢] جاره، الذي لا يملك منها شيئًا … (وهو الأمر الذي لم يعد قائمًا اليوم)!»

(١٥–٢٧) قال كونفوشيوس: «إنَّ كلمة مدح بسيطة (مجاملةً أو نفاقًا) قد تُفسد صرحًا هائلًا من الأخلاق، ولربما لحظة تهور عابرة تخرب ما عمَّره الزمان بطوله.»

---

[٢] تتفق معظم اتجاهات التفسير التراثي الصيني على صعوبة إيجاد التخريج الترجمي المناسب لدلالة لهذا الفصل، الذي يحمل في تركيبه الظاهر (جزئيًا) قدرًا من الخلل، يفصل المقدمة عن متنها، فيحرمها الرابط السببي المناسب. وبعد، فهذه محاولة متواضعة للتفسير في طيات الترجمة العربية التي بين يديك. (المترجم)

(١٥–٢٨) قال كونفوشيوس: «مسألتان تستحقان المزيد من البحث والاستبصار: أن يكون المرء محبوبًا جدًّا، أو أن يكون مكروهًا للغاية بين الناس.»

(١٥–٢٩) قال كونفوشيوس: «إنَّها إرادة الإنسان هي التي تدعم الحق والإيمان (مبدأ «الطاو») وليس العكس.»

(١٥–٣٠) قال كونفوشيوس: «إنَّ أفحش الخطأ هو ما لم يزل يقع فيه المرء بالتكرار دون محاولة جادة لتجاوزه أو تصحيحه.»

(١٥–٣١) قال كونفوشيوس: «هناك الكثير من الأمور والقضايا لا تجديها نفعًا كثرةُ السهر، وعذاب التفكير المتواصل، والتأمل المستمر ليل نهار؛ إذ ليس مثل التعليم والتحصيل والدرس وسيلة وهداية لكل ما استغلق فهمه، أو تعذَّر الوصول إلى منطق أحكامه.»

(١٥–٣٢) قال كونفوشيوس: «العاقل من شغل نفسه بالعلم والتحصيل، وتناءى قدر الإمكان عن مشاغل المأكل والملبس وزخرف الحياة، ولئن كان الزارع يملك الأرض والثمر، إلَّا أنَّ الفيض والقحط قدَران مسلطان على الأعناق، أمَّا طالب العلم فيرتقي مكانته اللائقة، ووظيفته الرسمية (التي هي راتبه ومكافأته الدائمة!)، فلا يليق أن يلهيه فقر أو غنًى عن آفاق الغاية العالية الشريفة.»

(١٥–٣٣) قال كونفوشيوس: «اعلم أنَّ الحكمة وحدها لن تُمهد لخطو طريق، أو تحكم قبضتك على زمام الحقيقة، ما لم تجعل معها، الرحمة والإحسان. واعلم أنَّ الحكمة والرحمة في يد صاحب السلطة الرسمية لن تغنيا عن الشدة والحزم ليسلس له قياد رعيته، ثم إنَّ الحكمة والرحمة والحزم والاستقامة بغير قواعد المعاملات الإنسانية يُمكن أن تُصبح جميعًا حُكمًا بغير حكمة، وشرعًا غير مشروع!»

(١٥–٣٤) قال كونفوشيوس: «لا يُعرف معدن الرجال إلَّا في النازلات؛ فهي التي تسبر غورهم وتشد عزمهم.»

(١٥–٣٥) قال كونفوشيوس: «هناك مَن يظنون أنَّ الأخلاق والفضائل لون من الترف الفكري، والحق أنَّ الشعوب تحتاج إلى الفضائل كحاجتها إلى الماء والنار، أو ربما أشد قليلًا، وقد رأيت بعيني كوارث رهيبة بسبب فيضانات عاتية وحرائق متأججة، لشدة ما فاض من ماء أو لهب، ولكنِّي لم أرَ قط كوارث مفزعة نجمت عن مغالاة في التمسك بالفضائل.»

(١٥–٣٦) قال كونفوشيوس: «ليس هناك مقام أعلى من مقام الفضيلة، ولا حتى مقام المُعلم نفسه.»

(١٥–٣٧) قال كونفوشيوس: «العاقل مَن يصرف جُلَّ اهتمامه إلى الإخلاص للمبادئ، ويترفَّع عن الصغائر كلما أمكن.»

(١٥–٣٨) قال كونفوشيوس: «على مَن يعمل في البلاط الملكي تحت قيادة صاحب الجلالة أن يضع الأولوية المطلقة للمسئولية الرسمية قبل أي اعتبار آخر، بما في ذلك حق الحصول على الراتب النقدي المعين له.»

(١٥–٣٩) قال كونفوشيوس: «الكل في حق التعلم، سواء.»

(١٥–٤٠) قال كونفوشيوس: «لا ينبغي على مَن ينتهجون انتماءات سياسية متباينة مذهبيًّا أن يتبادلوا التشاور والأفكار في شئونهم المختلفة.»

(١٥–٤١) قال كونفوشيوس: «الأساس الصحيح للغة في كل مكان وزمان هو قدرتها على نقل المعاني بسلاسة ووضوح.»

(١٥–٤٢) ذهب «شيميان» (أحد كبار الموسيقيين) إلى كونفوشيوس في زيارة ودية، فاستقبله، وأخذه بيده وقرَّبه إلى عتبات السلم (وكان شيميان كفيفًا، مثل معظم الموسيقيين قديمًا!) وهو ينبهه إلى موضع الدرجات ليرتقيها، فلمَّا وصل به إلى مقعده أجلسه، فلمَّا استقر جميع الحاضرين جلوسًا أخذ كونفوشيوس يقترب من أذن ضيفه ويُبلغه بأسماء الحضور وأماكن جلوسهم واتجاهاتها، ثمَّ لمَّا انتهت الزيارة، وغادر الجميع خارجين، راح زيجانغ يسأل كونفوشيوس: لمَ تكلَّمت هكذا مع الموسيقي الضرير هذه الليلة؟ كيف تهمس له وتناجيه منفردًا هكذا؟! فأجابه: «تلك هي الطريقة الملائمة التي تناسب فنانًا عظيمًا مثله!»

الباب السادس عشر

جيشي

وجملته أربعة عشر فصلًا

(١٦–١) كان «جيسون» (مسئول عظيم بمملكة «لوقو») يُجهز إحدى الفرق لتشن حملة تأديبية على مقاطعة توانيو،[1] فذهب كلٌّ من «رانيو» و«زيلو» للقاء كونفوشيوس، والتشاور معه بهذا الخصوص، فأجابهما بقوله: «وأين كنتما عندما اتخذ هذا القرار؟ ألم تشجعاه على هذه الخطوة؟! وإنِّي لأحذركما من مغبة ذلك الطيش، فقد ظلَّت مقاطعة «توانيو» أرضًا مباركةً من الأزل، تحرس المعابد، وتحمل على عنق هضبتها وصدر سفحها قرابين الشعائر ... إنَّها قطعة لا تتجزأ من أرض «لوكو»، من قلب سادتها ومواطنيها، فلماذا تهاجمونها اليوم؟» فأجابه رانيو: ليس سوى الأمير جيسون هو وحده الذي يريد قتالها، أمَّا نحن الاثنين فلا نوافقه على رأيه. فقال له المُعلم: «اسمع يا هذا، لقد قيل قديمًا: أعطِ يدك وقلبك لسيدك وأخلص لمسئوليتك، فإن لم تقدر فأجدر بك أن تستقيل.»

«فما قولكما في رجل ضرير أوشك على السقوط من أعلى الدرج، ومساعده المبصر يراه ولا يمنعه، فما الفائدة إذن من صحبته؟! وغدًا عندما تدب الفوضى وتتحطم الجدران، وينفلت عقال الثيران الهائجة، فتنطلق في الطرقات تدهس وتروِّع، غدًا عندما ينكسر فص الجوهر الثمين وتبهت الأصداف ودروع السلاحف، فمَن يا ترى يتحمل الأخطاء ويُعلن مسئوليته عمَّا حدث؟!» فأجابه رانيو قائلًا: «توانيو» منطقة حصينة، ثم إنَّها لا تقع بعيدًا

[1] توانيو: دويلة تابعة لمملكة «لوقو» الخاضعة لحكم «آل جيسون»، لكنَّها لم تكن على وفاق مع المملكة الأم، فمن ثم خَشِيَ الأمير «جيسون» أن تستطيع هذه الدويلة أن تتآمر على الأسرة الحاكمة — خصوصًا عندما آوت أحد ألد خصومها ... — فانعقدت فوق سمائها سحب الحرب.

عن إقطاعيات آل جيسون، فإن لم يأخذوها اليوم صارت قذًى في عين أحفادهم على مر الزمن. فقال له المُعلم: «اعلم يا رانيو أنَّه خير للمرء أن يصرح بأطماعه، ولو بلغت عنان السماء، من أن يُداريها بالحجج الواهية، وقد بلغني أنَّ العبرة ليست بشخص الحاكم، أميرًا كان أو وزيرًا، خصوصًا إذا ما ادْلَهَمَّ الخطب واشتدَّ الخطر، وإنَّما العبرة ومدار الأمر بمَن حكم فعدل، ووزَّع فأوفى كل ذي حق حقه. وليس يعيب مدينة، سواء أزاد ساكنوها أو نقصوا، وإنَّما يعول على مقدار حظهم من الأمن والاستقرار ورغد العيش، واعلم أنَّه لا فقر مع قسمة عادلة بين الجميع، ولا هوان مع سلام غامر، ولا كرب مع نعيم مقيم، فإن تحقق ذلك في وطن عاد إليه مفارقوه، واجتمع إليه الحشد الحاشد يريدون به الخير والاستقرار، أما وإنكما الآن تدبران أمرًا مع جيسون تفوح منه رائحة الخطر، فلن يئوب إليك آمن ولن يستظل ببلدكم مهاجر، فقد دققتم ساعة الهلاك والتخريب. وأكبر الظن أنَّ هجومكم على «توانيو» ليس إلَّا حسابًا قصير النظر، ورؤية مضللة؛ إذ إنَّ مكمن الشر والخطر يأتي من قلب أميركم، من أعماق ضميره، وليس من أي شيء آخر.»

(١٦–٢) قال كونفوشيوس: «عندما تدار أمور الحكم بإخلاص ونزاهة تُصبح صناعة القرار الفعلية في يد الإمبراطور، فهو الذي يملك أن يُقرر كل ما يتصل بالإدارة، الإجراءات، الشعائر، والفنون، والجيش، وكل الأمور المصيرية الكبرى؛ أمَّا إذا اضطربت السياسة الداخلية، ولعبت الأهواء، ودبَّت الفوضى، أصبح القرار الفعلي في يد الأمراء وحكام المقاطعات، وحينئذٍ، تسقط سيادة الإمبراطورية في غضون عشرة أجيال، فإذا تحوَّلت سلطة القرار إلى كبار المسئولين سقطت مؤسسة الحكم بعد خمسة أجيالٍ، فإذا انتقلت سلطة القرار إلى الولاة والمحافظين ورؤساء المدن تدهورت حال البلاد في أقل من ثلاثة أجيال. إنَّ سياسة واعية نزيهة لن تتدنى أبدًا لتقع في يد كبار المسئولين، وسيكون في استطاعتها، حينئذ، أن تُخرس ألسنة الفتنة، ويصبح في مقدور الناس أن ينظروا إلى حكوماتهم بالمهابة والاحترام الواجبَين.»

(١٦–٣) قال كونفوشيوس: «لقد مرَّت خمسة أجيال كاملة منذ أن زال عرش دولة «لوقو» من قبضة الأباطرة العظام، ولئن كانت أسرة «جيسون» قد ورثت صولجان الحكم على مدى أربع حقب، إلَّا أنَّ تفشي سلطة كبار الموظفين، لم تدع فائضًا من المجد والهيبة والنفوذ للأمراء الثلاثة خلفاء الإمبراطور «هوان».[٢]

---

[٢] الأجيال الخمسة: في زمن ذلك السرد كانت السيادة الحقيقية في مملكة «لوقو» قد انتقلت — بالتوالي — إلى الأجيال الخمسة التالية: الأمير شوان، شنغ، شيان، جاو، دينغ. أمَّا الحقب الأربع، فهي فترات الحكم

(١٦–٤) قال كونفوشيوس: «خالط ثلاثة ينفعوك، واجتنب ثلاثة يضروك، خالط المستقيم الخلق، الشريف النفس، واسع العلم والمعرفة، واجتنب الخبيث، والمنافق ذا الألف وجه، والثرثار ذا المئة لسان، الكذوب المتحدث بما لا يفقه!»

(١٦–٥) قال كونفوشيوس: «يُستحبُّ في السعادة ثلاث: لذة الفن والموسيقى، ومتعة ذكر فضائل الناس، ورضا العيش في جوار أهل الخير. وثلاث مكروهة في باب السعادة، ألا وهي: الفخر الذي يدرك الكِبْر، والترف الذي يُذهل العقل، والمعدة المتخمة ثراء ونعمة.»

(١٦–٦) قال كونفوشيوس: «ثلاثة أمور لا ينبغي لعاقل أن يقع فيها عند الحديث: التسرع في قول بغير تبصر، فذلك طيش اللسان، والتواني عن كلمة الحق، فذلك عين التخاذل، وتجاهل وجه المتحدث وسيماه، فذلك هو التعامي بصرًا وبصيرةً.»

(١٦–٧) قال كونفوشيوس: «ثلاثة يلزم للعاقل أن يضعها نُصب عينيه، ويطوي عليها أجفان الحذر البالغ، وهي: الافتتان بالنساء عند ريعان الشباب وأول الصبا، والاعتزاز بتمام القوة عند اكتمال النضج، ونهمة الجشع وجمع المال عند فناء الهمة في سِني الشيخوخة.»

(١٦–٨) قال كونفوشيوس: «لا يكترث العاقل لشيء قدر اكتراثه لثلاثة أمور، ألا وهي: القدر، وصاحب النفوذ، وموعظة قديس. أمَّا البليد الجهول فلا يخشى القدَر؛ إذ يجهله، ولا يهاب أميرًا؛ إذ لا يدرك قدر الماجد ومكانته، ولا يُبالي بموعظة؛ لأنَّه لا تردعه الكلمات.»

(١٦–٩) قال كونفوشيوس: «الناس على أربع درجاتٍ؛ أولهم: مولود بالحكمة، وثانيهم: لا يبلغها إلَّا بالبحث والدراسة، وثالثهم: يقع في المحنة فيجتهد في العلم فيبلغ ذرا المعرفة، ومنهم مَن تعصف به المحن فلا يزجره علم ولا تعظه تجربة، قد خُتم على قلبه، فلا يبلغن مثقال حكمة، فأولئك هم أسفل درجة من الناس.»

(١٦–١٠) قال كونفوشيوس: «ينبغي للعاقل أن يتدبر أمره في تسع مسائل: أن ينظر فينْفذ إلى الأمور بعيني بصيرته لا بمجرد ناظريه، وأن يستمع إلى القول بوعي الفاهم وليس بإنصات الأذن، وأن يتخذ لملامحه مظهر الود ويتحلى بسمت الوقار غيرَ مبتذل، وأن يُخلص في قوله إذا حدَّث، وأن يُتقن عمله إذا ما شمَّر عن سواعده، فإذا

التي احتكرت فيها أسرة جيسون السلطة النافذة في المملكة، وهي الفترات التالية: أونزي، أوزي، ينزي، هوانزي.

صادف محنة فليطلب النصح فهو أزكى له، وليتدبر العواقب إذا غضب، فرُبَّ هفوة حنقٍ جلبت بغضاءَ للأبد، ولينتبه إلى ما يشتهي، فلا يمدَّن يدًا إلى ما لا يحق له أن يمسَّه.»

(١٦–١١) قال كونفوشيوس: «يقولون إنَّ هناك مَن يسعون إلى الكمال، ويتسابقون إلى المجد، فينفرون من الجهل والتخلف، ويفرون منه فرارهم من خطر محدق أو هلاك وشيك ... نعم ... قد رأيت أناسًا كهؤلاء، وسمعت أقوالًا كتِلك. ويقولون أيضًا بأنَّ هناك مَن يعتزلون الدنيا والناس حفاظًا على مبادئهم وآمالهم، وبأنَّ بعض الناس يسلكون أشرف وأنبل السُّبل لبلوغ غاياتهم في مجال السياسة وفي الحق ... في أقوال تُردَّد كثيرًا؛ ولكني لم أرَ أحدًا يسلك بها على أرض الواقع.»

(١٦–١٢) كان الأمير «جين» بمملكة «تشيقو» يملك أربعة آلاف رأس من الجياد المطهمة، فاق بها حدود الجاه والثراء في زمانه، فلمَّا مات انقضى أمره، كأنَّه لم يعشْ يومًا، أمَّا الأميران «بواي» و«شوتسي» فقد ماتا جوعًا بكهف جبلي مهجور، تفضيلًا للموت بشرف على حياة ذليلة، فبقي ذكرهما خالدًا في الأسماع من الأزل.[٣]

(١٦–١٣) قال كونفوشيوس: «ذهب «شنكانغ» إلى «بويي» — ابن كونفوشيوس — وسأله قائلًا: ترى ما الذي يخصك به سيدي من علم، وأنت تراه وتجلس إليه طوال اليوم؟ فأجابه «بويي»: لا يخصني بشيء ذي قيمة، فمثلًا ... كنتُ أمرُّ ذات يوم في طريقي إلى بعض شئوني، فناداني وسألني إن كنت أحفظ شيئًا من الشِّعر، فلمَّا أجبته بالنفي، قال: «مَن لم يحفظ شيئًا من الشِّعر خاصمته معاني الكلمات.» فما برحت حتى حفظت الكثير منه. وكنت في يوم آخر، أجلس قريبًا منه، فسألني إن كنت تعلمت آداب المجاملة، فلمَّا

[٣] وردت في نهاية هذا النص عبارة، ترجمتها: «وجاء في كتاب القصائد ما يلي:

لم يكن ميراثًا من ذهب»
لم تكن تلك يواقيت ...
وشقائق نعمان،
بل كان زمان،
والفضيلة يومئذ
عروس وتيجان.»

وليست هناك رابطة منطقية بين هذا الجزء وما قبله، ولعله خطأ في ترتيب نصوص المتن الأصلي. (المترجم)

أجبته بالنفي قال لي: «مَن لم يتعلم شيئًا من ذلك، ضلَّ سبيل النجاة.» فما تركت شيئًا من الآداب حتى تفقهت فيه، ثم إنِّي لم أتميز عند أحد إلَّا بهاتين الموعظتين من المُعلم، فما خصني بشيء غيرهما. وعاد «شنكانغ» إلى بيته سعيدًا، يقول لنفسه: سألت سؤالًا واحدًا ففزت بثلاث إجابات تحوي معارف شتى، وَعَيت بها مغزى القصائد، وفائدة تعلم آداب المجاملات، وعلمت أنَّ الفقيه الحكيم لا يُحابي ولده أو يخصه وحده بشيء دون الناس.»

(١٦–١٤) على الحاكم أن يُنادي زوجته بلقب «فورن» (السيدة الفاضلة)، وعلى السيدة زوجة الحاكم (أو الإمبراطور!) أن تدعو نفسها «البنت الصغيرة» (تواضعًا … يعني!)، وعلى العامة والأفراد العاديين أن يُنادوها بلقب «جونفورن» (فخامة السيدة الكبرى!)، فإذا كانت في زيارة رسمية خارج البلاد فعليها أن تدعو نفسها بلقب «كواشياوجون» (التابع الصغير!)، أمَّا مواطنو الدول الأجنبية فيُلقبونها ب «جونفورن» (فخامة السيدة الأولى).

الباب السابع عشر

يانهو

وجملته ستة وعشرون فصلًا

(١٧–١) بذل «يانهو» كل جهده لمقابلة كونفوشيوس، إلَّا أنَّ هذا كان يُعرض عن لقائه، ثم انتهز فرصة ذهاب كونفوشيوس في بعض شئونه خارج المنزل، فأرسل مَن يحمل إلى بيته هدايا وولائم، فلمَّا عام المُعلم وعرف بالأمر وأدرك أنَّه مُطالبٌ بتقديم الشكر إلى «يانهو» عزم على الذهاب إليه، ثم أرسل مَن يراقب منزله؛ ليعلم بالأوقات التي يكون فيها «يانهو» خارج المنزل، وذلك لأنَّ المُعلم لم يكن راغبًا في مقابلته وجهًا لوجه، فلمَّا قام وقصد إلى داره، فإذا هو أمام «يانهو»، فكانت مصادفة الطريق هي التي جمعت بين الرجلين، ثم إنَّهما سارا معًا يتحدَّثان، وسأله يانهو: أيكون الرجل عاقلًا فاضلًا إذا آثر الأمن والسلامة وبلاده تضطرم بالفوضى؟ وسكت كونفوشيوس ولم يرد بشيء، إلَّا أنَّ السائل أجاب بنفسه، قال: كلا … فمثل هذا الرجل لا يُمكن أن يعد عاقلًا أبدًا. ثم سأله ثانية: أيكون الرجل ذكيًّا فطنًا وهو يضيع الفرص المواتية التي تمكِّنه من الوصول إلى منصب رسمي عالي المستوى؟ وسكت للمرة الثانية، فأجاب يانهو بنفسه قائلًا: ولا هذا أيضًا، فالأيام تنقضي سراعًا، والزمن لا ينتظر أحدًا. وهنا لم يملك كونفوشيوس إلَّا أن يرد عليه بقوله: «لا بأس، فأنا مستعد الآن للعمل بوظيفة رسمية.»[١]

---

[١] «يانهو»: كان وزيرًا لدى أسرة جيسون الملكية، اشتهر بنفاذ السطوة، وكان جليلًا مهابًا، وبحسب سياق المتن الذي بين أيدينا، فهو يُحرِّض كونفوشيوس على قبول العمل لدى البلاط الحاكم، بينما المعروف

(١٧–٢) قال كونفوشيوس: «الطبيعة البشرية مشتركة ومتشابهة من حيث الأصل، وليس سوى العادات والتقاليد البيئية المختلفة هي التي شقَّت من جذورها أصولًا وفروعًا وألوانًا متباعدة.»

(١٧–٣) قال كونفوشيوس: «إنَّ من السمات الغريزية، والطبائع الفطرية، بما فيها الذكاء الخارق أو الغباء المفرط، تلزم حد التمكُّن والثبات، بما يستحيل معه تغييرها أو تعديلها، مهما كانت الوسائل.»

(١٧–٤) ذهب كونفوشيوس بصحبة مريديه إلى مدينة «أوتشن»، فلمَّا دخل المدينة إذا بموسيقى التراتيل تصدح في الأجواء، فتهلل المعلم وقال لِمَن حوله: «منذ متى كانت المدن الصغيرة، مثل مدينتكم هذه، تحتاج إلى تعلم الفنون والشعائر، فتلك أمور لا تهم إلَّا الممالك الكبرى!» (حرفيًّا: ما الداعي إلى استخدام سكين مذبح الأبقار لذبح دجاجة هزيلة!). فبلغ ذلك «زايو»، فقال له: يحضرني يا سيدي قولك ذات مرة من أنَّ «تعلُّم الفنون، يلين جانب الملوك، ويشيع روح الطاعة بين المحكومين» فليس هنالك عيب إذن في تعلم الفنون كما ترى. فعندئذٍ التفت كونفوشيوس إلى تلاميذه، وقال: «أيها السادة، اشهدوا أنَّ ما قاله «زايو» هو عين الصواب، فما قلت قولي الأول إلَّا على سبيل الدعابة.»

(١٧–٥) اتخذ «كونشيان فوراو» من مدينة «فاي» قلعة العصيان والتمرد على نظام حكم أسرة «جيسون» الملكية، وأرسل إلى كونفوشيوس يرجو لقاءه في أمر مهم، فأعد المُعلم للسفر إليه، فبينما هو يتأهب للمضي، إذ قابله «زيلو»، وصرَّح بما يساوره من شك في هذا الموضوع، وقد أظهر له الاستياء البالغ، ونصح لكونفوشيوس بعدم الذهاب، وقال له: ما الذي يحملك على مشقةٍ كهذه، وما الذي تجنيه من ذهابك إلى واحد مثل «كونشان»؟ فأجابه المعلم قائلًا: «وما يدريك أنَّه يحتاج إلى مَن يمد له يد العون، فلعله يقصد إصلاح الأمور، وإلَّا ما كان أرسل في طلبي، ومن جانبي، فلا أريد أن أتقاعس عن الالتزام بإحياء المبادئ العظيمة المتمثلة في جملة الفضائل والآداب الموروثة عن دولة «جوقو» الغربية.»

(١٧–٦) قصد زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله عن الإحسان، كيف يكون، فأجابه: «هو أن يتحلى المرء بخمس خصال طيبة في آنٍ واحد.» فعاد السائل يسأل: فما هي تلك

تاريخيًّا أنَّ كونفوشيوس لم يتولَّ أي منصب رسمي خلال الفترة التي شغل فيها «يانهو» منصب الوزارة المسئولة.

الخصال؟ فذكرها له قائلًا: «التواضع، والكرم، والإخلاص، والعزم، والرأفة؛ إذ لا يُهان مَن تواضع، ولا يُستغنى عن الكريم، وأمَّا المخلص فدائمًا أهل للثقة، وصاحب العزم يسلك بالنجاح كل طريق، والعاقل الحليم يأمر فيُطاع، وتنقاد له السواعد والقلوب ثقةً وعرفانًا.»

(١٧–٧) أرسل «بيشي»[٢] يستدعي كونفوشيوس، فلمَّا تجهَّز للذهاب إليه جاءه زيلو، وقال له: ألست أنت القائل بأنَّه ليس من الحكمة الذهاب إلى موطن يموج بالفوضى والمؤامرات؟ فكيف يستقيم ذلك مع ذهابك إلى بيشي وهو ضالع في مؤامرات ضد «جونمو»؟ فأجابه قائلًا: «أمَّا المقولة فأنا صاحبها، وأمَّا عن الأمر الثاني فكنت أنا أيضًا القائل بأنَّ الصلب لا يثنيه دأب المطارق، والنقاء الأصيل لا تكدره الشوائب، فكيف تخالني أقع في مكيدة ليس لمثلي أن يغفل عن أحابيلها! أتراك تُصدِّق أن أجعل من نفسي أضحوكةً بكل هذه السهولة؟!»

(١٧–٨) تحدَّث كونفوشيوس إلى «جونيو» فقال له: «أما سمعت عمَّا بين الخصال السبع وقرائنها من علاقة وثيقة؟» فلمَّا أجاب بالنفي. قال له: «اجلس، واسمع، فالإحسان بغير هداية من العلم يوقع بالمرء صيدًا سهلًا في أحقر المكائد، والذكاء بغير علم، رعونة وطيش أخرق، والإخلاص بغير علم تهلكة للنفس بالانقياد السهل لمزاعم النوايا النبيلة. والخلق القويم بغير علم، يضع في فم الرجل المهذب لسانًا كَذَنَبِ الحيات، يريد أن ينصح فيلدغ (يؤذي حيث يريد النفع!) والشجاعة بغير علم، طريق قصير إلى التمرد والعصيان. أمَّا العزم الراسخ بالثقة الصلبة في غيبة أضواء واعية بهدى من العلم والتنوير، فليس إلَّا الضمان المؤكد والمقدمة المعهودة للوقوع في مخاطر النزق المتهور والتخريب الدامي.»

(١٧–٩) قال كونفوشيوس لمريديه: «لِمَ لا تقرءون كتاب «الشِّعر القديم»؟ (كتاب القصائد!) أما علمتم أنَّ الشِّعر حافز الخيال ومنبت الوعي الأصيل، ورباط الود الحميم، ثم إنَّه مرعي البلاغة والعبارة النافذة، فكتاب الشِّعر منهل رائق بالعرفان والمودة لكل

---

[٢] كان «بيشي» وكيلًا في إدارة «فانجوتشين» — أحد وزراء دولة «جينقو» — ولَمَّا كان «جاوجيانز» يتحرَّش بهذا الوزير، مستظلًا بحماية أحد الأمراء؛ فقد لجأ «بيشي» إلى «جونمو»، واتخذها قاعدة للتمرد والعصيان، فمن هنا أرسل في طلب كونفوشيوس ليستشيره في أمور كثيرة، خصوصًا أنَّ المُعلم كان يرى في هزيمة «فانجوتشين» نهاية مؤكدة — ومريرة — لدولة «جينقو»، فلهذا وقف إلى جانب «بيشي» بالدعم والتأييد.

ذي رحم، وقطف دان بالولاء في شريعة الحاكم والمحكوم، ومعجم ما استعجم من أسماء الطيور ونادر الأعشاب والنبات.»

(١٧–١٠) قال كونفوشيوس لـ «بوياي»: «هل قرأت الفصل الأول والثاني من «كتاب القصائد»؟ أما علمت أنَّ مَن جهلها انغلقت عليه أبواب الفهم كلها وغمضت عليه أوضح الدروب والمسالك.»

(١٧–١١) قال كونفوشيوس: «إنَّ الدلائل الحقيقية للطقوس والعبادات الدينية لا تقتصر على القرابين والنذور المقدسة، ولا ينحصر معنى الموسيقى في ظاهر الأداء المجرد للإيقاعات اللحنية ونغمات الأصوات ... (فتأمل باطن الدلائل في كل ذلك)!»

(١٧–١٢) قال كونفوشيوس: «مثل الرجل جبار الوجه، جبان القلب، لو استعملنا التشبيه اللائق من دنيا الجريمة واللصوصية، كمثل السارق المتسلل خفيةً من الطيقان والنوافذ.»

(١٧–١٣) قال كونفوشيوس: «ليس أخطر على الفضيلة من امرئ لا يُفرِّق بين الحق والباطل.»

(١٧–١٤) قال كونفوشيوس: «ليس من كرم الأخلاق ترويج الشائعات، واللهج بالقيل والقال.»

(١٧–١٥) قال كونفوشيوس: «إيَّاك ومحاباة الأوغاد (في أمور العمل الرسمية)؛ فأعينهم تلمع بالحرص على أرفع المناصب، وهم خارجها، وقلوبهم تشتعل لهفةً على مكاسب أيديهم، خشية فقدانها؛ فلذلك كله لن يتورَّعوا عن اقتراف كل أنواع الدنايا لتحقيق أغراضهم.»

(١٧–١٦) قال كونفوشيوس (متهكمًا): «لكل زمان أهله وخصاله، فلئن كان يعيب الحمقى فيما مضى ألسنتهم الفاحشة، فقد صاروا في أيامنا فجَّار اليد واللسان، وكأنَّ الأشراف الأماجد قبلنا تيجان من الرفعة والمهابة والإجلال، فأصبحوا اليوم عتاة جُرم، سود أكبادٍ، تجمعهم مكيدة وتفرقهم فتنة (ناهيك عن ذلك كله!) بل وحتى البلهاء كانوا بالأمس سراويل ممزقةً وأفواهًا تسيل بالمخاط، وها هم في أيامنا سادة فنون الدهاء والخديعة والاحتيال.»

(١٧–١٧) قال كونفوشيوس: «مَن يتظاهر بملامح العطف، وهو ينثر من معسول الكلام، لا يُمكن، بأي حال، أن يكون شريف الأخلاق، صادق المودة.»

(١٧–١٨) قال كونفوشيوس: «ما أبغضت شيئًا قط قدر استبدال اللون البنفسجي باللون الأحمر[٣] (المجيد!) ولا كرهت شيئًا مثل إفساد الموسيقى «الكلاسيكية» الملكية، بصخب الموسيقى الفلكلورية «الهادرة بغير ذوق!» وأشد ما عافت نفسي التحايل بسحر البيان وسر البلاغة لقلب منطق الحقائق.»

(١٧–١٩) قال كونفوشيوس: «ما عدت أريد أن أقول شيئًا بعد اليوم!» فردَّ عليه تسيكون قائلًا: وإذن، فكيف لنا نحن تلاميذك أن نُحدِّث عنك؟! فأجابه المُعلم: «وهل تحدَّثت السماء بشيء (منذ متى كان للأقوال قيمة!) فدورات الفصول الأربعة تترى فصلًا فصلًا بحسب قانون أزلي، والوجود كله بالحياة والحركة المنتظمة والدائبة، فالأفعال إرادة من السماء، أبلغ من أي قول.»

(١٧–٢٠) جاء روباي[٤] يريد لقاء كونفوشيوس، فقيل له إنَّ المعلم مريض يلازم الفراش، فلمَّا سار الرجل مبتعدًا إذا بالُمعلم ينهض قائمًا ويعود إلى قيثارته، ثم أخذ يعزف ويغني بصوت جهوري، متعمدًا أن يَسمَعَه «روباي» ويدرك أنَّه بصحة جيدة. أمَّا لماذا تصنَّع كونفوشيوس المرض؛ فلأنَّه لم يكن يرغب في لقاء رجل يجهل مبادئ المعاملات وأصول الزيارة المنزلية اللائقة (قيل بأنَّ «روباي» كان يُسيء الأدب مع رؤسائه، ويغلظ في القول مع كبار السن!).

(١٧–٢١) جاء زايو إلى كونفوشيوس وتحدَّث إليه في موضوع طقوس الحِداد على الوالدَين المتوفيَّين، وقال: تنص المبادئ العامة على أن تستمر فترة الحِداد على مَن مات من الوالدين، أحدهما أو كليهما، مدة ثلاث سنوات، وفي رأيي فهي مدة طويلة جدًّا (لها تأثيراتها السلبية)، فإذا انقطع الطالب عن دراسته ثلاث سنوات كان ذلك كفيلًا بتعطيله عن تطبيقاته المعرفية المفيدة، وإذا توقَّف العازف عن ضرب الأوتار ثلاث سنوات تباعد عن حسه النغمي المرهف، واختنقت النغمات في عنق قيثارته، ثم إنَّ مدة طويلة كهذه يُمكن أن تأتي على أطنان القمح في المخازن؛ بينما يذبل العود وتجف السنابل تحت

[٣] كان اللون الأحمر — في الصين القديمة — من الألوان المفضَّلة، رسميًّا وشعبيًّا، ثُمَّ حدث تحوُّل جذري في تفضيل الألوان أثناء فترة الربيع والخريف التاريخية، عندما ارتدى بعض الأمراء ملابس بنفسجية اللون، وكنتيجة، حلَّ البنفسجي محل الأحمر، فمن ثم كان تعليق كونفوشيوس.

[٤] «روباي»: أحد صغار الموظفين بمملكة «لوقو»، يُقال بأنَّه تفقَّه على يد كونفوشيوس في أصول مراسم الدفن والجنازات الملكية.

حصاد البيادر (فلا مخزون عندئذٍ ولا حصاد) أفلا يكون من الأنسب أن تقتصر مدة الحِداد على عام واحد فقط؟ فأجابه كونفوشيوس: «أيُطاوعك قلبك ويهنأ عيشك إذا شبعت أرزًا وقمحًا، وتنعَّمت في الديباج الملوَّن قبل أن تكتمل ثلاث سنوات على وفاة والديك؟» فأجابه: نعم، لا أجد غضاضةً في ذلك. فقال له المُعلم: «إذن، فافعل ما بدا لك، والحق أنَّ الماجد المهذب لا يجد في العسل (أثناء الحِداد) إلَّا مرارة العلقم، ولا يسمع في الموسيقى إلَّا الشجن، ولا يرى في نعيم الحياة إلَّا لهوًا وضلالًا بعيدًا، فلذلك «يطوي نفسه في إزار حِداده» طوال ثلاث سنوات؛ أما وإنَّك لا تجد من تلك الحال شيئًا في نفسك، فلا بأس عليك أن تقتصر على عامٍ واحد فقط.» فلمَّا قام زايو وخرج، نظر المعلم إلى الحاضرين وقال: «ما أقسى قلب الرجل المدعو زايو! يستكثر حداد ثلاث سنوات على الوالدين، ألا يعرف أنَّ المولود يبقى لصيقًا بصدر والديه ثلاث سنين كاملةً من حياتهم! أيعز عليه أن يبذل سنوات ثلاثًا من الوفاء، مقابل ثلاث أُخر أعظم وأكبر من الشقاء والحب والتفاني.»

(١٧–٢٢) قال كونفوشيوس: «بعض مَن يجلسون طوال اليوم كسالى لا يقومون إلَّا إلى الطعام، شأنهم الوحيد هو أن يملئوا بطونهم، فهؤلاء والعدم سواء. أفلا يبحثون عن شيء يفعلونه؟! إنَّ تزجية الوقت بلعب الشطرنج أحيانًا، وإلقاء النرد أحسن كثيرًا من القعود بلا عمل.»

(١٧–٢٣) جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله: هل الشجاعة من الفضيلة؟! فأجابه قائلًا: «العاقل المهذب يجد الأخلاق أسمى الفضائل وأعظمها جميعًا، فالشجاعة بغير أخلاق تحث الماجد الشريف على التمرد والعصيان، وتدفع الدنيء الحقير إلى السرقة والاغتصاب.»

(١٧–٢٤) جاء «تسيكون» إلى كونفوشيوس، وسأله: هل يعرف المهذب مشاعر الكراهية، وهل يدخل البغض قلبه؟ فأجابه: «نعم، فهو يكره مَن يشهِّرون بأخطاء الناس على قارعة الطريق، ويبغض مَن ينسبون التهم إلى رؤسائهم زورًا وبهتانًا، وكذلك كل مَن لا تردعهم المبادئ، كما أنَّه لا ينفر من صلف متغطرس يُباهي بالعناد والتعالي فوق ما سواه.» وسكت كونفوشيوس، ثم دار بالسؤال على سائله، قائلًا: «فأنت يا تسيكون، ماذا تكره؟» فأجابه: «ما كرهت في حياتي مثل الأعيان، ينسبون إلى أنفسهم فضلًا ليسوا أهله، وكرامة ليسوا أربابها، ولا أبغضتُ قط مثل الحمقى، الذين يخلطون بين الشجاعة والطغيان، وأيضًا السفلة الحريصين على فضح أسرار الناس بغير وازع من خلق أو ضمير.»

(١٧–٢٥) قال كونفوشيوس: «أصعب مَن يُمكن التعامل معهم في الدنيا هم: النساء وأرذل الرجال؛ لأنَّك إذا اقتربت منهم شتموك، وإذا ابتعدت عنهم، اتهموك بالظلم والقسوة والتعالي.»

(١٧–٢٦) قال كونفوشيوس: «إذا بقي الرجل مكروهًا وسط الناس، حتى بعد بلوغه الأربعين من عمره، فلن يستطيع أن يكسب مودة أي إنسان، حتى لو عاش آلاف السنين بعدها.»

الباب الثامن عشر

ويتس

وجملته أحد عشر فصلًا

(١٨–١) كان الملك «تشو» — أحد حكَّام أسرة «يين» — قد سار بالظلم والطغيان في أواخر سِني حكمه، ففارقه أخوه «ويتس»، وصار شقيقه الآخر «جيتس» مرذولًا محتقرًا، حتى نزل إلى درجة العبيد، وقتل عمَّه «بيكان» في ظروف غامضة، وكان هذا الأخير شديد المعارضة له والتذمر على سياسته، ثم إنَّ كونفوشيوس قال: «ما أعظم الرجال الثلاثة الذين عاشوا على السنوات القلائل الأخيرة من عهد أسرة «يين».[١]

(١٨–٢) لطالما أُقصي القاضي «هويليوشيا»[٢] عن منصبه، برغم أنَّه كان جوادًا ممدوحًا عادلًا، لا يظلم في أحكامه، ولا يُحابي ذا سطوة أو نفوذ، فلما جاءه مَن نصحه

---

[١] «ويتس»: الجد الأول لدولة «سونغ» من أسرة «تشو» الإمبراطورية، أقطعه أخوه الملك «جو» بعض الأراضي الواقعة بدويلة «لوقو»، فلمَّا دبَّت الاضطرابات في أنحاء المملكة راح يُقدم نصائحه للملك الذي تعصَّب كثيرًا لرأيه، وصمَّ أذنيه عن الآراء الإصلاحية، فقام «ويتس» وحمل استياءه ورحل عن البلاد، أمَّا «جيتس»، فكان أحد نبلاء دويلة «شانغ» (وهو عم الملك تشو) وكثيرًا ما تقدَّم بالشكاوى إلى جلالته، وكانت التقاليد تقضي بأنَّ من رفضت شكاواه المقدمة إلى القصر عدة مرات، يُجبر على ارتداء أسمال بالية ويتصنَّع الجنون، فاضطر إلى التجوال على غير هدى وهو يهذي في الطرقات، أمَّا «بيكان»، فقد كان أحد أعضاء النبالة الملكية أيضًا (وهو عم الملك تشو) وكان يشغل منصب كبير مساعدي صاحب الجلالة، وقد تمَّ الحكم بإعدامه والتمثيل بجثته (إخراج القلب من وسط القفص بعد تمزيقه)، وذلك بسبب تقديمه شكاوى كيدية ضد الملك.

[٢] هويليوشيا: اسمه الأصلي «جانهو»، موظف عظيم لمملكة «لوقو».

بالرحيل عن مملكة «لوكو» استغرب وأجاب قائلًا: «لا ينال العادل إلَّا سخطًا أينما حلَّ بمكان، فمَن سلك بالحق غرم، ولئن سهلت على المرء المداراة وهانت عليه المبادئ فلا معسر له في أرضه، فلا يلجئه شيء إلى الهجرة وعذاب الترحال.»

(١٨–٣) تحدَّث الأمير «جينغ» بمملكة تشيقو عن الكيفية التي سيُعامِل بها كونفوشيوس إذا ما ولَّاه منصبًا بالبلاط الملكي، فقال: «سنحتفي به ونحيطه ببالغ الاحترام والتقدير، ولكنَّنا لا نستطيع أن نُعامله بالطريقة التي حظي بها «جيسون جيونشي» على يد أمير «لوقو»، فتلك ذروة الشرف وسِنام المجد العالي العظيم الذي لا يبلغه أحد سواه، وبالطبع فلا نضمن له أن يتساوى بمَن هم في مرتبة أدنى، مثل منغسون شي، فقصارى ما نجود به عليه، أن نجعله في منزلة بين المنزلتين.» ثم إنَّه أضاف قائلًا: «أما وقد بلغت بي الشيخوخة ما ترون، فلا أظنني بحاجة إليه.» فلمَّا بلغ كونفوشيوس هذا القول، قام فغادر مملكة «تشيقو» على الفور.

(١٨–٤) أهدت مملكة «تشيقو» جوقة من المغنيات والراقصات إلى «جيسون شي» رئيس وزراء مملكة «لوقو»، فقبِل الهدية، وصار لا يفارقهن أيامًا وهنَّ يغنِّين له، حتى أَزَغْنَ عقله عن شئون الحكم وسائر مسئولياته الرسمية، فلمَّا وجد كونفوشيوس الأمر على هذا النحو، قدَّم استقالته وغادر المملكة.

(١٨–٥) كان «جيو» واحدًا من أولئك المثقفين (الفوضويين) الذين امتلأت بهم مملكة «تشيقو»، وتصادف أن رفع عقيرته بالغناء ذات يوم بينما كونفوشيوس يمر بمركبته حذاء الطوار، فسمعه وهو يتغنَّى بهذه الأبيات: «حدثيني …

عنقاء الزمن الرديء،
لماذا انمحت الأقمار؟
لماذا … صوت الفضيلة
ما عاد يشجيني؟
والماضي … لا يعود
لماذا؟
والغد الآتي
هل يدركني قبل أن … ؟
لكن …
كيف يجيء النهار،

والسادة الموظفون المغفلون …
يغتالون …
الصبح الباكر … بأيديهم؟!»

ثم إنَّ المُعلم نزل من المركبة وقصد إليه ليكلمه، إلَّا أنَّ «جيو» في تلك الأثناء، كان قد مشى بعيدًا واختفى وسط الزحام.

(١٨–٦) كان الرجلان «شانجيو، وجيني» يحرثان أرضهما، إذ مرَّ بهما كونفوشيوس، وأرسل «زيلو» يسألهما عن الطريق المؤدي إلى معبر النهر، فلمَّا اقترب «زيلو» منهما سأله «شانجيو» قائلًا: مَن ذلك الرجل الجالس في المركبة؟ (مشيرًا تجاه المُعلم)، فأجابه: هو كونفوشيوس. فسأله الرجل ثانيةً: أهو كونفوشيوس القادم من مملكة لوقو؟ فقال: نعم، هو بعينه، فقال له: إذن، فلا بد أن يعرف الطريق بنفسه إلى معبر النهر. فلم يجد «زيلو» إلَّا أن يجرب مع الآخر؛ لكن هذا سأله بدوره: مَن أنت؟ فعرَّفه زيلو بنفسه، فسأله الرجل ثانيةً: أأنت تلميذ كونفوشيوس؟ وردَّ «زيلو» بالإيجاب، فقال له «جيني»: وما تقول في الفوضى التي عمَّت الدنيا كفيضان جارف؟ هل تقدر أنت وأستاذك على تغييرها؟ (إصلاح الأحوال المضطربة في البلاد!) فما أراكما تسعيان في البلاد إلَّا هربًا من عسف حاكم جائر، أليس من الحكمة أن تأتيا وتفلحا الأرض معنا، هربًا من وجه الحقائق الموجعة؟ وعاد «زيلو» مسرعًا إلى أستاذه، فأخبره بما دار، فأطرق المعلم حزينًا، وقال: «ليس أمامنا إلَّا هضباتٌ وعرة، وسهول مغرقة، فإمَّا وخز العشب الوحشي، أو مستنقع الجهل البشري، فأين المفر؟! أما كان جديرًا بحكومة مسئولة أن تسلك بالحكمة وتنشر بهاءها في أرجاء الممالك تحت الشمس، فنمسك عن دعاوى التغيير والإصلاح!»

(١٨–٧) كان «زيلو» يطوف البلاد بصحبة كونفوشيوس، ثم إنَّ المسير تأخَّر به عن ملاحقة أستاذه في بعض الأحيان، فبينما هو يجدُّ في أثره إذ صادف شيخًا يعرج على عصاه وهو يحمل منجل الحصاد، فسأله زيلو: هل صادفت أستاذي الجليل في طريقك؟ فأجابه الشيخ: كيف يستحق أن يكون أستاذًا جليلًا مَن وهنت أطرافه وانسحقت عظامه دون أن يعرف شيئًا عن الأرض، زرعِها وحصادِها، عشبها وأشواكها؟ ثم اعتمد على عصاه وهو يميل ليقطف بمنجله أعناق الأوراق، فانتحى زيلو جانبًا إكبارًا وتحيةً له. ودعاه الشيخ ليُقيم في ضيافته أيامًا، فذبح وأولم له، واحتفى به للغاية، ونادى على أبنائه ليسلموا عليه، وفي اليوم التالي لحق زيلو بـ «كونفوشيوس»، وحكى له ما حدث، فعقَّب

المعلم قائلًا: «هو رجل طيب من الزهاد الأبرار.» وطلب إلى زيلو أن يرجع إليه، ليتأمل أحواله، وذهب زيلو وبحث عنه فلم يجده، فعاد وقال لأستاذه: ليس من البر أن يسلك المرء طريق الزهد فينقطع عن ديوان العمل ليقبع في صومعة النسك والاعتزال، فليس من الحكمة أن نتجاهل أصول المعاملات التي استقرَّت بين السابقين واللاحقين، بين الشيوخ والشباب، أو بين الحكَّام والمحكومين، فهي شرائع ونظم (مواريث حياة طبيعية!) ثم إنَّ الاعتزال الشريف المتوسل بالكرامة والطهر والنقاء، ليس في حقيقته إلَّا هدمًا لأصول المعاملات الإنسانية التي تستحق تدعيم أواصر الحب والاحترام والتفاني المتبادل بين أطرافها، وليس شغل المناصب الحكومية — في جوهره — إلَّا تقريرًا وتنفيذًا لتكافؤات مبادئ الحقوق والواجبات المستقرة بين كبار المسئولين، وصغار العاملين، ولطالما كنت أقول بأنَّ مثاليتنا السياسية لن تجد طريقها إلى أرض الواقع أبدًا!»

(١٨–٨) من بين الذين اختاروا العيش في عزلة تامة عن المجتمع، عدد لا بأس به من الرجال، منهم: «بوياي» و«شوتشي» و«يوجون» و«آيي» و«جوجان» و«ليوشياهوي» و«شاوليان». ولقد قال كونفوشيوس: «اثنان فقط من بين هؤلاء جميعًا، لم يُبدِّلا عزمهما، فلم يهنا ولم تمسس سيرتهما أيَّة شائبة، هما: «بوياي» و«شوتشي».» ثمَّ تكلَّم عن «ليوشياهوي» و«شاوليان» قائلًا إنَّهما: «نكصا من مبادئهما وأساءا أبشع إساءةٍ لسمعتهما مع أنَّهما لم يتجاوزا في قول ولم يفرطا في سلوك.» ثمَّ تكلَّم عن «يوجون» و«آيي» فقال بأنَّهما: «أقاما في العزلة طاهرَي اليد واللسان، زاهدَين في متاع الدنيا.» وأضاف قائلًا: «أمَّا عن نفسي، فأنا أختلف عن هؤلاء جميعًا (وأختلف معهم)، فليس هناك شيء مقبولٌ تمامًا أو مرفوضٌ كليةً (صيغة التطرف ليست من الحكمة في شيء، فهناك دائمًا الوسط المثالي والاعتدال المقبول)!»

(١٨–٩) أتى على مملكة «لوكو» زمان رديء، فسدت فيه الطبائع، وانهدمت أركان الأخلاق والمبادئ، كما تراجعت الأذواق الراقية (الفنية)، حتى إنَّ كبار الموسيقيين هربوا من البلاد؛ إذ لجأ الموسيقار الكبير «تشي» إلى مملكة «تشيقو»، وهرب موسيقار القصر الإمبراطوري الثاني «جان» إلى دولة «تشوقو»، وقصد موسيقار القصر الثالث «لياو» إلى دولة «تساي»، بينما هرع الموسيقار الرابع «تشيوي» إلى مملكة «تشين». هذا، وقد لجأ كثير منهم إلى العزلة والمنفى الاختياري، إذ قصد العازف البارع «فانشو» إلى وادي النهر الأصفر وأقام في عزلة أبدية، ذهب ضارب الدف «أوو» wu إلى وادي نهر الهان فاعتزل فيه، ثم إنَّ كلًّا من «يانغ» — ثاني أكبر الموسيقيين في المملكة — و«شيان» — عازف

الإيقاع الشهير — ذهب كلاهما وأقاما بأحد الأكواخ الخشبية القديمة عند حافة النهر، إمعانًا في العزلة.[٣]

(١٨–١٠) قال «جوكونغ» لولده وهو يقدِّم له النصائح: «إيَّاك ومخاصمة ذوي رحِمك، وحذارِ أن تهمل شأن وزرائك ورجال دولتك، وتوغر صدورهم ضدك، ولا ينبغي لك أن تستصغر هيبة أصدقائك ووزرائك القدامى، إلَّا مَن اقترف آثامًا مهولة، ولا تُحاسب عُمَّالك بمعيار الكمال التام (لا تُحمِّلهم ما لا يطيقون)!»

(١٨–١١) شهدت أسرة «تشو» الملكية ظهور ثمانية من أبرع رجال العلم، وهم على التوالي: «بوداي» و«بوكر» و«جونتو»، و«جوانهو»، و«شويا»، و«شيشيا»، «وجي سوي»، و«جيكوا».[٤]

---

[٣] كانت مآدب الغذاء الإمبراطورية الفاخرة تُقام بمصاحبة العزف الموسيقى في زمن الأباطرة الصينيين، فمن ثمَّ جاءت تسمية موسيقار القصر الأول «قائد العزف على مأدبة الإفطار»، وموسيقار القصر الثاني «قائد العزف على مأدبة الغذاء» ... إلخ.

[٤] لا تذكر المصادر القديمة شيئًا بالمرة، عن هؤلاء الأشخاص الثمانية.

الباب التاسع عشر

زيجانج

وجملته خمسة وعشرون فصلًا

(١٩–١) قال «زيجانغ»: «ينبغي على المثقف الحقيقي ألَّا يتوانى عن أن يبذل حياته فداءً لبلاده في وقت محنة وساعة أزمة، كما يتوجَّب عليه أن يترفَّع عن مغنم دنيء رخيص، وأن يتفانى في التضحية بأعز ما يملك (يُظهر الخشوع عند تقديم القرابين إلى المعابد) وأن تأتي أحزانه صادقة، نبيلة ومواسية، إذا ما ألمَّ خطب، أو نزلت نائبة.»

(١٩–٢) قال زيجانغ: «كثيرٌ جدًّا من الناس يمرون عرضًا بطريق الفضائل والأخلاق؛ لكن قليلًا جدًّا مَن يثابرون على المسير قُدمًا، وهناك آلاف مؤلفة تدخل في الأديان والعقائد؛ لكن نفرًا معدودًا منهم هو الذي يثبت عند حدود الإيمان.»

(١٩–٣) ذهب أحد تلاميذ «زيشيا» إلى زيجانغ، وسأله عن الصداقة بين الناس، كيف تكون؟ وما الطريق إليها؟ فقال له زيجانغ: فما قول مُعلمك في هذا؟ فأجابه: قال لي أستاذي: «صادِق مَن يستحق صداقتك، وأعرض عمَّن لا يستحقها.»

فقال زيجانغ: «لكن ما بلغني عن أستاذك يناقض ما تنقله عنه الآن، وعلى أيَّة حال، فالعاقل مَن بذل الاحترام للكريم وللئيم، للماجد والفاسد معًا، فهو يُمجِّد العباقرة النابهين، ويتبسَّط مع الأُميين الجهلاء.» (حرفيًّا = يعطف على العاجزين والبسطاء).

وقد يتساءل المرء أحيانًا بين نفسه: «هل أنا امرؤ تجتمع فيه خصال الفضيلة وحسن البصيرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف أعجز عن احتمال الآخرين وفهمهم؟! أمَّا إذا افتقد إلى كرم الأخلاق وصفاء الذهن، فمن الطبيعي أن ينفر الناس مني» … «فنحن لا نملك

ترف الابتعاد عن الآخرين، لكنَّهم هم الآخرون الذين يقْدِرون على وضع الحدود الفاصلة بيننا وبينهم إذا شاءوا.»

(١٩–٤) قال «زيشيا»: «لكل حرفةٍ منافع وفوائد، حتى الحرف متواضعة القيمة لها، هي الأخرى، مهاراتها وتقنياتها الفريدة، وبرغم ذلك، فالطموحون والأذكياء لا يسعون إليها، فهي لا تُساعدهم على الاقتراب من قلب القضايا المصيرية الكبرى.»

(١٩–٥) قال «زيشيا»: «لا يُقال: إنَّ المرء كثير الاطلاع، واسع المعرفة، إلَّا إذا استطاع أن يُحصِّل معارف جديدة يومًا بعد يوم، ويستبقيها نشطةً حيَّةً في ذاكرة قوية، ثم يراجعها مرة كل شهر.»

(١٩–٦) قال «زيشيا»: «ادرس بعمق، وثابر على تطلعاتك، وأنصت وفكِّر واسأل عن كل ما يستعصي على الفهم، وناقش مشاكلك، ثم ابحث لها عن حلول تناسب طاقتك، لتأتي بنتائج تطولها يدك، ففي ذلك تكمن قيمة الفضيلة والأخلاق والإنسانية جميعًا.»

(١٩–٧) قال زيشيا: «العمَّال في كل أنواع الحرف، يبذلون جهدهم لإتقان أدائهم وإنتاجهم في الورش الفنية ومواقع العمل، أمَّا السادة المهذبون (هكذا في المتن، حرفيًّا!) فيطوفون بين شواطئ المعرفة يجمعون الحقائق «ثم يصبونها في أنساق» طرائق بحث وقوانين ومناهج.»[1]

(١٩–٨) قال زيشيا: «الدنيء الخطَّاء يجوب الأرض حتى أقصى أطرافها، وربما يقضي عمره كله بحثًا عن أستار يُداري بها أخطاءه.»

(١٩–٩) قال زيشيا: «أي رجل مهذب يترك لدى الناس ثلاثة انطباعات: مهابةً ووقارًا (لِمَن يرونه عن بُعدٍ)، ومشاعر دقيقة وطابعًا كريمًا (لِمَن يعاملونه عن قربٍ)، وجديةً والتزامًا (في كلامه، إذا تحدَّث).»

(١٩–١٠) قال زيشيا: «الفيلسوف العاقل هو الذي يعمل على التأكد من ثقة أتباعه به قبل أن يعرض عليهم المطالب والواجبات، وإلَّا تسرَّبت إليهم مشاعر الظلم والغبن، كما ينبغي على الحكيم المهذب أن يضمن — بادئ ذي بدء — سعة صدر صاحب الجلالة،

---

[1] لا بدَّ أنَّ القارئ سيُراجع مقولة «زيشيا» — بل المحتوى الفلسفي لكتاب «المحاورات» كله نقديًّا، ليضع الإنتاج النظري هنا أمام خلفيته التاريخية، بظلالها الاقتصادية والاجتماعية الفكرية — محتواها الحضارة والثقافي ... يعني — قبل استعجال أيَّة مقارنة أو علاقة تأويلية بين حدود النص — بظاهر دلالته، كما هي منقولة إلى العربية، ومساحة الاستعارة الفلسفية الممكنة لهذه الدلالة إقليميًّا. (المترجم)

وحسن بصيرته، قبل أن يتوجَّه إليه بالرأي والنصيحة، وإلَّا عُدَّت النوايا الحسنة في الصدور مكائد شرور تتربص في طي الكتمان.»

(١٩–١١) قال زيشيا: «لا يضير المرء أن يقع في هنات من التجاوز، وهامش ضئيل من الخطأ الإنساني المعهود، ما دام حريصًا على الالتزام بالإطار العام الصحيح للمبادئ الأخلاقية.»

(١٩–١٢) قال زايو: قد بلغتي أنَّ تلاميذ «زيشيا» يُجيدون تنظيف قاعات المطالعة، وترتيب الأثاث، وتزيين الجدران، واستقبال وتوديع كبار الزوَّار، لكنَّها كلها أعمال تافهة يسيرة، فأين هم من دراسة الآداب والموسيقى والفنون الراقية. وسمعه زيشيا نفسه، وردَّ عليه قائلًا: «لقد جانبك الصواب يا سيدي، فالطريقة التعليمية المثلى يجب أن تُراعي مبدأ الترتيب في أساسيات التعلم: المقدمة العامة التي يجب أن يبدأ بها الدارس، ثم ما يلي ذلك من مراحل متتالية بالتدريج، وهو أشبه شيء «بدرجات اختلاف أصناف النباتات» فهناك نظام ثابت، لا ينبغي المساس به! ولعلي أقول بأنَّ الأمر كله يحتاج إلى عبقري أو حكيم زمان يقْدِر على وضع نظام تعليمي سليم ومتطور، يتدرَّج فيه الطلاب من المقدمات الأولى إلى مصاف النتائج.»

(١٩–١٣) قال زيشيا: «على العامل الذي يجد وقت فراغ أن يدرس ويتعلم أشياء جديدة، وعلى الدارس الذي يجد متسعًا من الوقت أن يستغل طاقته في أداء وظيفة ملائمة.»[٢]

(١٩–١٤) قال زايو: «الجانب الأساسي في إقامة طقوس الحداد على الميت هو التعبير الكامل والصادق عن الأسى والأحزان.»

(١٩–١٥) قال زايو: «أستطيع القول بأنَّ صاحبي وزميلي «زيجانغ» رجل عظيم، نادر المثال، لكن، بإنصاف لا يُمكنني القول بأنَّه ملاك رحيم!»

---

[٢] تلك هي الترجمة الذائعة لهذا الفصل، لكن — وأنا أنقل عن نسخ صينية مختلفة، تتبنى آراءً واتجاهات تأويلية متباينة — متضادة أحيانًا! — صادفت تأويلًا حديثًا، صدر عن دار «هوايو جياوشوي» بالحروف الصينية (Hua yu jiaoxue chuban she)، ومضمون هذا التفسير: «على الموظف الذي لا يَجِدْ في نفسه مقدرة الحسم واتخاذ القرار، أن يدرس ويحصل على المعرفة، فمن برع في العلم صار أهلًا لتقلُّد الوظائف.»

(١٩–١٦) قال سنغزي: «لقد أخذ «زيجانغ» من ظاهر العلوم بحظ وافر، لذلك فقد بدا في عين الناس مهيبًا جليلًا، لكن كثيرين يعجزون عن تقدير نصيبه من المشاعر والخصال الإنسانية.»

(١٩–١٧) قال سنغزي: لقد سمعت أستاذنا ذات مرة يقول: «يظل المرء رقيبًا، مالكًا زمام مشاعره، يضبطها بمعيار، ويُحررها بحساب معلوم، فلا تفلت منه أحاسيسه كاملةً، ظاهرةً (عاريةً) فيَّاضةً إلَّا إذا مات أحد والديه.»

(١٩–١٨) قال سنغزي: سمعت أستاذنا يقول: «كان «منجوانزي» — أحد أمراء مملكة «لوكو» — شديد البر بأبيه، وهي خصلة يستطيع الكثيرون منافسته فيها، لكن الشيء الذي يعجز الآخرون عن أن يجاروه فيه هو إبقاؤه على النظام الذي أرساه والده، وعلى الوزراء والمسئولين الذين عيَّنهم في مناصبهم أثناء توليه عرش البلاد.»

(١٩–١٩) كان «منغشي» قد عيَّن «يانفو» — أحد تلاميذ سنغزي — قاضيًا للقسم الجنائي، فذهب هذا الأخير إلى أستاذه «سنغزي» ليسأله النصح والإرشاد، فأجابه المُعلم قائلًا: «قد تسلَّط علينا حكامٌ أضلوا الرعية، وتقاعسوا عن توجيه الناس لما فيه الخير والحق والعدل، فكان من جرَّاء ذلك أن مال قلب الشعب إلى الرذيلة، ووقع في حمأة الجريمة والفساد، فعليك لو قصدت إلى إظهار وجه الحق في الاتهام، أو إذا أردت النفاذ إلى جوهر حقيقة الحال في اقتراف الجرائم، فلا بد أن تتفهَّم دوافع المذنب وترق له، وتتعطف بحاله، ودع عنك زهو الفخر والخيلاء (متعللًا بالتوفيق في إنقاذ الجدية والحزم بتطبيق الأحكام الواجبة والمستحقة)!»

(١٩–٢٠) قال تسيكون: «تناقَلَتْ كتب التاريخ سيرة الملك «جو» من أسرة «شانغ» الإمبراطورية، وقيل إنَّه كان طاغيةً جبارًا، ولعل الرواية قد بالغت بعض الشيء، أو لعلها تجنَّت على الرجل وعلى الواقع معًا، والحق أنَّ الحاكم العاقل هو الذي يحرص على أن يورِّث التاريخ سجلًّا طاهرًا نقيًّا، وإلَّا فالسقوط من حافة التاريخ احتمال دائم، ومصير بشع ينتظر كل ملك راحل، يلطِّخ الأسماء الزائلة بالعار، ويَصِمُ السير الماضية بكل الصفات الرديئة التي عرفها بنو الإنسان.»[٣]

[٣] الملك «جو» آخر أباطرة أسرة شانغ، انتحر حرقًا، إثر هزيمته على يد الملك «أوانغ»، وقد وُصِفَ بأنَّه أكبر طاغية في التاريخ.

(١٩–٢١) قال تسيكون: «أخطاء العظيم وهفواته تبدو للناظرين فادحةً، طاغيةً مثل كسوفٍ شمسيٍّ هائلٍ، وبالمثل أيضًا تظهر الإصلاحات، ويلمسها الجميع، وعندئذ تتكافأ مساحة الاحترام والتقدير مع حجم المراجعة والتصحيح.»

(١٩–٢٢) ذهب «كونسن جاو» — موظف عظيم بدولة ويقو — إلى تسيكون، وسأله: من أين لأستاذك كونفوشيوس بكل هذا العلم الغزير؟ فأجابه قائلًا: «أما عرفت أنَّ ذخائر التراث التي خلفها الأباطرة «أون»، و«أوانغ» من عهد أسرة «جو» ما زالت باقيةً خالدةً على مر الزمان، يتناقلها الناس جيلًا بعد جيل، فمنهم مَن يدرك مغزى الحقيقة فيها بما أوتي من روية فكرٍ وذكاء بصيرةٍ، ومنهم مَن يقف عند مظاهر المعاني (إيثارًا للدعة والراحة!) وطلبًا للسهولة، فلئن كان ذلك التراث رائجًا في كل آنٍ ومكانٍ، فما الذي يجعل الوصول إليه عسيرًا على المعلم (يقصد كونفوشيوس)، ولماذا ينبغي أن يقتصر طريق التعلم على أستاذ يُلقِّن، وإملاء تعليمي موجَّه!»

(١٩–٢٣) حدث أن التقى «شوسونو» — موظف كبير بمملكة «لوقو»، اسمه الأصلي «جوشيو» — بكبار المسئولين في القصر الإمبراطوري، وقال لهم: لقد وجدت «تسيكون» أغزر علمًا، وأصدق حكمةً من أستاذه «كونفوشيوس». ثم إنَّ «تسيفوجينبو» — موظف عظيم بالمملكة — ذهب وأبلغ تسيكون بذلك القول، فردَّ عليه هذا الأخير قائلًا له: «لو ضربت مثلًا للعلم والحكمة، بالسور الجداري المحيط بقصر إمبراطوري مهيب، لقلت بأنَّ ذخائر حكمتي وعلومي تُماثل جدارًا لا يزيد ارتفاعه عن مستوى الكتف قليلًا، لذلك تستطيع عيون المارة وأبناء الطريق أن تلمح، من بعيد، بعضًا من أثاث القصر الداخلي، وتصميم الغرف بمعمارها الهندسي الرائع، وزخارفها الفنية الجميلة، ومثل حكمة أستاذنا «كونفوشيوس» كمثل جدار هائل عظيم الارتفاع، يُحيط بقصر شاهق الذُّرا، أعناقه في السحاب، فلا يكاد يُبيِّن للمارة في الطرقات شيئًا من الغرف والأسقف والواجهات والردهات الداخلية بمكنون ذخائرها المتنوعة، فليس لمعرفة ذلك سبيل إلَّا عبر المداخل والبوابات المهيبة، التي لا يتسنَّى الولوج منها في الغالب إلَّا للقليل جدًّا من الزوار، فلا تعجب مما قال «شوسونو» (فاعلم هذا الأمر وتأمله جيدًا)!»

(١٩–٢٤) قيل إنَّ السيد «شوسونو» افترى وشايةً كاذبةً ضد كونفوشيوس، فلمَّا علم تسيكون بذلك، قال: «هي فريةٌ كاذبة وتضليل لا طائل تحته، فليس كونفوشيوس بالرجل الذي تنال منه هذه «الأمور»، فلو كان واحدًا من الرجال العاديين، لكان من الجائز أن يناله الأمر بسوء «فمثل هؤلاء كمثل وَهْدة يرتقيها كل عابر طريق!» لكنَّه قمر

وضَّاء، وشمس غامرة، ولن يضير الأقمار والشموس، ولن يفيدها كذلك، نسك الزاهد، أو لهو العابث.»

(١٩–٢٥) جاء «شانزي شين» إلى «تسيكون»، وقال له: أراك تتواضع كثيرًا مع أستاذك «كونفوشيوس» في أدب جمٍّ واحترام ظاهر، أتراه يستأهل كل ذلك؟ (أتراه أقوى منك علمًا وفضلًا؟!) فأجابه: «لا يُعرف الرجل إن كان عاقلًا أو جاهلًا إلَّا من كلمةٍ تبدر عنه، أو لفظة تشي بمكنون صدره، فالعاقل المهذب مَن أمسك لسانه. أمَّا عن المُعلم، فلا أظن أنَّ أحدًا بيننا يستطيع أن يكون ندًّا له، ولا أظن أنَّ من الحكمة أن يُفكر أحد في أن يبلغ حد منازعته مكانته السامية الرفيعة، فليس لعاقل أن يُجرِّب ارتقاء أعناق السحاب بسلَّم، وأحسب أن لو كانت مقاليد الأمور بيده (شئون الحكم) لحقَّق أمل الناس، وأصلح أحوالهم، وسلك بهم نحو الخير والسلام، فما يدع لهم نفعًا إلَّا اجتلبه، حتى يأتوه من كل صوب يأتمرون بأمره، ويتآلفون صفًّا ويدًا وقلبًا واحدًا، ثم إنَّه الآن ملء عيوننا، يَشرف بحياة مجيدة، وغدًا تزهر ذكراه بعدنا على طول المدى، فأين أنا منه؟ وأنَّى لي بمثل هذا «الشرف العالي الجليل»؟!»

الباب العشرون

يويا

وجملته ثلاثة فصول

(٢٠–١) قال الشيخ «ياو» للإمبراطور «شون»، وهو يسلمه مقاليد الحكم في البلاد: «… المقدور كائن يا صاحب الجلالة، وها أنت تخلفني على العرش بإرادة السماء، فاحكم بالحق والعدل، واعلم أنَّ وراءك رعيةً مغلوبة على أمرها، فارفع عنها البؤس والشقاء، وإلَّا زال عنك المُلك والجاه الأفخم.» ثمَّ إنَّ الإمبراطور شون، لمَّا انقضت أيام حكمه، أوصى خلَفه الملك «يو» بالوصية نفسها. وكان الملك «دان» — أحد ولاة أسرة «شانغ» الملكية — يتقرَّب إلى السماء بصلواته ودعائه المأثور، الذي يقول فيه: «لكِ (أيتها السماء) أزكي صلاة وأعظم قربان، وللرب ذي الملكوت أرفع عهدي وميثاقي، رب قد نذرت ألَّا أُسامح ظالمًا (من العامة!)، وألَّا أُداري سوءة جبَّار (من الوزراء والمسئولين)، رب أدعوك ألَّا تُؤاخذ الناس بذنبي، ولا تضرهم بما فرط مني سهوًا وغفلة، رب فإن أخطأ أحد من شعبي فعليَّ وزره، وفي عنقي ذنبه، فأنا المذنِب والملوم.»

وفي عهد أسرة «تشو» الإمبراطورية، كان الزمان رخاءً وحظًّا وفيرًا، لأهل التقوى والفضل والعلم من الناس، فنالوا ما لم ينله قبلهم أحد من الإقطاعات والألقاب والمناصب الرسمية الكبرى، وكان الملك «أوانغ» يُردِّد على سامعيه ذلك القول: «لقد حرمت أهلي وعشيرتي الأقربين، وفضَّلت عليهم أهل التقوى والفضل والأخلاق، فأيما واحد من الناس اقترف إثمًا أو ارتكب فاحشةً أو جريمةً فأنا، إذن، المسئول.»

ولئن كان توحيد المقاييس والموازين ضمانًا لمعيار العدل، فإنَّ تعميم النُّظم القانونية (المساواة في الحقوق والواجبات)، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، ورد الاعتبار إلى المبعدين

والنابهين، «كل ذلك» لجدير بأن يقود الناس إلى الاقتناع والرضا والتأييد الطوعي بإرادة حرة، وينبغي أن يُراعي مسئولو السلطة التنفيذية أربع نقاط أساسية ويضعوها نصب أعينهم، وهي: الشعب (عامة الناس)، والغذاء (توفير الغذاء)، والدين (تقديم القرابين)، والتقاليد (إقامة طقوس الدفن).

إنَّ المعاملة الكريمة هي المصدر الأساسي للقبول والدعم الجماهيري، والجد مع الدقة والمهارة هما أساس النجاح، كما أنَّ العدل والعدالة أساس رضا الشعب وصادق إحساسه ببهجة «الكريمة».[١]

(٢٠–٢) جاء «زيجانغ» إلى كونفوشيوس، وسأله قائلًا: ما هي الوسيلة المثالية الناجحة للقيام على شئون الحكم؟ فأجابه: «بأن تسلك الخمس النافعات، وتنبذ أربعًا فاسدات.» فسأله السائل عن الخمس الطيبات، ما هي؟ فأجابه المُعلم: «اعلم أنَّ العاقل مَن نَفَع الناس ومنع عن نفسه، وإذا ساقهم إلى الكد احترز أن يُحمِّلهم ما لا يطيقون، وإذا عنَّ له مغنم أخذه بغير ظلم أو بطش، فإذا خرج للناس أبدى ثقةً في غير تكبر أو رياء، ويعرفه الناس بسيماء الإجلال والمهابة دون غلظة، فهو يشمخ بأنف العزة كريمًا أبيًّا، ولا يحدق شزرًا بعين القسوة متجبرًا شقيًّا.» وسأله «زيجانع»: كيف للمرء أن ينفع الناس ويمنع عن نفسه؟ فأجابه كونفوشيوس: «إذا وجَّهت الناس نحو أمور نافعة بطبيعتها، وطلبت إليهم أن يبذلوا جهدًا مخلصًا واعدًا بنتيجة «نافعة» محققة، أفلا يعود ذلك بتمام النفع خالصًا من أيَّة غاية ذاتية! ثم إنَّك إذا فرضت عليهم أداء الأعمال في أوقاتها (مواسمها) الطبيعية، بغير ظلم أو إكراه، فأنَّى لهم بالشكوى والتذمر؟! ولئن ألزمت نفسك بكريم الأخلاق، واجتهدت بشرف المسعى ونبل الوسيلة، فبلغت غاية أملك، فمَن ذا يجسر على اتهامك بالأنانية؟

وإنِّي ناصح لك، فاعلم بأنَّ المساواة بين الناس من خير الفطن، فلا تُفرِّق في المعاملة بين قوي وضعيف، أو بين عزيز ووضيع، فتلك هي سبيلك إلى العزة والمنعة، بغير رياء، ثم إنَّ حسن المظهر والتأنق في الملبس يُضيفان على صاحب النفوذ لمسة من الإجلال، أفليس

[١] ليس ثمة روابط منطقية واضحة ومقبولة بين الفقرات، التعليق على النص الأصلي يذكر في هامشه أنَّ السبب في ذلك يعود إلى أحد احتمالين: (ا) إمَّا أن تكون المدونات الأصلية قد أسقطت بعض الألفاظ والعبارات الرابطة عن طريق السهو أو الخطأ. (ب) أو أن يكون هذا الفصل، في حقيقته، عدة فصول متمايزة، ضُمَّت جميعها في كتلة مدونة من مجموع نص واحد.

ذلك داعيًا إلى إشاعة روح التقدير في نفوس العامة بغير داعٍ للجوء إلى الغلظة والقسوة؟»
وراح زيجانغ يسأله مرةً أخرى: فما هي الأربع الفاسدات إذن؟ فردَّ عليه المُعلم قائلًا: «إنَّ الحكم (على الناس) بالإعدام، بغير سابق جهد في توعيتهم وتنوير وجدانهم يُعَد خسَّةً ونذالةً، والمطالبة بعاجل الإنتاج بغير سابق نصح وإنذار لهو الطغيان بعينه، ثم إنَّ التساهل في تحديد المهام إلى حد التراخي، إذا أعقبه تعسف في تحديد زمن وكم الإنجاز، يُعد غدرًا قبيحًا، وأخيرًا، فإغداق الوعود الكريمة مع التقاعس عن الوفاء بها هو شر البخل والتقتير، فتأمَّل ذلك!»

(٢٠–٣) قال كونفوشيوس: «لا يصير المرء رجلًا فاضلًا إلَّا إذا وعى مغزى القَدَر، ولا يصبح مواطنًا صالحًا في مجتمع إلَّا إذا فهِم أصول الأعراف والتقاليد، ولن يقدر الإنسان — أي إنسان — أن يفهم الناس، إلَّا إذا عرف كيف يُميِّز الحق من الباطل الذي يقولونه بأفواههم.»

الكتاب الثاني

منشيوس

المقدمة

هو واحدٌ من أهم أقطاب المدرسة الكونفوشية (إذ الروجية هي المذهب الكلاسيكي الصيني)، صحيح أنَّه جاء بعد قرن كامل من وفاة كونفوشيوس؛ لكنَّه صار أعظم فيلسوف صيني في المدرسة الكلاسيكية منذ إنشائها، حتى نهاية عصر أسرة تشينغ الإمبراطورية، أي حتى مطلع القرن العشرين الميلادي (١٩١٨م)؛ حيث كانت مادة كتابه الأشهر «كتاب منشيوس» هي النص المعتمد ضمن المحتوى العام للامتحان الذي يُعقد كل عام للمرشحين في الوظائف العليا للبلاط الإمبراطوري.

اسمه «منغ كي»، (أمَّا منشيوس، المعروف به في العصر الحديث، فهو النطق اللاتيني الموضوع له في الترجمات الأولى الصادرة للكتب الأربعة في القرن السابع عشر الميلادي تقريبًا في أوروبا)، والتقدير الغالب لسيرة حياته يُحدد الفترة الزمنية التي عاشها من عام ٣٧٢ إلى ٢٨٩ق.م. (هناك مَن قال بأنَّه عاش من ٣٩٠ إلى ٣٠٥ق.م. وهو قول له وجاهته حسب حجمه وبراهينه، لكن القليلين يأخذون به)، وعلى أيَّة حال، فهي فترة معاصرة لزمن الدول المتحاربة؛ حيث كان الصراع على أشده بين الدويلات الصينية.

وقد وُلد منشيوس في إحدى تلك الدويلات (وهي دويلة تشو، التي كانت تقع في الشمال الشرقي من الصين، وكان قد تصادف أنَّها في الجوار من الدولة التي وُلد بها أستاذه وشيخه الأكبر كونفوشيوس)، ومثل أستاذه، أيضًا، فقد عاش متنقلًا بين البلاد ينشر تعاليمه وأفكاره، وانتهى أيضًا نفس نهايته! إذ جرَّب مرارة الفشل الذريع، فانعزل آخر أيام حياته يُملي أفكاره على تلاميذه ويؤلف الكتب.

منشيوس ابن عائلة لها قدْرها، كانت إحدى ثلاث عائلات بسطت سيادتها ونفوذها في ولاية «لو» — ويُقال بأنَّه ليس هناك تأريخ يشهد بذلك، وإنَّما هي مجرد أخبار تناقلتها الكتب! — وأيًّا ما كان، فلم يكن الرجل يحب ويحترم أحدًا في حياته مثل كونفوشيوس،

وقد كان يأسف لأنَّه لم يكن معاصرًا له ولم يتعلَّم على يديه شخصيًّا، ولم يخفف من أسفه كونه تلقَّى العلم على يد حفيد كونفوشيوس «زيس».

وإن كان يُقال بأنَّه لم يلتقِ بذلك الحفيد في حياته، وإنَّما أخذ العلم عن تلاميذه، إلَّا أنَّ الشيء الثابت هو أنَّه كان يذكر كونفوشيوس دائمًا بعبارات التبجيل والإكبار حتى لقد نقلت كتب التراث عنه مقولته الشهيرة: «إنَّ كونفوشيوس أعظم مَن أنجبت الإنسانية!»

لا تذكر كتب التاريخ الكثير من تفاصيل سيرة حياته سوى أنَّ أسرته لمَّا ضاق بها الحال، بعد زوال المجد والجاه القديم، انتقلت إلى دولة تشو؛ حيث مات والد منشيوس وهو في الثالثة من عمره، فقامت الأم على تربيته وأخذته بالشِّدَّة والرقابة الصارمة، فلمَّا كبر تلقَّى العلم على يد زيس — حفيد المعلم الأكبر — وراح يجوب البلاد، داعيًا إلى المذهب الكونفوشي، وشملت جولاته الدعائية العديد من الولايات: تشي، جين، سونغ، تنغ، ليانغ. وكان قد ذهب إلى ولاية تشي مرتين، وقام بالتدريس في قصر «جيشيا» (وهو المقر الرسمي لأول أكاديمية لتدريس العلوم في تاريخ الصين!)، واستطاع أن يرتقي إلى منصب حكومي مرموق لم يصل إليه أستاذه، كونفوشيوس، في حياته؛ إذ عمل لفترة رئيسًا لوزراء إحدى الولايات؛ لكنَّه لم يكن مَنصبًا تنفيذيًّا؛ بل مجرد وظيفة ذات صفة استشارية دون تكليف بواجبات وسلطات الوزير المسئول أمام مجلس وزراء رسمي؛ مما جعله يرفض تقاضي أي مرتَّب طوال فترة بقائه في العمل، ويُقال بأنَّه كان يمتنع عن الترقِّي في ذلك المنصب الكبير دون أن تكون يده مطلقة التصرُّف في إدارة جهة اختصاصه بما تُمليه عليه مبادئه وأفكاره، وهو الأمر الذي كان يُلام عليه من جانب تلاميذه وأتباعه مع أنَّ السبب في عدم توليه أيَّة وظيفة تنفيذية كان يرجع، في الحقيقة، إلى حكَّام الولايات أنفسهم الذين ما كانوا ليقبلوا أن يمنحوه ما يشترطه عليهم من صلاحيات تجاوزت — من وجهة نظرهم — حدود الممكن أو المقبول. ومن ثم، كان سعيه الدائم وتجواله في البلاد، وانتقاله هنا وهناك، بحثًا عن حاكم يؤمن بمبادئه، ويتبنَّى آراءه.

وقد وُجِّهت إليه الانتقادات الشديدة، ذات مرة، بسبب ما يُمكن أن يُعد إسرافًا من جانبه وهو يجوب البلاد تتبعه عشرات العربات ومئات الرجال، متنقلًا من قصر حاكم إلى آخر، وكان الحكَّام يغدقون عليه ويطلبون رأيه في كثير من الموضوعات، ويبذلون له من التبجيل ما لم يحظَ به كونفوشيوس نفسه، أمَّا هو فقد راح يُدافع عن أسلوب حياته بأنَّه «جدير بما يتكبده، ما دام يعمل على إحياء مبادئ الحكماء الأقدمين» وبأنَّه يلتزم بقاعدة ألَّا يقبل الهدايا، بل يقبل — فقط — بالحصول على ما يكفل له تلبية أقل حاجاته الضرورية.

لكن زمانه كان يموج بصراعات واضطرابات، وحروب بين الدويلات، التي جنَّدت كل طاقاتها لصالح الحرب، ولئن وجد منشيوس مَن يستمع إليه وسط تلك الأجواء، فإنَّه لم يعثر، حقًّا، على مَن ينصت إليه في جدية (راجع شيئًا من أحوال فترة الدول المتحاربة، في مقدمة ترجمتي لـ «كتاب سياسات الدول المتحاربة»، المجلس القومي للترجمة، القاهرة).

فانصرفت عنه القصور الحاكمة لما هو أهم، حيث تحالفاتها البينية هي شغلها الشاغل، وسط دوامة الصراعات القائمة. فلمَّا لم يجد الرجل آذانًا صاغية، أقام في عزلة اختيارية بمنزله؛ ليؤلف — مع تلميذَيْه: وانجان، وكونسون شو — الكتب الفلسفية.

وعلى الرغم مما تناهى إلينا من معلومات من الموسوعات الفلسفية الصينية، وأوساط الدارسين للفكر الصيني القديم، عن المكانة البارزة لذلك المفكر الكونفوشي، إلَّا أنَّه لم يكن يحظى في حياته، ولو بقدرٍ ضئيلٍ من الشهرة التي ظفر بها بعد انقضاء زمانه بمئات السنين.

قضى منشيوس آخر أيام حياته بائسًا منعزلًا، ومات دون أن يحقق ما كان يصبو إليه، فهو واحد ممن انطفئوا في عزلة من الزمن، ثم لمعوا في أحقاب تالية من التاريخ.

ولم تكن مكانته وسط الكونفوشيين، في بداية الأمر — أمر سعيهم لتأسيس ونشر أفكارهم وسط الولايات والدويلات — تضارع مكانة «يان هوي»، وهو أحد روَّاد المذهب الكلاسيكي ممن ظلوا حتى أوائل دولة خان (٢٠٦ق.م.–٢٢٠ ميلادية) يمثلون المكانة الأولى في المدرسة الكلاسيكية، ولم تتغير المكانة حتى عصر تانغ؛ بل حتى عصر دولة سونغ (٩٦٠–١٢٧٩م)، ومن المعلوم أنَّ الكونفوشية انقسمت إلى مذاهب كثيرة، تزعَّمها عدد من الروَّاد، ومعظمهم من تلاميذ كونفوشيوس، مثل: زيجانغ، زيس، يان شن، شيدياو، منشيوس، جونليان، شون تسو، يوجن … لكل من هؤلاء مذهبه وموقعه وفهمه الخاص للمبادئ الخمسة الكبرى (الإنسانية، العدل، الفضائل، الإخلاص، الحكمة)، وبتطور الكونفوشية، اتَّسعت الهوة بين الآراء المذهبية، فظهرت الانحيازات للمدرسة الكبرى … وأشهرها، في نطاق الكونفوشية، مدرستان: الأولى تُنسب إلى منشيوس، تحت مقولة الطبيعة الخيِّرة للإنسان، والثانية تُعزى إلى شون تسو، وتنادي بالتعليم؛ لدرء طبائع الشرِّ المتجذِّرة في أعماق البشرية.

لم ينل منشيوس الشهرة التي كان يستحقها إلَّا عندما جاء الدارس الكونفوشي الأشهر «جوشي» في عصر دولة سونغ الجنوبية (١١٢٧–١٢٧٩م)، وجعل من كتاب منشيوس مؤلفًا مقدسًا، ضمن المتون الأربعة، أو الكتب الأربعة، التي تمثِّل النصوص

الكونفوشية الأساسية، وهي الكتب التي بقيت تُدرَّس في الأكاديميات العلمية الصينية، باعتبارها المادة الرئيسية في امتحانات التأهيل للمناصب الرسمية العليا؛ وذلك إلى أن قامت الحركة الثقافية الجديدة في الرابع من مايو ١٩١٩م، ولو أنَّ هناك مَن يقرر بأنَّ كتاب «منشيوس» قد عُدَّ، ضمن النصوص المقدسة، مادةً للامتحان التأهيلي لتولِّي المناصب العليا في الدوائر الحكومية، وذلك في عصر دولة شونغ الشمالية (١٠٧١م)، فلمَّا حلَّ زمن أسرة يوان الملكية (١٣٣٠م) أُطلق على منشيوس لقب «القدِّيس الثاني»؛ باعتباره جديرًا بمرتبة تالية للقديس الأول كونفوشيوس، بل قُرِنَت آراؤه بأفكار المعلم الأول، وأُطلق عليهما معًا اسم «مبادئ كونفوشيوس ومنشيوس».

أمَّا كتاب منشيوس، ذلك النص الذي صار، كما أسلفت، أحد المتون المقدسة، للكونفوشية، فهو أغزرها محتوى (أكبر حتى من كتاب المحاورات، الكتاب العمدة في المذهب الكلاسيكي)، ويقع في سبعة أبواب، ينقسم كل باب إلى جزأين؛ الباب الأول: «ليانغ هوي» يشرح طرائق الاقتراب الممكن بين الحاكم والشعب، والباب الثاني: «كونسون شو»، يتحدَّث عن مشاعر التعاطف والرحمة، ويؤكِّد على اتساع دائرة الخير، لتشمل ما يتجاوز حدود الإقليم وسكَّانه؛ فالخير لا يعرف الحدود، كما يعرض هذا الباب لسلوكيات الترفُّع عن الجشع، وضرورة الإخلاص التام للواجب، وفي الباب الثالث «تنع وان» يعرض منشيوس للجانب المحوري من أفكاره وهو «الطبيعة الإنسانية» وأصالة النزعة إلى الخير، ويُجادل أفكار الفيلسوف الشهير «موتسي» حول علاقات الحب الإنساني، مؤكدًا اختلاف درجات الانغماس العاطفي بين الناس، وأنَّ الحب ظاهرة ترابط مجتمعي شامل وليست مشاعر عبثية، واستعرض في هذا الباب أيضًا اتجاهات القيم في أشكال السلوك الاجتماعي القائم على علاقات الحب الإنساني، وفي الباب الرابع «ليلو» يتناول معايير السلوك الأخلاقي، ويضع مرجعية الضبط الأخلاقي في يد المجتمع؛ فالاحترام المتبادل بين الناس، والتراحم والمساواة، كل ذلك يُشيع أجواء التفاهم والسلام، وفي هذا الباب يطرح منشيوس أفكاره حول فلسفته السياسية التي تدعو إلى الحكم السياسي القائم على مبادئ الإنسانية؛ باعتباره الأسلوب الأمثل لإقرار حكم قائم على العدل، فالخير يحتاج إلى مَن ينشره، ويُذيعه بين الناس ويعمل على الدعوة إليه، لتأسيس مجتمع إنساني تتحقَّق فيه الفضائل، وفي الباب الخامس «وانجان»، يتكلَّم عن أهم عنصر في البناء الأخلاقي الكونفوشي، وهو الطاعة ومبادئ إقامة العلاقات الودية بين الأصدقاء وأصول أداء الواجبات الوظيفية، ثم إنَّه في الباب السادس «كاوتزي»، يتطرَّق إلى أعماق النفس البشرية، مؤكدًا على بداهة نزوع

النفس الإنسانية إلى الخير، مما يُمهِّد الطريق أمام محاولات تشكيل السلوكيات الأخلاقية، وفي الباب السابع «جين شين»، ينتقل من المسائل المتعلقة بالطبيعة البشرية وأشكال السلوك الأخلاقي، مبيناً العلاقة بين أوجه اجتهاد الإنسان في تهذيب النفس، وأشكال السلوك الأخلاقي. وتنتهي معظم جهود تحقيق النص الأصلي للكتاب إلى أنَّ هذا النص لا يُثير الكثير من المشاكل المتعلقة بصحة التدوين ونسبته إلى مؤلفه الأصلي، ونادرًا ما تصادف مثل هذا التعليق عند كثير من محققي النصوص التراثية الصينية (حتى إنِّي حرصت على كتابة أسماء المحققين الصينيين في صفحة العنوان في النسخة المترجمة عن الصينية لمحاورات كونفوشيوس؛ وذلك توخيًا لأفضل عناصر الدقة الممكنة في توثيق المادة الترجمية، ثم اكتشفت أنَّ الدفاع عن صحة ودقة النصوص التراثية قضية خاسرة، لا محالة!).

وأنصح لِمَن يتعرَّض لترجمة أي نص من التراث الصيني، سواء من العرب أو الدارسين الأجانب من غير الصينيين — أو حتى من الصينيين أنفسهم — بمراجعة آراء المحققين وهوامش الشروح والتعليقات المصاحبة للنصوص، كلما أمكن، ومع ذلك، فليس هناك ما يُمكن أن يصل إلى مرتبة اليقين فيما يتعلَّق بنسبة النصوص الصينية إلى أصحابها، وهكذا، وبرغم ما قيل من أنَّ منشيوس نفسه قد وضع الكتاب، فيبدو (بدرجة ما من التأكيد!) أنَّ بعضًا من تلاميذه هم الذين قاموا بتجميع مادته، بالإضافة إلى مخطوطة أخرى بعنوان «الكتاب الآخر»، وكان يحتوي على أربعة أبواب، إلَّا أنَّه فُقِد تمامًا، ويُنسب إلى «هوشيه» — أحد ألمع المعلقين على الفلسفة الصينية القديمة من أجيال الحركة الثقافية الجديدة —: «إنَّ كتاب منشيوس، إمَّا أنَّه صحيح تمامًا، أو أنَّه مزيَّف من أوله إلى آخره.» وتؤكِّد آراء نقدية باحتمال أن يكون جزء يسير من الكتاب مدسوسًا على نصوصه، وعلى أيَّة حال، فهناك بعض العبارات، في أماكن متفرقة، تنحو — على غير المعهود — من آراء رجل يُقال بأنَّه ثاني أعظم الكونفوشيين بعد كونفوشيوس نفسه … فهناك آراء أقرب ما تكون إلى طبيعة الفكر الطاوي منها إلى صحيح المدرسة الكلاسيكية، وهناك ما يعتقد بأنَّه «تحريف يُساير اتجاه ما يُسمى بالفكر «التشريعي»» (وهو مذهب متفرع عن الكونفوشية يرى في القوانين مادةً صالحةً لتهذيب وضبط أحوال المجتمع الإنساني)، ونستطيع أن نتفهَّم بعضًا من أسباب ما يُمكن أن يكون قد تعرَّض له النص الأصلي لمنشيوس، من تبديل أو حذف أو تعديل أو زيادة، وذلك عندما نعرف أنَّ مادة الكتاب كثيرًا ما أثارت ردود فعل غاضبة لدى رؤى سياسة محافظة في فترات متعاقبة من تاريخ الصين، حتى لقد صدرت عن بعض العروش الحاكمة «فرمانات» بمصادرة

الكتاب، وتردَّد في بعض المصادر أنَّ نصوصًا بعينها أُقحمت بدل عبارات كانت تُثير أجواءً من الاضطراب؛ بل ربما كان التدخل في النص الأصلي متزامنًا مع فترة لمع فيها نجم منشيوس بشدة، خصوصًا إبان انتشار البوذية في الصين أواخر دولة خان؛ إذ رأى المؤمنون بالديانة الجديدة فيما طرحه منشيوس من نزوع الطبيعة الإنسانية إلى الخير ما يُساعد على تمهيد جسور الاتصال مع مقولات البوذية وهو ما مهَّد فيما بعد للاعتراف بما سُمي بـ الكونفوشية الجديدة، حتى ليُقال بأنَّ ازدهار الكونفوشية المثالية، في ذلك الزمان، كان حقيقته تجديدًا لأفكار منشيوس، ولعل جهود التبشير البوذي أخضعت من نصوصه — بالتأويل — ما صادف اتفاقًا مع مبادئها الروحية، أو ربما، أُلحق التأويل بالنص مثلما حدث في مناسبات أخرى كثيرة مع نصوص مختلفة!

وفي المحتوى الفكري للكتاب، نلاحظ أنَّ منشيوس — كغيره من فلاسفة الصين — يُمثل نموذجًا واضحًا لذلك الطراز الأخلاقي من المفكرين؛ ففلسفته تدور كلها حول الطبيعة الخيرة للإنسان (على عكس ثالث أقطاب الكونفوشية «شون تسو»، الذي يؤكد تأصُّل طبيعة الشر في البشر، ويؤكد أهمية التعليم في بث الاتجاهات الأخلاقية الطيبة عند الناس!) وعندما يتناول قضايا السماء والأرض، فإنَّ كل اهتمامه يتركَّز على ما يُمكن أن يسلك به الإنسان في الدنيا مع الآخرين من حوله، في المجتمع الإنساني الكبير، من تصرفات تهدف إلى الخير والفضيلة ونطالع، في مقولات منشيوس، عبارات تتحدَّث — مثلًا — عن: «إنَّ العاقل مَن استطاع أن يتعرَّف إلى طبيعة السماء بواسطة الإنسان» ... أو ما إلى ذلك من إشارات بتعبيرات مختلفة، ولا بد — هنا — من ملاحظة أنَّ العبارة قد توحي بوجود نظرية معرفية ما تتناول مسائل تتجاوز حدود المجتمع الإنساني على الأرض، فإذا مثل هذا المعنى، أو حتى ظلال هامشية منه، فلا بد أن نتذكَّر — سيدي القارئ — دائمًا، ونحن نُطالع نصوص الفكر الصيني القديم مسألتين في غاية الأهمية (ولنقل، مبدأين مرشدين، في مطالعة الفلسفة الصينية عمومًا) تستحقان أن نوليهما قدرًا عاليًا من الانتباه، أولًا: إنَّ كل ما يتعلَّق بماهية السماء (أو ما وراء الطبيعة) لا يشغل موقعًا مرموقًا في اهتمام المذاهب الفلسفية الصينية القديمة كلها، بغير استثناء. ثانيًا: إنَّ مدار الأمر كله يتوقَّف على طرفي معادلة تبدأ بالإنسان وتنتهي بالمجتمع ككل، والاعتبار الأول للحشد الإنساني في مجتمع كبير؛ إذ الفردية ليست محل اهتمام كبير؛ ومن ثم فاستقصاء العدل، كخاصية اجتماعية، أهم كثيرًا من المقولات النظرية المعرفية بالمعنى الوارد في الفلسفة الغربية؛ فالحقيقة ليست غاية مهمة في الفلسفة الصينية بقدر ما تُمثِّله «الفضيلة» من مطلب

ومسعى يستحق كل الاهتمام ... (ولئن كان المثل الشعبي الدارج يقول بلسان العامة بأنَّ «الأدب فضَّلوه على العلم!» فضمير الجمع يعود تقريبًا إلى الصينيين في مقولة، ما، نريد بها تقريب المعنى ... بنفس الدرجة من البساطة!)

والآن، وعلى ضوء هاتين النقطتين نستطيع، بكل سهولة، أن نفهم جوهر الفلسفة الصينية، ولا يبقى إلَّا أن نتكلَّم في تفاصيل.

وأوَّل ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن قيمة ما قدَّمه منشيوس من أفكار، باعتباره ثاني اثنين في ريادة المذهب الكونفوشي كله، هو السؤال عن الجديد الذي أتى به هذا «القديس الثاني». صحيح أنَّه طوَّر وأوضح مفاهيم كثيرة جاءت مجملةً على لسان المعلم الأول، لكن أين تكمن بالضبط إضافته الحقيقية التي أعطته مكانته البارزة وقيمته التي لا تُنكر؟

واسمح لي، سيدي القارئ — وقد ترجمت كتابيهما، وتأمَّلت أقوالهما بكثير من الاهتمام — بالقول بأنَّ مناقشات كونفوشيوس مع تلاميذه كانت تهدف إلى التأمُّل والتعرف على حقائق الأخلاق والفضائل، بينما كان منشيوس حريصًا، طوال الوقت على الدفاع عمَّا يراه المبدأ الصحيح، وعلى نشر أفكاره وإقناع الناس بها بكل وسيلة ممكنة ... وهو لم يقل، مرةً واحدةً، ولو من باب التواضع إنَّه قد يكون مخطئًا، أو أنَّ في كلامه ما يستحق المراجعة والتأمل، على عكس أستاذه، شيخه الأكبر. ومع ذلك، فقيمة ما أضافه منشيوس تتجلَّى فيما قام به من شروح وإضافات على جانب عظيم من الأهمية؛ من ذلك مثلًا: إنَّ كونفوشيوس كان قد دعا إلى الإيثار — وهو الأساس الأول للإنسانية — لكنَّه لم يقل لماذا ينبغي على الإنسان أن يسلك على هذا النحو، فلمَّا جاء منشيوس حاول تقديم إجابة، وفي معرض ذلك وضع أسسَ نظريةٍ حول الطبيعة الإنسانية الخيِّرة.

كانت إضافة منشيوس وقيمة أفكاره الإنسانية تتمثل في مقولة «إنَّ طبيعة الإنسان تنزع أساسًا إلى الخير»؛ لكنَّه لم يقل بالطبيعة الخيِّرة على نحو مطلق، فالإنسان أيضًا يشتمل على عنصر الشر (وهنا يُثار أيضًا تساؤل: ما دام الإنسان تنطوي نفسه على الشر، فلماذا لا نقول بأنَّ طبيعته تحتمل الخير والشر معًا؟) هنالك يُجيب منشيوس بأنَّ الخير هو العنصر الأساسي؛ لأنَّه نتيجة خالصة عن النفس، أمَّا الشر فهو «ناتج» اتصال أعضاء الجسم بالعالم الخارجي، فالنفس هي الـ «داتي» (الشأن الأكبر)، أمَّا أعضاء الجسم فهي الـ «شياوتي» (الشأن الأصغر)، ولكل الناس نصيب منها، لكن ما يُحدد طبيعة الإنسان هو الشأن الأعظم (ذو النفس الخيِّرة). وربما كان هذا هو أول اجتهاد في الفكر الصيني

في تعيين وجود منفصل لكل من الروح والجسد؛ فمنشيوس صاحب ذلك التقسيم الثنائي، الذي تتغلَّب فيه المَلَكة الفعلية (للنفس الخيرة) على الجوانب السلبية بتغليب السلوك الأخلاقي (في شيء قريب مما قاله علماء النفس السلوكي بعده بزمان طويل!).

لكن منشيوس كان يعيش في مجتمع تتنازعه الصراعات السياسية بين الدويلات، وكان تجواله بينها يُبصِّره بكثير من الحقائق التي تبلورت لديه في مقولات فلسفية تتصل بالشئون السياسية، وقد قلنا من قبل إنَّ المجتمع الإنساني هو الطرف الآخر من معادلة تبدأ بالإنسان، فكانت نظرية منشيوس السياسية هي الامتداد الطبيعي والتطبيقي لأفكاره حول الطبيعة الخيِّرة.

من هنا، فقد اختمرت آراؤه حول الجانب الإنساني في السياسة، وكثيرًا ما كان يردد مقولتَي «طريق الحكماء الأقدمين»، و«طريق الطغاة المستبدين»، وهما تشيران إلى قاعدتَي سياسته الأخلاقية؛ فالقاعدة الأولى، تتمثل فيما انتهجه الحكماء القديسون من تغليب الجانب الخيِّر في الطبيعة الإنسانية؛ بينما القاعدة الثانية توضح فيما من سيرة الطغاة الذين فقدوا زمام طبائعهم تحت طوفان من إغراءات علاقات الواقع الخارجي.

كانت نظريته في السياسة الأخلاقية تضع مرجعية تقدير نجاح السلطة السياسية القائمة في يد أفراد المجتمع ... أعضاء الحشد الإنساني الأكبر، الذي يُمثل قواعد المرجعية الأخلاقية التقليدية، فطبيعة المجتمع الإنساني هي الشاهد على المبادئ، ومجموع الحشد الاجتماعي هو الفيصل في إقرار قواعد الحكم الإنساني (ومثلما كانت أفكار كونفوشيوس تلقى ترحيبًا في أوروبا القرن السابع عشر، فقد كانت آراء منشيوس تُحدث دويًّا هائلًا في صفوف التنويريين الأوروبيين في القرن الثامن عشر، كلاهما كان له تأثره بنفس القدر ... وعلى التوالي!)؛ بل إنَّ فكرة الإصلاح السياسي للدولة على النحو الذي ورد به في كتاب «المعرفة الكبرى» قامت أساسًا على أفكار منشيوس، لكن بصورة متطورة.

كان منشيوس يقول، مثل أستاذه، إنَّ المبادئ أربعة (الإنسانية، الأخلاق، العدل، الحكمة)، وأنَّ الحكمة لا تقوم إلَّا في قلب رحيم متواضع، يعرف الخير من الشر، ولكل إنسان نصيب منها جميعًا، تمامًا، مثلما أنَّ لكل إنسان قدمين ويدين، وهي مبادئ يُمكن تنميتها بحيث تصير جزءًا لا يتجزأ من العلاقات الإنسانية. ولئن كان صحيحًا أنَّ كونفوشيوس نصح باتخاذ الرحمة والفضائل سلوكًا أخلاقيًّا، إلَّا أنَّ ذلك كان داخلًا في حدود ما ينبغي على الفرد انتهاجه في نطاق علاقاته المباشرة بالناس من حوله، فلمَّا جاء منشيوس وسَّع نطاق التطبيق الأخلاقي ليشمل، في النظرية السياسية، حكم الممالك

وإدارة الشئون السياسية. يبقى بعد هذا كله، ذلك الغموض الذي اكتنف مقولة منشيوس التي مفادها «إنَّ مَن يدرك كُنه طبيعته الذاتية تمام الإدراك يستطيع أن يعرف السماء»، وقد نوقش معنى هذه الفقرة في ساحات الفكر الصيني لمدة تزيد على ألف سنةٍ!

وكان قد طرح أيضًا مقولة أخرى نصها «أنا أهم الموجودات؛ فكل شيء في الدنيا موجود من أجلي أنا»، وهي مقولة غريبة على الفلسفة الصينية كلها. وربما كان الأساس النظري لرأي منشيوس قائمًا على فكرة أنَّ الكون هو الأخلاق، وأنَّ الطبيعة الإنسانية في جوهرها بالخير والفضائل ومن ثم، فمَن عرف طبيعة نفسه أدرك جوهره وعرف السماء، ومَن عرف السماء فقد تحوَّل من مواطن دولة إلى إنسان كوني عالمي، ومَن بلغ هذا الحد فقد عرف السماء (اتحد مع السماء) ... وهي صياغة تبدو متأثرة بالبوذية إلى حد بعيد!

أمَّا السبب فيما أثير من جدل حول تلك المقولة فلعله يرجع جزئيًّا إلى ما يتبدَّى فيها من غموض أو خروج على صحيح الفكر الكونفوشي؛ فالاستبطان الذي يلمح إليه منشيوس من طرف خفي لم يكن من بين مناهج تلمس الحقائق عند الكونفوشية؛ بل إنَّ الشيخ المُعلم «كونفوشيوس» وصف التأمل الذاتي بأنَّه قاصر، وحثَّ تلاميذه على الاهتمام، والمشاهدة الفاحصة، والاختبار الدقيق لما يجري في العالم من حولهم.

بهذا القدر كانت إضافة منشيوس؛ وبهذا المعنى كان مختلفًا عن (وليس مع) أستاذه، ولو أنَّ الأجواء أملت ضرورة الاختلاف؛ فكونفوشيوس كان مؤسسًا، يحث على البحث والاطلاع، أمَّا منشيوس فكان مُريدًا ينشر ويقنع، الأول كان يُعِدُّ أجيالًا تواصل بعده المسيرة، أمَّا الثاني فكان رمزًا للجيل الذي أنيطت به مهمة الاستمرار، وكان تعدد المذاهب المتفرعة عن الكونفوشية، عاملًا من عوامل البحث عن الأصالة والتفرد، وكانت الوقائع المحيطة بمنشيوس، من صراعات سياسية ومذهبية، تدعوه للتصريح والكشف والتفصيل فيما أجمله أو سكت عنه كونفوشيوس.

لذلك، نأخذ على جوزيف نيدهام Joseph Needham وهو العالِم العلَّامة المتخصص في الشئون الصينية، وأحد أهم المراجع التي أنارت فكر العالم بشأن الصين خلال المائة سنة الأخيرة، ما قاله من أنَّ «منشيوس، وقد قضى معظم حياته في إسداء النصح لحكام ليانغ وتشي؛ فإنَّ تعاليمه لا تحمل من الجديد إلَّا القليل.» («موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين»، الترجمة العربية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٤٠)، أيُمكن حقًّا، بعد ذلك كله أن يُقال إنَّ تعاليم منشيوس لم تحمل من الجديد إلَّا القليل؟!

وأرى أنَّ ذلك لن يصح أبدًا إلَّا بترجيح احتمالات تعرض نصوص الكتاب في مراحل تاريخية مختلفة للاضطراب؛ بسبب الزيادة أو الحذف أو التبديل أو إعادة الصياغة، وإلَّا

فإنَّ الإقرار بصحة انتساب منشيوس للمدرسة الكونفوشية يفرض الإقرار بكل ما نما إلى علمنا من تفرده في تطوير الكثير من المبادئ الكلاسيكية الأصيلة، وبعد …

فهذه، فيما أظن، أول ترجمة لكتاب منشيوس إلى العربية، أو على الأقل، أول ترجمة من الصينية مباشرةً إلى العربية … ولا أدري كيف مرَّت السنوات الطوال وجسور الاتصال قائمة بين الحضارتين الصينية والعربية دون أن تتم ترجمة تلك النصوص الأساسية من التراث الكونفوشي! وحتى لو دريت، فلا أظنني أرضى إلَّا بأن تحظى المكتبة العربية، الآن، بعديد من الترجمات للتراث الصيني، وعلى قمتها النصوص الكونفوشية الكاملة، ولا أبالغ إذا قلت إنَّ بعضًا من هذه النصوص يحتاج أكثر من ترجمة (متزامنة أو متتالية، لا أقول ترجمة سبعينية، لكن ترجمة تُتيح عددًا من الرؤى والتصورات ومداخل الفهم، بمقدار ما يُمكن أن تُنتجه كل جهودها في النقل الترجمي من إضاءات للنصوص الأصلية، خصوصًا أنَّ طبيعة اللغة الصينية تسمح بذلك!).

ولا أظن أنَّ ترجمتي، مهما حاولت أن أبلغ بها من الدقة والإتقان، تكفي لإضاءة الطريق أمام القارئ العربي، طريق الوصول إلى مكامن المعنى … (والصين في الذهنية العربية، طريق سفر شاق وطويل)!

وأقول: إنَّ مثل هذه الترجمات قد تأتي، حتى قبل أن تتضح ظروف الاستفادة التامة منها؛ إذ ليس في جامعاتنا العربية (كلها، فيما أعلم) أقسام متخصصة في تدريس علم الصينيَّات Sinology، ذلك العلم قديم النشأة، الذي يهتم بدراسة مختلف جوانب الحضارة الصينية، قديمها وحديثها: تاريخها، وجغرافياها، وسكانها، ولغاتها، وثقافتها، وآدابها؛ بتركيز خاص على المحتوى الفكري والفلسفي، وهو أيضًا العلم الذي تجده مدرجًا في قائمة مناهج الدراسات المتعلقة بالشرق الآسيوي في معظم جامعات العالم.

وأزعم أنِّي أعدُّ إنجاز ترجمة عربية لعيون التراث الصيني واجبًا نحو القارئ العربي، تأكيدًا لقيمة الصلات الحضارية والإنسانية بين العرب والصينيين؛ بل بينهم وبين الإنسانية بأسرها؛ بيد أنَّ التراث الصيني — في معنى ما — جزء من ميراث الحضارة الإنسانية (ولا أخفي أنَّ شغفي الخاص بترجمة ومطالعة تلك النصوص يأتي من خلفية الاهتمام بالمدخل الأنثروبولوجي والنفسي لدراسة المجتمعات الثقافية كما هو وارد في مقولات «الوعي الجمعي» عند كارل ج. يونغ، ومرغريت ميد، وجوستاف لوبون … وآخرين، لكن تلك مسألة أخرى!).

وإذا كان صحيحًا أنَّ الكتب الأربعة قد تُرجمت إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية، إلَّا أنَّ عددًا من تلك الترجمات لا يستحق أحبار الطباعة التي كُتبت بها، وكم

وددت أن أشير إلى أخطاء لا يليق حتى بطالب في السنة التمهيدية للدراسات الصينية المتخصصة أن يقع فيها، فما بالك بأسماء لامعة مثل: جيمس ليغ James Legge، وآرثر ويلي Arthur Waley، وجايلز Giles، وغيرهم، إلَّا أنَّ مثل هذا الجهد يستحق مقولات مطوَّلة، سأعرضها لاحقًا، كلَّما سنحت الفرصة.

ولا أستطيع القطع بأنَّ هذه النسخة من الترجمة خالية تمامًا من الأخطاء (فهناك اصطلاحات كثيرة ما زالت تحتاج للضبط، واجتهادات في النقل ما زالت في حاجة إلى الدقة)، وقد اجتهدت في ترجمتها، لكني حتى قُبيل دفعها إلى آلة الطباعة لم أجد في نفسي الرضا التام عنها، وأؤكد للقارئ بأنَّني كنت حريصًا على تقديم أفضل ترجمةٍ ممكنةٍ؛ باعتبارها مادةً للاطلاع العام لجمهور القرَّاء، ولذلك فقد حرصت ألَّا أقطع السرد بالإحالة إلى الهوامش؛ بل اكتفيت بأن أضع بين قوسين هلاليين ما كان يستقيم النص بقراءته مما وجدته في الشروح المصاحبة للمتن، وبين قوسين مربعين، وضعت ما وجدته مفيدًا لتوضيح المتن من مواد مضافة إليه من خارجه، ويستطيع القارئ — الذي لا يريد أن يشغل نفسه بقراءة ما بين الأقواس — أن يتجاوزها دون أن يجد اضطرابًا في تسلسل الأفكار وترابطها.

أمَّا نسخة الكتاب المترجَم عنها النص الأصلي، فهي مودعةٌ بمكتبة الألسن، جامعة عين شمس، بالقاهرة، تحت رقم ٦٩٨٣ (الصفحات من ٣٣٩–٦٥٤)، بيد أنِّي استفدت من الشروح المصاحبة لعدد من النصوص المنشورة في كثير من المواقع على شبكة الإنترنت العالمية، ويظل بإمكان كثير من الدارسين العرب، تقديم ترجمات أوفى وأفضل، من اللغة الأصلية مباشرةً، في المستقبل.

المترجم

الباب الأول

ليانغ هوي

الجزء الأول

وجملته سبعة فصول

(١–١) التقى منشيوس بالملك «ليانغ هوي» (٤٠٠–٣٨٩ق.م.) (أحد أباطرة دولة وي في زمن الدول المتحاربة، تولى الحكم من ٣٦٩ إلى ٣١٩ق.م.) الذي ابتدره قائلًا: «ما أظنُّك قطعت كل هذا الطريق الطويل رغبة في خوض غمار السفر والترحال، فلا بد أنَّك جئتنا بشيء تجري علينا به الفائدة، ونتزود فيه منك، أنا وسائر المملكة، بالحكمة والخير العميم.» فردَّ عليه منشيوس؛ بما نصه: «ولماذا ينبغي أن نسعى دائمًا وراء النفع يا مولاي، أما يجدر بنا الاكتراث للإحسان وكرم الأخلاق؟! إنَّ الملوك إذا تساءلوا عمَّا يعود بالنفع والفائدة على عروشهم، راح المسئولون والوزراء، بدورهم، يتساءلون عمَّا يُحقق النفع والفائدة لبيوتهم، وراح الناس كلهم، كبيرًا وصغيرًا، يتساءلون عمَّا يعود بالنفع والفائدة على مصالحهم الذاتية المتواضعة؛ ويصير الكل باحثًا عن نفعه الذاتي ومصلحته الأنانية، حتى توشك البلد كلها أن تتداعى أركانها ويتحطم جوهر وجودها.

إنَّ مملكة تتكوَّن قوتها العسكرية من عشرة آلاف مركبة مقاتلة تصير مطمعًا لرجل طموح لا تزيد كتائبه على ألف مركبة حربية، وإنَّ إمارةً لا تتعدى قوتها ألف مركبة حربية تُغري قائدًا لا تزيد قواته على مائة عربة مقاتلة باحتلالها؛ فتأمل أولئك جميعًا ... فكل واحد منهم يملك فقط عُشر ما يطمح إليه؛ فصاحب العربات الألف يتطلع إلى العشرة آلاف، وصاحب المائة يتشوَّق إلى الحصول على الألف ... فهكذا لو جعلنا المنفعة أهم من الفضيلة، لما قنع أولئك (الذين أشرت إليهم توًّا) إلَّا بعد أن يقبضوا بأيديهم على مبتغاهم، ويصير كل بعيد عن متناول أيديهم محط آمالهم ومنتهى غايتهم؛ ثم إنَّه لم

يحدث قط أن كانت الفضيلة مُفضية إلى أن يهجر الرجل أباه وأمه، ولا كانت المنفعة سببًا في أن يمهل المرء شئون بلده ورؤسائه، ليس للملك أن يدعو لشيء سوى الفضيلة، ففي ذلك الكفاية وبلوغ الغاية، وليس هناك ما يستوجب الالتفات إلى ما يُحقق النفع الفردي.»

(١–٢) التقى منشيوس بالملك «ليانغ هوي» وسار معه حتى وقفا عند بحيرة في إحدى الحدائق، فأخذ الملك يتأمَّل منظر البجعات والأيائل والطيور من كل صنف عند شاطئ البحيرة، ورأى صور انعكاسها في الماء يبهج الأبصار، ثم تحدَّث الملك قائلًا للفيلسوف: «هل يجد الفضلاء والحكماء في مثل هذه المناظر متعةً مثل باقي الناس؟»، فأجابه: «في الحق، فإنَّه لا يستمتع بمثل هذا المنظر سوى أهل الحكمة، ومن الناس مَن يقتني هذه الأشياء، فينعم بامتلاكها دون أن يجد فيها متعةً صافية، وقد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«برج الأقداس،
روح الزمان الذي
وضع الملك صورته وهيكل بنيانه،
ولم تقصر في بنائه الهمم،
ولم يتأخر واحد من الرعية
عن تقديم يد المساعدة؛
فتمَّ البنيان في نصف نهار،
وقد كانت تقضي الأوامر
بألَّا يقسو الناس على أنفسهم
لإتمام البناء قبل الأوان؛
لكنَّهم بذلوا أرواحهم بكل تفانٍ،
فلمَّا ذهب الملك تجاه البحيرة يتنزَّه،
وجد الأيائل سائمة
بأعناقها المنثنية،
رشيقة وهانئة،
وكانت الأطيار بريشها المجلوِّ الناصع،
تغرد، نشوانة،
حتى الأسماك

تقافزت فرحًا ورضًا،
يملأ جوانح الكون،
ويغمر الآفاق.»

فهكذا ترى أنَّ الملك «جو» وجد الرضا والسرور في قلب رعيته، وهو يدعوهم لبناء «البرج السماوي» والبحيرة الواسعة، لدرجة أنَّ الناس صاروا يُطلقون على هذه البحيرة الضحلة اسم «البحيرة المقدسة»؛ بل صاروا يَعدُّون كل ما فيها من طيور وأسماك وبجعات وسلاحف كائناتٍ مقدسةً أيضًا، فمن ثم كان يُمكن لحكام ذاك الزمان أن يعرفوا معنى السعادة، وأن يلمسوا ذلك بأنفسهم مما يتجلى في مشاعر الناس نحوهم، وإن شئت أن أذكر لك مثالًا مناقضًا لذلك، فهاك ما سجَّلته صحف «طانغ شي» التاريخية ... من أنَّ الناس كانوا يرددون في الأدعية مقولة مفادها: «... سحقًا لأنوار الشمس، سحقًا لكل الشموس، وليتبدَّد الضوء وتهلك كل النجوم، ونذهب كلنا إلى الجحيم ... فقد جربنا في الدنيا كل النعيم!» (وقد كان الملك الطاغية «شياجي» يزعم بأنَّه هو شمس الشموس والضوء الغامر للكون كله!).»

(١–٣) وتكلَّم الملك ليانغ هوي مع منشيوس، فقال: «قد بذلت قلبي وعيني لأجل بلادي، فما قصَّرت في شيء، وكنت إذا نزل القحط بجانب النهر الغربي، مددت يد العون لشعبي وعبرت به إلى الشاطئ الشرقي، أو — إذا تعذَّر عليَّ ذلك — حملت لهم ما يُقيم أودهم من الطعام (فلا أدعهم يهلكون جوعًا)، فإذا نزلت النوائب بجانب النهر الشرقي، سلكت مع الناس هناك مثلما فعلت في المرة الأولى، وتأملت، بعد هذا، سياسات الممالك المجاورة مع رعاياها، وتكشف لي أنَّها لا تسير معهم مثلما أتصرف حيال مواطنيَّ، ومع ذلك، فما كان مثل ذلك الإهمال من جانب تلك الممالك ينقص من ملكها شيئًا، ولا كان اهتمامي بشئون الناس تحت سلطاننا يزيد مما نملك قيد أنملةٍ، فما تعليلك لذلك؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «أما وإنَّ جلالتك تحذق فنون الحرب والقتال، فاسمح لي أن أستعير من تعبير الحرب وفنونها ما يوضح قولي ... فإنَّه إذا دعا داعي القتال، وبرزت إلى الساحات الدروع والمغافر، ونشب الطعن وتعانقت الرماح، كان نفر من المحاربين تقاعست هممهم، فولوا الأدبار؛ فمنهم مَن أسرع بالفرار من الميدان (... مائة خطوة)، ومنهم مَن تباطأ في النكوص عن ساحة القتال، وصار على بُعد (... خمسين خطوة)، فحينئذٍ تجد هؤلاء المبتعدين خمسين خطوةً يسخرون من الفارين ويتهمونهم بالجبن والتخاذل ... أفلا ترى أنَّ معهم الحق في سخريتهم تلك؟»

وأجاب الملك قائلًا: «كلا؛ بل إنَّ كليهما ليس على حق في شيء، فكلاهما متخاذلٌ جبان.» فقال الفيلسوف: «ما دام الأمر كذلك، فلماذا ترغب في أن يزيد تعداد الناس في الممالك المجاورة؟! إنَّه لولا التوازن القائم بين مواسم الزرع والحصاد لزاد الثمر عن الجني، ولو كانت شباك الصيد متينة الصُّنع دقيقة المسام لما بقيت في قاع البحر أسماكٌ، ولولا ضرب الفئوس في جذوع أشجار الغاب، حسب نظام مُحدد ومواسم فصلية معلومة، لما بقيت الأشجار قائمةً على وجه الأرض (فتأمل ذلك ...)، واعلم أنَّ في الوفرة أمن وأمان رعاياك، وعليه تقوم حياتهم؛ بل تهنأ به أرواح موتاهم في القبور، فإذا ما أصبحت الحياة أمنًا ورخاءً، وصار الموت خاتمةً كريمةً بعد عُمر مديد لمواطني بلدك؛ فقد أقمت مملكة الخير الباقية أبد الدهر.

ما ظنك بحقل مساحته خمسة أفدنةٍ مزروعة بأشجار التوت، أما يُمكن لصاحب مثل هذا الحقل (ما دام ميسور الحال هكذا) أن يرفل هانئًا في الحرير والديباج، حتى لو كان كهلًا متقدم السن.

وما قولك في حظائر الدواجن والماشية مهولة العدد إذا روعيت فيها وسائل التدجين الصحيحة، أفلا يستطيع صاحبها — حتى لو كان شيخًا في السبعين — أن يتخذ طعامه من اللحوم، في كل وجبة كيفما شاء؟

وما رأيك في أرض مساحتها مائة فدان تقلب فيها الزرع، واحتشدت خطوطها بالبذور، أليس ذلك كفيلًا بأن يدفع عن المزارعين المقيمين بأطرافها شر الجوع وغائلة السغب؟

وكيف لو تأسَّست دور العلم على مبادئ الفهم وأسس الاحترام (... الطاعة)؛ أما كان ذلك حقيقًا بأن يؤدب النشء ويرحم الشيبة.

فتأمَّل ذلك كله، واعلم أنَّك (باتباع السبيل الصحيحة) واصل إلى غرضك، بالغ سبيل الحكمة والخير في مملكتك؛ فأمَّا إذا صارت دواب الأغنياء في بلادك، تمرح في الطرقات كيف شاءت، تخطف الخبز من فم رعاياك، وتتركهم يتضورون جوعًا في الشوارع، فيقعون في التهلكة، وأنت تنظر وتقول: ليس هذا شأني، بل هو القضاء والقدر! فأنت عندئذ مثل قاتل يزعم أنَّه لم يجنِ على أحد، مع أنَّه هو نصل السكين الذي أزهق روح الضحية؛ فالملك الذي لا ينحي باللائمة على الظروف والأقدار، هو الذي تقصد إليه الناس جماعات شتى من كل حدبٍ وصوبٍ.»

(١–٤) قال الملك «ليانغ هوي» للفيلسوف: «يسرني أن أستمع إليك يا سيدي وأنت تعظني وتنير بصيرتي.» فردَّ عليه منشيوس بقوله: «هلَّا ذكرت لي الفرق بين القتل بسكين

حادة والقتل بعصا غليظة؟» فأجابه الملك: «لا فرق هناك.» فسأله منشيوس: «فما الفرق، إذن، بين القتل بسكين حادة والقتل بواسطة القهر الذي تُمارسه السلطة السياسية؟» فأجابه: «لا فرق في هذا أيضًا!» فقال الفيلسوف: «ومع ذلك، فبينما يعمر مطبخك بأزكى الطعام، وتمتلئ حظائرك بأحسن الخيول المطهمة، يُعاني الناس في بلدك من الفقر والجوع، حتى استلقوا في الطرقات هياكل محطمة، كجثث افترستها السباع. وإذا كان الإنسان مجبولًا على كراهية منظر الوحوش وهي تنهش وتتعارك وتلتهم فرائسها، فكيف تسكت (... وأنت في مكانة الأب) وتدع لحم رعاياك في أنياب السباع الضارية، وقد قال كونفوشيوس ذات مرة: «إنَّ مَن يصنع للناس توابيت الدفن يمُتْ بغير ذرية تخلِّد اسمه بين الأحياء.» وذلك لمجرد أنَّ هذه المهنة تعتمد على التفرغ لطقوس الدفن وإقامة مراسم الجنائز ومواراة رفات الموتى. فما ظنك (لو كان كونفوشيوس حيًّا قائمًا بيننا الآن، ويرى الأمر متعلقًا بـ) أولي الأمر الذين يحاصرون رعاياهم بالجوع والحرمان؟»

(١–٥) قال الملك ليانغ هوي، وهو يُحادث منشيوس: «كانت دولة «وي»، كما تعرف، أقوى مملكة على ظهر الأرض، أمَّا اليوم فقد تغيَّر الحال كثيرًا، والمملكة التي كانت يومًا إمبراطورية متسيِّدة تحت السماء صارت نهبًا ممزقًا بين دولة «تشي»، التي احتلَّت حدودنا الشرقية وسلبت الأرض والكرامة في حرب مات فيها أكبر أبنائي، ودولة «جين» التي احتلَّت سبعمائة «لي» (ثلث الميل تقريبًا) من الحد الغربي (غرب النهر)؛ بينما لقينا ما يهين الشرف ويندى له الجبين على يد مملكة «تشو» في الجنوب، ولا أُخفي عليك أنِّي — وأنا القائد — أشعر بالخزي والعار في قرارة نفسي، وكم أتوق إلى الثأر لكرامتنا، وللشهداء ... ولكل مَن حارب ببسالة في بلادنا، فقل لي ماذا أفعل؟» وأجابه منشيوس قائلًا: «تستطيع أن تصير إمبراطورًا متوجًا للأرض الصينية كلها، حتى وأنت في هذه المملكة التي لا تزيد على مائة «لي» مربع؛ وذلك بأن تطلق يدك في الحكم على النمط العالي الشريف، ملتزمًا بالأصول والمبادئ الأخلاقية والإنسانية، بغير أعباء تثقل كاهل رعاياك؛ من ضرائب باهظة أو عقوبات ظالمة.

وتسير فيهم بسياسة رشيدة، ترعى شئونهم وتغل بالخير حصادهم، وتلهم قلوبهم — العامرة بعنفوان الحياة — معاني تفيض بالبر والإخلاص والتفاني والتبجيل «حتى يصير كل واحد منهم رحيمًا بمَن يقيمون تحت سقف بيته، عارفًا بقدر ومكانة كل الناس تحت سماء الدنيا الواسعة، وحينئذٍ فقط يستطيع رجالك أن يصدوا كيد مبغضيك وأسنة رماحهم، ولو بالعِصي وأغصان الشجر الطرية، فيردوا عنك غارة قوات دولتي «جين»

و«تشو»؛ ذلك بأنَّهما قد استولتا على أراضي رعاياك وحقولهم، فحالتا بين الناس وإعالة ذويهم، وفرقتا شمل الأُسر والعائلات وأذاقتاهم شر البلاء، حتى كاد الناس يفضِّلون الموت على الحياة، لذلك أرى أنَّك لو أرسلت بمَن يصلح الأمور ويرد صولة المعتدي لما قام في وجهك أدنى اعتراض. ولا تنسَ الحكمة القديمة التي تقول: «لا غالب لَمن غلب بالحسنى، ولا عدو لَمن أعدَّ عتاد الفضيلة»، فالطريق أمامك، فالعزمَ العزمَ، وحذار من التردد!»»

(١–٦) التقى منشيوس بالملك «ليانغ شان» [ابن الملك ليانغ هوي] فلمَّا خرج من عنده بدت عليه علامات الاستياء، وقال: «قابلت جلالته، والغريب أنَّني كنت أتطلَّع إليه من بعيد فلا أجد عليه سيماء رجل الدولة المسئول، ثم التقيته وجهًا لوجه، فما وجدت له سمة الملوك، ولا أمارات المهابة، ثم إنَّه ابتدرني — بغير مناسبة — بسؤال مباغت؛ قائلًا: «كيف يتحقَّق السلام على الأرض؟»، فأجبته: «يتحقَّق السلام إذا توحَّدت الممالك»، فسألني ثانيةً: «فمَن يستطيع تحقيق الوحدة؟» فقلت له: «أي واحد ليست هوايته قطع رقاب الناس وإزهاق أرواحهم»، فسألني: «فمَن يتبعه أو ينصره إذن؟» فأجبت: «لن يتخلَّف عن نصرته مخلوقٌ واحد على وجه الأرض، وقد بلغني أنَّ جلالتكم تعرف الكثير عن الأرض والزرع والحبوب والغلال، فما ظنك لو حدث مرةً أن امتلأت صفحة السماء بالسحب الكثيفة أثناء شهور القحط، خصوصًا شهرَيْ يوليو وأغسطس، ثم هطلت السماء مدرارًا حتى ارتوت الأرض، أما يطيب ذلك للبذور والثمر، فيتجدد النمو وتزكو الخضرة، وهو الأمر الطبيعي الذي لن تقف دونه أيَّة موانع، ومَن يتأمَّل أحوال زماننا — يا مولاي — ينظر حوله فلا يجد إلَّا راغبًا في إزهاق أرواح الناس، عازمًا على سفك الدماء. حتى لقد ظننت أن لو ظهر بين الناس رجل رشيد يبغض القتل، لصار الجميع خلفه ولتجدَّدت به الآمال، وتطلَّعت إليه الأفئدة، وتبعته الخُطى أينما سار، كما تطاوع المياه سيل النهر الجاري. وتلك أمور في الطبيعة تدركها البديهة؛ فمَن ذا يملك الوقوف في وجه تيار عارم!»»

(١–٧) التقى منشيوس بالملك تشيشوان (تولَّى الحكم من ٣١٩–٣٠١ق.م.)، فسأله الملك: «ألا يُمكن أن تقص عليَّ قصة الأميرين «تشيهوان» و«جيون» وحكاية تورطهما فيما جرَّ عليهما ما اشتُهر عنهما من ظلمٍ وطغيان؟» فأجابه الفيلسوف قائلًا: «لكن المشكلة أن أحدًا من تلاميذ كونفوشيوس لم يترك لنا خبرًا عن هذين الرجلين؛ لذلك لا أجد من آثار الأقدمين شيئًا يُفيدنا في معرفة تفاصيل ذلك الأمر. وما دمت جلالتكم قد تطرقت إلى ذكر هذا الموضوع الليلة، فإنِّي أستأذنكم في أن يدور الحوار حول المغزى

الحقيقي لممارسة الحكم في الممالك، وبشكل خاص حول الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها الحكم في ظل العرش الإمبراطوري المجيد»، فردَّ الملك قائلًا: «فقلْ لي، إذن، ما هو الركن الأساسي والقاعدة المُثلى التي يرتكز عليها العرش الحاكم وتنتظم بها أمور الممالك؟» فأجابه منشيوس: «إنَّ وحدة الممالك التي تقوم على قلوب يؤلف بينها جلالة الملك بالحب والتفاني، لا يُمكن أن تنال منها قوةٌ أو أن تعترض طريقها عقبةٌ أبدًا»، وهنا سأله الملك: «فهل تنقاد لي قلوب الناس عندئذٍ بالحب والأمن والتفاني؟» وردَّ الفيلسوف بالإيجاب، فسأله الملك عن السبب فيما دعاه إلى الرد بهذه الثقة، فأجابه: «كان السيد «خوهي» أحد مستشاريك قد حكى لي مرةً حكايةً موضوعها أنَّ جلالتك كنتَ جالسًا في شرفة القصر ذات يوم فرأيت رجلًا يسحب ثورًا في الطريق، فسألته إلى أين يمضي بذلك الثور؟ فأجابك قائلًا بأنَّه يريد أن يذبحه وفاءً بنذرٍ، فنهرته وقلت له بأن يدع الثور وشأنه؛ لأنَّك لا تحتمل منظره وهو منكمش في نفسه جزعًا مما سيلقاه من الذبح، وأبديت استغرابك من أن يقدم الرجل على قتل ثور من دون ذنب جناه! وعندما سألك عمَّا إذا كنت تقصد بذلك الامتناع عن الوفاء بالنذور، أجبته بالنفي، وأوضحت له أنَّ قصدك من هذا أن ترفع السكين عن رقبة الثور، وتذبح بدلًا منه كبشًا أو عَنزة صغيرة، ذلك هو ما بلغني يا مولاي، ولا أدري إن كان صحيحًا.» فأكَّد له الملك صحة الواقعة، فقال منشيوس: «فهذا المعنى الكامن في روح الشفقة والتراحم يكفي للتأليف بين قلوب الناس، وبرغم ما قد يُشير إليه تصرف جلالتك من دلالة على التقتير أو الشح أو الإقلال؛ لكني واثقٌ من أنَّك قد صدرت في قولك عن مشاعر حقيقية وأصيلة، مهما اختلف الناس حول تأويلها.» فقال له الملك: «نعم، هو كذلك حقًّا، لكن الشيء الغريب هو أن يُفكر الناس على هذا النحو، فما الذي يدعوني أن أبخل بذبح ثور، وبلادنا — كما ترى — ليست ضئيلة الموارد والمساحة «بالدرجة الملحوظة»؛ فكل ما في الأمر، هو أني تأثرت لمرأى الثور وهو مُساق إلى الذبح، وتخيَّلت منظر أحد الأبرياء وهو يُقاد إلى ساحة الإعدام بغير جناية، فلذلك طلبت أن يُذْبح كبش بدلًا منه»، فقال منشيوس: «ومع ذلك فلا تلم الناس أن ظنوا بجلالتك البخل، فكيف لهم أن يدركوا نوايا قلبك الباطنة، ثم إنَّ منطق العطف ومشاعر التأثر لمنظر ثور يُساق إلى الذبح بغير ذنب ينطبق أيضًا على كبش الأضحية الذي سيلقى مصير الذبح نفسه، بغير إثم، أليس كذلك؟» وضحك الملك بسخرية قائلًا: «عجبًا للأفهام التي تحيَّرت طويلًا في مسألة بسيطة كهذه! المسألة، يا سيدي، لا تتصل من قريب أو بعيد بالبخل الناتج عن شدة الحرص على ممتلكات ذات قيمة، أيًّا ما كانت، لكنَّها، ببساطة شديدة مجرد إحلال كبش بدل ثور ... لا أكثر ولا أقل!»

فقال الفيلسوف: «لا تشغل نفسك بهذا التقدير كثيرًا، فقد كان موقفك، إجمالًا، يصدر عن نية طيبة ومشاعر مرهفة، وعمومًا، فأنت لم ترَ بعينيك سوى الثور، لكن الكبش لم يكن هناك.

وكثيرًا ما تتأثر مشاعر أفاضل الناس وكرماء الخلق بأحوال الطيور والحيوانات بمختلف أنواعها؛ حتى إنَّهم لا يطيقون رؤيتها ميتة، ومنهم مَن يُقسم بألَّا يقرب لحومها إذا ما ترامى إلى سمعه صوت أنينها وصراخها الحزين؛ لذلك تجد الكثير من هؤلاء الناس يجعلون مطابخهم في أقصى ركنٍ من المسكن، إن لم يباعدوا بينه وبين بقية المنزل بمسافة.»

وتهلَّل الملك قائلًا: «إنَّ قولك هذا ذكَّرني بعبارة في «كتاب الشِّعر القديم» مفادها:

«... ومهما تكن عند امرئ من خفايا،
وإن يظنها تخفى عن الناس، تُعلم ...»

وما ذكَّرني بهذا القول إلَّا ما لمسته فيك من فطنة ومقدرة على فهْم ما يجول بخاطري من أفكار، كنت أنا نفسي لا أدركها على هذا النحو، حتى عندما كنت أخلو إلى نفسي وأحاول أن أجد رابطة منطقية بين هذه الأفكار ... لكن، قُل لي، على أيَّة حال، ما علاقة ذلك كله بتحقيق النموذج الأكمل للحكم في المملكة؟» فأجابه: «ماذا لو جاءك واحد وأبلغك أنَّه قد أدرك من القوة قدرًا يُمكنه أن يرفع ثقلًا مقداره ألفَيْ وزنةٍ، ثم تكشَّف لك أنَّه لا يصمد تحت ثقل ريشة دجاجة؟ أو زعم لك أنَّه قوي البصر، حاد العينين، يرى أدقَّ الأشياء؛ ثم إذا به يعجز عن رؤية عربة تحمل أطنانًا من الحطب، فهل كنت تصدق مثل هذا الرجل لو جاءك بخبر؟» فردَّ الملك بالنفي القاطع. فلمَّا جاء الرد كما كان يتوقع الفيلسوف، انتهز الفرصة وقال لمحدثه:

«لا أرى من المفهوم أو المنطقي، يا مولاي، أن تقصر رحمتك على الدابة التي لا تعقل شيئًا، وتضِنَّ بذلك على الآلاف المؤلفة من أبناء شعبك، فلا فرق، من ثم، بين مَن احتمل أثقالًا أو ريش دجاج؛ بل قد يتقاعس المرء عن حمل ريشة عصفور، ما دام العصفور نفسه أهم عند الملك من الآدميين، ويعجز المرء عن رؤية عربةٍ محملة بالحطب والخشب؛ إذ لا فائدة تُرجى حينئذٍ من إعمال العين المبصرة بعد أن صارت والعمى سِيَّيْنِ؛ مما يعوق العدل والحكم الملكي القويم، فيضيع الأمن ويتبدد السلام، لا لصعوبة تحقيقهما، بل لعدم الجدية في اتباع الطريق المؤدي إليهما.» وهنا، سأله الملك شيوان: «فما الفرق

بين العجز والتقاعس، حسب ما سُقْتَ من أمثلة؟» فأجابه: «إذا قلتَ للناس إنَّك لا تقدر على أن تعبر النهر بوثبة واحدة وأنت تحمل على كتفيك أثقالًا في وزن الجبال، صار قولك مقبولًا، والعجز مفهومًا؛ أمَّا إذا قلتَ بأنَّك لا تقدر على أن تُدلِّك جسد رجل مريض أقعدَته الشيخوخة؛ فذلك تقاعس يصدر عن فتور، لا عن عجز قهري ألجأتك إليه الظروف، فلهذا أرى أنَّ الحال الذي يشهد بعدم تقديركم للحكم الملكي العادل على نحو ملموس لا ينطبق على مثال عابر النهر بأثقاله الضاغطة، وإنَّما ينطبق أكثر على المتثاقل عن تمريض الكهل المتعلل بأوجاعه المتوهمة.

ثم إنَّ العطف على الكبير والضعيف سلوك ينبع من داخل جدران بيتك ليشمل الكبار والكهول، ويحفظ لهم مكانتهم، ويشمل أيضًا الصبية الصغار، عطفًا وحنانًا، وهو السلوك الذي سينتشر خارج إطار أسرتك الصغيرة، فيدخل كل بيت في مملكتك؛ وبهذا وحده تتقلَّد صولجان الملك وتصير الآمر الناهي في شئون بلادك، على النحو الذي تقرره بكل إرادتك، وقد جاء في «كتاب الشِّعر القديم» ما معناه:

«ليس للإمبراطور «أون» نظير ولا مثيل؛
بجملة ما شرَّع لأهل بيته،
وما فرض على إخوته
أبناء أمه وأبيه،
وكان مضرب المثل،
في الشرف والسؤدد بين قومه،
فانقادت له الممالك
في خاتمة المطاف.»

والمعنى هنا واضح؛ إذ يُشير إلى تعميم نطاق الخير بالتطبيق الأمثل للمبدأ الصحيح، فمن ثم كان لزامًا أن تمتد آفاق الخير لتشمل القريب والبعيد؛ بالدرجة التي تُحقق الأمن تحت السموات السبع والبحار الأربعة (أي في كل الأنحاء …) وإلَّا تعذَّر على المرء أن يضمن الأمن والسلام، حتى لامرأته التي تسكن بيته. وإذا تأمَّل الواحد منَّا سيرة قدامى الحكماء والقديسين، أدرك السر في تقواهم واتضحت أسباب سعيهم الدءوب في توسيع نطاق الخير والفضل والخلق الكريم، فماذا حدث للناس في زماننا إذن؟! إنَّ ما حدث، ببساطة، هو أنَّك يا مولاي، تُولِي أهمية فائقة للعطف على الطير والحيوان، دون أن

تمد يد العون للإنسان. والأمور تقاس بالتبصر وإمعان النظر [حرفيًّا: الموازين بأثقالها، والأطوال بمقاييسها ...] فهذا ينطبق على تقدير الجِرم المادي الملموس والمعنى الذهني المدلول عليه؛ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمعقول في الذهن، والمجبول في فطرة الوجدان والضمير؛ فتأمَّل ذلك واعلمه! ولا أدري إن كنت دعوت داعي الحرب والقتال، وجمعت ألويتك وفرسانك، وألقيت البغضاء في قلوب جيرانك؛ سعيًا للفخار أو اختيالًا باستعراض قوتك؛ مجلبةً للرضا والزهو وهدوء البال؟»

فقال الملك: «كلا ... لم أرد هذا؛ إذ ليس فيه ما يدعو للسعادة، إنَّما هو أمل يحفز الخيال، وطموح يدعو إلى التفوق.»

فردَّ عليه منشيوس قائلًا: «فهلَّا تفضَّلت جلالتك بأن تذكر لي هذا الطموح وذلك الأمل»، فلم تصدر عن الملك نأمة، سوى ابتسامة ارتسمت على محياه، لكنَّه سكت ولم ينطق بشيء. فواصل الفيلسوف كلامه قائلًا: «أيكون دافعك لذلك بطنًا لا تشبع من نبت وافر وخير عميم، أم جسدًا لا يكتفي بما عليه من السندس والديباج الموشَّى، أم عينًا لا تقنع بلون الحياة رائقًا بديعًا فتطلب المزيد؟ أم آذانًا ما عاد يشنفها أعذب الألحان؟ أم تراه أملًا في إعداد حاشية من رجال أكثر طاعة وأسلس قيادًا وأكرم خُلقًا؟ وهو احتمال بعيد؛ لأنَّ رجالك ووزراءك هم أشد الرجال طاعة وتفانيًا وإخلاصًا ... أيكون شيء من ذلك هو ما تطمح إليه جلالتك؟!» ... فأجابه الملك: «كلا ... ما أردت شيئًا من ذلك قط.» فقال الفيلسوف: «قد عرفت، إذن، مبتغى جلالتك، ولا أظن الأمر يزيد على كونه تطلعًا إلى توسيع حدود الإمبراطورية، وذلك بضم أراضي كل من دولتي «جين» و«تشو»، وإرغام رجالها وأمرائها على الرضوخ لكم وتقديم واجب الطاعة والإذعان لقراراتكم، ليمتد سلطانكم فوق الربوع كلها، برغم تحقيق الأمن والسلام فوق تلك الأراضي التابعة، لكنني أقول لك إنَّك كنت تسعى جادًّا، بالفكر، لتحقيق هذا الطموح، فلست إلَّا صائد أسماك فوق أغصان الشجر.» فدُهش الملك متسائلًا: «أو ترى الأمر هكذا؟ (سيئًا إلى هذه الدرجة).»، فأجابه: «بل أسوأ مآلًا وعاقبةً، فصائد الأسماك فوق أغصان الشجر، قد ينأى عن الضرر برغم فشل المسعى، إلَّا أنَّ جلالتك لن تتمكَّن من تفادي الكوارث ما دمت عقدت العزم على المُضي في طريق آمالك وأحلامك.» فسأله الملك: «ألا تزيدني تفسيرًا وشرحًا لكلامك هذا؟» فاستدركه الفيلسوف بما نصه: «فأنت، فقل لي — إذن — أي الجانبين ينتصر إذا ما تصارعت مملكتا «تشو» و«تسو» معًا؟» فأجابه: «مملكة تشو، بالطبع!»، فقال له: «فمعنى ذلك، إذن، أنَّ دولة صغيرة لا تهزم أخرى كبيرة؛ ودولة ضعيفة لا تصمد أمام

أخرى قوية، ومجموع مساحة الممالك — كما تعرف — يبلغ ألف «لي» مربع، تنقسم إلى تسع مناطق، ويبلغ نصيب مملكة «تشي» فيها مقدار التُّسع تقريبًا (من المناطق جميعًا)، ولو قام في ذهن أحدنا أن تتغلَّب دولة «تشي» بهذا الحجم على المناطق الثمان الباقية وتقهرها، فما الذي يمنع هذا التصوُّر نفسه من أن يضع مملكة «تسو» في مواجهة مع دولة تشو (بالصراع المسلح ...) فلماذا نغفل جذر الأمر وأصل الموضوع. والحق أنَّه لم يعد أمامك إلَّا أن تُصدر قرارًا عاجلًا بتطبيق المبادئ الإنسانية: التراحم، الإخاء، الفضائل. وعندئذٍ، سيقصدك أصحاب الكياسة والفطنة من الملوك والوزراء والمسئولين، من أقصى أطراف الأرض، وتمتلئ مزارعك بكل يد تفلح وتبذر النبات، ويتكدَّس في أسواقك الباعة والتجار من كل جنس ولون، وتصير الطرقات المؤدية إليك مزدحمةً بأصناف من البشر، بكل أهل الدنيا، حتى المقهورون سيهرعون إلى أبوابك يسألونك العدل والإخلاص، فمَن ذا يجسر على أن يصد زحفهم؟»

وهنا قال الملك: «إنَّ ذهني قد تبلَّد بعض الشيء، ولست أفهم مقاصدك، فهلَّا تفضلت بتفصيل الأمر وزيادة الشرح، وأرجو ألَّا يضيق صدرك بما يعسر عليَّ فهمه.» فقال له منشيوس: «ليس سوى أماجد الناس وأكرمهم أخلاقًا هم الذين يقدِرون على احتمال شظف العيش والرضا بما قُسم لهم. أمَّا عامة الناس فلا أظنهم تطمئن نفوسهم وسط الفقر المحيط بهم من كل ناحية، ويصير الاحتمال الأقوى أن تتكدَّر أحوالهم؛ فيعيثون في الأرض فسادًا، ولا يتورعون عن اقتراف الآثام، ثم إنَّك لو حاسبتهم وأخذت على أيديهم إعمالًا للقانون، وحفظًا للنظام، كنتَ كمَن ينصب مكائد لعمَّاله ومواطنيه، يريد الإيقاع بهم من حيث لا يفقهون، فكيف يستقيم — في نظرك — التخطيط لسياسة رشيدة تقوم على النزاهة والأخلاق الفاضلة؛ بينما تبحث يد القانون عمَّن تُوقع به في مصائدها تربصًا بالناس، ثم تطلب إليهم تصديقها والانصياع وراءها في طريق الإنسانية والخير والسلام! لذلك يلزم الأميرَ الفطِن الداهية أن يضمن لشعبه حياة رغد وهناء، يعم فيها الخير على الآباء وينعم فيها بالجود والكرم أحفاد الأحفاد، فتقر العيون وتشبع البطون في وقت الرخاء، وتتصل القلوب بنبض الحياة أوان الشدة والبلاء، وعندئذٍ يُصبح من الممكن الحديث عن مبادئ التراحم والفضائل والأخلاق، وحض الناس عليها، وستجد الجميع، بعد ذلك، آذانًا صاغية، وحشودًا طائعة؛ أمَّا اليوم، وقد غابت مملكة الرخاء، فلا يجد المرء ما يُقيم به شأن بيته بعد أن امتنع الخير وعمَّ القحط، حتى صار مجرد البقاء حيًّا قصارى ما يستطيعه أو يتمناه إنسان، فإنَّ الحديث عن الأخلاق والمبادئ والفضائل يعد لغوًا من القول أو حديث أحلام وساعات ضائعة.

ولئن كنتَ، يا مولاي، تتطلَّع إلى حكم قوي الأركان، تُحقق فيه معاني الفضيلة والخير والإنسانية، فلماذا لا ترجع إلى المبدأ الأصلي الواضح والمعهود. وقد بلغني أنَّ عندك حديقة هائلة المساحة، فازرعها أشجار توت، فلعلك بعد برهة تتيح للشباب من الذكور فرصة ارتداء أثواب حريرية، وابذل اهتمامك وعنايتك بتربية الحيوانات واحفظ مواسم تكاثرها، فسيعود ذلك عليك بالخير الواسع؛ إذ تُطعم مِن لحمها العجائز والكهول، وابذر أرضك، فإنَّ خمسين فدانًا يُمكن أن تغل ما يدفع غائلة الجوع عن ثماني عائلات كثيرة العدد، وافتح أبواب معاهد العلم والدراسة أمام الجميع، واجعل مواد الأخلاق والفضائل موضوعات دراسية مقررة ليشب النشء على احترام الوالدين وتبجيل الكبار؛ فلا يعود شيخ أو كهل يمشي في الطرقات وعلى ظهره أحمال ثقال [هكذا]، وتأمَّل معي بلدًا يرتدي فيه الناس الحرير، وتعمر موائدهم باللحوم الطازجة، وينعمون بحياة هانئة بغير فقر ولا فاقة؛ ألا يصبح من السهل على الحاكم في مثل ذلك البلد أن يُقيم إمبراطوريةً إنسانيةً على أركان من المجد، مدعومةً بالخُلق والرحمة والفضيلة؟»

الجزء الثاني

وجملته ستة عشر فصلًا

(٢–١) في لقاءٍ بين وزير الدولة «جوانباو» والفيلسوف منشيوس، قال الوزير للفيلسوف: «كان جلالة الملك قد استدعاني وأخبرني بمدى حبِّه للموسيقى، وأخذ يتكلم ويفيض دون أن أفهم مغزى شغف جلالته بالموسيقى والألحان، فهلَّا أفدتني بشيء مما عندك؟»

فأجابه منشيوس: «ما دام البلاط الملكي لدولة تشي قد تعلَّق بالموسيقى إلى هذا الحد، فهذا دليل على مدى ما ينتظر المملكة من نهضة ورقيٍّ.»

وفي أحد اللقاءات التي جمعت بين منشيوس وملك تشي، سأله الفيلسوف قائلًا: «أصحيح ما بلغني على لسان «جوانباو» من أنَّ جلالتك تهوى سماع الموسيقى هذه الأيام؟» فعندئذٍ تغيَّر وجه جلالته، وأجاب قائلًا: «ما قلتُه يومها بالضبط هو أنَّنا ما كنَّا نميل أبدًا إلى سماع الموسيقى الإمبراطورية القديمة تلك التي عفا عليها الزمان؛ وإنَّما نحب الاستماع إلى الألحان (الشعبية) البسيطة الذائعة في كل مكانٍ.» وهنا قال له الفيلسوف: «ما دام الأمر كذلك فلا بد أنَّ مستقبلًا راقيًا ومجيدًا ينتظر دولة «تشي»،

وعلى أيَّة حال، فالموسيقى الشائعة في أيامنا هذه ليست إلَّا درجة متطورة من فنون النغم القديمة.» فقال له الملك: «فهلَّا شرحت لي ذلك، بقْدرٍ من التفصيل»، فردَّ الفيلسوف قائلًا: «بل قل لي أنت، أي الأمرين أدعى للبهجة وأسعد للنفس، أن تسمع الموسيقى وحدك أم بصحبة الآخرين؟» فأجاب: «مع الآخرين طبعًا»، فسأله ثانيةً: «وأيهما تفضِّل وأنت تسمع الموسيقى؛ أن تكون بصحبة نفر قليل من الناس، أم جمهرة كثيرة منهم؟» فأجابه الملك: «في جمهرة كثيرة بالطبع!» فانتهز منشيوس فرصة إجابة الملك بهذا المعنى، وقال: «فاسمح لي جلالتك — إذن — بتبيان حقيقة ما يدعوه الناس شغفًا بفنون النغم والألحان، فمثلًا لو أقمت جلالتك حفلًا موسيقيًّا صاخبًا في قصرك، وضجَّت الألحان حتى تناهت إلى أسماع الناس دقات الطبول الهادرة وصفير الأبواق، وبلغ درجة من الصخب ضجر منها الناس، وصار يُقبل بعضهم على بعض وهو يتساءلون مستنكرين قائلين: «إذا كان مليكنا يُحب الموسيقى إلى هذه الدرجة، فما له يوجع رءوسنا ويؤذي أسماعنا، فالواحد منَّا لم يعد يجِد صاحبًا يُجيد الإنصات، ولا زوجة، ولا أخًا يتحدَّث إليه وسط هذا الضجيج.» ولو أقمت جلالتك — مثلًا — حفلة صيد داخل أسوارك الملكية، وأخذت العربات تهرع بالجلبة المعتادة في كل الأنحاء، حتى تناهى ذلك إلى الناس خارج القصر وصاروا يُشاهدون مراسم الصيد من بعيد، والبيارق الملوَّنة الصاعدة في السماء، فلا بد أنَّهم سيتكدرون للغاية، وينطق ناطق أحوالهم بما فحواه: «… لئن كان الملك يهوى الصيد على هذا النحو، فما ذنبنا نحن وقد كدَّر صفونا، وبدَّد هناءة عيشنا بما جلب علينا من تلك الأحوال، حتى بلغنا مبلغًا سهونا فيه عن أهم الأمور والغايات.» … والعلة في كل ذلك، يا سيدي هي عدم مشاركة الناس فيما عنَّ لك من متعة التذوق الفني الجمالي؛ أمَّا إذا أقمت حفلًا موسيقيًّا فخمًا، فصدحت فيه الألحان حتى بلغت عنان السماء، والناس حولك فرحون متهللون، يقول أحدهم للآخر: «ما أنبل روح جلالة الملك وما أعظم خلقه وأبلغ تقديره الفني الرفيع، بما جُبِل عليه من إحساس مرهف بالأنغام والموسيقى.» … فإذا دعوتهم إلى حفل صيد عام، وأريتهم عرباتك الفخمة، وجعلت بأيديهم شارات المجد الملكي مشرعةً، لرفعوا إليك وجه الابتهاج، ولتحدثوا فيما بينهم قائلين: «ما أبهى جلالة الحاكم، وأتمَّ حلمه، وأبلغ مقدرته على تسيير دفة الأمور في البلاد.»

والسبب وراء ذلك يكمن في مشاركتك إياهم مظاهر الفرح والابتهاج. فإذا استطعت أن تبلغ بهم تلك الحال، دانت لك قلوبهم، ورضخت لك أعناقهم، وبلغتَ بهم جلال السؤدد والشرف الذي لا مزيد عليه.»

(٢–٢) تساءل جلالة الملك شيشوان قائلًا: «أصحيح ما بلغني من أنَّ المَلك «جوين» (مؤسس دولة جو) كان يملك مزرعةً للصيد تجاوزت مساحتها سبعين ألف لي مربع؟» فأجابه منشيوس: «ذلك ما ذكرَتْه سجلات التاريخ!» فعاد الملك يسأله: «وهل كانت مزرعته على هذا النحو من الفخامة حقًّا؟» فردَّ منشيوس، قال: «أنت، يا مولاي، تراها فسيحة الأرجاء، هائلة المساحة، لكن الناس — وقتئذٍ — كانوا يرونها أضيق من كوةٍ وأضأل من حجرٍ.» وهنا سأله الملك: «فما بال الناس يرون حديقتي أفسح وأكبر من كل ما سواها، بينما لا تكاد تزيد مساحتها على أربعين لي مربعًا؟» فأجابه منشيوس: «كانت حديقة الملك «أون» على اتساعها، يقصدها الصيادون والبستانيون وقاطعو الأخشاب، وكل عابر طريق، فلم يحدث أن أغلقت أبوابها مرةً دون أحد من هؤلاء، فلمَّا غصَّت جنباتها بالواردين وامتلأت طرقاتها بالزائرين أصبح الجميع يرونها ضيقة تكاد لا تنفسح دروبها لمسعى الزائرين؛ ثم إنِّي أردت الدخول من أسوار مملكتك فلم يتيسَّر لي ذلك إلَّا بما أُملي عليَّ من مواثيق مغلظة، وما أُرغمت عليه من إجراءات مشددة تفرض الالتزام الصارم بما درج عليه الناس هنا من عادات وطرائق حياة. وقد قال لي القائل بأنَّ هناك مزرعة صيد هائلة تبلغ مساحتها أربعين لي مربعًا تقع في قلب بلادكم، لكنِّي أُبلغت بأنَّ اللوائح تنص على أنَّ مَن يُطلق سهامه على أيل واحد من أيائلها فيرديه جاثيًا يُقتل قصاصًا، فتؤخذ رقبة إنسان برقبة دابة، فمَن يريد أن يجلب على نفسه الهلاك باقترابه من أسوار المزرعة؟ فمن ثم خَلَتْ كل تلك المساحة من الزائرين وصارت بَلْقَعًا واسعًا مترامي الأطراف، وأضافت الرهبة مساحة أخرى فوق وحشة المكان فبلغت أضعافًا فوق أضعاف.»

(٢–٣) توجَّه الملك شيشوان إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «هل هناك أُسس راسخة للعلاقات مع الدول المجاورة؟» فأجابه: «نعم يا مولاي، فالكريم الفاضل هو وحده الذي يُدرك أصول العلاقات مع الدويلات الصغيرة، بعقل واعٍ وقلب مفتوح، فلا يستنكف من أن يضع نفوذه الإمبراطوري ومكانته السامية في خدمة دويلة مجاورة، وهناك أمثلة تشهد بصدق ذلك من التاريخ؛ إذ تحفل السجلات التاريخية بما قام به الملك «تانغ» (مؤسس أسرة يين الملكية) من خدمات جليلة للأمير «كيه»، ومنها كذلك ما قام به جلالة الملك أون (حاكم دولة جو الكبرى) لأجل العشائر القبلية المجاورة بمنطقة «كوني». ثم إنَّ الحكيم العاقل، يا سيدي، هو الذي يعرف كيف يوظِّف إمكاناته لمصلحة الدول الكبرى، وأشهر نموذج لذلك هو الملك «طاي» (أحد أحفاد ملوك أسرة جو الملكية)؛ حيث أدرك وفهم الشروط التي أملتها الظروف المحيطة، والتي تجعل من الحكمة الإذعانَ لمصالح

القوميات الشمالية الكبرى ذات النفوذ البالغ إبان فترة حكمه، ومن ذلك أيضًا ما انتهجه «كوجيان» (حاكم دولة «يوي») في علاقاته مع «فوتشاي» (حاكم دولة «أو» — كما تنطق في كلمة «أورشليم» —)، وكان هذا الأخير قد هزمه في إحدى المعارك، وفرض عليه شروط الاستسلام المهينة، فصدَّ كوجيان، وظلَّ ينتهز الفرصة إلى أن سنحت له بعد سنوات، فلم يتوانَ عن الانتقام.»

إنَّ الجبابرة الذين خفضوا جباههم كرامةً لجيرانهم الأدنى منزلةً، ارتفعت هاماتهم بالرضا السماوي المجيد، فنالوا السلام والأمان. أمَّا الأذلة الجبناء، الذين انسحقت رءوسهم مرضاة لعروش أباطرتهم، فقد أدركوا بواطن الفطنة والعقل الراجح بما أكبروا من ملكوت الجلال السماوي ونافذ سطوة الأقدار، فالذين أقاموا مجد الرضا السماوي تمجَّدت عروشهم، وصاروا فوق الممالك هامات عالية بالعزة والجلال.

فأمَّا المطروحة راياتهم إذعانًا ورضوخًا لقدر السماء فقدت تجلَّت بالعزة أقدارهم وتقدَّست بنور المعرفة قلوبهم، فصانوا أوطانهم، ودام بقاؤهم الدهر الداهر. وقد ورد في كتاب «الشهر القديم» ما نصه:

«أقم مجد السماء،
واحفظ في قلبك عظيم سطوتها،
إجلالًا ومهابةً.
تتبدَّد غيوم الرهبة مي عينيك،
ويشخص بك في كل طرف،
شاهد سلام وأمان».

وهنا قال الملك شيشوان: «لا فُضَّ فوك، قد قلت فأوضحت المعنى وأبدعت المقال، غير أني إذا تأمَّلت خصالي — على ضوء ما ذكرت آنفًا — ألفيتني أشد ميلًا إلى التفاخر بما نلت من حظوة، وما امتلكت من قدرة تفوق مثلها لدى الآخرين. وأدرك أنَّها نقيصة لا تليق بالخلق الأتم، إلَّا أنِّي قادر على مغالبة ما استقر عليه الطبع وركز في خصالي.» وقال منشيوس: «لا تدعن مظاهر القوة الساذجة تَعْلق بنياط قلبك، يا مولاي، ولا تكن كمَن يجرد سيفه القاطع في وجه الناس، ويصيح متهددًا متوعدًا بقطع رقاب مَن يجرءون على منازلته؛ فمثل هذا الفخر لا يليق إلَّا بالعامة والدهماء، ولا ينبغي لجلال منزلتك وعظيم بهائك إلَّا أن تسمو بمعنى الرفعة إلى آفاق المجد والشرف الملكي التليد.

وقد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما مفاده:

«قد اجتاحته ثورة غضب ملكي،
واستقرت في قلبه مجمرة من عزة وإباء شريف،
فأصدر أمرًا إمبراطوريًّا
بحشد حشود وصد جحافل الغزو الغشوم،
فصدعت بالأمر أرتال ومواكب،
وانعقد للرايات،
خير الرجاء،
وعمرت بالفرح القلوب.
وقد بزغ نجم النصر المبين».»

ففي هذا المعنى ما يُمثل الفخر الشريف الذي يحث النفس على غضبة تثأر لنفسها من الذل الجبان وتُهيئ للناس — من حولك — أسباب العيش الكريم في أمان ودَعة وسلام! ولعلي (... أجد الفرصة الآن، مناسبة فـ...) أُذكِّرك يا مولاي، بما جاء في «شوجين» (كتاب التاريخ) من أنَّ «السماء التي وهبت الحياة لكل الناس، وخلقت الدنيا للجميع، وجعلت للناس أربابًا من فوقهم في دنيا معاشهم، فأولئك هم الملوك الذين اصطفاهم رب السماء ليكونوا مثال فضل وقدوة صالحة ليحتذي الناس حذوهم ما دام رضا السماء مبتغى جهدهم، وما دام حب الخير للناس هو قبلتهم التي لا يحيد عنها قصدهم. إلا إنَّ الملكوت الأعلى يظل بظله المشارق والمغارب، (وهو) فوق كل آثم فاجر وكل بر عفيف، وبيده القضاء في المثاب والعقاب (الكل رهن مشيئته)، قد مضى حكم القضاء وقام حد القدر؛ بيد أنَّ واحدًا من الناس (ألا وهو الأمير الفاسد «تشو» ... «أواخر أسرة شانغ الملكية، القرن الحادي عشر قبل الميلاد») انتقض سُنَّة الملوك السابقين، فطغى واستبدَّ وعاث فسادًا، وسار في الناس سيرةً أحفظت عليه قلب العاهل الأكبر الإمبراطور «أو» [تنطق كما في «الأورمان»] الذي ثارت فائرة غضبه في إباء شريف، أطاح بالطغيان، وأقرَّ العدل في ربوع الممالك، فكانت تلك إحدى صولات الاندفاع الجريء، التي ما إن ينتفض بها عزم الملوك حتى يسود الأمن والأمان تحت السماء، مما يحدو بالناس إلى القبول بشيء من رعونة الحاكم وصلابة جرأته على النحو الذي ذكرت لك.»

(٢–٤) التقى الملك شيشوان، في «القصر الجليدي» بالفيلسوف منشيوس، وقال له: «هل ينعم الحكماء والفضلاء برغد العيش على نحو ما تجد حولي، في هذا القصر؟»

فأجابه: «نعم يا سيدي، فالناس (الحكماء) إن لم تجد نعيم الحياة وتتمتع بألوان من رغدها، ألقت اللوم على الملوك والأمراء. ولئن كنت أنكر على اللائمين لومهم، إلَّا أنِّي لا أقر الولاة على الاستئثار بكل مجالات الاستمتاع بمباهج العيش دون العامة والبسطاء؛ فالحاكم الذي يجد في الحياة الكريمة لرعاياه هناءةً ورخاءً، لزم على مواطنيه أن يروا فيما يحظى به من ترف ودعة جدارةً واستحقاقًا وقسطاس عدلٍ، وكذلك إذا تكدَّر قلب الملك لما أصاب رعيته من كرب وضيق، فسوف تحزن لمصابه قلوب الناس أجمعين. واعلم، يا سيدي، أنَّ ملكًا تقاسم مع شعبه حلو الحياة ومرَّها لن يعدم وسيلةً للحكم الرشيد، أو منهاجًا سياسيًّا يقوم على العدل والتراحم.

وقديمًا، التقى «تشي جينكون» (حاكم دولة تشي) بالوزير الحكيم «يانزي» وطلب إليه الرأي والنصيحة حول أحد الموضوعات التي كانت تشغل باله، قائلًا للحكيم: «ها أنا ذا قد أزمعت السفر إلى منطقتَي «جوانفو» و«جاوو» (مناطق تلال جبلية)، ولعلي أنطلق من هناك، بعد استراحة قصيرة، مسافرًا بمحاذاة شاطئ البحر قاصدًا الجنوب، باتجاه منطقة لانغي، فبماذا تُشير عليَّ كي أجعل هذا السفر ترحالًا شريفًا مقدسًا، كدأب الحكماء الأقدمين؟» فأجابه الوزير يانزي قائلًا: «قلتَ فصدقتَ، فسألتَ فأحسنتَ السؤال يا سيدي، ولئن طلبت إجابتي فإنِّي قائل لك: إنَّ الإمبراطور الأعظم ابن السماء ذهب ذات مرة في رحلة تفقدية إلى الإمارات التابعة، والمقصود بالرحلة التفقدية القيام بزيارة إلى الإقطاعيات التي تحت سلطانه؛ ليقف على أحوال الأمن في المناطق الحدودية.

وذهب الأمراء للقاء جلالة الملك (خلال رحلته) في طقس رسمي يُعرف ب «تقرير المهام الوظيفية». والغرض من هذا الإجراء أن يقوم كل أمير بعرض تقرير مفصَّل أمام الإمبراطور عمَّا قام به من أعمال أثناء توليه منصبه، ولم تكن الرحلة تخلو من مهام تفقدية متنوعة؛ ففي الربيع تجري مراقبة أحوال الزرع والحرث [فيستقيم ما اعوجَّ من الأمور ويوسع على الفقير، فيدفع عنه ما يجد من ضيق وشظف عيش]، وفي الخريف، يأمر جلالته بمراقبة أحوال الحصاد [حيث يُصدر أوامره بتعويض الأُسر التي تُعاني من نقص الغلال]، فكان الحال مثالًا لما نطقت به الحكمة الباقية من عهد الملوك الأقدمين، تلك الحكمة التي تناقلتها الأجيال، ومفادها: «مَن ذا يقعد ويهنأ له بال، إن لم يأتِ الملك ليتفقد الأحوال» ... «مَن يرَ الملك وهو يسعى لمراقبة سير العمل يشهد بأنَّه خير مثال يُحتذى به من جانب الأمراء والدَّهماء معًا» ... أمَّا اليوم، فقد تغيَّر الأمر كثيرًا؛ إذ أُفرغت الغلال في أفواه المحاربين فلم تبقَ حبة من محصول إلَّا أُنفقت لأغراض القتال، حتى

هلك الناس جوعًا، وكلَّت سواعد العمَّال، وضجَّ الكل بالشكوى، واكفهرَّت الآفاق بأوخم العواقب، [وعلى الرغم من مثل تلك الرحلات الاستطلاعية] فالأمور تسير في غير ما ترضاه إرادة السماء؛ حيث يُمارس الملوك ألوانًا من الغش والخداع والبطش، تدفعهم أهواء الترف والتبذير سراعًا إلى المجون والانحلال مثلما يتسرَّب تيار الماء في النهر الجاري، وهم على هذا النحو، تتلاطم الأمواج والتيارات نحو دوامة من الضياع، مما أوقع الخوف في قلوب النبلاء الذين باتوا يتطلعون إلى تلك الأحوال ولا يملكون حيالها شيئًا، (ولئن قلت بأنَّ الأمواج تتقاذفهم، فلأنَّهم ...) ينزلون مع تيار الماء الجاري إلى منحدرات البذخ والدعة، (أو ...) يعاندون اتجاه المجرى بركوبهم تيار المجون والاستهتار، وهو ما لم يكن معهودًا في مسلك الأباطرة من قديم؛ حيث لم يُعرف عن أحدهم أنَّه قد أسلم قياده لمجرى يقوده نحو الهاوية، أو أنَّه انقلب ضد الاتجاه القويم مُوَلِّيًا صوب الخطر، فمن ثَم لم يتهمهم أحد بالخلاعة أو الاستهتار إلَّا قليلًا من الأمراء الذين أساءوا إلى أنفسهم بما جنت عليهم أيديهم.»

هنالك أحسَّ النبيل «جينغ» ببالغ السرور، وقام باتخاذ كل الاحتياطات الضرورية من أقصى البلاد إلى أقصاها، وذهب ليُقيم بأطراف الضواحي، ثم أصدر قرارًا بفتح كل صوامع الغلال؛ تلبية لحاجة الفقراء والمنكوبين، وجمع إليه كبار الفنانين والموسيقيين قائلًا لهم: «اعزفوا ألحانًا تبتهج بها قلوب الكبار والصغار [الأمراء والوزراء ...].» فعزفوا له الأغنيتين المعروفتين باسم «جيجاو» و«جوكا جويتشاو»، وتذهب بعض مقاطعها إلى القول بما معناه:

«يهون كل الصعب
فداءً لأمير البلاد.»
ولو أنَّ المعنى الحرفي لذلك المقطع يُفيد بأن:
«لا ضير من إسداء النصح للأمير ...
برغم ألفة الصحبة ... وغلبة المحبة ...»»

(٢–٥) تساءل الملك شيشوان [أي الملك شيوان حاكم دولة تشي] قائلًا: «الجميع يريدون أن أهدم مقصورة «مينتانغ» [تلك التي أقامها حاكم «جو» فوق جبل «تايشان» لاستقبال الأمراء بها]، وقد تردَّدت مرارًا، وألَّمت بي الحيرة، ولا أدري أأهدمها أم أُبقيها كما هي؟» فأجابه منشيوس: «إنَّ «مينتانغ» قد أُقيمت لتكون مقرًّا للشئون الملكية، فإذا

كنت عازمًا على ممارسة سلطاتك بوصفك حاكم البلاد، فلا داعي لهدم منشأة رسمية تابعة للبلاط الملكي.» فقال له الملك: «فهلَّا تفضلت بشرح المقصود من مسألة ممارسة السلطة الملكية؟» فأجابه: «عندما كان الملك «أون» يُهيئ أسباب الاستقرار لمنطقة تشي، فقد أخذ ضريبة الأطيان من المزارعين بواقع التُّسع من قيمة الأراضي، وسمح للموظفين الرسميين بتوارث المنصب الوظيفي، وقصر مهمة المراقبين في الأسواق والمعابر ونقاط المرور على التفتيش دون تحصيل أيَّة ضرائب أو رسوم، وأزال الحظر المفروض على الصيد في البحيرات والمسطحات المائية، وقصر تنفيذ العقوبة على المُذنب دون أن تشمل أحدًا من الأهل والأقارب [فلا يحمل البريء وزر الجاني].

إنَّ أربعة من الناس يُعانون أسوأ مصير يُمكن أن يلم بأحد من البشر (وهم): الأرمل الذي ماتت عنه زوجته، والأرملة التي فقدت الزوج في سِني الضعف والمرض، والشيخ الأبتر الذي بغير ولد، واليتيم الذي مات عنه أبواه في طفولته. ولَّما كان الملك «جو» [أي الملك أون، حاكم دولة جو] حريصًا على تطبيق سياسة تقوم على الرحمة والإنسانية، فقد أولى عنايةً فائقة بأولئك الأربعة المذكورين سلفًا [وبهذه المناسبة فـ...] قد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما معناه:

«يهنأ ذو المال في رغد من العيش،
فليس من جدير بالإشفاق
سوى شيخ، ويتيم، وامرأة،
وكهل بغير ذرية ...»»

وهنا قال له الملك شيوان: «فنِعم القول ما قلت إذن»، فردَّ عليه منشيوس قائلًا: «فلئن كان كلامي قد أعجبك حقًّا، فلماذا لا تُبادر إلى العمل به؟» فأجابه الملك بقوله: «لكني ابتُليت بحب المال»، فقال له منشيوس: «قد كان النبيل الأمجد ليو (أحد مؤسسي عرش دولة جو) من قبلك نهمًا إلى الثروة والمال، (فلا عليك)، ومما يُذكر في هذا الشأن من قصائد «كتاب الشِّعر القديم» أبيات مطلعها:

«في عهده [النبيل ليو] امتلأت الحواصل بالحبوب،
وعمرت المخازن بالغلال،
وأحيطت الأسوار بالحرس والأقفال،
فلما فاضت لديه المؤن

عبأ الذخائر،
وكدس أكداسًا من الأجولة،
وسار على رأس الفيالق غازيًا،
وقد شبعت البطون، وارتفعت الهامات عزيزة،
والرايات خفَّاقة.
خلَّف وراءه أرض بلاده،
وسار على كتائب
رامحة كثيفة الدروع،
مشرعة السيوف، واترة الأقواس،
تمضي وتضم إلى الأرض
ممالك وبلادًا جديدة.»

ومن ثم ترى جلالتك أنَّه ما كان يستطيع أن يتقدَّم في حملته بكل تلك الثقة لولا ما خلفه وراءه في بلاده من مخازن متخمة بالزاد الوفير، بالإضافة إلى ما كان يحمل فوق ظهور الخيل من أكداس الطعام وعدة الحرب. فما أجدرك بعرش الملك العظيم؛ إذ لا يحول حبك للمال دون انتهاج سياسة العدل والرحمة بين الناس.» ثم قال له الملك ثانيةً: «فما العمل وقد استولى على قلبي حب النساء من المحظيات والجواري في القصور؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «قد كان الملك «طاي» [أحد ملوك أسرة جو الإمبراطورية، وهو جد الملك أون] أيضًا مولعًا بحب النساء؛ إذ وقع في حبائل محظياته … (فما الغريب في ذلك …)، وقد قيل في «كتاب الشِّعر» ما نصه:

«قام الملك طاي مي أول الفجر،
وانطلق بجياده،
فسار مع شاطئ النهر الغربي،
حتى بلغ سفح جبل تشي،
وكانت إلى جواره محظيته
الحسناء «جيايغ»،
فابتنى هنالك قصرًا حسب مشورتها.»

لكن الجدير بالذكر هنا يا مولاي، هو ما يذكره الناس لهذا الملك من مآثر؛ حيث قيل: «إنَّه لم يوجد في زمانه فتاة عانس ولا رجل عازب؛ حيث لم تشهد فترة حكمه حالة

عنوسة أو عزوبية واحدة؛ ذلك أنَّ الجميع — ذكورًا وإناثًا — قد ارتبطوا برباط الزوجية، ولا أرى تناقضًا بين أن تميل بكل قلبك إلى النساء وأن تتوفر فيك مقومات الحكم الملكي الرشيد ما دمت تتقاسم مع شعبك هناءة العيش ومتعة الحياة».»

(٢–٦) تكلَّم منشيوس مع جلالة الملك شيوان، قائلًا: «لو علمت أنَّ أحد وزرائك قد أَوكل إلى أوفى أصدقائه مهمة رعاية بيته وأولاده ريثما يسافر في بعثة رسمية عاجلة إلى دولة تشو، ثم إذا به يجد أهل بيته، بعد عودته، قد أصابهم الجوع وعضَّهم البرد، فماذا ينبغي للرجل أن يتصرَّف حيال صديقه؟» فأجاب الملك: «عليه أن يقطع ما بينه وبين صاحبه»، فسأله منشيوس ثانيةً: «فكيف تفعل مع القاضي الأكبر لو علمت أنَّه تهاون مع مساعديه وقصَّر في أداء عمله «برغم حساسية منصبه»؟» فأجابه: «أعزله من منصبه على الفور»، فسأله منشيوس: «فماذا لو تردت القصور الحاكمة وفسد الملوك وتراجعت سياسة الممالك؟» وهنالك بدا الارتباك على جلالته وأخذ يلتفت إلى جانبه، ثم أدار دفة الحديث في اتجاه آخر.

(٢–٧) التقى منشيوس بالملك شيوان حاكم تشي، وقال لجلالته: «لا يحق لأيَّة دولة أن توصَف بأنَّها إمبراطورية عريقة لمجرد أنَّها تملك مساحة أرض شاسعة، تغمرها الغابات وتظلها الأشجار؛ بل لأنَّ رجال الدولة فيها من ذوي المآثر الجليلة كابرًا عن كابر، فما لي أراك في عزلة عن وزرائك، ثم إنَّك، يا سيدي، قد أقصيت الكثير من رجال الدولة الذين كنت رشحتهم بنفسك لمناصبهم، فتفرقوا عنك ولم تعد تدري من أحوالهم شيئًا»، فسأله الملك: «وما وسيلتي لمعرفة غير الأكفاء كي أستبعدهم من الترشيح؟» فأجابه منشيوس:

«[وكأنِّي بك تقول إنَّ وسيلتك الجاهزة تقوم أساسًا على اختيار غير المؤهلين!] إذا كان الملك (وهو سيد الممالك) يقف موقفًا يجد نفسه فيه مدفوعًا بحكم الاضطرار إلى ترشيح الأكفاء من ذوي الموهبة والذكاء والخُلق الكريم، فهذا أمر عجيب سينجم عنه في آخر المطاف أن يعلو شأن الوضيع فوق الرجل ذي الشرف الرفيع، ويتفوق فيه النائي البعيد على القريب السديد؛ فهو أمر يتطلب منك غاية الدقة والحذر! (ومن ثم ف…) لا يكفي أبدًا أن يقول لك ثقاتك الذين عن يمينك وعن شمالك: إنَّ فلانًا هو أكثر الناس حكمةً وعلمًا واقتدارًا. ولا يكفي أن يقول لك كبار المسئولين «الوجهاء» عن أحد من الناس: إنَّه الأقدر الأكفأ. فإذا اتفقت آراء الناس جميعًا بشأن ما يملكه شخص ما من جدارة وعلم وخلق، فابحث الأمر واعمل على استجلاء الحق في ذلك، وعندما تتأكَّد من صدق ما جرت

به تقديرات الناس، تستطيع أن تُسنِد إلى مثل ذلك الرجل أرفع المناصب؛ أمَّا إذا حدَّثك خلصاؤك الذين من حولك بأنَّ فلانًا من أسوأ الناس، فلا تركن إليهم، وإذا أكَّد لك كبار الوجهاء أنَّ ذلك الشخص المشار إليه هو أقبح الناس، فلا تُصغِ إليهم؛ أمَّا إذا اجتمعت كلمة الناس كلهم بأنَّ الشخص المقصود هو بالفعل الأقل جدارة، والأحط شأنًا، والأدنى قيمة، فليكن ذلك موجبًا لتقصي حقيقة أحواله، فإذا ثبت لديك صحة التقديرات، فاعزله من وظيفته. وقد يجيئك خاصتك من الملتفين حولك عن يمين وشمال يطلبون إليك توقيع حكم الإعدام في واحد من الناس، فلا تلتفت إلى ما يطلبون، حتى لو أقرَّهم على رأيهم كبار المسئولين والوجهاء لديك؛ بل حتى إذا توجَّهت إليك الأمة برجالها ونسائها تطلب إليك الأمر ذاته، إلَّا أنَّ تفحص الأمر مليًّا، وترى الرأي الحق بإعدامه، فيمضي فيه الحكم بذلك ساعتئذٍ؛ حيث يشيع القول بأنَّ الناس جميعًا هم الذين أنفذوا حد القتل بملء إرادتهم.

وأحسب أنَّك لو تصرفت على هذا النحو لصرت جديرًا حقًّا بأن تكون، للأمة كلها، الأبَ الحاني، والأم الرءوم.»

(٢–٨) تحدَّث الملك شيوان حاكم تشي إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «هل نصدِّق الرواية التي تقول بأنَّ الملك «طانغ» قام بنفي الملك المستبد «جيه» [آخر حكَّام أُسرة شيا] خارج البلاد، وأنَّ الملك «أو» قام بالقضاء التام على الملك «جهو» [أشهر الطغاة القدماء، آخر حاكم في أسرة شانغ]؟» فأجابه منشيوس: «هذا ما ذكرته سجلات التاريخ»، فسأله الملك: «وهل يصح أن يقوم أحد الوزراء بالقضاء على الملك؟» فأجابه:

«مَن يهدم معنى الإنسانية، يُسمى بالمخرِّب، ومَن يُضيِّع مبادئ الاستقامة، يُسمى باللفظ القاسي القلب، فأمَّا المخرب غليظ القلب الذي يهدم الإنسانية ويضيع الاستقامة، فلا يُمكن أن يوصف إلَّا بالطاغية. [وقد بلغنا] أنَّ أحد أولئك الطغاة — مثل الملك «جهو» — قد صدر ضده حكم بالإعدام، لكنَّا لم نسمع قط عن قيام الوزراء بقطع رقاب الملوك.»

(٢–٩) التقى منشيوس بالملك شيوان [حاكم دولة تشي]، فخاطبه قائلًا: «إنَّ بناء قصر كبير يستلزم تكليف المشرف على العمال بنقل وإعداد قطع هائلة من الأخشاب، فإذا ما قام الموظفون العاملون عندك بما أمرتهم به أعجبت بهم ووثقت بكفاءتهم ودربتهم، فإذا جاء النجارون وعجزوا عن تقطيع الأخشاب على النحو الصحيح غضبت وأسأت الظن بمهارتهم. [وكذلك] فالإنسان يدرس المهارات ويتعلَّم الأشياء في صغره، وعندما يكبر فهو يحاول جاهدًا في التدرب على ألوان من التطبيقات لاكتساب المقدرة على ما تعلَّمه وهو صغير، فإذا مَثلَ أمام جلالتك طلبت إليه أن ينسى كل ما تعلَّمه وأن يتبع أوامرك،

حرفًا بحرف، فهل يُمكنه ذلك حقًّا؟ [هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى] هب، الآن، أنَّ لديك قطعة من اليشب [حجر كريم] لم تُصقل بعدُ، فهي لن تصير جوهرة — ولو بلغت قيمتها أثقالًا من المال — إلَّا إذا قام على صقلها خبير عليم بمهارات حرفته، فإذا أدرنا الحديث إلى شئون البلاد وحكم الممالك، فها أنت يا سيدي تستدعي وزراءك وتخاطبهم بقولك: «اطرحوا جانبًا كل ما تعلمتموه، واعملوا حسب أوامري!» فهلَّا تأمَّلت لو قلت لخبير المجوهرات أن يطرح جانبًا كل ما تدرَّب عليه وأجاده ليعمل حسب ما تأمره به في صقل الماسات؟!»

(٢–١٠) قامت دولة تشي بغزو دولة يان وانتصرت عليها [وذلك في عام ٣١٥ق.م، حيث أراد الملك كواي، حاكم يان، التنازل عن العرش لرئيس وزرائه، فثار رجال الدولة والأمير ودبَّروا لخلع الملك ... ووسط الاضطرابات انتهزت تشي الفرصة فجاءت وهاجمت وانتصرت]، وراح الملك شيوان يُخاطب مَن حوله بقوله: «كان البعض منكم يختلف معي حول مسألة غزو دولة يان، والبعض الآخر يؤيد ويتحمَّس؛ بل يحثني على الإسراع بالهجوم. إنَّ قيام دولة تمتلك عتادًا حربيًّا قويًّا [حرفيًّا: عشرة آلاف عربة حربية] بمهاجمة دولة أخرى تُساويها في القوة فتتغلَّب عليها فيما لا يزيد على خمسين يومًا (فهذا في حد ذاته) أمر يتجاوز طاقة البشر؛ ثم إنِّي — وقد نجحت في ذلك — أرى أن أتقدَّم للاستيلاء على البلاد، وإلَّا نزلت على رأسي الكوارث والمصائب من السماء، فأشيروا عليَّ بما ترون.»

فأجابه منشيوس: «إذا كان دخولك البلاد جالبًا على أهلها الخير والسعادة، فامضِ ولا تنكص، وقد كان في سيرة الأقدمين، كالملك أُو — حاكم دولة جو — مَن فعل ذلك قبلك؛ أمَّا إذا كان اقتحامك أرضهم سببًا في الخراب والبؤس، فارجع عمَّا انتويت، وإنَّا لنجد في تاريخ القدماء من آثر التراجع عن الهجوم في مثل تلك الحال، كالملك أون، وإنَّ دولة تملك قوة هائلة تُهاجم أخرى مناظرة لها في مثل قوتها لن تجد مبررًا لدخول أرض عدوتها أقوى وأوقع من أن ترى الناس قد أسرعوا لاستقبال جنود الفاتحين وبأيديهم صحائف الطعام وأقداح الشراب في ترحيب ولهفة، لا لشيء إلَّا رغبة في الخلاص من «ضيق الأحوال وعسر الأيام» [حرفيًّا: ماء غائر ولهب فائر]، فإذا اقترن ذهابك إليهم بمزيد من العسر والضيق، فسيتحوَّل الناس بحثًا عن طريق آخر للخلاص [في هامش التحقيق يُشار إلى أنَّ بعض التأويلات تذهب إلى أنَّ المعنى الحقيقي للعبارة هو «إذا اشتد العُسر بالناس فإنَّما قد تحوَّلوا من حاكم إلى حاكم نظير»، أي يصير الحكام عندهم نماذج متكررة لصورة واحدة من الطغيان!].»

(٢–١١) قامت دولة تشي بمهاجمة يان واستولت عليها، وهنالك راحت بعض الدويلات والإمارات المجاورة تتخذ التدابير لمساندة يان؛ أملًا في الخلاص من الاحتلال، فجمع الملك شيوان إليه رجاله، وقال لهم: «ها هي ذي الإمارات والدويلات تسعى لمحاربتي، فبماذا تُشيرون عليَّ للوقوف في وجه تلك المحاولات؟» فأجابه منشيوس: «قد بلغني يا سيدي أنَّ بلدًا تبلغ مساحته سبعين لي تملك سلطة إملاء قراراتها على الآخرين، وهذا ما فعله — مثلًا — الملك طانغ، إبان حكمه، (وفي ظروف هيأت له ذلك)؛ لكنِّي لم أسمع قط أنَّ دولة تمتد أرضها فوق ألف لي مربع ترتعد قط خائفة من جاراتها، وقد ورد في كتاب «شانغ شو» [كتاب التاريخ] ما نصه: «لَمَّا بدأ الملك طانغ طريق زحفه، فقد بدأ بالإغارة على دولة «كي» لتكون عِبرة لباقي الممالك، ثم إنَّ الناس في مشارق الأرض ومغاربها منحوه ثقتهم واعتقدوا في صلاح حكمه، حتى إنَّه لَمَّا كان يتجه بقواته ناحية الشرق، فقد كان أهل الجهات الغربية يندبون حظَّهم ويتمنون لو كانت بلادهم تحت سلطانه، وكذلك إذا تحوَّل بجيوشه صوب الجنوب، فقد كان الشماليون يتساءلون: أي قدَرٍ تعس حال بين بلادهم وبين أن تكون أول ما ينبسط تحت ملكه العادل، فالكل كان يتطلع إليه كأنَّه ديمة تصب الغيث فوق أرض شقها الجدب، فازدهر البيع والشراء وكسب التجار معاشهم، وظلَّت الأراضي تُعطي غلتها كالمعتاد بعد أن قضى الحاكم الجديد على الطغاة الذين كانوا يسُومُونهم سوء العذاب، فوقعت محبته في القلوب مثلما يقع المطر على أرض موات فيُحييها، فعمَّت الفرحة أرجاء الممالك والبلدان.» وذكر «كتاب التاريخ» أيضًا ما نصه: «(وقد هتف أهل الممالك جميعًا في وقت واحد أن …) كم تطلعنا إلى سيدنا، سيد البلاد، فما جاء حتى نهض ناهض العز والمجد بعد طول هوان» … ولا يخفى على أحد، الآن، ما يصنعه حاكم دولة يان بشعبه من عسف وجَور، فامضِ إليه وجرد عليه سيفك، فتتطلع إليك عيون الناس هناك بوصفك مخلِّصهم وحاميهم الذي سيخرجهم من الشدة إلى رخاء العيش وبهجة الحياة، فيخفون لاستقبال جيشك بأطباق الطعام وكئوس الشراب؛ فإذا قابلت ذلك بضرب رقاب آبائهم وحبس أبنائهم وهدم مقدساتهم ومعابدهم ونهب ثروات بلادهم، أيكون ذلك صوابًا؟ لا تنسَ يا مولاي أنَّ كل البلاد تخشى سطوة تشي، فإذا بادرت إلى توسيع مساحتها وضم الأراضي إليها دون أن تمد سلطانها بقواعد تقوم على الحكم الرشيد والسياسات الإنسانية فستثور ضدك كل الممالك، وتزحف إليك كل الجيوش المدفوعة بالثأر والغضب والاستنكار. وأرى — يا سيدي — أن تُسارع بإصدار أمر ملكي يقضي بإعادة الأسرى من العجائز والأطفال إلى ذويهم، وإيقاف كل أنشطة

نقل ثروات ومقتنيات الغير إلى البلاد، على أن تبدأ فورًا في مباحثات مع دولة يان بهدف تنصيب حاكم جديد للبلاد، والبدء في سحب قواتك من هناك؛ فتلك هي وسيلتك لوضع حد ممكن (لأيَّة عواقب قد تنشأ بسبب الأزمات).»

(٢–١٢) وقعت الحرب بين دولتَي «تزو» و«لو» [تُنطق كما في «يتساءلون»]، و(في غمرة الأحداث ...) ذهب الوالي «مو» — أحد الوجهاء، ذوي الألقاب والوظائف المرموقة بدولة تزو — إلى منشيوس وسأله قائلًا: «إنَّ ثلاثة وثلاثين رجلًا من أفضل الضباط في قواتي لقوا حتفهم أثناء الاشتباكات، ولم يُحاول أحد من المواطنين أن يُظهر روح البذل والفداء لإنقاذ الضباط الشجعان، (وقد بدا لي أن أعمل السيف في رقابهم جزاء تخاذلهم، ولكن ...) إن قضيت على المتخاذلين بالقتل فهذا مستحيل؛ لأنَّهم الكثرة بحيث لا يحصيهم العد، وإن نحيت عنهم السيف، فسأظل أبغضهم لقعودهم عن نصرة وإنقاذ المقاتلين البواسل، فقل لي، كيف أسلك معهم؟ فأجابه منشيوس قائلًا: «في سنوات المحنة والشدة، تسقط أجساد الأطفال والشيوخ من شعبك على حواف الوديان وقد أنهكها الجوع والحرمان، ويرحل الفتية والقادرون إلى الآفاق المترامية بحثًا عن الرزق، وهؤلاء المنكوبون يزدادون كثرة على مر الأيام، في حين تمتلئ حواصلك بالحبوب وتعمر خزائنك بالمال، ويحول رجالك بينك وبين الإلمام بالوقائع (حرفيًّا: يتقاعسون عن إبلاغك بالأحوال)، فذلك هو ما يُشار إليه — عادة — من تجاهل المسئولين الكبار لشقاء الناس والتحامل عليهم بمزيد من الضغوط وصنوف المحن والآلام، ومما يؤثر عن «الحكيم» سنغ تسي قوله: «فليسمع الجميع عني وليصغوا جيدًا ... مثلما تصنع مع الناس يصنعون معك؛ وكيفما تعامل الناس يُعاملوك بمثله»، وقد عرف الناس كيف يثأرون لأنفسهم إذ تقاعسوا عن إنقاذ جلَّاديهم، وليس لك أن تؤاخذهم بشيء؛ بل إذا استطعت أن تسلك معهم بسياسة قائمة على الرحمة والإنسانية، فستجد منهم كل التفاني لك ولكبار المسئولين، وستهون أرواحهم فداءً لقادتهم».»

(٢–١٣) جاء الوالي «أون» — أحد الولاء بدولة «تنغ» — إلى منسيوش وسأله قائلًا: «إنَّ دولة «تنغ» ضئيلة المساحة، متواضعة القوة، وقد حكمت عليها الأقدار بأن يأتي موقعها محصورًا بين دولتي «تشي» و«تشو» [القويتين الجبارتين!]، فهل «يكون من الأفضل لها أن» تخطب ودَّ دولة تشي، أم تتقرَّب إلى دولة تشو؟» أجابه منشيوس: «ليس في مقدوري الحكم القاطع على الفكرة في مجملها، لكن إذا كنت تطالبني بإبداء وجهة نظرٍ وتقدير موقفٍ، فلست أرى لك إلَّا رأيًا واحدًا، وهو أن تحفر خندقًا كبيرًا حول بلدك

وتغمره بالماء، وتبني أسوارًا حصينة تُحيط بكل ركن من أرضك، وتتحصن أنت وشعبك، مددًا ومنعة وراء الأسوار، على استعداد للتضحية والفداء، مهما كلفكم ذلك من مشقة، ولعلكم، بعد ذلك، بالغون شيئًا من الأمل في الصمود والنصر.»

(٢–١٤) جاء الوالي «أون» إلى منشيوس وسأله: «ماذا أفعل إزاء ما تقوم به دولة تشي من استعدادات وتحصينات بمنطقة «شيودي»، وما تثيره من أجواء مشحونة بالقلق، وتبعث مخاوفي مما تدبره لبلادي؟» فأجابه منشيوس: «يذكر التاريخ القديم أنَّ الملك «تاي» كان يُقيم بمنطقة «بين»، فلمَّا أغارت قبائل الشماليين على بلاده، اضطر إلى نقل مقر إقامته بعيدًا، حتى إنَّه لم يجد إلَّا أن يستقر عند سفح جبل تشي، ولم يكن ذلك المكان الذي أراده بملء إرادته؛ بل إنَّه اضطر إليه اضطرارًا، فإذا أقررتم في بلادكم سياسة تقوم على التراحم والإنسانية والمبادئ القويمة، فسوف يتسلَّح أولادكم وأحفادكم بالقدرة على تدبير شئون الممالك [سياسة أمور البلدان]، والسيد المهذب [الحاكم العاقل] مَن يورث أبناءه مآثر جليلة تتداولها أيدي الأجيال، أمَّا أن تكون تلك المآثر موضع تبجيل وتقدير حقيقيَّيْن، فذلك أمر بيد السماء وحدها، فإرادة السماء غالبة، وبخصوص سؤالك عمَّا ينبغي عمله إزاء دولة تشي، فلست أرى لك إلَّا الدأب والجد والمثابرة على تطبيق سياسات قائمة على مبادئ الرحمة والإنسانية.»

(٢–١٥) تساءل الوالي أون [من دولة تنغ] قائلًا: «ماذا أفعل، وبلادي الضعيفة محل أطماع جيرانها الأقوياء، وقد بذلت كل جهدي واستفرغت ما في وسعي لمخاطبة ود جيراني، زُلفى وتقربًا إليهم، فما استطعت أن أزيل المخاوف أو أقضي على أسباب الخطر؟» وأجابه منشيوس قائلًا: كان الملك «طاي» [من حكام أسرة جو] فيما سلف من الدهور، مقيمًا بأرض «بين» التي لم تسلم من غارات القبائل الشمالية عليها، فحاول الملك جاهدًا التقرب إلى رءوس وقادة تلك القبائل بأحمال وافرة وهدايا لا تُحصى ولا تُعد من الحرير والفراء والجلود الثمينة، ولم يغنه ذلك شيئًا؛ فأرسل إليهم بأمهر الجياد وأوفر الدواب، فلم يردهم عن خبيث نواياهم؛ فحمل إليهم الأحمال الزائدة من اليشب والياقوت واللآلئ، وبقي — رغم كل ذلك — لا يأمن غدرهم، فجمع إليه كبار قومه وحدَّثهم بقوله: «لا أرى إلَّا أنَّ البرابرة الشماليين طامعون بأرضنا، وقد علمت أنَّ الحكيم الفاضل [المستحق للملك والسيادة في قومه] لا ينبغي له أن يجعل من الأرض، التي هي منبت الزرع ومشتل البذور ومعاش الناس، سببًا في هلاك قومه، ولا أجد ما يدعوكم إلى اليأس إذا تنحَّيت عن منصب الحاكم، ثم إنِّي قد عزمت على الرحيل عن هذه الأرض التي تقطنون بها. وقام راحلًا

عن أرض «بين» فعبر جبال «ليانغ» حتى بلغ تلال «تشي» فأقام في سفحها وأسس هناك مدينة جعلها مقرًّا لإقامته، فرأى ذلك أهل بين؛ فأثنوا جميعًا عليه بقولهم: «ما أكرمه من ملك، جمع بين الخُلق الكريم والفضائل الإنسانية»، وعزَّ عليهم فراقه، فلحقوا به، وأتوا إليه حشودًا دافقة، يجر بعضها بعضًا من كثرة التدافع والزحام.

وقد بلغني أنَّ منهم أيضًا مَن قال: «لا تفريط في الأرض التي خلفها لنا الأجداد كابرًا عن كابر، ولا ينبغي لكائن مَن كان، بمفرد رأيه، أن يسلك فيما يؤدي إلى ضياعها، بل إنَّ الموت فداءً لها أهون علينا من الرحيل عنها شبرًا واحدًا.»

فهكذا رأى القوم، يا سيدي، رأيين مختلفين، فاختر لنفسك منها ما تريد.»

(٢–١٦) كان النبيل «بينغ» (أحد نبلاء دولة لو) خارجًا من قصره، فاستوقفه تابعه الأمين، «صانغ صان» — وكان أثيرًا لدية — وتقدَّم منه قائلًا: «قد جرت العادة أن تُحدد لقائد مركبتك، والوفد المرافق لسيادتكم، خط سيركم والجهة المزمع زيارتها، فها هي المركبة والحوذي ورجالك جاهزون جميعًا، فأبلغنا — لو تفضَّلت — أين تريد الذهاب، واغفر لي ثرثرتي (وتدخلي الزائد في التفاصيل!).» فأجابه النبيل «بينغ»: «أريد الذهاب لمقابلة منشيوس الحكيم.»

فسأله «صانغ صان» ثانيةً: «هلَّا ذكرت أسباب الزيارة من فضلك؛ إنَّك إذ تُبادر إلى زيارة رجل من العامة، فأنت — يا سيدي — تُقلل من مركزك الاجتماعي ومكانتك السامية، أوتظن أنَّه ذو خلق وفضائل وعلم غزير؟ إنَّ أهل الخلق والفضائل هم حقًّا الذين يعملون ويحافظون على الأعراف وأصول المعاملات. أمَّا المدعو منشيوس (فلا دراية له بتلك الأصول، إذ …) ارتكب خطأً جسيمًا (يتعلق بأقدس الأصول جميعًا، وهي أصول مراسم دفن الآباء والأجداد) في مراسم دفن والديه، فكانت مراسم دفن أمه تتجاوز في تكاليفها ما قام به عند تقديم قرابين الدفن في وفاة أبيه [وهكذا فإنَّ امرأً مثله ليس أهلًا للتعارف …] فلا يليق بجنابك الأفخم أن تسعى إلى مقابلته.»

فوافقه النبيل قائلًا: «فلن أذهب إليه، إذن.» وذهب يوجين (أحد كبار الموظفين) إلى مقابلة النبيل «بينغ» في قصره، فلمَّا التقى به ابتدره متسائلًا:

«لماذا لم تذهب لمقابلة منشيوس؟» فأجابه النبيل قائلًا: «قد ذكر لي أحدهم أنَّ منشيوس هذا قد تجاوز في تكاليف إقامة مراسم دفن والدته ما قام به في مراسم دفن أبيه؛ فمن ثم عدلت عن زيارته.»

فجادله «يوجين» بقوله: «ما الذي تقصده يا سيدي بقولك إنَّه «تجاوز» في تكاليف إقامة المراسم، أتقصد بذلك أنَّه لمَّا كان وقت وفاة أبيه في مرتبة اجتماعية أقل [... مرتبة يحصل عليها الدارس «شي»، معناها «الوجيه الأمثل»] فقد كانت الطقوس تجري وفق تلك الدرجة الأدنى، فلمَّا ارتقى درجة أعلى إبان وفاة والدته (وهي درجة «دايفو» = موظف عظيم) فمن ثم استطاع تقديم قرابين جنائزية أرقى قيمةً؟ بمعنى أنَّه في المرة الأولى قدَّم القربان الجنائزي على المرجل المقدس الثلاثي (ذي الأرجل الثلاثة)، وفي المرة الثانية قدَّم قرابينه على المرجل الخماسي؟» ... فأجابه النبيل بينغ قائلًا: «لم أقصد شيئًا من ذلك، بل أردت القول إنَّ التوابيت والأكفان الجنائزية التي صنعها لوالديه كانت على درجة متفاوتة من الإتقان والجودة»، فقال له محدثه: «إذن، فلا يُمكن أن نُسمي ذلك «تجاوزًا» في التكاليف الجنائزية، وإنَّما الصحيح أن يُقال إنَّ الفارق الملحوظ بين طقوس الجنازتين كان سببه «ضيق ذات اليد» في المرة الأولى عنها في الثانية؛ فقد كان الرجل فقيرًا أول الأمر، ثم تيسَّرت حاله فيما بعد.»

فلمَّا التقى يوجين مع منشيوس قال له: «كنت أتجاذب أطراف الحديث مع النبيل بينغ بشأنك، وكان قد أعدَّ العدة لزيارتك، إلَّا أنَّ أحد رجاله، ويُدعى «صانغ صان» حال بينه وبين تلك الزيارة، فعدل عمَّا كان قد اعتزمه»، فقال منشيوس:

«قد يتم إنجاز عمل ما بفضل اجتهاد الناس ودأبهم، وربما تعطَّل أيضًا، لأنَّ الناس أنفسهم وقفوا حَجَر عثرة في سبيل تنفيذه، إلَّا أنَّ إنجاز الأعمال من عدمها، عمومًا، لا تقررها الإرادة الإنسانية وحدها؛ ذلك أنَّ عدم لقائي بالنبيل الأمثل بينغ، كان أمرًا قرَّرته إرادة السماء، أمَّا ذلك المدعو صانغ، فلم يكن يملك أن يمنع شيئًا بإرادته.»

الباب الثاني

كونسون شو

الجزء الأول

وجملته تسعه فصول

جاء كونسون شو (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه الفيلسوف، وسأله:

(٣–١) «ماذا لو كنت يا سيدي تُدير دفَّة الحكم في دولة تشي، أكنت تُحيي مآثر كل من السيدَيْن الجليليْن: «كوان جون» و«يان تسي» [الأول كان يتولى منصب الوزير الأعظم في دولة تشي؛ والثاني تولى أحد المناصب الوزارية في الدولة نفسها خلفًا لأبيه المتوفى] وتحذو حذوهما؟» فأجابه الفيلسوف منشيوس قائلًا: «وإنَّك لجدير بأن تكون من مواطني دولة تشي؛ إذ لا يخطر ببالك سوى ما خلَّف هذان السيدان الجليلان من مآثر، وقد قيل إنَّ رجلًا سأل مرةً «سنغ شي» قائلًا له: «أيكما أكثر كفاءةً وحكمةً، أنت أم الحكيم الفاضل «زيلو» (تلميذ كونفوشيوس)؟» فأجابه سنغ شي، وقد استولى عليه القلق: «قد كان زيلو نموذجًا في الحكمة والخلق سار على نهجه آبائي وأجدادي!» فعاد الرجل يسأله: «فماذا عن كوان جون، أأنت أم هو الأكثر حكمةً وخلقًا؟» وهنالك اربدَّ وجه سنغ شي غضبًا، وأجابه: «لماذا تريد أن تضعني في مقارنة مع كوان جون؟ أما علمت أنَّه ما تولَّى المنصب ولا كان له النفوذ الذي تمتَّع به إلَّا بفضل ما أولاه له سيده وأميره هوان كونغ من ثقة، وما كان له قدم راسخة في شئون الحكم إلَّا بما أُتيح له من أن يشغل مواقع سياسية عُليا لفترة زمنية طويلة؛ وبرغم ذلك، فلم يكن له رصيد يُذكر من الإنجاز والمآثر الباقية، فكيف تقارن بيني وبينه، وماذا تقصد من ذلك؟» [ثم واصل منشيوس كلامه قائلًا:] فإذا كان سنغ شي يأبى أن يوضع في مقارنة مع كوان جون، فهل تراني — بعد ذلك — أغبط هذا الأخير على شيء، أو أراه محل تقدير واقتداء؟» فقال كونسون شو: «لكن التاريخ

يذكر لكوان جون أنَّه أعان سيده على اعتلاء عرش إمبراطورية بسطت ظلها فوق الممالك؛ مثلما يذكر التاريخ أيضًا أنَّ يان تسي لم يتوانَ عن أن يبذل روحه كي يبني لسيده قواعد المجد ودعائم القوة، أفلا يدعوك ذلك كله إلى تقدير دور هذين السيدَيْن، وجدارتهما بالعرفان والثناء؟» فردَّ عليه منشيوس بقوله: «إنَّ الصعود بمكانة دولة تشي إلى مصاف الإمبراطوريات العظمى أمر في غاية السهولة، [حرفيًّا: أمر يبلغه المرء بيسر، مثلما يُقلِّب كفيه ذات اليمين وذات الشمال!]» فقال كونسون: «إنَّ كلامك هذا يا سيدي يُثير حيرة دارس متواضع الحظ من العلم مثلي؛ ذلك أنَّه، وحسب منطقك، فإنَّ جلالة الملك أون — من دولة جو — بكل ما عُرف عنه من سيرة حسنة وخُلق كريم وعلم غزير على مدى سنوات عمره، التي شارفت المائة، لم يقدر أن يبسط آراءه، ويمد رقعة التنوير بعلمه فوق مساحة هائلة من الدويلات الخاضعة لسلطانه؛ بل إنَّ الأمر تطلَّب جهودًا أخرى فوق جهوده قام بها خلفاؤه؛ مثل الملك «أو»، والنبيل «جو» اللذَيْن واصلا رسالته، فأتمَّا — ببالغ الجهد — ما بدأه، فنشرا أفكاره ومبادئه في كل الأنحاء، ثم ها أنت تقول بأنَّ سياسة شئون الممالك أمر في غاية اليسر، أفلا يعني، كلامك هذا أنَّ المَلك أون نفسه، بكل ما عُرف له من مكانة، لم يخلف لنا نهجًا جديرًا بالدرس والاقتداء؟»

فأجابه منشيوس قائلًا: «تلك مسألة لا تستدعي أيَّة مقارنة بالملك أون من قريب أو بعيد؛ وعندما نُطالع الأحوال منذ تولي الملك طانغ سُدة الحكم حتى ولاية الملك «أودينغ» [في ظل أسرة شانغ الملكية] نُلاحظ أنَّه كان هناك ستة أو سبعة ملوك ذوو حلم وعلم وحكمة، أسهموا في ترسيخ سلطة أسرة «يين شانغ» الحاكمة فوق الممالك، فلمَّا طال أمد الحكم تضاءلت أسباب التغيير، في حين استطاع الملك «أودينغ» أن يفرض سلطانه ويُخْضِع أمراء الدويلات تحت نفوذه حتى مَثلوا بين يديه صاغرين، وانقادت له الممالك، فقام على سياستها بأيسر من تقليب كفيه ظاهرًا وباطنًا، (وتعالَ نتناول — على سبيل المثال — سيرة حاكم آخر على سبيل تبيان الفروق الدالة بين الحكَّام بعضهم بعضًا)، وهناك حاكم مشهور في التاريخ مثل الطاغية الجبار جو [آخر ملوك أسرة شانغ]، الذي كان يتولى العرش في فترة زمنية لا تبعد كثيرًا عن الفترة التي حكم فيها الملك الفاضل الحكيم أودينغ، وكانت أسرة شانغ الحاكمة تعيش — آنذاك — زمان مجْدِها وأوان ازدهار مآثرها، وتألُّق أنوار الأصالة القائم على أسس من التقاليد العريقة، والشموخ الذي كان يُميز روح عاداتها وأساليب الحياة الراقية تحت ظلال عزها، وكانت عروش ملوكها — كالعادة — مثالًا باقيًا للرحمة والإنسانية والحكم الرشيد؛ ثم كان هناك، إلى جوار الملك «جو» المشار

إليه آنفًا، خمسةٌ من أشْهَر ذوي الحلم في عهده، وهم: النبيل «وي»، وابنه «ويجون»، وصاحب الرفعة الأمير بيكان، نجل الملك نفسه، والنبيل «جينتس»، و«جياوكي»، فكانوا يؤازرونه ويبذلون له الرأي والمشورة، فاشتدَّت أركان مجده ودام له الملك زمنًا طويلًا، (أمَّا بالنسبة للطاغية جو) فقد كان كل شبر من الأرض في تلك الفترة ملكًا له، وكل فرد من الرعية رهن إشارته، تابعًا مخلصًا لعرشه، وهو ما لم يستطع تحقيقه الملك أون، برغم أنَّه استطاع بالكاد أن يقتطع لنفسه منطقة نفوذ لا تتجاوز مائة لي مربع؛ مما جعل مواطني دولة تشي يتناقلون فيما بينهم حِكمةً سائرةً مفادها: أنَّ «الحيلة لا تغني عن اغتنام الفرصة، ولا فائدة تُرجى من الفأس والمحراث لَمَن لا يقتنص مواقيت الزرع والحصاد.» (وأرى أنَّ هذا الأوان مناسب تمامًا ...) فاقتنص فرصة إقامة إمبراطورية على أُسس من المجد، ولقد سعت من قبل الممالك لتأسيس عروشها (مثل دول: شيا، وشانغ، وجو) فوق أرض لم تكن تزيد مساحتها، في أحسن الأحوال، على ألف لي مربع، في حين كانت أرض دولة تشي تزيد أضعافًا مضاعفةً، يقطنها عدد هائل من السُّكان، تسمع في جنباتها أصوات الطير والداجن. (إنَّ بلدًا كهذا ...) لا ينبغي له أن يسعى لتوسيع نطاق حدوده، ولا لزيادة عدد سكانه (لكي يؤسس مشروع إمبراطورية ...) ذلك أنَّه إذا أقرَّ سياسة تقوم على الإنسانية خضعت الممالك تحت سلطانه، واتَّحدت جميعًا تحت لوائه، وتخاذلت خصومه عن مناوأته، (واعلم أنَّه ...) لم يشهد الزمان عهدًا بعدت به الشقة عن الحكم الرشيد القائم على المبدأ الإنساني، مثل هذا العهد، ولم يسبق أن جرَّب الناس ظلمًا حاق بهم، أورثهم البؤس والسقام، مثلما جربوا في أيامنا هذه، حتى لقد تقلَّصت البطون جوعًا، وييبست الشفاه عطشًا (فما عاد الجائع ينتقي ما يأكل، ولا عاد الظامئ يتأفف من فساد الماء ... وفي هذا الصدد فـ...) قد قال كونفوشيوس: «تنتشر الفضائل بين الناس في زمن الحكم الرشيد بأسرع ما تنتشر وتذيع الأوامر الملكية نفسها.» وفي ظل الأحوال الماثلة، فإنَّ السعادة التي يُمكن أن يتمتَّع بها شعب في ظل حكومة قوية تُطبِّق المبادئ الإنسانية لا تُدانيها إلَّا مشاعر السعادة لدى مَن تحرَّرت أعناقهم من أغلال العذاب والقهر، ومن ثم، فإنَّ اتباع منهج الأقدمين، ولو بنصف طريقهم ومسلكهم الرشيد، حقيقٌ بأن يقود إلى نتائج شديدة التفوق؛ بل قد تتجاوز أضعاف ما أنجزه الأقدمون أنفسهم، وهو أمرٌ سهل المنال حينئذٍ.»

(٣–٢) ذهب كونسون شو إلى منشيوس وسأله: «أترى يا سيدي، لو تولَّيتَ حقًّا وظيفة مرموقة في مجلس الوزراء، أكنت تضع وجهات نظرك ومبادئك السياسية موضع

التنفيذ، دون أن تدهش لما قد يؤدي إليه ذلك من دعم قواعد الحكم الملكي، أو حتى تعاظم الهيمنة الإمبراطورية (فوق الممالك) وطغيان السلطة الحاكمة، أترى لو وقفت حقًّا مثل ذلك الموقف، أمَّا كان يصيبك ارتباك وتتسرب الحيرة إلى قلبك؟» فأجابه منشيوس: «كلَّا، ما كان ليصيبني شيء من ذلك وقد جاوزت الأربعين من عمري»، فسأله كونسون شو: «فأنت، إذن، أقوى إرادة وأصح عزمًا من السيد «منغ بن»»، فأجابه: «ليس الأمر بالشيء الصعب، وقد رأيت السيد الفاضل «كاوتزي» بعينَيْ رأسي، وهو في أتم رباطة جأش وشدة بأس»، فسأله كونسون: «فما الوسيلة لكي يُصبح المرء راسخ الإرادة، موفور الثقة بالنفس؟» فأجابه: «ينبغي — أولًا — أن يتحلى المرء بما أوتي السيد «بيكون يو» من التحلي بالشجاعة؛ بحيث لا يتألَّم إذا ما انغرس في لحمه الشوك والإبر، ولا يرمش بعينه إذا ما وُخزت أجفانه بالمخاريز؛ وكلَّما عرضت له المتاعب والنكسات، تاقت نفسه إلى الخلاص منها، كأنَّه يتخلص من عار أو فضيحة انتقصت من قدره على مرأى من الناس أو مسمع من ذوي النفوذ والسلطان؛ إذ إنَّه يأبى إلَّا أن يتعرَّض لأدنى قدر من إهانة، سواء صدرت عن زَرِيٍّ حقير، أو عن أمير أو بطل صنديد (يقود عشرة آلاف عربة عسكرية)، ثم إنَّه لا يهاب أن يأخذ بناصية أمير مثلما لا يرى بأسًا من أن يحزَّ عنق صعلوك حقير، «لا يخشى امرأً ذا منصب رفيع، ولا يهاب رجلًا تدنَّت منزلته!» لا يتورع عن أن يرد الإهانة بأقبح منها، حتى لو صدرت عن كبير الولاة.

[وهناك وسيلةٌ أخرى، كتلك التي نجد مثالها الواضح عند ...] «منغ شي شا»، ذلك الرجل المشهور بالشجاعة الفائقة، الذي يُؤْثَر عنه قوله: «يستوي عندي الجبَّار الذي لا قاهر له، والضعيف الذي لا خوف منه؛ إنَّ أولئك الذين لا يبادرون إلى قتال أعدائهم إلَّا بعد تقصي الأحوال ودراسة احتمالات النصر أو الهزيمة، يخشون كثرة القوات والحشود التي يتعيَّن عليهم مواجهتها، ولا أدري كيف يُمكن للمرء أن يضمن تحقيق النصر؟ إن كان ما يعنيني هو أن أتقدم بغير خوف.» وهذه الطريقة التي يسير على منوالها «منغ شي شا» تُشبه إلى حد كبير أسلوب سنغ زي [أحد تلاميذ كونفوشيوس]، أمَّا طريقة «بيكون يو» فتُماثل نهج زيشيا [أيضًا من تلاميذ المعلم الأكبر]، ولا أستطيع أن أحدد أي الأسلوبين في الشجاعة هو الأوقع والأجدى، وإن بدا نهج «منغ شي شا» أبسط كثيرًا وأشد وضوحًا وتركيزًا. وكان سنغ زي قد تحدَّث إلى زيشانغ فيما سلف من الزمان، فقال له: «أتحب الشجاعة حقًّا؟ كنت قد سمعت كونفوشيوس يتحدَّث في هذه المسألة»، فقال: «إذا حاسبت نفسي وراجعت ضميري ثم اكتشفت بأنِّي مخطئ، ولو في حق امرئٍ

بسيط المكانة وضيع الشأن، فلن أجد في نفسي الشجاعة على مواجهته، فضلًا عن منازلته؛ أمَّا إذا أظهرت لي مراجعتي لنفسي بأنِّي على حق، فلن أتوانى عن مواجهة جيوش بكل عتادها وعدتها (حرفيًّا: ألف كتيبة وعشرة آلاف فارس).» ... إنَّ موقف منغ شي شا، في هذا الشأن، القائم على مبدأ التشبث بالشجاعة المطلقة، أدنى كثيرًا من نهج سنغ زي في بساطته ووضوحه.»

(فقال له كونسون شو): «أتسمح لي بأن أتجرَّأ وأسألك، يا سيدي، عن الفرق بينك وبين «الفيلسوف» كاوتزي فيما تتحليان به من هدوء وثقة؟» (فأجابه منشيوس قائلًا:) «كنت سمعت كاوتزي، ذات مرة، وهو يقول: «إنَّ ما لا تجد وسيلة إليه بالكلمات، فلا تسعَ إليه في باطنك، فإذا لم تجد إلى معرفة الباطن وسيلة، فلا تبحث عنه في إحساسك (الإرادة والوعي والإدراك).» وهو قول صحيح في معظمه؛ ذلك أنَّ قوله بعدم جدوى البحث في الإحساس عمَّا لم يجد لمعرفته وسيلة بالكلمات يُعد صحيحًا تمامًا؛ أمَّا ما يقوله من الحيد عن البحث في باطن النفس عمَّا لم يجد إليه سبيلًا بالكلمات، فهو خطأ كبير. إنَّ نوازع بواطن النفوس هي التي تقود الإحساس، والإحساس (الوعي) بدوره هو مكمن الطاقة في الجسد كله؛ فالنوازع والتطلعات تأتي في المرتبة الأولى من الأهمية، أمَّا الإحساس فذو أهمية ثانوية؛ لذلك يُقال بأنَّه «ينبغي على المرء أن يكون ذا طموحات وتطلعات، دون التعويل على المشاعر والأحاسيس».»

ثمَّ تحدَّث كونسون شو، قائلًا: «قد التبس الأمر عليَّ، يا سيدي، فأنت تقول في الأولى: إنَّ «التطلعات ذات أهمية فائقة، والإحساس يأتي في درجة تالية لها» ... ثم تقول في الثانية: «ينبغي على المرء أن يكون ذا تطلعات، دون تعويل على المشاعر والأحاسيس!» ... فهلَّا زدتني شرحًا وتفصيلًا؟» (فأجابه:) «إنَّ التركيز الشديد على الطموح يؤثر في الوجدان (يزلزل أركانه)، مثلما أنَّ توجيه الاهتمام كله إلى المشاعر يُقلل من درجة الاستقرار المطلوبة لما يطمح إليه الإنسان، والأمر هنا أشبه ما يكون بما عليه المرء أثناء الجري أو إذا تعثرت قدماه ووقع في الطريق، فالمسألة، عندئذٍ، لا تزيد على محض حركة بدنية؛ إلَّا أنَّها تستدعي انفعالًا وجدانيًّا ما.»

وسأله كونسون شو: «معذرةً يا سيدي إذا تجرأت وطلبت منك أن توضِّح لي ما يجعلك متميزًا (عن كاوتزي) بخصالك هذه؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «قد وعيت معاني الكلمات، وثابرت على الترقي في درجات التسامي النفسي واكتساب الخصال النبيلة ورحابة الصدر.»

فسأله كونسون شو: «هلَّا أوضحت لي معاني تلك الكلمات؟» فقال منشيوس: «هي أشياء يصعب شرحها؛ فهاتيك الخصال هي الأكرم مادةً والأعظم قدرًا، فالاستقامة غذاؤها الذي به تقوى وتشتد، فلا يخشى عليها بأس، بل يذيع أريجها بين السموات والأرض. هي الروح التي تلتقي مع العدل والعقل على طريق.

هي الروح التي لا طاقة للحياة بغيرها، خزائن العدل ذخرها الثمين، طريقها طريق العدل القويم الذي اقتضته النوايا وعُقد عليه العزم، لا طريق العدل الذي جاءت به المقادير، وحلَّت به المصادفات عفو الخاطر؛ هي الروح التي إذا اقتحمت النفس مواطن الزلل عصف بها الوهن وسقطت في إسار الذل؛ لذلك كنت أقول دائمًا بأنَّ كاوتزي لم يفهم معنى العدل على الوجه الصحيح، لأنَّه خرج به من مجال الإرادة الباطنية.

إنَّه لا معدل عن أن ندرِّب أنفسنا عليه (العدل)، ونسلك في طريقه حتى النهاية «بغير توقُّف في منتصف الطريق»، وقد انطبعت النفوس بطابعه، فلا يغشاها النسيان. «علينا أن نجاهد في إنماء ثمرته، لكن …» لا ينبغي أن «نخالف النمط الطبيعي للأشياء، و …» نجذب أوراقه وسيقانه لندفعها دفعًا كي تنمو رغم أنف دورتها الطبيعية في النمو والازدهار، وبمعنًى آخر، فلا يجب أن نتصرف، في هذا الأمر على نحو ما هو معروف عن أحد مواطني دولة سونغ؛ «إذ يُقال إنَّ رجلًا من سونغ» كان في قديم الزمان يزرع أرضًا، فلمَّا تأخر النبات عن النمو خاف أن يفقد محصوله، فراح يجذب الأعواد والأوراق وهو يظن أنَّ سعيه هذا يضمن للزرع سرعة الإنبات، وعاد إلى بيته آخر النهار مرهقًا لاهثًا، يجر قدميه من التعب، قائلًا لأهله: «كم لاقيت في يومي هذا من المشقة؛ إذ شددت من أزر المحصول كي أساعده على النضج قبل الأوان!» فقام أولاده وأسرعوا إلى حقله، فوجدوا الأوراق متساقطة، والسيقان ذابلة.

«فإذا تأمَّلنا كل ما تحت السماء جيدًا لوجدنا» أنَّ قليلين جدًّا هم الذين لا يجبرون زرعهم على النمو رغم أنفه «ولا يدفعون معنوياتهم إلى النماء والازدهار …» اعتقادًا منهم بأنَّ جهد الرعاية والمثابرة سعي خائب عقيم، يجدر بهم أن يعدلوا عنه فيقعدوا عن العمل والدأب، فأولئك هم الذين يبذرون زرعهم ويتكاسلون عن إزالة الأعشاب؛ «أمَّا المخالفون للنمط الطبيعي فـ…» يدفعون سيقان زرعهم للاستطالة كي ينمو سريعًا، فهم الذين يُشار إليهم بأنَّهم … «يضيعون الجهد ويفسدون الزرع» … فلا هم جنوا شيئًا من كدِّهم، ولا هم تركوا النبات لينمو حسب طبيعته.»

وراح كونسون شو يسأله: «فما معنى قولك إنَّك تعي تمامًا معاني كل الكلمات؟» فأجابه: «أقصد بذلك أنِّي عندما تكون الكلمات مائلةً (منحازةً) فأستطيع أن أهتدي إلى

سر هذا الميل؛ فإذا كانت الكلمات ماجنةً فلا يصعب عليَّ أن أسبر غورها؛ وإذا كانت الكلمات فاسدةً بغيضة الغرض، فليس أيسر عليَّ من أن أدرك منطقها الماكر ومغزاها الخبيث؛ أمَّا إذا وجدت الكلمات مراوِغةً، فما أسرع أن أصل إلى منطلقاتها «الالتفافية» الخرقاء؛ فمثل تلك: الكلمات الصادرة عن اجتهادات النفوس، تحمل في طياتها أفدح المخاطر فيما يتصل بالشئون الحكومية؛ ذلك أنَّها إذا صارت موضع التطبيق في الجوانب المتعلقة بشئون الحكم الداخلي جلبت على الوطن الكوارث، وإنِّي لأقول لك قولًا إذا سمع به الحكماء القدامى قاموا من أجداثهم يسعون إليَّ، وما وسعهم إلَّا الموافقة على كلامي حرفًا حرفًا.»

فقال له كونسون شو: «كان كلٌّ من ... «تسايوو»، و«زيكون» (تلميذي كونفوشيوس) ... يُجيد الخطابة، أمَّ «رانيو» و«مين تسي» (اثنان من التابعين) فقد أجادا أصول الأخلاق وآداب المعاملات؛ وبالطبع فقد كان كونفوشيوس يجمع بين المهارتين، وبرغم ذلك فقد تحدَّث (في هذا الشأن)، فقال: «لساني في الخطابة عَيِيٌّ؛ فلم أُوهَب بيانًا فصيحًا ولا تعبيرًا بليغًا»، «فإذا كان الأمر كذلك عند كونفوشيوس!» فهل تستطيع أن تعدَّ نفسك، يا سيدي، واحدًا من الحكماء القديسين؟» فأجابه: «ويلك يا هذا، قد شطَّتْ بك الكلمات «أبَلَغ بك الاجتراء أن تتحدَّث في هذا أيضًا؟» كان زيكون (أحد أتباع المعلم الأكبر) قد سأل كونفوشيوس فيما مضى من الزمان، قائلًا: «أتراك يا سيدي جديرًا بلقب القديس حقًّا؟» فأجابه: «كلَّا، لم أبلغ بعدُ تلك الدرجة، فلست إلَّا واحدًا من الدارسين الذين لا يرهقهم طلب العلم، ومعلمًا لا يمل التدريس!» فقال له زيكون: «الدأب في طلب العلم حكمةٌ؛ والتدريس بغير ملل إنسانيةٌ ورحمةٌ، فما دمت قد جمعت بين هاتين الخصلتين فقد صرت قديسًا.»

فإذا كان كونفوشيوس نفسه لم يجرؤ على أن يدَّعي لنفسه درجة القديسين، فكيف «تسمح لنفسك بأن» تشطح بك الكلمات إلى هذا الحد؟»

قال كونسون شو: «قد بلغني من أخبار الحكماء مثل «زيشيا»، و«زيو»، و«زيجانغ» (أتباع كونفوشيوس) أنَّهم كانوا يتَّسِمون ببعض مزايا أستاذهم الأكبر؛ أمَّا «رانيو»، و«مين تسي»، و«يان يوان» (من التابعين أيضًا) فقد كانوا يقتربون من خصال أستاذهم في معظم الأحوال، إلَّا أنَّهم كانوا في غير قليل من المواضع يقصِّرون تقصيرًا بالغًا، فأين تجد نفسك من هؤلاء السادة؟»

فأجابه: «فلنُنَحِّ هذا الموضوع جانبًا، الآن!» فسأل السائل: «فما قولك في الحكيمَيْن «بويي» و«إيين»؟»

فقال: «شتَّان ما بيني وبينهما؛ وذلك لأنَّ المبدأ القائل «بأنَّه لا يُمكن للمرء أن يخدم إلَّا السيد الذي يراه محل تقديره، ولا يترأس نفرًا من المعاونين إلَّا الذين يراهم أهلًا للعمل معه، ولا ينبغي للمرء أن يعمل بوظيفة رسمية إلَّا في ظل أحوال مستقرة، فإذا ما اضطربت الظروف، كان الاعتزال هو الحل الأمثل.» ... هذا المبدأ هو الذي يُسيطر على آراء وتوجهات «بويي»؛ أمَّا المبدأ الآخر الداعي لأنْ «يعملَ المرء تحت إمرة سيد ما دام هناك السيد الآمر، ويقوم على أمر العمال، ما دام هناك مَن يرغبون في العمل معه، ويتولى وظيفةً محترمةً، سواء استقرَّت الأحوال أو ساءت»، فهو المبدأ الذي ينادي به السيد «إيين».

فإذا قيل إنَّ هناك مبدأ آخر يدعو إلى أن «يلتحق المرء بوظيفة مناسبة إذا قامت الدواعي الموجبة لذلك، ويعتزل العمل العام إذا كانت هناك مبررات كافية ومقبولة، ويحتفظ المرء بمنصبه ما دامت الأحوال ملائمة، ويتصرف على نحو حازم إذا كان الحزم واجبًا» ... فذلك هو المبدأ الذي كان يعمل كونفوشيوس بمقتضاه، فأولئك جميعًا بضعة من القديسين القدماء الذين لا أجد نفسي مؤهلًا للقيام بمثل أدوارهم، فإذا سألتني عمَّا أستطيعه، وعمَّا أحلم بإنجازه، إذن لقلتُ بأنِّي لا أطمح في شيء قدر طموحي إلى أن أظلَّ دارسًا وتلميذًا لكونفوشيوس (للمذهب القديم!).»

– «أترى أنَّ كلًّا من «بويي»، و«إيين»، ليسا جديرَيْن بمكانةٍ مساويةٍ لقيمة ما يُمثله المعلم الأكبر كونفوشيوس؟»

– «أجل، فلم يكن على الأرض منذ بدء الخليقة كفءٌ له، يساويه ويناظره علمًا ومكانةً.»

– «فهل تجمعهما وإياه صفات أو خصال مشتركة؟»

– «نعم؛ فمثلًا لو قدِّر لهذين الشيخَيْن الفاضلَين أن يصيرا ملوكًا فوق دولة تترامى حدودها وراء التخوم وأطراف الممالك (محيط أرضها مائة لي!) فسوف يبلغان من السؤدد مبلغًا تدين لهما به الأمراء وحكام المقاطعات والأقاليم، فيخضع الجميع لهما مهابةً وتعظيمًا، فتتحد الرايات وتأتلف الأقاليم إذعانًا لسلطانهما، فإذا دعتهم الضرورة إلى ظلم الأبرياء وانتهاك قواعد العدل، تحقيقًا للسيادة فوق الأرض، فسيعرضان عن ذلك في إباء شريف؛ فتلك هي المسألة التي يتفقان فيها مع أستاذهما.»

فعاد كونسون شو يسأله: «فهل لي أن أسألكم عمَّا يتناقضان فيه من خصال معه؟» فأجابه منشيوس: «إنَّ ثلاثةً من تلاميذ كونفوشيوس كانوا خير مَن يدرك خصال الحكماء

«ويعملون بها»، وهم: «تسايوو» و«زيكون» و«يوروا»، ثم إنَّهم ما كانوا أبدًا — حتى في أسوأ الأحوال، وبافتراض تدني أخلاقهم! — لينافقوا أو يجمِّلوا صورة رجل أحبوه، وما كانوا أبدًا ليمجِّدوا صفات رجل وقع في قلوبهم موقعًا حسنًا فرضوا عنه فمدحوا خصاله، قال تسايوو (ذات مرةٍ): «إنِّي أرى كونفوشيوس أعظم كثيرًا من الإمبراطورَيْن الحكيمَيْن «ياو»، و«شون» [أنبياء العهد الصيني القديم، مع الفارق طبعًا!]»، وقال زيكون: «يُعرف الحكام بطقوسهم؛ ففي المراسم الملكية والطقوس تكمن ملامح السياسة، وفي الموسيقى التي تعزفها قصور الحُكم تكمن أُسس الأخلاقيات ومبادئ السلوك، «ومع ذلك فهناك حالة واحد يكفي فيها أن نطالع أحوال مائة جيل فائت …» فيُمكننا الاستدلال بأنَّ مائةً من الحكام والملوك فوق مائة عرش فيما هو قادم من السنين لن يسعهم إلَّا التزام أُسس الأخلاقيات ومبادئ السلوك التي أقرَّها «كونفوشيوس»، فهو الشيخ الأكبر الذي لم يكن في الدنيا كلها، منذ بدء الخليقة، نظيرٌ له في علمه ومكانته.»

وقال عنه «يوروا»: «لا تقتصر الفوارق على بَني البشر فقط، ولكن حتى في عالم الحيوان، فهناك تمايزات واختلافات أيضًا؛ فمثلًا يتميَّز «وحيد القرن» بصفات فريدة بين ذوات الأربع، والعنقاء ليست ككل الطيور، وبالمثل فإنَّ جبل «تايشان» نسيج وحده بين كل الكثبان والمرتفعات؛ ولا يُمكن أن يتساوى النهر الكبير بالجداول والغُدران، مع أنَّ كل أولئك يندرجون في أقسام مختلفة، كل قسم منها يُعد نوعًا قائمًا بذاته يشترك أعضاؤه في صفات واحدة؛ وكذلك القديسون والحكماء يشتركون أيضًا في صفات واحدة مع باقي الناس؛ إلَّا أنَّهم يتفوقون ويتميزون «عن بقية بني البشر»، فكذلك يتفرَّد كونفوشيوس وحده بمكانة شريفة وقدر عظيم بين الناس جميعًا، ولم يكن له منذ بدء الخليقة نظيرٌ من جنسه».»

(٣–٣) تحدَّث منشيوس فقال: «إنَّ اللجوء إلى القوة بوصفها الوسيلة (الذريعة) المُثلى لتحقيق العدالة والإنسانية يجعل من الحاكم ملكًا متوجًا ذا سطوة ونفوذ فوق الممالك والإمارات، ثم إنَّ الملك المتوَّج ذا العرش والسطوة فوق الممالك لا بد أن يكون تحت قيادته إمبراطورية قوية عملاقة «يستند إليها في بسط نفوذه، وتكون بمثابة التجسيد الملائم لقوته»؛ أمَّا اتخاذ الفضائل وسيلةً لتطبيق الرحمة والإنسانية فهو السيادة الحقة فوق عروش الممالك؛ حيث لا يتطلب الأمر وجود إمبراطورية أو مملكة مترامية الأطراف؛ «ومثلًا فـ…» لم يكن لدى الملك «شان طانغ» سوى أرض لا يزيد محيطها على سبعين ميلًا، ولم يكن تحت الملك أون (دولة جو الملكية) إلَّا أرض يبلغ محيطها مائة لي «هي كل موارده

من القوة التي تحفظ له مكانته وهيبته في أعين الناس ...»، إنَّ إخضاع الناس بالقهر لا يعني إمكان إقناعهم بذات الوسيلة؛ لأنَّها قد تذل أعناقهم، ويحال بينهم وبين القدرة على المقاومة، لكن نفوسهم تظل عنيدةً وتأبى الخنوع، أمَّا إقناعهم بواسطة الفضائل فهو الطريق الوحيد لضمان خضوعهم الطوعي بمحض إرادتهم، تمامًا مثلما هو الحال عند السبعين شيخًا من أتباع كونفوشيوس، أولئك الذين وردت بشأنهم تلك الأبيات من كتاب الشِّعر القديم، التي مطلعها:

«أقبَلَت من الغرب الوفود،
ومن جهة الشرق،
والشمال والجنوب.
أقبلت عليه من كل صوبٍ،
حشودٌ وراء حشود ...
والكل تحت لوائه ...
طاعة وإيمان»».

(٣–٤) إذا كان الأمير يحكم بالعدل والإنسانية، ففي هذا رفعة شأنه، أمَّا إذا كان على غير هذا النحو، فهنالك الخزي والعار، والماثل أمامنا أنَّهم (الملوك) يأنفون من كل ما يجلب لهم السوء، ومع ذلك، يتفيئون ظل سياسات غير عادلة، فمثلهم كمَن يكره أن تبتلَّ ملابسه برذاذ الماء؛ بينما يُقيم بأدنى منخفض عند مصب الأنهار (كمَن يكره البلل ويقعد حيث يصيبه وابل المطر!) ذلك أنَّ مَن بَغَض السوء حقًّا خليقٌ به أن يبذل اهتمامًا كبيرًا بالفضائل وتهذيب السلوك، ثم يُبجِّل الحكماء ويعظِّم الدارسين، فيُقرُّ لهم بالمكانة المتنفذة، ويكبر شأن الأكفاء فيوليهم الوظائف العامة، ولينتهز فرصة استقرار الأحوال فيُطالع المبادئ السياسية ويستبصر باللوائح القانونية، مما يُثير الرهبة في قلوب جيرانه الأقوياء [هكذا حرفيًّا]، وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم ما نصه:

«ها قد أظلمت السماء،
وتكاثفت السحب،
وأوشك السيل أن ينهمر،
فلْأسرع قليلًا
إلى جذع شجرة،

أنزع عنها لحاءها؛
كي أواري ثَقبًا في الجدار،
وباب البيت،
ومصراع نافذة كاد أن ينكسر.
فمَن ذا يقدر، ساعتئذٍ،
أن يقتحم بيتي؛
فيهزأ بي ويوردني موارد الخطر.»

«وعندما طالع كونفوشيوس هذه الأبيات» قال: «إنَّ صاحب هذا الشِّعر يدرك المبادئ السياسية جيدًا، فهو يذهب إلى أنَّه بعد إذ استتبت الأوضاع الداخلية في الوطن، فلن يملك أحد أن يقوم بتهديده على أي نحوٍ.»

«ولئن كانت أوضاع الممالك الحاضرة مستقرةً تمامًا، فلم يعد الأمراء يعبئون إلَّا بحياة الترف والدَّعة، وهو ما سوف يقود إلى الكوارث، وعمومًا، وساء تعلَّق الأمر بالأفراح والمسرات، أو الكوارث والنازلات، فالإنسان وحده الذي يجلب لنفسه هذه أو تلك، حتى قيل في كتاب الشِّعر القديم:

«مَن اهتدى بهُدى السماء،
بلغ مصاف السعادة العظمى.»
وجاء في كتاب التاريخ (فصل تايجيا) ما مفاده:
«إذا تنزَّلت من السماء كارثة،
تنزَّلت من السماء نجاة منها وخلاص.
وإذا جلبت يد الإنسان الشر،
فليس مفر من
معاناة المحنة التي صنعها بنفسه الإنسان.»
فتلك هي غاية المعنى المقصود.»

(٣–٥) تحدَّث منشيوس فقال: «لو جرى تقدير ذوي الكفاءة واحترام الأماجد الفضلاء، ووزعت المناصب الرفيعة على المتميزين المشهود لهم بالدراية، لعمَّت البهجة قلوب رجال العلم، ولبذلوا جهدهم وعلمهم وسط أروقة البلاط، في ظل سلطان الحكم، بكل امتنان وتفانٍ؛ وإذا جرى عرض السلع في مخازن الأسواق دون فرض رسوم ضريبية

عليها، لئلا تتكدس فتركد حركة البيع والشراء، فسوف يغتبط التجار لذلك، ويسارعون إلى عرض بضائعهم في الأسواق؛ وإذا اقتصر عمل نقاط التفتيش (بين المقاطعات) على فحص الأمتعة دون تحصيل الرسوم الضريبية فسوف يسعد المسافرون وتنشط حركة التنقل بين الأقاليم؛ وإذا صدر أمر ملكي يطلب من المزارعين المعاونة في أعمال الزراعة الجماعية — حسب النظام المعمول به في نمط إنتاجي، اسمه «نظام المربعات التسعة» — دون تحصيل رسوم ضريبية، فسوف يفرح الفلاحون بهذا الخبر، ويتطلعون إلى المشاركة في العمل؛ وإذا تقرَّر إعفاء السُّكَّان المقيمين في التجمعات الإيوائية (الأهلية) من إيجار الأراضي وضريبة الأجرة الإضافية (تلك التي يتم تحصيلها منهم مقابل تشغيلهم) فلسوف تعمُّ الفرحة كل الأهالي، ويتمنى الجميع لو أُتيحت لهم الفرصة أن يهجروا موطنهم ليأتوا ويقيموا في أرضك.

إذا استطاع الملك الحاكم أن يأخذ بهذه النقاط الخمس المذكورة «في الاعتبار» فسوف ينظر إليه أهالي الممالك المجاورة بوصف الأب الحاني والأم الرءوم «فإذا ما خطر في ذهن حكام الدويلات الغريبة أن تشن على مثل هذا الحاكم أيَّة حملة هجومية» فكيف يُمكن أن يتم تجنيد مثل هؤلاء الناس في حملة ضد مَن يعدُّونه في مكانة أمهم وأبيهم، «مع العلم ...» أنَّه لم يحدث قط طوال تاريخ البشر على الأرض أن نجحت مثل تلك الحملات في أغراضها؛ ذلك أنَّ مثل هذا الصنف من الحكام لا يوجد له على الأرض أعداء، فإذا وُجِدَ بين الأمم ملك بغير أعداء، فهو بحق وزير السماء، ولم نسمع قط فيما مضى من تجارب الإنسانية أنَّ حاكمًا بلغ هذه المرتبة دون أن تتحقَّق على يديه وحدة الممالك التي فوق الأرض جميعًا.»

(٣–٦) قال منشيوس: «إنَّ التعاطف الإنساني فطرة جُبِل عليها البشر، وقد كان الملوك فيما مضى يمتازون بهذا الحس الإنساني على نحوٍ استفادوا به في تطوير سياسات حكم الممالك، مما جعل أمورَ الحكم «وتطبيقات» السياسة الداخلية في غاية اليسر والمرونة (وكأنَّ الحاكم يُدير شئون الحكم بين أصابعه) ولئن كنت أزعم أنَّ الناس جميعًا مفطورون على التعاطف، فدليلي على ذلك أنَّه ما من أحد من البشر رأى طفلًا قد أوشك على السقوط في بئر إلَّا فزعت نفسه وتحرَّكت فيه نوازع التعاطف والرحمة، حتى لو لم يكن من بين مقاصده الوفاء بحق صلة القربى أو صداقة حميمة تربط بين المرء وأهل ذلك الطفل، أو دافع يدفع المرء لنيل حظوة أو تقدير أو ثناء جيرانه وأقاربه، حتى بتأثير ما قد يبعثه بكاء الطفل وصراخه من ضيق أو حرج في نفس عابر سبيل.

بالتعمق في ملاحظة تلك الظاهرة، نجد أنَّ التعاطف طبيعة إنسانية أساسية، تمامًا كالإحساس المرهف، والخجل والتواضع، والإدراك السليم (التمييز الفطري بين الصواب والخطأ).

إنَّ التحلي بروح التعاطف هو أساس الإحسان، والحياء هو رأس الاستقامة؛ والتواضع أول طريق الخُلق القويم، والإدراك السليم مقدمة الحكمة.

فمَن حاز تلك المبادئ الأربعة، كان كمَن حسنت هيئته بتمام الخلقة، وقد وُلد بأطرافٍ أربعة كاملة وصحيحة، فإذا عجز المرء عن تقدير خصاله القوية، بما اكتسب من تلك المبادئ الأربعة، فقد اختلس حظ النفس من تمام القيمة (... بما فقدَ من الثقة في نفسه!)، ومَن ظنَّ أنَّ الأمير يعوزه شيء من تلك الخصال، فقد ظلم. إنَّ مَن يجد في نفسه شيئًا من تلك المبادئ الأربعة، فينبغي عليه أن يجدَّ في الحفاظ عليها وتنميتها، كأنَّها عين ماء انبجست تحت قدميه، أو شعلة نار اقتدحها بزنديه، إذا ثابر على موالاتها بالجد والرعاية أثمرت، ففاضت على الدنيا بأسرها «ماءً عذبًا، ونورًا وهَّاجًا»، وإذا أهملها كان أعجز عن أن يعول نفسه فضلًا عن والديه.»

(٣–٧) قال منشيوس: «هل من المعقول أن يكون صانع السهام أشد قسوةً ووحشية من صانع الدروع؟ بمعنى أنَّ صانع السهام يهمه في متانة بضاعته وجودة صنعته أن تكون قادرةً على الفتك بالناس؛ بينما تتحدد مهمة صانع الدروع في حماية الأرواح من شر السهام الطائرة. ثم إنَّ الطبيب الكاهن (الذي يعتمد على طرق سحرية من أسرار التعويذ في شفاء الأمراض)، وصانع التوابيت (النجَّار المتخصص في صناعة صناديق حفظ جثث الموتى) كلاهما ينطبق عليه الحال نفسه، «الطبيب يسعى في شفاء المرضى، والنجَّار المشار إليه يرجو ألَّا يطول بهم البقاء على قيد الحياة»، ومن ثم، نرى أنَّ اختيار المهنة أمر يتطلب منتهى الحذر. وقد قال كونفوشيوس ذات مرة: «ينبغي على الإنسان أن يجعل من الفضائل دار إقامة؛ إذ لا يجدر بالعاقل أن يقيم بمكان تجافت عنه الأخلاق!»

إنَّ الرحمة درجة شريفة تنزَّلت بها من السماء أعظم آيات الإجلال والتكريم، وهي أيسر موطن يقيم بين جنباته البشر، وليس للعاقل أن يبرح فناء الرحمة كلَّما وجد إلى ذلك سبيلًا (إذا ما ظلَّ قادرًا على ذلك دون أن تقف في سبيله العوائق)؛ ذلك أنَّ مَن تغاضى عن الرحمة، وتجافى عن الحكمة، فقد وقع في حمأة الظلم وسوء الأدب. «ومَن اقترف ذلك الخطأ فقد استوجب ...» من ثم أن يصير ألعوبة في يد الناس تتقاذفها كيف تشاء، فمَن صارت هذه حاله، انحطَّ إلى حضيض العبودية ولقي خزيًا وهوانًا، فكأنَّه

— في تلك الحال — مثل برَّاء السهام والأقواس الذي لا يجد في مهنته سوى الشعور بالخزي والعار، «فإذا كان الأمر، على هذا النحو ...» أليس من الأفضل للمرء، إذن، أن يوطِّد نفسه على الرحمة، فالسالك في طريق الرحمة كالرامي عن القوس؛ ولمَّا كان الرامي يُهيئ لنفسه وضعًا مناسبًا، ويتخذ الإجراء المطلوب عند الرمي، فهو إن لم يصب الهدف، لا يلوم الرماة الذين ضربوا فسددوا؛ بل يستدير ليراجع موقفه ويحاسب نفسه وحده.»

(٣–٨) قال منشيوس: «كان «زيلو» (تلميذ كونفوشيوس) يفرح كثيرًا عندما يخبره الناس بما وقع فيه من أخطاء، وكذلك كان الإمبراطور «يو» (أشهر ملوك التاريخ القديم، المعروف بأنَّه أول حاكم لأسرة شيا، المشهور بالفضائل والخلق الكريم) ينشرح صدره لما يوجَّه إليه من النصح والإرشاد؛ بل إنَّ أعظم أباطرة العصر القديم «شون» (خليفة «يو» على العرش، ثاني أشهر الملوك القدامى من ذوي الفضائل الجمَّة) كان أبرز مَن اتَّسم بتلك الخصال الطيبة؛ إذ كان يتخذ قاعدة مراجِعه الأخلاقية مما وافق رأي جموع الناس من حوله، ولم يكن يستنكف أن يتراجع عن رأيه الشخصي «وأفكار رأسه!»، ويأخذ بما استقرَّ عليه رأي الناس، ما دام ذلك مؤديًا لعمل الخير، وقد كان طوال حياته، حتى (قبل أن يترقَّى إلى الوضع الذي مكَّنه من الوصول إلى مصاف الحكم الإمبراطوري) وهو يعمل مزارعًا بسيطًا في الأراضي، ثم وهو يعمل في صناعة الفَخَّار، أو عندما كان يحترف صيد الأسماك، وإلى أن صار ملك الملوك؛ لم يكن يتوانى عن التحلي بالفضائل واكتساب السمات الخلقية الفريدة مما يقترحه عليه ويُشير إليه به الناصحون.

إنَّ تعلم الفضائل من الناس لعمل الخير يُعدُّ أفضل وسيلةٍ لامتداح مبادئ السلوك العامة، ولا بد للعاقل من أن يجعل اهتمامه الأساسي مُنصَبًّا على امتداح الفضائل دعمًا للخير العام (للصالح العام)!»

(٣–٩) قال منشيوس: «لم يكن «بويي» ليسمح لنفسه بأن يتفانى ويعمل بكل إخلاص، إلَّا للأمير الذي يظن أنَّه أهلٌ لذلك؛ ولا كان يُصادق إلَّا مَن يستحق الصداقة عن جدارةٍ؛ «وهكذا ...» فلم يكن له أن يلتحق بالعمل في بلاط مملكة فاسدة ولم يصادق رجلًا سيئ السمعة؛ «ذلك أنَّه كان يعتقد بـ» أن يعمل المرء في خدمة أمير فاسد، وأن يُصادق رفيقًا موصومًا، فمثله كمَن يرتدي أفخر الثياب ويتزيَّن بأبهى زينةٍ، ثم يجلس وسط الأوحال أو يستلقي على كومة من رماد.

فإذا تفحَّصنا حالته تلك بمزيد من الدقة «ورُحنا نتابع المزيد من التفاصيل في ...» علاقته مع أهالي بلدته البسطاء، الذين إذا تصادف أن التقى بواحد منهم ووجد أنَّه لا

يرتدي ثيابه [قبعته ... حرفيًّا] على النحو اللائق (حسب الأصول والآداب المعهودة)، فما أسرع أن يستدير وينصرف عنه غاضبًا مشمئزًّا كأنَّه يبتعد عن قاذورات نتنة؛ «وهكذا ...» فبالرغم من كل المحاولات التي بذلها كثير من الأمراء لملاطفته وملاينته سعيًا لتوظيفه «واستمالته في صفِّهم»، إلَّا أنَّه اعتذر عن عدم قبولها جميعًا، وكان السبب وراء ذلك هو أنَّه لا يُريد أن تكون هناك أيَّة صلة تربط بينه وبين أي من أولئك الأمراء والحكَّام.

غير أنَّ رجلًا آخر مثل ليو شياوي (أحد كبار رجال البلاط في دولة لو زمن الدول المتحاربة ٦٣٤ق.م.) لم يكن يخزيه أن يعمل في خدمة أمير ذائع الفساد، ولا كان يحط من قدره أن يعمل بوظيفة غير مرموقةٍ؛ بل كان يبذل جهده ليثبت قدرته وكفاءته على طيب نفسٍ منه، ما دام يعمل في البلاط الملكي؛ ولم يكن يشكو أو يتبرَّم إذا أهمله رؤساؤه «في الترقي» وتجافت عنه نظراتهم، ولا جزعت نفسه إذا ساءت حاله وأصابته الفاقة، وكثيرًا ما كان يقول: «ليلزم كل امرئ شأنه، فحال الناس ليس حالي، فإذا تعرَّى أحدهم وتجرَّد من ملابسه وجلس إلى جواري فلن ينقص ذلك من قدري شيئًا! لذلك فقد عاش حياةً سعيدةً تعرَّف فيها إلى أخلاط من الناس وألوان من البشر دون أن يُغيِّر شيئًا من عاداته أو أن تتبدَّل طبيعته، حتى إذا صدر له الأمر بالبقاء في خدمة الأمير (ولو جاء ذلك على غير ما يود ويرغب ...) فسرعان ما كان يمتثل للأمر. وامتثاله، حينئذٍ، لا يعدو كونه نزولًا على الأمر الواقع، وصدوعًا بالأوامر، كما تقتضي القواعد والأصول» — وأتمَّ منشيوس كلامه قائلًا: «وأرى أنَّ «بويي» كان ضيق الأفق، قليل الصبر، بينما أنَّ ليوشياوي قليل الاعتداد بالنفس، لا مروءة له، ولا ينبغي للعاقل الحكيم أن يتخذ أحدهما أو كليهما نموذجًا ومثالًا».»

الجزء الثاني

جملته أربعة عشر فصلًا

(٤–١) قال منشيوس: «عندما تكون الظروف المناخية والجغرافية مواتيةً وملائمةً فعندئذٍ تصبح أفضل كثيرًا من ضربات الحظ» التي تأتي مصادفةً مع الزمان (المكان الملائم أفضل من الصدفة السعيدة)، ثم إنَّ التقاء العزم «عزم جموع الناس وإرادتهم» ووحدة الإرادة، أعظم من كل خيرات الأرض (الظروف الجغرافية المواتية).

إنَّ مدينةً عظيمةً محيطها ثلاثة لي، يدور حولها سورٌ هائلٌ، يبلغ متوسط محيطه سبعة لي، يُحاصرها العدو طويلًا، ويهاجمها، فلا يقدر على اقتحامها، على الرغم مما أكَّدته

حسابات الوقت الملائم (الزمان) للهجوم، إلَّا أنَّ كل محاولات الاقتحام تبوء بالفشل؛ وذلك لأنَّ تلك الحسابات أخذت في اعتبارها عنصر الزمان دون مراعاة للخصائص والظروف الجغرافية والمناخية (هذا مثال لما أريد قوله، وهاك مثالًا آخر؛ ذلك ...) أنَّ مدينةً أخرى يُحيط بها سورٌ عظيم الارتفاع، ونهر (مانع مائي) شديد العمق، ويتسلح أهلها بأمضى الأسلحة الهجومية والدفاعية «معًا»، ووراءهم مؤن وذخائر لا تنفد؛ لكنَّهم لا يصبرون على قتال، فإذا دهمهم العدو، هجروا الديار وولوا الأدبار؛ فذاك دليل على أنَّ احتمال البأس وشدة العزم ووحدة الإرادة أنفذ وأهم من الظروف الجغرافية والبيئية [الشروط المعنوية أبقى من الأحوال الطبيعية]؛ لذلك نقول بأنَّه «ليس ترسيم الحدود وتخطيط المواقع هو الذي يمنح السكان مكانًا للإقامة داخل وطنٍ، وليست حال الجبال والأنهار هي التي تُحدد درجة أهمية الموقع الجغرافي «... من الوجهة الأمنية» من حيث منعتُه كحاجز دفاعي على الحدود، وليست الأسلحة الفتَّاكة هي الضمان الوحيد لتهديد الأمم والممالك التي «تحت السماء» (يعني: في كل مكان) ليس هناك سوى السياسة الرشيدة هي التي تلقى كل مساندةٍ وتأييدٍ، فكلما جنحت أساليب الحكم بعيدًا عن مبادئ الرحمة والرشاد تناقص الأنصار، حتى إذا بلغوا الحد الأدنى تنكَّر الناس لملوكهم وأظهروا العصيان؛ أمَّا إذا كثر المبايعون للقصر الحاكم فهذا ضمان له بالتأييد التام، والهيبة الوافرة، مما يمكِّن (الحاكم) من تسليط قوة المناصرين على فلول العصيان والتمرد «فتردها إلى صوابها»، فمن ثم، كان العاقل الذي يتخذ من الرحمة سياسةً شرعيةً لا يجد نفسه في حاجة للجوء إلى القوة، فإذا دعته الظروف إلى ذلك فهو المنتصر المظفر.»

(٤–٢) لمَّا كان منشيوس يستعد للذهاب إلى القصر الملكي لمقابلة الملك، كان جلالته قد أرسل مبعوثًا من طرفه لمقابلة الفيلسوف الحكيم ليبلغه بما يلي ... «كان من المقرر أن ألتقي بك، لكن الحُمَّى أصابتني فأرقدتني الفراش، وخشيت أن تتفاقم حالتي إذا خرجت للقائك، فإذا رأيت أن تحضر أنت فأبلغني حتى أقوم إلى الديوان فأستعد لاستقبالك، ولا أدري إن كنت ستتفضَّل بإتاحة الفرصة لنا كي نلقاك؟» ... فكتب منشيوس ردًّا على الرسالة، بما نصه: «من سوء الحظ، أنِّي أنا أيضًا يا مولاي، قد أقعدني المرض عن الذهاب إلى القصر للقائك.»

وفي اليوم التالي، قصد منشيوس إلى منزل «دونكو» — كبير رجال القصر بدولة تشي — لتقديم واجب العزاء في فقيدٍ لديه، وهناك التقى بالسيد كونسون شو، الذي ابتدره قائلًا له: «أراك قد تذرعت يوم أمس بالمرض، ثم إذا بك تأتي اليوم للعزاء، ألا يبدو ذلك

خرقًا لقواعد الآداب العامة على نحوٍ غير لائق؟» فأجابه قائلًا: «ولماذا ينبغي أن يبدو الأمر كذلك، ما دمت كنت مريضًا بالأمس ثم شفيت اليوم، فما الذي يحول دون القيام بواجب العزاء بعد إذ بَلَلْتُ من المرض؟»

وفي تلك الأثناء، كان جلالة الملكة قد أرسل إلى منشيوس في السؤال عن صحته، وأوفد مع الرسول طبيبًا يُمرِّضه، فخرج إليهم تلميذه وتابعه «منجوتسي» [تربطه بالفيلسوف صلة قرابة] فكلَّمهم، بغير اكتراث، قائلًا: «كان جلالة الملك قد أرسل بالأمس في استدعاء أستاذنا إليه، لكنَّه لم يستطع الذهاب بسبب وعكةٍ صحيةٍ طارئةٍ، فلمَّا تماثل اليوم للشفاء خرج مسرعًا إلى القصر، وربما يكون قد وصل الساعة إلى هناك أو كاد.»

ثم إنَّ منجوتسي أسرع من فوره بإرسال عدة أشخاص وأمرهم بانتظار منشيوس على قارعة الطريق، في أماكنَ مختلفةٍ وأن يُشيروا عليه، عند لقياه، بالتوجُّه مباشرةً إلى القصر الملكي دون إبطاء، إلَّا أنَّ منشيوس أصرَّ على أن يذهب خفيةً إلى بيت جين شو (أحد كبار رجال الحكومة في دولة تشي) ليبيت ليلته هناك، وكان أن قال له جين شو: «إنَّ أصول العلاقة الإنسانية تقوم على تمجيد الرابطة بين المرء وأبويه داخل المنزل، وتقديس العلاقة بين الفرد من ناحية والوزراء والملوك من ناحية أخرى، فيما يتعلق بالأمور العامة خارج العائلة؛ فالأساس في العلاقة بين المرء وأبويه هو العطف والإحسان؛ بينما تقوم العلاقة بين الفرد ورجال الدولة على مبدأ الاحترام والتبجيل، فما لي أرى جلالة الملك يبذل لك الاحترام الواجب دون أن تقوم نحوه بالمِثل؟» فأجابه: «عجبًا لقولك هذا، أما رأيت إلى أهل دولة تشي وهم يمتنعون رجالًا ونساءً عن أداء حقهم في تنبيه الملك إلى وجوب السير فيهم بسياسةٍ تقوم على الرحمة والعدل، أتراهم، إذن، يبغضون الرحمة والعدل؟ أبدًا، وإنَّما كل ما في الأمر أنَّهم في قرارة أنفسهم يرون أنَّ مثل ذلك الرجل «الحكيم» ليس أهلًا لمناقشتهم في أمور تتصل بالرحمة والعدل، وهذا في حد ذاته هو أفدح مثال لانتهاك قواعد الاحترام مع جلالة الحاكم. أمَّا فيما يخصني، فما كنت لأجسر أن أتحدَّث مع الملك حول تلك المسائل، لولا ما أرساه كل من الملكَيْن «ياو» و«شون» من مبادئ مقدسة في قديم الزمان، ومع ذلك فلم أجد بين أهالي دولة تشي مَن يُبدي للملك احترامًا يُساوي ما أشعر به تجاهه.»

فقال له جين شو مستنكرًا: «لم أقصد ما فهمت، وإنَّما أردت أن أذكِّرك بشيء ورد في «كتاب الطقوس» فيما نصه: «ليس لنداء الوالدين سوى الطاعة في صمت وهدوء، ولا لطلب الأمير إلا الامتثال الفوري دون إبطاء [حرفيًّا ... دون انتظار حتى لعربة تجرها

الجياد تُقِلُّني إليه!] لأنَّك كنت قصدت الذهاب إلى القصر في بادئ الأمر، فلمَّا جاءك الأمر بالمثول بين يدي جلالته، عدلت عمَّا اعتزمته من زيارته، فبدا ذلك منك مخالفًا للقواعد والآداب العامة!»»

فقال له منشيوس: «أمعقولٌ أن تذهب ظنونك فيَّ إلى هذا الحد؟ على أيَّة حال، فقد كنت سمعت «سنغ زي» (تلميذ كونفوشيوس)، يقول: «كان في حوزة دولتي «جين» و«تشو» من الغنى والثروة ما لا مثيل له في الممالك، ولئن كان ملكاها ينعمان بالجاه والمال، فإنِّي أملك ما لا يملكان، وهي الرحمة، فإذا كانا يملكان النبالة والشرف، ففي حوزتي العدل، فلست أنقصُ عنهما شيئًا»، والآن تأمَّل معي، أكان يُمكن لواحد مثل سنغ زي أن يقول كلامًا مثل هذا، لولا أنَّه يفيض رجاحةً وحكمةً؟

في الدنيا ثلاثة من أثمن وأعظم الأشياء جميعًا، وهي: المكانة الشريفة، والعمر الطويل، والفضائل الأخلاقية؛ فالمرتبة الاجتماعية الشريفة مكانها القصر الحاكم، والعمر الطويل هو ما يتفاضل به الناس في مجتمعاتهم التقليدية، أمَّا ما يسود به الأمراء على بقية الناس ويشد أزرهم ويقوي عزائمهم فهي الفضائل الأخلاقية، فمن أين، إذن، جاء تفضيل المرتبة والوجاهة الاجتماعية فوق الاثنتين الأُخرَيَين (العمر الطويل، والأخلاقيات) ومن ثم، فلا بد للأمير، ذي السلطة النافذة والسياسة القادرة، من أن يكون له وزراء يستدعيهم في أي وقت، فإن لم يجيبوه من فورهم، سعى بنفسه إليهم للتشاور في المسائل ذات الشأن.

ويجب دائمًا الاهتمام بالفضائل، والاجتهاد في تطبيق السياسات القائمة على الرحمة والإنسانية بكل تفانٍ وحب، وإلَّا «فمثل ذلك الأمير» لا يستحق أن يُبذل له أي قدر من التعاون.

ومن ثم فقد راح «الملك» شان طانغ يتعلَّم على يدي «إيين»، ثم راح يُرقِّيه حتى ولاه منصبًا وزاريًّا، مما مكَّنه في نهاية المطاف من أن يفرض سلطانه فوق الممالك، وهذا بالضبط ما فعله (الملك) «هوانكون» مع الحكيم «كوانجون» الذي تلقَّى العلم على يديه، ثم أنعم عليه فعيَّنه وزيرًا في الحكم، فعظم أمر «الحاكم» جدًّا واستطاع أن يقهر الممالك، ويُعلن نفسه «إمبراطورًا» تدين له الدول بالخضوع.

فإذا كانت الإمارات تتساوى اليوم، لا فرق بين صغيرها وكبيرها (لا تقوم فوقها دولة قوية تأخذ بناصية الأمور!)، والأفكار العامة تكاد تتوازى «دون إبداع!»، ولا يتفاضل أمير فوق آخر بشيء من مزايا التفوق؛ فليس هناك سوى سبب واحد «وراء كل ذلك»، وهو أنَّ الأمراء لا يُعيِّنون في المناصب الوزارية إلَّا مَن يصغون إلى آرائهم، ويبخلون بها

على أساتذتهم ومعلميهم (يرشحون للمناصب مَن يصغي إليهم، لا مَن ينبغي أن يصغوا هم أنفسهم إليه!)

وهكذا فلم يجسر كل من «شان طانغ» و«هوانكون»، وهما الملكان المبجَّلان أن يقوما باستدعاء الحكيمين «إيين» و«كوانجون»، فإذا كان قرار الاستدعاء الملكي قد تجاوز واحدًا في مكانة «كوانجون»، أفلا يُمكن أن يغفل عن واحد أدنى كثيرًا من ذلك الفيلسوف الحكيم؟»

(٤–٣) راح تشين جين (تلميذ منشيوس) يسأل أستاذه قائلًا: «عندما كنت في دولة تشي منذ أيام قليلة، أرسل إليك الملك بمائة «يي» من الذهب [... نحو مائة وعشرين كيلوجرامًا] فلم تقبلها، ثم لمَّا ذهبت إلى دولة سونغ، أُرسلت إليك هدية قيمتها سبعون يي [نحو أربعة وثمانين كيلوجرامًا] من الذهب فقبلتها دون ترددٍ، ولمَّا كنت في طريقك عبر أراضي دولة «شيوي» جاءت هدية تُقدَّر بعشرة يي من الذهب الخالص [نحو اثني عشر كيلوجرامًا] فقبلتها أيضًا بكل ترحيبٍ، فإذا كان امتناعك عن قبول الهدايا فيما مضى هو الصواب بعينه، فإنَّ قبولك لها بعد ذلك خطأٌ لا يغتفر، وإذا كنت تقبلها اليوم بصدر رحب، فإنَّ رفضك لها من قبل لم يكن هو الصواب في شيء، وعلى أيَّة حال، فلا بد أن يكون تقديرك في هذه الأمور مبنيًّا على معيار محدد.»

فأجابه منشيوس: «بل كنت في ذلك كله على صواب، فعندما ذهبت إلى دولة «سونغ» كان طريق السفر المزمع طويلًا، وتكاليف الرحلة هائلة، فجاءت إلينا رسالة من القصر الحاكم تحتوي على مبلغ من المال، بوصفه هدية من عطايا الملك، نستعين لها على أداء مئونة السفر، مما لم يكن ممكنًا معه أن نرفض الهدية، فلمَّا كنت في دولة شيوي، عملت على اتخاذ كل التدابير الضرورية لمواجهة مخاطر الرحلة، فبلغتنا رسالة الأمير، بما نصه: «قد بلغنا أنَّكم تعملون على تفادي ما يُمكن أن يصادفكم من مخاطر الطريق، فأرسلت إليكم بمصاريف شراء ما يلزم من الأسلحة»، وبالطبع فلم يكن من المناسب رفض هذه الهدية.

أمَّا السببُ في رفض قبول أموال من دولة تشي، فهو أنَّه لم يكن هناك أصلًا أسباب تدعو لقبول أيَّة هدايا، فبدا العرض وكأنَّه رشوةٌ لشراء الذمة، وهل يُمكن للحكيم العاقل أن يبيع نفسه مقابل رشوة؟»

(٤–٤) لمَّا وصل منشيوس إلى بلدة «بين لو» (بلدة نائية عند حدود دولة تشي)، والتقى رئيس المدينة «كون جي شن»، فقد سأله قائلًا: «هب أنَّ أحد أفراد حرس الحدود عندك أهمل واجباته ثلاث مرات متتالية في يوم واحد، أما كنت تطرده من وظيفته؟»

فأجابه: «بل ما كنت أنتظر أن يهمل عمله ثلاث مرات؛ «كنت أُقصيه بعد ملاحظة إهماله لأول مرة»!»

فقال له منشيوس: «فماذا إذن وقد أهملت واجبات عملك أكثر من ثلاث مرات، أما رأيت أهالي المدينة، شبابًا وشيبة، وهم يهيمون في الوديان والآفاق البعيدة جَوعَى ومشردين، إثر المجاعة التي ضربت أطنابها فيكم؟ أما كنت هناك عندما تجاوزت أعداد الموتى والمشردين آلافًا مؤلفة؟»

فأجابه: «ذلك أمر لم يكن في طاقتي «بمفردي» أن أتدارك عواقبه»، فقال منشيوس: «فماذا لو قام عندك رجل بتبعة تربية ورعي قطعان الغنم والماشية وكيلًا عن صاحبها الأصلي، أما كان يجدر به أن يتخيَّر لها أحسن المرعى وأوفر العلف، فإذا لم يجد شيئًا من ذلك، أفلا يجب عليه حينئذٍ أن يُعيدها إلى مالكها، أم تراه يجلس جانبًا يتفرَّج عليها وهي تهلك أمام ناظريه جُوعًا؟»

وهنا أجابه «كون جي شي»: «أعترف لك الآن، بأنِّي مخطئ بكل تأكيد!»

ثم ما لبث منشيوس أن التقى بجلالة ملك تشي، فقال: «التقيت بخمسة من رؤساء المدن «الذين يعملون تحت تاجك» فلم أجد من بينهم مَن يملك الشجاعة على الإقرار بالوقوع في أخطاء جسيمة سوى واحد فقط، هو «ذلك المدعو» كون جي شن»، وراح منشيوس يقص على الملك تفاصيل الأمر، فما كان من جلالته إلَّا أن صاح بقوله: «بل أنا المخطئ الأول.»

(٤–٥) تكلَّم منشيوس مع تشيوا (أحد كبار موظفي دولة تشي) فقال له:

«أراك قد فعلت عين الصواب عندما تخلَّيت عن منصبك كرئيس لبلدة لين تشيو لتتولى العمل «في السلك القضائي» قاضيًا كبيرًا بالدولة، فموقعك الوظيفي الجديد يُمكِّنك من تقديم اقتراحاتك ونصائحك لجلالة الملك مباشرةً، لكن الغريب في الأمر أنَّك الآن، وبعد استلام مهام منصبك بفترة لا تقلُّ عن عدة أشهر، ما زلت لم تتقدَّم بشيء من الآراء أو الاقتراحات «لجلالته»، أتراك عاجزًا عن ذلك؟»

وبالفعل فقد تقدَّم «تشيوا» لجلالته بآراء واقتراحات شتى، لكنَّها لم تؤخذ بعين الاعتبار، مما كان سببًا في استقالته من وظيفته.

وهكذا راح البعض في دولة تشي يرددون بأنَّ «الرأي الذي «عرضه منشيوس، و …» أخذ به «تشيوا» كان جيدًا للغاية، لكن الطريقة التي تصرَّف بها هذا الأخير، هي التي طُويت ضمن ما انطوى من أسرار غير معلومة للكافة.»

والعهدة في هذه الرواية تقع على تلميذ منشيوس المدعو «كوندوتز»، «وهنالك» قال منشيوس: «إنَّه قد بلغني أنَّ مَن حِيل بينه وبين ممارسة مسئوليات وظيفته الرسمية، فلا بد له من الاستقالة، وكذلك مَن تقدَّم باقتراحات وتوصيات بحكم وظيفته الرسمية، وقوبلت جهوده بالتجاهل التام، فله أيضًا أن يعلن احتجاجه بالتخلي عن مهام وظيفته، أمَّا فيما يتعلق بي، وقد شاءت الظروف ألَّا يكون لي منصب وظيفي يخولني سلطة تقديم التوصيات؛ فمن حقي الذهاب إلى القصر وقتما أريد، أو الامتناع عن ذلك حسبما أرغب، ما دام أمامي مجال يسمح بالإقدام أو الإحجام بكل مرونة وسهولة، وسط أجواء هادئة تمامًا.»

(٤–٦) لمَّا تولى منشيوس منصبًا حكوميًّا مرموقًا في دولة تشي، صدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى دولة «تنغ» في مهمة رسمية للقيام بواجب العزاء والمواساة، وأرسل معه حاكم تشي أحد رؤساء المدن، وهو المدعو «وان هوان» (رئيس بلدة «كيه» … وكان «وان هوان» من أكثر الموظفين الرسميين توددًا إلى جلالة الملك، حتى وثق به وجعله من خاصته)، ليكون مستشارًا ونائبًا له في مهمته، وهكذا سار معه هذا المسئول طوال مده تنقُّله بين البلدين، غير أنَّه لم يحدث أبدًا أن تحدَّث منشيوس إليه بشأن أي أمر من أمور المهمة الرسمية الموكولة إليهما، ومن ثم راح كونسون شو يسأل منشيوس قائلًا: «إنَّ المنصب الذي تشغله ليس بالعادي، والمسافة بين دولتي تشي وسنغ، ليست بالقصيرة، فكيف — على طول الطريق واتصال الصحبة — تُمسك عن محادثته في شئون بعثتكما الرسمية؟» فأجابه: «من ناحيته، فقد كان يتصرف فيما هو موكول إليه وحده دون تشاور معي، ففيمَ إذن كان لنا أن نتشاور؟»

(٤–٧) سافر منشيوس من دولة تشي إلى دولة «لو» لحضور مراسم دفن والدته، وفي طريق عودته إلى تشي توقَّف قليلًا عند بلدة «إينغ»، فجاء إليه أحد أتباعه (ويُدعى تشونيو)، وسأله: «كنتَ يا سيدي، فيما مضى قد تغاضيتَ عن جهلي وغباوتي ورضيتَ أن أصنع توابيت لموتاك؛ فلمَّا كنتَ «سيادتكم» مشغولًا آنذاك فقد خشيتُ أن أزعجك بأسئلتي؛ أمَّا الآن فقد حانت الفرصة كي أسألك عمَّا دعاك إلى اختيار أجود أنواع الأخشاب لصناعة التابوت الذي أودعت به جثمان والدتك؟» فأجابه: «اعلم أنَّ صناعة الأكفان الداخلية، والتوابيت الخارجية للموتى، في العصور القديمة، لم يكن يتبع نمطًا أو مقاييسَ محددةً، فلمَّا جاء العصر الوسيط، تمَّ تحديد سُمك التابوت الداخلي بما لا يزيد على سبع [تصون … أي بوصة] بوصات، على أن يسري القياس نفسه على التابوت الخارجي أيضًا،

وجرى توحيد وتعميم تلك النِّسب على طقوس دفن العامة والخاصة، من الإمبراطور إلى أفراد الشعب البسطاء، باعتبار أنَّ مِثل ذلك الإجراء يحفظ مقاييس جمالية تتوافق حولها مشاعر الأبناء البررة؛ فلو كانت الطقوس تنص — مثلًا — على شراء أجود الخشب، بما لا تطيقه عامة الناس، لحزن الجميع على موتاهم، ولتحسروا لعدم مقدرتهم على الوفاء بعادات الدفن لضيق ذات اليد؛ لذلك اتبع الأقدمون نهجًا يوائم بين جودة الأخشاب المطلوبة لصناعة التوابيت؛ بحيث تكون أسعارها في متناول الجميع، فلئن كانت تلك عادة القدماء، فما الذي يجعلني أحيد عنها وحدي؟ وبالإضافة إلى ذلك كله، أفلا تظن أنَّه مما يُدخل السعادة على قلبي أن أحفظ جسد فقيدتي العزيزة بعيدًا عن الطين والتراب؟ وقد بلغني أنَّ العاقل لا يبخل على «طقوس جنازة» والديه بشيء مما يقوم به معاشه تحت السماء (في الحياة الدنيا)!»

(٤–٨) حدث أنَّ أحد كبار الوزراء بدولة تشي (وهو الوزير شنتون) تقدَّم إلى منشيوس بسؤال يستطلع فيه رأي الفيلسوف — من زاوية اهتمام شخصي غير رسمي — قائلًا: «أتظن أنَّ من الممكن مهاجمة دولة يان؟» فأجابه: «نعم، هذا ممكن جدًّا؛ «فلذلك» ينبغي على حاكم يان «تسيكواي» أن يُسلم قيادة بلاده إلى يدٍ أخرى، ولا يجب على رئيس وزرائه «تسي جي» أن يتسلَّم مقاليد الأمور من الملك تسيكواي «والمسألة، ببساطة يُمكن أن نضرب مثلًا لتوضيحها، على النحو التالي …» فإذا افترضنا أنَّك تصادق امرأً ما، وتُفضِّله على بقية الناس، وتخصه — سرًّا، ودون علم جلالة الملك — بأن تتنازل له طواعيةً عن رتبتك الاجتماعية وراتبك الملكي، ثم إنَّ هذا الشخص نفسه — دون علم الملك أيضًا، وبغير إذن رسمي — استولى خفيةً على صلاحيات منصبك ومخصصاتك المالية «وتصرَّف بها كيفما اتفق له»، فهل يُعد ذلك تصرفًا سليمًا؟ … فما الفرق، إذن، بين هذا المثال، وبين ما يُمكن أن يحدث في دولة يان؟»

وبالفعل، فقد هاجمت تشي دولة يان، وذهب أحدهم إلى منشيوس، وسأله:

«هل صحيح «ما بلغني من» أنَّك قد نصحت لدولة تشي بمهاجمة يان؟» فأجاب: «هذا غير صحيح! وإنَّما سألني «شنتون» (سرًّا) بقوله: «هل يُمكن مهاجمة دولة يان؟»، فأجبته حرفيًّا: «نعم، ممكن جدًّا» … فما كان «منهم» إلَّا أن قاموا بمهاجمة يان، أمَّا لو كان قد توجَّه إليَّ بسؤال آخر عمن يستطيع القيام بمهاجمة يان، لكنت أجبته على الفور بأنَّه ليس هناك سوى ملائكة (وزراء) السماء، وحدهم، هم الذين يقدرون على ذلك، «وللتوضيح فلنضرب مثلًا، فإذا كان …» هناك مجرم ارتكب جنايةً، وسألني واحد من

الناس عمَّن ينبغي أن يقوم بقتل (الاقتصاص من) ذلك المجرم، لأجبته بأن ليس هناك سوى القاضي وحده هو الذي يملك سلطة قطع رأس الجاني.

لكن أن تقوم دولة تشي بمهاجمة يان (التي لا تقل عنها وحشية وقسوة) فهذا ما لا يُمكن أن أنصح به مطلقًا!»

(٤–٩) قام شعب دولة يان بأعمال المقاومة ضد احتلال بلاده (الإشارة هنا إلى قيام أهالي دولة يان بأعمال التمرد والعصيان ضد دولة تشي، وذلك في ٣١١ق.م.) وكان حاكم يان، الملك «زيكواي»، قد توفي إثر احتلال بلاده، وهرب رئيس الوزراء «تسيجي»، وشعر الأهالي بأنَّ تشي تريد ضمَّ بلادهم إلى أراضيها، وقاموا بعصيان أوامر بلاطها الإمبراطوري؛ مما اعتبرته تشي عملًا من أعمال العصيان والتمرد. وهنالك تحدَّث الملك شيوان حاكم تشي، فقال: «كم شعرت بالخجل من منشيوس؛ إذ قد اقترح عليه الفيلسوف الحكيم أن يُصدر أمرًا بإعادة المرضى والعجائز من الأسرى إلى ذويهم، وإيقاف أعمال السلب التي عمَّت دولة يان، وتنصيب حاكم جديد للبلاد استعدادًا للانسحاب، لكن الملك لم يأخذ برأيه، فقام الأهالي بالتمرد …» فقال له «تشن جيا» (أحد كبار رجال القصر في تشي): «لا تحزن يا مولاي، «وسأقول لجلالتكم شيئًا أثبت لكم به أنَّ الأمر لا يحتاج إلى ذلك الشعور بالأسف، واسمح لي بأن أسألكم …» أيكما أكثر حكمةً ورحمةً … جلالتكم أم جوكون (مؤسس أسرة جو)؟»، فأجابه الملك: «ما هذا القول؟ وأين أنا منه (… لست أهلًا لأن يُذكر اسمي مع اسمه، فكيف بك تقارن بيننا!).» فقال تشن جيا: «كان جوكون قد أرسل أخاه الأكبر كوانشو إلى دولة «يين» مشرفًا عامًّا على البلاد، بأمر الملك، ثم فوجئ جلالته بأنَّ أخاه هذا يقود دولة يين في عصيانها الشعبي الجارف ضده «فإذا تصَّورنا أن …» الملك جوكون كان يتوقَّع مثل هذا التصرف، وبرغم ذلك فقد ولَّى أخاه هذا المنصب، فذلك ما لا يتفق مع سياسةٍ تقوم على الإحسان والرحمة، أمَّا إذا قلنا بأنَّه ما كان يتوقَّع أن يتصرف أخوه على هذا النحو، وإلَّا لما عينه في وظيفته المشار إليها؛ فذلك مما ينزع عن الملك صفة الحكمة؛ بل ينفي عن جلالته الحلم والكياسة معًا، (فإذا كان ذلك هو الأمر مع جوكون، وهو مَن هو …) فما بالك لو كان الأمر بيدك؟ وأرجو من جلالتك أن تسمح لي بمقابلة منشيوس لأستوضح منه حقيقة تلك الأمور.»

فلمَّا التقى بمنشيوس ابتدره بسؤاله: «ما رأيك في جوكون؟»

فأجابه: «نِعم الرجلُ هو، كان من الحكماء والقديسين»، فقال له: «علمت أنَّه كان أرسل كوانشو مشرفًا على دولة يين، فإذا به يقود حملة عصيان عامة ضد سيده الذي أرسله ليحفظ النظام! ألم يكن ذلك هو ما حدث بالضبط؟»

– «بلى ذلك هو ما حدث تمامًا.»

– «وهل كان جوكون يدرك أنَّ سيحرِّض الأهالي على التمرد، فعيَّنه في منصبه على الرغم من ذلك؟»

– «أبدًا، لم يكن جوكون يعلم مسبقًا ما سيقدم عليه أخوه.»

– «إذن فالحكماء القديسون، هم أيضًا يخطئون!»

فقال منشيوس: «جوكون كان الأصغر سنًّا؛ بينما كوانشو هو الأخ الأكبر، ومن المعقول جدًّا أن يُخطئ الصغير، أليس كذلك؟ «أليس من المعقول أن تقوم بين الإخوة الأحقاد والضغائن!» ثم إنَّ السادة من ذوي الخلق الكريم كانوا، فيما مضى يُسارعون إلى تصحيح أخطائهم؛ أمَّا سادتنا الأفاضل في زماننا هذا، فيقعون في أخطاء بشعة ويغضُّون الطرف عن المراجعة والتصويب.

كانت أخطاء «الملوك» القدماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، ظواهر كبرى تراها عيون الناس جميعًا، تختفي حينما تنصلح الأحوال ويصحو المخطئون من غفلتهم «فيصححون أخطاءهم»، ويتجلَّى صلاحهم لكل عين ناظرة؛ أمَّا أخطاء سادة هذا الزمان، فلطالما تُرك لها الحبل على الغارب، تسير وشأنها دون رقيب أو حسيب؛ بل تُحيط بها هالات من بديع الكلمات، تُداري عوارها وتزيِّن بالتزييف شنارها.»

(٤–١٠) استقال منشيوس من وظيفته التي كان مُعينًا بها (من قِبل دولة تشي)، وأخذ أهبته للعودة إلى بلاده، والتقى أثناء ذلك بملك تشي، الذي قال له:

«كنت أشتاق إلى التعرف إليك في أول الأمر دون جدوى، ثم أتيح لنا أن نلتقي معًا وأن نتعاون في كثير من الأمور، مما أشاع في قلبي السعادة؛ فأمَّا ما تزمع عليه اليوم من مغادرتنا والرحيل عنَّا «فهو يُحزننا كثيرًا ... ويُثير التساؤل عمَّا ...» إذا كان ممكنًا أن نلتقي بك ثانيةً؟»

فأجابه: «هذا ما لا أجسر أن أطلبه من جلالتك، لكنَّه عين ما أتطلَّع إليه وأتمناه.»

وبعد أيام التقى ملك تشي بأحد وزراء دولته «شيتز»، وقال له: «أريد أن أُقيم منزلًا لسُكنى منشيوس في قلب العاصمة، وأن أُمِده بكل ما يلزمه هو وتلاميذه من الطعام والشراب [حرفيًّا: له مئات الآلاف من أجولة الطعام] كي يقتدي به الوزراء، ويتعلَّم منه الأهالي، فلماذا لا تذهب إليه على الفور، فتكلمه في هذا الأمر عن لساني؟»

ثم ما لبث «شيتز» أن قام بتكليف «تشن تسي» (أحد تلاميذ منشيوس) بالتحدث مع أستاذه في هذا الشأن، وبالفعل قام تشن تسي بإبلاغ الحكيم بما كُلِّف بنقله، حرفيًّا.

فردَّ منشيوس على ذلك في دهشة، قائلًا: «ولماذا يتصوَّر «شيتز» أنَّ الأمر بعيد المنال، «وأقول بهذه المناسبة:» إنَّني لو كنت أريد الثروة والمال حقًّا فهل يُعقل أن أرفض راتبًا مقداره مائة ألف وزنة من المال، فيما كان متاحًا لي منذ زمان مضى، ثم أقبل هديةً لا يزيد مقدارها على عشرة آلاف وزنة فقط! كنت قد سمعت أحد أتباعي (جيسون) يقول ذات مرة: «ليس في الدنيا أغرب من المدعو «زيشوي»، ذلك الذي حاول جاهدًا أن يعمل بوظيفة رسمية (بالقصر الملكي) فلمَّا رُفض طلبه، راح يسعى جاهدًا لكي يُلحِق أخاه الأصغر في منصب حكومي مرموق.

وإذا كان من الطبيعي والمفهوم أن يسعى الناس إلى امتلاك الثروة والجاه، فإنَّ الشيء غير المفهوم بالمرة هو أن يسعى أحدهم إلى احتكار كل الثروات والمزايا لنفسه دون الآخرين. كان الناس قديمًا يتاجرون بمبادلة ما يملكون من أشياء مع ما يعرضه الآخرون مما يحتاجون إليه، على أنَّ عملية المبادلة لا تتم إلَّا تحت إشراف الأقسام الحكومية المسئولة، وأحيانًا كان أحد التجار من السفهاء وأولاد الطريق يُحاول أن يستأثر لنفسه بمكان بارز وسط السوق، يجعله محط الأنظار (يراه الزبائن إذا تطلَّعوا في أي اتجاه) فلا يفلت من حبالته صيد الربح الثمين، وكان مثل ذلك التاجر موضع كراهية وازدراء الناس جميعًا بوصفه سفيهًا لا خَلاق له؛ مما جعله عرضة «للعقاب الرسمي بواسطة» دفع مبلغ يلتزم به كضريبة، ومنذ ذلك الحين، وبسبب ذلك التاجر السفيه، نشأ نظام الضريبة».»

(٤–١١) مرَّ منشيوس في طريق رحيله عن دولة تشي ببلدة تشو (بلدة صغيرة على الحدود الجنوبية الغربية لدولة تشي)، فنزل بها ليبيت ليلته هناك، فجاء إليه أحد الأهالي وأراد أن يُضيِّفه في منزله «باسم جلالة الملك»، ثم جلس بكل الاحترام بين يديه، وتكلَّم معه ببالغ التوقير، إلَّا أنَّ منشيوس لم يكترث له ولم يحفل بكلامه؛ بل ظلَّ متكئًا على سريره يتثاءب في تكاسل واسترخاء، فغضب الرجل وصاح قائلًا: «لقد ظللت يقظًا «في انتظارك» منذ يومين، ولم يدخل جوفي فيهما طعامٌ حتى شرفتنا بزيارتك، فجئت أتحدَّث إليك، فتشاغلت عني بالتثاؤب، وضربت صفحًا عن محاورتي إياك، فلن أسعى، بعد اليوم، إلى مقابلتك!»

فقال له منشيوس: «أقبل واجلس ها هنا أكلمك، واسمع مني قولًا أحدثك به صراحةً؛ أما علمت أنَّ واحدًا مثل النبيل «لومو» ما كان له أن يُدخل الهدوء على قلب «زيس» (حفيد كونفوشيوس) إلَّا بما قام به من ترتيبات يضمن بها السهر على رعاية حفيد

الشيخ الأكبر العظيم؛ وبالمثل أيضًا، فما كان ممكنًا لـ «لومو» نفسه أن يجد مَن يعتني به إلَّا بفضل ما بذله من أجله كل من «شيليو»، و«شين شيانغ» (إذ عهدا إلى خادم بمرافقته والقيام على راحته)، فكيف أصدق أنَّك تريد لي الراحة «وأنا الشيخ الهَرِم» وأنت لم تسلك معي بعدُ بالاحترام اللائق الذي بذله لومو لـ «زيس»؟ إلَّا أنَّك أنت الذي قصَّرت في واجبك نحوي، ولم أكن أنا الذي أخطأتُ في حقك!»

(٤–١٢) لمَّا غادر منشيوس أرض تشي؛ راح «يين تشي» (أحد الأهالي) يردد أمام الناس قولًا مفاده: «إن لم يكن منشيوس يدري، من أول الأمر، أنَّه سيعجز أن يصنع من الملك (حاكم تشي) رجلًا في قيمة «الملك المقدس» شان طانغ، أو في مكانة الإمبراطور العظيم «أو»، فهذا دليل على سذاجته وقلة تبصره؛ فأمَّا إذا كان قد جاء إلى جلالته وهو يعلم، منذ البداية، أنَّه لا جدوى من كل جهوده معه، فهو لم يأتِ، إذن، إلَّا سعيًا وراء المال والجاه والحظوة، ثم إنَّه بعد عناء السفر وطول الرحلة، لم يلبث إلَّا يسيرًا حتى وقع الشقاق بين الملك وبينه، ومع ذلك فقد راح يتلكأ في طريق عودته إلى بلاده، حتى أنَّه ظل يبيت عدة أيام في بلدة «جو» بدلًا من أن يُسرع الخطى براحلة السفر! يا لها من أمور تضيق بها النفس الكريمة!» ... ثم إنَّ كاوتزي أبلغ منشيوس بمحصلة ذلك، فقال الفيلسوف الحكيم: «وكيف يُمكن ليين شي أن يُدرك خفايا شئوني الشخصية على هذا النحو؟ فلم أقطع المسافات الطوال سعيًا للقاء جلالة الملك؛ إلَّا لأني كنت آمل في التشرف بالمثول بين يديه، أمَّا أنِّي رحلت عن بلاده بعد أن تبدَّدت كل فرص التفاهم الودي، فهذا أمر لم أكن أريده ولا سعيت إليه؛ ولم يكن هناك مفر من مواجهته مهما فعلت! «تلك أحكام الضرورة»؛ ولئن أقمت في بلدة «تشو» ثلاث ليال؛ فلأنِّي كنت مرهقًا بسبب السفر، ثم إنِّي ندمت على التسرع في الرحيل، وظننت أنَّ جلالة الملك قد تراجع عن أفكاره وهو ما يعني أنَّه يُمكن أن يأمر باستدعائي للقائه، فلمَّا لم يحدث شيء من ذلك؛ رحلت عن البلدة المذكورة، وهو القرار الذي اتخذته بشكل قاطع، فهل يُمكن «على ضوء تلك الوقائع» الوصول إلى استنتاج بأنَّني تباعدت عن جلالة الملك!

هذا، ويعلم الجميع أنَّ ملك تشي يُراعي المصلحة العامة في كل قراراته، فإذا قرَّر أن يُسند إليَّ وظيفةً ما، فلا بد أنَّه يُدرك تمامًا أنِّي، من خلال ذلك المنصب، سأعمل لما فيه استقرار مواطني الممالك كافةً، ليس فقط أمن وسلام مملكة تشي وحدها، «وكثيرًا ما أتأمَّل وأفكر وأقول لنفسي ...» لعل الملك يُغير موقفه (فيما بيني وبينه من نقاط الاختلاف،) فهذا ما أنتظره وأتمناه باستمرار، فليس لي أن أتصرف على نحو ما يفعل

السفهاء «وقصيرو النظر أولئك ...» الذين تتقلَّب جُنوبهم على لهيب الغضب ويتطاير من عيونهم شرر الاستنكار، إذا ما أغفل الملك آراءهم وتوصياتهم، ورفض الأخذ بنصائحهم، فيستقيلون من مناصبهم ويخوضون في متاهات وطرق السفر والترحال، ولا ينزلون عن رواحلهم إلَّا بعد طول مشقة وعذاب!»

فلما تناهت تلك الكلمات إلى سمع يين شي، تنهد قائلًا: يا لحقارتي وضعةِ نفسي!

(٤–١٣) تقدَّم «تشون يو» إلى منشيوس، وهو على طريق الرحيل عن دولة تشي، وسأله قائلًا: «ما لي أرى سحابات الحزن تغمر وجهك يا سيدي، وقد سمعتك تقول فيما مضى بأنَّه لا ينبغي للماجد الكريم أن يعبس بوجهه غضبًا من قدر السماء، ولا أن يطرق برأسه حزنًا من ظلم الأرض.»

فردَّ عليه منشيوس: «ما كان منذ حين فقد مضى في حينه، وما يكون الساعة فهو الكائن «وفي دورات التاريخ المتعاقبة» لا يكاد ينقضي من الزمان خمسمائة عام حتى يظهر حاكم قديس وأعوان تذيع شهرتهم في الأسماع، وإذا أحصينا الأعوام منذ بداية عصر أسرة جو «منذ أول سِني حكم الملك أو» حتى الآن، وجدنا أنَّها تبلغ سبعمائة عام تامة، فهي قد تجاوزت، بالأعداد، خمسمائة عام المشار إليها، أي أنَّه من المعهود أن تشهد الأحوال الحاضرة «ظهور القديس – الملك، وأعوانه» غير أنَّ إرادة السماء تأبى أن ينزل على الأرض السلام؛ ذلك أنَّها لا ترضى أن تمدني بمَن يشد أزري في مواجهة الأحوال العامة التي تُحيط بي من كل جانب، أفلا يصير ذلك مدعاةً للحزن والأسى؟»

(٤–١٤) لمَّا غادر منشيوس دولة تشي وأقام في بلدة شيو (القريبة من مسقط رأسه) ذهب إليه كونسون شو، وسأله: «هل من آداب المعاملات (المستقرة من قديم الأزل) أن يظل المرء قائمًا بمهام وظيفته الرسمية، حتى دون أن يتسلَّم راتبه المقرر؟» فأجابه: «لا، ليس ذلك من أصول المعاملات في شيء، «وحقيقة الأمر أنِّي» بعد لقائي بجلالة الملك في منطقة «تشون» عدت وفي نيتي أن أستقيل من وظيفتي، ولمَّا كنتُ قد عقدتُ العزم على ذلك، فلم يكن لي أن أقبل استلام أي راتب رسمي، وفي تلك الأثناء، قامت الحرب، وتعطَّلت إجراءات وترتيبات السفر، فاضطررت للإقامة الطويلة في تشي، وهو الأمر الذي لم يخطر لي ببالٍ ولا كنتُ أصبو إليه.»

الباب الثالث

تنغ وان

الجزء الأول

وجملته خمسة فصولٍ

(٥–١) لما كان الماجد الأشرف «أون» عظيم دولة تنغ في مرتبة الإمارة (قبل أن يترقى إلى سُدة الحكم) قاصدًا الذهاب إلى دولة «تشو» فقد مرَّ في طريقه بدولة «شونغ»، والتقى بالفيلسوف منشيوس، الذي كان منهمكًا في أقواله حول «الطبيعة الإنسانية المجبولة على الخير»، وبطبيعة الحال فقد امتدَّ الحديث حتى ذكر طرفًا من سيرة «الملكين الحكيمين» «ياو»، و«شون».

ثم إنَّ عظيم دولة «تنغ» [الأمير أون وقتئذٍ] مرَّ في طريقه وهو عائد من دولة تشو بالحكيم منشيوس أيضًا. فقال له: «هل تشك في كلامي يا سُمُو الأمير، إذا قلت لك ليس هناك سوى مبدأ واحد صحيح لكل الأشياء، وقد حدث ذات مرة أن تكلم «شنجيان» (أحد أبطال دولة تشي) مع عظيم دولة تشي «جينكون» فقال له: «إنَّ هؤلاء جميعًا بشر، مثلما أنا بشر أيضًا، لا فرق بين أحد من الناس، فلماذا ينبغي أن يخشى بعضنا بعضا؟» وبهذا المعنى تحدث يان يوان، فقال: «إنَّ مثلي مثل الملك الحكيم شون؛ بل كل مَن قدَّم إنجازًا تاريخيًّا خالدًا، يقف معه على قدَم المساواة ويحظى بمثل مكانته القديرة.»

وقال «كون مينغي» (من تلاميذ سنغ زي، الشيخ الكونفوشي الكبير): «قد كان الملك أون أستاذي ومعلمي الذي عرفت الحكمة على يديه، فكيف يمكن لواحد مثل النبيل الماجد «تشو» أن يخدعني (مَن تعلم على يد الملوك فلن يمكن لأعظم الأمراء أن يخدعه بسهولة!)، وأرى أنَّ دولة تنغ تقع على مساحة من الأراضي يبلغ محيطها ما يقرب من خمسين لي

متكاملة، «وهي مساحة صغيرة، لكنها ...» تتوافر فيها شروط تأسيس دولة ناجحة»، وقد ورد في كتاب «الشِّعر القديم»، ما نصه:

«لن يذهب عنك الداء
ما لم يتجرع حلقك مرَّ الدواء،
ويتخبط رأسك الألم، وتدمع الأجفان».»

(٥–٢) لَّما توفي الملك «دين» عظيم دولة «تنغ» ذهب الأمير يستشير أستاذه «رانيو» قائلًا له: «كنتُ قد التقيتُ — وأنا بدولة سونغ، منذ زمان — بالحكيم منشيوس، وقال لي كلامًا ما زلت أذكره حتى هذه اللحظة، أما وقد ألمَّ بنا هذا المصاب اليوم فإنِّي أريد أن أرسلك إلى منشيوس تسأله النصح والمشورة قبل البدء في طقوس الدفن والعزاء.»

وبالفعل فقد ذهب رانيو إلى دولة «تسو»، حيث التقى بالشيخ الحكيم، وطلب إليه أن يشير عليه بما يجب عمله «في هذه الظروف ...»، فقال له: «إن كنتَ جئتَ تسألني عما ينبغي عمله، فنِعم مجيئُك إذن؛ لأنه يجب على المرء أن يبذل كل اهتمامه وعنايته فيما يليق بطقوس دفن والديه؛ وكان الحكيم سنغ زي قد قال ذات مرة: «لا بد أن يكون الوالدان موضع رعاية الأبناء وهم على قيد الحياة، فإذا قضيا نحبهما، أُقيمت لهما طقوس جنائزية على النحو الذي تقضي به الأصول والآداب، وقُدمت لهما الأضحية عند قبريهما، فذلك من البر والرحمة؛ فأما بخصوص آداب إقامة طقوس الدفن عند الأمراء وقادة الممالك، فليس عندي شيء مما تقضي به الأصول (المدارس الفكرية) في ذلك؛ إلا أنِّي سمعتُ «أنَّ الأعراف تفرض» ارتداء ثياب الحداد الخشنة غير المخيطة مدة ثلاث سنوات، وألَّا يُقدم على الأسمطة من الطعام إلَّا حساء الأرز، فريضةً على كل من مات والداه، يستوي في ذلك الكل من ملك وحاشية ورعية، من أرفع القوم قدرًا إلى أدناهم، فذلك هو التقليد الراسخ منذ أيام الأسرات الملكية الثلاث القديمة (شيا، شانغ، جو).»»

وعاد رانيو أدراجه فأبلغ الأمير بما دار، وهنالك قرر سموه أن تُقام مراسم العزاء مدة ثلاث أيام؛ إلا أنَّ شيوخ القوم وكبار رجال الدولة ضجوا بذلك القرار ولم يذعنوا له، قائلين إنَّهم لم يسمعوا بشيء من ذلك فيما عرفوا من سيرة أجداد وملوك دولة «لو» الأقدمين، ولا ورد لهم خبر يقضي بصحة تلك الطقوس فيما عرفوا من آبائهم وأجدادهم في دولة «تنغ»، فليست هذه إلَّا بدعًا وضلالات من لدن «أمراء هذا الزمان»، وهو ما لن يقبلوا به أبدًا، هذا فوق ما طالعوه في كتاب «التاريخ»؛ حيث ورد ما نصه: «يجب الالتزام

في إقامة طقوس العزاء ومراسم تقديم القرابين بما قرره الأجداد من قديم»، واجتمعت كلمتهم في ذلك بأنَّه «يجب اتباع ما تواصى الأقدمون بالعمل به»، وعندئذٍ قال الأمير لأستاذه: «لم ألحظَ من مطالعتي في العلوم بالشيء الكثير؛ ذلك أنِّي كنتُ أهوى الفروسية وألعاب السيف، وأرى أنَّ جهلي (بأمور الحداد والعزاء وطقوس الدفن) قد أثار عليَّ غضب الشيوخ والحكماء والمقدمين من رجال الدولة، وربما كان من نتيجته ذلك أن أقع في مزيد من التقصير عن إقامة الحداد الرسمي وطقوس التعزية، فاذهب ثانيةً، إلى منشيوس وانظر ماذا تجد عنده من المشورة في هذا الأمر.» فسافر رانيو إلى دولة تسو مرةً أخرى وقابل الشيخ الجليل الذي أجاب بقوله: «نعم، هذا عين الصواب، وليس من الحكمة أن نطلب من الناس إتيان ما يتجاوز طاقتهم، وقد قال كونفوشيوس في هذا المعنى قولًا مفاده:

«إذا تُوفِّي الملك، آلت شئون الحكم إلى رئيس الوزراء؛ «... أما الأمير ف» لا يَرفع إلى فمه إلَّا حساء الأرز، حتى يمتقع وجهه كمدًا وحزنًا، ويظل مقيمًا بمكانه وهو يذرف دموع الحزن. وعلى الوزراء وكبار المستشارين الاجتهاد في إظهار مشاعر الأسى؛ اقتداءً بأميرهم وكبيرهم، إنَّ إرادة الكبار غالبة وواجبة على كل مَن هو دونهم. إنَّ سلوك النبلاء كالريح الرامح في الأجواء، أمَّا تصرفات العامة والدهماء فكأنَّهما أعواد النبات التي لا معدل لها عن الميل باتجاه الريح، فالأمر كله يصير إلى الأمير، في أول الأمر ومنتهاه.»

وعاد رانيو ليبلغَ الأمير بما سمع، فإذا بسموِّه يقول له: «هذا هو القول الصحيح، فالأمور تصير إليَّ في كل الأحوال!»، ثم إنَّ الأمير راح ليقيم في كوخ الحِداد مدة خمسة أشهر «كما هي العادة بالنسبة للأمراء، حيث يقيمون في أكواخ جافة غير مبنية بالطوب، ولو أنَّ القاعدة الأخلاقية تنص على ألَّا تقل مدة الإقامة للأمراء عن سبعة أشهر، وللنبلاء خمسة أشهر متصلة» دون أن يتدخل في سلطة إصدار أيَّة قرارات قيادية [حرفيًّا: دون إصدار قرارات بالتصديق أو الحظر].

وهو الأمر الذي لقي استحسان الكافة، من العامة والخاصة؛ حيث عُدَّ سلوكه على هذا النحو مطابقًا للمفهوم والمعهود من الشرائع والعادات، فلما حان موعد إقامة طقوس الدفن توافدت الجموع لمشاهدة المراسم، وظهر وجه الأمير متجهمًا مغبَّرًا تعلوه مشاعر الحزن الشديد، تفيض على وجنتيه الدموع، فكان ذلك من دواعي الغبطة والرضا [هكذا] عند وفود المعزِّين جميعًا.

(٥–٣) التقى الأمير «أون» عظيم دولة «تنغ» بمنشيوس، فسأله في عدة موضوعات بشأن مبادئ سياسة الممالك، فقال الشيخ الحكيم: «إنَّ شئون الحكم ومصالح الناس ليست من الأمور التي تحتمل الإهمال، وقد ورد في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«أكرم بمَن خرج في نهاره ليحتطب،
وعاد في المساء ليفتل بأكفٍّ صلبة أوتادَه،
وظل ساهرًا يرتق ثغرات في الجدار،
ثم صحا ليحرث أرضه،
ويبذر زرع الربيع.»

أما الأحوال التي تكتنف حياة الناس فهي على هذا النحو، لطالما كان ذوو الدخول الثابتة من الناس يعيشون حياةً هادئةً والعكس صحيح، فإذا تكدرت الأحوال بسبب عدم ثبات الدخول انتشرت الفوضى ودبَّ الانحلال وعمَّ الفساد «… وصار كل فعل جائزًا، وكل أمر يؤتي بغير ضبط ولا ربط»، حتى إذا شاعت الجرائم أخذت بنواصيها أحكام القضاء وعقوبات القانون؛ مما يعد اتهامًا كيديًّا ومزورًا يمس شرف الناس، فكيف يمكن أن يُقال بأنَّ نظام الحكم قائم على الرحمة والإنسانية؛ بينما هو يتهم الناس زورًا وبهتانًا؟

وهكذا فينبغي على «الملك» الحكيم أن يأخذ الأمور بالحذر والحيطة، وأن يتواضع في خُلقه، ويقتصد في نفقاته، ويتقرَّب إلى البسطاء ويُلين لهم جانبه، ولا يفرض على الناس ضريبة إلا بقدر محدود ومعلوم، ولقد تحدث يانخو (أحد كبار الوزراء بدولة لو) مرةً، فقال: «إنَّ الباحث عن المال لن يكون رحيمًا، والساعي إلى العطف والشفقة لن يصير ذا مال.» (كان نظام جباية الضرائب في الأسر الملكية الثلاث الماضية كالتالي:) في أسرة «شيا» جرى فرض نظام «قونغ» (التحصيل الجبري) على كل أرض بلغت مساحتها خمسين «مو».

وأثناء حكم أسرة شانغ، كانت الضريبة المسماة بـ «تشو» (أي المعونة) تُجبى من كل أرض مساحتها سبعون «مو».

أما في أسرة «جو» فقد كانت تؤخذ ضريبة الـ «تشي» (الخراج التام) عن كل مائة «مو» كاملة من الأراضي؛ والحق أنَّ نسبة الضرائب في كل ذلك لم تتجاوز مقدار العشر.

والمقصود بنظام «التشي» (الخراج التام)، هو العمل على التحصيل الكلي للضريبة؛ أما نظام الـ «تشو» [المعونة] فهو يُشير إلى الاستعانة بالعاملين في زراعة الأراضي التي في الحيازة العامة.

وقد قال «لونزي» (أحد حكماء العصر القديم) ذات مرة: «عند العمل بنظام التحصيل الضريبي على الأراضي، فليس هناك أفضل من نظام «المعونة»، وليس أسوأ من نظام الـ «قونع» [التحصيل الجبري]»، ففي هذا النظام الأخير، يجري احتساب متوسط حصاد عدة سنوات كمعيار محدد لتحصيل الخراج، وعندما يحل عام حصاد وافر، توضع الغلة أكوامًا مكدسةً، وتزاد نسبة الضريبة المقررة عليها شيئًا قليلًا بما لا يبلغ حد التجني الفادح؛ أما في سنوات القحط، عندما تقصر الأرض والحصاد عن الوفاء بما بذل في التسميد والبذار من جهد، فليس أقل عندئذٍ من تحصيل النسبة التامة للضريبة المقررة.

كيف لَمن يزعم لنفسه مكانة الأب الحامي والأم الرءوم لشعبه، عندما تمتلئ صدور الناس منه غضبًا، «وتنظر إليه العيون شزرًا»، ولا يفيد أحد من جهده مهما اجتهد لأجل الغير؛ بل يجد رعاياه من الفاقة والمشقة ما يضطرون معه إلى الاستدانة للوفاء بما تقرر عليهم من جزية، مما يؤدي ببعضهم إلى الهلاك، «... فتجد الشبان والشيوخ، والآباء والأبناء قد لقوا حتفهم في قيعان الوديان»؛ أيستحق مَن يتعذَّب الناس تحت سلطانه، أن يُسمي نفسه مثل هذه الأسماء (الأب الحامي ...)؟

ثم إنَّ كبار الموظفين ينعمون على مرِّ الزمان بالحصول على رواتب حكومية متميزة وهو نظام تأخذ به دولة تنغ من زمان بعيد (في حين لا يملك العامة شيئًا يقيم أودهم) وقد ورد في كتاب «الشِّعر القديم» — في هذا المعنى — ما نصه:

«فلتسقط قطرات المطر
فوق كل الأرض [الحيازة العامة]،
حتى إذا فاض القطر،
ارتوت منه حقول آحاد الناس.»

ومن ثم فلن تقوم لنظام الحيازة العامة قائمة إلَّا بواسطة تطبيق الجباية الضريبية المسماة بـ «المعونة»، ويتضح من أبيات الشِّعر السابقة أنَّ دولة «جو» كانت (في قديم الزمان) تُطبق هذا النظام أيضًا. ولا بد من إقامة مؤسسات تربوية لنشر العلم والأخلاق بين الناس، «والمؤسسات من هذا النوع تنقسم إلى:» «شيانغ»، بمعنى المدرسة التأهيلية، و«شياو» أي المدرسة التوجيهية، وشيو، التي تفيد «مدرسة الرماية». وكانت تلك المؤسسات التربوية المحلية تتخذ أسماءً مختلفةً في كل أسرة ملكية على حِدة؛ «فمثلًا» كان يُطلق عليها في أسرة شيا الحاكمة اسم «شياو»، ثم أصبح الاسم «شيو» إبان أسرة شانغ، أمَّا

في عهد أسرة جو فقد صار اسمها «شيانغ» (هذا بينما أُطلق عليها جميعًا في الأُسر الثلاث مؤسسات تربوية محلية، اسم «شيوي»). وكانت مهمتها إرساء قواعد المعاملات والأخلاق العامة، وهي مجموعة المبادئ التي إذا ما استقرت في وعي وسلوك السادة المهذبين (النبلاء، كبار الموظفين) نشأ الود والتفاهم بينهم وبين العامة؛ «ذلك أنَّه» إذا تأسس سلطان الحكم على الحكمة والفضيلة اقتدى به الناس جميعًا، وهو ما يجعل من عرشكم (إذا ما وعيتم هذا النصح) منارًا للحكمة، «ويجعل من جلالتكم شيخًا وأستاذًا لكل مريد.»

وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم، ما نصه:

«لما أصابت يدُ البِلى
دولةً قديمة العهد،
كدولة جو،
أفاء عليها القدَرُ
بنعمة الشباب المتجدد،
(في شخص الملك الأكرم!)

ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه الأبيات وردت في مديح الملك أون (حاكم دولة جو)، فما عليك، يا مولاي، لو بذلت جهدًا أكبر لتحقق الازدهار المنشود، فيتجدد شباب وطنك بعزمك وإرادتك.»

ثم إنَّ الملك «ون» (حاكم دولة تنغ) أرسل وزيرة «بيتشان» إلى منشيوس ليسأله حول موضوع نظام تقسيم الأراضي (نظام المربعات التسعة)، فلما استقبله الحكيم قال له: «ما دام أستاذك (مليكك) قد اختارك دون الآخرين جميعًا لأمر يريد به سياسة رشيدة تقوم على الرحمة والإنسانية، فلا بد أن تعمل كل جهدك لإتمام ما جئت لأجله على خير وجه؛ أما بالنسبة للسياسات التي تستهدف العمل بمبادئ الرحمة والإنسانية، فإنَّ أول ما ينبغي أن تأخذ به هو تعيين حدود تقسيم الأراضي الزراعية؛ ذلك أن العبث في هذا الأمر أو التقسيم غير المتكافئ يتسبب في توزيع جائر للأجور والمرتبات، وهو الأمر الذي يفتح الطريق أمام استبداد الحكم وفساد الإدارة الحكومية كي تتمادى في العبث بحدود التقسيم. وهكذا، فليس هناك سوى حلٍّ واحد لضمان تحديد الأجور وتوزيع أنصبة الأراضي على نحوٍ عادل بين الناس، ألا وهو التقسيم المتكافئ لحدود الأراضي.

من المعلوم أنَّ أرض دولة تنغ ضئيلة المساحة، «ومع ذلك فأيًّا كانت مساحة الأراضي في أي بلد»، فيجب أن يدخل الإدارة الحكومية موظفون رسميون (جُدد)، ولا بد أيضًا أن يكون هناك فلاحون لزراعة الأراضي، فبدون رجال الإدارة يتعذر تنظيم عمل المزارعين، وبغير فلاحين، لن تقوم لرجال الإدارة الحكومية قائمة (لن يجدوا مَن يعول حياتهم)، ومن ثم فيجدر اقتطاع نسبة التُّسع، في المناطق البعيدة عن مراكز المدن الكبرى عملًا بنظام الجباية «بالمعونة»، أما في المناطق الحضرية ومراكز الأقاليم فيجري العمل بنظام الـ «قونغ» أي خراج الأراضي الإلزامي؛ حيث تقتطع نسبة العُشر من حصيلة إنتاج الأرض الإجمالية، ومن حق كبار الموظفين وصغارهم، سواءً بسواء، أن يحوزوا أراضيَ مخصصة لإقامة طقوس القرابين (قويتيان)، لكل فرد منهم خمسون «مو»، على أن تزيد تلك النسبة خمسة وعشرين «مو» إضافية، إذا كان هناك فائض في عدد العاملين بالأراضي، ولا يجوز لأي شخص أن يجاوز حدود القرية أو المدينة محل إقامته لأي غرضٍ كان (حتى لو كان الغرض إنشاء مقبرة للدفن، أو الانتقال إلى مسكن جديد)، وكل مَن يشتركون بحكم الجوار في قطاع واحد من تسعة مربعات «من الأرض» يحافظون على علاقات طيبة ويسود بينهم حسن الجوار، سواء في الذهاب والإياب، أو الإقامة والسفر؛ يتناوبون الدفاع عن ممتلكاتهم، ويتزاورون في حال المرض والأزمات فيعم بينهم التآخي والتآزر.

«ويكون التقسيم قائمًا على أساس أنَّ ...» لكل مِيل مربع منطقة من المربعات التسعة، كل منطقة منها تبلغ تِسعمائة «مو»، ووسط كل مائة «مو» يقع حقل جماعي، ويوزع على كل ثمان عائلات أرض خاصة بهم تبلغ مائة مو، على أن يشترك الكل في زراعة الحقل الجماعي؛ بحيث لا يملك أحد أن يباشر شئونه الخاصة إلا بعد الانتهاء من العمل المكلف به تجاه الأرض ذات النفع العام، هناك يكمن الفرق بين مسئوليات الموظفين العموميين والمزارعين.

وليس هذا كلُّه سوى إطار عام «للأفكار»، أمَّا فيما يتعلق بكيفية الضبط، والإنجاز على أتم وأكمل وجه ممكن، فذلك شأنك أنت وجلالة الملك؛ (حيث يبرز دوركما ومقدرتكما الفذة على العمل والإبداع).»

(٥–٤) نزل على الملك «تنغ» — حاكم دولة «أون» — ضيف قادم من دولة تشو، يدعى «شيوشين»، وهو من أتباع مذهب الإله «شن نونغ» (إله الزرع والحصاد، في قديم الزمان، الذي علَّم الناس كيفية استخدام أدوات الزراعة واكتشف أسرار الطب والدواء)، ثم إنَّه تحدَّث إلى جلالته، فقال: «بلغني أنَّ جلالتك تحكم بسياسةٍ تقوم على الرحمة والعدل،

فجئتُ من أقصى البلاد قاصدًا أرضك أملًا أن تمنحني دارًا للسُّكنى وتجعلني تحت تاجك، واحدًا من رعيتك»، فأعطاه الملك ما طلب، وكان رفاق الرجل وأتباعه كثيرين، يرتدُون خشن الثياب، ويتكسَّبون معاشهم من صناعة الحصير والسلال والأحذية الكتانية.

وفي ذلك الوقت كان «تشن شيان» (أحد تلاميذ «شن ليانغ») وأخوه الأصغر «تشن شين» قادمَين من دولة سونغ، في طريقهما إلى «تنغ» يحملان أدوات الزرع والفلاحة، فلما مَثُلا بين يدي الملك قالا له: «سمعنا أنَّ جلالتك تسير في الناس بسياسةٍ رحيمة، مثل الحكماء القديسين، وإنَّا نراك شيخًا فاضلًا حكيمًا، وينبغي أن نكون من رعاياك»، فلما التقى تشن شيان مع شيو شن اغتبط كلاهما بتعارفهما، ونبذ تشن شيان ما كان قد تعلَّمه على يد أستاذه السابق «تشن ليان» وصار تابعًا لصاحبه الجديد، يترسَّم خطاه، ويتعلم على يديه.

وكان تشن شيان قد التقى مع منشيوس، فحدَّثه بما قال شيو شن من أنَّ ... «جلالة الملك أون — حاكم تنغ — هو الشيخ الحكيم، والرجل العاقل حقًّا، لكنه، برغم ذلك، لا يفقه القاعدة الأساسية لحكم الممالك؛ ذلك أنَّ الحاكم الفاضل هو مَن يفلح أرضه بنفسه، ويرتب مائدة طعامه بيديه، مثلما يدير شئون الممالك، ثم إنَّ دولة تنغ أصبحت الآن ذات مخازن هائلة للغِلال والأمتعة والأموال، مما يُعَدُّ إضرارًا بحياة الناس وأرزاقهم ... [بما يقف بينهم وبين استثمار المواد المكتنزة]، فكيف يُمكن أن يتسم الحاكم بالنجابة والقداسة؟» ... وعندئذٍ تساءل منشيوس قائلًا: «أيُمكن، إذن، أن يكون شيوشن ممن يزرعون أرضهم بأنفسهم، ويكسبون قوت يومهم بعمل أيديهم؟» فأجابه «تشن»: «نعم، هو ذاك حقًّا»، فسأله «منشيوس»: أيُمكن أن يكون شيو شن ممن لا يرتدون إلا الثياب التي ينسجونها بأنفسهم؟

– كلا، بل لا يرتدي إلا ثيابًا صوفية خشنة.

– وهل يرتدي قبعةً.

– نعم.

– وما شكلها؟

– قبعة من حرير أبيض.

– أهي من غزل يده؟

– كلا، بلا ابتاعها مبادلةً ببعض الحبوب.

– فلماذا لم يغزلها بنفسه؟

– لأنَّه لا يريد أن يهمل زرعه.
– وهل يستعمل آلات الحرث الحديثة في فلاحة أرضه، والقدور في طبخ طعامه؟
– نعم.
– أهي أدوات من صنع يده؟
– كلا، بل أشياء ابتاعها مبادلةً.»

فقال له منشيوس: «أعندما يبتاع امرؤ أدوات الفلاحة وآنية الطبخ بمبادلة الحبوب، لا يُعد هذا إضرارًا للحدَّادين والفَخَّارين، أمَّا إذا أجرى هؤلاء مبادلة مع الآخرين، فأعطوهم الأواني وآلات الحرث؛ ليحصلوا بالمقابل، على الحبوب، أفلا يكون في ذلك بالغ الضرر بالمزارعين؟ ولماذا يتقاعس الفاضل الأكرم شيو شن عن أن ينشئ القمين فيصنع فيه الأواني، ويشعل التَّنُّور فيصهر فيه حديد المحاريث كي يضمن أن تكون كل أدواته من متاع بيته، دون أن يدخل في صفقه مبادلة بغير داعٍ مع الحرفيين والصُّنَّاع؟ لماذا يثقل كاهله بمتاعب لا لزوم لها؟»

«فأجابه تشين:» «إنَّ طبيعة عمل الحرفيين لا تسمح لهم بمزاولة تصنيع الأدوات بجانب فلاحة الأرض؛ فإما هذا أو ذاك.»

فقال منشيوس: «ما دام الأمر كذلك، فكيف نطلب من المسئول عن إدارة مملكة كبرى أن يملك القدرة على زرع الأرض، وحرث الحقول، ومتابعة مهامه في إدارة الشئون الحكومية في الوقت نفسه؟

إنَّ لكلٍّ عملَه الموكل إليه بإتمامه؛ فكبار المسئولين لهم مسئولياتهم المحدودة، وصغار الموظفين لهم أعمالهم المعهودة، ثم إنَّ المطالب الحيوية للناس تحتاج في إشباعها للجهود الوظيفية التي يقوم بها صاحب كل حرفة في مجاله، وإلَّا فإنَّ اشتراط قيام الفرد نفسه بصنع وإعداد كل ما يلزمه بيديه سيجعل من قيادة الدول والممالك مطلبًا يفوق حدود طاقة الجهد الإنساني؛ لذلك يقال عادةً «في الأمثال السائرة» بأنَّ الناس صنفان، «صنف يبدع بطاقته الذهنية وآخر يعمل بقدراته الجسمانية»، فالأول هو مَن يقود الناس والثاني هو مَن يُقاد غالبًا؛ فصاحب القدرة الجسدية هو الذي يقوم بما يحتاج إليه الناس في معاشهم من حاجات، أمَّا أصحاب الإبداع الذهني فهو الذي يعتمد على العامل بيديه في سد احتياجاته، وهذا مبدأ نافذ وشريعة عامة تحت السماء «… في كل مكان».

ولقد جاء على الأرض زمانٌ لم تكن تنعم فيه بالسلام والاستقرار — إبان حكم الإمبراطور الحكيم «ياو» — إذ فاضت الأنهار وسالت ضفاف البحار، وأغرق السيل

كل الأنحاء، وصار العشب كثيفًا وتشابكت أشجار الغاب وامتلأت الأرض بالوحشي من الدواب والطير، ولم تعد الحقول تنبت زرعًا مما يأكله الإنسان (المحاصيل الخمسة: البُر، والأرز، والذرة، والشعير، والدخن)، وصارت وحوش الطير تتهدد حياة البشر، وقد امتلأت اليابسة بالسباع الهائمة في كل درب، وآثار مخالبها محفورة فوق الأديم، مما أوقع الغم والضيق في نفس الملك الحكيم «ياو»، فأرسل مساعده «شون» ليضع الأمور في نصابها ويشرف على المسئوليات الجسام، وكان أول ما قام به شون هو أنَّه كلَّف «بوي» بالإشراف على آلات إشعال الحرائق؛ مما ساعده على القيام بإشعال لهب النار في الحشائش الكثيفة حول البرك والمستنقعات وفوق الوديان والجبال، فاندفعت أسراب الطير الهائمة تهرب إلى أعشاش بعيدة، وصدرت الأوامر للمسئول «يو» بتطهير القنوات النهرية [للبحار التسعة «حرفيًّا»، بمعنى: معظم القنوات والأنهار]، وهكذا فقد تمكَّن من تعميق نهرَيْ «تشي»، و«طاء»؛ مما ساعد على تصريف مياههما في البحر الكبير؛ بل إنَّه شقَّ أنهارًا جديدةً، مثل نهرَيْ «رو»، و«هانشوي»، وقام بتطهير المجرى المائي لكل من نهرَيْ «هواي»، و«سيشوي»، وأوصلهما بمجرى نهر جيانغ [أي: اليانغتسي]، وعندئذٍ، صار من الممكن لأهالي المناطق الوسطى أن يقوموا بزراعة الأرض وكسب العيش.

ثم شاءت الظروف للمسئول الكبير «يو» أن يواصل مهمة إصلاح القنوات والأنهار طيلة ثماني سنوات أخرى دون انقطاع، حتى إنَّه تصادف أن مرَّ بمنزله ثلاث مرات، دون أن يجد وقتًا لزيارة أهله وعشيرته لكثرة ما وُكل إليه من مسئوليات، فانظر وتأمَّل ... أيمكن لهذا المسئول الحكومي البارز أن يجد وقتًا لزراعة الأرض وحرث الحقول «... وهو الذي يكاد لا يجد فرصةً لزيارة عائلته؟!»

كانت «هوجي» (إلهة الزرع والحصاد) هي التي علَّمت الناس الزرع والحصاد وإنبات الحبوب الخمسة (كل أنواع الحبوب) مما كان يُقيم أود الرعية ويشبع بطونهم ويحفظ حياتهم. ثم برزت مسألةٌ مهمة في العلاقات الإنسانية، وهي أنَّ الناس إذا أكلوا فشبعوا، وارتدوا حَسن الثياب فنعموا بالدفء ورغد العيش، بعد إذ استقر بهم المقام في منازل آمنة دون أن يصيبوا شيئًا من العلم، صاروا كالبهائم والوحوش والجوارح؛ مما أثار قلق واهتمام الملك الحكيم خشية أن يصل الحال برعيته إلى تلك الدرجة، فكلَّف الوزير «شيه» بمسئولية الإشراف على توعية الناس وتنويرهم بمبادئ الأخلاقيات «كي يفهموا ويحسنوا إدراكَ» أنَّ العلاقة بين الأب وولده تقوم على المودة. وبين الملك ووزرائه،

فالعلاقة أساسها الاحترام والتقدير. أمَّا ما بين المرء وزوجه فالأساس هو تقدير الفارق الجوهري بين وظيفة كلٍّ منهما ودوره. وبين الصغير والكبير، فهناك فارق السن. وما بين الأصدقاء ترتكز المعاملات على الوفاء والإخلاص.

وقد قال الإمبراطور الحكيم «ياو» — في هذا الشأن — (وهو ينصح وزيره المكلف بمهمة التثقيف الشعبي قائلًا له): «ابذل لهم (الناس) كل التقدير والتحية والرفق، والتوعية، والإرشاد، والعون، والحماية، والاهتمام الصادق؛ كي يجد كل واحد منهم بغيته فيما تقدمه له من توعية؛ بل عليك أن تتفضَّل على الجميع بمزيد من الدأب والمؤازرة والإنعام ...»

فلئن كان الأباطرة القديسون يوجِّهون اهتمامهم على هذا النحو تجاه شعوبهم ... فترى، متى كانوا يجدون من الوقت ما يكفل لهم حرث الأرض وإنبات البذور؟

إنَّ أشد ما كان يجلب الضيق إلى قلب الملك «ياو» هو خشيته من ألَّا يجد بجانبه رجلًا حكيمًا مثل «شون»، وكذلك فقد كان أكثر ما يدخل الحزن والغم إلى نفس «شون» هو ألَّا يعثر بين المسئولين من حوله، على رجال من أمثال «يو»، أو «كاوياو»، أمَّا الوحيد الذي كان يرتعد خوفًا وقلقًا من احتمال ضياع الفرصة المناسبة لزراعة محصول جيد فيما يملكه «من قيراط الأرض الوحيد» فهو المُزارع المسكين.

إنَّ إغداق المال على الناس (المحتاجين) يُسمى العطف، ومعاملة الآخرين بالحسنى هو الإخلاص، أمَّا الاجتهاد في البحث عن الشخص الكفء الجدير بخدمة الممالك على نحو يُظهر مزاياه الفريدة فهو أفضل وجوه الخير جميعًا. لذلك كان يُقال دائمًا بأنَّه من السهل جدًّا تسليم سلطة إدارة الممالك لأي قادم جديد، لكن الأمر الصعب حقًّا يتمثَّل في المقدرة على ترشيح الرجل المناسب ذي الكفاءة والخلق. وقد قال كونفوشيوس ذات مرةٍ: «ما أعظم مكانة «ياو» حاكمًا قديرًا للممالك، لكن السماء أعظم كثيرًا، ولئن كان لياو نصيبٌ من الجدارة في شيء، فلأنَّه يقتدي بمبادئ السماء ... نعم، ما أحلمَه وأجدره بالثناء الجليل! وما أكرمَ الملكَ «يو»، ذلك المتواضع برغم واسع مُلكه، وأزهرَ نور بهائه.» فهل يمكن أن نتصور كلا الحاكمين وقد خلت ساحتهما من أي نشاط يقومان به لمصلحة شعبهما ومملكتهما سوى أن يتفرغا لِفلَاحة الأرض وزرع الحقول؟

قد سمعتُ أنَّ التحضر والتمدن الذي اشتهرتْ به المناطق الوسطى، هو الذي أوقع التأثير الهائل في القبائل الشمالية البربرية المتخلفة؛ لكنني لم أسمع قط أنَّ العكس قد حدث.

قد كان «تشين ليانغ» واحدًا من أبناء دولة تشو، تربَّى فوق أرضها وترعرع بين أهلها، فلما كان معجبًا غاية الإعجاب بتعاليم وأفكار كونفوشيوس وجوكون؛ فقد غادر بلاده الجنوبية ورحل صوب الشمال طلبًا للعلم، ثم إنَّه بلغ في ذلك درجةً عاليةً لم يَبزَّه فيها دارس ولا أستاذ؛ مما جعله جديرًا بأن يُلقَّب بأعظم الألقاب العلمية في زمانه، وأُتيحت لكم الفرصة أن تتتلمذوا جميعًا على يديه سنوات طوال، فما إن مات حتى لفظتم كل ما علَّمكم إياه وكفرتم بتعاليمه، وهو الشيء الذي لم يجسر تلاميذ وأتباع كونفوشيوس أن يفكروا فيه قط إبان وفاته؛ بل ظلوا مقيمين إلى جوار مدفنه ثلاث سنوات كاملةً قبل أن يتجهزوا للرحيل إلى أوطانهم، فلما حانت ساعة سفرهم أعدوا أمتعة السفر وذهبوا إلى زميلهم «تسيكون» ليلقوا إليه تحية الوداع، فلما مثلوا بين يديه، تأثروا جدًّا وظلوا يبكون ساعةً قبل أن ينطلقوا في طريق السفر، أمَّا تسيكون فقد أصرَّ على أن يقيم وحده بجوار مقبرة أستاذه ثلاث سنوات أخرى، قبل أن يعود إلى موطنه، وحدث أنَّ المريدين الثلاثة: زيشيا، وزيجانغ، وزيو؛ رأوا ثلاثتهم في زميلهم «يورو» شبهًا قريبًا من ملامح معلمهم الأكبر «كونفوشيوس» فأرادوا أن يقدموا له طقوس الاحترام التي كانوا يفعلونها أمام أستاذهم في حياته، «ويبدو أنَّ زميلًا آخر لهم — سن زي — اعترض على مشاركتهم في ذلك ف» حاولوا إثناء سن زي عن رأيه المضاد لهم، إلَّا أنَّه أبى قائلًا: «مستحيل أن أوافق على ما ترونه؛ فيكيف يمكن لما ابتلَّ بمياه نهر الهان واليانغتسي، واستضاء بنور شمس دافئة، حتى جفَّ وصار نقيًّا طاهرًا نقاء النور الساطع، أن تجدوا له شبيهًا من جنسه (فمَن ذا يشبه كونفوشيوس)؟»

وأتطلع الآن حولي، فأرى «شوشين» ذلك الهمجي الجنوبي المتكلم بلسان الزيف في فم الحماقة، وهو يذيع آراءه ومقولاته التي ينال فيها من مكانة الملوك الأقدمين، وقداسة الحكماء الأبرار، والأسوأ من ذلك أنَّك أنت نفسك قد خالفت نهج أساتذتك واتبعت أهواءه، فأين هذا من موقف «سن زي»؟!

وقد بلغني (فيما سمعت من أبيات كتاب «الشِّعر القديم») أنَّه قيل:

«تهجر الطيور أوكار الظلام؛
لتحط فوق رءوس الشجر؛
حيث الرفعة والسمو،
والنور الولي،
والبيت السامق وبهجة الأغاريد.»

لكني لم أسمع أبدًا أنَّ الطيور قد تركت أعشاشها في الذرا والنور؛ لتتخذ مساكنها في كهوف الوديان المحفوفة بالظلمة والخطر. جاء في كتاب «لوسونغ» «مدائح دولة لو» ما نصه:

««أكرم بالأمير إذ ...» طارد قبائل الشمال البربرية،
وسلط سيف الغضب والاستنكار
ضد قبائل الجنوب الهمجية.»

وكانت تلك القبائل هدفَ غارات الأمير جوكون فيما مضى من الزمان، فما بالك أنت «تأتي اليوم وتخالف المعهود ف» تطلب العلم بين أظهرها، فشتان بينكما ... ويا له من فرقٍ هائل عجيب!

فقال تشين: «لو قُدِّر لأفكار «شيوشين» أن تكون موضع تطبيق، لصارت أسعار السلع في الأسواق ثابتة لا ينالها غش ولا تلاعب، ولاختفت، على الفور، كل السلوكيات الفاسدة؛ كالخداع والنصب والتحايل، حتى كان بمقدور صغار الأطفال أن يبتاعوا السلع في الأسواق فلا تزاد عليهم أثمانها، وقد تباع الأُثواب القطنية والحريرية بسعر واحد لا خلاف عليه، وربما بيعت أكداس القطن والكتان معًا بنفس السعر دون زيادة لأحدها فوق الآخر؛ بل كان يمكن أن تعرض كل أنواع الحبوب للبيع تحت سعر ثابت بغير زيادة فاحشة أو نقصان معيب، وكذلك الأحذية وباقي المشتريات».»

فردَّ عليه منشيوس بقوله: «إنَّ الأشياء (المصنوعات) تتفاوت في النوع والكم والمقياس، وذلك بحكم واقع الحال، ومن ثم تختلف الأسعار، وقد يبلغ الفرق ضِعفًا أو خمسة أو عشرة وأحيانًا مائة حتى عشرة آلاف ضعف، فإذا أردت أن تفرض سعرًا موحدًا (رغم أنف الواقع) فسينجم عن ذلك اضطراب يعم كل الأسواق، وإذا افترضنا أنَّ أسعار الأحذية الجيدة (الفاخرة) ستتساوى مع سعر الأحذية الأقل جودة (الخشنة الثقيلة) فالسؤال هو: مَن سيقوم بصناعتها ومَن سيرضى بذلك؟

إنَّ العمل وفق تصورات شيوشن سيدفع الناس إلى ألوان من التواطؤ ومزيد من الغش والتحايل والخداع، فكيف يمكن، عندئذٍ، إصلاح أحوال الممالك وإدارة شئون الحكم؟»

(٥–٥) كان التابع الموهي (أحد مريدي الفلسفة الموهية، نسبةً إلى الفيلسوف، «موتسي») المدعو «إيتشي» يسعى إلى مقابلة منشيوس، فكلم في ذلك «شيوبي» (أحد أتباع الشيخ الحكيم)، فأجابه منشيوس: «قد كنت أريد أن ألتقي به غير أنِّي مريض الآن،

فلنؤجل ذلك حتى أقوم من فراش المرض، فلا يرهقن نفسه بالحضور؛ بل سأبادر على الفور بالذهاب إليه.» ولم يمضِ زمان طويل، حتى عاد الزائر يطلب لقاء منشيوس، فقال: «يمكنني، الآن، مقابلته «وسوف أتحدث إليه بصراحة تامة»؛ فالمرء إن لم يضع الأمور في نصابها على نحو صريح، فلن تتجلى الحقيقة في أي شيء وسوف أتكلم معه بوضوح؛ إذ علمت أنَّه من أتباع موتسي، أولئك قوم يقولون بوجوب إقامة طقوس دفنٍ وتعزيةٍ في غاية البساطة، فذلك هو مبدأهم، ولا بد أن «إيتشي» يسعى إلى تغيير العادات الاجتماعية لتتلاءم مع ذلك المبدأ الجديد، معتبرًا أنَّ ذلك واجب ذو شأن، لكن الشيء الغريب في الأمر، هو أنَّ «إيتشي» نفسه، قد أقام لوالديه — عند وفاتهما — طقوسًا مبالغًا فيها على نحو تفصيلي شديد الدقة والتعقيد، فكيف سمح لنفسه أن يتصرف هكذا حيال دفن والديه، متخذًا طقوسًا، هو نفسه يبغضها ويدعو إلى التخلي عنها؟!»

وسارع شيوبي بنقل ذلك التساؤل إلى إيتشي الذي أجاب: «إنَّ تعاليم الـ «روجيا» (الكونفوشيين) يحلو لها أن تُردد دائمًا بأنَّ الملوك القدماء كانوا يحبون الشعب مثلما يحبون صغارهم، فما معنى هذه العبارة؟ ويبدو لي أنَّ المعنى يذهب إلى أنَّ مشاعر الحب لا تعرف أي فروق في الدرجات، ويقصد أيضًا أنَّ تلك المشاعر تنشأ، أساسًا، بين أحضان الوالدين»، فلما نقل شيوبي هذا الكلام إلى منشيوس أجاب قائلًا: «أيعتقد السيد المهذب «إيتشي» أنَّ المرء يمكن أن يُحب أبناء جيرانه مثلما يحب أبناءه سواءً بسواء؟ وليفكر جيدًا في المسألة على هذا النحو: هب أنَّ رضيعًا راح يحبو فوق الأرض حتى أوشك على السقوط في بئر، فهل يكون ذلك خطأ الطفل الرضيع؟ كلا … بل إنَّ السماء قد خلقت كل الأشياء وفق مبدأ واحد؛ بينما أنَّ السيد إيتشي يريد أن يجعلها مبدأين. «وربما كان منشأ الأمر كله أنَّ» الناس في الماضي لم يكونوا يعرفون طقوس دفن آبائهم، فما إن يمت الوالدان حتى يُلقى بجثتيهما في واد سحيق، وبعد أيام تكون الثعالب قد تكالبت على الموتى، وراحت تنهشها الجوارح ويتكاثر فوقها الذباب، فيصيب أهل المتوفَّى شعور بالخجل فتزورُّ أعينهم عن المشهد، ليس خشيةً لما قد يُعايرهم الناس به، وإنَّما هو شعور حقيقي بالخجل والعار ينتابهم ويؤرق وجدانهم ويتبدَّى على الوجوه برغم كل محاولات الكتمان، مما يدفع أبناء الموتى إلى إهالة التراب على الأجساد التي جيَّفت فيما يشبه عملية الدفن المعهودة، وبالتالي فدفن الموتى تصرُّف صحيح؛ بل هو من علامات البر والرحمة بالآباء.» فلما نقل شيوبي هذا الرأي إلى إيتشي، تردد قليلًا وبانت على وجهه علامات الحيرة وقال: «قد وعيت وفهمت!»

الجزء الثاني

وجملته عشرة فصول

(٦–١) تحدث تشن طاي (تلميذ منشيوس) إلى الشيخ الحكيم فقال له:

«أرى يا سيدي أنَّك بامتناعك عن مقابلة كبار الأمراء تُقيِّد نفسك بأغلال واهية، فماذا لو سمحت لنفسك بالخروج عن تلك القاعدة؛ ذلك أنَّ مجرد التقائك بالكبير منهم يساهم في دعم إمكانية وصوله إلى مصافِّ العرش الملكي، كما أنَّ مقابلتك للأقل مكانةً فيهم يمكن أن تمنحه فرصة الترقي إلى درجة ذات شأن، وقد جاء في كتاب «تشي» (حوليات التاريخ) ما نصه:

> «يُمكن للمرء أن يمد ذراعه ثمانية أشبار إذا تحامل على نفسه مرةً، وضمها إلى صدره شبرًا واحدًا فقط، (يعني: يمكن للمرء أن يتحمل العُسر مرةً واحدة وفي مسائل بسيطة، مقابل أن يطالب باليسر مرات كثيرة) وأتصور أنَّ ذلك أمرٌ يمكن القيام به بسهولة».»

فقال منشيوس: «كان حاكم دولة تشي الملك «جينكون» في رحلة صيد بالحقول العامة ذات مرة، وحدث أنَّه أشار برايةٍ مُزدانةٍ بريش الطيور، تجاه أحد حرَّاس الحدائق الملكية يريد منه المثول بين يديه فلم يمتثل الحارس للنداء فيما اعتبره إهانة له، فهمَّ الملك بقتله، إلا أنَّ الشجاع لا يهاب أن يلقى حتفه بأية وسيلة (بالسقوط في بطن الوادي، أو بقطع الرأس)، أتعرف بماذا امتدح كونفوشيوس ذلك الحارس الشجاع؟ لقد أثنى على إصراره على الحفاظ على كرامته وإبائه؛ إذ رفض الامتثال لإشارة الاستدعاء التي صدرت عن الملك بطريقة غير لائقة ولا صحيحة.

فإذا بادرنا بالذهاب إلى كبار الأمراء دون انتظار دعوتهم لنا، فما القصد من وراء ذلك، ثم إنَّ القول بفكرة … «ضم الذراع شبرًا واحدًا ريثما يحين الوقت كي تمده ثمانية أشبار» … لهو قول يقوم على فكرة السعي لتحقيق المصلحة الذاتية قبل كل شيء، وما دام الأمر كذلك فليس مهمًّا إن ضممت ذراعك إلى صدرك شبرًا أو مائة شبر، ما دمتَ ستتمكن في كل الأحوال من أن تمد ذراعك إلى الأمام ولو شبرًا واحدًا فقط!

«وتحكي كتب التاريخ» أنَّ الأمير جاوجيان (عظيم دولة جين) أصدر أوامره ذات مرة، إلى «وانغ ليان» (من أشهر ذوي الخلق الكريم في زمن «الربيع والخريف») كي يقود

المركبة المخصصة للصيد؛ بحيث تكون في خدمة الوزير الأثير لدى سمو الأمير والملقَّب باسم «شي»، ومضى النهار كله دون أن يتمكَّن سيادة الوزير من اصطياد طائر واحد، فكتب تقريرًا جاء فيه: «إنَّ «وانغ ليان» من أغبى قادة المركبات على الإطلاق.» فلما بلغ هذا الكلام «وانغ ليان» نفسه قال: «فلنجرب الخروج للصيد مرة أخرى إذن، وسأقود المركبة أيضًا.» وهنالك وقعت في نفس الوزير «شي» ألوان من الحيرة والاضطراب، ووافق أن يخرج للصيد ثانية، على مضض، فما كادت تنقضي سحابة النهار حتى كان الصيد، يومذاك، وفيرًا، فكتب «شي» في تقريره: «إنَّ أذكى وأبرع شخص في الدنيا كلها هو السيد «وانغ ليان».» «فلما بلغ ذلك الأمر الأمير جاوجيان ...» قال للوزير: «ما دام الأمر كذلك فسوف أُعيِّنه قائدًا لمركبتك.» «وجرى إبلاغ وانغ ليان بهذا القرار ...» فأبدى اعتذاره عن عدم الامتثال قائلًا: «كنتُ — لما توخيتُ الالتزام بالقواعد والمبادئ والتقاليد المتبعة «في حالات الصيد» أثناء قيادتي في المرة الأولى قد آثرت العمل حسب الأصول، لكن النهار كله انقضى دون أن نصطاد شيئًا؛ أما المرة الثانية، وبرغم أنِّي لم ألتزم بشيء من قواعد «رحلات الصيد» على النحو المعهود، فقد كان الصيد، في أول ساعات النهار، هائلًا جدًّا.

وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم (ما معناه):

«ما دامت المحجة واضحةً،
والعرف والتقاليد
موضع تقدير رسمي،
في موكب للصيد الملكي؛
فالسهم مصيب،
والرمية قانصة،
وبشائر الغنيمة سانحة.»

وبِناءً على ذلك، فإنِّي أتقدَّم بطلب إعفائي من وظيفتي؛ لأنِّي لم أعتد العمل في خدمة مسئول متهاون (حرفيًّا: وضيع الرتبة، حقير المنزلة).» فإذا كان سائق المركبات يرى فيمَن يُخالف مبادئ وقواعد رحلات الصيد عارًا مشينًا، حتى لو كان في تلك المخالفة ما يأتي بالغنيمة الوافرة وأكداس من الصيد الثمين. [وأتفق مع سائق المركبات في موقفه هذا]، فما الداعي إلى أن نُجبر أنفسنا على السير في الطريق المعوجة، تبعًا لأهواء أولئك السادة (الأمراء)؛ لهذا أرى أنَّ تفكيرك قد جانبه الصواب؛ إذ إنَّ المرء لا يُمكن أن يمشي في طرق معوجة ويطالب الناس بالسير في طريق مستقيم.»

(٦–٢) كان جين شون (أحد معاصري منشيوس) قد تحدَّث إلى الشيخ الحكيم، فقال له: «ألم يكن كل من كونسونيان وتشانغي من أعظم رجال الدولة الكبار؟ (الأول، رئيس وزراء إحدى الدول القديمة، من أصحاب النظريات السياسية. والثاني رئيس وزراء دولة تشين، كان كلاهما — قديمًا — من أشهر رجال السياسة). ألم تكن غضبتهما — إذا غضبا — كفيلةً بأن تهزَّ عروش الدويلات وتقذف الرعب في قلوب الأمراء، ثم كان سِلمهما، وقت الصفاء، يشيع في كل الأنحاء الأمن والسكينة؟»

فأجابه منشيوس: «لا أدري كيف لمثل هذين أن يكونا من أعظم الرجال؟ ألم يسبق لك أن درست شيئًا من آداب وطقوس المعاملات؟ (كان من آداب وطقوس التربية أنَّه …) إذا بلغ الشاب الحُلُم أقيمت له طقوس البلوغ؛ حيث تُعقد له ضفائر شعره، ويتزوج، ويتلقى أصول المعاملات على يدي والده؛ أمَّا الفتاة فكانت إذا بلغت قامت والدتها بتلقينها النصح والإرشاد، وهيأتها للزواج، حتى إذا جاء يوم عرسها، ودَّعتها حتى باب بيتها وهي تنصح لها قائلةً: «كوني له (للزوج) زوجةً مهذبةً، وحاضرة الفهم والإدراك، فلا تعصي له أمرًا.»

وهكذا؛ فقد كانت الطاعة هي مدار الأمر كله عند النساء، «أمَّا الرجال» فإنَّهم يقيمون بساحة الدنيا «الرحمة»، وينزلون بموضع الاستقامة «القيم الأدبية»، ويتقدَّمون على ألمع الطرق استنارة «العدل»؛ فإذا تحققت لهم الغايات وبلغوا ما طمحت إليه إرادتهم، فإنَّهم ينهجون السُّبل التي تقودهم مع الناس نحو الطريق الصحيح، أمَّا إذا تعذَّر عليهم تحقيق مآربهم، فإنَّهم يواصلون السير على الطريق دون أن يَحيدوا عن المبادئ، ثم إنَّهم لا يصيبهم فساد أو غرور مع الغنى والجاه، ولا يقع بهم الخذلان مع الفقر، ولا يتجبرون مع القوة والسلطان، فهؤلاء فقط هم الذين يستحقون أن يُقال عنهم بأنَّهم أعظم الرجال.»

(٦–٣) ذهب جوشياو (أحد مواطني دولة وي) إلى منشيوس وسأله: «هل كان الحكماء (حرفيًّا: السادة المهذبون، مثل الفلاسفة والدارسين وكبار المتعلمين والمثقفين …) في العصر القديم يعملون بوظائف حكومية؟» فأجابه: «نعم، وقد جاء في كتاب «تشوان» (المرويات التاريخية) ما يلي: «كان المعلم الأكبر كونفوشيوس إذا بقي ثلاثة أشهر كاملة دون أن يكلِّفه الحاكم بعمل رسمي يبتئس ويبدو مهمومًا حزينًا، وإذا سافر إلى إحدى الممالك كان يحمل هدية تعارف مناسبة لتقديمها إلى جلالة الملك «في هذه الدولة أو تلك».» و«هنالك تحدث «كونمين آي» قائلًا: «كان القدماء لا يُطيقون البقاء ثلاثة أشهر دون

عمل رسمي يكلَّفون به من قِبل القصر الملكي، وإلَّا استدعى الأمر «مواساتهم» وتهدئة نفوسهم».»»

وعندئذٍ، قال «جوشياو»: «ألا يبدو الأمر على هذا النحو [«مواساة» العاطل عن العمل مدة ثلاثة أشهر] مُبالغًا فيه، أو على درجة من العجلة والتسرع؟» فأجابه منشيوس: «إنَّ رجلًا مهذبًا (مؤهلًا عمليًّا واجتماعيًّا) بلا عمل، مثل أميرٍ بغير إمارةٍ أو مَلك بغير دولةٍ.»

قد ورد في كتاب «لي» (الطقوس)، ما نصه: «على الأمير أن يحرث أرضه بيده كي تنبت له المحاصيل التي يقدمها قربانًا مقدسًا «لأجداده»؛ بينما تقوم الزوجة بتربية ديدان القز تمهيدًا لعمل الملابس الحريرية المخصصة بطقوس القرابين. وليعلم «الأمير» أنَّ الماشية الهزيلة، والمحصول الذي تتم تنقيته جيدًا «من شوائبه»، والملابس غير الكاملة (الأطقم) كلها لا تصلح لعمل طقوس القربان. وإذا لم يكن لدى الرجل الفاضل الحكيم ساحة لتقديم القرابين، فلن يقدر على إتمام الطقوس المقدسة، وكذلك إذا لم يكن لديه المقدار الكافي من المواشي والأواني والملابس فلن يتيسَّر له عمل القربان، وبالتالي فلن يتمكن من عمل وليمة الحفل السعيد، أي إنَّه سيجلس ساهِمَ الطرف مطرقًا حزينًا، أفلا يحتاج مثل هذا البائس للمواساة؟» فسأله جوشيان: ولماذا ينبغي على المسافر أن يحمل معه هدايا التعارف؟ فأجابه منشيوس: «مَثَل المتعلم المشتغل بوظيفة رسمية كمثل المزارع الذي يفلح حقله، هل رأيت مزارعًا مسافرًا خارج البلاد دون أن يأخذ معه الفأس والمحراث؟» فقال جوشيان: «إنَّ هذه الحال ليست غريبة على دولة جين، فهناك أيضًا يسعى السادة المتعلمون إلى الوظائف الرسمية (داخل البلاد وخارجها)، لكن الفرق الوحيد هو أن أحدًا لم يسعَ إلى التوظف بهذه الدرجة من الاستعجال واللهفة، «هذا من ناحية، ومن جهة أخرى» فإذا كان الناس يتلهفون على العمل «في بلادكم» فلماذا يقعد السادة المحترمون عن ذلك؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «منذ أن يولد لأية أسرة ولدٌ ذكَرٌ حتى يصبح من المعلوم أنَّ والديه سيسعيان يومًا إلى تزويجه، وأمَّا الأنثى فإنَّ أهلها يعملون جهدهم، منذ أول يوم في حياتها، على إعدادها للزواج، فتلك كلها أمور معلومة للكافة «يشترك فيها كل الآباء والمربين»، فإذا أسرع الشابان (الذكر، والأنثى) إلى تبادل العلاقات الغرامية بطريقة سرية، دون علم الآباء، وبغير واسطة من الأعراف والتقاليد المتبعة، كان نصيبهما الازدراء من أولياء أمورهم ومن كل الناس، و«بالمثل» لم يكن السادة المحترمون في العصر القديم زاهدين في التوظف بالمهن الرسمية، لكنَّهم كانوا يترفَّعون عن اللجوء إلى وسائل غير ملائمة أو مقبولة «يندَى لها الجبين خجلًا» في الحصول على وظائف مرموقة تمامًا مثلما

يتعفَّف الشباب (الشاب والفتاة) المقبلون على الزواج، من الوقوع في أحابيل العلاقات الغرامية عبر شقوق الجدران والنوافذ «بوسائل سرية لا أخلاقية».»

(٦–٤) ذهب بنكنغ إلى أستاذه منشيوس وسأله: «أراك، يا سيدي، تمشي في مواكب إثر مواكب، تسير في إثرك مركبات وأعوان، يتنقلون معك أينما ذهبت، وأنت تخرج من مملكة لتسافر إلى إمارة، حتى لم تدع مكانًا إلَّا قصدته، ولا مائدة إلَّا أكلت عليها، أليس ذلك من قبيل الإسراف وتجاوز الحدود المعقولة؟»

فأجابه: «إذا كان مسلكي مجاوزًا للمعقول فما كنت أسمح لنفسي بأن أقبل كِسرة خبز [حرفيًّا: سلة طعام] من أحد؛ أمَّا إذا كنتُ قد تصرفتُ في الحدود المقبولة والمعقولة فإنِّي لم أبلغ ما فعله الإمبراطور الحكيم «شون» عندما تسلَّم صولجان الملك من سلفه العظيم الإمبراطور «ياو» [كلاهما موضع تقديس في العصر القديم بوصفهما نماذج أسطورية للحكم الرشيد] وهو التصرف الذي لم يوصف بأنَّه يُمثل تجاوزًا من أي نوع، إلَّا إذا كنتَ أنت تراه كذلك!» فأسرع التابع بقوله: «كلا يا سيدي، لست أراه إفراطًا من أي نوع، لقد ظننتُ دائمًا أنَّه ليس من حق السيد المهذب أن يمد يده إلى صحفة طعام، ما لم يكن قد بذل ما يستحق أن تُبسط له الأسمطة»، فردَّ عليه منشيوس قائلًا: «ما لم تساعد على تبادل السلع والمنتجات، وتأخذ من الزيادة لتسد عجزًا أو نقصًا هناك، فستتراكم لدى المزارعين كميات وافرة من الحبوب، ويتكدس لدى ربات المنازل قطع زائدة من الملابس (زائدة عن الحاجات الضرورية)، فإذا جئت أنت وساهمت في تداول تلك السلع الزائدة، فستكون قد فتحت بابًا يرتزق منه النجار والحداد وصانع المركبات. «هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فـ...» ترى لو كان بيننا الآن رجل يبر والديه «داخل بيته»، ويبجل كبار السن «خارج المنزل» ويستمسك بسنة الحكماء الأقدمين، كي تنشأ الأجيال اللاحقة على هدى من المُثل والمبادئ المتوارثة، ثم إذا به يقصد بيتك فلا يجد لديك نصيبًا من الرزق في حين أنَّك كنت حريصًا على أن يجد النجار والحداد حظهما من موارد الحياة، أفلا نعجب لإهمالك شأن السيد المهذب البار المؤدب الذي يحرص على الالتزام بقواعد الرحمة والعدل «الأخلاق»؟»

فأجابه بنكنغ: «النجار والحداد وصانع المركبات يهدفون إلى تحصيل معاشهم، تلك هي نيتهم وغرضهم الأساسي، فماذا يا تُرى غرض السيد المهذب من التزامه قواعد السلوك الأخلاقي، أهو تحصيل مورد الرزق؟» فقال الشيخ الحكيم: «وماذا يعنيك من استقصاء أغراض الناس ونواياهم؟

إنَّ أهم شيء بالنسبة لك هو ما يقومون به من أدوار، وما يقدمونه من خدمة، ومقابل تلك الخدمة فأنت تمنحهم موارد الرزق، بمعنى أنَّك تدبر لهم وسيلة الحصول على الطعام الضروري، ولا أدري إذا كنت تدفع للناس مقابل ما يهدفون إليه من أغراض، أم ما يؤدونه من عمل وما يقومون به تجاهك من تصرف؟» فأجابه: «بل نظير نواياهم ومقاصدهم بالطبع!» فقال الشيخ: «هب أن رجلًا جاءك الآن وحطَّم أثاث بيتك، ولوَّث جدار منزلك، بدعوى أنَّ الأثاث قديم والجدار آيل للسقوط، وطلب منك أن تعطيه حاجته مقابل ما يضمره في قلبه من نوايا!» فقال الرجل: «كلا بالطبع، لن أعطيه شيئًا»، فقال «منشيوس»: «هو ذا أنت لا تأبه لمقاصده، وإنَّما ترصد سلوكه وتصرفاته ولا تدفع له إلا نظير ما يؤديه لا ما ينتويه.»

(٦–٥) ذهب وانجان إلى أستاذه منشيوس، وسأله قائلًا: «إنَّ «سونغ» دولة صغيرة ضئيلة المساحة، وقد اجتهد حاكمها في تطبيق سياسات الحكم الرشيد (الرحمة والعدل) مما أثار عليها حقد جارتيها «تشو» و«تشي»، اللتين تُعدان العُدة للإغارة عليها، فما العمل؟» فأجابه الشيخ: «كان «المدعو: شان طانغ» مقيمًا بأرض «بو» (مدينة قديمة) بمحاذاة دولة «كي»، إبان حكم الملك «كيبو» لها، وكان ملكًا غشومًا مسرفًا ماجنًا، طائش التقدير والتصرف، عازفًا عن المبادئ الخلقية، لا يؤدي طقوس القربان المقدس، فأرسل إليه «شان طانغ» يستقصي سبب امتناعه عن أداء ما يلزم للقربان، فأجابه قائلًا إنَّه لا يجد ما يلزم ذلك الغرض من الماشية والدواب. فأرسل إليه شان طانغ ما يكفيه منها، فأكلها ولم يقدم قربانًا، وعاد شان طانغ يسأله عن عدم قيامه بالطقوس المقدسة، فأجاب بأنَّه لا يملك ما يكفي لذلك الواجب من الحبوب والمحاصيل، فأرسل إليه شان طانغ أهالي بلده يحرثون ويزرعون أرضه، وكلَّف الصبية والعجائز بإمداد ذويهم بالأكل والغذاء طوال مدة عملهم في زراعة أراضي جيرانهم، فما كان من كيبو إلا أن قاد حملة من شعبه للتصدي لحاملي الغذاء وخطف ما معهم من مؤن وأمتعة، ولم يتورع عن قتل الممتنعين عن الإذعان لبطشه، بل إنَّه، لفظاعة جُرمه وفساد خُلقه، أقدم على قتل صبي كان يحمل الطعام لذويه، فنهب متاعه وسلب منه آنية الطعام، حتى ورد في كتاب التاريخ شيء من ذلك؛ حيث يقول «في أحد فصول الكتاب ما نصه:» «لم يبغض كيبو أحدًا قط مثل حاملي صحائف الطعام.» وهي عبارة تشير على نحو مضمر إلى حادثة مقتل الصبي على يديه.

ثم كانت هذه الحادثة هي السبب في قيام شان طانغ بحملة تأديبية ضد جاره، وتحدث أهل الممالك في ذلك قائلين: «لم تكن حملة الملك طانغ تهدف إلى الفوز بغنائم

الحرب، وإنَّما للثأر ممن اعتدوا على أبناء البسطاء.» وكانت حملة الملك قد بدأت أول زحفها ضد دولة «كي» (ثم استمرت لتدحر عدة ممالك أخرى) وقد بلغت غاراته إحدى عشرة غارةً، لم تقم بعدها لأعدائه قائمة «وتوسَّلت به الأهالي لنجدتهم من الطغيان، حتى ...» إذا شنَّ هجومه ناحية الشرق ندب أهل الغرب حظهم «أنَّه لم يبدأ بهم فينقذهم مما هم تحته من الاستبداد»، وإذا بادر «بالهجوم» صوب الغرب، اشتكى أهل الشرق سوء أقدارهم؛ «إذ تأخر عنهم فلم يسعفهم بالخلاص»، وكذلك إذا تقدم تجاه الجنوب حزن الشماليون لأنَّه تأخر عنهم وبدأ بغيرهم، ولسان حالهم جميعًا يقول: «لماذا لم يبدأ زحفه إلى بلادنا ليخلصنا مما نحن فيه؟» فكان شوقهم وتطلعهم إلى قدومه عليهم مثل لهفتهم على نزول الغيث زمن الجدب، «وأدل شيء على أنَّهم كانوا يسعدون بتلك الغزوات إلى بلادهم أنَّهم ...» لم يكونوا يتوقفون عن مزاولة أعمالهم اليومية، التي يكسبون منها أقواتهم؛ فلا التاجر هجر تجارته، ولا الزارع ترك الحرث والغرس؛ «إذ إنَّ الغازي الباسل» كان يُسلط سيفه على رءوس البطش وهامات الطغيان، فيخلِّص الناس من شرورهم، فأراح الناس مما كابدوه، وكان كالمطر النازل في حينه فوق أرض عطشى ترتوي منه الوديان وتسعد به القلوب.

وقد جاء في كتاب «شو» (التاريخ) ما نصه: «كم نتطلع إلى مجيء جلالة الملك إلى أراضينا فمجيئه راحة للقلوب وتفريج للكروب.»

ليس سوى دويلة صغيرة (دولة يو) رفضت الإذعان لسطوة جلالته، فسار إليها من جهة الشرق، ودخلها منتصرًا، وفرض الأمن والسلام بين ربوعها، فاطمأنت نفوس رجالها ونسائها [هكذا حرفيًّا]، وخرجوا جميعًا لتحيته وهم يحملون صناديق الديباج الملون، ويهتفون له بالنصر والتأييد والبيعة له مَلِكًا متوجًا بالبهاء والعزة والإباء، قانعين بأن يكونوا أتباعًا لدولة جو الكبرى.

بل جاء إليه رجال الدولة (دولة يو) صاغرين، فمثلوا بين يديه وهم يحملون إليه أثمن المتاع (الذهب والحرير)؛ بينما حمل إليه بسطاء العامة الخبز والخمر [حرفيًّا: صحائف الأرز، والزجاجات المعبأة بالخمر]، فمَدُّوا الأسمطة له وبسطوا الولائم تحيةً وعرفانًا؛ إذ كانت غاراته وهجماته كلها تستهدف إنقاذهم من التردي في لُجَّةٍ لا قرار لها، ونيران لا فرار منها إلَّا بالتخلص من الطغاة الجبَّارين.

وقد ورد في كتاب «تشين شي» (البيان الأكبر:) «سأرفع راية القوة، وأتأهب لمنازلة الدويلات المتاخمة لحدود بلادي، وأطيح برأس الطغيان، وأبدد كل الملاعين، وأسطر في صفحة الدهر مآثر تفوق ما خلَّده الملك طانغ من مجد باهر.»

«ولنعُد الآن إلى موضوعنا، فمن المعلوم أنَّ دولة سونغ» يمكن لها ألَّا تكترث بتطبيق سياسات تقوم على العدل والأخلاق، لكنَّها إذا ما أخذت في اعتبارها بتطبيق سياسات الحكم الرشيد، فسوف تتطلع الممالك إلى أنوار مجدها، عارفةً بمكانتها، تنشد عونها ونصرتها، حافظةً لمقام مليكها وسيدها الأكبر، ولن ترتعد فرائصها خوفًا من دولتَي تشي وتشو مهما بلغتا من القوة والغلبة.»

(٦–٦) تحدَّث منشيوس إلى «داي بوشنغ» (أحد وزراء دولة سونغ) قائلًا: «أتريد حقًّا لحاكم بلادكم أن ينتهج سياسة أخلاقية؟ إنَّك إذا كنت سترد بالإيجاب، فسأُخلص لك النصح بغير مواربة، ولأضرب لك (أولًا) مثلًا بما أريد قوله لك: ماذا لو أراد — مثلًا — أحد كبار رجال دولة تشو أن يعلِّم ابنه كيفية التحدث بلسان أهل تشي، أيأتيه بمعلم من أهل تشي أم بأستاذ من أهل تشو؟» فأجابه الوزير: «بل بمعلم من تشي»، فقال منشيوس: «فماذا لو جيء له بمعلم من تشي يعلمه كيفية التحدث بلغة بلاده، ثم إذا هو يتعرض لتهكم وسخرية ومضايقات مواطنيه من دولة تشو بدرجة تجعل من الصعب عليه مواصلة دراسته حتى لو ضُرب ضربًا مبرحًا، «فإذا» سيق إلى أكبر وأشهر شوارع دولة تشي (شارع «جوانيو») ليُقيم في أرضها عدة سنوات، فلن يفتح فمه متحدثًا بلسان أهل تشو حتى لو تعرَّض للعذاب الأليم.

قد أفضتُ في ذكر جميل أخلاق الوزير الفاضل «شيوجي جو»، ومدى ما يتمتع به من فضل وشرف وأخلاق كريمة، وقد أثنيت عليه فأكثرت الثناء، إذن فليتبوأ ما يستحقه من مكانة داخل أروقة القصر الملكي (مستشارًا لجلالة الملك)، فإذا صار الناس جميعًا، صغيرهم وكبيرهم، عظيمهم ووضيعهم، على شاكلة ذلك الوزير، فلن يجد الملك أحدًا يبطش به مما يخرجه عن نهجه الأخلاقي المعهود عنه!

«أما إذا» كان جميع العاملين في القصر الحاكم «تحت توجيه جلالة الملك» كبيرهم وصغيرهم، شريفهم ووضيعهم، على النقيض من أخلاق وسجايا الوزير الفاضل شيوجي جو، فأنَّى لجلالة الملك أن يقيم سياسته وفق المبادئ الأخلاقية «على أسسٍ من الرحمة والعدل ... ؟ فتأمَّل ذلك وانظر ...» ما الذي يستطيع أن يفيد به وجود رجل فاضل واحد كسيادة الوزير المشار إليه إلى جانب جلالة الملك؟»

(٦–٧) راح كونسون شو إلى منشيوس وسأله قائلًا: «ما سر امتناعك عن مقابلة الأمراء وكبار رجال الحكم؟» فأجابه: «لم يكن من المعهود فيما سلف من الزمان أن يلتقي عامة الناس بالأمراء، ما لم يكونوا من الوزراء أو رجال الحكم المسئولين بصفة رسمية،

حتى لقد «حدث ذات مرة أن» ألقى الشيخ الحكيم «توان كانمو» بنفسه من فوق الأسوار، هربًا من مواجهة الأمير «أنهو» لما ذهب لزيارته. وكذلك قام الفاضل الكريم «شيلو» بإغلاق بابه دون الأمير «لومو»؛ على ما في هذا كله من الغلو والغرابة. ثم إنَّ الضرورة قد تفرض على المرء أن يلتقي بتلك الشخصيات العامة (الأمراء ورجال الحكم) لأسباب طارئة، «ومثلًا» فقد أراد الأمير يانخو (عظيم دولة «لو») أن يطلب إلى كونفوشيوس المجيء، بنفسه، إلى دار الإمارة ليلتقي به، دون أن يتجاوز في ذلك حدود اللياقة، فما كان منه إلا أن أصدر أمرًا باستدعائه، «متعللًا في ذلك بما» تفرضه الأصول من ضرورة حضور الشيوخ العلماء بأنفسهم إلى مقر الإمارة، لاستلام ما تفضَّل عليهم به الأمراء من هبات ومكافآت، وهو ما يلزم المدعوين بضرورة الحضور إلى مقار التشريف لتقديم واجب الشكر الرسمي، حسب ما تقضي به الآداب، «ذلك إذا تصادف أن كانوا وقت إرسال الدعوة خارج مقار إقامتهم»، ومن ثم فقد انتهز سمو الأمير فرصة غياب كونفوشيوس عن منزله فأهدى إليه خنزيرًا مشويًّا، وبدوره فقد راح المعلم الأكبر يترقَّب فرصة خروج الأمير، حتى إذا تأكد من خروجه في بعض شئونه ذهب إلى دار الإمارة لتقديم واجب الشكر مثلما تقضي التقاليد وأصول المعاملات. ولو كان الأمير «يانخو» قد بادر أولًا «إلى زيارة كونفوشيوس بنفسه» لكان الشيخ الأكبر قد حرص على أن يردَّ الزيارة بأفضل منها.

قال سنغ زي مرةً: «إن مَن يتمايلون في نفاق ظاهر ويبتسمون في ودٍّ متكلف يبذلون جهدًا أشقى وأضنى من المزارعين في حقل أشواك، في صيف شديد الحرارة.» وتحدَّث زيلو (تلميذ كونفوشيوس)، فقال: «لا أحتقر أحدًا [حرفيًّا: ليس لي أن أتخذ تابعًا على هذه الشاكلة] قدر احتقاري لَمن يعرضون أنفسهم لمواقف مخزية؛ بسبب أنهم يجهدون أنفسهم للثرثرة مع آخرين حول موضوعات لا تربطهم بها نقاط اهتمام مشترك.»

وهكذا تتبدى لك من هذا كله، على نحو واضح تمامًا، الطريقة التي ينبغي للرجل المهذب العاقل أن يتبعها حرصًا على تأكيد انضباطه ومراعاته لقواعد السلوك الأخلاقي.»

(٦–٨) ذهب «تايين» أحد كبار رجال دولة «سونغ» إلى منشيوس وقال له: «لن نتمكن هذه السنة من تحصيل ضريبة العُشر ولا من إلغاء ضريبة الأسواق والجمارك، فما رأيك في تخفيض مقدارها تسهيلًا على المسددين ريثما تحل السنة الجديدة فنقوم بالإلغاء الضريبي على نحو تام ونهائي؟»، فأجابه: «بلغني أنَّ رجلًا كان يسرق كل يوم من بيت جاره دجاجة، فنصحه أحدهم بالانتهاء من ذلك باعتبار أنَّ السرقة ليست بالشيء الذي يقترفه المهذبون الفضلاء، فردَّ عليه قائلًا: «فلأحاول أولًا التقليل على نحو متدرج؛ بحيث

آخذ دجاجة واحدة فقط في كل شهر، حتى إذا جاء العام المقبل امتنعت عن السرقة تمامًا على سبيل الاستقامة والصلاح.»

وبرغم ذلك، فإذا كان المرء يدرك حقًّا فداحة ما سوَّلته له نفسه وكسَبته يداه، فينبغي له أن يتوقَّف فورًا عن ارتكاب المزيد من الأخطاء، فما الحكمة في الانتظار مدة عام آخر؟!»

(٦–٩) تحدَّث كونتوتسي (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه فقال له: «يُقال بأنَّك تحب أن تجادل الناس دائمًا في أمور شتى، فهل تسمح لي بأن أستفسر عن السبب في ذلك؟» فأجابه: «هذا غير صحيح، ولم ألجأ إلى مجادلة أحد إلَّا اضطرارًا، إنَّ هذا العالم موجود منذ الأزل، ولطالما تعاقبت عليه الأوقات؛ أوقات أمنٍ وسلامٍ ورخاءٍ، وأيام حربٍ وصراعٍ وبلاءٍ، وقد وقع فيضانٌ كبيرٌ، في زمن الإمبراطور «ياو»، فأغرق أرض المملكة الوسطى، حتى فزعت الحيَّات والزواحف (التنانين) إلى الشقوق العالية، ولم يجد الناس بيوتًا تأويهم، فأقام أهل السهول المنبسطة فيما يشبه أوكار الوحوش؛ بينما هرع سكان المرتفعات إلى مبيتهم بالكهوف.

وقد ورد في كتاب «شانغ شو» (كتاب التاريخ) ما نصه: «كان الفيضان إيقاظًا لغفلة الناس، و«الفيضان» المُشار إليه بهذا المعنى هو ما يُقصد به انسياح الماء في أنحاء الأرض إلى أقصى مدًى؛ وهنالك صدر الأمر إلى (أصدر الملك «ياو» أوامره إلى …) الوزير «يو» بتصريف مجاري السيل وإصلاح ما حطَّمه الفيضان، فما لبث حتى حفر القنوات وشق الترع، فصرف السيل إلى البحر، وطارد الزواحف حتى هربت إلى المستنقعات العشبية الكائنة في لُجَّة البحر، فلما سالت المياه في القنوات زمنًا طويلًا، تعمَّق المجرى وطالت المصارف فصارت أنهارًا تجري بين شاطئين، فهي (إلى اليوم) نهر اليانغتسي، والنهر الأصفر، ونهر «هواي» ونهر «خان». ثم إنَّه أزال كل العوائق (التي اعترضت مصارف المياه) والمخاطر والوحوش «المتربصة ببني البشر» من الطير المجنح والجوارح، فوطئ الإنسان السهول واتخذ بها مسكنه، فلما مات الملكان الحكيمان «ياو» و«شون» تبددت بعدهما تعاليم الأباطرة القديسين الحكماء، واشتد ساعد الطغاة، فبرزوا فوق عروش الحكم يهدمون المساكن ويخربون الأراضي؛ فتشرَّد الناس ولم يجدوا المبيت والمأوى، واقتُلعت عيدان النبات، وصارت الحقول اليانعة ملاهيَ وحدائق يتنزَّه في أرجائها الملوك؛ بينما شحَّ الملبس والمأكل، وشاعت الآراء الفاسدة والمقولات الضالة، وراجت أساليب البطش والطغيان، ولما كثرت الحدائق والغابات، «فقد لحقت بها في الزيادة» المستنقعات والبرك

الموحِلة، وعادت الوحوش والجوارح تأوي إليها كسابق عهدها، فما إن حل زمن الملك «تشو» (طاغية أسرة شانغ الحاكمة) حتى نزل الدَّمار والخراب على الأرض، «ثم جاء زمان آخر، حيث ...» قام الوزير جو إلى جوار الملك «أو» يشد عزمه ويعمل على نصرته «مما كان له أعظم الأثر؛ إذ ...» استطاعا أن يخلِّصا الناس من شر الطاغية «تشو»، وشنَّا الغارة على دولة «يان»، فما انقضت ثلاث سنوات حتى كانا قد خلعا حاكمها «الفاسد» وسحبا الوزير فيليان «رأس الفساد» إلى شاطئ البحر، فقتلاه وأراحا الناس منه؛ بل استطاع كلاهما أن يقضيا على خمسين دويلة، وطردا السباع والذئاب والأفيال وكل وحوش البر إلى أقصى الأرض، فانزاح الكرب عن صدور الناس وتنفَّسوا الصعداء.

وقد جاء في كتاب «التاريخ» ما نصه: «ما أعظم وأجل ما اختطَّ الملك أون من سياسات باهرة، وما أنبل وأكرم ما قام به الملك «أو» من مآثر خالدة، تعلَّم منها الأبناء والأحفاد فكانوا خير سلفٍ لخير خَلفٍ؛ إذ لم تنسد مسارب القبح وتَعلُ رايات الحسن إلَّا بفضلهما.»

ثم ساءت الأحوال ثانيةً، وضعفت شوكة الأخلاق واندحر العدل، وأطلَّ الضلال برأسه، وفي إثره جاء الطغيان، وشاعت الهمجية، حتى جاء زمان أصبح الوزراء فيه يذبحون ملوكهم، والأبناء يقتلون آباءهم، حتى ذهل كونفوشيوس وتحيَّر، ثم قرر أن يضع مؤلفه الشهير «شون شيو» (حوليات الربيع والخريف «مدونة تاريخية»)، وكان يهدف (بوضع هذا الكتاب) إلى وجوب انتباه الملوك «أبناء السماء» إلى ضرورة الالتفات إلى مسئوليتهم في تمجيد الخير وتحقير الشر؛ وهو الأمر الذي دعا كونفوشيوس إلى القول (صراحةً) بأنَّ: «السبب الرئيس في ذيوع شهرتي بين الناس هو كتاب الحوليات، وربما كان هذا الكتاب نفسه هو أيضًا السبب في كل ما لاقيته من لوم وكراهية وتأنيب.»

«ومن ثم» أفلَ نجم الملوك القديسين، واستبد الطيش بالأمراء، فساروا في الحكم على هواهم وتبذَّلوا غاية التبذل، وتكلم في السياسة وشئون الحكم مَن لا يفقهون شيئًا من مادته وأصوله، وشاعت في كل الأنحاء «نظريات» ومقولات «يانغشو» [رائد الفلسفة الطاوية، قبل الشيخ الأشهر «لاوتسي»]، و«مودي» (مؤسس الفلسفة الموهية)، حتى صار الناس فريقين «فمَن لم يتبع يانغشو «الطاوي»، فهو على مذهب مودي (الموهية).»

فأمَّا يانغشو فقد راح يدعو الناس إلى الاهتمام بشئونهم الذاتية؛ «بحيث يكون مدار الأمر في حياة المرء ما يعود عليه، هو نفسه، من فائدة» دون الاكتراث بمصلحة جلالة الملك؛ ومن الناحية الأخرى، فقد نشطت الموهية في التبشير بالمحبة لكل البشر، دون الاقتصار على «ما كانت توليه العادات من» الحب والود والطاعة للأب وحده دون الآخرين؛

«ولعَمري فإنَّ جمعًا من الناس» لا يُولي الآباء ما يستحقونه من الود، ولا يَدين للملوك بالطاعة والاحترام، لهو جمعٌ من البهائم والوحوش. وقد قال كون مينغي، ذات مرة: «لقد كان أولئك قومًا تمتلئ حظائرهم بالجياد القوية، وتعمر خزائنهم باللحوم الدسمة، في حين كانت الناس مصفرة الوجوه من شدة الجوع، والأجساد عارية كأشباح موتى في القِفار البعيدة، وهو أمر ليس بالجديد ولا الغريب على مَن تسيدوا سيادة الوحوش الآكلة لحم الإنسان.»

«وعلى ذلك» فإن لم يتم تجاهل واستبعاد مقولات وآراء يانغشو ومودي، فلن تقوم للمذهب الكونفوشي قائمةٌ، إذ تفشَّت الآراء المضللة في عقول الناس وانطبعت الأذهان بطابعها فوقفت (تلك الأفكار) في طريق الخير والعدل والصلاح.

فإذا تعطَّلت طرق الخير والصلاح أنشبت الوحوش مخالب الافتراس؛ بل صار الناس يأكل بعضهم بعضًا، فذلك هو الأمر الذي يثير قلقي واهتمامي و«يجعلني أحشد كل طاقتي كي ...» أحفظ مقولات الشيوخ القديسين ذخرًا للأجيال، وقاعدة صلبة للسلوك، في وجه آراء يانغشو ومودي، تفنيدًا لمادتها وكشفًا لخلطها وفساد منطقها، حتى يُراجع أتباعهم مواقفهم، ويصمت الخطباء عن التحدث بها إلى الناس؛ ذلك أنَّها محض أباطيل تولَّدت في النفوس وتبدَّت آثارها في التصرفات والمعاملات، وهو ما يؤذن بامتداد الآثار السيئة لتنال من شئون الحكم السياسي. «وإنِّي لعلى ثقة من صواب تقديري في هذه المسألة ... بل» لقد ظننت أن لو بُعِثَ القديسون الحكماء من مرقدهم الآن لما وسعهم إلَّا نُصرتي واستحسان قولي.

يذكر التاريخ للإمبراطور «يو» أنَّه الرجل الذي استطاع أن يقهر الفيضانات العاتية؛ مما كان له الفضل في تحقيق الأمن والسلام في ربوع الممالك، «وكذلك» يذكر للملك «جوكون» أنَّه قام بإخضاع القبائل الشمالية والغربية (الهمجية)، وضمهما إلى أرض الوطن، وطارد الوحوش البرية حتى قطع دابرها، فأَمِن الناس شرَّ الوقوع في براثن السباع، «ولا يمكن أن يغفل التاريخ لـ ...» كونفوشيوس أنَّه قد وضع كتاب «حوليات الربيع والخريف» وهو الكتاب الذي يُنسب إليه الفضل في ردع الأمراء المتمردين، وزجرهم عن المضي في خروجهم على سادتهم الملوك الحكماء، وتهذيب الأبناء وهدايتهم إلى طاعة آبائهم، وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم «هذا المعنى»:

«كان حصنًا حصينًا؛
يصد القبائل الهمجية،

ويلقن المارقَينِ «جين» و«فو»
دروسًا نارية،
حتى شُلَّت يد أعادينا،
وهجست في صدور خصومنا الهواجس.»

وضرب جوكون بيدٍ من حديد على مَن يتجاهلون مكانة الآباء، ويتغافلون عن نفوذ وقداسة الإمبراطور، وبالمثل فأنا أيضًا أريد — من جهتي — أن أقوم بتصحيح مفاهيم الناس، ودحض الأفكار الخاطئة والمضللة، وأن أواجه كل سلوك متطرف؛ كي أكشف زيف وغش المقولات الخادعة، استكمالًا واستمرارًا لجهود الحكماء القديسين الثلاثة (يو، جوكون، كونفوشيوس).

فكيف يمكن أن يوصف جهدي، في هذا المضمار، بأنَّه مجردٌ، أو مساجلة نظرية؟! خصوصًا إذا كانت الدوافع (لِمَا أقوم به) اضطرارية! إذا أجدني ملزمًا بالرد الفكري واللفظي (فقط، دون أية وسيلة أخرى) على أتباع كلٍّ من يانغشو، ومودي؛ فذلك هو السبيل الوحيد أمام مَن يريد أن يستحق، عن جدارةٍ، أن يكون تابعًا وتلميذًا للحكماء القديسين».»

(٦–١٠) تحدَّث «كوان تشان» إلى منشيوس، فقال له: «ألا ترى أنَّ الشيخ «تشن جونزي» أشدُّ الناس استقامةً وعفةَ نفسٍ؟ لقد اختار لنفسه أن يُقيم بأرض «أولينغ»، وظلَّ يبيت على الطوى ثلاثة أيام كاملة «لا يذوق فيها طعامًا ولا شرابًا»، حتى صُمَّت أذناه، وغُشي على عينيه، فلما أبصر «ذات يوم بصيصًا من نور»، ورأى على حافة البئر شجرة خوخ، وكانت يرقات كثيرة ذات صدفات ذهبية قد أكلت حواف أوراقها، فتسلق الشيخ جذع الشجرة واقتطف عددًا من الأوراق فالتقمها، فما كاد يلوكها حتى عاد إليه البصر، وأرهفت أذناه السمع.» فقال منشيوس: «أرى الشيخ «جونزي» وسط الحكماء الأفاضل قطبَ الرحى وواسطة العقد (مثل الإبهام في الإصبع)، أمَّا تفرده عن الآخرين بعفة النفس والزهد، فتلك مسألة تستحق التمعن قليلًا، ومثلًا، وحسب ما رُوِّيتُ عنه، فإنَّنا إذا أردنا تعميم طريقته (السالف ذكرها) في الزهد والتقشف، بين الناس، فلن تجدي بأحد نفعًا إلَّا إذا تحوَّل البشر إلى ديدان الأرض، والدود يقتات على الأوراق الذابلة المطروحة فوق الأرض وبين شقوق الطين والوحل، ويمتص عصارة التربة «الصفراء!» الكامنة في باطنها «وهذا في حد ذاته، ولا شك، بيان على الزهد والتقشف ...» لكن هل يسكن الشيخ المذكور في بيتٍ على شاكلة المنزل الذي ابتناه «بويي»؟ أم أنَّه يُقيم بنُزُلٍ

كالذي أقام فيه «ليوشياجي» (أحد عتاة اللصوص في زمانه)، وهل يأكل مثل الحبوب التي استزرعها بنفسه الشيخ الجليل «بويي»، أم أنَّه يتغذى بمثل الطعام الذي ينعم به السارق الأشهر «ليوشياجي»؟ فتلك كلها — كما ترى — مسائل ونقاط أساسية لم تتضح بعد، «فكيف لي أن أعطيك جوابًا شافيًا؟!» فقال له «كوان تشان»: «كيف يمكن أن يلتبس الأمر عليك إلى هذا الحد، وهو، كما قد علمت، يصنع نعله بيديه، ولا تجد زوجته ما يسد رمقها إلا من أثواب الكتان، تنسجها بيديها وتبيعها مقابل ما يقيم أودها».»

فقال له منشيوس: «كان الرجل، في الأصل، ابن عائلة ميسورة الحال في دولة تشي، حتى بلغ راتب أخيه «تسن داي» المقيم في إقطاعية خاصة به (بأرض كيه) ما مقداره عشرة آلاف وزنة، فوقع في ظنه أنَّ أخاه إنَّما حصَّل المال بطُرق غير مشروعة، فأبى أن يذوق شيئًا من طعامه، وجال في فكره أنَّ المسكن الذي يُقيم به أخوه قد أُقيمت أركانه بمال تم تحصيله بطرق غير شريفة، فرفض أن يقيم وإياه تحت سقفه، فقام وترك أمه وإخوته وذهب ليقيم بمفرده في ضيعة «أولينغ»، ثم إنَّه عاد يومًا إلى دار أهله فرأى إوزًّا ودجاجات، قد أُرسلت إلى أخيه على سبيل التحية، فقطب جبينه وذهب مغضبًا وهو يقول لأخيه: «ماذا يعود عليك من دجاجات تُقأقئ من حولك؟» ثم قامت أمه وذبحتها بعد هنيهة وقدمت إليه بعضًا من لحومها، وتصادف أن كان أخوه عائدًا إلى البيت في تلك اللحظة، فصاح به: «ها أنت ذا تطعم لحم الداجن الذي استنكرتَ صوته يومئذٍ.» فقام وخرج من البيت، وألقى مضغة الأكل من فمه، فلم ينزل جوفه شيء مما أطعمته إياه والدته، في حين أنَّه أقبل على طعام زوجته «بشهيةٍ مفتوحة»، ثم إنَّه أقبل على السُّكنى بضيعة أولينغ، بعد إذ استنكر أن يُقيم بدار أخيه، فهل ترى «في مثل هذا التصرف الأحمق لرجل يُغضب أهله ليُرضي نفسه ...» ما هو جدير بأن يكون نموذجًا يُحتذى في الزهد والتقشف؟! إنَّ أمثال «جونزي» هذا لا بد، أولًا، أن يتحوَّلوا إلى ديدان تسعى بين شقوق الأرض، قبل أن تصير نماذجَ منتقاةً للأخلاق المهذَّبة والسلوك القويم.»

الباب الرابع

ليلوة

الجزء الأول

وجملته ثمانية وعشرون فصلًا

(٧–١) قال منشيوس: «مهما عُرف عن «ليلو» من حدة بصرٍ (رجل اشتُهر في زمن توحيد الصين بقوة البصر)، ومهما كانت عند «كونشو» من مهارات صناعية (نجار، في زمن دولة لو، اشتهر بمهارته في صناعة الأثاث ولوازم البناء؛ حتى إنه صنع سُلمًا استخدمته قوات دولة تشو في حصارها للدول المتحاربة معها)، فلم يكن لأي منهما أن يحدد شكلًا مربعًا أو دائريًّا دون استخدام الزاوية «الهندسية» والفرجار؛ وبرغم ما تميز به الموسيقار «شيكوان» (الكفيف البصر، ابن دولة جين، أقدر الموسيقيين القدماء على ضبط الأنغام وتمييزها) من دقة وبراعة في تمييز درجات النغمات الموسيقية، إلَّا أنَّه ما كان ليستطيع أن يُحدد النغمات الخمس (السلم الموسيقي) على نحو دقيق وصحيح، إلا مستعينًا بآلة الضبط النغمي «ذات الأوزان الستة»؛ ولم يكن ممكنًا لمبادئ الحكم التي أرساها «الحاكمان القديسان» «باو» و«شون» أن تثبت دعائمها وتسير على هديها الممالك إلا بسياسة رشيدة «رحيمة».

وعلى الرغم مما هو ذائع ومعروف عن كثير من الأمراء، الآن، من نوايا طيبة وتجارب حقيقية في العمل بسياسة تقوم على البر والرحمة، إلَّا أنَّ الناس لم يلمسوا بعدُ الآثار الطيبة لتلك السياسات الرشيدة، «فهي إذن سياسات» غير جديرة بأن تُوليها الأجيال القادمة أي اعتبار، (حرفيًّا: تضعها موضع المتابعة والتقدير)؛ وذلك لأنَّ أولئك الأمراء لم ينهجوا على منوال الأباطرة الحكماء الأقدمين، فمن ثم «نقول بأن:» لا يكفي في حكم الممالك الاعتماد، فقط، على النوايا الحسنة، ولا يكفي كذلك، اعتماد «آليات!» أنظمة تنفيذية

طيبة لضمان الوصول لنتائج ممكنة التطبيق، وقد ورد في نصوص كتاب الشِّعر القديم هذه الأبيات:

«ليبقَ الكل ذاكرًا،
وليبقَ الجميع مخلصًا
لنهج الأولين ...
سرمدًا ... دائمًا.»

لم يحدث قط أن كان الالتزام بسيرة الملوك والحكام الأقدمين مؤديًا إلى الضلال أو الوقوع في الخطأ، قد بذل القديسون، من قديم، غاية جهدهم ونظروا بثاقب بصرهم، واستعملوا باقتدار كل أدوات التشييد والبناء؛ (من فرجار، وزاوية معدنية، وموازين استواء، وخيوط تسوية) لعمل كل التصميمات الهندسية المختلفة (من مربعات، ودوائر، واستواء، واستقامة)، وهي كلها تصميمات ذات استخدامات متعددة ودائمة، «وكذلك فقد» أرهف الأقدمون أسماعهم فاستخدموا آلة «الميزان السداسي» لضبط السلم الموسيقي (الأصوات الخمسة)، فعزفوا كل الأنغام بأصوات لا تنتهي درجاتها، ولا يفنى إبداعها، ولم يبخل الأقدمون بجهد في سبيل انتهاج سياسة تحمي الشعب من الوقوع في شَرَك «الأزمات»، تعميمًا للبر في ربوع الممالك؛ لذلك فقد قيل إنَّه لا بد لَمن أراد تشييد سور حجري عالٍ من الاستناد إلى تلٍّ سامق الارتفاع، ولا مفر لَمن أراد تعميق بحيرة، من البدء بأقل منسوب في قاع بركة ضئيلة؛ «وهكذا فليس من الحكمة في شيء، محاولة إصلاح شئون الممالك دون الاستناد إلى نهج الحكماء الأولين، ولا ينبغي لغير المتوسلين بالبر والرحمة اعتلاء مواقع الحكم؛ ذلك أنَّه لو أتيح لغير هؤلاء الصعود إلى مراتب القيادة لاتخذوها منبرًا لإشاعة السوء وتعميم الشر والفساد وسط الناس».

إذا لم يجد الأمراء معايير صارمة لاختبار صدق ونزاهة مرءوسيهم، في الوقت الذي يفتقد فيه الوزراء «من تحتهم» قواعد ملزمة من القوانين والنظم، لضاعت هيبة العدالة داخل ردهات القصور الحاكمة، ولضرب الأهالي بالقوانين عَرض الحائط، فخرج الكبار (السادة المهذبون) عن مبادئ الأخلاق، واجترأ الصغار (عامة الناس) على مخالفة اللوائح (مواد العقوبات)، وصار بقاء الوطن نفسه ضربًا من ضروب الحظ السعيد أو الصدفة الطيبة.

ومن ثم، فقد قيل إنَّه ليس مما يفتُّ في عضد الأوطان أن تكون حصونها متداعيةً، وجنوها أقل عُدة وعتادًا، ولا من قبيل الخطر أن تكون البلاد قليلة الموارد المادية ومحدودة

الأرض المستصلحة للزراعة؛ بل الخطر كله ألَّا تجد المبادئ الأخلاقية طريقًا إلى إقناع الأمراء «في مواقع الحكم»، ولا تجد التعاليم المقدسة طريقها إلى عامة الناس، مما يجعل مقاليد الحكم في يد الغوغاء المتمردين، ويصير ذلك إيذانًا بسرعة سقوط البلاد في براثن الضعف والانحلال.

وقد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما معناه:

«لمَّا أذنت السماء
بسقوط عروش حاكمة (يقصد أسرة جو الملكية)،
فقد كنتَ خليقًا
بأن تنفض عنك
الهدوء والدعة،
وأن تسارع إلى
تدارك الخطر!»

أما كلمتا «الهدوء»، «والدعة» الواردتان في هذا المتن، فتشيران إلى معنى «التبلد والخمول».

و «مما يعد من قبيل «التراخي» و«التبلد»:» الإهمال في مباشرة أمور الدولة الكبرى [مراعاة شئون جلالة الإمبراطور، والتفاني في خدمته] وتجاوز حدود الآداب، سواء في تولي الوظائف الرسمية، أو في التقاعد عن أدائها، وتناول سيرة الحكماء الأقدمين بما يُسيء إليهم بالقول والتلميح اللفظي.

ولذلك، فقد قيل إنَّ من دلائل «تبجيل» الملوك حثَّهم على مواجهة العقبات (العمل بمبادئ الحكم الرشيد)، فأمَّا الاهتمام بعرض «الجوانب الطيبة» من الأمور على الحاكم، وحجب كل «الخطط والأفكار السلبية»؛ فذلك ما يُقال له «آداب الاحترام والتعظيم»، أمَّا الاعتذار عن لسان «الإمبراطور» بالعجز عن تدبير سياسات رشيدة، فذلك هو ما يسمى بـ «الضعة الحقيرة».»

(٧–٢) قال منشيوس: «لئن كان الفرجار وزاوية الرسم الهندسي هما معيار ضبط الشكل الدائري والمربع، فإنَّ القديسين هم معيار ضبط السلوك الإنساني؛ فينبغي لَمَن أراد أن يحوز مكانة السيادة بين قومه أن يجتهد في تحصيل أسباب السيادة والشرف، مثلما يجب لَمَن أراد الترقي في المنصب الحكومي البارز أن يتفانى في تحقيق شروط الجدارة التي

تؤهله للفوز بأرقى منصب رسمي، وكلاهما بالغ مبتغاه إذا ما ترسَّم خطى القديسَيْن الحكيمَيْن «ياو»، و«شون»؛ فمَن لم يتفانَ في خدمة سيده، على نحو ما تفانى «شون» من أجل مليكه «ياو»، فقد أساء إلى مكانة أستاذه بالغ الإساءة؛ ومَن لم يقم على أمر الناس ويذل نفسه لرعاية شئونهم مثلما فعل «ياو» تجاه مواطنيه (في زمنه)، فقد أوقع شعبه في أخطر شَرَك.

وقد قال كونفوشيوس، ذات مرة: «ليس هناك (فيما يتعلق بإصلاح شئون الوطن) سوى طريقتين اثنتين لا ثالثة لهما، إمَّا الرشاد «بالحسنى» أو نقيض ذلك.» ومن ثم، فمَن كان من الملوك على أهله فظًّا مستبدًّا، فقد خسر النفس (تعرض للاغتيال) وأضاع الوطن؛ وأمَّا مَن تراخت قبضته، وفترت عن القيام بضبط الأمور عزيمتُه، فقد عرَّض للخطر حياته، وأظهر التخاذل، وبدد هيبة الوطن، وصار يُلقَّب (بعد موته) بالغشوم الجهول [حرفيًّا: المجهول، غير معلوم الأحوال!]، ومهما كان له من أبناء بررة وأحفاد طيبين، فلن يمكنهم — على طول المدى — تغيير سوء القدر «الملازم لهم» (تعديل اللقب السيئ الذي أورثهم إياه).

وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم، ما نصه:

«إذا ما أرادت دولة شانغ
أن تأخذ عبرةً من دروس الزمان،
فإنَّ الدرس ليس ببعيد؛
ليس إلا أن تتأمَّل
أحوال دولة شيا
فيما قبلها بزمان قريب».»

(٧–٣) قال منشيوس: «ما استطاعت الأسر الحاكمة الثلاث: شيا، شانغ، جو، أن تحكم قبضتها فوق الممالك، إلَّا «بتطبيق» سياسة رشيدة «رحيمة»؛ «وبالمثل» فلم تفقد سطوتها وتضِع عروشها ويتبدد سلطانها فوق الأرض، إلَّا عندما حادت عن سياستها الرشيدة، وهو الحال نفسه الذي نلاحظه في قيام وسقوط الإمارات، وبناء وفناء الدويلات.

إنَّه لا يثبت الحكم فوق الدول لَملك إلا بسياسة رشيدة، ولا تقوم لحكم الأمراء قائمة «فوق الدويلات» إلَّا بالعدل والرحمة؛ ولا يستقر للنبلاء قرار في معابدهم (إقطاعاتهم) إلَّا بتطبيق مبادئ إنسانية، ولا يملك السادة المهذبون وأولاد الناس (عامة الشعب) أمرهم، ويحيون حياتهم إلا باتباع مبادئ الرحمة والعدل.

فإذا ما قيل «الآن» إنَّ البعض يحرصون على الحياة حرصهم على معاندة المبادئ الإنسانية، فهذا أشبه ما يكون بمَن يخشون أن يسكروا بينما يفرطون في شرب الخمر.»

(٧–٤) قال منشيوس: «إذا أحبَّ المرء الناس ولم يبادلوه مشاعر الحب والود، فينبغي عليه مراجعة نفسه [حرفيًّا: أن يسأل نفسه، بصدق، أيحب الناس حقًّا؟] وإذا كان يلي أمرًا من أمور الناس وقام بمسئوليته على خير وجه، ثم تبدَّى له وجه التقصير، فيجب عليه، حينئذٍ، أن ينظر في رجاحة عقله وحكمة تدبيره، فإذا كان يقوم بواجب الاحترام تجاه الناس، دون أن يردوا عليه بمثل ذاك، فلا بد أن يُسائل نفسه عن مدى صدق تبجيله وتقديره للآخرين.

إنَّ كل سلوك لا يأتي بالنتيجة المرجوة أو المتوقعة، يتطلب من المرء أن يراجع نفسه، وأن يقوِّم تصرفاته، حتى تنقاد له الدنيا كلها طوع بنانه.

وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم شيءٌ من هذا المعنى في هذه الأبيات:

«إنَّ الاهتداء بإرادة السماء (مثلما فعلت دولة جو)
جالب للحظ السعيد (طول البقاء للأمم)؛
فالسعادة قدر
يبلغه المرء
بما سلك من الطريق.»

(٧–٥) قال منشيوس: «إذا تحدَّث الناس في حواراتهم الذائعة «عن الوطن» فهم يُطلقون عليه اسم «كوجيا» («الموطن»، وهو ما يُشير إلى دلالة …) أنَّ الأساس في تقسيم حد الأرض هو الموطن الكبير [كو: الدولة]، وأنَّ الوحدة الإنسانية التي يقوم عليها الموطن الأكبر هي الموطن الأصغر [جيا: الأسرة]؛ «وهو ما يُشير، بالتالي إلى أنَّ …» عماد الموطن الأصغر (الأسرة) هو الفرد.»

(٧–٦) قال منشيوس: «إنَّ الإرادة السياسية ليست بالشيء الصعب على الإطلاق؛ إذ إنَّ الأساس الذي تُبنى عليه أمور كثيرة يكمن في عدم الإساءة إلى كبار المسئولين والمتنفذين (أصحاب النفوذ الأكبر … وبالتأكيد) فإنَّ مَن يرونه أهلًا للإعجاب والتقدير، سيراه الناس في الدولة كلها كذلك، ومَن تراه الدولة جديرًا بالثقة والتأييد ستراه الممالك كلها على النحو نفسه، وهو ما سيؤدي (في المحصِّلة النهائية) إلى ذيوع وانتشار المبادئ الأخلاقية «التي يُمثلها ويحمل لواءها جلالة الإمبراطور شخصيًّا».»

(٧–٧) قال منشيوس: «عندما يسوء الحكم الرشيد في الممالك، يخضع الأدنى شرفًا للأعلى مكانةً ورفعةً، ويُذعن الأقل تأدُّبًا للأسمى خلقًا، فإذا فسد الحكم، كانت يد الأكبر سلطةً «فوق الجميع»؛ فمَن وافق إرادة السماء فاز بالبقاء، ومَن خالفها أصابه الفناء.»

وقد تحدَّث الأمير جينكون (حاكم دولة تشي)، قائلًا: «إنَّ العجز عن إصدار الأوامر للآخرين «وتوجيههم» مع القعود عن الاستجابة لما يوجَّه إلينا من أوامر معناه انقطاع الصلة مع العالم والأشياء من حولنا.» ثم إنَّ الأمير فاضت عيناه بالدموع، وهو يُصدِر قراره بتزويج ابنته لعظيم دولة وي.

قد صارت الدويلات الصغرى، الآن، تتخذ من الإمبراطوريات الكبرى نموذجًا ومثالًا يُحتذى به، ومع ذلك فهي ترى في الخضوع لأوامر تلك الدول العظمى عارًا ومهانةً، تمامًا كما يُقْبِل التلميذ على أستاذه ليتعلَّم منه، لكنَّه يستنكف أن ينصاع لما يمليه عليه «ويرى في ذلك انتقاصًا من الكرامة».

«وقد يستشعر المرء العيب فيما يأمره به أستاذه …»؛ إلَّا إذا كان ذلك الأستاذ هو الملك أون؛ ذلك أنَّه أفضل أستاذ يُمكن أن تتعلم الممالك على يديه نُظم إقرار السلطة في أنحاء الأرض، فيما لا يزيد على خمس سنواتٍ فقط للدول الكبرى، وسبع سنواتٍ للدويلات الصغرى.

وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم «شيء بهذا المعنى، فحواه»:

«قد بلغ أحفاد ملوك آل شانغ،
أعظم ملوك الأرض،
ما لا يُحصى ولا يُعد،
وشاءت إرادة السماء
أن يطأطئوا رءوسهم
لَمن مَلك من آل جو.
فما كان لهم أن يصيروا إلى تلك الحال؛
إلَّا أنَّ أقدار السماء لا تثبت
«بأحوال الناس» على حال؛
وقد قيل إنَّ أكابر آل شانغ،
برغم ما توقَّد في ذهنهم من نباهة،

وتبدَّى في وجوههم من ملاحة،
قد ساروا مع السائرين في ركبٍ
إلى عاصمة آل جو «هاو»؛
ليصبُّوا الخمر للشاربين
في أواني القربان المقدس.»

وقد قال كونفوشيوس: «إنَّ قيمة الإنسانية لا تُقاس بعدد أو مقدار أو كمية محددة من الناس، فإذا كان الحاكم محبًّا لقيم الإنسانية، فلن يكون له على الأرض بموجب ذلك الحب، أي خصومٍ.»

والآن، فإنَّنا لو تصوَّرنا أنَّه بالإمكان أن تخلو الدنيا من كل الخصوم، دون أن ننشد الرحمة والإنسانية، فسنكون أشبه بمَن يُقاسي شدة الحر دون أن يستحمَّ بماء بارد، وقد ورد شيء بهذا المعنى في كتاب الشِّعر القديم، كالتالي:

«مَن ذا يُقاسي حر الهجير،
والماء دونه،
فلا هو يستحم
ولا من الرمضاء يستجير!»

(٧–٨) قال منشيوس: «أمن المعقول أن يستطيع المرء محاورة «أولئك الأمراء» غير المتَّصفين بالبر والإنسانية؟ ألا إنَّهم يستسلمون للدعة وقت المحنة، ويتطلعون إلى الكسب والمنفعة وسط أجواء الكوارث، ويتخذون من أسباب بلاء الأوطان مادة للسخرية والدعابة، أما إنَّه إذا كان من الممكن محاورة غير العاملين بالبر والإنسانية، لما تدهورت أحوال الوطن وتخرَّبت البلاد!

من بين ما حفظه الزمان لنا أغنية كان يشدو بها صبي صغير، تقول كلماتها:

«ماء البحر الصافي
أغسل فيه قبعتي وخصلةً من شعري.
ماء البحر العكر
أغسل فيه قدمي الحافي.»

وقد قال كونفوشيوس لتلاميذه من حوله (تعليقًا على تلك الكلمات):

«وهكذا ترون أيها الحاضرون، فإنَّ الماء الصافي يصلح لغسل القبعة، ويصلح أيضًا وهو كدِر لغسل القدمين؛ فالماء في الحالتين هو العنصر الذي حدَّد قيمة استعمالين متناقضين.

ومن ثم، فلا بد أنَّ المرء، بذاته هو الذي يُحدد، أولًا، أسباب اجتلاب المهانة على نفسه، فيجلب على نفسه، بأعماله، العار في مبتدأ الأمر، قبل أن يسبَّه الناس ويكيلون له الشتائم؛ وكذلك تفعل العائلة، حيث تسعى بنفسها إلى أسباب خرابها وتشتت علائقها قبل أن يقوم الآخرون بتفكيك ما بين أفرادها من أواصر؛ وبالمثل تفعل الأوطان، حينما تضع بيديها أسباب استلابها ومداهمة الكوارث لها قبل أن يُقدِم الآخرون على شن الغارات عليها ومحاربتها. وقد جاء في أحد الفصول (فصل «تايجيا») «كتاب التاريخ القديم» (شانغ شو)، ما نصه: «من أسهل أن يتجنَّب المرء مصيبةً نزلت عليه من السماء، لكن الشر الذي يجلبه على نفسه بيديه هو الذي يؤدي به إلى الموت «مهما حاول الخلاص منه».»

(٧–٩) قال منشيوس: «ما كان لكل من (الطاغيتين) «جيه» و«تشو» أن يضيعا الممالك من أيديهما إلَّا لأنَّهما خسرا «مساندة» الشعب، وما كان لهما أن يخسرا المساندة الشعبية، إلَّا بما تسببا فيه من تحوُّل أماني ومشاعر وقلوب الناس عنهما. إنَّ أفضل وسيلة لضمان السيطرة التامة على الممالك كلها هي أن تكسب الناس في صفِّك، فتلك هي الوسيلة المثلى لأن تضع الممالك نفسها في جعبتك؛ أمَّا أحسن وسيلة لضمان كسب الناس في صفِّك فهي أن تكسب مشاعرهم؛ لأنَّك إذا كسبت مشاعرهم ضمنت ولاءهم المطلق لك؛ والطريقة الفريدة التي تحوز بها مشاعر الناس هي أن تُحقق لهم أمانيهم، وألَّا تفرض عليهم ما يكرهونه رغمًا عنهم، فذلك يُحقق لك غرضك.

إنَّ الناس تتبع الإنسانية والبر مثلما تنحدر المياه تجاه مصب الأنهار، أو كما يتلمَّس الوحشي طريقه إلى البراري، «فمن ثم نفهم» كيف تنطلق أسراب السمك إلى أعماق البرك إذا ما هاجمها ثعبان الماء، «فهي تلوذ بركن حمايتها عند مواجهة الخطر»، ومن ثم أيضًا، كانت هجمة الباشق تعجِّل بفرار الطير إلى الأدغال، وكانت «السياسة الحمقاء للطاغيتَين» «جيه» و«تشو» هي التي دفعت الناس إلى الفرار نحو القائدين «العادلَين» الملك طانغ، والملك أون (أسرة شانغ).

أمَّا اليوم، لو ظهر بيننا ملك يميل إلى البر والإنسانية، لتدافعت إليه جموع الناس «هربًا من طغيان الأمراء»، ولصار في مقدوره توحيد الممالك كلها «ولو لم يكن ذلك ضمن تطلعاته».

لكن ليس هناك «على الساحة الآن» سوى البعض ممن يأملون في توحيد الممالك، بطريقة أشبه ما تكون بالمريض الذي ألمَّ به الداء طوال سنوات سبع، ثم إذا هو يريد الشفاء بتعاطي دواء لم يختمر في قنينة التحضير سوى ثلاث سنوات فقط (زهرة من عشب طبي تتطلَّب وقتًا طويلًا كي تؤتي قيمة علاجية)؛ وهو ما لن يُفيد المريض شيئًا أبدًا طوال حياته، ما لم ينقضِ وقت كافٍ كي يؤتي الدواء مفعوله.

أي أنَّ الأمراء يحتاجون للعزم والتصميم على اتخاذ سياسات إنسانية وعادلة، لئلا يقعوا في براثن القلق والفشل المهين؛ بل قد يتجاوز الأمر إلى المساس بأمن حياتهم وبقائهم نفسه.

وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم «هذا المعنى»:

«كيف للأحوال أن تنصلح،
وأن توضع الأمور في نصابها
«ما دامت» الأطراف كلها تتناحر،
ويشد بعضها بعضًا؛
ليسقط الجميع في لجة عميقة،
لا خروج منها؟»

(٧–١٠) قال منشيوس: «لا يُمكن أن يُجري المرء حوارًا مع مَن يتعمد إيذاء نفسه، ولا يُمكن مصادقة مَن يحطُّون من قدر أنفسهم؛ فالمتكلمون بما يُسيء إلى الآداب والفضائل هم أولئك المتعمدون إيذاء أنفسهم، أمَّا المسيئون لأنفسهم «بحطهم من قدرها»، فهم الذين لا يُقيمون مبادئهم على قاعدة من الإنسانية، ولا يسلكون في طريق العدل والرحمة.

الإنسانية [أو الإحسان، في معنى ما ...] هي موطئ راحة النفوس والضمائر البشرية؛ والاستقامة [أو العدل في صياغة أخرى ...] هي أقوم الطرق جميعًا؛ فإذا ما فرغ الضمير من الراحة، وتاهت أقدام السائرين عن دليل الاستقامة، كانت تلك هي الداهية الكبرى (المأساة الكبرى)!»

(٧–١١) قال منشيوس: «برغم أنَّ الطريق قريب جدًّا، إلَّا أنَّ الناس يطلبونه في الأفق البعيد، وبرغم أنَّ الأمور سهلة وميسورة، إلَّا أنَّ الجميع يجولون في الطريق الصعب، ألا إنَّ المودة للآباء واحترام كبار السن وتوقير الأجداد «كل ذلك» جدير بأن يَنشر في ربوع الأرض السلام.»

(٧–١٢) قال منشيوس: «لا يُمكن للعاملين في أدنى الدرجات الوظيفية، ممن لا يحوزون ثقة رؤسائهم، أن يُقدموا خدمات مفيدة للناس، «ومع ذلك» فهناك مَن يضمنون لمثل هؤلاء الحصول على ثقة رؤسائهم؛ «ذلك أنَّ» مَن يعجز عن الفوز بثقة الأصدقاء، فلا بد سيخفق في الحصول على ثقة المديرين والرؤساء.

«ومع ذلك» فهناك طريقة مُثلى للفوز بثقة الأصدقاء؛ «ذلك أنَّ» مَن تفانى في خدمة والديه بكل عرفان، دون أن يُدخل الرضا والبهجة على قلبيهما، فلن يُمكنه الفوز بثقة أصدقائه.

«وبرغم ذلك» فهناك مدخل لإضفاء الرضا والسعادة على مشاعر الأبوين؛ ذلك أنَّ مَن يُحاسب نفسه ثم يكتشف بأنَّه لا يحمل في قلبه أدنى قدر من المودة الصادقة، فلن يستطيع بالقطع أن يُرضي والديه، «ثم إنَّ» هناك حلًّا يُمكن بواسطته تبنِّي موقف تتحقَّق فيه مراجعة النفس على أساس من المودة الصادقة؛ ذلك أنَّه إذا لم يستطع المرء فهم معنى الخير، فلن يُمكنه أبدًا تقدير المودة الصادقة، ومن ثم، فالإخلاص هو طريق السماء (المذهب السماوي الطبيعي)، فالبحث عن تقدير الإخلاص هو مسعى الإنسان.

ولم تشهد الحياة الإنسانية قط تجربة إنسان استطاع أن يتصف بالإخلاص دون أن يؤثر في مشاعر الناس من حوله، إنَّ مَن لم يتحقق بالإخلاص معدنه، لن يقدر على النفاذ إلى قلوب البشر.»

(٧–١٣) قال منشيوس: «كان الأمير «بويي» (الابن الأكبر لآخر حكام أسرة شانغ الملكية) عازفًا عن رؤية «الملك الطاغية» «تشو»، فذهب واختار السكنى بجوار شاطئ بهر «بيهاي»، فلمَّا بلغته أنباء ولاية الملك «أون» للعرش، قام من فوره قائلًا: «لم يعد لي أن أبقى ها هنا، فلأذهب ولأكن في صحبة جلالته، خصوصًا بعدما بلغني من حسن قيامه (يقصد الملك أون) على أمر الشيوخ والمسنين.» وكذلك كان «تايكون» (أحد تابعي الملك «أو») قد قرَّر أن ينأى بنفسه بعيدًا عن صحبة «الملك الطاغية» «تشو»، وذهب للإقامة بجوار شاطئ بحر «دونهاي»، فلمَّا سمع بقيام الملك أون على عرش البلاد، قام من مكانه (منفاه الاختياري) قائلًا: «فيمَ جلوسي، هنا، دون أن أكون في معيته، تابعًا مخلصًا، «وما لي لا أذهب …» وقد بلغني أنَّه يرعى شئون العجائز والكهول؟!

ثم إنَّ هذين الشيخين الهرمين (بويي، وتايكون) كانا أشهر وأعظم كبار السن في الممالك كلها، فلمَّا ذهبا ليتبعا جلالته، سار على أثرهما كل العجائز في البلاد، وهو الأمر الذي نتج عنه (بطبيعة الحال) خروج كل الأبناء — مثل آبائهم — تأييدًا ونصرة لجلالة

الملك «فلم يكن يسع الأبناء مخالفة آبائهم!» ولو قُدِّر للأمراء أن يسيروا على نهج وسياسة الملك أون، لصارت لهم، في سبع سنوات فقط، سلطة إقرار السيادة والقانون في ربوع الممالك كلها.»

(٧–١٤) كان «رانشيو» (تلميذ كونفوشيوس) يعمل في منصب رفيع لدى جيكانزي (أحد كبار رجال دولة لو)، ولم يكن، برغم منصبه، قادرًا على تغيير سلوك وتصرفات سيده؛ بل إنَّه زاد ضريبة الحبوب المقررة إلى الضعف، مما دفع كونفوشيوس إلى مصارحة تلاميذه، بقوله: «لا أعدُّ رانشيو واحدًا من تلاميذي بعد اليوم، فقوموا وأطلقوا نفير الحرب عليه.» وإذا تأمَّلنا تلك المسألة لاحظنا أنَّ السيد المُشار إليه لم يكتفِ فقط بالامتناع عن اتخاذ سياسة قائمة على الإنسانية والإحسان؛ بل راح يدعم مسعى سيده في الكسب والإثراء على نحو غير مشروع، «وهو الأمر الذي جلب عليه سخط» المعلم الأكبر، وخصوصًا ذلك الجانب الذي يبدو فيه المرء نشيطًا ومتحمسًا لأن يقوم بدور المهاجم والمحارب، متبنيًا موقف سيده؛ فتمتلئ السهول بدماء القتلى في حروب ليس لها هدف سوى الاستيلاء على مناطق للنفوذ، وتتكدَّس أشلاء القتلى حول أسوار المدن، في حروب للاستيلاء على الحصون، وكأنَّ الأمر كله بمثابة خطة تهدف إلى إرواء الأرض بمزيد من الدماء، بعد إشباع نهمها من أشلاء الجثث، وعندما يصدر حكمٌ بالإعدام على القتلة والسفاحين، يصير الحكم بلا جدوى؛ إذ لا يُعوض مقدار الخسارة الناجمة عن الجرائم المرتكبة.

وترتيبًا على ذلك، فينبغي توقيع أقصى العقوبة على كل مَن يجيد فن القتال والحرب من الجنود، ويأتي بعدهم، في الدرجة الثانية ممن يستحقون العقاب، كلُّ مَن يقومون بتحريض الأمراء على التكتل في مواجهات دامية بين دويلاتهم، وفي الدرجة الثالثة من العقوبات القصوى يأتي كلُّ مَن يرغم أفراد الشعب قسرًا على استصلاح الأدغال (حتى لو كان الغرض طيبًا ...) لتحويلها إلى أراضٍ تصلح لإنتاج المحاصيل.»

(٧–١٥) قال منشيوس: «إذا أردت أن تختبر إنسانًا، فانظر جيدًا في عينيه، فليس هناك ما هو أفضل من العين في كشف بواطن الإنسان؛ فهي لا تُجيد إخفاء النوايا الشريرة، إنَّها لا تلمع في وضوح ونقاء إلَّا عينُ امرئ سليم الطوية، صريح الرأي، ولا تنطفئ مثل عين انطوى باطنها على الدهاء والمكر والخبث، انظر مليًّا إلى عين المتحدث؛ فلن يخفى عليك ما استتر بين جوانحه من خير أو شر.»

(٧–١٦) قال منشيوس: «إنَّ المهذبين لا يسبون أحدًا، والمقتصدين في معيشتهم لا يسلبون أحدًا ماله؛ إنَّ الأمير الذي يسب شعبه وينهب أمواله، «لا يفعل ذلك إلَّا لأنَّه ...»

يخشى، من أعماقه، ألَّا ينصاع له الناس بالطاعة والخضوع. «فالسؤال هو ...» كيف يُمكن «للأمير» أن يتحلَّى بالأدب والنزاهة معًا؟ فذلك أمر لا يُمكن تحقيقه بالكلام وحده وبتكلف تعبيرات الوجه واصطناع المظهر المناسب!»

(٧–١٧) ذهب «تشون يوكون» (أحد رجال المناظرات السياسية في دولة تشي) إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «أمن قواعد السلوك المهذب ألَّا تتلامس أيدي النساء والرجال عند تبادل الأشياء بينهما، سواء عند استلامها أو تقديمها؟» فأجابه: «نعم، ذلك ما تنص عليه قواعد الأدب»، فعاد الرجل يسأله ثانيةً: «أيُمكن للرجل أن يمد يده لينقذ زوجة أخيه التي انزلقت في النهر؟»

فأجابه: «إذا سقطت زوجة الأخ في النهر فامتنع الرجل من أن يمد يده إليها فهو ذئب جهول «ضال غشوم»؛ فلئن كان من الأدب ألَّا تتلامس أيدي الرجال والنساء حفاظًا على قواعد الأدب والأخلاق، فإنَّ مد يد العون لزوجة الأخ الغارقة أمر استثنائي «له ما يُبرره» من دواعٍ عاجلة ومؤقتة.»

فسأله السائل: «فها هي ذي الممالك كلها تسقط في الماء «غارقة في وحل الأحداث»، دون أن تتفضَّل «سيادتكم» فتمد لها يد العون، فما السبب في ذلك؟» فأجابه: «إنَّ سقوط الدول والممالك والإمارات في النهر يتطلَّب «مبادئ كبرى» تُعين على الإنقاذ، أمَّا سقوط امرأة بالقرب من الشاطئ فلا يتطلَّب سوى أن أمد لها كف يدي؛ فها هي ذي يدي إن كنت تظن أنَّها تكفي «بكل بساطة» لإنقاذ أهل الممالك جميعًا؟»

(٧–١٨) ذهب كونسونيان إلى الشيخ الحكيم منشيوس، وسأله: «لماذا يمتنع المُربي الفاضل عن تعليم أولاده بنفسه؟» فأجابه: «لأنَّ مثل هذا الموقف «الذي يتخذه المُعلم العاقل بشأن تدريس العلوم لأولاده» غير ذي نفع لكلا الطرفين؛ فلا بد للمعلم أن يُمارس قدرًا من التقويم والجدية «مع طلابه» فإذا لم يأتِ ذلك بنتيجة، استولى عليه الغضب، وحينئذٍ، فربما تصرَّف على نحو يؤذي مشاعر تلاميذه، وهنالك يتناجون قائلين: «ها أنت تنهرنا وكأنَّك أنت نفسك لا تُخطئ أبدًا»، فيقع بين الأب وأولاده من الأسى ما لا مفرَّ منه، وهو أسوأ ما يُمكن أن يقع بين والد وولده.

كان المعلمون في قديم الزمان يتبادلون الأبناء في فصول الدراسة، فلا يقوم أحد منهم بالتدريس لأولاده؛ تجنبًا لما يُمكن أن يقع من جفاء بسبب الحرص على النصح والتوجيه «من جانب المُعلم»، مما قد يصل إلى جرأة الأبناء على مقارعة حجج آبائهم، فيحدث الشقاق بين الطرفين، الذي تنجم عنه أفدح النتائج.»

(٧–١٩) قال منشيوس: «ما أفضل وجه للقيام بحق إعالة الآخرين وخدمة الناس؟ ليس أفضل من أن يعول المرء والديه؛ وما عماد الأخلاق؟ تهذيب النفس هو ذاك. ولقد سمعت بمَن أخذ نفسه بالحزم، وتفانى في خدمة أبويه، لكني لم أسمع أبدًا أنَّ سفيهًا لا خَلاق له استطاع أن يرعى والديه حق الرعاية.

الكل يعرف واجب الرعاية، لكن رعاية الأبوين هي الأساس الأول. الجميع يعرفون السلوك الأخلاقي، لكن صون النفس بمبادئ الاستقامة هو القاعدة الأصلية.

لَمَّا كان «سنغ زي» (أحد تلاميذ كونفوشيوس) يقوم بإعالة والده «سنغ شي» (هو أيضًا أحد تلاميذ الشيخ الأكبر)، فقد كان يُقدم له — أزكى الطعام — [حرفيًّا: يُقدم له آنيةً مليئة بالطعام، وكئوسًا مترعةً بالخمر]، فإذا حان وقت رفع الأطباق عن المائدة، سأل أبوه عمَّن يستحق أن ينال ما بقي من الطعام. وعندما كان أبوه هو الذي يبتدره مستفسرًا منه عمَّا إذا كان قد بقي من الطعام شيء، فقد كان يرد عليه بالإيجاب. فلمَّا مات الوالد سنغ شي، راح سنغ يوان «يُواصل ما تواضعت عليه التقاليد من أن يقوم الولد» برعاية أبيه «سنغ زي»، فكان يمد أمامه أسمطة بأطباق الطعام وكئوس الشراب، لكنَّه لم يكن يسأله عند فراغه من الأكل عمَّن يستحق الحصول على ما تبقى في الأطباق، وكان إذا سأله أبوه عمَّا إذا كان قد بقي شيء على المائدة فكان يرد بالنفي؛ لأنَّه ينوي — في نفسه — أن يُقدِّمه إليه مرةً أخرى، فهذا «اللون من الرعاية» يُطلق عليه «إطعام الفم ورعاية الجسم»، أمَّا ما فعله سنغ زي «مع أبيه»، فهو ما يُقال له «إشباع الروح وتلبية حاجات النفس»؛ فهذه الطريقة التي تصرَّف بها سنغ زي نحو والديه هي الطريقة المثلى.»

(٧–٢٠) قال منشيوس: «لا يصح أن يكون القائمون على إدارة الشئون الحكومية العليا موضع انتقاد ممن هم أدنى منزلةً، ولا أن تكون سياستهم «التي يحكمون بها» محل مراجعة ونقد من أولئك «المسئولين الأدنى مرتبةً»، ليس سوى «ذوي الشأن» فقط هم الذين يحق لهم تقويم ما يقع فيه «صاحب السيادة» من أخطاء.

أما إنَّ الحاكم الملتزم بالإنسانية سيقود كل الناس تجاه التخلق بخلق إنساني رحيم. والعدل إذا تحقَّق على يد الأماجد كان خليقًا بأن يدفع الناس كلها إلى التماس العدل في سلوكهم، ثم إنَّ الاستقامة عند أرفع الناس قدرًا تشيع جوًّا من الخصال القويمة عند كل الناس، ولا يحل الأمن والاستقرار إلَّا ببلد استقام أمر قادته. [حرفيًّا: جرى تقويم أخطائهم].»

(٧–٢١) قال منشيوس: «قد يفوز بالثناء مَن لم يسعَ إليه، وقد يجني الحسرة «والذم» مَن تجاوز كل الحدود المعقولة للحصول على أوسمة المديح والثناء.»

(٧–٢٢) قال منشيوس: «ليس للمرء أن يعتب على مَن يفرطون في كلامهم.»

(٧–٢٣) قال منشيوس: «آفة الناس جميعًا في كل زمان ومكان، أنَّهم يريدون القيام بدور المعلم الواعظ والناصح الأمين.»

(٧–٢٤) ذهب «يوجين» بصحبة «وان زياو» إلى دولة تشي، ثم إنَّه التقى هناك بالشيخ الحكيم منشيوس، الذي ابتدره بسؤاله: «أفأنت أيضًا قد جئت لتراني؟» فأجابه «يوجين»: «لا أدري ما الذي يدعوك يا سيدي إلى أن توجِّه لي مثل هذا القول!» فسأله منشيوس: «كم مضى عليك من الوقت منذ أن وصلتَ «إلى هذه البلاد»؟» قال: «قد وصلتُ منذ أمس الأول»، فقال منشيوس: «إذا كنت قد حضرتَ منذ أمس الأول، أفلا يبدو قولي لك «الذي تستغربه مني» مناسبًا وصحيحًا تمامًا؟»

وعندئذٍ قال له يوجين: «لم أكن منذ وصولي قد استأجرت المسكن الذي أقيم به»، فقال له الشيخ: «شيء لم نسمع به من قبل في عمرنا كله؛ فمَن ذا الذي أخبرك بأنَّه ينبغي «للطالب المخلص» أن يجد المسكن المناسب، أولًا، قبل أن يلتقي بالشيخ «المُعلم» الأكبر سنًّا؟» فلم يملك يوجين إلا أن قال: «أعترف بأنِّي مخطئ يا سيدي.»

(٧–٢٥) تحدَّث منشيوس مع يوجين فقال له في معرض كلامه معه:

«ما أرك جئت مع «وان زياو» إلَّا لتملأ فمَك بالطعام وبطنك بالشراب، وما كنتُ أظنك، وأنت «المثقف» الدارس المطَّلع على كتب «وأفكار الأقدمين أن تقودك» نهمة المأكل والمشرب.»

(٧–٢٦) قال منشيوس: «عقوق الأبناء لآبائهم ثلاثة، [لم يذكرها المتن تفصيلًا]، أسوأها جميعًا عدم إنجاب ذرية «تحمل لقب العائلة، وبالتالي؛ تحفظ بقاءها، حتى لقد قيل:» إنَّ الإمبراطور الحكيم شون تزوَّج بغير علم أهله، خشية ألَّا يُرزق بأنجال وأحفاد «فيكون قد أساء إلى أجداده، مرتكبًا أعظم الآثام». ويرى العقلاء الأماجد «أنَّه لم يرتكب خطأ بعدم إبلاغ أبويه وإحاطتهم علمًا بظروف زواجه، أي ...» إنَّه، في هذه الحالة بالذات، كأن قد أبلغهما، ولا يؤاخذ بشيء!»

(٧–٢٧) قال منشيوس: «إنَّ الجوهر الحقيقي للإحسان هو طاعة الوالدين؛ والمحتوى الفعلي للعدل هو طاعة الأخ الأكبر؛ والمعنى الجوهري للحكمة هو الوعي بهاتين المسألتين والسير على هديهما بغير ميل؛ والمغزى الأصلي لآداب المعاملات هو الحرص والدأب على العمل بهما، والمفهوم الجذري للموسيقى (قانون الجمال ... والأخلاق أيضًا!) يقوم على استلهام هاتين النقطتين بمنتهى الحب؛ مما يعمل على تحفيز الطاقة الإبداعية فتؤتي

ثمارها، فإذا آتى الإبداع ثماره صار من المستحيل الوقوف في وجه تياره المتدفق، وإذا استحال صد تيار الإبداع، دقَّت الأقدام طربًا ومالت الأيدي «بغير إرادة واعية» واهتزَّ الجسم إيقاعًا ورقصًا.»

(٧–٢٨) قال منشيوس: «أن ينصاع الناس جميعًا (أهل الممالك) خضوعًا لسلطان رجل حكيم، ثم لا يُساوي مثل هذا الخضوع مجرد حشيشة ذابلة فوق الأرض، فهذا ما لا يتكرَّر كثيرًا على مر التاريخ؛ إذ كان ذلك هو الحال ما بين أهل الممالك والإمبراطور الحكيم «شون».

إنَّ مَن لم يفز برضا الأبوين، فقد خسر إنسانيته، ومَن عصاهما فقد تناءت عنه صفة البر.

لقد ظلَّ القديس الحكيم شون يرعى والديه في تفانٍ حتى نال رضا أبيه «كاوصو»، وكان لهذا الرضا الأبوي صدى في كل الممالك؛ حيث جعلته التقاليد والأعراف الاجتماعية مضربَ الأمثال؛ فذلك هو ما يُطلق عليه «كاشياو» [أي: البر العظيم بالوالدين].»

الجزء الثاني

وجملته ثلاثة وثلاثون فصلًا

(٨–١) قال منشيوس: «وُلِد القديس الحكيم شون في بلدة «جوفنغ»، ثم انتقل إلى «فوشيا»، وكان موته بأرض «مين تياو»؛ فهو — بحسب موقع الميلاد والممات — ينتسب إلى المناطق الشرقية «المتاخمة للقبائل الهمجية».

ووُلِد الملك «أون» في بلدة شيجو، ومات في مدينة «بينغ»، فهو ابن المناطق الغربية «القريبة من القبائل البربرية»، وبرغم ما بين مواطن كليهما من طول المسافة، وما بين زمن ميلادهما من فارق السنين والأيام (إذ الفرق يبلغ ألف سنة كاملة) إلا أنَّ ما حققاه في الممالك من إنجاز باهر بعزم أصيل يُقرِّب بينهما بالدرجة التي تنمحي بها فروق الزمان والمكان؛ بل ويتطابقان كوجهي خاتم واحد، فالسابق منهما واللاحق، قد سار على نفس الطريق.»

(٨–٢) لما كان شانزي «أحد كبار رجال دولة جنغ» يتولى منصبًا حكوميًّا رفيعًا في بلاده، فقد كان يُعير الناس — تطوعًا — عربتَه الخاصة لتساعدهم في عبور نهرَي «تشن»، و«وي» «فلما بلغ ذلك الحادث منشيوس، علَّق قائلًا»: «هو كرم بالغ ومبادرة

شخصية نبيلة لمسئول حكومي بارز، إلا أنَّ مثل هذا التصرف، إن كان يدل على شيء، فهو يدل على عدم تمرُّس وقلة مهارة في الشئون السياسية، ذلك أنَّ مسئولًا حكوميًّا كبيرًا مثله، لو استطاع أن ينشئ جسرًا على النهر للمشاة في شهر نوفمبر «مثلًا»، ثم قام في الشهر التالي بإقامة جسر آخر لمرور العربات، لأعفي الناس من مشقة عبور النهر على نحو جذري.

إنَّ العاقل هو الذي يملك ناصية الإدارة السياسية الفعالة؛ «فيُعرف بذلك وسط الناس»، حتى إذا خرج بموكبه سائرًا في الطرقات قُرِعت لأجله الأجراس، وأُفسحت لعربته الدروب، «فالطبيعي، هو أن تسير بين الناس عربته الفخمة، اللائقة بمسئول محنك …»، وليس طبيعيًّا أبدًا أن يتولى بنفسه عملية عبور الناس إلى الشاطئ الآخر؛ لأنَّ المسئول الحكومي الكبير الذي يقدم علي مثل ذلك التصرف «تقربًا وخدمة للناس» لن يجد أبدًا الوقت الكافي للعمل طوال مدة منصبه.»

(٨–٣) قال منشيوس للملك شيوان، وهو ينصح له: «إذا صار ما بين الملك وبين وزرائه مثلما بين الإخوة والأشقاء، لأصبحوا طوع يديه ولانطبعت المودة والإخلاص له في أعماق قلوبهم، أمَّا إذا عدَّهم زمرةً من الأغبياء الجهلة [حرفيًّا: كالحمير والكلاب!] فسوف تسقط مكانته في نظرهم، ويعدونه كواحد من العامة (الدهماء)، وإذا نظر الملك إلى وزرائه بوصفهم حشائش ذابلة على قارعة الطريق (مجرد نباتات أرضية بغير قيمة)، أضمروا له العداوة والكراهية.»

وقال له الملك: «يقضي نظام الآداب و«الطقوس الرسمية» في حال وفاة أحد الأمراء، بأن يلتزم، حتى الوزراء السابقون، بارتداء ملابس الحداد، فما هي الوسيلة لإقناع الوزراء بالتصرف على هذا النحو؟»

فأجابه منشيوس: «إذا ما لاقت نصائح الأمير قبولًا لدى وزرائه، وقوبلت اقتراحاته بآذان مصغيةٍ، بحيث أفضت الأمور — في نهايتها — إلى ما يعود بالخير والنفع على أفراد الوطن كله، كان الأمير ملزمًا، حينئذٍ، بأن «يتصرف بقدر كبير من المسئولية مع الوزراء، فمثلًا …» يُرسل مبعوثًا خاصًّا من طرفه لمرافقة الوزير الراغب في مغادرة البلاد لأمر ما (أيًّا كان هذا الأمر)، فيُرتب له الخروج من البلاد دون أيَّة تعقيدات، ويبادر أيضًا إلي إرسال مبعوث إلى الجهة التي يقصد الوزير الذهاب إليها لعمل الترتيبات اللازمة، ولا يتم البدء في إجراءات من شأنها انتزاع حق الوزير الغائب عن البلاد في الملكية العقارية، إلا بعد مرور ثلاث سنوات كاملة منذ تغيُّبه خارج الوطن.

وهو النظام المسمى ب «الطقوس الأخلاقية الثلاثة»، وبتلك الطريقة سيلتزم الوزير بالتصرف «حيال الأمير المتوفَّى» طبقًا لنظام ارتداء شارة الحداد. لكن النصائح لا تجد مصغيًا، وليس للاقتراحات أدنى اعتبار، ولا يصل الإحسان إلى مستحقيه من الناس، وإذا اضطر الوزراء إلى مغادرة البلاد لأمر ما، جرى القبض عليهم وعوقبوا وأهدرت كرامتهم، أو «إذا نجحوا في الإفلات من تلك القبضة بالسفر خارج الوطن» جرى تعقُّبهم والنيل منهم وخلق العقبات لهم في كل المكان؛ بل تم حصار ومصادرة ممتلكاتهم، قبل أن ينقضي اليوم الذي غادروا فيه البلاد، فهذا كله مما يقال له «الإفراط في العداوة والكراهية»، أي إنَّ المرء يُعامَل وكأنَّه عدو غادر ولص أثيم، فما الذي يدعو أيًّا من الوزراء إلى ارتداء شارة حداد إذن؟»

(٨–٤) قال منشيوس: «إذا وقع السيف على رقاب المفكرين «الدارسين المتنوِّرين» بغير ذنب، هرب رجال الحكم الكبار خارج حدود الممالك، وإذا ذُبحت رقاب الأبرياء من الناس، تفرَّق المتعلمون المستنيرون في البلاد بددًا، وارتحلوا إلى أوطان بعيدة.»

(٨–٥) قال منشيوس: «ما دام الأمير رحيمًا، فلن يسلك الناس بغير الرحمة، فإذا كان عادلًا، فأينما سار الناس فثم طريق العدل.»

(٨–٦) قال منشيوس: «إنَّ صاحب الخلق الكريم، لن يرضى لنفسه أن يأتي أمرًا ظاهره استقامة وعدل، وباطنه خواء وزيف.»

(٨–٧) قال منشيوس: «على كل ذي خلق كريم أن يكون نموذجًا يقتدي به الأدنى خلقًا، وليُسارع كل ذي اقتدار أو موهبة من علم أو حرفة إلى تعليم الآخرين شيئًا مما أجاده وأتقنه؛ فالناس لا يسعدون بشيء قدر سعادتهم بأن يجدوا بين رجالهم النخبة ذات العلم والجدارة؛ أما إذا استنكر ذوو الخلق القويم أن يأخذوا بيد إخوانهم الأدنى حظًّا صوب الرشاد، ونأى أصحاب المهارات والمواهب بأنفسهم عن تلقين الناس أسرار العمل والإجادة، صارت المسافة بين الحكماء والسفهاء ضيقةً جدًّا، تكاد تقل عن مقدار البوصة الواحدة.»

(٨–٨) قال منشيوس: «لا يتصور المرء ما يتوجَّب عليه أن يعمله، إلا إذا أدرك، أولًا، ما لا ينبغي عمله.»

(٨–٩) قال منشيوس: «يا له من مستقبل مليء بالمتاعب ينتظر أولئك المولعين بفضح أخطاء الناس دون حياء.»

(٨–١٠) قال منشيوس: «لم يكن جوني [أحد ألقاب كونفوشيوس] يتجاوز الحد الأوسط من كل أفعاله.»

(٨–١١) قال منشيوس: «قد لا يكون الرجل المهذَّب أخا ثقةٍ في كلمه، وربما لا يكون أيضًا أخا عزمٍ في أفعاله؛ لكنه في كل الأحوال ينطلق في كل ما يعمله من قاعدة تقوم على الحق والعدل.»

(٨–١٢) قال منشيوس: «إنَّ الرجل العظيم هو ذلك الذي لم يفقد، بعدُ، نقاء الطفولة وبراءة القلب الوليد.»

(٨–١٣) قال منشيوس: «إنَّ القيام على خدمة الوالدين في حياتهما، ليس بالشيء الكثير؛ ذلك أنَّ أهم وأعظم خدمة «يقوم بها الابن البار» هو إقامة طقوس الدفن والوداع الأخير لهما.»

(٨–١٤) قال منشيوس: «إنَّ العاقل مَن يسلك طريقًا «في كل ما يعمل» يبتغي به التعمُّق والإجادة وصولًا إلى الدرجة التامة من التحصيل «التي يصبح فيها الموضوع المستهدف، أو مادة العمل ...» تحت سيطرته بإرادة كاملة، ثم إنَّ تحصيل الأشياء بإرادة تامة يعني القبض على زمام مادتها بيدٍ صلبة، ولا شك أنَّ التحكُّم الراسخ في مادتها يؤدي إلى التراكم الوئيد الذي يستقطر عنصر الإجادة، فإذا ما أمكن لمثل ذلك التراكم أن يستصفي معدن الإجادة، بلغ المرء درجة الإتقان ورسوخ القدم، وسلاسة الاستخدام، ودام له النجاح والتوفيق؛ لذلك ينبغي للعاقل أن يطلب طريقًا للعلم والتحصيل.»

(٨–١٥) قال منشيوس: «إنَّ التوسع في التحصيل العلمي بالإضافة إلى القدرة على الملاحظة التفصيلية يمكِّن «المرء» من الوصول إلى مرحلة استخلاص المبادئ الأساسية (الخلاصة) في المعرفة.»

(٨–١٦) قال منشيوس: «لا المهارة ولا التفوق وحدهما استطاعا أن يُقنعا الناس بأي شيء؛ بل التمكن من استخدام وسائل الإرشاد والتوجيه، كان هو الذي أخضع الممالك بقوة الإقناع، ثم إنَّه لم يحدث أبدًا في تاريخ الإنسانية أن تحققت وحدة الممالك تحت راية واحدة بغير الاقتناع التام «... من جانب أهل الممالك أنفسهم».»

(٨–١٧) قال منشيوس: «من سوء الحظ (سوء الطالع) أن يقول المرء كلامًا بغير معنًى حقيقي، وقد كان الكثير من الكلمات الغامضة هي التي حجبت عددًا هائلًا من الحكماء الطيبين عن الظهور.»

(٨–١٨) جاء شيوزي إلى منشيوس وسأله: «كان كونفوشيوس يمتدح الماء كثيرًا، حتى إنَّه كان يتغنَّى به من حين إلى آخر، ترى ما الذي رآه جديرًا بالاهتمام في تلك المسألة «المائية»؟» فأجابه: «لطالما انبجست المياه من عيون الآبار، ولم تتوقف عن الجريان

ليل نهار، تتدفق من بين الشقوق المنخفضة فتملأ القيعان، وتطفو فتسيل فتجري في الجداول صوب الأنهار، لطالما كان ذلك حالها على مرِّ الزمان «قانونها الأبدي الذي لم تغيِّره واتجاهها المعهود من قديم!» فذلك هو ما لفت انتباه كونفوشيوس من سماتها فقال ما قال، صحيح أنَّه بغير آبار، كانت مياه الأمطار تسقط في الشهر السابع والثامن بغير انقطاع فتمتلئ منها المصارف والوديان، إلَّا أنَّها سرعان ما تجف وتغيض «وتصبح أشبه شيء بالشهرة التي تنزل على المرء سريعًا وتزول بنفس السرعة»، فالشهرة الطيبة إذا ما تجاوزت إمكانات الواقع تعود وبالًا على صاحبها مهما ذاع صيته «فذلك ما دعا كونفوشيوس إلى التغنِّي بمياه الآبار!»».

(٨–١٩) قال منشيوس: «برغم أنَّ الفرق بين الإنسي والوحشي «من الطيور والنباتات» ضئيل جدًّا، فإنَّ الأشخاص العاديين يخصمون هذا الفرق الضئيل «فتبدو تصرفاتهم وسلوك الوحشي سواء بسواء»، إلا السادة الأماجد، فهم وحدهم الذين يحافظون على بقاء تلك المسافة لتحفظ عليهم إنسانيتهم، وقد أدرك الحكيم القديس شون طبائع الأشياء كلها، ولاحظ نمط سيرورتها وتفحَّص أحوال البشر، فاختار لنفسه طريقًا «في الحياة» يقوم على مبادئ الاستقامة والإنسانية، لكنه أبدًا لم يكن يسعى لتطبيق الإنسانية والاستقامة؛ «سعيًا وراء الشهرة الكاذبة؛ «إذ إنَّ استلهام المبادئ يختلف عن الادعاء السطحي بامتلاك مادةٍ حقائقها كاملةً»».

(٨–٢٠) قال منشيوس: «كان الملك «يو» يكره الخمر ويحب الكلام ذا المعاني الجميلة؛ أمَّا الملك «طانغ» فقد كان يلزم نفسه باتباع مذهب الوسطية، ويختار للمناصب العليا أكفأ الناس وأنسبهم دون ميلٍ أو محاباةٍ، وراح الملك أون يُعامل مواطني بلده «بكل عطف وتفانٍ»، كأنَّهم خرجوا توًّا من كارثة، «هذا من ناحيةٍ ومن ناحيةٍ أخري، فقد ...» كان يبحث عن الطريق الصحيح كأنَّه يبحث عن كنز دفين «أرهق نفسه بالبحث عن الصواب ولم يعثر عليه!»

ومن جهة الملك «أو»، فلم يحدث أبدًا أن استهان بمكانة وزرائه القريبين، ولا أهمل وزراءه البعيدين.

وفيما يتعلق بأمر عظيمِ أسرة جو (الملك جوكون) فقد أراد أن يجمع في شخصه مزايا الملوك القديسين المؤسسين للأسر الملكية الثلاث القديمة: «شيا، شانغ، جو»، بالإضافة إلى إنجازات الملوك الأربعة: «يو، طانغ، أو، أون»، فكان إذا التبست عليه مسألة تعجزه عن اقتفاء آثارهم، راح يتأمَّل دقائقها بعمق، يواصل الليل بالنهار، بحثًا وتفكيرًا، حتى إذا اهتدى إلى ضالته فيها نهض صباح يومه عازمًا على الشروع في اتخاذ الوسائل التنفيذية.»

(٨–٢١) قال منشيوس: «قد اندثرت التقاليد الملكية القديمة التي كانت تحرص على اقتفاء الآثار الشِّعرية وتدوينها، ومن ثم فلم يعد هناك «تدوين مقدَّس، مثل ...» كتاب الشِّعر القديم، «وبانتهاء ذلك اللون من المدونات التراثية» ظهر كتاب «تشو نشيو» (حوليات الربيع والخريف) وكتاب «شانغ» (العربة الحربية) وهو سجل تاريخي لدولة تشو، وكتاب «تشو نشيو» «أيضًا، بعنوان «حوليات الربيع والخريف»، لكنه يحوي، هذه المرة، السجلات التاريخية الخاصة بـ ...» دولة لو؛ وهي كلها كُتبٌ ذات طبيعة «تاريخية» واحدة، ولا يخرج محتواها عن أن يكون تدوينًا (تراجم شخصية) للملوك: هوانكون (ملك تشي)، أون (حاكم جين)، وأسلوب السرد فيها يتسم بطابع التدوين التاريخي.

وقد قال كونفوشيوس، «بخصوص تلك المدونات الكبرى»: «كنتُ أنا — كونفوشيوس — الذي قمتُ، بقلمي هذا، بصياغة المبادئ (الخطوط) الكبرى لمحتويات تلك المدونات كلها.»

(٨–٢٢) قال منشيوس: «لم تكد التقاليد العظيمة التي ميَّزت سيرة شخصيات تاريخية مجيدة تستمر خمسة أجيال، حتى تلاشت تمامًا؛ بل إنَّ آثار التقاليد التي وضعها السفهاء من الرجال انقضت، هي أيضًا، بعد خمسة أجيال، ورغم أنِّي لم أدرس على يد كونفوشيوس نفسه «ولا التقيتُ به وجهًا لوجه» إلَّا أنِّي تلقيت عنه العلم عبر اطلاعي الفردي على ما سجَّله الآخرون.»

(٨–٢٣) قال منشيوس: «إذا تساوت الكفة بين الحصول على الشيء وتركه، كان الحصول عليه ماسًّا بمعنى النزاهة والشرف، وإذا تساوت الكفة بين المنح والمنع، كان المنح انتقاصًا لفضيلة الإحسان، وإذا تعادلت كفتا الموت والحياة صار الموت إهدارًا للشجاعة.»

(٨–٢٤) «قيل قديمًا» إنَّ «بنغ مان» كان قد تعلم الرماية على يد «إي»، فلمَّا مهر فيها للغاية وأتقن كل فنونها راح يجوب البلاد والممالك «ليُنازل مَن هو أشد منه درايةً»، فلم يجد سوى أستاذه الذي علَّمه إياها، فقتله، فقال منشيوس في ذلك: «إنَّ هذه لجريمةٌ كبرى، لكن «إي» له نصيب أيضًا فيما حاق به، «... فهو المخطئ الأول»، وتكلم كُون مينغي «مجادلًا»، قال: «لا يبدو من الوقائع أنَّه مخطئ في شيء أبدًا»، فردَّ منشيوس، قائلًا: «هو مخطئ ولو بالقدر اليسير، لكنا لا نعفيه، برغم ذلك، من المساهمة بذلك القدر الزهيد فيما حاق به، وقد حدث أن قامت دولة «جنغ» بتكليف رجل اسمه «زيجورو» بمهمة مهاجمة دولة «وي»، ثم ما لبثت، هذه الأخيرة «بعدما علمت بالأمر» أن أرسلت في أثره «إيكون» ليتعقبه ويقتله، وكان أن قال زيجورو لنفسه: «إنَّ المرض قد اشتدَّ بي

وما عدت أستطيع رفع القوس في وجه خصمي، فأنا هالك لا محالة!»، ثم سأل قائد مركبته عمن يجري وراءه على الطريق، فأجابه بأنَّه المدعو «إيكونغ تشيس»، وهنالك تهلل زيجورو فرحًا وهو يقول: «إذن، فقد بقي لي في العمر بقية!»، فقال له الحوذي: «أما علمت أنَّ إيكونغ تشيس، هذا، أمهر رامٍ بقوس وسهم في طول دولة وي وعرضها؟ «فكيف تري لنفسك النجاة برغم ذلك!» فلا أدري لمَ تهللت هكذا؟!»، فأجابه زيجورو: «لأنِّي علمت أنَّ إيكونغ تشيس قد تعلم الرماية على يد «إيكون تشيطا»، الذي كان أحد تلاميذي، وهو أكثر الرجال نزاهةً واستقامةً، ولا بد أن أصحابه على شاكلته»، وفي هذه الأثناء كان إيكونغ تشيس قد وقف قبالة المركبة ونادي عليه وابتدره بسؤاله: «لماذا لا ترفع قوسك عليَّ؟» فأجابه: «قد اشتد بي المرض طوال يومي هذا؛ فلا أستطيع التحكم في القوس»، فقال له إيكونغ تشيس: «كنت قد تعلمت فن الرماية على يد تشيطا، وهو تلميذك الذي عرف أسرار القوس والسهم على طريقتك، ولا أدري كيف يطاوعني قلبي على أن أؤذيك بما تعلمته في مدرستك؛ غير أنِّي موكل بمهمة رسمية من قبل جلالة الملك، وأنت تعرف أنَّ الأوامر الملكية ملزمة، ولا يمكن الامتناع عن تنفيذها بأي حال»، ثم إنَّه أخرج السهام من جعبته وهوى بها على عجلة المركبة «الحديدية»، فكسر رءوسها وأخذ أربعة منها فأطلقها في الهواء، عشوائيًّا، واستدار وعاد أدراجه.»

(٨–٢٥) قال منشيوس: «كانت السيدة الجميلة «شيس» (امرأة فاتنة، عاشت إبان عهد الربيع والخريف، يُضرب بها المَثل في الملاحة والجمال) قد خرجت تمشي بين الناس، ذات يوم، وقد علقت بقميصها بعض القاذورات النتنة، فلمَّا فاحت الرائحة الكريهة صار الناس يمسكون أنوفهم ويتحاشونها ويجرون مبتعدين عنها. «والعبرة البادية في هذا تتمثل في ...» أنَّ أي إنسان حتى لو كان دميم الوجه — يستطيع إذا ما طهَّر جسده وثيابه — أن يقف بين يدي «أباطرة» السماء «ويقدم قربانه».»

(٨–٢٦) قال منشيوس: «الناس في كل مكان تحت السماء مشغولون جميعًا بالبحث والجدل حول طبيعة الإنسان، ولو كانوا قد أنفقوا جهدهم في تقصي أحواله (ظواهر أحواله) لكان ذلك أفضل كثيرًا، وتلك الأحوال (الظواهر) الإنسانية هي المبدأ الأصلي الذي يقوم على استقصاء «حالته الطبيعية».

ولئن كان الناس يمقتون التحايل «والتقعر الفلسفي ...» فلأنَّه، دائمًا أبدًا، أسلوب التحذلق وتكلُّف الحجج والتخريجات الواهية، ولو كان أولئك الأذكياء «المتحذلقون» قد حذَوا مثال الملك يو [إبان أسرة «شيا» الملكية] في بطولته الأسطورية وهو يصد الفيضانات ويروض الأنهار، لما كانت العبقرية والذكاء محل كراهية واستهزاء «كما هو حاصل الآن!»

ماذا لو جرى استقصاء الأحوال الطبيعية للسماء، تلك العالية المترامية في الأجواء، أو النجوم السابحة في الفضاء البعيد؛ «ذلك أنَّه لو جرى شيء من ذلك»، لتمكَّن الإنسان من حساب الفصول والظواهر المناخية «المحتملة» لمدة ألف عام، وهو جالس، لا يغادر مكانه قيد أنمله.»

(٨–٢٧) لما تُوفِّيَ ولد الوزير الأعظم كوهان (بدولة تشي) فقد ذهب «يوشي» ليقدم واجب العزاء لأهله، وما كاد يدلف من باب الدخول، حتى اقترب منه أحد الأشخاص وراح يتكلم معه، وبعد هنيهة اقترب من مجلسه شخص آخر، وراح يُحادثه، ثم راح يتكلم في الحاضرين، قائلًا: «إن كنت أعجب لشيء، فهو أنَّ كثيرًا من رجال الحكم الكبار قد اقتربوا مني الليلة، وتحدثوا معي في أمور شتى، إلا منشيوس، فهو الوحيد الذي لم يُعِرني أدنى اهتمام، وهو ما أراه تقصيرًا شديدًا في حقي، واستهانة بشخصي»، وهنالك أجابه منشيوس، بقوله: «طبقًا لما تقضي به أصول المعاملات وطقوس المجاملات، فلا يصح، في مثل هذا المجلس، أن يتجاوز أحدٌ مكانه المخصص له، ولا أن يتجاذب أطراف الحديث الجانبي مع الجالسين؛ بل ليس من المسموح، حتى، أن يقوم الشخص من مكانه لتقديم التحية لأي فرد أيًّا كان، وكنت — طوال الوقت — حريصًا على الالتزام بتلك الأصول والمبادئ، ومع ذلك فها هو السيد المهذب «تسياو» يُقرر بأنِّي تصرفت على نحو مهين وغريب!»

(٨–٢٨) قال منشيوس: «الفرق بين «الرجل» الماجد الجليل، وبين الوضيع الحقير، يتضح فيما استقرَّ عليه باطن كل منهما؛ ذلك أنَّ الماجد يطوي سريرته على الإنسانية والاستقامة «الأخلاقية»؛ فالإنسان «في أعماقه» يحب الناس ويتودد إليهم، والمهذب المستقيم «داخله» يحترم دائمًا الآخرين. ومَن يحب الناس، فالناس بالطبع يحبونه، ومَن يُبجِّلهم فإنَّهم يعاملونه بالِمثل.»

وإذا افترضنا، مثلًا، أنَّ بينَنا الآن رجلًا عاملني بغلظة، وجفاء «وكان عليَّ أن أتصرف، في هذا الموقف، كما ينبغي أن يتصرف الرجل المهذب …» فسوف أراجع نفسي وأحاسب ضميري متسائلًا في أعماقي: أكنت غليظًا معه أنا الآخر؟ … أأكون قد خرجت عن حدود الأدب واللياقة؟! لا بد أنِّي كنت كذلك بالفعل، وإلَّا فكيف حدث ما حدث؟ وهكذا، فالسيد المهذب يظل يراجع نفسه وسلوكه حتى يستعيد، في ضميره، مبادئ الإنسانية، ويستحضر في وجدانه أصول المعاملات الأخلاقية، وبرغم كل هذا يظل الرجل الآخر على حاله الأول؛ غليظًا لا يريم، ثم يعود المهذب الفاضل يستقصي كوامن نفسه متسائلًا حائرًا:» لا بد

أنِّي لم أكن مُخلصًا صادقًا مع نفسي ومع الآخرين، على حد سواء» ... ثم إنَّه يُجاهد كي يتحقق سلوكه بالإخلاص، فإذا الرجل الآخر باقٍ على جفائه وغبرة سحنته، فلا يجد المهذب سوى أن يقرر بجلاء: «إنَّ هذا الرجل معتوه، لا فرق بينه وبين الوحوش والبهائم، فمتى كان للإنسان أن يضع الأمور في نصابها مع الوحش والدواب غير العاقلة؟ ... ومن ثم، يسيطر القلق طويلًا على وجدان الرجل الفاضل، ولا يقتصر على لحظات قصيرة محددة، ومثلًا، فمن أمثلة الأمور التي يفكر فيها الإنسان وتثير القلق الدائم، أن يقول المرء لنفسه:» قد كان الملك الحكيم شون إنسانًا مثلي، لا فرق بيني وبينه في هذه الناحية، إلَّا أنَّه استطاع أن يصير نموذجًا ملهمًا للبشرية، وأسطورة تتناقلها الأجيال؛ بينما لا أزيد أنا عن كوني رجلًا بسيطًا.» ... ومثل هذه الفكرة تحرك كوامن القلق بالتأكيد.

فماذا نصنع مع هذا القلق إذن؟ فقد نحاول أن نتعلم درس وتجربة الحكيم المقدس شون، وهنالك، يتبدَّد قلق السادة المهذبين، فلا يقدمنَّ المرء على عمل مخالف للإنسانية، ولا يقربن سلوكًا مغايرًا لقواعد المعاملات، وبعد ذلك فمهما تراكمت المصائب فوق الرءوس، فلن يتولد أي إحساس بالقلق.»

(٨–٢٩) عاش «الحكيمان القديسان» «يوي» و«جي» في زمن استقرارٍ سياسيٍّ، وقد بلغا من الجدية في محاولة بسط رايات الاستقرار فوق الممالك؛ أنَّهما لم يُعَرِّجا على منزلَيهما ثلاث مرات متوالية (حينما كانا مشغولَين بمصالح الناس) فامتدحهما كونفوشيوس، وأثنى على فضائلهما الجمَّة.

وعاش «قديسٌ حكيمٌ آخرُ، يُدعى:» «يانزي» في زمان متقلِّب وأحوال مضطربة، وكان يُقيم في زقاق ضيق، وليس في بيته سوى كوب من الأرز ومغرفة خشبية، وقد لهجت الألسنة بالشكوى، وضجَّ الناس من قسوة الظروف وشدة الأحوال، وبقي وحده، مستبشرًا عاقد الأمل، وكم أثنى عليه المعلم الكبير «كونفوشيوس»، فلمَّا تكلم منشيوس «عن أولئك القديسين المذكورين، قال»: «كان ثلاثتهم (يوي – جي – يانزي) على خصلة وفضيلة واحدة؛ إذ كان يوي في مواسم الفيضانات الطائشة يحزن للمنكوبين ويبتئس لأجلهم، حتى بدا كأنَّه أوقع بهم في الكارثة بيديه، فراح يعذِّب نفسه، بضمير مثقل؛ وكان «القديس» جي يرى ويعيش بؤس المجاعة الضاربة في الأنحاء بأطنابها، «ويستميت في البحث عن خلاص» كأنَّه ألقم مرَّ الجوع في الأفواه، وكأن المأساة التي امتدت إلى كل بيت مأساتُه.

لو افترضنا أنَّ ثلاثتهم تبادلوا المواقع، فما كان ذلك ليُغير من موقفهم وسلوكهم شيئًا، ثم إذا افترضنا أن شجارًا نشب بين جيران يقطنون منزلًا واحدًا، وتطلب الأمر

سرعة التدخل لفض النزاع، فما كان لهؤلاء الرجال (مشيرًا إلى يوي وجي، تحديدًا) أن يتأخروا عن ذلك الواجب، حتى لو خرجوا من بيوتهم بشعور مشعثة، وقبعات متهدِّلة.

أمَّا إذا كان الشجار مع جيران في نفس الحي، وخرج المهذب الفاضل (يقصد يانزي) ليفضَّ المشاجرة بشعر أشعث وهيئة مضطربة، فهو الأمر الذي ما كان ليرضاه لنفسه أبدًا العاقل المهذب، رغم أنَّه لو أغلق بابه وبقي مكانه لما عاب عليه الناس فعله.»

(٨–٣٠) قال كوندوتسي «لمنشيوس، وهو يحادثه»: «يقول الناس في كل أنحاء البلاد، بطولها وعرضها، إنَّ «كوان تشان» رجل عاقٌّ لوالديه، ومع ذلك، فلم ينقطع ما بينك وبينه من ودٍّ، بل ظللت تُجِلُّه وتحترمه كثيرًا! فما السبب في ذلك الأمر المثير للدهشة والاستغراب؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «هناك خمسة مظاهر مختلفة للعقوق؛ أولها: التقاعس عن رعاية الوالدين خمودًا وتكاسلا، وثانيها: التغاضي عن رعاية الوالدين بسبب معاقرة الخمر والانغماس في اللهو البغيض [اللعب بالنرد والشطرنج، حرفيًّا]. ثالثها: التغافل عن خدمة الأبوين بسبب الميل والانجذاب نحو الزوجة والأبناء. ورابعها: جلب المهانة والتجريح للوالدين بسبب ضلالات الوشاية والنميمة. وخامسها: التنغيص على الأهل وتكدير صفو حياتهم بكثرة المشاحنات واستعراض الشجاعة في المشاجرات. «والسؤال الذي يبرز الآن هو:» أي لون من العقوق ذلك الذي يصم تصرفات «كوان تشان»؟ إنَّ أسوأ ما وقعتُ فيه العلاقة بين كوان تشان وأبيه هو الجفاء المتبادل بينهما؛ إذ كان كل منهما يشجب تصرفات الآخر؛ لحمله على الالتزام بالفضائل. إن الحضَّ على الفضائل واستنكار الرذائل أمر معهود بين الإخوة والأصدقاء، وليس بين الولد وأبيه؛ إذ من شأن ذلك أن تتوغر الصدور وتقع الحسرة في القلوب. ألم يكن كوان تشان يرغب في أن يجد الهناءة في بيته، بين امرأته وأولاده «مثل كل الناس؟ ... بلى قد كان ...» إلَّا أنَّ إحساسه بأنَّه أخطأ في حق أبيه دفعه إلى الابتعاد عن زوجته ومجافاة أطفاله، وظل حتى آخر يوم في حياته يأبى أن يرعاه أو يتكفَّل به أحد من أولاده؛ فقد حسب أنَّه لو لم يتصرف على هذا النحو لبدت خطيئته في حق والديه أكبر من أن تُغتفر. ذلك هو الوجه الحقيقي «لحكاية» كوان تشان بغير زيادة أو نقصان.»

(٨–٣١) كان «الفيلسوف» سنغ زي مقيمًا بمدينة «أوتسن» عندما راحت قوات دولة يوي تتقدم لمهاجمة تلك المدينة الصغيرة، فنادى عليه بعض الناس قائلين: «فيمَ قعودك ها هنا، اهرب بجلدك معنا من الغزاة القادمين!» فقام معهم وهو يقول لخادميه «أثناء رحيله» احرسوا مسكني أثناء غيابي فلا تدعوا أحدًا يدخله لئلا يُحطِّم الشجيرات والنباتات»، فلما

انسحبت القوات المعتدية، وصار من حق المهاجرين العودة، أرسل إلى الخدم بالمنزل يقول لهم: «أنا عائد إليكم على جناح الطائر، فأصلحوا المنزل وجهزوا الإقامة» … فلما تأكد للناس أنَّ سنغ زي قد عاد بعد انسحاب القوات المعتدية، ذهب إليه أصدقاؤه قائلين له: «إنَّ الناس — كما علمتَ — يحترمونك، ويكبرونك، ويعرفون لك قدرك ومكانتك، لكنك لم تُقِم وزنًا ولم تعبأ بتلك المكانة عندما هربت فور قدوم الغزاة؛ وهو أمر يشوِّه سمعتك ويشينك، وقد كنت من قبل نموذجًا طيبًا يُحتذى به، فكيف بك الآن؛ وقد رآك الناس وأنت تعود أدراجك فور علمك بانسحاب المعتدين، وهو تصرف أحمق لا يليق بك؟!» وهنا تكلم شن يوهانغ (تلميذ سنغ زي) قائلًا: «تلك أمور دقيقة تعزُب على الفهم، ولا أراكم قادرين على استجلاء مغزاها، وقد سبق لي — شخصيًّا — أن تعرَّضت أنا وأهلي لمحنة قاصمة على يد «فوتشو» (ذلك العربيد الذي راح يطارد جامعي الحشائش البسطاء، وأعلنها عليهم حربًا! وكان مع أستاذنا أكثر من سبعين تابعًا فروا بجِلْدهم جميعًا، ولم يصمد واحد منهم).

وعندما كان زيس (حفيد كونفوشيوس) مقيمًا بدولة وي، فقد تصادف أن قامت قوات دولة تشي بِشَن الغارات والزحف عليها، وذهب إليه مَن قال له: «فيمَ جلوسك والعدو آتٍ لا محالة؟ قم وانجُ بنفسك!»

فقال له: «فمَن إذن يشد أزر جلالة الملك ويقف معه مدافعًا عن البلاد، وأنا كما عرف الناس «حفيد الشيخ الأكبر والمعلم الأول»؟»

قال منشيوس: «إنَّ كلًّا من «سنغ زي»، و«زيس» يمشيان على نهج واحد؛ لكن سنغ زي هو الشيخ المعلم؛ وزيس، هو التابع المريد، وإذا «تخيلنا أنَّهما» تبادلا المواقع، فستبقى كلمات كل منهما وأفعاله دون تبديل.»

(٨–٣٢) قال «تشوتسي» (موظف رسمي لدى سلطات) دولة تشي «مخاطبًا منشيوس»: «قد أرسل جلالة الملك عيونًا تتجسس عليك يا سيدي؛ لترى ما إذا كنت مثل باقي الناس العاديين … أأنت حقًّا لا تختلف عن بقية الناس، أيها الشيخ الحكيم؟»، فأجابه منشيوس: «وما الذي يجعلني مختلفًا عنهم؟ لقد كان «الأباطرة العظماء» «ياو» و«شون» أيضًا مثل باقي الناس سواءً بسواء.»

(٨–٣٣) كان في دولة تشي رجل يُقيم في بيت واحد مع زوجته ومَحظِيَّته، ولطالما خرج بالنهار وعاد بالليل وقد أكل وشرب مريئًا، يتغنى ويرقص منتشيًا بالسعادة، تسأله الزوجة عمَّن كان يقضي ليلته معهم، وبصحبه مَن طاب له الطعام؟ فيجيب أنَّهم أصحابه

من الوجهاء الأماجد، ذوي الجاه والشرف من عِلية القوم. فما كان من الزوجة إلَّا أن مالت على أذن صاحبتها (محظية الرجل) فقالت لها: «هو ذا الرجل، زوجنا، يخرج ويرجع متخمًا بالأكل والشرب، مفعمًا قلبه بالسعادة، فكلمَّا سألته عمن كان بصحبته، أجاب بأنَّهم رفاقه من الوجهاء، سادة البيوت العامرة، مع أنِّي لم أرَ واحدًا منهم جاء لزيارته، ولو مرة واحدة، وقد بدا لي أن أخرج وراءه، وأراقبه خفيةً، علِّي أطَّلع بعينَي رأسي على خبيئة أمره.»

فما إن أشرق نهار اليوم التالي حتى قامت من مرقدها ومشت في أثر زوجها تلاحقه أينما ذهب، فلم تشهد أحدًا من وجهاء المدينة تجاذب مع زوجها أطراف الحديث ولا أرخى وإياه حبال الكلام، ثم إذا به يعرِّج على مدافن الضاحية الشرقية من المدينة، ويندس وسط الزائرين المقيمين لطقوس الدفن وعمَّال المقابر، فيستجدي منهم فتات الموائد وثفالة أقداح الشراب، وإذا لم يستوفِ مقدار ما يشبع نهمه يمَّم شطر حشد آخر، واتخذ هيئة الراكع المستعطف لعله يظفر بمبتغاه.

ذلك إذن هو سر الرجل الشبعان الريَّان العائد آخر اليوم يتراقص طربًا!

عادت الزوجة أدراجها، وقصَّت على المرأة الأخرى ما عاينته بنفسها، قالت: «إنَّ زوجنا، مَعقِد أملنا ورجائنا حتى آخر العمر ... اتضح اليوم من أمره كيت وكيت ...» وصارت الزوجة والمحظية تقلدان حركاته وأقواله، سخريةً واستهزاءً، ثم جلستا في الفناء متقابلتين، وراحتا تبكيان وتندبان حظهما العاثر.

وإذ لم يدرِ الزوج أن دفائن سره أصبحت ظاهرة للعيان، فقد دلف كعادته، داخلًا إلى البيت هانئًا مغتبطًا، يهز رأسه خيلاء ويرقص متعاجبًا فخورًا.

وهناك من العقلاء (السادة المهذبين) مَن يرى أنَّ البعض ممن يتحايلون، بوسائل شتى، سعيًا وراء الجاه العريض والثروة الطائلة، لن يصل بهم الأمر إلى «ما لمسناه في القصة المذكورة من ...» تعريض الزوجات والمحظيات للانكسار وخيبة الأمل، ثم دموع الحسرة في آخر المطاف، وربما كان ذلك صحيحًا عند عدد قليل جدًّا من الناس!»

الباب الخامس

وان جان

الجزء الأول

وجملته تسعة فصول

(٩–١) ذهب وانجان إلى الشيخ الحكيم منشيوس، وسأله: «لما ذهب الإمبراطور شون في زيارة إلى الحقول، والأراضي الزراعية، فقد تطلع مليًّا إلى السماء وأجهش بالبكاء، تُرى ما السبب في تأثره البالغ على هذا النحو؟» فأجاب منشيوس قائلًا: «لا بد أنَّ شعورًا بالندم قد اجتاحه وقتئذٍ؛ «لإحساسه الدقيق بسخط أبيه عليه و ...» لشدة شوقه «إلى أن تُصفح عنه روح أبيه».»، فعاد وانجان يقول: «كثيرًا ما سمعت الناس يرددون: «مَن نال رضا والديه غمرته السعادة واستقرت ذكراهما في قلبه، أمَّا مَن حاق به سخطهما فقد طغى عليه الشقاء وانقبض في جوفه لسان الشكوى، فبقي حياتَه مبرَّحًا كظيمًا، تتنازعه مشاعر الألم والمرارة، ولا يقدر على الشكوى» ... فهل كان شون حانقًا على أبويه؟»

فأجابه منشيوس: «قيل إنَّ تشانشي (تلميذ كون مينكاو) سأل أستاذه، ذات مرة، قائلًا: «أن يخرج شون إلى الحقول ويتجوَّل بين المزروعات، فهذا أمر مفهوم، أمَّا تَطَلُّعه إلى السماء وبكاؤه «ومشاعره الفياضة تجاه والديه» فهو موضوع يحتاج لمزيد من التوضيح. فقال له أستاذه: «تلك مسألة عويصة، بعيدة الغَور، لا أظنك تبلغ مراميها»، والمعنى الذي قصد إليه كون مينكاو هو أنَّ الطاعة موضوع لا يحتمل الإهمال؛ بل يؤخذ بجدية، «وقد يُسبب للأبناء شيئًا من الارتباك النفسي، وكأنِّي بشون يقول في نفسه:» ها أنا ذا قد فعلت كل ما في وُسعي، ومع ذلك فقد حاق بي غضب والدي، فما حيلتي إذن؟» (وأراد الإمبراطور «ياو» أن يُبدد أحزانه، ويمد يد العون) فأَرسل إليه أولاده التسعة،

وبنتَيه الاثنتين، وحشودًا من الجنود يسوقون أمامهم الأبقار والنعاج، ويحملون على ظهورهم أحمال الحبوب عونًا له، ودعمًا لمعنوياته؛ بل إنَّ جماعات من الدارسين وطلاب العلم قصدوا إليه (بأمر الإمبراطور «ياو» الذي) كان يُهيِّئ له الأمر ليخلفه على عرش الممالك.

ومع ذلك، فلم يكن في الدنيا كلها شيء يمكن أن يزيل الكرب من صدر شون، وصار يشعر كمَن سُدَّت أمامه السُّبل، وفرغت من جعبته كل وسيلة؛ وذلك لإحساسه بالعجز عن إرضاء أبويه، ولئن كان مبتغى أي واحد من الناس هو أن يكون موضع تقدير الدارسين وطلاب العلوم، إلا أنَّ إعجاب وتقدير كل الدارسين في أنحاء الممالك لم يكن ليخلِّص شون من همومه.

ثم إنَّ شون تزوج كريمَتَي الملك كلتيهما (وكانتا جميلتين)، والجمال فتنة آسرة لا يفلت من حبائلها بَشَر؛ لما تُشيع في النفوس من بهجة، وبرغم ذلك فلم تعرف البهجة طريقها إلى قلب شون.

الثروة مطمح كل إنسان على وجه الأرض، ولقد صار مُلك شون متراميًا (بطول وعرض الممالك كلها) ومع هذا، فلم يفارقه الحزن. من المعلوم أنَّ الشرف مُبتغًى أصيل، ما من إنسان في الدنيا بأسرها إلا يتُوق للفوز بأعظم دُرره، وقد حظي شون، مبجلًا، بموقعه الأثير، مقربًا من العرش الحاكم، أميرًا فوق الدويلات المترامية، ولما يزايله الانفعال بمأساة عمره.

«ومن ثم» فإنَّ ما أُتيح له أن يفوز به من الحب والتقدير، والجمال، والجاه «كل ذلك» لم يثمر أيَّة نتيجة؛ ذلك أنَّ الأمر الوحيد الذي كان من شأنه أن يمسح عن صدره لواعج الأسى، هو رضا والدَيه.

يتطلع الإنسان، في طفولته، إلى والدَيه تعظيمًا وإكبارًا، فإذا ما بلغ فتوة الشباب صار يتودد إلى أُنثاه ويبحث عن فَتاته؛ فإذا أمست له زوجة تعلَّق بها وأقام معها شطر حياته؛ أمَّا إذا التحق بوظيفة، ذات شأن، راح يتقرب لرئيسه، فإن لم يحظَ بثقته تكالبت عليه ألوان الهموم، واستولى عليه القلق؛ ليس سوى الرجل البار بأبويه هو الذي يظل طوال حياته، محبًّا «ونصيرًا» لوالديه.

أمَّا أن يبلغ المرء الخمسين من عمره، دون أن يخفت صدى الحنين إلى أبويه، فهو الأمر الذي تبدَّى أمامي بوضوح متجسدًا في شخص القديس الحكيم شون.»

(٩–٢) ذهب وانجان إلى منشيوس وقال له: «مما جاء في كتاب الشِّعر القديم «أبياتٌ مطلعها»:

«ألا أيُّها الرجل الذي
عقد العزم على الزواج بامرأة،
لن تصير لك في الدنيا كلها فتاة،
إلا إذا أبلغت والدَيك
بأنك ستبني بامرأة.»

ولم يكن من بين كل الرجال، على الأرض؛ مَن يصدق (ويسير على هُدى) تلك الكلمات، مثل القديس الحكيم شون، وبرغم ذلك، فهو «لم يتصرف حسب تلك الوصية، أي إنَّه قد» تزوج دون مشورة أبويه، فما الحكمة في ذلك؟»، فأجابه منشيوس: «لو كان أبلغهما بهذا الأمر، لما كان قد تزوج على الإطلاق؛ كانت تقاليد الزواج تتبع قواعدَ وأعرافًا استقرت عليهما المفاهيم والعادات؛ فلا بد أنَّه لو استشار والديه — حسب تلك التقاليد المعهودة — لما حظي بموافقتهما؛ مما كان من شأنه أن يُثير المرارة في نفسيهما، فمن ثَم، حسم «شون» أمره بعدم إبلاغهما بما استقر عليه في أمر زواجه.»

وعاد وانجان يقول له: «الآن فهمت لماذا أخفى شون زواجه عنهما، لكن الأمر الذي يحيرني حقًّا هو موافقة الإمبراطور «ياو» على تزويج ابنته له وهو يعلم تمامًا حقيقة إخفاء هذا الخبر عن أهل الرجل، فما الذي دعاه إلى ذلك؟»

فأجابه منشيوس قائلًا: «لأنَّ جلالة الإمبراطور كان يدرك استحالة إتمام الزواج لو عُرِض الأمر على والدَي صِهره»، وعندئذٍ قال له وانجان: «(ثم كان من الوقائع ما قد علمت من أنَّ ...) والدَيه طلبا إليه أن يصعد إلى الطابق العُلوي من صومعة الحبوب ليصلح ما تهدَّم منها، فما إن بلغ القمة حتى سحبا السلالم بعيدًا، وقام أبوه (المدعو كوصاو، أي: الرجل الأعمى) بإشعال النار في الصومعة «ونجا شون من الحريق بأعجوبة، وفي محاولة أخرى ...» طلب إليه أبوه وأمه أن يغوص في البئر ويزيل كدر مياهه، فما إن نزل فيه حتى ردماه بالتراب «ولم يعلما أنَّه خرج بمعجزة من إحدى الثغرات الجانبية»، وكان أخوه «مِن أبيه، ويُدعى شيانغ» قد قال صراحةً: «أنا صاحب المؤامرات الكثيرة التي استهدفت التخلص من شون، وإليَّ وحدي يعود الفضل في التدابير للخلاص منه؛ إذ عزمت على أن أهب مواشيه ونعاجه وصوامع الغلال التي يملكها لأبيه وأمه، على أن أحتفظ أنا بأسلحته

وقيثارته وسيفه الأحمر القاطع (اشتهر السيف تاريخيًّا باسم «ديكون»)، وكذلك زوجتيه الاثنتين، اللتين ستصيران إليَّ، وتبيتان على فراشي»، ثم إنَّه قام وقصد مخدع أخيه (الذي من أبيه) فرآه متكئًا رائق البال يعزف على قيثارته، فتكلم معه قائلًا: «قد اشتقت إليك واشتد بي الحنين.»

وبدا منه الوجهُ وَجِلًا، والروح التي بين جَنبيه انتفضت حيرى، تنزع في كل منزع من الرِّيبة والاضطراب، فقال له شون: «لست أكترث لشيء قدر اهتمامي بمَن ورائي من العاملين والعمال (الوزراء والشعب)، فهل تقوم مقامي وتكفيني مئونتهم؟» ولا أدري — يقول وانجان لمنشيوس — إن كان شون قد تنبَّه، في سياق الأحداث، إلى ما دبَّره شيانغ من خطط للقضاء عليه أم لا.»

فقال منشيوس: «ما كان يخفى عليه ذلك أبدًا؛ إذ عرف دخائل أخيه، وأدرك أفراحه وأتراحه، والحق أنَّه كان قريبًا من مشاعره دائمًا … يضحك لما يسُرُّه، ويبتئس لهمومه وأحزانه.»

وهنالك علَّق وانجان قائلًا: «أوَتظن أنَّ شون، في تلك الساعة، كان يتظاهر بتلك الأحوال؛ «لأمر في نفسه»؟» فأجابه: «لا أظنه كان في حاجة لأن يتظاهر بشيء … «ولْأحكِ لك قصةً، في هذا السياق:» كان رجل، فيما مضى، قد أرسل هديةً لأحد مواطني دولة جنغ … ويُدعى «زيشان»، وهي عبارة عن مجموعة من أسماك الزينة؛ ليتفرج عليها في منزله، فسلمها زيشان لأحد مشرفي المزارع السمكية ليحفظها — فترة من الوقت — في حوض كبير للأسماك، إلَّا أنَّ المشرف وضع السمك على النار حتى نضج، فأكله مريئًا، وراح يقول لزيشان: «كنت لمَّا وضعت السمك في الحوض بدا خامل الحركة، وبعد هنيهة نشطَ وتقافزَ، ثم ما لبث أن غاص في الأعماق حتى لم يعد يُرى له أثر.» فقال له زيشان: «لقد أوى إذن إلى موطنه الآمن … واستقر حيث قُدِّر له أن يستقر»، فلمَّا عاد المشرف إلى بيته قال للناس: «ليس أكذب ممن زعم بأن زيشان على أي قدر من الذكاء، قد أكلت ما أعطانيه من سمك حتى استقر في أعماق بطني، ولما رويت له حكاية الأسماك اللائذة بالأعماق لم يكذِّب شيئًا مما قلت؛ بل زعم أنَّها لاذت بمستقرها الذي قدر لها أن تبقى فيه أبدًا.» فاعلم أنَّ الحصيف العاقل، يمكن أن يتعرض للاحتيال أو الخديعة، لكن مستحيل أن ينطلي عليه، أبدًا، هذيان الخرافة المنافية للمنطق، المجافية للمعقول، ولقد ذهب شيانغ إلى أخيه شون، الذي لم تساوره الشكوك في مشاعر الود الطبيعية بين إخوة البيت الواحد، فما الداعي إذن لأن يتظاهر شون بالبِشْر والتهلُّل في وجه أخيه؟!»

(٩–٣) ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «كيف يمكن أن نصدق ما قام به شون — وقد ارتقى سُدة الحكم إمبراطورًا (ابن السماء) فوق الممالك — من أنه اكتفى بنفي أخيه شيانغ (أخيه غير الشقيق) خارج البلاد، وهو الذي دأب على تدبير المؤامرات والدسائس للقضاء عليه؟»

فأجابه منشيوس، قائلًا: «الحق أنَّه أقطع أخاه بعض إقطاعات (بوصفه أميرًا تابعًا للقصر الحاكم) برغم ما ردَّده البعض (كذبًا) من أنَّه قام بنفيه خارج الوطن»، فقال وانجان: «قد اتخذ شون «عدة» قرارات تقضي بنفي «كون كونغ» إلى منطقة «يوتشو»، وإبعاد «هواندو» إلى جبل «تشونغ»، وطرد «سان مياو» إلى بلدة سان سوي «النائية»، وإعدام «كون» (يُقال بأنَّه والد الملك ياو من أسرة شيا الملكية) فوق جبال «يو»، وبصدور تلك الأحكام ونفاذها في حق أولئك المذنبين الأربعة، خضعت الممالك وأذعنت لجلالة الملك شون، فاستقرت الأحوال، بعد أن استقر في وعي الناس جميعًا أنَّ العقاب قد طال رءوسًا قاسية ظالمة تناءت عن الإنسانية والرحمة، غير أنَّ شيانغ، وهو أشد الجميع غلظةً وقسوةً ومجافاةً للإنسانية، تم إقطاعه دويلة «يوبي»، فأيُّ ذنبٍ جناه أهل يوبي حتى يصير شيانغ أميرهم؟ أمن المعقول أن يسلك الحكماء القديسون الذين يعرفون الإنسانية والرحمة على هذا النحو «تجاه القضايا الإنسانية الكبرى؟» أمعقول أن تأتي أحكامهم رادعةً حاسمةً على أي فرد من الناس دون إخوتهم [أحكام قاسية ضد الغير؛ إقطاعات وافرة للإخوة والأقارب]؟»

فردَّ عليه منشيوس قائلًا: «إنَّ العاقل الرحيم لا يحمل على أخيه إصرًا، ولا يطوي جوانحه على بغضه والكيد له؛ بل يتودَّد إليه ما أمكن، ويتمنى له الرفعة والمجد، يعطف عليه، ويرجو له الثروة والجاه، «ثم إنَّ الإمبراطور شون قد أقطع أخاه دويلة يوبي» ليمكنه من الفوز بالمال والجاه العريض معًا، إنَّه الحب والمودة بين أفراد العائلة»، [في معنى، ما، هو قرين الطاعة وروح التعاون الأسري].»

وعندئذٍ، قال نانجو: «فمَن ذا الذي أشاع حكاية ... «النفي خارج البلاد» ... وما مغزى هذه الكلمة «في مثل هذا السياق»؟»

قال منشيوس: «لم يكن لشيانغ أن يتصرف، كما يحلو له في شئون دويلته؛ مما دعا جلالته إلى إيفاد عددٍ من الموظفين الكبار المسئولين عن تصريف شئون البلد وجباية الضرائب إليه، فمن ثم، «راجت مقولة:» النفي خارج البلاد، «ولا أدري» كيف يمكن لشيانغ أن يبطش بالناس «في دويلته» أو أن يستبد بالحكم على هواه؟ ثم، (وبالرغم من

كل ما قيل فـ...) إنَّ جلالته يحرص على الالتقاء به دائمًا؛ حيث إنَّهما حريصان على المواظبة على اللقاء من آنٍ لآخر؛ حتى تردَّدت عبارة «في القصر الحاكم» مفادها: «لا داعي لانتظار مراسم تقديم الهدايا إلى القصر؛ نظرًا لما تمليه الضرورات السياسية من دعم العلاقة مع دويلة يوبي» (وهي الكلمات التي صيغت، على نحو خاص، لتفيد المعنى المشار إليه فيما سبق).»

(٩-٤) ذهب شيان تشومن (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه — الشيخ الحكيم — وسأله قائلًا: «هناك قول دارج مفاده أنَّ: «أعظم الناس خلقًا، لن يحظى لدى ملك الملوك بمنصب ذي شأن، لن يتخذه أبوه ولدًا «يستكثر أبوه على نفسه أن يكون له ولد عظيم الأخلاق»، وسيرى الملك أنَّه أجدر بما هو أرفع، وليس هناك أرفع من الجالس على العرش!» وعندما اعتلى شون سُدة العرش الملكي، وأحضر الملك الأعظم «ياو» كل الأمراء إليه وصار في مقدمتهم وهم يسيرون إليه، فكان الجميع يتقدمون صوب الجهة الشمالية؛ حتى والد الملك شون (المدعو كوصاو) كان يتطلع مثلهم جهة الشمال، فلمَّا وقعت عين ابنه (جلالة الإمبراطور شون) عليه ارتبك وظل حائرا هنيهة، وفي ذلك يقول كونفوشيوس: «كان الخطر يحدق بالممالك كلها ... في تلك اللحظة ... كان الخطر أقرب إلى الجميع من أي شيء!» ولا أدري يا سيدي إن كانت تلك الأقوال صحيحةً أم لا؟»»

وأجابه أستاذه قائلًا: «كلَّا، ليس في ذلك كله شيء صحيح على الإطلاق؛ فتلك أقوال لا ينبغي للعاقل ترديدها؛ بل هي جديرة بأن تصدر عن القبائل الهمجية الواقعة إلى الشرق من دولة تشي، «فالصحيح ...» أنَّ الملك ياو لَمَّا بلغ من الكِبر عتيًّا، أسند إلى شون مهمة القيام بالإشراف على شئون الإمبراطورية وكيلًا عنه؛ ليخلفه في أداء ما لم يقدر عليه هو بنفسه، وقد ورد في كتاب «ياوديان» (أي معجم الأباطرة أو «ديوان ياو» وهو يرصد وقائع تنازل الملك ياو عن العرش لخليفته شون، ويُظهِر جانبًا من وقائع فترة مبكرة من تاريخ الصين) ما نصه: «فلما انقضت ثمانية وعشرون عامًا كاملةً، تُوفِّيَ «الملك ياو» فأقام الناس الحداد مدة ثلاث سنوات، مثلما يفعلون في وفاة آبائهم وأمهاتهم، «وخلال تلك الفترة» توقَّف عزف الموسيقى في كل أنحاء الممالك (حرفيًّا: فيما بين البحار الأربعة»)، وكان كونفوشيوس قد قال ذات مرة: «لم تسطع في كبد السماء شمسان، ولا قام على رأس بلد واحد ملكان يحكمان.» ... ولئن كان شون قد تولى مهام الحكم ملكًا متوجًا (قبل وفاة الملك ياو) فلا بد أنَّه كان على رأس الأمراء والدويلات التي أقامت حدادًا طوال ثلاث سنوات، وهو ما يعني (ضمنيًّا) قيام حاكمين اثنين على عرش بلد واحد «في وقت واحد».»

فقال تشيان تشومن: «قد عرفت السبب — فيما شرحت لي — في عدم إسناد منصب وزاري لياو في البلاط الملكي تحت قيادة شون، وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم ما نصه:

«ليس في أنحاء الممالك
بقعة تتناءى عن ظلال السيادة الملكية،
وكل فرد من شعبه الكبير،
رعيته، وتابعه العامل عنده.»

فلئن كان الأمر كذلك، فهل لي أن أسألك عن السبب في استبعاد «كوصاو» — وهو أبو الملك — من أي منصب وزاري، بعد اعتلاء شون سدة الحكم؟» فأجابه منشيوس: «إنَّ الأبيات التي استشهدت بها من كتاب الشِّعر لا تُريد المعنى الذي قصدتَ أنت إليه؛ بل يقول الشاعر، من خلالها: إنَّه يبذل جهده وطاقته كلها في خدمة جلالة الملك، حتى لم يعد لديه ما يقوم به من واجب العمل على راحة أبويه، فكأني بالشاعر يريد أن يقول: «صارت كل المهام والواجبات تتعلق بمصلحة القصر الحاكم، حتى لم يعد للفرد، أي فرد (بما فيهم أنا نفسي — الشاعر نفسه —) أية طاقة مدخرة لتصريف الشئون الفردية.»

ومن هنا، فلا بد أن يعيَ مفسرو الشِّعر بأنَّه لا يحق لهم تحميل العبارة الشِّعرية ما لا تحتمل بسبب فهمٍ مغلوط للفظة أو كلمة، ولا يجب إغفال القصد العام للمقولة الشِّعرية كلها جريًا وراء تأويل متكلف لعدة أبيات قليلة، فلا بد من الاستدلال على المعنى العام من روح النص التام ومغزاه الأصيل؛ حتى تثبت أركان التفسير الصحيح؛ أما التفرغ و«التحذلق» والتدقيق المتكلف، فلا يُثمر إلا ما يمكن أن نفهمه — مثلًا — من أحد أبيات قصيدة «يون هان» «نهر المجرة»، حيث يقول القائل:

«حتى بقايا الفلول الشاردة،
من شعب دولة جو،
لم يعد يبقى لها
أي أثر.»

مما يرد في التأويل الحرفي لظاهر معنى الكلمات، أنَّ آل جو قد فنَوا عن آخرهم [والمقصود تشتت جماعاتهم وتبعثرها وليس فَنَاءها].

إنَّ أعظم البر احترامُ الوالدين، وأرفع درجة من احترام الآباء تسييدهم فوق الممالك، وقد قام كوصاو والد الملك نفسه، الذي بادر إلى تقديم أسمى آيات الاحترام والتبجيل، بمنحه موقع السيادة فوق الممالك التي تحت السماء.

وقد ورد من أبيات الشِّعر القديم ما معناه:

«فلنتواصَ بالبر دائمًا …
فالطاعةُ أعظم خُلُقٍ يُحتذى.»
فالمعنى المقصود هنا هو ما يتضح بذاته.

وقد ورد في كتاب «شوجين» «التاريخ» ما نصه:

> «استقبل الملك شون أباه «كوصاو» بكل حفاوة وتبجيل، وقد أكبر والده وبالغ في الحفاوة به وتقديره «حتى كاد ينحني كل جزء في جسده إكرامًا لأبيه، الذي بدا هادئًا راضيًا لا يكدر صفو حياته شيء …» فكيف لنا أن ننكر ما أظهره الأب بنفسه، من رضًا وتقدير لولده وما قام به من أجله؟»

(٩–٥) ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «هل كان الإمبراطور الحكيم ياو، هو الذي أهدى عرش الممالك لشون؟ هل وقعت تلك الحادثة حقًّا؟» فأجابه منشيوس، قائلًا: «لم يحدث شيء من ذلك قط، فليس للملك أن يهب العرش لأحد.»

وعاد وانجان يسأله: «إذن، فمَن الذي أهدى العرش إلى شون؟» فأجابه:

«كانت السماء هي التي منحته الملك»، فسأله: «هل كانت السماء، وهي تخلع عليه وشاح الملك، قد حدثته بوصاياها؟» فأجابه: «كلَّا، لم تتحدث السماء بكلام؛ بل كان في عظيم خُلقه وحميد سجاياه ما يُشير إليه بأنَّه موضع تقدير سماوي»، فسأل السائل: «كيف يكون في كرم أخلاقه وحُسن سجاياه ما يُشير نحوه بقبول السماء له؟» فقال: «قد يُفضِّل الملك شخصًا محددًا ويرجو من السماء أن تؤيد اختياره، لكنه لا يملك أن يملي على الإرادة السماوية اختيار مَن يخلفه في الحكم؛ وقد يرشح الأمير «للملك» رجلًا ما، يراه «لمنصب» ويراه الأنسب، لكنه لا يمكن أن يُرغم جلالته على تعيينه، وقد يرى كبار رجال الدولة أنَّ امرأً «من بينهم» هو الأكفأ، لكنهم لا يستطيعون أن يجبروا الأمير على ترقيته.

فيما مضى، كان الإمبراطور الحكيم ياو قد اختار شون لخلافته واستشار السماء، فأجابته إلى ما أراد، فأعلن على الناس ترشيحه فقبلوا.

فالسماء لم تقل شيئًا؛ بل كانت أخلاق شون وأدبه وخصاله الكريمة هي التي أوعزت بأن السماء تقبل بمنحة سلطة الحكم فوق الممالك.»

فسأله وانجان: «أريد أن توضح لي المُلابسات التي اكتنفت ترشيح شون للعرش الملكي، وموافقة إرادة السماء لذلك الترشيح، ثم إعلانه على الناس فقَبولهم له ... إلخ»، فقال منشيوس: ««كانت البداية» بتكليفه مهمة الإشراف على طقوس القرابين، فكانت الأجزاء الروحانية «الأرواح» مواتية وموافقة تمامًا لقيامة بهذا الدور؛ فلذلك قيل إنَّ السماء أيدت ترشيحه، فلمَّا أُسندت إليه مهمة الشئون الحكومية، فقد أظهر السداد في عمله، مما أثلج صدور الناس بقضاء حوائجهم؛ فلهذا قلتُ بأنَّ الناس قد رضيت به «حاكمًا»، فلمَّا كانت السماء قد أبدت رضاها باعتلائه سُدة الحكم، بالإضافة إلى موافقة الإرادة العامة لأهل الممالك، قلت بأنَّه لا يجوز لحاكم أن يمنح عرش الملك لكائنٍ مَن كان.

كان شون قد ساند الحكيم ياو، في حكم البلاد مدة بلغت ثمانية وعشرين عامًا، ولم تكُ تلك إرادة بشر؛ بل كان قضاءً من السماء. وكان لما مات ياو وانقضت بعد موته مدة الحداد المقررة، قام شون واعتزل الناس؛ حيث أقام «في مكان قصيٍّ» جنوب نهر «نانجه»؛ وذلك ليعطي الفرصة لولد ياو أن يرث حكم البلاد بغير نزاع، غير أنَّ أمراء الدويلات «القادمين إلى عاصمة الممالك» كانوا يقصدون إليه دون ابن الإمبراطور الراحل، وكذلك فعل المتقاضون إلى المحاكم «إذ وفدوا عليه ليقضي بينهم في نزاعاتهم»، وكثيرًا ما تردد عليه المغنُّون والمدَّاحون (شعراء المديح) دون أبناء الملك المتوفَّى؛ فمن ثم قلت بأنَّه: «اعتلاء العرش» قرار من السماء.

ثم إنَّ شون عاد إلى العاصمة، وقام حاكمًا فوق عرش الممالك (برغبة الناس وإرادة السماء)، ولو كان قد انتزع الحكم عنوةً، ودخل إلى القصر الملكي بالقهر، وخلع الأمير عن الحكم بغيًا واعتداءً بغير سند من رضا السماء، لعُدَّ قيامه على منصة الحكم اغتصابًا للعرش.

وقد ورد في كتاب «تايشي» «البيان الأعظم»: «قد نظرت السماء بعيون الناس على الأرض، وسمعت بآذانهم، فوافقتهم فيما رأوا وسمعوا» ... وهو المعنى الذي يُلخص الأمر كله.»

(٩–٦) ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «كثيرًا ما يرد في الأقوال الشائعة بين الناس أنَّه: «ما كاد يأتي زمان حكم الإمبراطور «يو» حتى كانت الأخلاق قد انحطت، ولم يعُد يقوم على عرش الممالك الحكماء؛ بل الأمراء من أبناء الملوك»، فهل كان الأمر على هذا النحو حقًّا؟»

أجابه منشيوس، قائلًا: «غير صحيح على الإطلاق، لم يكن الأمر كذلك، فالإرادة السماوية «لا تُخطئ التقدير؛ فهي» إذا أرادت أن يكون الحكم للحكماء، فسيصير الأمر إليهم، وإذا أرادت أن يكون للأمراء، فلن يكون لغيرهم.

كان الحكيم القديس شون — فيما سلف من الزمان — قد استشار السماء في أن يخلفه «يو» على العرش، ثم مات شون بعد سبعة عشر عامًا، فلما انتهت سنوات الحداد الثلاث، ذهب يو إلى مدينة يان تشن معتزلًا شئون الحكم؛ وذلك ليتسنَّى لابن الإمبراطور شون أن يرث عرش أبيه؛ إلا أنَّ قلوب الناس كانت تميل إليه، فحدث معه مثلما حدث بعد وفاة الملك ياو من إغفاء الطرف عن الأمير «الوريث الشرعي» والإقبال على الملك شون؛ وبدوره، فقد استشار الإمبراطور «يو» أمر السماء في تنصيب «إي» (تُنطق كما في كلمة «إيزيس»)، وحدث أن قضى «يو» نحبه بعد سبع سنوات، فلمَّا انقضت مدة الحداد المعهودة (ثلاث سنوات)، ذهب «إي» ليقيم في العزلة شمالي جبل «جي» ليتيح الفرصة للأمير، وُلد «يو» ليقوم على عرش الحكم خلفًا لأبيه الملك الراحل، إلا أنَّ الوفود الرسمية وجماعات المتقاضين أمام المحاكم لم تُلقِ بالًا (هذه المرة) إلى الرجل المعتزل وراء الجبل «إي»؛ بل قصدت جميعها إلى تشي (ولد «يو») وهم يهتفون تأييدًا له بوصفه «ابن مليكنا وسيدنا» … (على حد تعبيرهم)، ولم يكن المدَّاحون والشُّعراء يتغنون بالمعتزل «إي»؛ بل طافوا «في الأنحاء» يهتفون للأمير «تشي» قائلين عنه «إنَّه أميرنا وابن مليكنا!»

ولم يكن للأمير دانشو (ولد «ياو») أن يحظى بالملك، ولا كان ابن الملك شون ليقدر على أن ينال المجد، ولئن كان الملك شون خيرَ سندٍ لسلفه «ياو»، وكان «يو» خير معين للملك شون على مدى السنوات الطوال، حتى كانت العامة تلهج بذكرهم؛ لما نالوا من الخير والنعمة إبان حكمهم؛ فقد كان الأمير تشي رجلًا فاضلًا عاقلًا، وقد أخذ على عاتقه أن يواصل ما بدأه الحكيم القديس شون من سياسة رشيدة.

وقد كان «إي» خير أعوان الملك «يو»، غير أنَّه لم يمكث زمانًا طويلًا، ولا كانت له على الناس أيادي الفضل الكثيرة «التي كانت للسابقين».

قد تفاوتت الأزمان بين الملوك: شون – يو – إي، وتراوحت الأيام فيما بين سِني حكمهم، وكان من نسلهم أمراء تفاوتت أقدارهم في الحكمة والفضل، فكان ذلك كله تدبير السماء، إذ لم يكن باستطاعة بشر، مهما أوتي من طاقةٍ، أن يبلغ في ذلك مبلغًا ذا شأن.

أما وقد بلغَت الأمور حدودًا لم يكن في طاقة أي تصوُّرٍ أو خيالٍ أن يبلغها، فهذا أمر من تدبير السماء، وأن تصل الغايات إلى مصائر لم تخطر على بالٍ فتلك هي إرادة الأقدار.

ولم يكن لشخص عادي، من العامة، من أوساط البسطاء أن يصل إلى مقام الحكم الملكي الرفيع، إلا بما حاز من أخلاق وفضائل تُضارع ما حازه الحكيم شون، وتزكية أبناء السماء (الأباطرة الحكماء) له [لم يكن لرجل بسيط أن يعتلي الحُكم حقًّا إلا بما زكَّاه به الملوك، فمثلًا:] لم يتمكَّن كونفوشيوس — وهو المهذب الحكيم الفاضل — من أن يبلغ تلك الدرجة العالية (العرش الحاكم) «للسبب الذي سقناه آنفًا»، وعندما يصبح تعاقب اعتلاء العروش الحاكمة صيرورةً طبيعيةً، فإنَّ السماء تُقصي عن الحكم «أولئك الطغاة الجبارين من أمثال:» الطاغية جيه (أسرة شيا الملكية)، تشو (أسرة شانغ)؛ بل آخرين لم يبلغوا أصلًا سُدة الحكم من أمثال: «الأمراء»: «إي»، «إيين»، «جوكون» (برغم أنَّه كان فاضلًا حكيمًا). ولم يبخل إيين على الملك «طانغ» بالمؤازرة والدعم المطلوب، حتى دانت له الممالك بالخضوع وتمكَّن من توحيدها تحت رايته، فلما توفِّي الملك «طانغ» لم يُقدَّر لـ «تاي دينغ» أن يخلفه على العرش، «ثم لم يلبث أن» مات، ثم جاء «واي يين» فتولى مقاليد الحكم لمدة سنتين، وخلفه «جون ون» ليبقى في الحكم أربع سنوات، «ثم جاء» «تايجيا» الذي أطاح بالقوانين واللوائح والمبادئ التشريعية التي أقرها الملك «طانغ»، فقام إيين بإقصائه فورًا عن العرش ونفاه إلى بلدة «تونغ»، فما هي إلا ثلاث سنوات حتى أقر «تايجيا» بذنبه، واعترف بخطئه، ثم أعلن ندمه والرجوع عما اقترفه؛ بل يذكر له أنَّه، أثناء إقامته ببلدة تونغ، كان حريصًا على أن يسلك «مع الجميع» على أساس من العدل والإنسانية، فلمَّا مرت ثلاث سنوات «أخرى»، كانت لديه الشجاعة في أن يدرس الانتقادات التي كان يوجهها إليه إيين، وكان من الحكمة بحيث استطاع أن يتعلم دروسًا كثيرةً ويستفيد منها، وتمكَّن أخيرًا من أن يعود إلى العاصمة «بو» ليصبح حاكمًا «لإحدى الدويلات»؛ أما جوكون، فلم يتيسر له أن يصل إلى سُدة العرش الملكي، فكان يشبه في ذلك «حال» «إي» في أسرة شيا الملكية، و«إيين» إبان عهد شانغ.

وقد قال كونفوشيوس (في هذا الشأن): «إذا كان الحكم في أسرتَي «طانغ» (الملك ياو) و«يو» (يقصد الملك شون) قائمًا على اختيار الحكماء والفضلاء، فإنَّه في الأسر الثلاث: شيا، شانغ، جو، وأحفادها كان وراثيًّا، والأمر بين هؤلاء وأولئك سيانِ؛ فلم يكن ثمة فرق».»

(٩–٧) ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله: «يقول الناس «في أحاديثهم العابرة» إنَّ «إيين» قد سعى في أن يجد حظوة لدى الملك «طانغ» متنكرًا في زي طبَّاخ، فهل هذا صحيح؟» فأجابه منشيوس: «كلَّا، لم يكن الأمر هكذا؛ إذ كان إيين يعمل مزارعًا على حدود

دولة تشين (دويلة قديمة) وكان محبًّا لسيرة وسياسة كلٍّ من الحكيمين «ياو» و«شون»، وإلى جانب ذلك فقد كان له اعتقاد عظيم في التمسك بالعدل والمبادئ «الأخلاقية»؛ حتى إنَّه ما كان يلتفت بطرف عينه إلى أموال الممالك كلها، حتى لو صارت بين يديه، ما دامت متحصلة بطريق يُنافي صحيح العدل وثوابت الإنسانية، وما كان ليمُد يده إلى آلاف الجياد الأصيلة لو سيقت إليه «موثوقة الأعناق جنبًا إلى جنب»، ما كانت بغير الطريق الأخلاقي الذي آمن به، والمبدأ الذي أخذ به نفسه، حتى إنَّه ما كان ليأخذ من أحد أو يعطيه مثقال ذرةٍ، إلا إذا كان بوسيلة تتفق مع ما اعتقد بصحته.

وأرسل إليه الملك طانغ الرسل يحملون إليه الهدايا الثمينة «تشجيعًا له على المُضي إليه والعمل عنده»، فما كان منه إلا أن قابل ذلك بغير اكتراث قائلًا: «ما الذي يدعوني إلى قبول هدية الملك؟ وأين هي من هدوء النفس ورخاء البال الذي أجده وسط المزارع؛ أهنأ بتأمل مبادئ «ياو» و«شون» وسيرتهما العطرة؟» وألَّح الملك في إرسال الهدايا إليه يستميله بشتى الطرق، وما زال به حتى عدل عن موقفه، قائلًا في نفسه: «بدلًا من القعود عند أطراف المزارع، أتأمَّل سيرة البطلين القديسين «ياو» و«شون»، فلماذا لا أحاول أن أحثَّ رجال هذا الزمان على التأسي بسيرة الشيخين الحكيمين، لماذا لا أجرِّب أن أجعلهما المثل الأعلى الذي يَقتدي به الناس في كل الممالك؟ لماذا لا أُعطي نفسي فرصةً أن ألمس مباشرةً، تجسيد تلك الأفكار في السلوك الواقعي؟

لقد أوجَدَت السماء كل هؤلاء البشر؛ كي يهدي السابق منهم اللاحق، ويحرك الأول منهم وعي وإدراك الآخر.

فلمَّا كنتُ قد سبقتُ بالوعي «كل الناس في أنحاء الممالك» فلا بد من أن أجعل ذلك المنهاج، الذي وعيته (سياسة ومبادئ ياو، شون) هو الوسيلة التي أدفع بها وعي الناس، فما النفع إن لم أبُث فيهم روح ذلك المنهاج إذن؟ «ومَن يفعل ذلك غيري؟».» ورأى إيين، بعينَي الفكر أنَّه إذا تقاعس عن إرشاد الناس إلى المغنم الأخلاقي الكامن في المبادئ المقررة على يد «ياو، وشون»، فكأنه يدفع الناس دفعًا إلى هاوية لا قرار لها، فأخذ على عاتقه تلك المهمة الكبرى، وهو الأمر الذي جعله يذهب، من تلقاء نفسه إلى جلالة الملك طانغ، ليقنعه بضرورة غزو الطاغية «جيه» (آخر ملوك أسرة شيا)؛ ليخلِّص الناس من بين براثن حكمه الجائر.

«أمَّا بخصوص أنَّه تنكر في زي طبَّاخ ليُقابل الملك ويقنعه بآرائه ... إلخ» فلم أسمع قط عن إنسان اتخذ من الأساليب الملتوية طريقًا للإرشاد والتقويم وتبيان وجهة

النظر «الأخلاقية»، ناهيك عن أن يتنكر «بطريقة مهينة» ليستطيع إقناع الممالك بآرائه «الإصلاحية» الفاضلة. «أعرف أنَّ» لكل قديس طريقته الفريدة وأسلوبه المميز؛ فمنهم مَن يؤثر أن ينأى بنفسه عن دائرة النفوذ الكبرى (الملك الحاكم)، ومنهم مَن يفضِّل التقرُّب إليه، وهناك مَن يهجرون وظائفهم الرسمية، والبعض الآخر — على العكس من ذلك تمامًا — يُحاول التشبث بعمله الوظيفي بكل جهده. فالعنصر الثابت في ذلك كله (القاسم المشترك) يتمثل في محاولة التمسك بعفة الناس ونقاء الضمير. «أمَّا بخصوص سؤالك الأساسي، فإجابتي ...» هي: «إنَّ كل ما سمعته هو أنَّه حاول أن يقنع الملك طانغ بتطبيق منهج «ياو» و«شون»، لكن لم يبلغني أي شيء بخصوص اشتغاله بالطهي وتنكره في زي طبَّاخ ... إلخ.»

وقد جاء في كتاب «يين شوين» [مواعظ إيين]، ما معناه: «أول عقاب نزل من السماء حاق بقصر «الملك» جيه من أسرة شيا، وكان الحاكم المذكور هو الجاني على نفسه؛ فلم يقع في التهلكة إلَّا بيده هو نفسه؛ أمَّا بالنسبة لي أنا «إيين» فلست إلَّا مجرد رجل بسيط، قمت ذات يوم، فخطوت بضع خطوات على الطريق قادمًا من بلدة «بو» عاصمة أسرة شانغ.»

(٩–٨) ذهب وانجان إلى الشيخ الحكيم منشيوس، وسألته: «قيل إنَّ كونفوشيوس أقام عند أحد الأطباء المتخصصين في علاج الأورام (وهو في الوقت نفسه أحد كبار الموظفين المقربين من حاكم دولة وي)، وذلك أثناء إقامته في دولة وي، وقيل إنَّه لما ذهب لزيارة دولة تشي، أقام في المنزل أحد خصيان القصر الملكي (واسمه، «جيهوان») فهل هذا صحيح؟»

أجابه منشيوس قائلًا: «كل هذا غير صحيح؛ بل هي محض أقاويل ليس وراءها إلَّا إثارة التشكيك بغير طائل، «والحق» أنَّ كونفوشيوس كان يقيم في دار «يان تشويو» أثناء زيارته لدولة وي، وكانت زوجة هذا المضيف هي شقيقة امرأة السيد المهذب «زيلو» (أحد تلاميذ كونفوشيوس)، ثم إنَّ «يان تشويو» قال لزيلو: «إنَّ إقامة كونفوشيوس في بيتي، تُعزِّز من فرصة حصولي على منصب حكومي بارز في دولة وي» ... فنقل زيلو هذا القول إلى كونفوشيوس، فقال له:

«فليكن ما يشاؤه القَدر!» وبالفعل فقد التحق كونفوشيوس بالوظيفة عارفًا بقواعد الآداب وملتزمًا بالأصول الأخلاقية، ثم إنَّه خرج منها — مثلما دخل في بادئ الأمر — دون أن يُضيِّع مبادئه أو أن يفقد اقتناعه بصحة منهاجه، وكان يردد باستمرار — في الفوز أو الخسارة — عبارته المأثورة: «فليكن ما تقضي به الأقدار.» ولو «صحَّ أنَّه» أقام بمنزل

كبير المتخصصين في أمراض الأورام، لكان في ذلك أكبر انتهاك لأصول المعاملات والقواعد الإنسانية، وتجاوز «لما عُرِف عنه من إيمانٍ ب» أحكام القدر.

ولم تكن حال كونفوشيوس في كل من دولتَي «لو» و«وي» على خير ما يرام؛ بل قطعت به السبل، ولقي الحظ العاثر وكانت له الدنيا بالمرصاد؛ إذ تعرَّض (بالإضافة لكل ذلك) إلى محاولة اغتيالٍ، دبَّرها له هوان توي (أحد سائسي الخيل)، فاضطر إلى التنكر ومغادرة دولة سونغ خفيةً تحت جنح الظلام، ولمَّا كانت أحواله قد اضطربت للغاية، فلم يكن أمامه إلَّا أن يقيم في دار حارس المدينة «المدعو جنزي، وقيل إنَّه اشتغل بالتدريس في فصول خاصة لبعض الوقت» وعمل لفترة، وزيرًا لوالي دولة تشين.

ولطالما قيل إنَّ مَن أراد أن يعرف سمات شخصية السياسيين أو رجال القصر، فلينظر إلى ضيوفه الدائمين، وإذا أراد المرء أن يعرف خبيئة المسئولين السياسيين «فيما وراء حدود الأوطان» فليراقب حال مضيفيه؛ «فبالضيف يُعرف المُضيف، والعكس صحيح!».

لو كان كونفوشيوس قد أقام حقًّا لدى معالج القروح والخصِي التابع للقصر (جيهوان) لما استحق أن يحظى بالمكانة اللائقة والشهرة الذائعة، والاحترام الهائل الذي اقترن به وصار علامة عليه.»

(٩–٩) ذهب وانجان إلى منشيوس، وقال له: «بلغني، فيما يقول الناس، أنَّ «باي ليشي» (أحد كبار رجال دولة يو) أُخِذَ أسيرًا في دولة تشو، عندما سقطت بلاده، فافتداه «موكون» (حاكم تشين) لما عرف عنه من فضله وحكمته، وولاه منصبًا بارزًا عنده، فمهَّد له ليؤسس إمبراطورية عظمى فوق «الدويلات». قيل إنَّ باي ليشي هذا قد باع نفسه بخمس قطع من جلود الماعز عند أحد تجار المواشي في دولة تشين؛ بل «وصل به الهوان أن» يعمل راعي أبقار؛ وذلك ليتحين فرصة مقابلة موكون (حاكم تشين) فهل لهذه الرواية سند من الحقيقة؟»

قال منشيوس في ردِّه عليه: «ليس هناك أدنى قدر من الصحة لهذه الأقوال؛ بل هي أراجيف أذاعها المضللون. وقد علمت أنَّ باي ليشي، وهو من كبار رجال دولة يو، رأى — مثل كل الناس حوله — أهالي دولة جين يأتون إلى البلاط الملكي في دولة يو بالهدايا الثمينة؛ من يشب (أحجار كريمة) وجياد أصيلة، يرجون السماح لقواتهم بالعبور من أراضي يو للهجوم على دولة «قوا»، فقام الوزير الأعظم في يو (المدعو ... كونغ جيتشي) ونصح للحاكم بعدم الموافقة على ذلك الطلب، لكن باي ليشي لم يكن يرى هذا الرأي،

وكان يعلم تمام العلم أنَّ حاكم دولة يو لن يقبل النصح — في هذا الموقف — فغادر «باي ليشي» البلاد قاصدًا إلى دولة تشين، وكان عمره وقتئذٍ قد تجاوز السبعين، وهل يُعقل أن يُفكِّر رجل قد بلغ ذلك السن، وهو معروف بالحكمة، في أن تكون وسيلته المناسبة — للالتقاء بحاكم تشين — أن يتحايل على ذلك برعي الأبقار، وهو يعرف أنَّ مثل هذا التصرف مشين للغاية ويحط من قدره، وهل من الممكن أن نتهم رجلًا بالغفلة لأنَّه آثر الابتعاد والصمت ولم يحاول أن يثني الحاكم عن قراره، وهو يعرف أنَّ مثل ذلك الحاكم ليس ممن ينصاعون للنصح؟ أيمكن أن نتهم امرأً بعدم التبصُّر والتحوُّط؛ لأنَّه بادر إلى الخروج من مواطن التهلكة والابتعاد إلى أقصى الأرض، وقد عرف أنَّ الرأس المدبِّر للأمور في دولة يو (حاكم البلاد) في طريقه المحتوم للهلاك؟ وقد آواه حاكم تشين — وقتئذٍ — وهو الرجل المشهود له بالمكانة والاقتدار، فلم يبخل باي ليشي عليه بما في جعبته من أفكار؛ بل شدَّ من أزره، وصار له عونًا على قضاء أموره؛ فهل نعدُّ ذلك جهلًا منه وغباوةً؟ ثم إنَّه لم يقصر في خدمة سيده حتى صارت دولة تشين أقوى الممالك، وأصبح حاكمها [موكون] سيد البلاد التي تحت السماء، فانتشر ذكره في الآفاق، وطبقت شهرته الخافقين، وتناقل ذكره الأبناء والأحفاد. فهل يمكن أن نصف صاحب الفضل في هذا كله بأنَّه فطير الرأي خامل الفكر؟

أما مسألة أن يبيع المرء نفسه من أجل تحقيق آمال مولاه وطموحاته وآرائه «العنيدة» فهو ما لا يمكن أن يُقدم عليه رجل ساذج، فما بالك بالعاقل الفطِن الكريم؟»

الجزء الثاني

وجملته تسعة فصول

(١٠–١) قال منشيوس: «كان بويي «حكيمًا فاضلًا» يغضُّ بصره عن مشهد السوء، ويعف أذنه عمَّا يتأذى منه السمع، يأنف من أن يخدم حاكمًا غادرًا غشومًا لا يوثق به، ويستغني عمَّن لا يؤتمن من عامة الناس، ينزل إلى ساحة العمل إذا ما استتبت أركان الحكم الرشيد، ويعتزل منصرِفًا عن الانغماس في الشئون العامة، إذا ما عمَّت الفوضى وساد الارتباك. ولم يكن يرضى لنفسه أن يُقيم في ظلال حكومة غاشمة «مع المسئولين المتنفذين»، ولا في موطن يضرب فيه الظلم بأطنابه «مع عامة الشعب»، وكان يتصوَّر أنَّ أيَّة محاولة للاقتراب، أو العيش مع البسطاء تُشبه محاولة الجلوس وسط أكداس من

الوحل والطين والحجارة (حرفيًّا: أحجار الفحم)، مع الحرص على ارتداء الزي الرسمي المهيب والقبعة وكل لوازم المكانة الوظيفية المهيبة.

وكان عندما حلَّ زمن حكم الإمبراطور تشو [الطاغية، آخر حاكم في أسرة شانغ الملكية]، ارتحل وأقام وحده على شاطئ بحر بيهاي [يعني: بحر الشمال]، منتظرًا عودة الأحوال إلى الاستقرار والهدوء.

إنَّ سيرة بويي، وذكريات أيامه، ومشاهد التزامه الخلقي، إذا ما تُليت على الأسماع جرَّدت النفوس المتوثبة إلى الاستبداد من الصلف والجور، فعادت نقية شهباء، وانتزعت من بواطن الضعف والتخاذل كوامن الذل والاسترابة، فأصبحت الإرادة أمضى عزمًا، والإقدام الجريء والمبادأة ثقةً وشجاعةً.»

قد تحدَّث إيين فقال: «لا بد من خدمة وطاعة الملك، فما من حاكم إلَّا وجب له ذلك، والعمل فرض على العاملين (كل أهالي الممالك)، فما من أحد إلَّا قام بنصيب من الواجب عليه أداؤه.» «وكان اقتناع إيين تامًّا وكاملًا؛ حتى إنَّه ...» كان يحرص على بقائه في وظيفته الرسمية، سواء صَلح الحكم واستقام، أو فسد ودبَّت في أركانه الفوضى، وكان يقول أيضًا: «ما وهبت السماء للبشر الحياة، إلَّا ليُعلِّم الأولون «ممن أوتوا حظًّا من العلم» الآخرين، ويُحرك السابقون «ممن استفاق لديهم الوعي» وعي اللاحقين. ولئن كنتُ قد أوتيت من الوعي ما سبقت به الأهل والعشيرة، فلن أتوانى عن أن أقوم بينهم مرشدًا لمبادئ «القديسَين الحكيمَين: ياو، وشون».» ... وحجته في ذلك أنَّ أي تقصير منه في توجيههم نحو استلهام أفكار ومبادئ ياو، وشون، سيكون بمثابة دفعهم للسقوط في الهاوية؛ فمن ثَم أراد لنفسه أن يتحمَّل أعباء تلك المهمة على عاتقه.

ولم يكن «ليو شيا هوي» يستشعر الحرج في أن يكون عاملًا لدى ملك فاسد، ولا كان يرى في الوظيفة الرسمية المتواضعة ما يُمكن أن يمس كرامته أو يُلحق الإهانة؛ «فلم يُغادر وظيفة عَمِل بها طوال حياته»؛ بل ظلَّ حريصًا، أثناء عمله بالقصر الملكي، على إبراز جدارته والتفاني بكل طاقته، والعمل طبقًا للقواعد (المبادئ الأخلاقية)، ولم يكن يضجُّ بالشكوى إذا أُهمل شأنه، ولا يُساوره القلق إذا ما أَلَّمت به المحن، لم يكن يضيق صدره بصحبة البسطاء من الناس؛ بل كان يتحمَّس لمودتهم، ولم يُغادر لهم مجلسًا إذا ما التأم وإياهم مجلسه، ولطالما ظلَّ يُردد مقولة «أصبحتْ مثلًا سائرًا من بعده»: «لكلٍّ شأنٌ، ولي شأني [حرفيًّا: أنت هو أنت، وأنا هو أنا]، ولن يشينني عيب صاحبي، ولن يمس نقائي ما شاب الناس أو ضار.»

لذلك؛ فقد صار «ليو شيا هوي» نموذجًا تنشرح به الصدور الضيقة، وتقرُّ به العيون والنفوس التي أضنتها غمرات الأحوال.

عندما كان كونفوشيوس في طريق الرحيل عن دولة لو «وقد استقرَّ عزمه على السفر، وأراد أن يحمل معه زادًا يكفيه، فقد ...» أسرع إلى حفنات من الأرز المبلل بالماء، فانتزع لنفسه شيئًا منه، ولم ينتظر حتى يحين إنضاجه «فقام ومشى، فلمَّا أوشك على عبور حدود دولة لو — مسقط رأسه — قال:» «مهلًا أيها المسافر ... اتَّئد في خطوك، واعبر على رِسْلك، فذلك ما ينبغي لك أيها الراحل عن وطنك!»

وهكذا، فقد أسرع عندما كانت السرعة واجبةً، وأبطأ وقتما كان الإبطاء ضرورةً، وكان — قبلها — قد تنحَّى عن منصبه؛ إذ كان التنحي لازمًا. والتحق، بعد ذلك، بالعمل عندما آذن الوقت بذلك ... ذلك هو كونفوشيوس، وتلك هي طبيعته!».

وأضاف منشيوس، قائلًا: «كان بويي من أشد القديسين عفةً، وترفعًا «عن الحاجات الأنانية المادية» وكان إيين، أكثر الجميع التفاتًا إلى «إقامة المبادئ العليا عبر» العمل الوظيفي؛ أما «ليو شيا هوي» فقد كان أعظم القديسين بساطة، في حين كان كونفوشيوس — من بينهم جميعًا — هو أعظم مَن كان يدرك أحوال زمانه وطبيعة ظروفه الماثلة في عصره، ويُمكن القول بأنَّه كان التجسيد الكامل «للأفكار كلها» [وإذا استعملنا تشبيهًا من الموسيقى، لقلنا:] إنَّ دوره أشبه ما يكون باللحن الموسيقي الجميل؛ إذ تبدأ أول نغماته بعد صوت دقَّات الطبول، وتختتم أصواته برنَّات الأوتار [حرفيًّا: بعزف وتري على آلة تشينغ]، فلطالما كانت دقَّات الطبول هي مفتتح الألحان، ورنات الوتريات هي خاتمتها، فأول النغمات يتمثَّل في إيقاع «الحكمة» ونهاية الألحان تتجسَّد (تتبلور) في القداسة.

فالحكمة أشبه ما تكون بالمهارة؛ والقداسة مثلها كمثل القوة.

وإذا ضربنا مثلًا لتبيان المعنى «قلنا»: إنَّ الأمر أقرب ما يكون إلى التدرب على فن الرماية بمسافة تبعد عن الهدف مائة خطوة، فالقدرة على الرمي من مسافة مائة خطوة يتوقَّف على مقدار ما يملكه المرء من قوة، أمَّا التمكن من التسديد في قلب الهدف، فلا يُمكن أن يتوقَّف على القوة وحدها.»

(١٠–٢) ذهب بيكون تشي إلى منشيوس، وسأله قائلًا: «ترى كيف كانت الدرجات المالية والاجتماعية المقررة في عصر أسرة جو؟ هلَّا تفضلت بأن تذكر لي نظامها المقرر آنذاك؟»

فأجابه منشيوس قائلًا: «كان من الصعب جدًّا أن تلهج الألسنة بذكر تفاصيل تلك المسائل؛ لذلك فلم يصِل إلى أسماعنا شيء منها، ثم إنَّ أمراء الأقاليم كانوا يسخرون من نظام الدرجات المالية والاجتماعية، ويعدونه ضارًّا «بمصالحهم»، فقاموا بإتلاف كل السجلات والمدونات الخاصة به، إلَّا أنَّ «ذاكرتي» ما زالت تحتفظ بالصورة العامة (الخطوط الرئيسية التقريبية) لنظام الدرجات القديم، «وبيانه كالتالي»:

«تيان تشي» ابن السماء (الإمبراطور الأعظم) الدرجة «الاجتماعية» الأولى؛ «كونغ» الوالي — أو المحافظ — [الحاكم العام] الدرجة الأولى؛ «خو» النبيل، الدرجة الأولى؛ «بو» الشيخ، الدرجة الأولى؛ «تسي» و«ناث» (الوجيه)، [الأمجد]، الدرجة الأولى، ومجموعها خمس درجات.

«جون تسي» الحاكم، الدرجة الأولى؛ «تشينغ» الوزير الأعظم، الدرجة الأولى؛ «شانغ شي» النابه [أو «الدارس»] من المستوى الأعلى، الدرجة الأولى؛ «جون شي» النابه من المستوى الأوسط، الدرجة الأولى؛ «شيا شي» النابه من المستوى الأدنى، الدرجة الأولى؛ ومجموعها ست درجات اجتماعية.

الأراضي المقررة لابن السماء (الإمبراطور الأعظم) تبلغ ألف لي مربع؛ أمَّا المخصصة للوالي والنبيل — كليهما على حدة — فتبلغ مائة لي مربع؛ أمَّا أراضي الشيخ فتبلغ سبعين لي مربعًا؛ وتبلغ الأراضي المقررة للوجيه والسيد المهذَّب — كليهما على حدة — خمسين لي مربعًا، ومجموعها أربع درجات.

فإذا كان مجموع مساحة الأراضي لا يكاد يبلغ خمسين لي من الإقليم، فلا يحق أن يُصبح إقليمًا تابعًا لجلالة الإمبراطور مباشرةً؛ بل يلحق بأمراء الدويلات، ويُسمى فويونغ [إقليم تابع].

يبلغ إقطاع الوزير الأعظم (لجلالة الإمبراطور) من الأراضي مثل ما يملكه النبيل سواءً بسواء، أمَّا إقطاع الموظف العظيم من الأرض فيُساوي ما يوزَّع على الشيخ سواء بسواء، ونصيب الدارس من المستوى الأول يتساوى مع ما يملكه الوجيه والسيد الأمثل.

يبلغ راتب الحاكم العام في الولاية التي تبلغ مساحتها مائة لي مربع، عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم، ويبلغ راتب الوزير الأعظم أربعة أضعاف راتب الموظف العظيم [كبير رجال الحكومة]، أمَّا راتب الموظف العظيم، فيبلغ ضعفي دخل الدارس من المستوى الأعلى، والنابه من المستوى الأعلى يحصل على راتب يُماثل ضعفَي مثيله من المستوى الأوسط، ودارس المستوى الأوسط يحصل على ما يُساوي ضعفَي دخل الدارس

من المستوى الأدنى، وراتب الدارس من المستوى الأدنى يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف العادي من العامة؛ أي إنَّه يحصل على دخل هو في الأساس بدلٌ وتعويض عن العمل في زراعة الأراضي.

وراتب الحاكم العام في دويلة متوسطة، تصل مساحتها إلى سبعين لي مربعًا، يبلغ عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم، وراتب الوزير الأعظم ثلاثة أضعاف راتب الموظف الكبير، وراتب الموظف الكبير ضعفا راتب الدارس من المستوى الأعلى، وراتب الدارس من المستوى الأعلى ضعفا راتب الدارس من المستوى الأوسط، وراتب الدارس من المستوى الأوسط ضعفا راتب الدارس من المستوى الأدنى، وراتب الدارس من المستوى الأدنى يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف البسيط من العامة، وهو دخل يُكافئ بدلَ زراعة الأراضي.

أما راتب الحاكم العام في بلد صغير، لا تزيد مساحته على خمسين لي مربعًا، فيبلغ عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم، وراتب الوزير الأعظم يبلغ ضعفَي راتب الموظف العظيم، وراتب الموظف العظيم يُساوي ضعفَي راتب الدارس من المستوى الأعلى، وراتب الدارس من المستوى الأعلى يُساوي ضعفَي دخل الدارس من المستوى المتوسط، وراتب الدارس من المستوى المتوسط يبلغ ضعفَي راتب الدارس من المستوى الأدنى، وراتب الدارس من المستوى الأدنى يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف البسيط من العامة، وهو الدخل الذي يُحسب بدلًا من دخل زراعة الأراضي؛ أمَّا بالنسبة للمزارعين، فقد كان كل مزارع يحصل على مائة «مو» من الأراضي، فإذا ما تمَّ استصلاحها وتسميدها، فقد كان المزارع من الدرجة الممتازة يعول تسعة أفراد، والأقل منه مرتبةً يعول ثمانيةً، والمزارع من الدرجة الثانية يعول سبعة أفراد، والأقل يعول ستة أفراد، والمزارع من المستوى الأدنى يعول خمسة أفراد.

أمَّا بالنسبة للموظف البسيط فقد كان راتبه يتحدَّد وَفقًا لأقسام تلك الدرجات».»

(١٠–٣) ذهب وانجان إلى الشيخ الحكيم وسأله: «هل تأذن يا سيدي بأن تحدثني عن القواعد التي تقوم عليها أُسس الصداقة؟» فأجابه منشيوس: «لا يعتد في الصداقة بالسن، ولا بالمنصب والمكانة، أو الثروة والجاه؛ فالصداقة الصحيحة تستند إلى الأساس الأخلاقي وحده، لا شيء غير ذلك. «ولنضرب أمثلة معروفة في هذا الصدد»، فهذا منغ شيانزي [أحد كبار دولة لو … وهو الوجيه الأمثل، ابن الجاه والشرف] يملك مائة مركبةٍ مجهزة بخيولها، وقد جمعته الظروف بخمسةٍ من أعز الأصدقاء، «من بينهم:» «يوجن تشيو»،

و«موجون» وثلاثة آخرون، لا أذكر أسماءهم، وقد كان حريصًا، في علاقته بهؤلاء، ألَّا يظهر بهيئة الرجل صاحب الجاه والمال، سليل الأسر والبيوتات العريقة، ولا كانوا من ناحيتهم ينظرون إلى علاقتهم بصاحبهم من زاوية ما يتفوق به اجتماعيًّا؛ بل كثيرًا ما قامت الصداقة على هذا المنوال بين حكام الأقاليم «حتى الأقاليم الصغيرة». وقد قال «هويكون» (حاكم دويلة «في»، إحدى الدويلات الضئيلة في عصر الدول المتحاربة): «من بين كثيرين صادقتهم، فإنِّي أنظر إلى زيك (تلميذ كونفوشيوس) بوصفه أكثر من صديق، فهو أستاذي ومُعلمي؛ أمَّا «يان بان» فهو أوفى الأصدقاء، وبالنسبة لكلٍّ من «وانغ شون» و«تشان شي» فهما أخلص أتباعي «برغم أنَّهم من الخدم إلَّا أنِّي أصادقهم!».»

ولم يقتصر ذلك الحال على حكام الأقاليم الصغيرة؛ بل إنَّا نجد مثيل ذلك لدى حكام الولايات الكبرى؛ فهذا «بيكون»، حاكم دويلة «جين» الذي قرَّب إليه صديقَ عمره «هاينان»، وربطت بينهما عُرى الود والصداقة؛ لدرجة أنَّ هاينان هذا كان يدعوه إلى منزله، فيذهب إليه ويُجالسه ويأكل معه من طعامه «برغم أنَّ الطعام لم يكن دسمًا، ومع ذلك فقد ...» كان يأكل حتى يشبع، ويشرب «الخمر»، فلا يدع في الكأس بقيةً، كما يليق برجل مهذب نحو صاحبه، لتستوفي الصداقة حقها بينهما، لكن الأمر لم يكن ليتجاوز الحدود — على أيَّة حال — فمع كل تلك المشاعر الودية، لم يكن الحاكم العام يُشرك صاحبه في أيَّة موضوعات تتصل بمهام الإدارة الحكومية السيادية، ولم يكن الحاكم العام يدعوه للاشتراك معه فيما يتعلق بحُكم المملكة، ولا في ضبط أحوال البلاد، ولا في الاستئثار بالمخصصات المالية؛ «فقد كان الأساس الذي قامت عليه هذه العلاقة هو أنَّ:» الحاكم يتصرف مثل أي واحد من الدارسين تجاه رجل كلُّ رصيده الأخلاق والمبادئ الإنسانية، ولم يتصرف — هنا — بوصفه المسئول الأكبر الذي يتوجَّب عليه إبداء الاحترام والتقدير لرجل فاضل كريم.

وقد التقى [قديمًا] شون، بالإمبراطور الحكيم «ياو» فدعاه [وكان شون في تلك الأثناء، صهره، زوج ابنته] إلى الإقامة في أحد دور الضيافة التابعة للقصر الملكي، وأقام له وليمة، وأكرم ضيافته للغاية، وتوثَّقت بينهما العلاقة — يومئذٍ — كأحسن ما تكون بين ضيف ومضيف، وصارت بعدها مثالًا لما يُمكن أن يقوم من مودة وعلاقة حميمة بين ابن السماء [الإمبراطور] ورجل من العامة.

إنَّ ما يُبديه الوضيع من احترام لصاحب المكانة المرموقة يُسمَّى احترامَ ذي الوجاهة والشرف الأسمى؛ أمَّا تبجيل ذي الوجاهة للرجل الوضيع، فيُسمى التقدير اللائق لذي

الفضل والحكمة والخلق الكريم. «فكلاهما (كلا النمطين من الاحترام) يقومان على مبدأ واحد، فليس ثمة أدنى فرقٍ.»

(١٠–٤) ذهب وانجان إلى منشيوس وسأله: «ائذن لي أن أسألك عمَّا ينبغي مراعاته عند تبادل الهدايا «بين الأصدقاء».» فأجابه: «أشد ما ينبغي مراعاته عندئذٍ، هو الاحترام»، فقال وانجان: ««لطالما سمعت بأنَّ» كثرة التعفف عن قبول الهدية ليس من قبيل الاحترام، فما السبب في رأيك؟»

فقال منشيوس: «عندما يُقدِّم امرؤ فاضل «من مرتبة اجتماعية ذات شأن» هديةً لواحد من الناس، فهو غالبًا ما يظل يفكر بينه وبين نفسه عمَّا إذا كانت الهدية جاءت بوسائل نزيهة تتفق مع قواعد الأخلاق الإنسانية أم لا؛ وذلك قبل أن يوافق على قبوله إياها. فلمَّا عُدَّ ذلك التفكير «على هذا النحو» منافيًا لأبسط قواعد الاحترام، صار رفض الهدية «سلوكًا لا أخلاقيًّا»، ولم يعد الرفض مقبولًا.»

وسأله وانجان قائلًا: «فماذا إذا كان المرء رافضًا قبول الهدية من أعماقه، مع أنَّه لم يقل بفَمِه صراحةً — وإن كان بأسلوب غير مباشر — إنَّه يرفضها، فقد يصوِّر له تفكيره أنَّه لولا البطش والاستيلاء على أموال الناس ظلمًا وعدوانًا لما أمكن تقديم مثل تلك الهدية، ألا يحسن بالمرء حينئذٍ أن يتخذ من هذا الاحتمال تَكِئَةً للرفض؟»

فأجابه منشيوس: «ما دامت العلاقات — بين الناس بعضهم وبعض — قائمةً على أصول الآداب المتعارف عليها، مثلما تلتزم المعاملات الجارية بينهم قواعد السلوك القويم، فإنَّ كونفوشيوس نفسه، «لو كان مخيَّرًا في موضوع الهدايا» لما كان وسعه إلَّا قبول الهدية»، وعاد وانجان يسأله: «فماذا لو قام أحدهم بالسطو على المناطق النائية، فسرق وسلب أمتعة الناس وأموالهم، فلمَّا اجتمع لديه من المال الشيء الكثير راح يغدق الهدايا على أصحابه، فهل يصح قبول هدية من هذا النمط «وهي في الأصل عبارة عن مسروقات» ما دامت تتوسل بالمعاني الطيبة وتسلك قواعد المعاملات؟»

أجابه منشيوس قائلًا: «بل لا يصح قبولها أبدًا، وقد جاء في «كانغ كاو» [لوائح كانغ الرسمية] ما يلي: «إنَّ القتلة والسفاحين، واللصوص، والمعتدين على الناس الذين لا يرهبون الموت ولا رادع يردعهم، أولئك حقَّت عليهم كراهية الناس أجمعين، لا ينبو عنهم واحدٌ أبدًا» ... فمثل هؤلاء لا يُجدي معهم نصح ولا هداية، وليس أجدى من إنقاذ القضاء بإزهاق أرواحهم، وهو التشريع القانوني الذي توارثته العروش الملكية المختلفة [ورثته شانغ عن شيا، ثم أخذته دولة جو عن شانغ لاحقًا عن سابق] حُكمًا لا يتبدَّل أبد الدهر؛ فهو باقٍ حتى اليوم بغير أدنى تهاون؛ لذلك أقول بأنَّه من المستحيل قبول «تلك الهدية».»

وقال له وانجان: «لكن الأمراء صاروا يسرقون الناس، في هذا الزمان، ويتسلطون عليهم بالنهب والسلب، مثل أي قاطع طريق، فإذا ما أُقيمت أصول المعاملات (مجرد واجهة برَّاقة تخفي وراءها ما تخفيه) صارت الهدايا محل تقدير الجميع، بما فيهم السادة المهذبون، فما قولك في ذلك؟» فأجابه منشيوس قائلًا: «أتظن لو قام حاكم ملكي رشيد، يُبادر إلى وضع كل الأمراء في صعيد واحد، ثم يُعمل في رقابهم السيف جميعًا؟ أم أنَّه يأمرهم بالتزام جادة الصواب، ثم يمهلهم فلا يقتل إلَّا مَن أفرط وتمادى في غيِّه؟

إنَّ الزعم بأنَّ كل محاولة للاستيلاء على ممتلكات الغير تعد من قبيل السرقة والنهب واللصوصية، لهو زعم كفيل بأن يُقيم من المعايير سيوفًا مسلطة، ويشحذ من المبادئ نصالًا حادةً، وقد عمل كونفوشيوس — لفترة — في دولة لو، بوظيفة رسمية، وكان أهل الإقليم يُقيمون «حفلات» للصيد والقنص، ويتصارعون للاستيلاء على الفرائس، وكان كونفوشيوس يُشاركهم في ذلك ويقلدهم فيما يفعلون (يستولي على الغنائم مثلهم!) فإذا كان هذا التصرف (على همجيته) جائزًا، فما بالك بقبول الهدايا؟»

وهنالك قال له وانجان: «إذا كان الأمر هكذا، فلم يكن قبول كونفوشيوس بوظيفته الحكومية قائمًا على أساس «ما كان يزعمه دائمًا من أنَّه يريد بذلك أن يجد الوسيلة إلى ...» تطبيق المبادئ الأخلاقية»، وردَّ عليه منشيوس بقوله: «كلَّا؛ بل كان هدفه من وظيفته أن يُطبق المبادئ التي طالما دعا إليها وآمن بها.»

فقال وانجان: «فكيف يرضى لنفسه أن يُشارك في حفلات صيد يستولي فيها على الغنائم والفرائس؟» فأجاب الشيخ: «لأنَّه اعتمد في إرساء قواعد القرابين على المدوَّنات والسجلات «الصحيحة المثبتة»، بديلًا عن فتات القرابين والأضاحي التي كان يتم تجميعها من بقايا الطعام المتناثر في بقاع مختلفة [وهو ما كان يُمثل ضربةً قاضيةً لنظام التنازع والصراع حول فرائس الصيد].»

وسأله وانجان: «ولماذا لم يُحاول كونفوشيوس الاستقالة من وظيفته والرحيل إلى بلاد أخرى؟» فأجابه: «كان يقول أن يُجرب، فإذا ما جاءت النتائج لتؤيد وجهة نظره وتنتصر لمبادئه الأخلاقية، مع تحفظ الحاكم على إقرارها، صار مقتنعًا بالسفر «ليجرب في مكان آخر»، وهو الأمر الذي لم يمكِّن كونفوشيوس من البقاء أكثر من ثلاث سنوات في بلد واحد. (كانت دواعي كونفوشيوس للالتحاق بوظيفة رسمية متعددة، فمنها:) أنَّه كان يقبل، أحيانًا، بأداء عمل حكومي ما؛ لأنَّ فرص تطبيق القواعد الأخلاقية كثيرة ومواتية، أو، لِمَا كان «يبديه بعض المسئولين» من استقبال حافل، وروح ودية وحفاوة بالغة، أو لِما كان يُبديه حاكم الإقليم من رعاية للحكماء والنابهين.

«ومثلًا فبالنسبة لواحد مثل ...» جيهوان، فقد رضي العمل بوظيفة رسمية؛ إذ كانت تلك وسيلته لتطبيق المبادئ النظرية؛ أمَّا وي لينكونغ، فقد كان سبب قبوله العمل الحفاوة والاهتمام والرعاية التي أبداها له المسئولون، وما كان «وي شياوكون» ليرضى أن يلتحق بوظيفة عامة، إلَّا لِما أدركه بصورة واضحة من اهتمام الدوائر الحاكمة بأمره، ورعايتها وتشجيعها لأفكاره.»

(١٠–٥) قال منشيوس: ««لا ينبغي أن يكون» الفقر هو السبب الأساسي في البحث عن وظيفة رسمية، ولو أنَّه كثيرًا ما كان هو السبب الوحيد في ذلك؛ ولا يجب أن يكون الزواج وسيلة للبر بالوالدين، وضمانًا للرعاية الأسرية، ولو أنَّه طالما كان الزواج يقوم أساسًا لهذا الغرض.

إذا كان الفقر هو الدافع للبحث عن وظيفة رسمية، فلا ينبغي التطلع إلى منصب راقٍ؛ بل يكتفي بموقع في أدنى السلم الوظيفي ذي راتب محدود، وأن ينبذ المرء ما يفوق ذلك.

لكن ما هي الوظيفة التي تردُّ الطمع في منصب أرقى، ويقنع بها المرء براتب ضئيل وموقع «ذليل»؟ ... ربما لم تكن تزيد هذه الوظيفة إلَّا على أن يعمل العامل ملاحظًا لبوابات القصور (بوابًا) أو خفيرًا، يتوكأ على عصاه في الطرقات، وقد سبق أن عمل كونفوشيوس مراقبًا بسيطًا لمخازن الغلال، وكان يقول: «أهم شيء «في هذه الوظيفة» هو أن أتحرَّى الدقة في مراجعة الحسابات»، ... ثم عمل ملاحظًا في أحد مزارع تسمين الماشية، وكان يُكرر دائمًا قوله: «يجب أن يلتفت المرء «في هذا العمل» إلى بذل كل جهد من شأنه إطراء نمو الأبقار وتقوية أبدانها.»

أمَّا أن يقبع القابع في أدنى مرتبة وأحقر وظيفة ثم يتشدَّق بالحديث حول شئون الدول وسياسات الممالك، فذلك إثم يصل إلى حد الجريمة. «ومن ناحية أخرى، ف...» أن يتبوأ المرء منصبًا متنفذًا لدى القصر الملكي، ثم يعجز عن تطبيق مبادئ الحكم الرشيد، فذلك هو العار، وتلك هي المهانة بعينها.»

(١٠–٦) تساءل وانجان: «لماذا ينبغي دائمًا على الدارس «المثقف» النابه أن يستقل «في احتياجاته الضرورية» عن الأمير، بحيث يترفع عن سؤاله أن يقضي له حوائجه؟»
أجاب منشيوس قائلًا: ««تلك قاعدةٌ أخلاقيةٌ ملزمةٌ» لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها.

إنَّ الأمير إذا ضاعت منه أرضه، يستطيع أن يلجأ إلى كنف جيرانه من الأمراء والحكام الآخرين، ويصير تصرفه موافقًا للمبادئ «الأخلاقية» المقررة؛ أمَّا لجوء الدارس المثقف إلى الأمير طلبًا للمساعدة، فليس من المبادئ في شيء.»

فقال وانجان: «فهل للمتعلم النابه أن يقبل عطاء الأمير إذا أعطاه «ما يُقيم أودَه من» محاصيل غذائية [حرفيًّا: حبوب الذرة الصفراء]؟»

– نعم، له أن يقبل عطاءه.

– فما الحكمة من قبوله مثل هذا العطاء؟

– من حق الأمير أن يُقدِّم المساعدة والغوث والرعاية لضيوف بلاده واللاجئين إلى أرضه.

– أيقبل المتعلم النابه عون الأمير، ويرفض — في إباءٍ — مكافأته له؟

– أجل، هو ذاك.

– اسمح لي أن أسألك عن السبب في عدم قبوله مكافأة الأمير.

– إنَّ البواب الذي يراقب مداخل الدور والقصور له وظيفة معروفة محدودة، يتلقَّى للقيام بها عونَ ورعاية السلطة الحاكمة، وبالتالي فليس من اللائق، ولا من الاحترام، أن يقبل المرء أي عون أو مساعدة من جانب المسئولين ما دام لا يعمل في نطاق وظيفة رسمية مُحددة.

– ألا يُمكن إذن «على سبيل إيجاد حل مناسب لهذه المسألة» أن يُداوم الأمير على مكافأة النابهين، ويواظب هؤلاء على قبول مِنَح الأمير ومكافآته؟

– كان [المدعو] «لو ميو كون» يُداوم السؤال عن أحوال «زيس» ويرسل له، بين الحين والآخر، وجبات من اللحم المطهو الطازج؛ لكن زيس لم يشعر بالارتياح لهذا «الكرم غير العادي»، وهكذا، فقد اعتذر — ذات مرة — لرسول الأمير، وقال له، وهو يرد إليه عطاء الأمير ويودعه عند الباب وينحني له أدبًا وتبجيلًا: «قلْ لسمو الأمير إنِّي أشكر له اهتمامه بي، وكأنِّي مجرد كلب أو بقرة في حظائر حيواناته.» وقد أحجم الأمير، بعد ذلك، عن إرسال عطاياه، منذ ذلك الحين، واكتفى بالتعبير عن حبه وإعجابه بالحكماء والفضلاء دون إسناد أي عمل مناسب لهم أو تكريم وفادتهم، فهل يُمكن أن يكون في هذا التصرف أي تبجيل، أو تقدير للحكماء وذوي الفضل؟

– قل لي إذن يا سيدي، كيف يُمكن أن تكون حفاوة الملك بالحكماء جديرةً بمكانتهم وما يستحقونه من توقير؟

– عندما يجري منح الهدايا الملكية [باسم جلالته] لواحد من أولئك النابهين، لأول مرة، فينبغي على المستلم أن ينحني مرتين، ثم يستلم ما يُقدَّم له، وتُصرف له حصص دائمة من الحبوب واللحوم، دون أن يتطلب الأمر، في كل مرة، التفضل بالتكرم عليهم

بهذه المقررات باسم جلالة الملك؛ فقد ظنَّ زيس أن سيكون مُطالبًا بالركوع والسجود لاسم الملك في كل مرة يتم إرسال حصة اللحم المطهو إليه، وهو الأمر الذي بدا له مُهينًا.

كان الإمبراطور الحكيم ياو يأمر أولاده التسعة بالقيام على خدمة تلميذه (وخليفته فيما بعد) شون، وقام بتزويج ابنتَيه له، وأصدر أوامره بأن يكون السعاة والموظفون والدواب ومخازن الغلال في خدمته وطوع إرادته، وجعل له الكلمة العليا فوق كل الأرض؛ بمزارعها وحدائقها، ثم رفعه — فيما بعد — إلى أعلى المناصب السيادية؛ لذلك يُضرب المثل بجلالته في احترام وتقدير ذوي الحكمة.»

(١٠–٧) ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله: «أود أن أسألك يا سيدي عن سبب امتناع «النابهين ... المتعلمين» عن مقابلة الأمراء؟» فأجابه الشيخ: «إنَّ مَن يُدعَون وزراء الأحياء والآبار الجوفية من سكان المدن، ومَن يُقال لهم «وزراء الأعشاب والنباتات» من أهل القرى، كل أولئك وهؤلاء «ليسوا وزراء حقيقيين؛ بل هم ...» مجرد أفراد بسطاء من أبناء الشعب، ولأنَّهم لم يقوموا بالطقوس الواجبة التي تقضي بتقديم «هدايا التعارف الرسمية «لأمراء الأقاليم» فلا يحق لهم، حسب القواعد والأصول المقررة، مقابلة أمراء الولايات».»

وسأله وانجان: ««لكن الغريب في أمر أبناء الشعب هؤلاء هو أنَّهم ...» إذا صدرت إليهم الأوامر بأداء الخدمة العسكرية استجابوا على الفور؛ أمَّا إذا صدر إليهم طلب الحضور لمقابلة الحاكم العام امتنعوا عن الاستجابة، فما السبب في ذلك؟» فأجابه: «الخدمة العسكرية، واجبٌ ومهمةٌ إلزاميةٌ؛ أمَّا لقاء الحاكم العام فليس أمرًا ملزمًا، وإنِّي لأتساءل عمَّا يدعو الأمير إلى الإلحاح في طلب الالتقاء بواحد من العامة؟ «هل يُمكن أن يكون الحاكم في حاجة ماسة لمقابلة واحد من العامة إلى هذا الحد؟!» فقال وانجان: «ربما أراد الحاكم أن يستزيد من سعة معلومات ضيفه، أو لعلَّه أراد «بهذه المقابلة» تقدير نبوغه أو أدبه وكريم صفاته الأخلاقية»»، فقال منشيوس: ««أمَّا فيما يتعلق بالاستزادة من المعرفة» فإنَّ جلالة الإمبراطور — ابن السماء — لا يملك أن يُرغم متعلمًا على المثول بين يديه، فما بالك بأمراء المقاطعات؟ «وبخصوص تقدير الأمير للنبوغ والأدب والصفات الخُلقية الجليلة»، فلم أسمع طوال حياتي، أنَّ حاكمًا استدعى رجلًا فاضلًا إلى مقر الحكم لمجرد الرغبة في اللقاء به ومجالسته!

ولطالما التقى «لو ميو كون» بزيس، وكان يقول له ... «قد جاء حين من الدهر على الحكام [حكام الدويلات] الذين يحوزون القوة والمنعة والجاه [حرفيًّا: يحوز الواحد منهم

ألف مركبة عسكرية] كانوا يعقدون فيه صلات ودية مع الدارسين النبهاء، ويتخذونهم أصدقاء، فما ظنك بأحوال تلك العلاقات، وعلى أي نحو سارت، وإلى أي مصير انتهت؟» ... وهنالك ابتأس زيس وقال: «بل يُؤْثر عن القدماء قولهم إنَّ ولاة الأقاليم كانوا يتخذون من النابهين مؤدبين ومعلمين، «ودرجة العلاقة — هنا — تختلف كثيرًا عمَّا بين الأصدقاء»، فمن أين لك بذلك القول؟» ... وأضاف زيس، وقد بلغ به الحزن مبلغه: «أليس غريبًا أن تقوم الصداقة بين اثنين لكلٍّ منهُما مكانته المختلفة؛ فهذا حاكم إقليم، وذاك مجرد مسئول عامٍّ من ذوي الرتب والألقاب، فكيف يتأتَّى للصداقة أن تنشأ بينهما؟ «هذا من ناحية و ...» من الناحية الأخلاقية ... فالأمير هو الذي يتلقى العلم على يدي المتعلم «فإذا كان أحد طرفي العلاقة تلميذًا والآخر مؤدبه» فكيف يُمكن للصداقة (التي تنشأ بين طرفين متكافئين ... مكانةً، وقدرًا) أن تكون هي طابع مثل تلك العلاقة؟»

فإذا كان حاكم الإقليم ذو المركبات العسكرية الألف — يقول منشيوس — لا يستطيع أن يضمن قيام علاقة صداقة بينه وبين المتعلمين، فهل يملك أن يدعوهم فيجيبونه؟

حدث، ذات مرة، أنَّ «تشي جين كون» كان في رحلة صيد، فرفع رايته وأشار ناحية أحد الجنود يأمُره بالذهاب إليه، فلم يمتثل، فهمَّ بقتله.

«وقد قال كونفوشيوس:» «إنَّ المتعلم ذا القلب الذكي لا يأبَه للموت بين شقوق الجبال أو في مسارب الوديان، وكذلك لا يخشى الشجاع أن تسقط رأسه من فوق كتفيه.» ... فما الذي يريد كونفوشيوس التأكيد عليه هنا؟ إنَّه التأكيد على «شجاعة الحارس البسيط» برفضه الامتثال لدى الملك الذي أخطأ استخدام الراية الصحيحة، واستعمل أسلوبًا لا يليق متنافيًا تمامًا مع قواعد المعاملات.»

وسأله وانجان: «فما هي الإشارة الصحيحة التي كان يتوجَّب على الحاكم استخدامها؟» أجابه منشيوس: «كان من المفروض أن يستخدم قبعةً من الجلد، «وحسب الأصول المستقرة في مثل تلك الأحوال ...» فقد كانت الراية الحمراء تُستخدم لاستدعاء الأفراد العاديين (من العامة)، والراية التي تُسمى [«تشي»، وهي المزيَّنة بصورة التنينَين] هي التي تُستعمل لاستدعاء المتعلمين من رجال القصر، أمَّا كبار رجال الدولة فيتم استدعاؤهم بواسطة الراية التي يُطلق عليها [«جي» وهي المُعلَّمة بريشة تتدلَّى من رأسها]؛ فإذا استخدمت تلك الراية، مثلًا، لاستدعاء أحد حراس ميدان الصيد فلن يمتثل للأمر أبدًا ... «ولو كان السيف على رقبته، فلن يستجيب للأمر، وكذلك ...» إذا استخدمت الراية المخصصة لاستدعاء المثقفين بالإيماء ناحية واحد من العامة، فكيف يُمكن لرجل

بسيط أن يصدع لهذا الأمر؟ فما بالك إذا استخدمت إشارة لواحد من النكرات في استدعاء ذوي الحلم والكرم والمكانة الشريفة؟

إنَّ «الأمير إذا طلب» الالتقاء بذوي الحكمة دون إعمال القواعد والأصول المناسبة، فهذا أشبه ما يكون بإغلاق الأبواب في وجه الضيف المدعو للزيارة. إنَّ الاستقامة هي الطريق، وقواعد المعاملات هي البوابة الكبرى؛ فالعاقل الحكيم، وحده، هو القادر على التزام جادة الطريق، والدخول عبر الباب الكبير؛ وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم «ما نصه»:

«تمهد الطريق، بغير عثرات،
تحت أقدام السائرين،
كأنَّه صفحة حجر منبسط بغير نتوءات،
كأنَّه رشقة سهم منتصب
على طول المدى.
صفحة طريق،
تخط عليها أقدام الحكماء خُطًى
تترسمها أقدام اللاحقين».»

ثم عاد وانجان يسأل منشيوس: «كان كونفوشيوس قد استجاب لأمر استدعاء ملكي، «ومن شدة استعجاله للمثول بين يدي جلالته» استبطأ المركبة المخصصة لتنقلاته، فذهب يعدو إليه، ماشيًا على قدميه، ألَّا يُعَد مثل هذا التصرف — من كونفوشيوس — معيبًا؟» فأجاب الشيخ: «كان كونفوشيوس، يومئذٍ، يتولَّى منصبًا حكوميًّا متنفذًا؛ ومن ثمَّ فقد استدعاه الملك بصفته مسئولًا رسميًّا.»

(١٠–٨) قال منشيوس موجهًا حديثه إلى وانجان: «كثيرًا ما يُحاول المثقفون، من الطبقة العالية الشريفة، في بلدٍ ما، إقامة علاقات من المودة والصداقة مع مثقفي بلدٍ آخر.

وقد تجد مثقفي إقليم ما، يُحاولون عقد أواصر الصداقة مع نظرائهم في إقليم ثانٍ؛ بل إنَّك لتجد مثقفي الممالك كلها، أولئك الذين بلغوا أعظم مراتب الامتياز والحكمة والمكانة، يُحاولون التواصل والتآخي مع باقي المتعلمين والمثقفين في كل الممالك والدوَيلات التي تحت السماء، ثم إنَّ منهم مَن يجد تلك الصداقة غير كافيةٍ (لا تُشبع نهمهم المعرفي) فيعودون إلى صفحات التاريخ، يُقلبون أوراق «الشخصيات» القديمة، ينشدون أشعارهم

ويُطالعون أفكارهم ومدوناتهم، يتداولون النظر في شتى أمورهم «دون أن يدركوا حقيقة ما كان في ماضي زمانهم»، ويتعمَّقون، من ثم، في درس وتمحيص أحوال الماضي والزمان الغابر؛ فتلك هي الطريقة (طريقتهم المعهودة) في عقد أواصر الصداقة مع القدماء.»

(١٠–٩) كان لدى الملك شيوان الكثير من الأسئلة المتعلقة بالوزراء والنبلاء. «فتكلَّم في ذلك مع منشيوس»، فقال له الشيخ: «أي نوع من الوزراء والنبلاء تقصد بكلامك يا مولاي؟» فقال الملك: «أهناك فرق بين الوزراء والنبلاء بعضهم وبعض؟» فأجابه منشيوس: «أجل، هناك فرقٌ كبير؛ فليس الوزراء والنبلاء من الأسرة الملكية، عشيرة الملك الأقربين؛ مثل الوزراء وكبار رجال الدولة «من ذوي الألقاب غير الملكية».»

قال الملك: «فاذكر لي — إذن — أحوال الوزراء والنبلاء من أفراد الأسرة الملكية»، قال منشيوس: «هؤلاء مُطالبون — إذا ما وقع الملك في خطأ بالغ — أن يقدموا له النصح، فإذا ما عاندهم وأصرَّ على موقفه عزلوه وأقاموا على العرش ملكًا آخر بدلًا منه.»

وهنالك امتقع وجه الملك فجأةً، فواصل منشيوس كلامه قائلًا: «على رِسْلك، يا مولاي، ولئن قلت لجلالتك ما قلت، فلأنِّي وزيرك الذي لن يتوانى عن أن يَصْدُقَك القول ما دمتَ قد سألتني الرأي والمشورة.»

فبدت أمارات الارتياح على وجه جلالته، وراح يسأل منشيوس عن طبيعة وأحوال الوزراء والنبلاء من غير ذوي اللقب الملكي، فأجابه منشيوس بقوله:

«أمَّا أولئك، فلهم أن يوجهوا النصح للملك المرة تلو الأخرى، إذا ما بدا لهم أنَّ الملك قد جانبه الصواب في أحد شئون الحكم، فإذا ضرب جلالته صفحًا عن الأخذ بآرائهم، صار لهم الحق في أن يُقدِّموا استقالاتهم من مناصبهم.»

الباب السادس

كاوتزي

الجزء الأول

وجملته عشرون فصلًا

(١١–١) قال كاوتزي (وهو فيلسوفٌ سياسيٌّ عاش في زمن الدول المتحاربة): «إنَّ الطبيعة الإنسانية تُشبه شجر الصفصاف، أمَّا المبادئ الإنسانية فهي مثل الأكواب والأواني؛ ومن ثم يصبح تطويع الطبيعة الإنسانية لمقتضيات الاستقامة والمبادئ الأخلاقية، أشبه ما يكون باستخدام خشب الصفصاف في صنع الأواني الخشبية.»

فقال له منشيوس: «أتستطيع أن تصنع آنيةً خشبيةً حسب ما تُمليه عليك طبيعة الشجرة، أم تضطر إلى تشويه وتفتيت سيقانها وزروعها قبل أن تشرع في تشكيل مادة صناعتك؟ فإذا كنت ستعمد إلى تشويه جسد الصفصاف لتصنع الآنية المطلوبة، فلا بد أنَّك «بالمِثل» ستكون مُطالبًا بتبديل الطبيعة الإنسانية كي تتفق مع ضرورات تطبيق مبادئ الاستقامة والأخلاق. ولا أرى إلَّا أنَّك تريد أن تقود البشرية في طريق تدمير مبادئ الاستقامة والإحسان.»

(١١–٢) قال كاوتزي: «الطبيعة الإنسانية مثل تيار الماء المتدفق، إذا شققت له قناةً جهة الشرق، جرى في ذلك الاتجاه بكل قوته، وإذا فتحت أمامه ممرًّا صوب الغرب تدفَّق في الممر بكل العنفوان، الطبيعة الإنسانية لا تفرِّق بين الخير والشر، تمامًا مثل نهر جارٍ صوب الشرق أو الغرب، كيفما سبح التيار.»

فقال منشيوس: «صحيح أنَّ الماء يمكن أن ينساب إلى الشرق أو الغرب كيفما كان اتجاه المجرى، لكن هل يمكن للمياه أن تتدفق إلى أعلى أو أسفل حسبما اتفق لها أن تنساب مع التيار؟ إنَّ الطبيعة الإنسانية الطيبة مثل ماءٍ ينحدر إلى أسفل، وما من طبعٍ

إنسانيٍّ إلَّا وهو مائلٌ إلى الخير، مثلما تميل مياه النهر في مصب جريانها، لكن للماء أيضًا طبعًا آخر لا يتبدَّى لك، إلَّا حين تضرب صفحة الماء بيديك فتتطاير دفقات الماء إلى أعلى، إلى فوق قمة رأسك، أو تنزح الماء بدلو إلى مجرًى آخر، فيرتد التيار على أعقابه، أو أن ترفعه إلى حيث تسيل به الجداول في قمم الجبال، فهل يمكن أن يكون للماء طبعٌ واحدٌ لا يتبدل؟ إنَّها الأحوال المتغيرة التي تتلبس به، فتتبدل طبائعه وتسيل به في غير مجراه. «وكذلك الإنسان»؛ إذ يُمكن «بفعل التحريض» أن يرتكب أفظع الشرور والآثام؛ فقد يتبدل الطبع هنا مثلما تغيِّر الأنهار هناك — مجراها.»

(١١–٣) قال كاوتزي: «إنَّ الطبع الغريزي هو الطبيعة نفسها»، فسأله منشيوس: «إذا كان الطبع الغريزي هو الطبيعة نفسها، فهل يمكننا أيضًا القول بأنَّ اللون الأبيض هو البياض نفسه؟» فأجابه: «نعم، هو ذاك»، فسأله منشيوس: ««ولا بد، بالتالي، أن يكون» بياض ريش الطائر الأبيض مثل بياض الثلج الأبيض، ويكون بياض الثلج الأبيض مثل بياض اليشب (حجر كريم) الأبيض، أليس كذلك؟» فأجابه: «بلى، هو ذاك!»، فقال منشيوس: «إنَّ الإقرار بهذا يعني (يحتِّم علينا) أن نتساءل عمَّا إذا كانت طبيعة الكلب الغريزية تماثل الطبيعة الغريزية للثور، وهل طبيعة الثور، من ثم، تشبه طبيعة الإنسان!»

(١١–٤) قال كاوتزي: «إنَّ الطعام والشراب والجنس طبائع غريزية في الإنسان. إنَّ الرحمة خصلةٌ باطنيةٌ وليست ظاهريةً مشهودةً؛ أمَّا الاستقامة فلسلوكٌ ظاهرٌ ملموسٌ غير باطنيٍّ»، فقال منشيوس: «بأي معيارٍ عرفت أنَّ الرحمة باطنيةٌ والاستقامة ظاهرية؟» فأجابه: «يتضح ذلك بما أُوقِّر به كبير السن؛ فتوقيري إياه واحترامي له «سلوك ظاهر ملموس»، ولم يكن ذلك طبع أصيل موجود من قبل؛ فهذا أشبه ما يكون بشيء متلوِّن باللون الأبيض، فنحن نراه أبيض، فذلك البياض الظاهر أوجد الانطباع بكونه لونًا أبيضَ؛ لذلك أقول بأنَّه عنصر خارجي في ظاهر الأشياء»، فقال منشيوس: «قد يكون البياض مشتركًا في لون الحصان والإنسان، فهو لون واحد في كليهما، لكن السؤال هو: هل يتماثل — بِناءً على ذلك — توقيري وإشفاقي بالرجل العجوز مع شفقتي بالحصان؟ وهل تقول بأنَّ الاحترام «عنصر ظاهر» في الكهل كبير السن وجزء من تكوينه الأخلاقي (الاستقامة والرحمة)، أو هو خصلة مركوزة في طباع الفرد الذي يوقِّر ويبجِّل كبار السن؟» فأجابه كاوتزي قائلًا:

«هذا أخي الصغير، أحبه وأترفَّق به، أمَّا الأخ الأصغر لأي واحد من الناس، فليس بيني وبينه أية مودة، «فحبي لأخي» ناتج عن العلاقة التي تربطني به؛ لذلك أقول بأنَّ

الرحمة طبيعةٌ باطنية؛ أمَّا احترامي لواحد من كبار السن في دولة تشين «مثلًا» فهو كاحترامي (أيضًا) لكبار السنِّ «في عائلتي»، وكلاهما نابع من سلوكي مع كبار السنِّ عامةً؛ فلذلك أزعم بأنَّ الاستقامة مظهر سلوكي ملموس»، وردَّ عليه منشيوس، قائلًا: «وما الفرق — إذن — بين أن تحب أكل اللحم المشوي في دولة تشين أو أن تأكله في بيتك، والأشياء الأخرى كافةً على هذا النحو أيضًا؛ فهل تكون الذائقة أو الرغبة في أكل اللحم المشوي سلوكًا خارجيًّا «وليست طبعًا أصيلًا في النفس»؟»

(١١–٥) ذهب منغ جيتسي (الأخ الأصغر لحاكم دويلة «رن»، حكم الدويلة في غياب أخيه) إلى كونتوس وسأله: «على أي أساس تقول بأنَّ الاستقامة صفة باطنية؟» فأجابه: «على أساس أنَّ الاحترام نابع من باطن النفس»، فعاد منغ جيتسي يسأله: «هبْ أن أحد أهل بلدتك كان أسنَّ من أخيك الأكبر بعام واحد، فمَن منهما جديرٌ باحترامك؟»

– أخي الأكبر.

– فكيف إذا صببت الخمر في كأسيهما، فبأيِّهما تبدأ؟

– أصب الخمر في كأس الرجل الذي من بلدتي أولًا.

فقال منغ جيتسي: «ها أنت تبجل أخاك الأكبر في البدء، لكنك عند صب الخمر أوليت احترامك لشخص آخر، مما يدل على أنَّ «الاستقامة» عرَض ظاهري، وليست خصلة أصيلة في الطبع.» فبُهِت كونتوس، ولم يجب بشيء، ثم قصد إلى منشيوس وأخبره بما دار بينهما، فقال له: «كان أحرى بك أن تسأله قائلًا: «أتحترم عمَّك أكثر أم أخاك الأصغر؟» ولا بد أنَّه كان سيرد عليك بقوله: «أحترم عمِّي الأكبر بالطبع»، فتقول له: «فماذا لو أقام أخوك الأصغر في طقوس القرابين محل آبائك وأجدادك واكتسب صفة التقديس لهم، فمَن تحترم أكثر؟» ولا بد أنَّه كان سيجيب بقوله: «أحترم أخي الأصغر»، فتقول له: «فلماذا اخترت عمَّك أول الأمر؟» وعندئذٍ كان سيرد قائلًا: «إنَّ ما يمثلانه من مكانة قد تغيَّر كثيرًا (بسبب قيام الأخ باكتساب صفة الأجداد في طقوس القرابين»)، وهنالك كنتَ ستقول له على الفور: «لو كان الأمر متعلقًا بما يمثله المرء من مكانة لكان أخوك الأكبر أولى بالاحترام، لكنك في ظروفٍ طارئةٍ أوليت احترامك للرجل الآخر!»»

فلما بلغ هذا القول مسامع «منغ جيتسي»، قال: «سواء أكان الاحترام للعمِّ أم للأخ الأصغر فالأمر سيانِ، لأنَّ الاحترام يتحدد وفق أسبابٍ ظاهريةٍ وليس لموجباتٍ باطنيةٍ.» ... فأجابه كونتوس قائلًا: «في الشتاء نشرب الماء الساخن، وفي الصيف نشربه باردًا، فهل في رأيك يتحدد الأكل والشرب حسب عوارض خارجية، «إذ لو كان الأمر كذلك لرغبنا في شرب الماء الساخن صيفًا والبارد شتاءً!».»

(١١–٦) قال كونتوس: «يُؤْثر عن كاوتزي قوله: «ليس في طبيعة الإنسان — أصلًا — ما هو طيب أو خبيث» ... ويقول بعض الناس: «من الممكن أن تتسم طبيعة الإنسان بالخير أو بالشر، على السواء، ومن الممكن توجيهها في هذا الاتجاه أو ذاك، «ومثلًا» فعندما اعتلى العرش «ملوكٌ قدماء، مثل:» الملك «أون»، والإمبراطور «أو»، كانت طبائع الناس تميل إلى الجانب الطيب، أمَّا في عهد الملك «يو» والحاكم «لي» فقد غلب على الناس المرارة والكراهية»، وهناك مَن يقولون: «من الناس مَن يتسمون بالخير عمومًا، ومنهم مَن يوصمون بالخبث والسوء»، وهكذا نجد في عهد حاكم طيب، مثل الملك الحكيم «ياو»، أُناسًا موصوفين بالشر، منهم «مثلًا» شيانغ (أخو الملك)، وعندما كان هناك خبثاء فاسدو الطوية مثل كوصاو (ذلك الأب اللئيم) ظهر رجل فاضل طيب هو الملك شون (الابن الذكي الطيب)، ولمَّا كان هناك حكَّام فاسدون، مثل ولد الطاغية الشهير تشو، الذي تولى العرش «في وقت من الأوقات»، ظهر رجال صالحون طيبون، مثل «وي تزي شي» و«بيكان» (الأعمام الطيبين)، فما بال هؤلاء الذين ذكرتُ لك؟» فأجاب منشيوس بقوله: «يمكن تطويع الطبع الإنساني لكي يصير خيِّرًا، ذلك هو ما قصدته من أنَّ الإنسان مجبول على الخير، فإذا كان هناك البعض ممن يحيدون عن النهج الطيب، «فيمكنك أن ترد ذلك إلى أيَّة أسباب»، لكن ليس من بينها ما يمكن أن يُلقى بالتبِعة فيه على الطبع الأصيل؛ فالتراحم «إحساس» مشترك بين الجميع، وكذلك الحياء، والتبجيل، والتمييز بين الخطأ والصواب.

فالتراحم من الإنسانية، والحياء من الاستقامة، والتبجيل من التأدب، والتمييز بين الخطأ والصواب من الحكمة. ثم إنَّ الإنسانية والاستقامة والتأدب والحكمة جميعًا، ليست عوامل خارجية مضافةً للمرء، وإنَّما هي صفات باطنية قائمة في طبيعته، كل ما في الأمر أنَّ المرء لم يسعَ إلى طلبها بالتأمل الذهني؛ لذلك يُقال بأنَّ: «المرء إذا سعى في طلب «تلك الصفات الجوهرية» فسوف يجدها، أمَّا إذا أهملها فستتنأى عنه أبد الآبدين.» ولئن كان حظ الناس منها يتفاوت؛ إذ ينقص ما لدى البعض عمَّا يملكه البعض الآخر والسبب في ذلك يرجع إلى عجزهم عن استنهاض كوامن الطبع في أعماق نفوسهم.

وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم «ما نصه»:

«خلقت السماء بني البشر،
ووضعت كل شيء بمعيار،
وقدَّرت القدر،

فمَن عرف معايير الأشياء ونظامها
أدرك الجمال والروعة
في المسلك الطيب والخُلق القويم.»

وقال كونفوشيوس: «لقد فهم صاحب تلك الأبيات الواردة في كتاب الشِّعر جوهر الطبيعة الإنسانية؛ إذ أدرك أنَّ لكل شيء نظامًا وقانونًا محددًا، وهو ما يشرح صدور الناس، إذا ما فقهوا تلك النُّظم والقواعد الراسخة، للتأدُّب بالخُلق الجميل».»

(١١–٧) قال منشيوس: «في مواسم الحصاد الوافر يجد الناس ما يقيم أَودهم «فيعم الخير»؛ أمَّا في أيام القحط فتغلظ القلوب وتسوء الطباع «فيسود الشر»، فلا تقولن إنَّ الطبائع قد تبدلت، «بل قلْ» إنَّ الظروف المحيطة «بالناس» قد أفسدت باطنهم.

ولننظر — مثلًا — إلى «ما يحدث عند زراعة» الشعير؛ إذ تُبذر البذور، وتفلح الأرض. ولما كانت الحقول كلها تُربةً واحدةً «خصبة» ألقيت فيها الحبوب في موسم زراعة واحد، فقد حقَّ أن يكون النماء وفيرًا، فإذا حلَّ الصيف، وأزف تمام النضج، ظهرت فوارق في ناتج الإنبات «ولم يكن الثمر كله تام الخصوبة»، وذلك للفارق في باطن التربة «بين خصوبة كاملة وجدب مهلك»، ومطر وافر «هنا» وندى شحيح «هناك»، أو يكون الفارق راجعًا لمقدار الجهد المتفاوت، وقت الزرع، فمن ثم كانت الأشياء ذات الطبيعة الواحدة تتماثل أحوالها؛ «غير أنَّ المرء يتساءل، برغم ذلك:» لماذا، حينما يتعلق الأمر بالإنسان، تثور الشكوك «حول تماثُل أحوال الطبيعة الواحدة تلك؟ ... مع أنَّ الواقع يؤكد بأنَّ» القديسين الحكماء هم أيضًا بشر مثلنا؟

وقد قال «الحكيم» لونزي: «حتى لو لم ينتبه صانع الأحذية إلى مقاس القدم بدقةٍ كافيةٍ، فهو سيُنتج «في كل الأحوال» حذاءً للقدم، وليس سلة للفاكهة»، فكل الأحذية تتشابه على نمط واحد؛ لأنَّ أقدام البشر على شاكلةٍ واحدة. وكذلك حاسة التذوق متماثلة «بين البشر جميعًا»، وقد سبق للوزير «إيَّا» (تنطق كما في «إيَّاك»)، الوزير المقرَّب من الملك هوانكون، حاكم تشي) أن تأمَّل بعمق، في مسألة حاسة التذوق عند البشر.» «ولا بد أنَّ عنصرًا مشتركًا قد لوحظ في هذا الشأن»؛ ذلك أنَّ اشتراك البشر في تلك الحاسة (على النحو الذي يمكن تأكيده) إذا ما تأمَّلنا الفارق بين التذوق عند الكلاب والحمير، وبين بني الإنسان، يدعونا للتساؤل عن العنصر المشترك في التذوق البشري الذي أتاح لـ «إيَّا» ضمَّ الصفات الإنسانية المتجانسة لهذه الحاسة في بند واحد. ففيما يتعلق بالتذوق، فإنَّ كل

البشر يطمحون — لا بد — إلى أن تتحد حاستهم مع التعريف البشري لها عند إيَّا، وهو ما يؤكد وجود السمات المشتركة لحاسة التذوق البشري.

وكذلك يصح الموقف بالنسبة لحاسة السمع، التي لن يتوانى إنسان عن أن يطلب لأذنه رهافة السمع التي استطاع «شيكون» (أحد خبراء الأصوات في العصر القديم) قياسها بدقة، وهو ما يثبت الصفات الإنسانية المتماثلة لتلك الحاسة بين الناس جميعًا.

والأمر نفسه يسري على حاسة النظر؛ ذلك أنَّنا إذا تطرقنا إلى الحديث عن «زيدو» (رجل اشتهر بالجمال البارع في الزمن القديم) فلن نجد أحدًا من الناس يجهل ما اشتهر به ذلك الرجل من جمال ووسامة وملاحة قَسَمات، ليس سوى العميان فقط هم الذين احتجب دونهم ذلك الحسن الفتَّان.

فلذلك أقول: إنَّ هناك وجهًا مشتركًا في التذوق بين الفم والمذاق؛ «وكذلك ...» بين الأذن والصوت طبيعة واحدة في الأسماع، وبين العين والألوان عنصر مشترك في إدراك الجمال «بالنظر»، فماذا عن العقول والقلوب؟ أيمكن ألَّا تشهد، هي أيضًا، عناصر مشتركة «بين البشر»؟ وإذا وجدت تلك العناصر المشتركة، فأين؟ وما هي؟ «وبالتأكيد فتلك العناصر توجد في» الطبيعة «الإنسانية» وفي الاستقامة «الحق والعدل؛ فذلك هو ما اهتدى إليه القديسون من مشترك جامع بين الناس كلهم، فبهاتين الصفتين تعرف القلوب البُشرى، وتنتشي «بالحياة» تمامًا، مثلما تجد الأفواه المذاق (مذاق لحوم الماشية!)، فتتجدد به شهية كل ذي فمٍ يطعم الطعام.»

(١١–٨) قال منشيوس: «قد مضى على أشجار جبل «نيوشان» زمانٌ كانت تزهو فيه بالنضرة والنماء؛ إذ كان موقعها عند حافة ضواحي المدينة الكبرى، فلمَّا نكبت بالفئوس القاطعة «التي انهالت على جذوعها ضربًا وتكسيرًا» عجزت عن أن تحتفظ بنضارة نمائها ووفرة الأغصان والأوراق، كم مضى عليها دهر، كانت تتفتح فيه البراعم كل صباح ورواح، وكم هطلت فوق روابيها الأمطار وتعلَّق بأهدابها الندى. ثم ها هي ذي ما عادت تُنبت برعمًا أخضر، ولا فروعًا ولا أوراقًا، بعد إذ صارت مرعًى للماعز والأبقار، فيبست غياضها وذبلت أوراقها وأقحلت ساحتها، وبدت لعين الرائي كأنَّها لم تعمر أبدًا بوافر الخضرة والشجر، حتى تساءل المتسائل: أيمكن أن تكون تلك هي طبيعة الجبل في البدء والمنتهى؟

«ونتساءل نحن»: أيمكن أن تخلو طبيعة الإنسان من الرحمة والاستقامة؟ أتكون الرحمة والاستقامة قد استُؤصِلَتا من جوفه مثلما استُؤصِلَت أشجار الغاب؟ ولَعَمري، كيف يُثمر غاب تسلطت على شجره شفرات المعاول؟ إنَّ ما يعتمل في نفوس الناس في

كل صباح ومساء من نوايا طيبة تنشط وتستيقظ من غفوة، كيقظة نهار طالع بدأب وحماس، ويصير الحب والكراهية «في النفس العامرة بالخير» مماثلًا لما في كل النفوس من حب وكراهية، ولو بقدر زهيد، ثم يطلع نهار يوم آخر، تتبدد فيه كل الأعمال الطيبة (حرفيًّا: تتقيد بأغلالٍ ثقيلةٍ)، ثم ترزح كل النسمات الطيبة تحت جنح ليلٍ وأغلال مصفدة، وتصير إلى الفناء، تحتبس نسمات الخير تحت إسار الليل فتصير إلى العدم، وتمسي «نفوس البشر» أقرب ما تكون إلى «نزعات» الطير والوحش، فيبدو للناس كأنَّها لم تَتَحَلَّ، يومًا، بالفضيلة. أفتكون تلك، يومئذٍ، هي طبيعة تلك النفوس وأولئك البشر؟

لذلك «أقول»: إنَّه لا ضياع لما أوجدت، ولا هلاك لما أرشدت، ولا بقاء لما لم تتوسل إليه بالهداية والإرشاد. وقد قال كونفوشيوس: «لا خسارة مع الحرص، ولا بقاء مع التهاون، وإنَّ ما لا ينضبط أداؤه بميقات «معلوم»، لا تعرف لاتجاهه غايات «مفهومة».» ... فأظن أنَّ هذا القول كان بصدد التعليق على «مسائل تتعلق ب» النفس الإنسانية.»

(١١–٩) قال منشيوس: «لا ينبغي أن نندهش إذا عرفنا أنَّ جلالة الملك يفتقد أدنى قدر من الحكمة، فحتى أكثر النباتات نضارةً وأشدها نموًّا وأصلبها عودًا لن تحتمل حرارة القيظ يومًا واحدًا، ولا زمهرير الشتاء عشرة أيام؛ «إذ سرعان ما تجف، أو تذوي تلك الظروف بالغة القسوة»، ولطالما كنتُ مقتصدًا في زيارتي لجلالته؛ فلم أزُره سوى عدة مرات، فلمَّا اعتكفتُ في داري قام بيننا جدار من جليد. ولست أجد أي نفع في براعم الخير التي تنبت في قلبه «والأمر يبدو لي أشبه ما يكون بقول القائل: «إنَّها لعبة شطرنج» — أو قلْ — إنَّها مجرد حيلة بسيطة من مئات الحيل في تلك اللعبة، التي إن لم تصرف انتباهك بالكامل في تعلُّمها، فلن تجيد منها قيد أنملةٍ.

إنَّنا لو طلبنا إلى «إيتشيو» (أبرع لاعب شطرنج في الممالك كلها) تعليم اثنين من الدارسين لمهارات اللعبة، وكان أحدهما مكبًّا على العلم بشغفٍ، صارفًا كل انتباهه لما يتلقاه عن أستاذه «إيتشيو» من علم ومعرفة؛ بينما راح الآخر — وهو ينصت بانتباه إلى شرح الأستاذ — يتخيل في رؤى خياله الواسع منظر طيور سابحات في أجواز الفضاء وهو يصوِّب إليها السهام المشرعة ويسدد إليها الضربات القاتلة، فستجد أن مستوى هذا الدارس الأخير يكاد لا يلحق بصاحبه. فالسؤال إذن، هل يعود هذا الفارق في المستوى بين الدارسين إلى تدني مستوى ثانيهما في الذكاء؟ والإجابة الواضحة هي: كلا، ليس ذلك هو السبب بالقطع!»»

(١١–١٠) قال منشيوس: «أحب الأسماك، وأحب أيضًا مخالب الدِّبَبة، فإذا تعذر الحصول عليهما معًا، فيمكنني التنازل بسهولة عن طلب الأسماك تفضيلًا لمخالب الدب.

والحياة، كذلك، جميلة في عيني، وأحبها مثلما أحب الاستقامة، ولو ضحيت بحياتي، وبرغم ذلك فهناك ما هو أحبُّ إليَّ من الحياة؛ لهذا فلستُ أرضى لنفسي القبول بحياة زرية بائسة.

وبرغم أنَّ الموت بغيض إلى نفسي، إلا أنَّ هناك ما هو أبغض من الموت؛ ولهذا لا أجتهد كثيرًا في تجنب بعض ما قد يودي بي إلى التهلكة.

فإذا كانت الحياة هي أبقى ما يحرص عليه الناس، فلماذا يقعدون عن تلمس كل الوسائل التي تحقق لهم تلك الغاية؟

وإذا كان الموت هو أكثر ما تبغضه نفوسهم، فلماذا لا ينتهجون كل السُّبل التي تجنبهم مخاطر الهلاك؛ فمن شأن هذا السلوك أن يُبقي على الناس حياتَهم وهو ما يأنف منه «ذوو الخُلق النبيل».

وقد يكون «فيما أشرتُ إليه آنفًا» ما يضمن تجنب الوقوع في الخطر الوبيل، إلَّا أنَّ الرجل الكريم لن يتخذ هذا المسلك. «فاعلم» أنَّ هناك ما هو أغلى من الحياة، وما هو أبغض من الموت، وهو «القول» الذي لا يقتصر ترديده على الحكماء وحدهم؛ بل إنَّ كل الناس تردد تلك المقولة، غير أنَّ الحكماء فقط هم الذين يحفظونه في طيَّات قلوبهم، ولا يغفلون عنه لحظة واحدة.

«هَبْ» أنَّ هناك طبقًا من الأرز وآخر من الحساء، و«هب» أنَّك إذا تناولتَهما حفِظَت عليك حياتك، وإذا عففتَ النفس عنهما ذُقتَ الموت جوعًا. «أما كنت ترى بأنَّ» الإحسان المقترن بالسب والشتائم والإهانات لن يرضى به إنسان، حتى لو عابر طريق يتضور جوعًا! وأنَّ الصدقة التي تعطيها من تحت قدميك «بعد أن تدوسها بنعليك»، لن يقبلها حتى أكثر الشحاذين إلحاحًا في السؤال، «ومع ذلك ف» هناك مَن يمد يد القبول إلى عشرة آلاف كيلة من الحبوب، يتلقَّفها «بغير تردد» دون أن يتأكد مما إذا كان الحصول عليها موافقًا لآداب الاستقامة وأصول الأخلاق، فما يجديك نفعًا عشرة آلاف وزنة من الحبوب؟

أمن المعقول أن «يقترف المرء ذلك الجُرم» رغبةً في الإقامة بمسكن فاخر، والتمتع بالنساء والمحظيات، واستجداء مشاعر الامتنان من المساكين والفقراء؟ «والغريب» أنَّ مَن كانوا يُفضِّلون الموت على أن يرضوا لأنفسهم «بالوقوف ذلك الموقف»، قد صاروا الآن يقبلون «بما رفضوه آنفًا» سعيًا لسكنى بالقصور، والتمتع بألوان من الرفاهية. «نعم إنَّ أولئك الذين كانوا يقبلون بالموت دون أن يسمحوا لأنفسهم بالانغماس في تلك الأوحال» قد أصبحوا الآن يقبلون «بما كانوا قد ردوا أنفسهم عنه»؛ رغبةً في اللهو في خدور النساء

والمحظيات. أجل، إنَّ الذين كانوا يرضون بالموت دون أن يقبلوا بالانزلاق فيما كانوا يتعففون عنه، صاروا الآن يقبلونه بكل رضا ابتغاء المنِّ على الفقراء بما أوتوا من النعيم؛ رياءً ومباهاةً. أما كان أجدر بهم ألَّا يُلقوا بالًا إلى تلك الأمور؟ قد كان أولى بهم التنائي عما يُقال له خسران المرء لنفسه «لطبيعته».»

(١١–١١) قال منشيوس: «الإنسانية هي روح المرء وعقله؛ والاستقامة هي طريق حياته. فما أتعس أن يحيد المرء عن الدرب، وليس أضل ممن تعامى عن العقل وتقاعس عن الاجتهاد في التماس الطريق إليه!

إنَّ مَن تاهت حيواناته الأليفة وشردت بعيدًا عن مسكنه، سيُبادر إلى البحث عنها بكل جد؛ «أمَّا» مَن ضل عقله وتاهت روحه، فسيقعد عن البحث مكتوف اليدين، فارغ الحيلة.

إنَّ طريق العلم لا يهدف إلَّا إلى غايةٍ واحدةٍ، هي استعادة العقل (الروح الطيب) الشريد.»

(١١–١٢) قال منشيوس: «هناك رجل ذو أصبعٍ ملتوٍ (الإصبع البنصر)، وكلما حاول أن يبسطه مثل باقي أصابع كفِّه امتنع عليه ذلك، «وعلى أيَّة حالٍ» فهذا الأصبع «غير الطبيعي» لا يسبب له أيَّة متاعب ولا يعوقه عن العمل. «لكن الحق يقتضي منَّا أن نقرر بجلاء» أن لو حانت لهذا الرجل فرصة ليبسط أصبعه ولو عن طريق عملية جراحية في بلد بعيد، مثل دولة تشين أو دولة تشو، فلن يتوانى عن الذهاب «حتى آخر الدنيا»؛ أملًا في أن يعود أصبعه البنصر إلى الحالة الطبيعية مثل كل الناس.

«وهكذا نلاحظ» أنَّ أصبعًا ضئيلًا مختلفًا — في هيئته — عن الحالة الطبيعية عند الناس، يثير في نفس صاحبه الشعور بالضيق والأسى، أمَّا من كان قلبه وروحه مختلفَيْن عمَّا خُلق به الناس جميعًا، فلن يُساوره أدنى شعور بالاضطراب؛ فذلك ما يُقال له تقديم الاهتمام بتوافه الأمور، وتجاهل الموضوعات ذات الشأن.»

(١١–١٣) قال منشيوس: «إذا أراد أحدهم زراعة شجرة «تونشو»، أو زيشو (نوعان من الأشجار، يبلغ محيط جذع الشجرة الواحدة ذراعًا أو ذراعين)، فلن يعجز عن أن يجد إلى ذلك وسيلة «مما خبره الناس من معرفة واسعة في هذا المجال»؛ أمَّا مَن أراد تهذيب النفس، «وتنشئة» الذات على أساس من السلوك القويم، فلن يجد كثيرًا من المعرفة. فهل يعني ذلك أنَّ غرس أشجار تونشو وزيشو أهم كثيرًا من اعتناء المرء بغرس الفضائل في نفسه التي بين جنبيه؟ كلَّا؛ بل هو العجز عن تأمُّل الأمور بما تستحق من الجدية!»

(١١–١٤) قال منشيوس: «إنَّ الناس يصرفون جُلَّ انتباههم لأجسادهم؛ بل لكل جزء منها مهما بدا ضئيلًا؛ لهذا يهتم الناس بكل موضع من الجسم بغير استثناء، والوسيلة المعهودة في ملاحظة اهتمام الناس المفرط بأجسادهم لا تتجاوز مجرد الانتباه إلى ما يركزون عليه بشدة، في العناية الزائدة بمواضع محددة.

والجسم الإنساني «ينقسم إلى جزأين»؛ أحدهما ذو مرتبة عُظمى في الأهمية، والآخر ذو أهمية ثانوية، «أي:» إلى ما هو عظيم وما هو ضئيل، فليس ينبغي أن يهتم المرء بالجانب الضئيل على حساب الآخر العظيم، ولا بالجزء ذي الأهمية الفائقة على حساب الآخر الأقل أهمية.

ولا يصرف انتباهه للجانب الضئيل، إلَّا «الشخص» الدنيء، ومَن يكترث للجزء العظيم من جسده، هو «الإنسان» العاقل الحكيم.

لو أنَّ واحدًا من البستانيين تغافل عن «رعاية» أشجار «أوتون» و«جياشو»؛ لانشغاله الزائد بأشجار الشوك والسنط والعناب البري (ذي الثمار مُرة المذاق) لعدَّه الناس واحدًا من أغبى العاملين في حقل البَسْتَنة. إنَّ مَن يتكلف عناء الاهتمام الفائق بأصبع يده «المصاب» دون الالتفات إلى «آلام» الظهر والعمود الفقري، لهو امرؤ جاهلٌ أصابه الخبال في عقله.

إنَّ المنهوم الذي لا يفتأ يملأ بطنه بالطعام والشراب، يصير مرذولًا في عين الناس؛ لأنَّه بذل حرصه لأحقر الأمور متغافلًا عن أعظمها خطرًا، وأشرفها حظًّا من الأهمية.

«هَبْ» أنَّ منهومًا لم يفقد شيئًا ذا شأن، ولم يضيِّع أمرًا ذا بال «من الأشياء والأمور، البسيطة العادية الساذجة»، فهل كان اهتمامه الزائد بالطعام والشراب يهدف، فقط، إلى إشباع ذلك الجزء الضئيل جدًّا من فراغ المعدة؟ «أكان ذلك هو اهتمامه، حين أراد أن يهتم بأمور ذات شأن؟!».»

(١١–١٥) ذهب كونتوس إلى منشيوس وسأله: «لماذا يكون هناك إنسان كريم وآخر لئيم. مع أنَّ الكل أَنَاسِيٌّ، والكل بشر؟» فردَّ قائلًا: «مَن انشغل بتلبية حاجات النفس الكريمة (النبيلة) فهو الكريم؛ أمَّا مَن اهتم بإشباع غرائزه الوضعية فهو الدنيء اللئيم.»

وعاد كونتوس يسأله: «فلماذا أيضًا يكون هناك، من الناس، مَن يسعى إلى إشباع حاجات النفس الكريمة، ومَن يجتهد في تلبية رغباته الدنيئة، مع أنَّ الكل إنسان والكل بشر؟» فأجاب عليه بقوله: «إنَّ أعضاء الجسد الإنساني، مثل: الأذن، والعين لا تقوم بالتفكير؛ ولهذا فهي «كثيرًا» ما تتعرض للتضليل والخداع؛ إذ إنَّها تطالع الموجودات

من حولها فتسقط في حبائل غوايتها. «أمَّا» القلب (العقل)، فهو ذلك «الموضع» المسئول عن التفكير؛ هو الجزء الذي إذا أطلقتَ له العنان، وحركتَ كوامن طاقاته، «عرف كل موضع في الجسد محله فـ...» ارتدعت أعضاء الجسم «المنفعلة» عن أن تكون لها اليد العليا (حرفيًّا: امتنعت أعضاء الجسم الثانوية عن أن تسلك على نحو ما يسود به المضيف الضيف!)؛ فبذلك يصير المرء نبيلًا عاقلًا كريمًا.»

(١١–١٦) قال منشيوس: ««هناك مرتبتان للشرف والمجد:» مرتبة الشرف الطبيعية، ودرجة النبالة الاجتماعية؛ فالإقبال على الإنسانية والاستقامة والإخلاص والأمانة، وغيرها من الفضائل، بروح لا يخامرها اليأس، وإرادة لا يدانيها الملل، هو ما يُشار إليه «بتعبير» مرتبة الشرف الطبيعية؛ أمَّا المكانة الاجتماعية التي تتسم بها وظيفة الوزير الأعظم، «أو» القيمة التي تحوزها وظيفة «كبير رجال القصر»، فتلك كلها مما يُشار إليه بـ «درجة النبالة الاجتماعية»؛ ولقد كان الأقدمون يولون اهتمامًا بالغًا بمراتب الشرف الطبيعي، «وهو الأمر الذي أدى فيما بعدُ إلى أن:» ظهرت درجة النبالة الاجتماعية.

وإذا كان الناس يهتمون، في زماننا الحالي بالتخلق بسلوك «الشرف الطبيعي»، فإنَّهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء الحصول على «درجة النبالة الاجتماعية»، فإذا ما تحقق لهم ذلك انصرفوا عن سلوكهم الأول، وألقوا عن كاهلهم مسئولية الشرف الأولى، وهو مما ينذر، في المحصلة الأخيرة، بانهيار كلتا المنزلتَين في وقتٍ واحدٍ.»

(١١–١٧) قال منشيوس: «إنَّ الرغبة في الصعود إلى مرتبة النبلاء، طموح إنساني يشترك فيه كل الناس، «ومع أنَّ» لكل واحد سماته الجديرة بالتقدير والتي تؤهله لأرقى مراتب الوجاهة والشرف، إلا أنَّ أحدًا لا يجيد الانتباه الكافي إلى ذلك الجانب. إنَّ درجات الشرف والنبالة التي تمنح للناس، لا تحمل مضمونًا حقيقيًّا لأيَّة وجاهة أو أي شرف. إنَّ ما يمنحه «جاومن» بيده اليمنى من درجات النبالة، يستطيع أن يسحبه بيده اليسرى بكل سهولة [جاومن، وزير أعظم بدولة جين تولى قيادة الجيش، ثم خلع الحاكم عن العرش ونصب نفسه حاكمًا بديلًا له].

قد جاء في كتاب الشِّعر القديم:

«قد صُبَّت الأقداح،
وانتشت الرءوس بالخمر،
وكرمت السجايا
فانعقدت لها ناصية الأمر.»

ويريد القائل بهذا المعنى أن يعرب عن استيفاء صفات الأخلاق والسجايا الكريمة لكل حظوظ المرء في حياته، حتى إنَّ الكريم «الذي انعقدت له ناصية الأمر» صار كمَن أسكرته نشوة الأخلاق، فما عاد يطمع فيما يغوي نهمة الأكل من الطعام والشراب، وما عاد يطمح إلى أوسمة أو نياشين الشرف وأردية الجاه المميزة لحاملي مراتب الشرف الاجتماعي؛ إذ قد نال مما تلهج الأفواه بحسن سيرته وذيوع ما طاب به الذكر له بين الناس، ما قد أغناه وأوفى له حقَّه.»

(١١–١٨) قال منشيوس: «إنَّ الرحمة تقهر أضدادها، مثلما يقهر الماء النار، إلا أنَّ أولئك السالكين بمبدأ الرحمة والإنسانية، في أيامنا هذه، يتصرفون على شاكلة مَن يريد إطفاء حقل من البارود بكوب من الماء، فإذا لم تخمد ألسنة اللهب، زعموا بأنَّ الماء أعجز من أن يطفئ جوف النار «غافلين عن أنَّ ...» ذلك هو ما يدفع غائلة التجبر والقسوة إلى أقصى حدود الوحشية؛ مما يودي، في آخر المطاف، بذلك القدْر «الضئيل» من الإنسانية، فيضيع بددًا.»

(١١–١٩) قال منشيوس: «إنَّ الحبوب الخمسة [بذور الكتان، الأرز، القمح، الشعير، اللوبياء] هي أفضل الحبوب جميعًا، فإذا لم يتم لها النضج الكافي صارت أسوأ من الدخن، والـ «باي» (نوع من الأرز يُستخدم علفًا للماشية)، وكذلك الإنسانية (الرحمة) لا بد من أن تستوفي تمام النضج.»

(١١–٢٠) قال منشيوس: «كان «المدعو» «إيًّا» (أمهر الرماة في العصر القديم) وهو يُعلِّم تلاميذه دروس الرماية، يطلب إليهم أن يمدوا القوس عن آخره، فكان على كل راغب في العلم أن يشبع مد القوس كما بيَّن له. «وكذلك فـ ...» النجار البارع يجعل من أدواته [الزاوية والفرجار] الأساس اللازم لتدريس فنونه ومهاراته، فلا غنى لطالب العلم على يديه من اتخاذهما أساسًا ومقياسًا.»

الجزء الثاني

وجملته ستة عشر فصلًا

(١٢–١) ذهب رجل من دولة «رن» إلى أولوتس (تلميذ منشيوس) وسألته، قائلًا: «ما الأهم، في رأيك، الأدب أم الطعام؟» فأجابه: «الأدب هو الأهم»، فسأله الرجل: «ترى الأدب أفضل أم النساء؟» فأجابه: «الأدب أفضل»، فسأله: «فماذا إذا كانت وسيلتي المهذبة

للحصول على الطعام هي السبب في هلاكي جوعًا، بينما كان الطريق غير الأخلاقي هو الذي أعطاني كفايتي مما أطعم وأشرب، أيجب عليَّ، حينئذٍ، الالتزام بأصول الآداب والأخلاق؟ ثم ماذا إذا كان سلوكي الطريق للزواج لم يهدني إلى الزيجة المطلوبة؛ بينما كانت وسيلتي غير المهذبة هي التي جاءت بالنتيجة المرغوبة؛ أينبغي عليَّ بعد ذلك أن ألتزم بتقاليد الأخلاق «فيما يتصل بمراسم وتقاليد التعرف إلى الزوجة المناسبة»؟»

فلما لم يحر أولوتس جوابًا، قصد في اليوم التالي إلى دولة «تسو» وأبلغ منشيوس بكل ما دار بينه وبين السائل، فقال له الشيخ الحكيم: «ما أيسر الإجابة على السؤال، «تأمَّل معي فن المعمار وانظر ...» إذا لم يستطع المرء تقدير ارتفاع الأرضية، وانصرف إلى قياس ارتفاع قمة الأسطح، فلا بد أن خشبة لا يتجاوز محيطها شبرًا واحدًا (توضع في قمة البناء) يمكن أن تفوق في الارتفاع أعلى النباتات «بطريقة تنافي الذوق السليم».

«ومن المعلوم» أنَّ الذهب أثقل من ريشة الطائر، لكن أيمكن القول بأن دبوسًا صغيرًا من الذهب أثقل من حمولة عربة بريش الطيور؟ ثم إذا عقدنا مقارنة بين أهمية «تناول الإنسان» للطعام، والمقدار الأدنى من الاهتمام الذي نُولِيه للمراسم الأخلاقية وأصول المعاملات، فهل يمكننا القول بأنَّ الطعام أكثر أهميةً؟ ولنأخذ موضوع العلاقة الجنسية، ولنقل — مثلًا — إنَّ الجنس مهمٌّ جدًّا للإنسان، بالمقارنة مع أصول المعاملات وقواعد الأخلاق، لكن هل يعني ذلك القول بأنَّ «إقامة» العلاقات الجنسية أكثر أهميةً من «الالتزام» بقواعد الآداب والأخلاق؟ اذهب «إلى صاحبك»، وقل له: «يمكنك يا سيدي أن تقصد إلى بيت أخيك الأكبر، وتقبض على ذراعه، فتشل حركته ثم تستولي على طعامه «قهرًا» فيصير لك أن تأكل مريئًا، فإن لم تفعل، تعذر عليك أن تأكل شيئًا. فهلَّا أخذت أهبة الهجوم على أخيك؟ ولك أن تتسوَّر حائط جارك؛ فتهبط في بيته، وتعانق امرأته وتدلف إلى خدرها، فتصير لك امرأة تقضي منها وطرك، وإلَّا بقيت في فراشك بغير امرأة، فهلَّا أعددت العدة لتسلق الجدران ومغافلة الجيران؟»»

(١٢–٢) ذهب «تساوجياو» إلى منشيوس، وسأله: «أصحيح ما قيل من أنَّه يمكن لأي فرد من الناس أن يصبح مثل الإمبراطورين الحكيمين «ياو» و«شون»؟» فأجابه الشيخ: «نعم، قد قيل ذلك»، فسأله السائل: «قد بلغني أنَّ الملك أون كان طوله يصل إلى عشرة «تشي» [أذرع، تقريبًا]، وأنَّ طول الملك طانغ كان يبلغ تسعة «تشي»، أما أنا فأبلغ من الطول أكثر من تسعة أذرع وأربعين تسون [بوصةً تقريبًا]، وها أنا ذا أقبع مكاني لا أفعل شيئًا «ذا قيمة» سوى تناول الطعام، فكيف لي أن أبلغ مثل ذلك (مثل مكانة الأباطرة الحكماء)؟ فأجابه منشيوس قائلًا: «فما علاقة هذا بذلك «ما علاقة طول الجسم

بما ذكرت من طموحك المذكور؟» فالمهم هو الكيفية التي تسلك بها؛ فإذا افترضنا أن بيننا الآن رجلًا لا يقدر على رفع دجاجة بكلتا يديه، فسنعده خائر القوى؛ أما إذا استطاع رفع ما مثقاله ثلاثة آلاف جين [ألفي كيلوجرام، تقريبًا] فهو القوي الشديد، «وبالمثل» فإنَّ مَن يقدر على أن يرفع أثقالًا في وزن وحجم ما كان يرفعه البطل «أوهو» (رافع أثقال مشهور، في العصر القديم) فهو إذن نسخة مكررة من أوهو (نموذج متكرر للبطل نفسه)، فما الذي يجعل المرء حزينًا كاسفًا لمجرد أنَّه يعجز عن مجاراة الآخرين فيما يستطيعونه؟ ليس للإنسان أن يحفل بشيء من ذلك.

إنَّ إبطاء الخطو خلف مسيرة الإخوة الكبار من حُسن الخُلق، أما التكالب على مزاحمتهم وتخطيهم فليس من الحكمة في شيء.

فلتسلك على مهل، ولا أظن أنَّ ذلك بالشيء الصعب، «في الحق، لم يكن ذلك صعبًا أبدًا»؛ فالمشكلة أن أحدًا لم يحاول قط أن يتمهل.

ليس في دعوة القديسين الحكيمين «ياو» و«شون» شيء أكثر من مجرد الدعوة إلى البر بالوالدين وتبجيل الإخوة الأكبر سنًّا؛ فإذا ارتديت قميص ياو وتحدثت بكلامه، وتأسَّيت بسيرته فسوف تصبح أنت القديس الحكيم «ياو»، أما إذا ارتديت ملابس «جيه» (الطاغية) وتكلَّمت بلسانه، وانتهجت منهاجه، فسوف تصير «جيه»، بلحمه ودمه»، وهنالك قال له «تساوجياو»: «أود أن أَشْرُف بمقابلة حاكم دولة «تشو»، وأن يتكرم عليَّ بأن ينزلني منزلًا كريمًا في بلده؛ كي أبقى عندك تلميذًا وتابعًا، أتلقى العلم على يديك»، فقال منشيوس: «إنَّ الحكمة كالطريق، فهل يصعب عليك المسير؟ ليس لطالب «العلم» إلَّا أن يواصل السعي والدأب، فعُد إلى بلدك وابحث وتأمل، ففي كل مكان قاعة درس ومعلم.»

(١٢–٣) ذهب كونسون شو إلى منشيوس، وقال له: «بلغَني ما قاله كاوتسي من أنَّ قصيدة «شياوبيان» (إحدى القصائد المشهورة بكتاب الشِّعر القديم) لم ينظمها إلَّا شاعر متحذلق، ليس على شيء من سجايا الحكماء [حرفيًّا: شاعر دنيء النفس مرذول العبارة]»، فسأله منشيوس: «فما علة قوله هذا؟» فأجابه: «لأنَّ القصيدة (حسب زعمه) لا تحمل إلا لواعج الأنين والشكوى.»

فأجابه منشيوس: «يا له من مكابر عنيد، كيف يزعم مثل هذا، وكيف يُفسِّر الشِّعر على هذا النحو؟ «إنَّ المعنى الذي تشتمل عليه الأبيات يحتمل تأويلات عديدة، فمثلًا ...» لو كان معنا الآن أحد الرجال ممن تترصدهم دولة يوي، ثم إذا هو وجهًا لوجه مع أحد الرماة، وقد جذب سيَّة قوسه يريد أن يسدد السهم إلى قلبه، فسوف يسارع

«صاحبنا المطلوب حيًّا أو ميتًا» إلى إنشاد تلك الأبيات الواردة في قصيدة «شياوبيان»، مستشهدًا بمعانيها على الجفاء والكراهية والغلظة التي يلقاها على يد أهل دولة «يوي»، فإذا كان الرجل المصوِّب بالسهم إلى قلبه هو أخاه الأكبر، فسوف ينطلق «المطلوب القبض عليه» في إلقاء كلمات القصيدة نفسها، باكيًا منتحبًا، لا لشيء إلَّا لأنَّ قاتله هو أخوه ابن أمه وأبيه.

إنَّ الشكوى التي يبثها الشاعر من خلال أبيات «شياوبيان» تنطق بشجونه وتعبر عن رغبته الدفينة في التودد إلى أهله، والتودد إلى الأهل فرع من الأخلاق الكريمة، وأحد مظاهر الرحمة والإنسانية. يا له من أحمق ذلك المدعو كاوتسي ... يا له من ظالم عنيد؛ «إذ يُقحم تلك المعاني الغريبة على القصيدة وهي أبعد ما تكون عن مراميها».

ثم قال كونسون شو: «فلماذا خلت قصيدة «كاي فنغ» (إحدى قصائد كتاب الشِّعر القديم) من مشاعر الألم والشكوى إذن؟» فأجابه: «كانت الهفوات التي وقعت فيها الأم، في تلك القصيدة، قليلة وبسيطة؛ «لذلك لم يتألم الشاعر على نحو ما نجد في القصيدة الأخرى»؛ أمَّا في قصيدة «شياوبيان»، فقد كانت أخطاء الأب شنيعةً؛ «فلذلك لمسنا دلالات الشكوى».

«ولنعلم جميعًا» أنَّ عدم الشكوى مما يجده المرء من هفوات كبيرة من والديه «ليس من المرغوب فيه»؛ فذلك دليل على «النية المبيتة» للشروع في المجافاة والابتعاد عن الأهل «وكذلك»، فإنَّ الشكوى المريرة مما يُعانيه أحدهم بسبب أخطاء بسيطة يقع فيها آباؤه دليل على السخط والتأثر السريع بشحنات الغضب ودواعي الانفعال. «والحق: إنَّ ...» الجفاء من العقوق، والغضب أيضًا من أبغض ما يعقُّ به الولد أبويه، «ولذلك» فقد قال كونفوشيوس: «كان «القديس الحكيم» ياو من أكثر الأبناء برًّا بوالديه؛ إذ بقي محافظًا على مودتهما حتى بعد أن تجاوز الخمسين من عمره».»

(١٢–٤) كان سونكين (أحد دعاة نبذ الحرب لإقامة السلام العادل بين الممالك) قاصدًا دولة تشو، فالتقى في طريقه، بالحكيم منشيوس، وذلك عند منطقة «شي تشيو»، فابتدره الشيخ بسؤاله عن الجهة التي يتوجَّه إليها في سفره، فأجابه: «قد بلغني أنَّ القتال قد نشب بين دولتَي تشين وتشو، فأردت الذهاب لمقابلة ملك تشو؛ لحثه على إيقاف القتال، فإذا لم أجد لديه آذانًا صاغيةً، فسأسرع للقاء ملك تشين؛ كي أستحثه على الغرض نفسه، عسى أن أجد في أحدهما أو كليهما مَن يتفق معي في الرأي!»

فقال منشيوس: «لا أريد أن تقص عليَّ تفاصيل خطتك؛ بل اشرح لي المبادئ العامة؛ فحدثني عن الفكرة الرئيسية التي تحاول أن تقنعهما بها.»

فأوضح له قائلًا: «أفكر في أن أبيِّن لهما الأضرار الفادحة التي ستعود عليهما من جرَّاء القتال»، فقال منشيوس: «الهدف سامٍ وعظيم، لكن الفكرة «العامة» سقيمة جدًّا؛ ذلك أنَّ سيادتكم ما دمتم تهدفون إلى حث حاكمي البلدين تشين وتشو «باتخاذ ذلك المنهج لإيقاف القتال» فقد تروق لهما الفكرة وينظران إلى فض الاشتباك من باب النفع وتحقيق المصالح، وهو ما يعني أنَّ قادة وجنود الجيوش المتحاربة سيجدون في إيقاف العمليات ما يعود عليهم بالنفع والفائدة، فإذا «صارت تلك الفكرة هي المحرك الرئيسي للحياة، فإنَّ ...» الوزراء وكبار رجال الدولة «أيضًا» لن يتعاونوا في خدمة جلالته إلَّا بمعيار ما يُحقق لهم النفع؛ بل إنَّ الأبناء سينظرون إلى حق رعاية الأبوين من زاوية الفكرة القائلة بالبحث عن النفع وما تتحقق به المصالح، وعندما يتعامل الإخوة الصغار مع الأكبر سنًّا على أساس مراعاة النفع والمصلحة، فسوف يتَّجه الجميع: الملك ووزراؤه، الآباء والأبناء، الإخوة الكبار والصغار؛ وجهةً يدوسون فيها بأقدامهم على مبادئ الإنسانية والاستقامة؛ حيث يتخذون من فكرة «ما يُحقق المنفعة» أساسًا لعلاقتهم المتبادلة بينهم، وهو ما يجعل من ضياع وتفكك الوطن أمرًا واردَ الاحتمال.

«أمَّا إذا» حاولت الدعاية لأفكارك على أساس مبادئ الإنسانية والاستقامة، فإنَّ استجابة حاكمَي الدولتين المذكورتين لنداء إيقاف القتال بين القوات المتحاربة سيكون قائمًا على اقتناعها بتحقيق المبدأ الأخلاقي، وهو ما يعني أنَّ قادة وجنود الجيوش سيتوقفون عن القتال استجابةً لمبادئ الإنسانية والاستقامة، وعندما يخدم الوزراء في دولة جلالته على أساس من تلك المبادئ، «وكذلك» يبرُّ الأبناء آبائهم وَفق متطلبات إنسانية وأخلاقية، وتقوم العلاقة بين الإخوة على هدى المبادئ الإنسانية، تسود العلاقات بين الكافة: الملك ووزرائه، والآباء وأبنائهم، الإخوة بعضهم وبعض، في ظل المبدأ الإنساني والاستقامة؛ وهو ما يعني أنَّ نهضة البلاد حدث تؤكده أقوى الاحتمالات، فما الذي يغريك بالاستناد إلى فكرة «تحقيق المنافع»؟»

(١٢–٥) عندما كان منشيوس مقيمًا بدولة «تسو»، كان «جي رن» قد قرَّر أن يبقى بدولة «رن»؛ ليتولى شئون الحكم هناك (نائبًا عن الحاكم الأصلي)، وحدث أنَّه أرسل هديةً قيِّمةً إلى منشيوس، على سبيل المجاملة لتقوية أواصر الصداقة معه، وقبِل الشيخ هديته دون أن يرد عليها بالمقابل.

«وفي مناسبة أخرى، عندما» كان منشيوس مقيمًا بمنطقة «بينلو»، أرسل إليه «تشوزي» — الوزير الأعظم بدولة تشي — بهدية ثمينة؛ استجلابًا للود والصداقة معه، وقبلها منشيوس دون أن يبادل الرجل التحية المناسبة.

وتصادف، فيما بعد، أن كان منشيوس في طريقه إلى دولة رن، فذهب لزيارة «جي رن»، ثم لما خرج من منطقة «بينلو» قاصدًا التوجه إلى دولة تشي، لم يقم بزيارة الوزير الأعظم «تشوزي»، وتهلَّل أولوتسي (تلميذه النجيب) فرحًا وهو يقول: «ها قد وقع أستاذنا في ثغرة (خطأ) فاحشة» ... ثم ذهب إليه وسأله، قائلًا: «كنت لما ذهبت، يا سيدي، إلى دولة رن قصدت إلى «جي رن» لزيارته، لكنك عندما زرت دولة تشي لم تكترث لمقابلة تشوزي، فهل كان ذلك التصرف منك بسبب أن هذا الأخير مجرد وزير؟» فأجابه الشيخ: «كلَّا، وإنَّما قد جاء في كتاب «شان شو» (التاريخ) ما نصه:

> «إنَّ تقديم الهدايا يتطلب العديد من المراسم «المعقدة»، فإذا لم تتم هذه المراسم على النحو الكافي بطلت قيمة الهدية، مهما تضاعفت»، «وردًّا على سؤالك ... أقول: إنَّ السبب فيما بدر عنِّي هو أنَّه ...» لم يستكمل مراسم تقديم الهدية بالطريقة التي تقتضيها الأصول.»

وقد سعد أولوتسي بهذا الرد كثيرًا، فلما سأله أحدهم «عن حقيقة ما حدث» أجابه قائلًا: «لما كان جي رن متوليًا مسئولية الإشراف على الشئون السياسية لم يستطع مغادرة البلاد «من تلقاء نفسه» للحضور إلى دولة تسو، أما تشوزي فقد كان يملك حرية التنقل والحضور شخصيًّا إلى منطقة بينلو «إلا أنَّه لم يفعل»؟»

(١٢–٦) ذهب «تشون يوكون» إلى منشيوس، وقال له: «إنَّ مَن يضعون أهمية كبرى على السمعة الطيبة والإنجازات الهائلة، هم وحدهم الذين يستطيعون تقديم المساعدات والخدمات للناس من حولهم؛ أمَّا أولئك الذين ينظرون بعين الازدراء إلى تحقيق الإنجازات والطموح إلى السمعة والشهرة، فهم الذين ينحصر تفكيرهم في ذواتهم، ولا يقصدون بالخير إلَّا وجه مصالحهم الذاتية، وأنت يا سيدي واحد من أعظم ثلاثة رجال في الدولة، ثم ها أنت تغادر منصبك دون أن تقوم بما ينبغي عليك من التعاون مع جلالة الملك، ولا المساندة لبني وطنك؛ «لا مَلِكًا ساندت، ولا رعيةً آويت» أهذا هو سلوك الحكماء؟»

فأجابه منشيوس: «لا يُمكن لَمن كان يشغل منصبًا وضيعًا أن يسلك بالحكمة الواجبة والخُلق الحسن لخدمة رجال لا طائل من نصحهم، ولا يُرجى لهم صلاح، فهذا هو «بويي» «خير مثال على ذلك ... ولنأخذ مثالًا لرجل آخر حاول بكل جهده أن يساند رؤساءه؛ إذ ...» راح يلهث في خدمة الملك طانغ خمس مرات متوالية، «وفي مناسبة أخرى» كان يهرع إلى خدمة الحاكم جيه خمس مرات أيضًا، فذلك هو «آيين».

«أمَّا النموذج الثالث فقد كان خير مَن يُمثِّله:» «ليو شيا هوي»، ذلك الذي لم يأنف من خدمة سيده (الملك) الأحمق، ولم يكن «قبل ذلك» قد أبدى أدنى اعتراض على العمل بوظيفة بسيطة (من الدرجة الوضيعة)، فهؤلاء الثلاثة يمثلون أساليب متباينة، وإن كان الهدف واحدًا، فما هو هذا الهدف إذن؟ إنَّه العمل بالمبدأ الإنساني؛ إذ لا يكترث الحكيم الفاضل إلَّا بقواعد الأخلاق لا أكثر من ذلك ولا أقل، «وما دام ذلك هو الهدف» فما الذي يدعوه إلى التقييد بأسلوب واحد»؟»

وهنالك قال له «تشون يوكون»: «عندما كان موكون قائمًا على عرش دولة «لو»، كان «كون إيتس» (كبير العلماء) يتولى إدارة شئون الحكم الرئيسية، أما «شيلو» و«زيس» (أحد تلاميذ كونفوشيوس) فقد كانا وزيرين — وقتئذٍ — في البلاط الحاكم، ومع ذلك «وبرغم وجود هؤلاء العباقرة في مواقع السلطة» فقد سقطت دولة «لو» سقوطًا مروعًا وانهدمت أركانها، ولم ينفعها وجود أولئك الحكماء في شيء؛ إذ لم يحولوا دون بلوغ الأحزان فيها حدًّا لا مثيل له (في بشاعته).»، فقال الشيخ: ««لكن في التاريخ أمثلة أخرى تثبت العكس» فهذا حاكم دولة «يو» يصدر قرارًا بالاستغناء عن خدمات «باي شيلي» (أحد حكماء الزمان)، فيكون ذلك سببًا في سقوط بلاده بين براثن الاحتلال، ويسارع الملك «مو»، حاكم تشين، في تعيينه بالبلاط الحاكم لديه «فترتفع مكانة الملك فوق الجميع ...» وتبسط دولة تشين سيطرتها فوق الممالك.

إنَّ الاستغناء عن الحكماء يودي بالأوطان إلى التهلكة، فلا تقوم لها من بعد ذلك قائمة»، فردَّ عليه تشون يوكون بقوله: «كان في قديم الزمان رجل يدعى «وانباو» (اشتهر بجمال صوته)، وقد اتخذ مسكنه على ضفاف نهر تشي «فما هي إلَّا أيام انقضت بعد إقامته بهذا المكان، حتى ...» كان كل المقيمين على الضفة الأخرى من النهر يرفعون أصواتهم بالغناء. وقيل أيضًا: إنَّ رجلًا يُدعى «ميانجي» (أحد أشهر المغنين في العصر القديم) لَمَّا أقام في بلدة «كاوتان» (فترة من الزمن) صار أهالي المناطق الغربية بدولة تشي يجيدون الغناء. «ومن المرويات الشعبية ما يؤكد ...» أنَّ ما قامت به زوجات كل من السيدَين «هواجو» و«تشينيان» من البكاء عليهما، إثر وفاتهما، ما أذاع شهرتهما بوصفهما أشهر النائحات على طول الزمان؛ حتى لقد أحدثن تأثيرًا بالغًا في العادات والتقاليد الشعبية.

إنَّ عناصر القوة الموجودة على نحو مضمر وعميق لا بد أن تعلن عن وجودها وتفرض أحكامها على ظاهر الأشياء، «كل ما هو موجود بالقوة، لا بد سيظهر بالفعل ...» فلم

أشهد في حياتي قط أحدًا بادر إلى الاجتهاد والدأب دون إحراز النجاح؛ لذلك فربما كان من المعقول الإقرار بأنَّه لم يعد يوجد على الأرض حكماء فضلاء؛ إذ لو كانوا موجودين حقًّا، لكنتُ رأيتهم وتعرفتُ إليهم»، فأسرع منشيوس بالرد عليه، قائلًا: «عندما كان كونفوشيوس يشغل منصب وزير العدل في دولة «لو»، لم يكن محل ثقة وتقدير أحد هناك، فلما كان ذات يوم وقد ذهب لإقامة طقوس القرابين، حدث أنَّ اللحوم المخصصة لإقامة الطقوس لم تُسلَّم إليه «على النحو الصحيح» فقام غاضبًا، وغادر قاعة الطقوس على الفور، دون أن يخلع عن رأسه التاج المخصص للقرابين (وهو تصرف مخل بالقوانين يجعله موضع مساءلة)، وقال الذين يجهلونه إنَّه ما قام غاضبًا إلَّا لأنَّه لم يحصل على حصته من لحوم القرابين؛ أمَّا الذين يعرفونه تمام المعرفة فقالوا: إنَّه ما غادر الحفل المقدس إلا بسبب «أنَّ دولة لو، ومسئوليها قد ارتكبوا ...» الإهمال والخرق المتعمد للقواعد الأخلاقية المعهودة.

أمَّا كونفوشيوس نفسه فقد قرر أن يرحل عن البلاد متحملًا المسئولية «فيما صدر عنه». حتى العقلاء والحكماء، قد تبدر منهم تصرفات يحار الناس كثيرًا في تعليلها وفهْم أسبابها.»

(١٢–٧) قال منشيوس: «كان الأباطرة العظماء الخمسة مُذنبين في حق الملوك الثلاثة (الأباطرة الخمسة، حكموا في فترة الدول المتحاربة، وفي تحديدهم أقوال شتى؛ فمَن قائل بأنَّهم: هوان كون، (حاكم تشي)، أونكون (حاكم جين)، جوان (حاكم تشو)، هيلو (حاكم «أو»)، كوجيان (حاكم يوي). وآخر يقول بأنَّهم: هوان كون (حاكم تشي)، أونكون (حاكم جين)، موكون (حاكم تشين)، جوان (حاكم تشو)، هيلو (حاكم أو). أيًّا ما كانوا، فلا بد أن يكون من بينهم: موكون (حاكم تشين).) (لقب «كون» ... يعني: حاكم، ملك)، هوان كون (حاكم تشي)، «الملوك الثلاثة: يو أسرة شيا، طانغ (أسرة شانغ)، أو «أسرة جو» ...» وبالِمثل أيضًا، فالأمراء في زماننا مذنبون في حق الأباطرة العظماء الخمسة، وكذلك الوزراء العظام القائمون على شئون الحكم هم أيضًا بدورهم مخطئون في حق الأمراء.

كان الإمبراطور الأعظم (ابن السماء) يجوب الأقاليم متفقدًا أحوال الدويلات التابعة له فيما يُسمى بـ «الجولة التفقُّدية»، وكان الأمراء يذهبون إلى القصر الحاكم «في طقس رسمي دائم» بما يطلق عليه «رفع تقارير الإحاطة».

وقد اعتاد الإمبراطور الأعظم أن يذهب في جولة استطلاعية يتفقد فيها أحوال المناطق الزراعية أثناء الربيع؛ حيث يُقدِّم المعونات للمعسرين الفقراء. أمَّا في الخريف، وعندما كان

يخرج لمتابعة أحوال الحصاد، فقد كان يُقدَّم الدعم والمساعدة للمناطق التي نكبت بحصاد ضئيل، ثم كان يسافر إلى المناطق الحدودية النائية، فإذا وجد الأرض ممهدةً والحقول مستصلحةً، والناس (كبار السن بخاصةٍ) في رغد العيش؛ حيث يجد الكبار مَن يعولهم، ويلقى الحكماء كل تبجيل وتقدير، ويذهب النجباء منهم للعمل في الدوائر الرسمية، فقد كان جلالته يمنح «للأمراء» الهبات والإقطاعات والأراضي الزراعية. أمَّا إذا اكتشف، في زياراته إلى المناطق النائية، عكس ذلك؛ من أرض خربة، ومساحات من الخلاء المجدب، وأحوال «اجتماعية وأخلاقية سيئة»؛ يلقى فيها كبار السن الإهمال والمجافاة، ويُقصى الحكماء عن مواقع الاستفادة منهم، وتمتلئ الدوائر الحكومية والرسمية باللصوص والناهبين؛ فقد كان يقرر «على تلك المناطق» العقوبة وينزل بها المخالفات.

«وكان من بين النُّظم المعمول بها آنذاك أنَّ ...» الأمير الذي يتأخر عن الذهاب إلى البلاط الحاكم مرةً واحدةً يُعاقب بتخفيض رتبته الاجتماعية، فإذا بلغ التأخير مرتين يعاقب بتخفيض مقدار الأراضي «التي تحت يده»، فإذا تأخر ثلاث مرات عن الذهاب إلى القصر الحاكم أُرسلت إليه قوات تأديبية خاصة.

ومن ثمَّ، فقد كان من سلطة الإمبراطور استخدام قوات تأديبية «في هذه الحالة» وليس قوات هجومية، أمَّا الأمراء فهم ضمن القوات الهجومية وليسوا من القوات التأديبية.

وكان الأباطرة العظماء الخمسة هم الذين أجبروا فريقًا من الأمراء على مهاجمة فريق آخر منهم، وهو الأمر المشار إليه في التنديد بارتكابهم خطأً فادحًا في حق الملوك «القديسين» الثلاثة.

ومن بين أولئك الأباطرة الخمسة، كان هوانكون (حاكم تشي) الأكثر قوة ونفوذًا، حتى لقد عقد «مع باقي الأباطرة» اجتماعًا للأمراء في بلدة «كويتشيو» (بدولة سونغ)، وذبحوا أضحية وطرحوها ثم كتبوا عهدًا وميثاقًا فيما بينهم ووضعوه فوق الأضحية، دون أن يلطخوا أفواههم بدمها (مثلما جرت العادة، من قديم، في عهد المواثيق بين الأمراء والملوك)، وورد في البند الأول من الميثاق أن يصدر حكم الإعدام ضد عاقٍّ أبويه، وأن تُعد أيَّة محاولة لتغيير الموصَى له بوراثة العرش باطلة بطلانًا تامًّا، وألَّا تعامله المحظية معاملة الزوجة. ونص البند الثاني على ضرورة تبجيل الحكماء، ورعاية النابغين والنجباء، وتشجيع ذوي الخلق الكريم. وفي البند الثالث تم التأكيد على وجوب توقير كبار السن، والرفق بالأطفال، وعدم السخرية من الضيف والمسافر ابن الطريق. واشتمل الميثاق في البند الرابع على «أحكام تقضي بـ ...» ألَّا تكون وظيفة العلماء وراثية، وألَّا يتم الجمع

بين وظيفتين رسميتين (حرفيًّا: لا يجوز التكليف بوظيفتين عموميتين في آنٍ واحد)، وأن يجري ترشيح العلماء بما يتفق مع الشروط، وألَّا يكون من صلاحيات الملك «منفردًا» الحكم بإعدام السادة الوزراء (يصدر الحكم بإجماع الآراء). أمَّا البند الخامس فقد نصَّ على: حظر إقامة السدود على نحو عشوائي، ورفع أي قيد على بيع الحبوب، وضرورة إبلاغ الجهات العليا بما يتم منحه من هدايا ومكافآتٍ ومِنحٍ.

ثم إنَّ الجميع حلفوا اليمين، وهذا نصه: «نقسم نحن المتعاقدين في هذا الحلف على استعادة علاقات الود والاستقرار مع بعضنا البعض حال سريان العمل بنصوص هذا الميثاق.»

إلَّا أنَّ الأمراء، في وقتنا الحالي، يُخالفون نصوص تلك البنود؛ ولذلك نقول: إنَّ أمراءنا الآن مذنبون في حق الأباطرة الخمسة، ومَن يتواطأ منهم مع الملك في تجاوزاته [حرفيًّا: جرائمه] لا يُؤاخذ إلَّا على نحو يسير، ولا يعد مقترفًا إلَّا أحقر الآثام، أمَّا مَن يضارع الملك في مخالفاته الجسيمة للقانون، فذنبه أكبر وجريمته أشنع.

ثم إنَّ كبار المسئولين، في الوقت الحالي، يرتكبون ما يضارع أفدح مخالفات جلالته، فمن ثم يمكن القول بأنَّ كبار المسئولين، الآن، مذنبون في حق الأمراء أنفسهم.»

(١٢–٨) أرادت دولة «لُو» [كما تنطقها في «لوبياء»] تعيين «شن تسي» في منصب القائد العام للجيش، فقال منشيوس: «إنَّ دفع الناس إلى ساحات القتال دون تعليمهم وتوعيتهم يعني توريطهم فيما لا قِبَل لهم به، وهو ما لم يكن يُسمح به أبدًا في زمن الأباطرة ياو، شون. وحتى لو لم تتجاوز العمليات مجرد القيام بضربةٍ واحدة تقضي على دولة تشي، وتستولي على مدينة «نانيانغ» فلا ينبغي أن … «يتم هذا الأمر».»

وهنالك امتقع وجه «شن تسي» من الغضب وقال: «هذا كلام غير مفهوم»، فقال له منشيوس: «إذن، أقول لك الحق على نحو مفهوم: إنَّ الأرض التابعة لجلالة الإمبراطور الأعظم تبلغ ألف «لي» مربع، فإذا نقصت مساحة الأرض عن هذا، عجز جلالته عن أن يُكرم وِفادة الأمراء، ثم إنَّ الأراضي التي تحت يد أمراء الأقاليم تبلغ (فيما يخص كل أمير على حدة) مائة لي مربع، فإذا نقصت عن هذا تعذَّر على الأمير الوفاء بمتطلبات إقامة الطقوس [الكهنوتية] المخصصة للمعابد، وقد أُقطعت للأمير «جوكون» ولاية «لو» التي كان ينبغي ألا تقل أرضها عن مائة لي، إلا أنَّها كانت دون ذلك، ثم مُنح الأمير «تايكون» إقطاعًا بدولة تشي على ألا تقل مساحته عمَّا هو مقرر، لكن الأرض كانت تقل عن مائة لي مربع.

وقد زادت اليوم أراضي «لو» عن مساحتها المقررة خمسة أضعاف، فما ظنك لو وقعت السلطة الآن في يد واحد من الحكماء؟ أيعمل على تقليل المساحة أم زيادتها؟ إنَّ الحكيم العاقل «المتخلق بالمبدأ الإنساني» لن يُقدِم على ضم أراضي الغير إلى بلاده، حتى لو لم يكلفه ذلك الكثير من القوات، فما بالك بمَن يخطط لقتالٍ بهدف النهب والسلب وإراقة الدماء؟ على الرجل الحكيم العاقل الذي يتفانى في خدمة جلالته أن يصحح مساره ويضبط اتجاهه على الطريق القويم، وأن يقيم العزم على العمل بالمبدأ الإنساني.»

(١٢–٩) قال منشيوس: «كثيرًا ما أسمع معاوني الأمير يقولون، هذه الأيام: «بأيدينا أن نوسع للأمير فيما تحت يده من الأراضي، وأن نكثر ودائع مخازنه.»

إنَّ الوزير الكفء، بمعيار زماننا هذا، هو الوزير الذي اشتهر في العصر القديم بأنَّه لص الشعب، «وهو الوزير الذي ...» إذا تنكَّب سيده الأمير عن طريق الخُلق الأقوم، وحاد عن محجة الإنسانية والخير راح يصبُّ له الأموال صبًّا، في خزائنه، حتى صارت كنوزه في مثل ما اكتنز «الملك الطاغية» الملك جيه (سليل آل «شيا»)، ثم إنَّني «كثيرًا ما أسمع عمال الأمير يقولون أيضًا:» «بيدي أن أعقد له الأحلاف، وأوثق له المعاهدات، فلا يدخل حربًا إلا صال فيها صولة المنتصر.»

ألا إنَّ أكفأ الوزراء في هذه الأيام هم أولئك الذين كان يُطلَق عليهم «بمعايير» الزمن القديم سارقو أقوات الناس، «أولئك الذين» إذا حاد الأمير عن جادة الصواب، وانتحى طريق الإنسانية والأخلاق جانبًا «كانوا له خير معين؛ بل ...» أطلقوا له يد الحرب والقتال، وكأنَّهم أنصار «الطاغية القديم» الملك جيه (حفيد آل شيا)؛ فذاك هو الطريق الذي ما مشى فوقه ماشٍ، غافل بوعثاء شروره، متخبط في ميل أهوائه، إلا أوقع بـ «سيده الأمير» في نكبةٍ لا تذهب بمرارتها الأيام، وجزعٍ لا تبدده كلُّ مغانم النصر فوق الممالك.»

(١٢–١٠) قال «باي كوي» لمنشيوس: «أفكر في أن أُحصِّل الضرائب بنسبة عشرين في المائة، فما رأيك يا سيدي؟» فأجابه منشيوس: «هذا أشبه ما يكون بالنظام الضريبي المتبع في قبائل «مو» الشمالية (القبائل البربرية على الحدود الشمالية الغربية)؛ حيث لا يمكنك أن تجد وسط إقليم يسكنه عشرة آلاف نسمة إلَّا صانعَ فخارٍ واحدًا، فهل يناسبك تطبيق نظامك الضريبي «في ظل وضع مماثل»، فردَّ عليه قائلًا: «كلَّا، فصناعة الفخار لا تفي بالمطلوب»، فواصل منشيوس كلامه قائلًا: ««اعلم» أنَّ الأرض في إقليم «مو» الشمالي لا تنتج إلا الذرة؛ أمَّا الحبوب الخمسة فلا تصلح أحوال الأرض لإنتاجها، وليست هناك مدن حصينة ولا مبانٍ سكنية ولا معابد، أو حتى مجرد طقوس عادية

لتقديم القرابين، ولا توجد هناك هدايا أو ولائم متبادلة بين الأمراء ولا علاقات ودٍّ متبادلة بينهم، وليست هناك أيضًا مبانٍ حكومية ولا هيئات رسمية ولا موظفون، مما يجعل نسبة العشرين في المائة كافيةً تمامًا؛ أمَّا بالنسبة لنا، حيث نقيم في المملكة الوسطى، فلا نستطيع إلغاء الأعراف الاجتماعية أو الاستغناء عن الدور الرسمية والمنشآت الحكومية وموظفيها الكثيرين، أوتظن ذلك ممكنًا؟

إنَّ صناع الفخار قليلون جدًّا، وهم، بجانب ذلك، لا يملكون من الدخل ما يمكن أن يعود على بلادك بكثير نفع، فما قولك «إذا واجهتك بالحقيقة الأكثر إيلامًا، وهي:» نقص عدد الحكماء والدارسين الأكفاء؟

فإذا كنت تريد تقليل النسبة الضريبية «عمَّا كانت عليه أيام الملكين القديسين ياو وشون»، فإنك تصنع نموذجًا آخر أكبر من قبائل مو الهمجية «فتصير هناك بَلدانِ: مو الصغرى، ومو الكبرى، على التوالي؛ أمَّا إذا كنت تبغي زيادة الضرائب عمَّا كانت عليه في زمن القديسِين الحكماء، فأنت ترسم «لبلادك» صورة أخرى من دولة جيه ««الطاغية»؛ حيث تصنع نموذجين مكررين: جيه «الطاغية»» ... الأكبر، جيه الأصغر».»

(١٢–١١) قال باي كوي: «إنَّ النظام «الذي اتخذته» في مواجهة مخاطر الفيضان يفوق ما أبدعه الإمبراطور «يو».»

فقال له منشيوس: «بل قد جانبك الصواب، يا سيدي؛ ذلك أنَّ النظام الذي قرره الإمبراطور «يو» في مواجهة أخطار الفيضان كان يقوم على مراعاة منسوب المياه؛ حيث «صرف المياه الزائدة» في البحار الأربعة، متخذًا منها مصرفًا هائلًا للمياه، أمَّا ما قمت به فلا يزيد على مجرد تحويل الأقاليم المجاورة إلى مصرف هائل للمياه؛ حيث تسير الأنهار عكس اتجاهها وتتجاوز الضفاف، وهذا بالضبط، ما يُقال له «الفيضان»، وهو ما يبغضه كل عاقل حكيم. قد جانبك الصواب أيها السيد الكريم.»

(١٢–١٢) قال منشيوس: «إذا لم يكن الحاكم صدوقًا، موضع ثقة الناس به، فكيف «لنا» أن نلتزم بالاستقامة والنزاهة؟»

(١٢–١٣) كان «حاكم» دولة لُو قد أعدَّ العدة لتولية «يوجين» (منصبًا رفيعًا) لإرادة الشئون الحكومية، «وبلغ ذلك الخبر إلى مسامع منشيوس ف» قال الشيخ الحكيم: «قد سعدت بهذا الخبر سعادةً لا توصف، حتى لقد جافاني النوم»، فسأله كونسون شو: «أتظن أنَّ يوجين هذا أكثر الرجال عزمًا وكفاية؟» فأجاب منشيوس بالنفي، فسأله كونسون شو: «أهو رجل حكيم، بعيد النظر؟» فهزَّ منشيوس رأسه بالنفي، فسأله

السائل: «فهل هو غزير العلم واسع المعرفة؟» فرَّد الشيخ بالنفي، فسأله: «فما الذي أسعدك، إذن، بذلك الخبر، وأسهد جفنيك؟» فأجابه: «لأنَّ الرجل من النوع الذي يحب الإنصات للقول المفيد»، فقال له كونسون شو: «أيكفي الرجل أن يكون منصتًا جيدًا للكلام المفيد؟» فأجابه منشيوس: «الإنصات الجيد للقول المفيد يكفي المرء أن يدير شئون العالم السياسية، فما بالك بولاية «لو»؟ أمَّا الرجل إذا كان محبًّا للإنصات إلى ما فيه الفائدة سعت إلى أبوابه وفود الناس قاطبةً، ولو شَدت إليه رحال السفر البعيد (حرفيًّا: ركبت إليه الطريق عبر ألف ميل) لتفضي إليه بما وعت قرائحها من القول المفيد، فإذا لم يكن المرء يشتهي أن يميل بأذنه إلى ما فيه صلاح أمره، سخر منه الناس وراحوا يقلدون هيئته «مازحين»: «... نعم ... نعم، تلك أمور أعرفها ولا حاجة لتذكيري بها!» وهو ما يصد الناس عن المجيء إليه «عبر مسافة تمتد زهاء ألف ميل»، وكذلك سيستثقل المتعلمون وعثاء السفر إليه، فينفسح الطريق أمام المتملقين والمداهنين، فما ظنك بأحوال البلاد إذا ما التقى أولئك بهؤلاء، أيُمكن أن يكون هناك حكم رشيد «في ظل تلك الطغمة المنافقة»؟»

(١٢–١٤) ذهب «تشن تسي» إلى منشيوس وسأله: «ما هي الأحوال التي كان يقبل فيها الحكيم قديمًا الالتحاق بالوظائف العمومية؟» فأجابه: «كانت هناك ثلاثة شروط كي يقبل فيها المثقف العمل بوظيفة عامة، وثلاثة أحوال أخرى كانت تفرض عليه الاستقالة فورًا من العمل؛ فإذا تمَّ الترحيب به وإبداء التوقير له والموافقة على وضع آرائه موضع تنفيذ كان يقبل العمل كموظف رسمي، «ومع ذلك، وفي الحد الأدنى» فإذا بدت مظاهر الترحيب معقولة والمعاملة طيبة «إلى حدٍّ ما»، لكن دون أن يؤخذ باقتراحه، فقد كان يقدم استقالته «ذلك هو الشرط الأول، فأما الثاني:» فقد كان الحكيم الفاضل يقبل العمل الحكومي، إذا قوبل بالاحترام اللائق، حتى لو لم يلتفت إلى العمل باقتراحاته، فإذا تبدَّلت مظاهر الاحترام المبذول له هجر الوظيفة في الحال. أمَّا الظرف الثالث الذي كان يوافق فيه على الالتحاق بالإدارة الرسمية فقد كان يتمثَّل في تلك الحال التي يستيقظ فيها الحكيم صباحًا، فلا يجد الطعام، ويمسي عليه المساء فلا يجد ما يقيم أودَه، فيصيبه الإعياء حتى يعجز عن الخروج من منزله، فيبلغ ذلك الأمير، فيقول: فيما يتعلق بالمبادئ العامة، فلا أستطيع أن أعمل باقتراحاته، ولا أن آخذ بتوصياته، لكني أيضًا «وفي الوقت نفسه» لن أرضى لنفسي أن أدعه يموت فوق أرض بلادي «لا أحب أن أوصم العار بسبب موته!» فيُنفِذ إليه مَن ينقذه من الموت جوعًا، فيقبل الحكيم ويرضى «ذلك التدخل من جانب الجهات الرسمية»، لكن فقط في الحدود التي تحول دون موته.»

(١٢–١٥) قال منشيوس: «ارتقى «شون» من فلاحة الأرض والحقول إلى سامق المجد، وكذلك صعد «بويو» إلى سلم الشرف وقد كان في مبتدأ أمره مجرد عامل بناء، أمَّا «جياوقه» فقد بلغ منزلة كريمة وكان يعمل، فترة من حياته، في الملَّاحات وصيد الأسماك، وذاع صيت «كوانيو» وعلا في سماء المجد نجمُه (وهو أشهر السياسيين في عصر الربيع والخريف)؛ إذ خرج من أبواب السجن إلى عالم السياسة والشهرة «في أزهى عصور الصين القديمة»، وكذلك انطلق «سون شو آو» إلى أجواء العمل العام، وقد كان طريدًا عند شاطئ البحر، ووجَد باي ليشي طريقَه إلى البلاط الحاكم (كبير وزراء تشين في عصر الربيع والخريف) وهو الذي بدأ حياته بائعًا في الأسواق، «وهو الأمر الذي يبرز بوضوح» أنَّ السماء إذا قدَّرت لامرئٍ ما، مكانةً عظيمةً في حياته، وأعدت له أمرًا ذا شأن، كان لا بد، في أول الأمر، من أن تمتحن عزيمته بالانكسارات، وتلهب عظامه بالأوجاع، وتوقظ جسده بالآلام وتلقي في جوفه [حرفيًّا: أمعائه] مرارة الجوع والحرمان، فتوهن عافيته وتسلط عليه الضَّنى والهزال، وتحاصر كل أفعاله وتضيِّق عليه كل مخرج، وتُبدِّد له كل رجاء؛ إذ حق عليه أن تتزلزل أعماقه، وتنصهر بلهب الحياة طاقاته، وتتجدد مواهبه «ومع ذلك، فلا عوض له عما فاته»، ولم يكن الإنسان ليصلح أمرًا إلَّا لأنَّه كثيرًا ما يتناول بيد الفساد أشياءه.

إنَّه لا تنطلق زفرات الغضب إلَّا من صدور كظيمة وقلوب مشتتة لكثرة تباريح النفوس، فتنعتق الإرادة ويصير ثمة عمل مرتقب، فيشرق الوجه وتنتعش في الفم الكلمات، ويصير هناك أناس يفهمون المعنى ويقدِّرون كل الأحوال. إنَّ بلدًا يفتقد باطنُه (جهازه الداخلي) المستشارين المساعدين والوزراء التنفيذيِّين، وتخلو ساحته الخارجية من مجابهات وقلاقل مع جيرانه المناوئين له، سيلقى الضياع والهلاك في عاجل أمره؛ لذلك نستطيع أن نفهم ما للكوارث والمصاعب والقلق من دور في استنهاض «قيمة» وجود الإنسان؛ لأنَّ «حياة» الدَّعة والترف تقود، حتمًا، إلى الزوال.»

(١٢–١٦) قال منشيوس: «فنون التعليم وأشكاله وطرائقه كثيرة ومتعددة، «ومع ذلك» فلست أوافق بأن أقوم بالتدريس لأي طالب علم؛ «لئلَّا أثير في نفسه الشعور بالنقص، ومن ثم الانسحاب والتقوقع»، وتلك أيضًا طريقة أخرى في التعليم.»

الباب السابع

جين شين (من أعماق القلب)

الجزء الأول

وجملته ستة وأربعون فصلًا

(١٣–١) قال منشيوس: «يستطيع الإنسان أن يعمل كل ما في وسعه [حرفيًّا: يبذل أعماق قلبه؛ لاستظهار بواطن الخير في أعماقه]؛ كي يستطيع أن يفهم طبيعته كإنسان، فإذا امتلك ناصية الفهم للطبع الإنساني، تبصَّر بأقدار السماء.

إنَّ المرء إذا قدر أن يحفظ بين جنبيه قلبًا نقيًّا طيبًا، وتعهد طبائعه «الخيِّرة» بالموالاة والتهذيب، استطاع أن يستقبل أمر السماء (أقدار السماء)، وللناس في ذلك موقف واحد، سواء طالت أعمارهم أو قصرت ... فمَن تعهد قلبه بالخير وظاهرَه (جسدَه) بالرعاية، صمد لأقدار السماء، ووجد — من ثم — لقلبه ملاذًا ولحياته مقرًّا.»

(١٣–٢) قال منشيوس: «الشقاء والهناء «كلاهما» والسعود والنحوس «كلها» أقدار، ولا مفرَّ من الصمود للقدر؛ «لذلك» فمَن استبصر بقضاء الأقدار لن يمكث تحت حائط مائل يوشك أن ينهدم، ولا يرضى بأحكام الأقدار إلَّا من قضى نحبه سائرًا على منهاج الفضيلة الكبرى، وليس مَن مات تنفيذًا لحكم إعدام قضائي كمَن وافاه — وهو طوع المبدأ الأخلاقي الأسمى — حتم القدر.»

(١٣–٣) قال منشيوس: «لا إدراك إلَّا مع السعي، ولا خسارة إلَّا مع الإهمال، فالسعي (على هذا النحو الذي تدرك به الأغراض) يساعد المرء على الاكتساب؛ حيث إنَّ هذا السعي جزء من إرادة المرء الداخلية «الباطنية».

أما الاستقصاء الذي يتبع نهجًا محددًا، «وكذلك» الفوز والخسران اللذان يأتي بهما القدر، فلا يُكسبان المرء شيئًا؛ لأن إرادة السعي والاستقصاء «ليست جزءًا من إرادة الإنسان نفسه»؛ بل تتحدد وفق «إرادة أخرى» خارجية.»

(١٣–٤) قال منشيوس: «قد عرَفَت كل نفس ما لها وما عليها، وليس أسعد من امرئ حاسب نفسه فاستبصر في باطنه الصدق والإخلاص، وليس أقرب من «الطريق القويم» إلَّا امرؤ اجتهد في طلب التخلق بالمبادئ الإنسانية متوسلًا في ذلك بمبدأ «معاملة الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به»، مخلصًا لمعنى التسامح بكل ما يقدر عليه من جهدٍ.»

(١٣–٥) قال منشيوس: «قد يعمل الإنسان ويتحرك هنا وهناك دون فهمٍ حقيقيٍّ «لجوهر الأشياء»، وقد يتصرف بحكم العادة ويترسخ لديه الاعتياد دون أن يسأل ويتساءل عن العِلل والأسباب، وقد يقضي عمره كله ماشيًا على طريق دون أن يعرف ما هو الطريق، لكن «مثل هذا الإنسان» هو العامي الساذج البسيط.»

(١٣–٦) قال منشيوس: «ما من إنسانٍ إلَّا في حياته شيء ما، يُسبب له الشعور بالعار أو الخزي؛ وعندما يخالج الإنسان شعور بالخزي لعدم وجود ما يخجل منه أو يندم بسببه، يكون — وقتئذٍ فقط — قد برئت ساحته تمامًا من أدنى إحساس بالعار.»

(١٣–٧) قال منشيوس: «إنَّ الإحساس بالخزي والعار ذو أهمية قصوى للإنسان؛ «ذلك أن» مَن يتقنون أساليب الغش والاحتيال، وفنون الخديعة والمكر، لا يجدون حاجة للشعور بالخزي، و«هكذا نخلص إلى نتيجة مفادها أنَّهم» ما داموا لا يخجلون من كونهم ليسوا مثل الآخرين في الإحساس ببشاعة العار والفضيحة، فما الذي يدعوهم إلى الحفاظ على روابط مشتركة مع كل البشر … في الإنسانية؟»

(١٣–٨) قال منشيوس: «كان الحكماء القديسون، من الحكام والملوك في العصر القديم، يزهدون (يتجاهلون) ما بأيديهم من سلطة، عملًا بمبادئ الخُلق والاستقامة، «فإذا كان ذلك هو حال الملوك والأمراء»، فلماذا يسلك الحكماء والشيوخ أنفسهم هذا النهج نفسه؟ لقد فرح هؤلاء بمبادئهم القويمة ومسلكهم الأخلاقي، وتناسوا ما للآخرين من سطوة ومهابة، حتى ركبهم التِّيه والفخر بأنفسهم، فكانوا إذا تأخر عليهم الملك أو الأمير في إرسال الهدايا، أو فاته أن يقيم طقوس الاحترام اللائق «بجنابهم الأفخم» امتنعوا عن المثول بين يديه «تكبرًا»، إلا في النزر القليل. ولئن كانوا قد استكبروا أن يُكثروا إليه الزيارة ويطيلوا عنده اللقاء، فكيف كان له أن يتخذ منهم الوزراء والتابعين؟»

(١٣–٩) تحدَّث منشيوس إلى «سونكوجيان»، فقال له: «أتُحب أن تسافر في البلاد داعيًا إلى ذلك المذهب الأخلاقي القويم؟ فاسمع عني كلمات أقولها لك في هذا الشأن. «اعلم» أنَّك مُطالب بالثبات والثقة سواء اقتنع بكلامك الناس (الأمراء) أو لم يقتنعوا.»

فسأله سونغ: «وكيف لي بالوصول إلى تلك المرتبة؟»

فأجابه الشيخ: ««بأن تعرف أنَّك» ما دمت تتحدث عن المبادئ الأخلاقية، وتسلك بالاستقامة، فستصير أحوالك إلى الثبات والثقة؛ لذلك «فقد قيل» إنَّه ليس لذي العلم أن يميل عن الاستقامة ولو تعسَّرت به الأحوال واشتد به الفقر، ليس له أن يتنكب عن الطريق (الأخلاق) وإن تزكَّت نفسه زهوًا وخيلاءَ.

فإن حَرَص الطالب على الاستقامة مع ضيق ذات اليد، أخذ من القناعة مأخذًا متينًا، وإذا التزم جادة الطريق مع ما اكتسب من الفخر بنفسه، توجَّهت إليه آمال الناس واستقوى به رجاؤهم، ولقد كان الحكيم من القدماء إذا طاب له حظ نفسه، قام إلى الناس ففرق بينهم العطايا والهبات الكريمة، وإذا عسرت حاله، التفت إلى نفسه فأخذها بالتقويم والتهذيب حتى يحذو الناس حذوه، فإذا ما ضرب لديه الفقر بأطنابه، أقام معتكِفًا يعالج نفسه بالخلق الأقوم، وإذا أصاب من المجد رفعة، نثر فوق الدنيا كلها زهر آدابه وثمار محاسنه.»

(١٣–١٠) قال منشيوس: «إنَّ أولئك الذين يقبعون ساكنين لا تنتعش سجاياهم إلَّا عندما ينادي فيهم منادي الملك «أون» «بجميل الوصايا، داعيًا إلى حُسن الخُلق»، ليسوا إلا جمهرة العامة الساذجة، أمَّا الذين انعقد لهم لواء الفضل، وفائق الرفعة «فليسوا ككل الناس»؛ فإنَّهم أنهض إلى مطلب الخُلق القويم، وإن لم تقم للملك أون، نفسه، قائمة.»

(١٣–١١) قال منشيوس: أعطِ رجلًا رصيد الثروة التي اشتهر بها وزراء دولتَي «وي» و«هان»، فإن لم يخالجه أدنى إحساس بالزهو والخيلاء، فهو أكثر الناس نزاهةً والأعلى مكانةً والأسمى شرفًا.»

(١٣–١٢) قال منشيوس: «حتى لو سُقت الناس إلى العمل بالسُّخرة، من أجل ما يعود عليهم بالسعادة، فلن ينطق لهم لسان بالشكوى، وإن تحطمت أبدانهم كدًّا ومشقة؛ «وكذلك» لو روعتَهم بالموت وأنت تدفعهم بأمل الحياة، وتعدهم ببشرى البقاء، فلن يلقوا إلى الموت بالًا، وإن وضعت في رقابهم السيف، «فسوف يلقون حتفهم هانئين مستبشرين».»

(١٣–١٣) قال منشيوس: «إنَّ رعايا ملك الملوك (ذي القوة والسطوة فوق الممالك) لا يجربون من الحياة الجانب المشرق المليء بالحيوية، أمَّا رعايا الملك الرحيم فهم المخلصون

الصادقون، الذين لا يعرفون مع العسر بأسًا، ولا مع اليسر طمعًا في المزيد، وفي كل يوم ترتقي أحوالهم مراتب الكمال، من خير إلى خير، تصعد بهم فلا تنكص ولا تحيد، يتنقَّلون في سُلَّم الخير الأسنى «وهم يتساءلون عمَّن كان له الفضل فيما غمرهم من الخير والنعمة».

ما من أرض يطؤها الحكيم القديس، إلَّا نال أهلُها على يديه آثارًا من التبدل والتغيير، وما من بقعة يحل بها، إلا شملتها معانٍ رائعةٌ تجل عن الوصف، ودارت في أجوائها أفلاك «من الخير» كدورة السماء في عليائها والأرض في أقطارها، فكيف يُقال، إذن، بأنَّ أحدًا لا يجني من إصلاحاته (الملك الرحيم) إلا النزر اليسير!»

(١٣–١٤) قال منشيوس: «الكلمات الرحيمة ليست كالسُّمعة الرحيمة، فليس أدعى للقبول ولا أشرح للصدور من السمعة الرحيمة. والسياسةُ الرشيدة ليست كالمواعظ (التعاليم) الطيبة؛ فالناس يخشون «ما يمكن أن تجلبه عليهم» السياسات الرشيدة، لكنهم يهفون بقلوبهم إلى المواعظ الطيبة، وإذا كان الحكم الرشيد يأخذ من الناس أموالهم، فإنَّ المواعظ الطيبة لا تجني من الناس إلَّا المودة والقبول.»

(١٣–١٥) قال منشيوس: «أن يقدر المرء على صُنع شيء دون سابق علم أو معرفة؛ فذلك ما يقال له «القدرة البديهية»، وأن يستبصر المرء أو يدرك شيئًا بغير سالف تدبر أو تأمل فهذا مما يعد «علمًا حدسيًّا».

كل مولود (حتى وهو في قماطة الميلاد) متعلق بوالديه، فإذا بلغ تمام النضج أبدى الاحترام لَمَن هم أسن منه «من إخوته الأكبر سنًّا».

«وقد كان» حب الآباء من الرحمة «ومكارم الأخلاق»، واحترام المتقدمين في السن من الاستقامة، «وهو الخلق الأتم الذي لا مزيد عليه، ولا يراد له إلَّا أن ...» ينتشر في ربوع الممالك.»

(١٣–١٦) قال منشيوس: «عندما كان القديس الحكيم «شون» (قبل أن يصبح ملكًا على البلاد) يقيم في بطون الأودية والوِهاد، يتخذ من الحجارة وأشجار الغاب جيرانًا وأقارب، ومن الأيائل والدواب أصحابًا أوفياء، لم يكن يختلف كثيرًا عن أهل الغابات في بساطتهم وهيئتهم (المشعثة المغبرة).

فلما تناهت إلى سمعه كلمات طيبة، تمثلت أمام عينيه جلائل الأعمال (استمد منها جميعًا أعظم الطاقة والإلهام) وصار مثل بحر انشق شاطئه ففاض، أو سيل انصب مدده فوق الوِهاد، فلا كابح لتياره ولا معقل لفورانه وعنفوانه.»

(١٣–١٧) قال منشيوس: «فليرد المرء نفسه عن أن يأتي ما لا وجوب لإتيانه، وليصد النفس عن أن ترغب ما لا يستقيم «مع الخُلق الأقوم» التطلُّع إليه، فذلك منتهى الأمر وكفايته.»

(١٣–١٨) قال «منشيوس»: «لا يقبل الناس التحلي بالخلق الكريم والحكمة، والتزود بالقدرات والاستعدادات والعلم والمعرفة، إلَّا لأنَّهم مشغولون طوال الوقت بالتفكير في «مواجهة» المخاطر والأزمات، ليس سوى أبناء المحظيات والوزراء المعزولين «الذين لا يربطهم كثير مودة مع الناس عمومًا» هم وحدهم الذين تؤرقهم المخاطر الجسيمة والهموم والكوارث؛ لذلك تجدهم على درجة فائقة من الفهم والذكاء والعبقرية.»

(١٣–١٩) قال منشيوس: «هناك «نفر من الناس» يقومون على خدمة جلالة الملك ولا يقصدون من وراء ذلك إلَّا تملقه وإيجاد الحظوة لديه، هناك «فريق من» المسئولين يعملون على استقرار الأمور في البلاد، ويجدون في ذلك كل السعادة والرضا، وهناك «جماعة» من الناس هم جنود السماء [حرفيًّا: أبناء السماء] يأملون في الوصول إلى المواقع الوظيفية التي تمكنهم من تطبيق المبادئ «الأخلاقية»، ثم هناك طائفة من أفضل الجميع مكانةً وخلقًا وأرفع قدرًا، وهم الذين يأخذون أنفسهم بالجِد، فيُصلحون أنفسهم قبل أن يعملوا على إصلاح شأن الآخرين.»

(١٣–٢٠) قال منشيوس: «ثلاثة أمور يفرح بها العاقل الحكيم من كل قلبه، وليس من بينها أن يقوم فوق عرش الحكم ملكًا، ينادي بالإصلاح وسياسة شئون البلاد؛ فأول ما يتمناه ويسعد به هو أن يتمتع أبواه بتمام الصحة والعافية وهم على قيد الحياة، وأن يتمتع إخوته بحياة مستقرة آمنة، وثاني تلك الأمور «التي تجلب إليه السعادة» ألَّا يقترف ما يستحيي منه أمام السماء، أو يثقل ضميره أمام أهل الأرض «الناس جميعًا»؛ أما ثالث ما يرجوه؛ لتكتمل له سعادة قلبه، فهو أن يجتمع لديه كل الأكفاء والنجباء من كل حدب وصوب، فيقوم على تعليمهم ورعايتهم.

تلك هي الأمور التي يسعد لها قلب العاقل، وليس من بينها اعتلاء كرسي الحكم لسياسة شئون الممالك.»

(١٣–٢١) قال منشيوس: «... أرض مترامية الأطراف، وشعوب وقبائل وأعراق شتى ... ذلك هو ما يطمح إليه كل حاكم، ولو أنَّ حدود سعادته الغامرة لا تقتصر على ذلك فقط؛ بل تمتد إلى أطراف ما يُمكن أن يخضع تحت سلطانه من أقصى الأرض إلى أقصاها؛ بحيث تصبح له الولاية فوق عرش الممالك، غير أنَّ ذلك كله ليس جوهر طبيعته ولا طبع

أمانيه الراسخ في أعماقه؛ ذلك أنَّ حدود طبائع القديس الحكيم لن تزيد جمالًا وبهاءً كلما اتسعت آفاق مجده، ولن تُذوي وتضمحل إذا اشتد عسره وضاقت به الأحوال، «... فذلك أمرٌ قد انقضى به قضاء الأيام، وطُويت به الصحف».

قد انطبع الحكيم بطابع الرحمة، والاستقامة، والأدب والحكمة، «تلك خصال استقرت في أعماقه» فتبدت في سيماء وجهه وارتسمت في ملامحه، ومدَّت في أطرافه، وتخلَّلت مسام جسمه وملأت كيانه، «يجدها الناس ظاهرةً فيما بدر عنه» دون أن ينطق بكلمة.»

(١٣–٢٢) قال منشيوس: «أراد بويي أن يُخالف «سيرة الملك الطاغية» تشو، فاختار مقر إقامته على شاطئ بحر «بيهاي» (بحر الشمال)، ولمَّا سمع بتولي الملك أون الحكم، قال: «ما الذي يمنعني الآن من الذهاب إليه والانتماء إلى صفه؟ وقد بلغني أنَّ «شيبو» يبذل كل جهده لرعاية كبار السن.»

وكذلك أراد «تايكون» أن يسلك على غير ما سلك به «الملك الطاغية» تشو، فجعل مقر إقامته شاطئ نهر دونهاوي (النهر الشرقي)، ولما بلغه أنَّ الملك أون قد نهض حاكمًا على عرش الممالك، قال: «سأذهب إلى جلالته وأنضم إلى أتباعه الأقربين، وقد بلغني أنَّه رحيم بكبار السن والعجائز.»

«وهكذا نرى أنَّ» مَن يرأف بكبار السن ويرحم العجائز، يرى فيه الحكماء خير السند والرجاء «وهو الحكيم الذي ينشر فوق الدنيا الخير العميم، فتجد ...» المنازل الفيحاء فوق أراضٍ امتدت عبر خمسة «مو» وأشجار التوت الباسقة وراء الجدران، ونساء يجلسن وينسجن الحرير، فيجد العجائز رياشًا حريرية يلبسونها، وساحات يقأقئ فيها الداجن، وحظائر للخنازير يُلقى إليها الطعام في مواعيد محددة، فيجد كبار السن طعامًا شهيًّا [حرفيًّا: لحمًا شهيًّا].

«وهناك أيضًا» أراض مساحتها مائة «مو» يقوم على زراعتها رجالٌ أشداءُ، فيتوافر الطعام لكل آكلٍ ويشبع كل جائعٍ [حرفيًّا: تجد الأُسر المكوَّنة من ثمانية أفراد ما يكفيها من الطعام!].

أمَّا مَن يُدعى «شيبو»، ذلك الرحيم بالعجائز، فقد نال لقبه بسبب ما قام به من ...» تحديدٍ لنظام الأراضي الزراعية، ودعوة الناس لزراعة الأرض والرعي، وتعليم النساء كيفية القيام بالرعاية الصحية لكبار السن «ذلك أنَّ» مَن بلغ الخمسين من عمره دون أن يحوز ثيابًا حريريةً فلن يجد الدفء، ومَن شارف السبعين دون أن يجد ما يكفي من اللحم في طعامه، فلن يهنأ بطعامه أو يسد جوعه. والحال التي لا يُشبع الطعام فيها

الجوع، ولا تجلب الثياب لصاحبها الدفء هي ما يطلق عليها: معاناة الجوع ومقاساة البرد.»

ولم يكن في رعايا الملك أون، أحد عانى الجوع أو قاسى البرد من كبار السن، فتأمَّل ذلك المعنى!»

(١٣–٢٣) قال منشيوس: «فلتكن هناك أراضٍ تُزرع بأجود المحاصيل، ولا بُد من تقليل الضرائب حتى يعمَّ الخير على الناس، ويجدوا حظهم من الثراء، وليكن توزيع الطعام حسب إقامة الطقوس؛ فتتراكم الثروة وتفيض عن الحاجة.

«واعلم أنَّه» يتعذَّر على الناس أن يعيشوا حياةً طيبةً بغير الماء والنار؛ «فلا بد أن يتوافر منهما القدر الكافي، حتى» إذا طرق باب الناس طارقٌ في عتمة الغروب أو ظلمة المساء الحالك، وجد الناس ما يكفي حاجتهم ويزيد عليها، «... حتى إذا سألهم إياها، أعطوه بكرمٍ شديدٍ».

على الحكيم القديس، الذي قام على سياسة شئون الممالك، أن يجعل الطعام وفيرًا (كالماء والنار)، ألا ترى لَمن توفَّر لديهم الطعام كوفرة الماء والنار، أينبذون من سلوكهم الرحمة والمودة والإنسانية؟»

(١٣–٢٤) قال منشيوس: «لمَّا صعد كونفوشيوس على جبل «دونشان»، بدت له دويلة «لو» ضئيلة المساحة، فلمَّا طلع جبل «تسايشان»، رأى الممالك كلها صغيرة، متناهية الضآلة؛ «لذلك نفهم ما يُقال من أنَّ:» مَن امتلأت أعينهم بمشاهد البحر الكبير، لا يجدون ما يبعث على الإعجاب من التطلع إلى منظر النهر الجاري.

«وكذلك» مَن تلقَّوا العلم عند أعتاب القديس الحكيم، لن تثير لديهم شتى المعارف الأخرى أي شغف.

ومن المقرر في أصول التأمل الجمالي لمشاهد البحار والأنهار، أن يتطلع المرء مليًّا إلى حركة الموج المتدفق وتيارات الماء الهادرة المتقلبة، للشمس والقمر ضوءٌ باهرٌ يتجلى ساطعًا — حتى — عبر الشقوق والثقوب الصغيرة «لشدة إبهاره ونافذ شعاعه».

إنَّ الماء الجاري فوق الأرض لا يسيل في مجراه إلَّا إذا عمَّ الوِهاد وغطَّى حواف المنخفضات والأغوار الواطئة، «وكذلك» العاقل الحكيم المثابر على السلوك بين الناس حسب قواعد الخلقُ الكريم، لن يرتقى الساحة العالية، ولن يتقدم في طريقه، إلَّا إذا أتم بلوغ الدرجات الأساسية.»

(١٣–٢٥) قال منشيوس: «مَن قام في البكور، فقصد إلى طريق الخير بجِدٍّ ومثابرة، فهو صاحب «على شاكلة» الحكيم القديس «شون»، أمَّا مَن بادر في صبيحة يومه، عازمًا

على استغلال كل فرصة سانحة فيما يعود عليه بالنفع، فهو أخو «اللص» «جي» أحد أتباع الوالي «ليوشياهوي»، وتُعزى إليه ممارسات همجية؛ من نصب واحتيال وسرقات واستغلال للنفوذ، ويُقال بأنَّها كلها افتراءات، بما في ذلك اللقب المشهور به، «اللص «جي»، كان قد تزعم ثورة لتحرير العبيد في زمن الربيع والخريف».»

(١٣–٢٦) قال منشيوس: «كان مذهب الفيلسوف — الأول للطاوية — «يانغ شو» يقول بألَّا يكترث المرء لغير ما يخصه وحده، «وليس له أن يكترث لأحد من الناس»، حتى لو كان في نتف ريشة طائر، أي لون من ألوان النفع للناس؛ فلا ينبغي للإنسان أن يكلِّف نفسه عناء أن يمد يده إليها؛ «أما فيلسوف المذهب «الموهي» المفكر المشهور»: «مودي»»، فكان ينادي بالمحبة بين الناس، «وكان يقول:» لو قُدِّر للإنسان أن يبذل كل ما في وسعه «من قمة رأسه إلى أخمص قدميه» لما فيه خير الناس ومحبتهم فليفعل ذلك دون تردد.

وكانت تسيمو (عاش زمن الدول المتحاربة في دولة «لو») يقول باتخاذ موقف أوسط «بين هذين المذهبين»، وهو الأمر الذي كان ينطوي على نتائج طيبة «إلَّا أنَّ» ذلك الموقف الأوسط لم يفلح في أن يوازن بين كفتي المقولتين ويراجع خصائصهما، ومن ثم، فلم يكتسب المرونة المطلوبة، فانصبَّ جهده في قوالب جامدة، وإذا كان المرء يبغض ما صار إليه ذلك الجهد من جمود وتصلب، فلأنَّه يحمل في طياته إساءةً بالغةً «لمبادئ: الحق، والإنسانية والاستقامة»؛ إذ يمسك بالأمور من أحد طرفيها، «موليًا إيَّاه عظيم الاهتمام»، متجاهلًا الطرف الآخر منه؛ بل باقي الأطراف جميعًا.»

(١٣–٢٧) قال منشيوس: «حتى أردأ الطعام، سيراه الجائع شهيًّا لذيذًا وسينهل الظامئ من أشد الماء كدرًا حتى يرتوي؛ فهنالك «يرتوي الظامئ ويشبع الجائع» بغير مذاق حقيقي لطعام أو شراب؛ لشدة الجوع والعطش، «واعلم» أن آفة ما يعترض جوف المرء من جفاف وتشقق لاشتداد الجوع والعطش، قد تمتد إلى روحه وقلبه (عقله ونفسه)، فإذا استطاع الإنسان أن يحمى نفسه من غلبة آفات السغب ومضار الظمأ، فلن يحزن إذا ما اتسعت الهوة، وزاد الفارق بينه وبين الناس «فإذا هم في أرفع الدرجات، وأسمى المراتب».»

(١٣–٢٨) قال منشيوس: «ما كان «المدعو» «ليوشياهوي» ليبدِّل إيمانه ومبادئه الشريفة النزيهة، لمجرد أنَّه تولَّى منصبًا رفيع المستوى.»

(١٣–٢٩) قال منشيوس: «مَن أقْدَمَ على عملٍ «يريد به الخير والبر والإحسان» فمثله كمثل مَن راح يحفر بئرًا، فإذا ما نزل قاعًا سحيق العمق (حرفيًّا: يبلغ عمقها تسعة

«رن»، نحو أربعة وعشرين مترًا) دون أن يجد ماء، فقد أخطأ الموقع الصحيح، واجتهد فيما لا طائل تحته.»

(١٣–٣٠) قال منشيوس: «قد انتهج ياو، وشون طريق الخير والاستقامة، بما استقر عليه الطبع الكامن في أعماقهما، أمَّا الملك طانغ (أسرة شانغ)، والملك أُو (أسرة جو) فقد اجتهد كلاهما في تطبيق المبادئ الأخلاقية؛ في حين لم يزد ما فعلته الإمبراطوريات العظمى الخمس عن مجرد استعارة مبادئ الخير والاستقامة «لتحقيق مآربهم الخاصة»، ثم إنَّهم بعد أن طال عليهم الأمد في استعارة تلك المبادئ «واستقرارها لديهم» فقد جاء وقتٌ ترسَّخت فيه الأصول، وصار من المستحيل القطع بأنَّها مستعارة أو وافدة.»

(١٣–٣١) قال «كونسون شو»: «قد بلغني عن «آيين» قوله: «ما كنت أرضى لنفسي أن أصادق الناكصين عن المبادئ الأخلاقية (الاستقامة)، وهو الأمر الذي دفعني إلى نفي «تايجيا» إلى بلدة «أوتونغ» مما أدخل السرور على قلوب الناس، فلما حسُنت أخلاق تايجيا، وتهذَّبت خصاله، عاد إلى العرش الملكي (كسابق عهده) فعمَّت الفرحة أرجاء البلاد.»

فهل إذا بدا للحكماء المعَيَّنين في المناصب الوزارية فساد الملك أن يقرروا إبعاده عن البلاد؟» وأجابه منشيوس، قائلًا: «إذا كان لديهم مثل ما لدى آيين من الشعور بالمسئولية فلهم ذلك، وإلا عُدَّ ذلك التصرف، من جانبهم، اغتصابًا للحكم.»

(١٣–٣٢) قال «كونسون شو»: «جاء في كتاب الشِّعر القديم هذا البيت «من إحدى القصائد»:

«ليس للمرء أن يأكل،
دون أن يعمل.»

فما لي أرى الحكماء يملئون بطونهم دون أن يزرعوا أرضًا أو يفلحوا حقلًا؟» فأجابه منشيوس: «يظل الحكماء قابعين في هذا البلد حتى يوليهم الملك المناصب ويغدق عليهم بالرتب العالية الشريفة، فيتأثل المال في أيديهم ويجربون من النعيم ما لا يزيد عليه، فيصيبون حظًّا من المجد والشرف، فينظر إليهم إخوانهم وتلاميذهم بالتعظيم والإكبار اللائق، ويفقهون أصول الطاعة، والبر وتبجيل الكبار والإخلاص وحفظ العهود، فهل هناك مثالٌ أوفى من ذلك على صدق ما جاء في كتاب الشِّعر، «من أنَّه»:

«ليس للإنسان أن ينال طعامًا،
بغير جدارة من شريف العمل!».»

(١٣–٣٣) ذهب «وان تسيديان» (أمير دولة تشي) إلى منشيوس وسأله: «ما الذي يعمله المتعلم؟ (ما الذي يتوجب عليه أن يفعله، بالضبط؟) فأجابه منشيوس: «أن يسمو بأخلاقه وخصاله إلى أعلى مراتب الشرف»، فسأله السائل: «وكيف له بذلك؟» فأجابه: «أن يلتزم نهج الإنسانية والاستقامة «لا شيء أكثر من ذلك ولا أقل» فليس من الإنسانية أن يقضي بالإعدام على الأبرياء، وليس من الاستقامة أن يطمع فيما ليس له. «ولئن سألتني عما ينبغي أن يلتزم به من قاعدة أساسية» فسأقول لك بأنَّ أهم الأمور مطلقًا هي «الإنسانية»، «وإذا استفسرت عمَّا ينبغي أن يسلك من طريق» فسأرد عليك بأنَّه طريق الاستقامة؛ فذلك هو السبيل الذي تكتمل به مراتب الشرف، لكل ذي خلق كريم وأهداف عظيمة.»

(١٣–٣٤) قال منشيوس: «مما لا شك فيه أنَّ الناس سيمنحون ثقتهم للسيد «تشن جونزي» إذا «ما افترضنا جدلًا» أنَّه يُمكن أن يرفض عرش دولة تشي عندما يُعْرض عليه تولي الحكم دون حق شرعي، وعلى نحو مخالف لأبسط قواعد الاستقامة والنزاهة، لكن مثل هذا التصرف لا يعدو أن يكون جانبًا ضئيلًا من أصول الأدب والأخلاقيات «يكاد لا يزيد على» مجرد الاعتذار عن تناول طبق من الأرز أو الحساء.

ليس «هناك كارثة» أبشع من وقوع الجفاء بين الوالد والابن، أو بين الملك ووزرائه، وليس «هناك» أمر يتجاوز حدود العقول، أكثر من الظن بأنَّ امرأً ما قد امتلك ناصية الاستقامة الكبرى لمجرد أنَّه يحوز القليل من الفضائل.»

(١٣–٣٥) ذهب «طاوينغ» (تلميذ منشيوس) إلى الأستاذ، وسأله: «ماذا لو أنَّ «كوصاو» (والد الملك الحكيم شون) قد ارتكب جريمة قتل أثناء تولي ولده عرش الإمبراطورية، خصوصًا عندما كان «كاوياو» يتولى منصب وزير العدل؟» فأجابه منشيوس: ««كل ما كان سيحدث أنَّه:» كان سيتم القبض عليه»، فسأله طاوينغ: «أما كان يحاول شون تعطيل صدور الحكم بالقبض على «أبيه»؟» فأجابه: «بأي حق يحاول شون أن يعطل صدور مثل هذا الحكم ما دام قائمًا على أساس قانوني؟» فسأله السائل: «فما الذي يجب على شون عمله في مثل هذا الموقف، إذن؟» فأجابه منشيوس: «لا شيء، سوى أن يخلع عن نفسه سلطة الحكم مثلما يخلع من قدميه حذاء قديمًا باليًا، «بغير اكتراث» ثم يحمل أباه على ظهره ويخرج هاربًا من البلاد، في طي الخفاء، دون أن يدري به أحد، ويقصد إلى شاطئ البحر فيقيم له مسكنًا هناك، يقضي فيه بقية عمره هانئًا رائق البال، ناسيًا أو متناسيًا الأيام الخوالي التي كان فيها إمبراطور الزمان، وابن عرش السماء.»

(١٣–٣٦) كان منشيوس في طريقه مسافرًا من بلدة «فان» إلى عاصمة دولة تشي، إذ لمح — على مسافة بعيدة — ابن حاكم تشي، فتحدث بلهجة مِلؤها الدهش والاستغراب، قائلًا: «ما أشد تأثير المكانة التي يشغلها المرء على خصاله وطبائعه، وكم تتأثر بنيته الجسدية بما يطعم ويقتات، يا له من تأثير هائل ذلك الذي تعمله الظروف المحيطة بالإنسان! أليس هو الآخر (يقصد ابن الملك) كأبناء الناس؟»

ثم أضاف قائلًا: «لا فرق بين ما يرتديه الملك من ملابس وما يركبه من عربات وجياد، أو يقيم به من قصور ومساكن، عمَّا يرتديه الناس أو يركبونه أو يقيمون به «حسب تأثير بيئاتهم المحيطة بهم»، ولا يختلف سمو الأمير عن الباقين في شيء من تأثير الأجواء المحيطة به؛ بحيث «يتصرف على هذا النحو، فما بالنا بمَن «كانت البيئة المحيطة بهم» تقيم لهم من الإنسانية مقر إقامة بطول الدنيا وعرضها؟

«حدث ذات مرة أن» سافر «الأمير» حاكم لُو إلى دولة سونغ، فلمَّا بلغ بوابة «ديتسي» الكبيرة وقف قبالتها مناديًا بأعلى صوته «على الحُراس كي يفتحوا له»، فتهامس الحراس فيما بينهم قائلين: «ليس صوت أميرنا الحاكم، لكنه، مع ذلك، يشبه لهجته إلى حدٍّ كبير»، فلم يكن ذلك إلا بسبب تأثير الأجواء والظروف المماثلة «لما نهل منه أمير البلاد».»

(١٣–٣٧) قال منشيوس: «ليس هناك فرق كبير بين مَن يعول إنسانًا بغير حب، وبين مَن يربي قطيعًا من الخنازير، والحب من غير احترام مثل تربية الكلاب والجياد سواءً بسواء.

ولا تُهدِ هديةً إلَّا بوازع من مشاعر التبجيل والتقدير، فلا ينبغي للكريم العاقل أن يقع في غواية الهدايا بغير تقديرٍ حقيقيٍّ واحترامٍ أصيلٍ.»

(١٣–٣٨) قال منشيوس: «ملامح الجسد وسيماء الوجه من عطاء الطبيعة [حرفيًّا: «خلق السماء»، ذلك هو التعبير اللفظي لكلمة، بوصفها لفظتين متجاورتين، لكن التأويل المعجمي لها، كوحدة تامة، يقرأها بمعنى «طبيعي أو غريزي»؛ فالترجمة هنا صحيحة بمقدار ما هي معجمية أصيلة، وقاموسية تامة] ليس سوى العاقل وحده هو الذي يعرف كيف يجعل من ملامحه وسيماه تعبيرًا أصيلًا عن كريم عنصره الدفين.»

(١٣–٣٩) أراد الملك شيوان — حاكم تشي — أن يُقلل مدة الحداد على الأبوين «أو أحدهما إذا تُوفي»، فذهب «كونسون شو» إلى منشيوس، متوجهًا إليه بالسؤال على النحو التالي: «أليس من الأفضل أن يبقى طقس الحداد قائمًا، ولو لمدة عام واحد، بدلًا من إلغائه تمامًا؟» فأجابه: ««أنت بسؤالك هذا» كأنِّي بك تُشاهد أخوين يتعاركان، يلوي أحدهما

ذراع الآخر، يكاد يكسره، فتتقدم نحوهما، راجيًا من الغالب أن يترفق قليلًا بأخيه المغلوب «على أن يكتفي بثني ذراعه مرةً واحدةً، بدلًا من مرتين!» في حين أنَّه يكفي تمامًا أن تُذكِّر «الجميع» بضرورة البر بالآباء والاحترام بين الأخوة «لا أكثر ولا أقل».»

وحدث أن ماتت والدة الأمير، وأراد أستاذه أن ينوب عنه في القيام بطقوس الحداد لفترة محددة [إذ كان الأمير في ظروف لا تسمح له بذلك]، وذهب كونسون شو، ليسأل الشيخ الحكيم قائلًا: «ما الذي يجب عمله في مثل هذا الظرف؟» فأجابه: «أرى من الواجب — في هذه الحال — أن يُقام الطقس ولو لمدة يوم واحد، بدلًا من إلغائه كليًّا، ما دام الأمير غير قادر على الوفاء بطقس الحداد بتمامه، أمَّا ما ذكرتُه لك آنفًا فقد قصدتُ به «تذكير» أولئك الذين يبطلون الحداد دون أن تكون هناك ظروف قوية تحول بينهم وبين تلك الطقوس، «عملًا بالمبادئ الأخلاقية وحرصًا على بقائها».»

(١٣–٤٠) قال منشيوس: «يستخدم المهذب العاقل خمس وسائل للتعليم والتربية، هي: إلقاء العلم على المتلقي الموهوب [حرفيًّا: التعليم مثل الري وقت المطر الموسمي] دعم ذوي الاستعداد العقلي والخلقي؛ تربية وتثقيف ذوي القدرة المؤهلين «للتعليم»؛ تفسير وشرح الأسئلة والنقاط «الإشكالية»؛ وأخيرًا … التحصيل الذاتي والدراسة الشخصية «أن يُعلِّم المرء نفسه بنفسه».»

(١٣–٤١) قال كونسون شو: «إنَّ الطريق (طريق العلم والتربية) جليل ومهيب، لكنه «صعب المرتقى» مثل طريق صاعد في القمة، يُرهق أقدام الطالعين، فلماذا لا نجعل منه طريق الأمل المرهون بالثقة في النجاح، فتصير الخُطى الجادة المثابرة مؤملة بإدراك الغاية؟»

فأجاب «منشيوس»: «لن يتخلى النجار الحاذق عن استعمال «المسطرة والزاوية» تيسيرًا على طالب ثقيل الفهم، «وكذلك» فلن يرضى «الرامي المشهور» «آيي» تبديل وضع الاستعداد بجذب الوتر تخفيفًا «لأعباء الدرس» على رامٍ جهول، والعاقل هو مَن رفع القوس وجذب الأوتار واتخذ وضع الرمي ثابتًا دون أن يطلق السهم، انتظارًا للحظة الحاسمة، وإرشادًا لطالب العلم (الرماية) وتوضيحًا للدارس «باتخاذ نموذجٍ جاهزٍ» فيتبع أثره التابعون.»

(١٣–٤٢) قال منشيوس: «عندما يحين أوان إقامة المبادئ في ربوع الأرض (الممالك التي تحت السماء) يمكن للإنسان أن يبذل كل جهد لأجل المبادئ، أمَّا إذا أزف وقت زوال المبادئ، فليس للإنسان الفاضل إلا أن يزول معها ويسقط بسقوطها، ومن الممكن أن

يُضحي المرء بحياته من أجل المبادئ، لكني لم أسمع أبدًا بمَن يضحي بمبادئه، من أجل الناس «ترك الطريق الصحيح اتباعًا لهوى العامة والبسطاء».»

(١٣–٤٣) قال «كونتوس»: «عندما كان «تنغ كان» يأتي إليك طالبًا العلم على يديك، فلم تعره اهتمامًا ولم تبدِ له ما كان يتوقع من كرمك في الاحتفاء به والتشجيع له، فما السبب فيما لاقاه عندك «من الجفاء»؟»

فأجابه: «إنَّ خمسةً من الناس لن ألتفت إليهم أو أعير أيًّا منهم انتباهي: المتباهي بجاهه وسطوته، والمُرائي بكرم أخلاقه، والمترفِّع لكِبر سنِّه، والمتكبر عليَّ لسابق فضلٍ منه؛ كل أولئك لن «أتخذهم طلابًا أو ...» أجيب مسألتهم. وقد كان يعيب «تنغ كان» إصراره على خصلتين مما ذكرت لك.»

(١٣–٤٤) قال منشيوس: «مَن أهمل عملًا — ما كان له أن يدعه دون أن يتمه — صار الإهمال عادةً ملازمةً له، ومَن استصغر شأنًا — كان واجبًا عليه أن يوفيه قدره من الاهتمام — أصبح استصغار كل شأن في استهانة واحتقار هو دأبه، ومَن يتقدَّم باندفاع طائش، ينكص متراجعًا بسرعة مذهلة.»

(١٣–٤٥) قال «منشيوس»: «الإنسان الفاضل يتعامل مع الموجودات (الجماد) في الدنيا بحرص واهتمام، لكن دون عطفٍ أو ودٍّ أو مشاعرَ إنسانيةٍ، ويتواصل مع الناس كلهم وفق مبادئ إنسانية كريمة لكن بغير حب (الحب الذي يستشعره نحو عائلته؛ ذلك أنَّ المرء ...) لا يشعر بالحب «العطف على» الناس إلَّا إذا أحب أهله وأقاربه، ولا يضع الدنيا في موضعها الجدير بالاهتمام إلَّا إذا أغدق مشاعر العطف والإنسانية على الناس جميعًا.»

(١٣–٤٦) قال منشيوس: «العلم مسعى الحكيم، لكن الحكماء «غالبًا ما» يطلبون العلم والمعرفة حول عظائم الأمور. وقلب الحليم يتسع محبةً لكل الناس، إلَّا أنَّه يميل أكثر إلى الحكماء الفضلاء.

ولقد بلغ «ياو» و«شون» من الحكمة مبلغًا عظيمًا، لكنهما لم يحيطا بكل شيء علمًا؛ لأنَّهما بذلا الاهتمام كله لمعرفة دقائق الأحوال — في زمانهما — «وكذلك» لم يكن حلمهما (إنسانيتهما) تتسع لكل الناس؛ لأنَّهما صرفا كل الانتباه للتواصل مع ذوي الحكمة والفضل في محيط ما بلغ إليه إدراكهما.

«لذلك فقد وجب الانتباه إلى أكثر الأمور أهمية؛ ف» إنَّ مَن يتغافل عن طقوس الحِداد مدة ثلاث سنوات، بينما يهتم بتفاصيل طقوس الحِداد «للفترات القصيرة ... حيث يقوم

الحِداد على الإخوة والأقارب …» لمدة ثلاثة أشهر، وخمسة أشهر، «وكذلك» الإقبال على تناول المشروبات «بأنواعها» دون وازع من حياء أو أدب، أثناء فترة الحِداد، مع التدقيق والتمحيص التفصيلي فيما ينبغي ولا ينبغي أن يتم مضغه أو ابتلاعه من اللحوم، خلال تلك الفترة، كل ذلك يعد من سوء التقدير البالغ وعدم الإدراك الصحيح للأمور.»

الجزء الثاني

وجملته ثمانية وثلاثون فصلًا

(١٤–١) قال منشيوس: «ما أغلظ قلب الملك «ليانغ هوي»! إنَّ رحيم القلب، تمتد حدود رحمته لتشمل مَن يحبهم ومَن كان يبغضهم أيضًا، أمَّا قساة القلوب فيسلطون أوارَ سخطهم فوق مَن يكرهون ومَن كانوا يحبون.»

وهنالك سأله كونسون شو: «فماذا تعني بذلك يا سيدي؟» فأجاب: ««أقول» لمَّا كان الملك — ليانغ هوي — طامعًا في ضم مزيد من الأراضي «إلى حدود بلاده»، فلم يكن يعبأ لمَن يرسلهم إلى جبهات القتال؛ فيلقون حتفهم صرعى المعارك، ولم تردُّه الهزيمة أن يعاود الكرَّة. وإذ وقع في قلبه الخوف مَن أن يلقى هزيمةً نكراء «تفتُّ في عضده، فلم يكتفِ بإرسال المقاتلين المجندين إلى الجبهات؛ بل» راح يحث إخوته وأعز أبنائه إليه على خوض غمار الحرب — برغم ما كان يعلمه من موتهم المحقق، حال ذهابهم — فذلك هو ما أعنيه بقولي إنَّ جائحة القسوة لا تكتفي بإبادة الكتلة الهائلة من الناس ممن لا تربطه بهم علائق المودة؛ بل تنذر بويلاتها أقرب الناس وأعز الأبناء.»

(١٤–٢) قال منشيوس: «لم تكن الحروب التي وقعت في زمن «الربيع والخريف» (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) حروبًا عادلةً، لكن كان هناك ملوك عادلون، و«الحرب التأديبية»، تعني قيام دولة كبرى باقتحام دولة صغرى، «وهو لون من الحروب» لا يقع بين دول في مستوى واحد «ودرجة متكافئة من القوة».»

(١٤–٣) قال منشيوس: «لطالما كنت أقول: «إنَّه من الأفضل …» ألَّا نصدق كل ما جاء في كتاب «شوجين» [كتاب التاريخ]، «بل الأفضل مطلقًا أن …» لو لم يكن هناك مثل هذا الكتاب أصلًا، و«عندما أطالع ذلك الكتاب، فلا أكاد أستسيغ إلَّا قراءة …» الباب الذي عنوانه «الحرب الناجحة» وأقتطف منه عبارتين أو ثلاث «فحواهما:» ليس «للمقاتل» ذي المبادئ الإنسانية أي أعداء في طول الممالك وعرضها، فإذا «تصورنا، مثلًا … أن» قامت

قوات أكثر المقاتلين إيمانًا بالمبدأ الإنساني بالهجوم على جيش أشد المنكرين لذلك المبدأ نفسه، فكيف يمكن لبحار الدماء أن تسيل بينهما فتُغرق الجميع في لُجَّتها، ولا يطفو فوق سطحها إلَّا بقايا أخشاب متهالكة «بالطبع، لن تقوم حرب ذات مشاهد من تلك الويلات؛ إذ إنَّ الشعب المسلَّح بالمبادئ الإنسانية له الغلبة دون إراقة دماء».»

(١٤–٤) قال منشيوس: «كثيرًا ما يتبادر إلى سمعي قول القائل: «أنا أقدر الناس على قيادة التشكيلات القتالية، أنا أدري مَن يتصدَّى للمعارك وأفقه الجميع بالحروب وإدارتها» ... «ومثل هذا القول يُعدُّ ...» جريمةً كبرى؛ إذ «لا يحتاج الأمر سوى أن» يُناصر الملك المبادئ الإنسانية، حتى تستتب له الأمور — بغير حرب — وسط الممالك. «وفي قديم الزمان» قام الملك طانغ بمهاجمة الأقاليم الجنوبية، فإذا برابرة الشمال قد ضجوا وآذنوا للقتال، فلمَّا شنَّ هجماته في الجبهة الشرقية، أثار فزع وغضب القبائل «الرعوية الهمجية» على الحدود الغربية، التي توجست شرًّا، قائلةً: «ما الذي جعله يتأخر عن البدء بمهاجمتنا؟»

وعندما قام الملك «أُو» بمهاجمة آل شانغ، وزحف عليهم بجيش قوامه ثلاثمائة عربة حربية وثلاثة آلاف مقاتل، كان يردد كثيرًا «في كل مكان يحل به»: «لا عليكم، لا يهولنكم شيء وليطمئن الجميع، وقد جئت بينكم؛ كي تهدأ نفوسكم وتقرَّ أعينكم، «لست أريد قتالكم» فلا تجابهوني بالعداوة، فأنا آخر مَن يواجه الناس بالبغض أو الكراهية»، فخفَّض الناس جباههم وسجدوا تحيةً وإكرامًا له، وهتفوا باسمه عاليًا «حتى كادت الجبال تتقلقل في مواضعها».

ليس هناك كبير فرق بين الاستقواء «بالحرب» والاستقامة «بالخُلق»، فليصلح كلٌّ من شأنه، وليستقم كلٌّ بالمنهاج القويم، فتسقط أسباب الحرب ودواعيها.»

(١٤–٥) قال منشيوس: «يستطيع النجار أو صانع العربات أن يدرب الناس ويعلمهم كيفية استخدام المسطرة والزاوية، وأدوات القياس الأساسية، لكنَّه لا يستطيع أن يخلق في أدمغتهم وأيديهم مستويات متقدمة من الكفاءة الفنية.»

(١٤–٦) قال منشيوس: «عندما كان شون، القديس الحكيم، «في أول حياته» يقتات أعواد النبات الجافة ويتغذى بالأعشاب الذابلة، فقد بدا — وقتئذٍ — أنَّ حياته كلها ستمضي على ذلك المنوال، فلما صار ملكًا عظيمًا (إمبراطور الزمان، وابن السماء)، وارتدى الملابس الملكية بشاراتها الملونة، وعزف على القيثارة، تحيط به ابنتا الملك ياو، تقومان على خدمته في تبجيل وإكبار (بعد أن تزوجهما) فقد اتخذ سمت الملوك، حتى ظنَّ الناس أنه سليل الملوك منذ نعومة أظفاره.»

(١٤–٧) قال منشيوس: «قد وعيت الآن مغزى وأهمية ما يقوم به الناس من الانتقام، ثأرًا لمقتل أحد أفراد أسرتهم أو أقاربهم؛ فمَن قتل أبا أحدٍ من الناس، فأبوه مقتولٌ انتقامًا، ومَن قتل أخا أحدٍ من البشر، فأخوه هالكٌ لا محالة، «وهكذا» فإنَّ قاتل آباء الناس وذويهم، هو أيضًا قاتلُ أبيه وأهله، لكن بوسائل أخرى، والفارق — هنالك — ليس كبيرًا.»

(١٤–٨) قال منشيوس: «كانت نقاط تحصيل المكوس — في قديم الزمان — عبارة عن بوابات وحواجز تُقام بهدف صد الطغاة والغزاة والمعتدين، أمَّا الآن فتُستخدم بوصفها أداة لتحصيل الضرائب الفادحة على نحوٍ أشد طغيانًا من الطغاة أنفسهم.»

(١٤–٩) قال منشيوس: «مَن لا يُلزم نفسه بالمبادئ الأخلاقية، فلن يستطيع أن يُلزم بها زوجته وأولاده، ومَن يسلك في علاقاته مع الآخرين بغير الخُلق والاستقامة، فسيتعذر على أهله (زوجته وأولاده) أن يتعاملوا، هم أيضًا، مع الناس بمعايير أخلاقية قويمة.»

(١٤–١٠) قال منشيوس: «لا خوف على مَن امتلأت خزائنه بوافر المال والغلال من نوائب الزمان وسنوات القحط والنكبات، وطُوبى لَمن فاضت ودائع الخير والخُلق الكريم لديه؛ فلا خوف عليه في زمان الضلال وأيام الفوضى والانحلال!»

(١٤–١١) قال منشيوس: «إذا كان المرء محبًّا للشهرة فقد يتنازل، في سبيل ذلك، عن المُلك والدولة والسلطان [حرفيًّا: عرش الحكم وقيادة ألف مركبة عسكرية]، أمَّا إن لم يكن مفتونًا بالصيت الذائع، فلن يتنازل عن طبق من الأرز ولو بشق الأنفس.»

(١٤–١٢) قال منشيوس: «إذا كذَّب الناس الحكماء وذوي مكارم الأخلاق، اضطربت الأحوال وفرغت البلاد «من الحكمة»؛ فإذا تهدمت قواعد الأخلاق وأُسس المعاملات، واختلطت على الناس أمورهم؛ وإذا لم تقم للحكم الرشيد قائمة، زالت الثروة ونقصت الأموال، وضرب الفقر بأطنابه في كل مكان.»

(١٤–١٣) قال منشيوس: «الشعب هو العنصر الأهم «في حساب المواطَنة»، ويأتي في الدرجة التالية من الأهمية آلهة الزرع والأرض والنبات، ثم يتلو هؤلاء جميعًا «في مقدار الاهتمام» جلالة الملك.

ومن ثم كان الحصول على رضا الناس هو الشرط الأساسي لبلوغ عتبات القصر الملكي وارتقاء العرش، وكان رضا الحاكم هو الخطوة الأولى في طريق الوصول إلى مرتبة الولاية فوق الأقاليم، ثم كان استرضاء الوالي هو المقدمة الأولى لتولي المناصب العليا. وكان الوالي إذا ما ألحق الضرر بمعابد آلهة الزرع والنبات أُقيل من منصبه فورًا.»

(١٤–١٤) أمَّا إذا كانت طقوس الأضحية تامةً والقرابين حاضرةً في تمام النقاء والطهارة الواجبة، ومواقيت الطقوس في أوانها، دون أن تنهزم الفيضانات، وتنحسر النكبات ويرتفع عن الأرض شر القحط والبلاء، فقد لزم استبدال الآلهة وانتقال مواقع القداسة إلى بقاعٍ جديدةٍ.»

(١٤–١٥) قال منشيوس: «القديسون قدوة الأجيال على مر الأحقاب والسنين، وقد كان «بويي» و«ليوشياهوي» من القديسين الحكماء. «وقد بلغ من تأثيرهما على الأجيال اللاحقة أنَّه» كلما طاف بالذكرى طيف من سيرة أخلاق بويي، تطهَّرت كل نفس من أوضارها، وزكا كل قلب هيَّاب بقبس من مضاء الإرادة والإقدام. وإذا ذكرت للناس فضائل «ليوشياهوي» صار البخيل كريمًا، والفظُّ حليمًا سمح الأخلاق واسع الصدر.

إنَّ الذين سبقوا، منذ قرون خلت، إلى الفضل والجِد والخُلق الكريم، تجدَّدت بطيب التذكار آثارهم بعد أحقاب طويلة فأثارت في النفوس العزم وشحذت الهمم.

أكان ممكنًا أن يكون لهؤلاء ذلك التأثير «لو لم يكونوا قديسين حقًّا؟!» ثم إنَّ ما حازوه من طاقة على الإلهام والتأثير، لم يقتصر على الأجيال اللاحقة فقط؛ بل كان يشمل أيضًا معاصريهم من الحكماء والمؤدبين.»

(١٤–١٦) قال منشيوس: «الإنسانية من الإنسان، والإنسانية هي الإنسان؛ وعندما نتحدث عنها مقترنةً «بمعناها الكبير في» الإنسان، فذلك هو جوهر المبدأ وذلك هو الطريق.»

(١٤–١٧) قال منشيوس: «عندما كان كونفوشيوس مسافرًا في طريق خروجه من دولة «لُو»، مسقط رأسه، فقد تكلَّم قائلًا: «فلنتمهل الخطو، ولنمشِ ببطء؛ إذ نغادر الأوطان.» فلمَّا كان متأهبًا للرحيل عن دولة تشي، فقد حمل في كف يده كمية قليلة من الأرز — لم تبلغ تمام النضج على النار— وانطلق مسرعًا في طريق السفر والترحال. ذلك هو ما بدا من شأنه عند الرحيل عن بلد غريب، «وشتَّان بين راحل عن الوطن، ومسافر، بين الغرباء، بعيدًا عن الأوطان».»

(١٤–١٨) قال منشيوس: «كم لقي الرجل الحكيم (يقصد كونفوشيوس) من مشقَّة عند الترحال عبر الحدود بين دولتَي «تشن» و«تساي»، لِما كان بينه وبين حاكمَيهما من جفاء وتباعد.»

(١٤–١٩) تحدث «موجي» إلى منشيوس، فقال له: «كثيرًا ما يسخر القوم مني وتتناولني أفواههم لومًا وتقريعًا»، فقال له منشيوس: «لا عليك، إنَّ السيد المهذب يبغض

أن تصبح شئونه حديث القيل والقال، وقد جاء في بعض أبيات كتاب الشِّعر القديم «ما نصه»:

«تتألم نفسي ضيقًا،
وتغلي أعماقي،
كما يغلي مِرْجلٌ امتلأ حتى حافته،
وقد سلط الأرذال عليَّ
أفواه الكراهية.»

«وهي أبيات تنطق بـ» لسان حال كونفوشيوس نفسه.

«فلم أنزع من قلوبهم
كظيم الغيظ،
ولم أدع شيئًا
يودي بسمعتي وكرامتي في داهية.»

«وهو المعنى الذي يُعبِّر عن» حال الملك أُون عظيم آل جو.»

(١٤–٢٠) قال منشيوس: «كان الحكماء «فيما مضى» يُعمِلون عقولهم ويفتحون بصائرهم قبل أن يبادروا إلى تنوير الناس وهداية قرائحهم، أمَّا الآن، فهم يحاولون جلاء الأبصار «بغير جدوى»؛ إذ يتغافلون عن جهلهم وفوضى الهذيان المرتبك في أعماق قلوبهم.»

(١٤–٢١) تكلم منشيوس مع كاوتسي، فقال له: «كانت الدروب الجبلية، في البدء مجرد ممرات ضيقة تتخلل التلال، فلما طال العهد بأقدام العابرين، صارت الممرات طرقًا واضحةً، حتى إذا هجرها السائرون حينًا من الدهر، تكاثفت الأعشاب البرية وسدَّت كل طريق، وإنِّي أرى الآن أنَّ أعشابًا بريةً كثيرةً قد نبتت في طريقك، وسدَّت دروب الفهم في قلبك.»

(١٤–٢٢) قال كاوتسي: «إنَّ الموسيقى «التي تصدح في» قصر الملك «يو» أجمل كثيرًا من الموسيقى التي تتردد في رَدهات قصر الملك أون»، فسأله منشيوس: «ما حجتك في هذا التقدير؟» فأجابه: «لأنِّي قد رأيت المشابك الحديدية الدوارة التي تتدلى منها الآلات النحاسية — عند الملك يو — تهرَّأت لكثرة استعمالها «في العزف المتواصل مما يدل على

جودة الموسيقى».» فقال له منشيوس: «كيف يمكن لتلك الحجة أن تكون دامغةً؟! أما نظرت إلى آثار العجلات المحفورة على الطريق عند بوابات المدينة، أتكون آثار العجلات بما تركت من أخاديدَ عميقةٍ على صفحة الطرقات بفعل بضع عربات تجرها الجياد؟»

(١٤–٢٣) تأزمت الأحوال في دولة تشي، بعد أن عمَّ القحط والفقر في أنحاء البلاد، فذهب تشين جين إلى منشيوس، وقال له: «قد أجمَعَ الناسُ رأيهم على أن تُبادر إلى مقابلة جلالة الملك وتستحثه «باسم الجميع» أن يفتح صوامع الغلال للناس، رحمةً بالمنكوبين «الذين أهلكهم الجوع والفقر»، ولا ندري إن كنت ستلبِّي رجاء الناس هذه المرة «كما فعلت في السابق» أم لا؟» فأجابه منشيوس: «فلئن فعلت كما تطلبون مني، فلن أزيد عمَّا قام به «فنغ فو»، وهو رجل كريم، كان مقيمًا بدولة جين، واشتهر بمهارته في مصارعة النمور (فترة من حياته)، إلا أنَّه تحوَّل عن ذلك وصار، بعد ذلك، دمِث الأخلاق، طيبًا ورعًا، وقد أقلع عن غلظته ووحشيته في منازلة السباع، فلمَّا كان مارًّا في طريقه، ذات يوم، بإحدى المناطق الجبلية، رأى الناس يطاردون نمرًا في أحد الأحراش، وقد ذهب السبع إلى ركن قصيٍّ، في أحد الأغوار، يتعذر على الناس الوصول إليه إلَّا بمجازفة، وما إن شاهد الناس «فنغ فو» قائمًا بينهم، حتى فزعوا إليه يرجونه المساعدة في منازلة الوحش بمكمنه، فما كان من صاحبنا إلَّا أن شمَّر عن ساعديه ورفع ذراعيه ونزل من عربته وأقبل نحوهم متهللًا «دون أن ينازل النمر أو يناوشه في أقل القليل!» فلاقاه الناس بكل الحب والمودة، إلَّا أنَّ طلاب العلم، من الدارسين استهجنوا سلوكه، وسخروا منه هازئين.»

(١٤–٢٤) قال منشيوس: «لذة الفم في المذاق، ومتعة العين في جمال الألوان، والأذن في النغم، والأنف في أريج العطور، والأطراف في الدعة والاسترخاء، فذلك طبع الأمور وعطاء الطبيعة، لكنَّه عطاء محكوم بقضاء الأقدار «إن شاءت بالمنح أو المنع»؛ لذلك لا يعدها العاقل أمورًا طبيعيةً «بالضرورة».

«فأمَّا» البرُّ بين الآباء وأبنائهم، والاستقامة بين الأمراء والوزراء، والكرم بين الضيف ومضيفه، «وما بين» الحكمة والحكيم؛ ومبادئ السماء والقديس؛ فلا قضاءَ غالبَ فيها جميعًا إلَّا بأحكام القدر، وإن كان لمجرى الطبع فيها حكم أصيل؛ لهذا، لا يعتد الحكيم، فيها بما قدَّرته الأقدار.»

(١٤–٢٥) ذهب «رجل من دولة تشي يُدعى» «هاو شن بوهاي» إلى منشيوس وسأله: «ما قولك في السيد يوجين؟» فأجابه: «رجل حسن الخُلق مشهود له بالصدق»، فسأله: «فما حسن الأخلاق، وما الصدق؟» فأجابه منشيوس: «مَن كان جديرًا بالإعجاب، فذلك هو مَن ندعوه بأنَّه «حسن الأخلاق»؛ وأمَّا مَن تجلَّت خصاله الطيبة واضحة في سيماه

ومظهره، فذلك مَن نقول عنه بأنَّه «الصادق»؛ فإذا ما غمرت سجاياه باطنه وظاهره، فهذا من يقال بأنَّه جميل الخلق، فإذا فاقت أخلاقه حدود الوصف، وصار له البهاء الأكمل، والحُسن الأتم، قيل إنَّه «عظيم الأخلاق»؛ فإذا قامت أخلاقه الكريمة مقام الروح الكامن في أعماقه، كان هو «القديس»؛ فإن كانت روح القداسة فيه عميقة الغور لا يسبر قرارها، قيل إنَّه ذو الروح الأقدس؛ فالرجل الذي سألتني عن خصاله (يوجين) ذو منزلة بين اثنين: الصدق، وحسن الأخلاق، لكنَّه أدنى كثيرًا من الصفات الأربع الأخيرة: «جمال الخلق – كرم الأخلاق – القداسة – الروح الطاهر».»

(١٤–٢٦) قال منشيوس: «ما زال الخارجون عن مذهب «الفيلسوف» موتسي، يهرولون تجاه الشيخ يانغشو (مؤسس الطاوية الأول، قبل «لاوتسي» بزمان ...) وما برح «كذلك» الرافضون لمدرسة يانغشو، يتوجهون إلى «مذهب شيوخنا» «روجيا» (الكونفوشية الأرثوذكسية الصحيحة)، وإنَّا لنلقاهم ونقبلهم ما داموا يتوجهون إلينا.

إنَّ مَن يتجادلون، اليوم مع أصحاب مذهب موتسي وأنصار طريقة يانغشو، يتصرفون وكأنَّهم يلهثون وراء خنزير أفلت من أيديهم، حتى إذا دخل الحظيرة، ظلوا يلاحقونه، وهو محبوس، يريدون أن يقيدوا أطرافه بحبل متين.»

(١٤–٢٧) قال منشيوس: «تُفرض الضرائب على القماش والحرير، وتُفرض أيضًا على الحبوب وهناك «ثالثًا» ضرائب القوة العاملة؛ فالعاقل مَن اكتفى بفرض ضريبة واحدة «من بين هذه الثلاثة، في الوقت الواحد» مرجئًا تحصيل الاثنتين الأُخرَيَين. أمَّا إذا جرى تحصيل ضريبتين منها في آنٍ واحدٍ، وقع الناس صرعى الجوع والموت، فإن اتفق تحصيل ثلاثتها في وقتٍ واحدٍ «كانت تلك الطامة الكبرى التي لن تبقي ولن تذر؛ حتى إنَّه ...» لن يرعى ولدٌ حرمة أبيه، ولا والد حق ولده.»

(١٤–٢٨) قال منشيوس: «أعظم ما يقتنيه الأمير من جواهر ثمينة هي: الأرض، والشعب، والإرادة السياسية، فإذا «صرف الأمير نظره عن ذلك كله ...» ورأى في اللآلئ والأحجار الكريمة أعظم ما يقتنيه من جواهر، كان ذلك إيذانًا بوقوع النكبة والخراب العاجل.»

(١٤–٢٩) بعد أن تم تعيين «بن تشينكو» (رجل اشتهر بالطيش، رغم مهارته) في وظيفةٍ ببلاط دولة تشي، علَّق منشيوس «على ذلك» بقوله: «يبدو لي أنَّ صاحبنا (يقصد بن تشنكو) مقتول لا محالة.» فما هو إلَّا أن تمَّ إعدام الرجل بالفعل.

فجاء أحد تلاميذ الشيخ الحكيم وسأله: «كيف عرفتَ يا سيدي أنَّ الرجل ستنتهي حياته بهذا الشكل؟» فأجابه: «لقلة حكمته وتبصُّره؛ إذ لم يفهم حقيقة المبادئ الكبرى التي يبذل الأمير كل جهده للسير على نهجها، فكان هو الذي جلب موته بيديه.»

(١٤–٣٠) لمَّا وصل منشيوس إلى دولة «تنغ»، نزل «ضيفًا» في القصر الأعلى، «وحدث أثناء إقامته، أن ...» ضاع حذاء مصنوع من القماش كان موضوعًا بالقرب من إحدى النوافذ، فذهب إلى منشيوس مَن قال له: «ألا يمكن أن يكون أحد تلاميذك قد أخذ الحذاء، وخبَّأه وسط أشيائه؟» فقال له الشيخ: «أتظن أنَّهم جاءوا معي ليسرقوا الأحذية الكتانية؟» فأجابه: «لا أقصد ذلك، «لكني» أراك تقرر عليهم موضوعات وحلقات الدرس والعلم، ثم لا تسأل عمن قام وذهب إلى شئونه، ولا ترفض مَن أتوا إليك «من أيَّة جهة» ما داموا قد رغبوا في العلم وتَلَقِّي المعرفة على يديك، وسواء أكان فيهم الخبيث أم الطيب، فإنَّك تبسط لهم رداءك وتقبلهم بساحتك.»

(١٤–٣١) قال منشيوس: «ما من أحد إلَّا يجد في نفسه ما لا طاقة له على عمله «من أمور شتَّى»، فإذا ما استعان على قضائها بما يستطيعه من الصبر، كان ذلك قبسًا من الإنسانية؛ ثم إنَّه ما من أحد من الناس إلَّا يستشعر في نفسه نفورًا من القيام بأداء عمل ما، فإذا استلهم من روح المثابرة والدأب ما يتقوَّى به على الكد فيما كان يتكاسل عن أدائه، كانت تلك هي روح الاستقامة.

مَن استطاع أن يوسِّع رحابة صدره وترَفُّعه عن الإساءة، كان له من الإنسانية مَعينُ ذخيرة لا ينضب، ومَن واتته المقدرة أن يعفَّ نفسه عن التلصُّص «على مثالب الناس» من وراء جدار، أو التسلل «لاستلاب مغانم الناس» فوق الأسوار، صار له من الاستقامة ما لا تفنى معه الخزائن. إذا أبدى المرء من التصرفات والكلمات ما تتمجد به كرامة الإنسان فوق رخيص القول وسفيه الخطاب والعبارة، عُرف له قدره من الاستقامة والخُلق أينما نزل في حِل وترحال.

إذا ما جادل رجل العلم (الدارس، المثقف) مَن لم يكن يحق له أن يتناظر وإياه، كان ذلك مسعًى رخيصًا لتحقيق مأرب شخصي، فإذا اعتصم بالصمت وقتما كان الكلام مطلوبًا والخطاب ضروريًّا، كان السكوت، حينئذٍ، حيلةً لاجتلاب نفع أناني؛ فهذا كله بعضٌ من معنى التلصص من وراء الجدران أو القفز فوق الحيطان «لاستلاب الناس أشياءهم أو أسرارهم».»

(١٤–٣٢) قال منشيوس: «إنَّ ما سهلت عبارته وفاضت به المعاني، لعمق مغزاه من الكلام، لهو خير الكلام وأحسنه؛ وما اتضحت به الدروب وسهل به المنال من المبادئ، هو أحسن المبادئ.

إذا ما تحدث الحكيم، انقادت له أسلس العبارات واندرجت في مقاصده أعظم المبادئ وأطيب المعاني، «وكذلك» إذا تبدَّت للناس سيرة أفعاله وظاهر سلوكه، بدا آخذًا بزمام نفسه، وقد أقام نموذجًا تهتدي به الدنيا إلى مستقر أحوالها.

إن آفة الناس جميعًا أنهم يدَعون الغَثَّ مطروحًا بحقولهم، وينشطون في حقول الناس إصلاحًا وتهذيبًا؛ يحثون الناس على الجِد، والمسئولية والواجب، ويُلقون عن كاهلهم أثقال الجِد من أمرهم.»

(١٤–٣٣) قال منشيوس: «كانت خصال القديسَين ياو وشون «بصفاتها الإنسانية الطيبة» تصدر عن نزعة طبيعية؛ أما المِلكان الحكيمان «طانغ» و«أُو» فقد اجتهدا في إيقاظ «طبائع الخير في نفوسهما» عبر التهذيب «والاجتهاد الذاتي».

إذا اتفق ظاهر المرء (من سلوك)، وباطنه (من التزام قويم) مع قواعد الأخلاق وأصول الآداب، كانت تلك هي المرتبة الشريفة في مقام الخلق الأسمى.

إنَّ الأسى لفقيد، يعزُّ على الحي فراقه، حزن مقيم بقلب الشجي، ولا يمكن أن يكون رياء الناظرين. إنَّ السير على هدى الأخلاق بغير عوج «ابتغاء إيقاظ دفائن الخير»، لا لمغنمٍ ذي نفع ذاتي «سعيًا لوظيفة مرموقة ومكافآت سخية».

ولا بد أن تصدر الكلمات عن فيض صدق وإخلاص، لا ادعاءً زائفًا بحسن السيرة وشريف السلوك، وليلتزم العاقل الحكيم بما تفرضه الشرائع، وليعمل حسب ما تقضي به «نظم القوانين»، وليدَع «ما بيدِ القدر» للأقدار تقضي بما مضى به حكم السماء.»

(١٤–٣٤) قال منشيوس: «على أولئك الذين يقصدون إلى قصور الأمراء لشرح المذهب والأفكار «الفلسفية» ألَّا يستصغروا من شأن أنفسهم أمام العروش الحاكمة؛ بل عليهم أن يظهروا بمظهر المستخف بأُبَّهة الحكام وفخفخة القصور «فلا تأخذكم تلك المظاهر بما بدا من روعتها»؛ إنَّ القاعات ذات العُمُد، والأسقف الذاهبة في الارتفاع، والجدران المزينة بالأفاريز البديعة «مهما كان من فخامتها»، ليست بالشيء الذي يُغري نظر المرء إذا ما واتته المقدرة على امتلاك مثيلاتها، «وقد يكون» للموائد العامرة بأشهى المأكولات، بما يقوم على خدمتها من المحظيات الحسان، رونق ومتعة وسحر خلاب، «إلَّا أنِّي» ما كنت أسمح لنفسي بالوقوع في غوايتها إذا ما قُدِّر أن أرتاد ساحتها. ولا بد أنَّ ليالي اللهو

والشراب، ورحلات الصيد البري ذات العربات المتراصة في إثر عربات ذاهبة إلى أحراش ساهرة بلذة الترف والنعيم، لا بد أنَّ لها تأثيرها الطاغي على النفوس، «ومع ذلك» فما كانت لتبهرني في شيء لو كانت في يدي مفاتيح الولوج إليها. وما كنت لأقرب شيئًا مما يقترفه «أولئك الذين يطمحون إلى ذلك الترف»؛ ذلك أنَّ ما أُلزم نفسي باتباعه هو ميراث الأقدمين، فلا وقعت الرهبة في نفسي مما يحوز هؤلاء من مظاهر الرفعة، ولا كان لي أن أستشعر نأمة خوف أو يداخلني الروع مما يبدو لي من أحوالهم.»

(١٤–٣٥) قال منشيوس: «إنَّ أفضل طريقة يبني بها المرء شخصية ناجحة ويهذب بها سلوكه، هي أن يحدد نطاق رغباته في أضيق حدود ممكنة، وقد يُقال بأنَّه مهما تنازل المرء عن كثير مما يشتهيه، فسيظل بناء شخصيته غير مكتمل الأركان بما يشتمل عليه من خصال رديئة. وهذا صحيح تمامًا، لكن الجيد في شخصه سيفوق الرديء؛ وربما يُقال، كذلك، إنَّ امرأً غارقًا في الملذات والشهوات يمكنه أن يحتفظ بجوانب طيبةٍ ورائعةٍ في كيانه الأخلاقي، وهذا أيضًا ممكن ووارد، لكن الرديء فيه يغلب الطيب أضعافًا مضاعفةً.»

(١٤–٣٦) كان «تسنغ شي» يشتهي التمر، بينما كان ولده «تسنغ زي» [تلميذ كونفوشيوس] لا يبغض شيئًا في حياته مثل التمر، «وكان كونسون شو أثناء حديثه مع منشيوس، قد تعرض لهذه المسألة، قائلًا:» «أي الطعام أشهى، التمر أم اللحم المشوي؟» فأجابه: «اللحم المشوي، بالتأكيد»، فعاد كونسون شو يسأل: «فهذا تسنغ زي يطعم الشواء ولا يحب التمر، ولا أدري ما السبب في أنَّه يحب ذاك ويبغض هذا»، فأجابه: «الشواء طعام يحبه الناس جميعًا، أمَّا التمر فلا يفضله إلا البعض من دون الناس، فذلك شبيه بما يتشاءم به الناس من ذكر أسماء آبائهم (عادة صينية قديمة؛ حيث يتشاءم الأبناء من ذكر أسماء آبائهم شفاهةً، وإن لم يتحرجوا من كتابتها!) دون أن يستشعروا أدنى حرج من التلفظ بألقاب عائلاتهم؛ وذلك لأنَّ اللقب يتسم بصفة العموم والذيوع؛ أمَّا الاسم فمخصوص بحامله، متعلق بشخصه «والكونفوشي الجاد، ابن الجماعة، مخلصٌ للتقاليد، يحترم ما أجمع عليه الناس وسارت به الحشود من نُظمٍ وأعرافٍ راسخة، وينبذ كل ما هو ذاتي أو فردي أو مخصوص بفئة قليلة».»

(١٤–٣٧) ذهب وانجان إلى منشيوس، وقال له: «أما كان كونفوشيوس، وهو مقيم بدولة تشن، يردد قوله: «يجب أن أعود إلى بلادي، إلى تلاميذي الذين استطاعوا — برغم جموحهم وتمردهم — أن يحققوا قدرًا من النجاح والتقدم، ولم ينسوا ما سبق لي من فضلٍ عليهم.» … كان الشيخ الأكبر يردِّد هذه الكلمات وهو، بعدُ، في دولة تشن، فما الذي

دعاه إلى تذكُّر تلاميذه المتمردين، في دولة لُو (مسقط رأسه)؟» فأجابه منشيوس: «جاء على كونفوشيوس زمان كان يبحث فيه باهتمام عن «رجال يؤمنون بالطريق الأوسط» (مذهب الوسطية، والاعتدال)، وكان يود — إذا وجدهم — أن يتخذهم إخوانًا يقضي حياته بينهم، فلمَّا لم يجد أحدًا يؤمن بالاعتدال، فقد اضطر إلى عقد الصلة مع أولئك المتمردين وغيرهم من الانعزاليين الحريصين على نقاء نفوسهم، دون الانغماس في شئون الدنيا من حولهم، وكان الفصيل الأول (أي المتمردون) يحققون تقدمًا ملحوظًا؛ أما الآخرون (الانعزاليون) فلم يكن يشغلهم شيء سوى عزلتهم ونقاء نفوسهم، ولم يشغلهم أمرٌ من أمور الدنيا، «وهكذا فلمَّا كان الفرق بينهما حادًّا» فلم يعثر كونفوشيوس على «مَن كان يبحث عنهم من …» رجال الحد الأوسط، فاضطر إلى التنازل درجةً واحدةً عمَّا ينشده، «فوقع اختياره على أولئك».»

وراح وانجان يسأل منشيوس: «لكنِّي لا أفهم، بدقة، المقصود بـ «المتمردين الطامحين» فمَن هم؟ وما صفتهم؟» فأجابه: «هم أولئك «المشار إليهم»؛ أمثال «تشين جان»، «سنغ شي»، «موبي»، فهم الذين كان يقصدهم كونفوشيوس بقوله «المتمردون … الطائشون».»، فسأل السائل: «فلماذا جرى القول بأنَّهم متمردون وطائشون؟» فأجابه: «لأنَّ تطلعاتهم الكبرى واندفاعات طموحهم كانت تبرز فيما يتشدقون به من أحاديث رنانة راحوا يرددون خلالها أقوالًا «كانت تبدو» خطابية، احتفالية؛ من مثل:» «قال القدماء كذا وكذا … فعل الحكماء كيت وكيت» … فإذا ما قارنت أقوالهم بأفعالهم، وجدت البَون شاسعًا. ثم إذا تنحَّيت عن أولئك المتمردين، أو كانوا هم الذين تفرقوا عنك، لم يعد أمامك إلَّا أن تتواصل مع المعتكفين عن العالم، الذين كفُّوا أيديهم عن فعل الشر أو الانغماس في شئون الدنيا، وبرغم ذلك، فقد اضطر كونفوشيوس إلى التنازل عن مطلبه درجةً أخرى وراح يقول: «لم يكن يخالجني أقل شعور بالأسف، وأنا أرى الكثير منهم يعبُرون أمام بيتي ولا يدخلون، لم يكن أولئك إلَّا بعضًا من الأفَّاقين والمنافقين المخادعين لأنفسهم وللعالم كله، لم يكونوا سوى متملقين، مخربين للذمم والأخلاق».»

وواصل وانجان أسئلته لمنشيوس قائلًا: «فلماذا قيل إنَّهم متملقون ومنافقون ومخربون للأخلاق؟» فأجابه: ««كان أولئك المنافقون ينتقدون موقف المتمردين، قائلين:» «فيمَ كل هذا الطموح والاندفاع، فيمَ هذه اللهجة الصارخة الزاعقة؟ إنَّ كلماتهم لا تتفق مع أفعالهم ومع ذلك، فلا يفتئون يرددون عن القدماء قولهم كذا وكذا.» «ومن الناحية الأخرى، كان المتمردون يسخرون من الانعزاليين، الراجين النقاء الباطني، قائلين إنَّهم …»

«يعالجون الأمور من وجهات نظر ذاتية، وبكثير من اللامبالاة. قد وُلِدنا في هذه الدنيا، ولأجلها نعمل ونعيش، وعلينا أن نتعايش معًا في سلام، تلك هي خلاصة الأمر كله، وذلك هو تمام الحال.» «إنَّ مثل هؤلاء» السفلة المتملقين الذين تدنَّت بهم دناءتهم إلى أحقر دركات الوضاعة هم الأفَّاقون المنافقون، الكذَّابون على أنفسهم وعلى الدنيا كلها.»

وهنالك قال وانجان: «لكن الناس لم يكونوا يذكرونهم إلا بكل خير، وكانوا يستقبلونهم أينما حلُّوا بكل ترحابٍ، فكيف زعم كونفوشيوس بأنَّهم مخربون ومضيعون للأخلاق؟» فأجابه: ««الغريب من أمر ذلك النفر من الناس، أنَّك ...» إذا هممت بمؤاخذتهم ظهروا لك وكأنَّهم بغير عيوب، وإذا أردت معاتبتهم، أشهدوك على أن ساحتهم بيضاء ناصعة وهم — في معظم أحوالهم — على استعداد لمسايرة كل العادات المبتذلة وتملق عالم مليء بالفساد، «وهم أناس» سيماهم تنضح «بظواهر» الإخلاص والصدق وأفعالهم لا تشوبها شائبة؛ مما يجمِّل صورتهم في أعين الناس فيتيهون بأنفسهم عُجبًا، ويختالون زهوًا، «ومع هذا» فليس طريقهم هو الطريق «الذي انتهجه ياو، وشون، القديسان الحكيمان» فمن ثم، قيل إنَّهم مضيعو الأخلاق. وقد قال كونفوشيوس إنَّه يبغض أولئك الذين يوحي ظاهرهم (بالإخلاص) بما ليس في قلوبهم، الذين تبدو ملامحهم ثمرات ناضجة، بينما قلوبهم قشور ذابلة [حرفيًّا: تختلط عليك ملامحهم، فتراهم قمحًا وهم زؤان!] حتى تخشى أن تفسد منهم شتلات النبات وهي بعد في غرسها الواعد. «كان كونفوشيوس يبغض» المجادلين (المتحذلقين) الحائدين عن الصواب، ويخشى أن تلتبس أفعالهم أمام الناس بالاستقامة. كان يمقت المتبجحين بالقول، ويفرَق من أن يخلط الناس صدقهم بكذبهم. «كان الشيخ الأكبر» ينفر من الموسيقى «السوقية المبتذلة التي ذاعت» في دولة «تنغ»، ويخشى أن تلوث، بصداها التافه، روعةَ وجمال قواعد الذوق الموسيقي الأصيل، كان يشمئز من اللون الأرجواني، خشية أن يختلط بالأحمر القاني «فيفسد مزاجه الفريد»، كان يتأذَّى من المتملقين مخادعي الزمان والدنيا بأسرها، خوفًا من أن يفسدوا المبادئ الأخلاقية ويجنحوا بأعِنَّة الطريق.

فإذا استطاع العاقل الحكيم أن يفعل كل ما في وسعه لاستعادة الزمام؛ انتهاجًا للمحجة القويمة والمسلك الأبدي الأصوب، فنعمت وبها.

إذا ما عاد للطريق اتجاهه الصحيح انتعشت النفوس واستفاق أهل الدنيا أزكى إفاقة، وإذا ما نهض الناس، فما بقي للشر بقاءٌ أبدًا أبدًا.»

(١٤–٣٨) قال منشيوس: «قد انقضى من الزمان خمسمائة عامٍ منذ عهد القديسَيْن الحكيمَيْن ياو، وشون إلى عهد الملك طانغ (آل شانغ)، «لكن» كان هناك الكثيرون مثل الملك «يو» و«كاوياو» ممن رأوا بعيونهم الملكَين الحكيمين، وتلقوا عنهما العلم شفاهةً، وكان هناك أيضًا الكثيرون مثل الملك طانغ ممن تلقوا العلم سماعًا «بالنقل والحديث المتواتر عن» الحكماء القديسين؛ ثم انقضى من الزمان خمسمائة عامٍ أخرى، منذ نهاية عهد الملك طانغ حتى عصر الملك أون (آل جو)، وكان الحكماء المشهورون أمثال: آيين، ولاي شو، هم الذين عاينوا ذلك الزمان، فأخذوا العلم معاينةً ومشافهةً؛ أمَّا الملك أون نفسه فقد تلقَّى الحكمة سماعًا. ثم مضت، بعد ذلك، خمسمائة عامٍ منذ نهاية عهد الملك أون حتى زمن كونفوشيوس، وكان بين يديه الذين تلقوا الحكمة «عن الملك أون» مشافهةً، حكماء أفاضل من مثل: «تايكون لو»، و«سان إيشنغ»، أمَّا كونفوشيوس نفسه فقد تلقَّى الحكمة عنهم سماعًا مما نُقل إليه من أحاديثهم، وقد انقضى، منذ زمن كونفوشيوس، حتى وقتنا هذا أكثر من مائة عامٍ، فليس ما بيننا وبينهم من الزمان وقتٌ بعيدٌ، ولا يفصلنا عن المواطن التي شهدت بقاءهم كثير الانتقال أو بعيد الترحال، ومع ذلك، فلسنا نجد مَن رآهم رأي العين، ولا مَن أخذ عنهم القول شفاهةً، وأحسب أنَّا لن نرى بيننا بعد اليوم، أحدًا قد تعلَّم الحكمة بالسماع، كما كنا نعهد ذلك فيما سلف من التابعين.»

الكتاب الثالث

المعرفة الكبرى

المقدمة

في النسخة المحققة للكتب الأربعة، من التراث الصيني القديم، والتي أقوم بترجمتها إلى العربية يرد كتاب «المعرفة الكبرى» — برغم ضآلة محتواه، بدرجة تجعل منه مجرد رسالةٍ أو أُطروحة فلسفية قصيرة — في مفتتح المتون كلها. وهو، في الحقيقة، ليس كتابًا مستقلًّا بموضوعه، وإنَّما مجرد فصلٍ واحدٍ من فصول كتابٍ آخر قديم جدًّا اسمه: «كتاب الطقوس»، لكن هذا الأخير، هو أحد كتب التراث القديمة التي فُقدت تمامًا ولم يُعثر لها، حتى الآن (٢٠٠٨م) على أيِّ أثرٍ، سوى شذراتٍ ونصوصٍ متفرقةٍ مبثوثة في ثنايا كتب التاريخ أو السِّيَر والتراجم القديمة.

يرجع تاريخ كتابة نصوص «المعرفة الكبرى» إلى زمن «الدول المتحاربة» (٤٧٥–٢٢١ق.م.) وتم الانتهاء من كتابته إبان زمن توحيد الصين على يد دولة تشين (٢٢١–٢٠٧ق.م.) أو، ربَّما، بعد ذلك بوقتٍ غير بعيدٍ. أمَّا مؤلف الكتاب فغير معروفٍ، وإن كانت مادته تنتمي إلى التراث الفكري لما يُسمى بالمدرسة «الكونفوشية»، ويتطرق موضوعه إلى مبادئ متنوعةٍ تشتمل أساسًا على مجموعة رؤًى فلسفيةٍ ومبادئ نظريةٍ في الأخلاق، ووجهات نظرٍ في شئون المجتمع والسياسة والاقتصاد، كعادة النصوص الفلسفية الصينية، ثم هو بجانب كل ذلك، يُعد واحدًا من أقدم المقررات العلمية للدارسين الصينيين في مراحل التعليم العليا؛ حيث كان من المعتاد أن يلتحق أبناء القادرين والأرستقراطيين بالتعليم الأساسي عند تمام السنة الثامنة من أعمارهم، وبعد اجتياز تلك المرحلة من التعليم، التي كانت تتضمن معلوماتٍ أساسيةً في الثقافة العامة وفنون القتال، فقد كان لزامًا على الدارسين استكمال دراستهم العليا في الأكاديميات المتقدمة، فيدرسون فيها موادَّ تتعلق بالنظريات السياسية وشئون الحكم «... فقصارى ما يمكن أن يتطلع إليه الدارس

الصيني القديم، في الفترة التي ظهر فيها الكتاب، هو أن يلتحق بالعمل في البلاط الملكي واحدًا من كبار موظفي القصر!».

والكتاب بأبوابه الأحد عشر، ينقسم إلى جزأين رئيسيين؛ أولهما: الباب الأول، بوصفه «المتن الأصلي» الذي يعرض للفكرة الأساسية التي يقوم عليها محتواه العام؛ أمَّا الأبواب العشرة الباقية فتُشكِّل جميعًا الجزء الثاني منه ويُطلق عليها «المرويَّات»؛ وهي عبارة عن مجموعة المتون التي تستفيض في الشرح والتعليق على الباب الأول، الذي هو النص الأساس كما أسلفت. وترتيب الكتاب بأبوابه وأجزائه من وضْعِ «جوشي»، وهو أحد أهم رواد «الكونفوشية الجديدة» «... ذلك الاتجاه الفلسفي الذي ظهر في زمن أُسرة سونغ الملكية (٩٦٠–١٢٧٩م)؛ حيث تساندت الفلسفتان الكبيرتان: الكونفوشية والطاوية في جبهة واحدة، بوصفهما عقيدة وطنية و«رسمية»، ذات قداسة، في مواجهة البوذية الوافدة من الهند!».

ولئن قلت إنَّ الكتاب ينتمي إلى ما يُسمى بـ «المذهب الكونفوشي»؛ فذلك لأنَّ أفكاره الأساسية مستقاة من التصورات الكلاسيكية للمبادئ «الإنسانية» التي صاغها كلٌّ من كونفوشيوس وتلميذه النجيب «منشيوس»، الذي جاء بعده بنحو مائة عامٍ من الزمان (والأحرى، أن نقول: المبادئ الأساسية التي استخلصها أو استنبطها كونفوشيوس)؛ لأنَّه — في الحقيقة — لم يضع أو يخترع شيئًا من عنده؛ بل كان واحدًا من جامعي التراث بوصفه مشايعًا للمدرسة الكلاسيكية، التي صارت تُنسب إليه فيما بعدُ، سواء داخل الصين أو خارجها، ولو أنَّ الصحيح أن يُطلق عليها اسم «المدرسة الكلاسيكية» أو «المذهب الفلسفي القديم» وهي ترجمةٌ أراها مناسبةً تمامًا لمصطلح «روجيا» كما عُرفت به في اللغة الصينية، قديمًا وحديثًا، وذلك بدلًا من التسمية الشائعة بـ «الكونفوشية» التي تقصر عن الوفاء بتأدية دلالات المصطلح علميًّا وتاريخيًّا؛ بل تبدو تسميةً محرَّفةً ومنحرفةً عن الطابع العام لفلسفةٍ عريقةٍ نشأت وازدهرت قبل مجيء كونفوشيوس نفسه إلى الدنيا بزمانٍ طويلٍ جدًّا.

وقيمة الدور الذي قام به تتمثل في أنَّه استطاع التعبير عن مضمون ذلك التيار الفكري القديم، وأنَّه نشر لواءه وساهم بنصيب ريادي في الدعوة إليه وتعميم مبادئه، ولو أنَّه كان يشعر في قرارة نفسه، ويتصرف وكأنَّه يُلبي نداءً سماويًّا يُطالبه بإيقاظ العقول، وأنَّه جاء برسالةٍ لتوعية البشر ... مثلما كان سقراط يُفكر أيضًا بأنَّه مبعوث العناية الإلهية إلى أثينا للغرض نفسه؛ ولذلك، فليس صحيحًا أنَّ كونفوشيوس لم يتجاوز الادعاء

بأنَّه مجرد ناقل للأفكار. وعلى أية حال، فقد بقي اسمه عَلمًا على أعرق اتجاه فكري في الصين، وإن كانت شهرته الآن تنتقل عبر ترجمات تصرُّ على إضافة علامة التذكير الصوتية إلى اسمه الذي أصبح يُنطق حسب قواعد اللغة اللاتينية، بالصياغة المشهورة في الدنيا كلها، لكنَّه — في اللغة الصينية — يُنطق هكذا: كونفوتس «... أو «كونزي»، وأحيانًا ... «جوني»!»

لكن، ما الذي يقوله أو يتناوله كتابٌ صغيرٌ بهذا الحجم، لا يزيد على كونه مجرد رسالةٍ أو مقالٍ قصيرٍ؟ والإجابة — بإيجاز — أنَّ الكتاب يعرض لفكرة من التراث القديم، يُطلق عليها: المبادئ الأساسية الثلاثة (بالصينية: سان كانغ) والدرجات الثماني (بامو)؛ فالمبادئ الثلاثة هي: الخُلق الأزكى، الروح الوطني الجديد، الخير الأسمى؛ وهي أسس الخُلق الكريم التي يرى الكتاب أنَّ الإنسان — منذ الأزل — يتحلَّى بها على نحوٍ فطريٍّ، فإذا اندمج في المجتمع الإنساني الكبير، اندثرت تلك الأخلاقيات تحت ركام العلاقات اليومية، فيلزم عندئذٍ تجديد الصلة عن طريق تحصيل علوم «المعرفة الكبرى» لابتعاث كوامن الفضائل الدفينة، واستصراخ الضمائر وتجديد ما أصابته يد البِلى، وصولًا إلى تمام الخلق وفائق الخصال، وهكذا يبلغ المرء — بصيغة الكتاب — إلى الدرجات الثماني (البامو) وهي: التعلم من الطبيعة، إتقان المعارف، الإخلاص، استقامة الضمير، السلوك القويم، القيام على أمر العائلة، إصلاح أحوال الوطن، نشر السلام في ربوع العالم.

والأساس الذي ينبني عليه كل ذلك هو الالتزام بتهذيب النفس، على أنَّ الدرجات الأربع الأولى من «البامو» هي وسائل تحقيق ذلك التهذيب الذاتي المشار إليه؛ أما الدرجات الثلاث الأخيرة فهي الأهداف المطلوب بلوغها لتكتمل أركان التهذيب الذاتي.

ويرى الكتاب أنَّ التعلم من الطبيعة هو أهمُّ وسيلةٍ للرقي الأخلاقي وإصلاح النفس، وهي النقطة التي أيدها، بقوة، محقق التراث الكونفوشي الشهير «جوشي»، وهو الاسم الذي سنصادفه كثيرًا عند مراجعة الجهود النقدية التي تناولت أعمال المذهب الكلاسيكي بالتعليق والشرح والتفسير؛ حيث قدَّم تفسيرًا مبتكرًا لنظرية التعلم من الطبيعة، فحواه:

«... إنَّ الإنسان يملك مقدرةً باطنيةً على استكشاف ينابيع المعرفة والإلمام بمنطق الأمور كلها، إلَّا أنَّ معرفته في هذا غير تامةٍ؛ ذلك أنَّ المعرفة التامة تتطلب استكناه جوهر الأشياء عن قرب، والتعامل المباشر معها بواسطة التجربة الذاتية.»

ويُعلق بعض الدارسين الصينيين على هذا التفسير قائلين: إنَّ «جوشي» هنا، لم يفلح في تقديم تفسيرٍ يتطابق مع المغزى الأصلي لكتاب «المعرفة الكبرى»؛ ذلك أنَّ المغزى

الحقيقي للكتاب يتناول المعرفة بوصفها الإلمام التام بدلالات الخُلق الأسمى، ومعاني تهذيب السلوك، وأصول المعاملات، «ولنلاحظ أنَّ الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة الصينية هو «المجتمع الإنساني» وليس «الكون الطبيعي»، (وترجمة المصطلحات هنا، مثلما هي في باقي المؤلفات الكونفوشية، أحاول بها تقريب المعنى، فهي ترجمةٌ تفسيريةٌ، وإن لم تكن، بالضرورة، حرفيةً جامدةً)، فموضوع اهتمام الفلسفة الصينية، أساسًا، هو الإنسان نفسه وليس الطبيعة، وهذا أحد الفروق الجوهرية بينها وبين الفلسفة الأوروبية، وسأعرض لهذه النقطة بمزيد من التوضيح في مقدمة كتاب «الاعتدال»؛ حيث المناسبة أوفق والسياق أنسب ...» وإذن ...

فالتعلُّم من الطبيعة — حسب كلام «جوشي» — هو وسيلة تحصيل المعرفة، لكن الكتاب لم يكن يُشير إلى الطبيعة بوصفها الظواهر المادية القائمة في الواقع الموضوعي؛ بل كان يُشير، في الحقيقة، إلى السلوك الاجتماعي الذي يمارسه الناس في حياتهم اليومية، ومن ثمَّ فالتعلم من الطبيعة لا يعني استقصاء أصول الأشياء في واقعها الطبيعي، ولا دراستها والتعمُّق فيها؛ بل يعني التوسُّل بـ «الإخلاص» و«الاستقامة» واحتواءهما داخل معايير السلوك الذهنية، وهكذا لا تعود المعرفة المشار إليها تنصبُّ حول ملاحظة القوانين الموضوعية، وإنَّما تُركِّز — أساسًا — على الطُّرق التي يجري بموجبها استعادة الفطرة الأخلاقية الأولى التي جُبلت عليها نفوس الناس.

التعلُّم من الطبيعة، في جوهره، يعني دعوة الناس إلى مناهضة الميول والرغبات الأنانية، والتخلي عن مشاعر الخوف والقلق سعيًا إلى تهذيب الأخلاق والارتقاء بالفضائل؛ ليتحقق الترابط المنشود في مادة تهذيب النفوس بين الأفراد بعضهم وبعض وبين السلطة الحاكمة، وهنا يتضح الدور المهم الذي يلعبه التهذيب الخلقي في تطور المجتمع.

ويجدر بالذكر، هنا، أنَّ الترجمة أوردت نصوصًا مصحوبةً بشروح «جوشي» بين قوسين مربعين، على النحو الذي وردت به في الأصل، وكان هذا الفقيه الكونفوشي قد أضاف إلى النص ملاحظاتٍ متفرقةً، واستكمل الباب الخامس من «المرويَّات» وأوضح الكثير من معميات المتن.

ويؤكد كتاب «المعرفة الكبرى» على أهمية حماية نظام المجتمع العشائري، باعتبار أنَّ الرباط الأسري والعشائري ذو أهمية بالغة في إقرار السلام في ربوع الممالك (أي على الأرض، في كل أنحاء العالم!) وفي هذا المجال، فالكتاب، وكالمعتاد في التراث الصيني القديم، يدعو إلى الطاعة والبر بالأهل والتعاون والتكافل بين الإخوة؛ فذلك هو الأساس الذي تقوم

عليه العلاقات الحميمة، وهو القاعدة التي تستند إليها كل الاعتبارات الأخلاقية التي تدعم أواصر العلاقة الطيبة بين العرش الحاكم، في الصين القديمة، وبين رعاياه، وهي علاقة تقوم على أساس الرباط العشائري، فكأنَّ الجميع بيتُ عائلةٍ كبرى، لها عميدها الأكبر، ورجالها الذين هم أعوان جلالة الملك ورجاله.

والكتاب وثيقةٌ تاريخيةٌ، بجانب كونه مدونة فلسفية؛ لأنَّه يُعد محاولةً تنظيريةً لتصور مبادئ وأسس يقوم عليها الحكم السياسي لنظام إقطاعي كان يتلمَّس طريقه إلى الوجود في ذلك الزمان البعيد؛ بحيث يصير الحاكم رمزًا للتقاليد الأخلاقية الراسخة، بوصفه المثل الأعلى والقدوة النموذجية في بناء أخلاقي يقوم على أساس أنَّ جلالته «... يُبجِّل كبار السن، ويحنو على الصغير والضعيف، والجائع والمحروم، يمنع ويمنح، بيده الخير، ومع ذلك فهو يَقدِر على الإيذاء وفعل الشر، لكنَّه في كل الأحوال، هو الأب الحامي والأخ الحاني على شعبه وعشيرته، وهو — برغم ما يتحلَّى به من رقة ورحمة — لا يلين حتى تذهب هيبته، وهو، مع القسوة، يعرف الحدود المعقولة التي ترده عن التنازع مع شعبه.»

ونحن إذ نقدِّم هذا الكتاب إلى القارئ العربي، مساهمةً في تعزيز جسور الصلات الحضارية بين الصين وثقافتنا العربية (الرائدة في التعرُّف إلى الصين، وفي رصد الملامح الإنسانية والثقافية لتلك الحضارة العريقة) فإنَّنا — وضمير الجمع هنا للاستئناس بروح الجماعة — على ثقة من أنَّ القارئ الكريم سوف يُطالع هذا النص على ضوء الظروف التي أنتجته، وحسب السياق الفكري والاجتماعي الذي ظهر فيه، ووفق ملابسات وعوامل رافقت دواعي تدوينه؛ ولئن كانت أفكار الكتاب تشتمل في أجزاء منه على ملامح وعي واستنارة وتفوق بارز، فهي في معظمها لا تزيد على مجرد اجتهاد نظري، في حدود زمان مرَّ وانقضى، وزمن صارت بقاياه عروضًا مَتحَفِيَّة، وعصر كان فيه هذا الكتاب أحد المقررات الدراسية للطلبة والدارسين، ثم تحوَّل إلى رؤية فلسفية دشَّنت دخول الصين إلى عهد طويل من الإقطاع «مع ملاحظة أنَّ شيئًا من تلك الأخلاقيات التي يدعو إليها الكتاب لم يتحقَّق أبدًا، لا في عصور الإقطاع، ولا في غيرها!» لكنه كغيره من المؤلفات التراثية والمتون الكلاسيكية، أدعى للمراجعة النقدية باعتباره وثيقة تاريخية تستحق الدراسة والتأمل، بمثل ما تثير الشك أيضًا «فالمؤلف مجهول، والمحققون وبعض الدارسين ينسبون مثل هذه النصوص القديمة، عمومًا، إلى أكثر من مؤلف، وعبر عصور متتالية، وبأقلامٍ كثيرة تداولتها حذفًا وإضافة وتعديلًا!».

وإذا كانت الكلاسيكية الصينية (الكونفوشية ... يعني) قد ارتفعت فوق هامة الصين تاجًا من الحكمة والأخلاق، والإنسانية والعدالة، فقد تحمَّلت، على مر العصور، أوزار النكبات ونُسبت إليها كل ألوان النقائص؛ فقد اتهمتها الفلسفة الموهية بالكفر والإلحاد، وحمَّلتها الطاوية مسئولية الفساد والانحلال باسم الأخلاق «وفي ظنِّي أنَّ الصين ما كانت لتتصالح — طوال تاريخها، وحتى العصر الحديث — مع الكونفوشية، إلَّا لأنَّها تحفظ ميراثها الأقدس من قديم، ألا وهو تقديس وتبجيل الأحفاد للأجداد، واحترام أهمية ومكانة وروح الأسرة وتقاليد العشيرة؛ ومع ذلك فكثيرًا ما كانت الكونفوشية وبالًا على الصين وسببًا لكثير من المحن!».

وبينما كانت البوارج الإنجليزية تحيط بسواحل جنوب الصين في القرن التاسع عشر الميلادي، وتفرض عليها تجارة الأفيون، وتصادر حقها في السيادة، كان رجال القصر الإمبراطوري يتذرعون بالمسلك الكونفوشي القديم، معتصمين بالمبادئ وأصول المعاملات، تحدوهم الثقة بأنَّ أية قوة في العالم كله لن تجسر على خرق مبادئ العدل والإنسانية التي أقرها كونفوشيوس.

وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ إنجلترا تجاسرت وهدمت الصرح الكونفوشي، الذي كان يظن بأنَّه منيع، واستولت على هونغ كونغ، التي ظلَّت تحت الاحتلال حتى بضع سنوات مضت.

وكانت صدمةً لم تُفِق منها الصين إلَّا مع مطلع القرن العشرين؛ حيث طلعت عليها شمس الحضارة الحديثة واستضاءت جنباتها بأنوار المدينة. «قيل في تفسير سقوط الصين تحت الاحتلال، إبَّان حرب الأفيون، أسبابٌ ثلاثة — متناقضة:

(١) إنَّ التخلي عن التراث المحافظ القديم هو سبب هذا السقوط وليس التراث نفسه.

(٢) إنَّ الثقافة الصينية العريقة لم تخذل أهلها، لكن كان ينقصها التلاؤم مع روح العصر.

(٣) إنَّ التراث القديم والمواريث الكونفوشية وأنماط التفكير والحياة وواقع الصين المتردِّي، ذلك كله كان هو السبب في الكارثة التاريخية!».

وعندما خرجت مظاهرات الطلبة من الجامعات الصينية فيما عرف باسم حركة الرابع من مايو ١٩١٩م كان هتافها الرئيس ينادي بالعلم والديمقراطية، وبإلغاء تدريس الكتب والمؤلفات الكونفوشية، تلك التي كانت تَعُد التمرد والثورة والعصيان من المحرمات

تحريمًا قطعيًّا. وشاع — وقتئذٍ — تصور لدى المستنيرين يرى أنَّ تطور البلاد وخروجها من مأزق التخلُّف كان مرهونًا بنبذ التقاليد الفكرية الكلاسيكية، التي لم تفلح في إمداد الصين بما كانت تحتاج إليه من وسائل الوعي بحقائق التطور في الدنيا كلها. «الطريف، أنَّ البعض من أعضاء اللجان المنظمة لاحتفالات أوليمبياد بكين ٢٠٠٨م عرضوا اقتراحًا بإقامة تمثال لكونفوشيوس فوق مسرح الاحتفالات وسط ساحة العرض الرئيسة، باعتباره الرمز التقليدي للحضارة الصينية!» ... ولكن، عندما يحين موعد الاحتفال سنة ٢٠١٩م بمناسبة مرور قرن من الزمان على أكبر وأهم حدث في تاريخ الصين الحديث — بعد الأوليمبياد — ألا وهو الانقلاب الجذري في تاريخ الثقافة الصينية، فيما أُطلق عليه حركة الرابع من مايو؛ ستتجدد ذكرى تلك المرحلة في تاريخ أمةٍ عريقةٍ، وهي المرحلة التي عَبَرت فيها الصين إلى ساحات العصر الحديث لتُخلِّف وراءها ظلام الكونفوشية بمعابدها ومراسمها وطقوسها العتيقة، وهي أيضًا المرحلة التي توقَّفت فيها أكاديميات التعليم الراقية عن مطالعة الكتب الكلاسيكية لتقرأ كتبًا أخرى حملت أسماء روَّاد عصرٍ جديدٍ: دارِون، نِيتْشه، ك. ماركس، إنغلز، فرُويد ... إلخ.

لم تنبذ الصين ميراثها الفكري، لكنها ارتفعت بالتطور فوقه، وراحت تسلِّط عليه من الوعي الجديد كشافات تُضيء بها جنباته ذات الملامح التقدمية، ولعلَّ قراءةً مستبصرةً تكشف في تضاعيف المتون زوايا متفرقة تحمل وعيًا ما بحقائق التطور.

وأتمنى أن يكون قد حالفني التوفيق في ترجمة هذا الكتاب وفي غيره من كتب التراث الصيني، وبالطريقة التي تُساعد على التواصل مع محتويات الكتب الفلسفية الباقية من ذلك الميراث القديم، ولَكَم تمنيت أن تُساعد هذه الترجمة، مع غيرها، من الترجمات لعُيون الفكر الصيني في استكشاف دروب غاصت، منذ زمانٍ سحيقٍ، تحت ركام السنين وتكلَّست بدفائنَ في ماضي الوعي، وما زالت خطوطها وعلاماتها الغائرة تحمل أسرار تاريخ طويل من مسيرة العقل الإنساني عبر مراحل تطوره في أقصى الشرق القديم.

المترجم

المعرفة الكبرى

١

المعرفة الكبرى هي التحلِّي بالخلق الأسمى، وبلوغ الفضائل وأرفع الدرجات، «والمعرفة الكبرى، هي ...» تجديد وعي الناس جميعًا، وتنوير بصائرهم؛ سعيًا لأشرف الغايات وأتم المقاصد.

وإذا ما أحاط الوعي بتلك الغاية القصوى والكمال الأسنى، صار من الممكن بلوغ حد العزم الراسخ؛ فإذا ما استقر العزم ساد الصفاء، وإذا ما صفت الأذهان عمرت القلوب بالسكينة، وإذا ما النفس اطمأنَّت نشطت نوازع التأمل، وفي التأمل تتحقق الغاية المُثلى، ويبلغ المسير حدود القصد الأكمل.

لكل شيءٍ أصلٌ وفرعٌ، وللأشياء كافةً بدايةٌ ونهايةٌ، فمَن عرف الأصل والفرع والمبتدأ والغاية، وأدرك أول كل ذلك وآخره، فقد أوشك أن يحيط بأسرار المعرفة الكبرى.

كان القدماء من دعاة إرساء قواعد الحكمة بين ربوع المماليك، يبادرون — في أول الأمر — إلى تدعيم أسس الفضائل بين أهليهم وداخل حدود بلدانهم، ولكي يحققوا مسعاهم، في هذا الصدد، فقد كان لزامًا عليهم أن يبدءوا بأوطانهم التي يقيمون فيها، ولئن أرادوا أن يصلحوا من شأن أوطانهم، فقد تحتَّم أن يبدءوا بعشائرهم وقبائلهم التي ينحدرون من أصلابها؛ ولمَّا كان ضروريًّا أن يبدءوا بعشائرهم، فكان لا بد أن يبدءوا بأنفسهم، ولكي يبدءوا بأنفسهم فقد لزم أن يهذِّبوا دخائل نفوسهم التي في صدورهم، ولتهذيب نفوسهم التي في حنايا الصدور، فقد كان مطلوبًا أن تتنقى جوانحهم بالصدق والإخلاص، ولم يكن ممكنًا أن تتطهر جوانحهم بالصدق والإخلاص إلَّا بفيض من المعرفة، وما كان يمكن أن تفيض عليهم المعرفة بأنوارها، إلَّا باستقصاء الحقيقة «في كل شيء»،

فلما تطلَّعت الأبصار إلى الحقيقة فاضت بأنوار المعرفة، ولما فاضت بأنوار المعرفة تنزلت في القلوب معاني الصدق والإخلاص، ولَمَّا تطهرت القلوب بالإخلاص، ولَمَّا تهذَّبت النفوس خلصت النوايا، ولَمَّا خلصت النوايا طاف الأمن في ربوع العشائر، ولَمَّا نزل الأمن بساحة العشائر صلحت أمور البلاد، ولما استتبَّت أحوال الوطن انتشر السلام في أنحاء الممالك.

فليعلم الجميع، من أبناء السماء (الملوك)، وأبناء العامة والدهماء (الشعب) أنَّ تهذيب النفس هو الأساس ومبتدأ كل أمر.

ومثلما يستحيل أن يُصلح نبتٌ فاسدُ الغرسَ، فلا يمكن أبدًا أن يثمر الخير والصلاح في امرئٍ سيئ المنبت والجذور، وكذلك يستحيل أن يُنظر إلى الشخص بادي الاحترام والإجلال بعين الازدراء، كما لا يُعقل أن يكون الزَّرِيُّ الحقير موضعَ التبجيل والتقديس.

[ذلك هو الباب الأول من «المتن المقدس» حسبما يذكر «سنغ تسي» من أقوال كونفوشيوس — بألفاظه وحروفه — أمَّا الأبواب العشرة التالية، فهي «المرويَّات» التي يقوم فيها «سنغ تسي» بالشرح والتفسير، ولم يفُتْ تلامذته فيما بعد أن يقوموا بتدوين ذلك كله (المتن والشرح) في أوراقهم؛ أمَّا النصوص القديمة، في نسختها الأصلية، فمضطربةٌ ومتداخلةٌ وقد تمت مراجعتها وضبطها بمقابلة نص النسخة المحقَّقة، ومن ثم وردت أبوابها وفصولها على النحو الذي نلاحظه فيما يلي من المتن].

٢

جاء في كتاب «كانغ كاو» ... لوائح كانغ الرسمية (أحد فصول «كتاب التاريخ» وهو من كُتب التراث الصيني) ما نصه: ««لقد استطاع الإمبراطور «ياو»» أن يتحلى بأخلاقٍ عظيمةٍ». وورد أيضًا في كتاب «طاي جيا» (أحد فصول كتاب «التاريخ القديم») ما مضمونه:

««إنَّ جلالة الإمبراطور» راح يتأمل الوصايا السماوية المجيدة.» وكذلك يُذكَر عن كتاب «ديد يان» (أحد فصول كتاب «التاريخ القديم» ومعناه، تقريبًا، «الأوامر الإمبراطورية») قوله: ««لقد استطاع جلالته» أن يترقَّى بأخلاقه الفاضلة إلى مراتب القداسة السماوية.»

فكل تلك النصوص تُبرز مدى الحرص (لدى الأباطرة القدماء) على التخلُّق بأشرف وأسمى الأخلاق.

[ذلك هو الباب الأول من «المرويَّات» ويتناول بالشرح موضوع «الأخلاق الفاضلة والسجايا الزاهرة»].

٣

مما يُؤْثر عن جلالة الملك «طانغ» [مؤسس أسرة «شانغ» الملكية (القرن ١٧–١١ق.م.)] أنَّه كان يحتفظ على جدار الحمَّام الداخلي الخاص به عبارة مأثورة، نصها: «إذا استطعت يومًا أن تفتح صحفة جديدة في حياتك، فاحرص على أن تجعل ذلك دأبك وعادتك اليومية، فتتجدد باستمرار، وإلى ما لا نهاية!»

وجاء في كتاب «كانغ كاو» ما نصه: «حُثَّ الناس على تجديد نمط حياتهم، وبصورة يومية ... إن استطعت.» وقد ورد في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«كان في قديم الزمان
أسرة تتقلَّد الملك والصولجان،
أسرة جو الإمبراطورية،
هلكت في الغابرين ... ولكن،
مواريثها الأخلاقية ... ما زالت
صالحة لزماننا ... ما زالت
تتجدد في كل أوان.»

ومن ثم، فينبغي على العاقل ألَّا يسهو عن السعي إلى تحصيل أرفع وأسمى الشمائل. [ذلك هو الباب الثاني من «المرويَّات»، ويتناول بالشرح موضوع «التجدُّد»].

٤

جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«في بلادٍ طيبة الأرض،
وممالك مترامية الأطراف
أميالًا ... ممتدة،
طاب للناس السكنى،
واستقرَّ العيش، ودامت الإقامة.»
وورد في الكتاب نفسه، ما نصه:
«الطيور المغرِدة،

طيور الجبل البرِّية ... الشاردة،
تحوم ... وتدور،
وتقيم على قمم الجبال أوكارها؛
حيث يئوب الطيران،
وترجع الأسراب الهائمة في آخر المسعى.»

وقد قال كونفوشيوس (عندما طالع تلك الأبيات): «أما وقد عرفت الطيور محطَّ ترحالها، فهلَّا تعلَّم الإنسان من الطير «كيف يستقر به السَّعي، وتطيب له الإقامة»!»

ومما يُؤْثر عن كتاب «الشِّعر القديم» هذه الأبيات التي مطلعها:

«ما أكرمك وأحلمك أيُّها الملك الفاضل «أون»،
قد سطع في تاجك ساطع الخلق الأنوار،
واتبعتَ سيرة آبائك بالحكمة،
وأقمتَ في المقام الأسمى،
وإليه رجعتَ،
وتدبَّرتَ فعالك،
فكنتَ في مقام الملك عادلًا،
وفي واجب العمل شريفًا،
وفي منزلة الوالد رحيمًا،
وعلى شاكلة الولد بارًّا وفيًّا،
وفي رفعة الحاكم ثقةً أناختْ لك أعناق رعاياك.»

وفي كتاب «الشِّعر القديم» أيضًا نقرأ ما نصه:

«ما أجمل أن تُطالع
منظر أنهار جارية،
وحدائق من أشجار البامبو.
ما أجمل أن ترى وجه إنسانٍ فاضل،
زانه العلم والخلق العظيم،
استقامتْ صفاته بيد التهذيب،

وتألقتْ سجاياه كجوهر كريم،
ذهبتْ عنه الشوائب،
وعظمتْ هيبته،
وتفرَّدتْ خصاله،
حتى خلد ذكره بين الذاكرين.»

ولنتأمل ذلك المعنى جيدًا؛ فعبارة «زانه العلم والخلق العظيم» تعني الجِد والمثابرة على التعلُّم؛ أمَّا مقولة «تألقت سجاياه كجوهر كريم، ذهبت عنه الشوائب» فمعناها التخلُّق بالفضائل، وكذلك كلمة «عظمت مهابته» فهي تعني التزام الدقة والحذر واتِّقاء ما تُذل به العزة، وما يُقتحم به الوقار. وكذلك أيضًا، فإنَّ عبارة «تفرَّدت خصاله» فإنَّما تُشير إلى ما تترقى به الذات في مراتب الشرف والوجاهة، فأمَّا الموضع الذي يُقال فيه «خلد ذكره بين الذاكرين»، فالمراد به أنَّ الفاضل الحكيم، لَمَّا اتسم بوافر الاستقامة وكريم الخُلق، فقد بلغ درجةً شريفةً ومنزلةً رفيعةً اختُصَّ بها من دون الآخرين، مما أبقى سيرته وخلَّد مجده بين الناس جميعًا. ومما ورد في كتاب «الشِّعر القديم» أيضًا، ما نصه:

«ما أعظم سيرة الملوك السابقين،
وما أخلد ذكراهم!»

ذلك أنَّ السابقين من الأباطرة كانوا يعظِّمون شأن الحكماء ويجالسونهم ويتقرَّبون إليهم، وكانوا أيضًا يعملون لما فيه مصلحة الناس، ويفرحون لما ينال الناس من نفع، ويشقَون لما ينزل بهم من بلاء؛ فلهذا خلدت سيرتهم وبقيت ذكراهم الدهر الداهر.

[ذلك هو الباب الثالث من المرويَّات ويتناول بالشرح «الوقوف عند حد الخير الأعلى»].

٥

قال كونفوشيوس: «أستطيع القول بأنِّي على قدْرٍ كبيرٍ من العلم، فيما يتصل بالنظر في الدعاوي القانونية والبت فيها جميعًا، ومع ذلك، فإنِّي أُفضِّل ألَّا يسعى الناس إلى التقاضي.» وذلك «في وجهة نظرٍ ما»؛ لئلا يتلاعب شهود الزور بالحقيقة، ولكي يقع الخوف في أفئدة المزورين والمنافقين، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه بزخرف القول وزائف البرهان؛ فذلك هو سبيل استقصاء أسس الحقيقة، وشواهد اليقين.

[ذلك هو الباب الرابع من المرويَّات، ويتناول بالشرح مسألة أصول الأشياء في البدء والمنتهى].

٦

ذلك هو طريق معرفة الأسس الأولى، وغاية المعرفة وتمامها.

[ذلك هو الباب الخامس من المرويَّات، ويتناول بالشرح مسألة استقصاء ظواهر الطبيعة لاكتساب المعرفة، والحق أنَّ النص الأصلي قد ضاع ولم يُعثر له على أثرٍ حتى الآن، وإنَّما جئتُ هنا بما يتناقله الدارسون؛ كي أسد الفجوة وأرأب صدع الكلمات، وإليك بيان ذلك: «المعرفة التامة تأتي من استقصاء طبائع الأشياء، ولكي نحصل على معرفة صحيحة فلا بد من إقامة الصلة مع الأشياء كما هي قائمةٌ في الطبيعة والتعرف على أحوالها، وعقل الإنسان، عمومًا، يتميز بدرجة عالية من الانتباه والملاحظة؛ ويتحلَّى، على نحو متساوٍ بين الجميع، بتلك المقدرة الفذة. ثم إنَّ كل الأشياء التي تقع في نطاق ملاحظتنا تحت السماء (في الدنيا) لها وجودها، وحدود علمها الطبيعي؛ ولأنَّنا لم نحِط — بعد — علمًا بذلك الوجود وحدوده التامة، فما زالت معرفتنا به غير مكتملةٍ، ومن هنا، فلا بد أن يكون الدرس الأول في «المعرفة الكبرى» توجيه الدارسين إلى استقصاء جوانب الوجود الطبيعي وعلومه، على أساس ما حصَّلوا من معرفة عند تفاعلهم بالأشياء التي تقع في محيط تجاربهم ودراستهم؛ بهدف الوصول إلى الغاية القصوى للمعرفة، والمثابرة على ذلك السلوك، لا بد، ستصل بهم يومًا إلى الوعي بحقائق الأشياء، ظاهرها وباطنها، قريبها وبعيدها، سطحها وأعماقها؛ وتصبح المعرفة — في الإجمال والتطبيق — إدراكًا نافذًا ووعيًا ثاقبًا، على أساس من الفهم التام. فذلك هو منتهى العلم بالأشياء، وأعلى مرتقًى تبلغ إليه المعرفة.»]

٧

إنَّ المعنى فيما يُقال له «استصفاء الأفكار» (خلوص النوايا!) إنَّما يذهب إلى أنَّه ليس ينبغي للمرء أن يخدع نفسه، وأن يدرأ عن نفسه الغش مثلما يتجنَّب رائحةً كريهةً، أو مثلما يبغض وجه امرأةٍ دميمةٍ (كذا)، فذلك مما يجلب للنفس الهدوء والسكينة، فلا بد للعاقل أن يلزم الحرص «فليراقب نفسه ويُحْصِ أفعاله» حتى وهو بعيد عن أعين الرقباء.

ولئن كان الوضيع من الناس يغدو ويروح هائمًا على وجهه بلا طائل؛ يُفْسِد حيث يريد الإصلاح، ويهدم حيث ينوي البناء، يهرب من وجه الكريم؛ حيث يخشى أن تنكشف أستاره أو يُذاع سرُّه، يتجنب النظرات الفاحصة خشية أن يُنزع عنه زيف مظهره وتُكشف حقائق باطنه («حرفيًّا» ... يُكشف ضميره الخفي، ومكامن باطنه الخمسة: القلب – الكبد – الرئة – الطحال – الكليتان)، فما جدوى التخفي، وما فائدة انتحال الأقنعة؟! فلذلك، قيل إنَّ النوايا الخالصة ترتسم على الوجوه، وتبدو في صفاء الملامح، فليراقب المرء نفسه، حتى وهو جالسٌ وحده، وليُحْصِ بنفسه، أفعاله. وقد قال سنغ تسي (من أتباع كونفوشيوس): «هل من المعقول أن يجلس المرء هادئًا، رابط الجأش، بينما تحاصره — من الجوانب كلها — عيون تتفحَّص، وأصابع تُشير، ونظرات مصوَّبة تتَّهم وتتساءل؟»

إنَّ الأغنياء يقدرون أن يزينوا بيوتهم، والحكماء يستطيعون أن يهذبوا أخلاقهم، وإنَّ صدر الحليم ليتسع ملء الوجود، وعلى مُحيَّاه سيماء الهدوء، وفوق الجبين رضًا وسماحة، فمن ثَم كان الفاضل قادرًا على استبطان نوايا الإخلاص والنزاهة.

[ذلك هو الباب السادس من المرويَّات، ويتناول بالشرح مسألة «إخلاص النوايا»].

٨

تُرى ماذا يُقصد، بالضبط، من التأكيد على ضرورة البدء بتهذيب النفس، لَمن أراد تقويم الأخلاق؟ «في الرد على هذا، نقول»: إنَّ نفسًا امتلأت حقدًا وكراهية لن تنصاع للرشاد، وإنَّ قلبًا واجفًا لن يستجيب لداعي الحكمة، وباطنًا زائغًا بالأهواء والشهوات لن يرعوي، ومكامن مترعة بالمرارة والشكوى لن تنصت للمثل العليا (العالية، بالأحرى).

عندما تتحول النفس عمَّا ينبغي لها أن تتوطَّن عليه من طباع وتنصاع له من مبدأ قويم، يضيع من العين البصر، ومن الأذن السمع، وتصير النكهة بغير مذاق، والمذاق بغير طعم؛ فلذلك قيل إنَّ تقويم الأخلاق يستلزم، أولًا، ضبط النفس.

[ذلك هو الباب السابع من المرويَّات، ويتناول مسألة «ضبط النفس والاستقامة»].

٩

ما الحكمة في أن يكون الشرط الأساسي في استقرار الشئون العائلية هو تهذيب النفس وتقويم الخلق؟ «والجواب، يتمثَّل في:» إنَّ الحب والمودَّة بين الناس بعضهم وبعض، لونٌ

من الانحياز؛ فالناس ينحازون لَمَن يحبونهم، وينحازون أيضًا ضد مَن يمقتون، وضد مَن يوقع في نفوسهم الرعب، أو، مَن يُسيء إليهم، ويتكبَّر عليهم، وهكذا، فمن النادر جدًّا أن تصادف مَن يمتلئ قلبه حبًّا للناس دون أن يغفل عن عيوبهم، وقلَّما تجد مَن يبغض إنسانًا، لكنه — برغم الكراهية — مستعد أن يعترف بأفضاله ومناقبه الحسنة، ومما يُؤْثر في هذا المعنى من الأمثال حكمة قديمة تقول: «ليس هناك مَن يرى الشر في أطفاله، وليس هناك مَن يقنع بالخير في محصوله.» فمن ثَم قيل إنَّ تهذيب النفس وتقويم الخلق أساس استقرار الشئون العائلية.

[ذلك هو الباب الثامن من المرويَّات، ويتناول بالشرح مسألة «إصلاح الأحوال الأُسرية»].

١٠

إنَّ إصلاح شئون الممالك يبدأ بالعمل على استقرار أحوال الأُسرة البسيطة؛ ذلك أنَّه لا يُعقل أن يعجز المرء عن القيام بأمر أفراد عائلته وعشيرته الأقربين، بينما يزعم المقدرة على ضبط شئون بلده الكبير، ومن ثم فالعاقل مَن أفلح في استقراء طريقة مثمرة في إدارة شئون الممالك، دون أن يجاوز حدود بيت عائلته الصغير؛ بمعنى أن يتخذ من البر بالوالدين مفهومًا للإقرار بالعرفان نحو جلالة الإمبراطور، ويتخذ من «الاحترام الواجب للأكبر سنًّا» مبدأً مفيدًا لإقرار العلاقات بين الرؤساء والمرءوسين على أساس من الاحترام المتبادل، ويسير على نهج التقليد العائلي الوارد في «الرحمة بالضعيف وصغير السن»؛ بحيث يطبِّقه في أصول المعاملات مع العامة والدهماء وسائر الناس.

وبخصوص هذه المسألة الأخيرة فقد جاء في «لوائح كانغ الرسمية» ما نصه: «ينبغي اتخاذ كل التدابير للعمل على حماية الضعفاء، وبالقدر نفسه الذي تسهر فيه الأم الرءوم على رعاية وليدها؛ فهي، حتى وإن لم تستطع تلبية كل احتياجاته الحيوية، إلَّا أنَّها تبذل أقصى الجهد في العمل على توفير أكبر قدر مما يلزمه، ويؤخذ في الاعتبار، هنا، أنَّ الفتاة لا تجيد مهام الأمومة ورعاية الطفولة، بجديَّة، قبل الزوج.

إنَّ تقليدًا عائليًّا راسخًا في العطف والرحمة يقود أمةً نحو أنبل معاني الإنسانية. وكذلك فإنَّ أخلاقًا عائليةً تقوم على الإيثار يمكن أن تستنهض، في الأمة، روح البذل والإيثار، في حين أنَّ البطش الذي يتملَّك قلب طاغية واحد، يقود وطنًا كاملًا إلى الخراب

والفوضى والدمار؛ فتلك طبيعة الأمور طبقًا لما تحظى به السلطة الغاشمة من تأثير يتغلغل في الأبنية الخاضعة تحت سلطانها كلها. وقد قيل في المَثل السائر: «إنَّ كلمةً فاسدةً يمكن أن تنتهك أقدس المعاني.» لكن رجلًا واحدًا — بالمقابل — يستطيع أن يؤسس أثبت دعائم الأوطان.

عندما سار المِلكان العظيمان: «ياو» و«شون» في الناس سيرةً حسنةً، قائمةً على الرحمة والإنسانية … (وهما زعيمان أسطوريان، حكما القبائل الصينية القديمة، يقدِّسهما الصينيون) فقد حذا الناس حذوهما. ولمَّا تجبَّر الحاكمان الغاشمان: «جيه» و«تشو» [«جيه» هو آخر ملوك أسرة «شيا»، والثاني آخر حكام أسرة شانغ، يرمزان للظلم والطغيان]، فقد سلكت الرعية على آثارهما في العداوة والبغضاء، وليس من المعقول، أو حتى من الممكن، أن تأمر شعبًا باتباع طريق الرحمة، بينما تسلك به كل دروب البطش والعدوان؛ لأنَّ أحدًا لن ينصاع لمثل هذا التوجيه.

وهكذا، فالحكيم الفاضل، مَن يُلزم نفسه «بالمبادئ التي يدعو إليها» قبل أن يطالب الآخرين بالعمل بها، ويمنع نفسه عمَّا يأمر الناس بأن ينتهوا عنه، فأمَّا إذا دعا الناس إلى التسامح وأسرَّ في نفسه الترصد والانتقام، فذلك مما لم يسمع الناس بمثله أبدًا. ولهذا، فقد قيل إنَّ إصلاح شأن الممالك يبدأ بالعمل على استِتْباب أحوال الأُسر والعشائر. وقد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«أوراق شجر الخوخ الوارفة الغضَّة،
الأوراق الملتفة كفتاةٍ حلوةٍ
في حفل عرسٍ،
والعائلة الملتمَّة،
والضحكات وأسارير الوجه المتهلل،
والسعادة الغامرة،
ودروب طويلة ممتدة …»

ومن هذا المعنى نستلهم فكرة أنَّ الأُسرة السعيدة التي تستقبل أيامها بالأمل والسعادة، هي الأساس في إرساء قواعد الاستقرار للممالك، فليعمل العاقل على أن يجلب السعادة لعائلته وعشيرته قبل أن يفعل ذلك لوطنه الكبير.

وقد ورد في كتاب «الشِّعر القديم» أيضًا، ما نصه:

«ما أجمل أن يعمل المرء
على إسعاد أخيه الأكبر؛
بل ما أروع أن يتهلَّل بالفرح
وجهُ الأخ الأصغر.»

فليعمل الحكيم الفاضل على إشاعة البهجة والسرور في نفوس إخوته، فذلك هو أول الطريق إلى استجلاب الدعة والرضا إلى نفوس أهل الممالك.

وقيل في كتاب «الشِّعر القديم»:

«تهلَّل الوجه،
وتألقت القسمات،
كأنَّ الوجه مملكةٌ عامرةٌ بالحسن،
أو كأنَّ المملكة وجهٌ بديعُ اللَّفتات.»

«والمعنى هنا:» إنَّ العاقل، وأيًّا كان دوره، كأب أو ابن، أو أخ أكبر أو أصغر، فهو المثال الذي يحذو الناس حذوه، فينبغي أن يكون خير نموذجٍ ومثالٍ للاقتداء، وهذا هو المغزى فيما يقال من أنَّ ضبط شئون الممالك يبدأ بإرساء دعائم الاستقرار الأُسري والعشائري.

[ذلك هو الباب العاشر من المرويَّات، ويتناول بالشرح مسألة «تدبير شئون الممالك»، «وتهذيب السلوك العائلي»].»

١١

إنَّ الحكم الرشيد في الدويلات الصغيرة هو الخطوة الأولى نحو ضبط أحوال الإمبراطورية العُظمى، التي تحت السماء؛ ذلك أنَّه عندما يُبدي الحاكم قدرًا كبيرًا من الاحترام للكهول والمتقدمين في العمر، فسوف تكون شيمة أهل المملكة البر بالآباء والشيوخ، وعندما يسلك الحاكم بالاحترام الواجب نحو الأكبر سنًّا، فسوف تشيع في المملكة عادة الاحترام اللائق بالإخوة والأقارب كبار السن، فإذا صدر عن جلالته ما ينُم عن العطف على ذوي الحاجة

والمساكين، فسوف يقتدي به أهل مملكته جميعًا بغير استثناء؛ فلذلك يلتزم الحاكم بمبدأ نموذجي ينزل على أحكامه، ويؤسس به منهاجًا يقتدي به الجميع.

ليس لعاقلٍ أن يُعامل مرءوسيه بما يكره أن يُعامله به رؤساؤه، وليس ينبغي له كذلك، أن يُعامل رؤساءه بما يكره أن يلقاه ممن هم دونَه، ولا أن يتصرَّف نحو مَن يقفون إزاءه بما يبغض ممن يجلسون قبالته، ولا أن يسلك مع الجالسين أمامه بأسوأ مما يلقى من الجالسين وراءه، ولا أن يضع على الجالس عن شماله تبعة ما يبغضه في الجالس عن يمينه، ثم لا ينبغي له أن يظلم الجالس عن يمينه بوزر ما يلقى من المقيم عن يساره. ما يُقال له «المعيار» الأسمى، الذي يضبط به العاقل سلوكه ويلتزم بمنهاجه، كما يلزم المثال نموذجًا أصليًّا، أو كما تنضبط الزوايا والأركان بالمساطر وقصبات المقياس.

وقد جاء في كتاب «الشِّعر القديم» ما نصه:

«ما أعظم الحكيم الفاضل،
الغيور على وطنه
غيرةَ أمٍّ وأب على بيتٍ آمنٍ …»

ولا يُعَد الحكيم جديرًا بمثل هذه المكانة (أن يكون بمثابة الأب الحامي والحصن الحصين لشعبه ووطنه) إلَّا إذا أحب ما رآه الناس طيبًا وأبغض ما أبغضه الناس، وقيل أيضًا في كتاب «الشِّعر القديم»:

«ترتفع قمم جبال الجنوب بكل شموخٍ،
تلال وعرة وسفوح لا يطولها طائل،
لا يكاد يدانيها شموخًا
إلَّا رجل واحد،
هو المعلِّم الأعظم «إيشي»،
الذي تعلقت به الأنظار
كقمة جبلٍ سامقة لا تدركها الأبصار.»

ليس ينبغي لحاكمٍ أن يغفل المبدأ الذي يُقرر بأنَّ الانحياز للهَوى الشخصي، والنفع الذاتي يجلب عليه سخط الناس؛ مما قد يؤدي إلى خلعه عن عرش الحكم.

ومن المأثور في كتاب «الشِّعر القديم» قول الشاعر:

«كانت أسرة «يين» الحاكمة
مثالًا في الأخلاق،
ونموذجًا في آداب المعاملات،
على النحو الذي قرَّرته إرادة السماء،
فلما سقطت من عين الشعب
ضاعت هيبتُها،
بعد إذ أضاعت عهدَ السماء.»

والمعنى، هنا، يشير بوضوح إلى أنَّ استقرار سلطة الحكم مرتبط بالحصول على ثقة الناس، فمَن حاز ثقتهم استقرت له السيادة، وإلَّا فقد وقع في حمأة الهوان.

ومن ثَم، فلا بد للعاقل من أن ينتبه إلى ضرورة الالتزام بقواعد الأخلاق، فالخلق يخضع له رقاب الناس، وإذا خضعت له الرقاب امتد سلطانه فوق الممالك، وإذا صارت الممالك في قبضته انعقد له لواء العزة والجاه والمال، فإذا فُتحت له خزائن المال لم تعجزه مطالب السؤدد والشرف؛ بل أُتيحت له الموارد وتيسَّرت النفقات، بالغة ما بلغت من التكاليف؛ فالأخلاق هي المبدأ والأساس، والمال هو الثمر وحاصل الإنتاج، فإذا ما تبدل التقدير، وانقلب المعيار، وصار الأصل فرعًا والفرع النابت هو الجذر وأصل الأشياء، انعقد فوق الجميع سحابات الصراع وتلبَّدت الأجواء، وحلَّ النهب والسرقة محل أصول المعاملات. وبالتالي، فكلَّما زاد تراكم الثروة والمال في يد الحاكم تفرَّق الناس أيدي سبا (كلَّما اجتمع المال لدى الحاكم، تفرَّق الناس عنه!)، وكلما تفرق المال في يد الناس (نالوا نصيبهم من الثروة ورغد العيش) اجتمعوا تحت راية الحاكم وامتثلوا لإرادته.

وهكذا، فالقرار الرسمي الصادر عن حكم يخالف الحق والعدل، ينتج المردود «الثأر» [حرفيًّا] الشعبي المنافي للنظام، والمتجاوز للقواعد والمخالف للقوانين، كما أنَّ الثروة التي تراكمت بغير حق، تتبدَّد بأساليب مخالفة لأبسط قواعد المنطق والعدل (الثروة التي تحققت على نحو غير مشروع، فإنَّها، أيضًا، وبأساليب غير شريفة، تتبدَّد سريعًا!).

وقد ورد في «لوائح كانغ الرسمية» ما نصه:

«إنَّ تعاليم السماء ليست قدَرًا مقدورًا، ولا سيفًا مسلطًا على الرقاب، طوال الزمان.»

والمعنى، هنا، يُشير إلى أنَّ الأخلاق الفاضلة تقوم مقام تعاليم السماء، فمَن انتهك الأخلاق، فقد أضاع ركنًا قدسيًّا من أركان التعاليم، ومما جاء في «كتاب تشو» — وهو عبارة عن مجموعة مدوناتٍ تاريخيةٍ — بهذا المعنى: «لم تكن دولة تشو تملك ثروات ذات قيمة، إلَّا أنَّها كانت تعد الخلق الفاضل أثمن ثروة في الدنيا بأسرها.» وقد قال العمُّ «فان» ذات مرةٍ … (العم «فان» هو عمُّ أحد الوزراء الهاربين بسبب وشاية، وكان الملك قد صفح عن ذلك الوزير، وطلب إليه العودة، فاستشار عمَّه، فقال له): «ليس للهارب من وطنه أيَّة قيمةٍ تُذكر، سوى ما يحمل في قلبه من ذكرى وطن، وشيء من الولاء والعرفان.»

وقد جاء في تصريحات أحد مسئولي تشين [وهو المسئول الرسمي الذي أصدر تصريحات يُحذِّر فيها وزراء تشين من مغبَّة السقوط أمام العدو]: «ولتكونوا على قلب رجل واحد يتحلَّى بالإخلاص الذي لا مزيد عليه، فكونوا كرجل زكيِّ الفؤاد، واسع الصدر، ذي حلمٍ وأناة، نقي الضمير، لا يضيق بما يحوز الآخرون من خصال ومزايا؛ بل يتباهى بسجايا كأنَّه يتباهى بما حاز هو نفسه من أصيل معدن الصفات الكريمة، ولا ينطق لسانه، في ذلك، عن مجرد شعور نبيل؛ بل إنَّه ليَصدُر عن إيمان قوي راسخ في أعماقه؛ وإنِّي لعَلى ثقةٍ بأنَّ رجل الدولة الحائز هذه السمات، هو الجدير حقًّا بأن نترك أبناءنا وأحفادنا وديعةً بين يديه، وكلنا ثقة بما سيبذله في السهر على حمايتهم والعمل على كل ما فيه الخير والنفع العميم.»

أمَّا ذلك الطراز من الرجال الذين يضيقون بذوي الكفاءات والمواهب، فإنَّهم يضعون العراقيل في وجه الذين حازوا منتهى الخلق والاقتدار، ويستبعد من فرص الترقِّي كل ذي صاحب جدارةٍ واستحقاقٍ؛ فمثل ذلك الصنف من المسئولين، لا يتسم بأي قدرٍ من الكياسة والحلم وحسن التقدير، ومن ثم فإنَّنا نجازف كثيرًا بأن نضع مستقبل أبنائنا وأحفادنا تحت رعايته.

ليس سوى الإنسان العطوف الرحيم، هو وحده القادر على إقصاء الفساد، وإلقائه خارج البلاد؛ حيث القبائل الهمجية وأطراف الممالك النائية، بعيدًا كل البعد عن الحكماء داخل الوطن «ولن يختلَّ التوازن في الطبائع البشرية؛ لأنَّ» أولئك الطيبين ذوي القلوب الرحيمة يستطيعون الحب بالقدر نفسه الذي يستطيعون به التعبير عن كراهيتهم واستيائهم.

أن تعثر على رجل فاضل، وتعجز عن أن تدبِّر له وظيفة لائقة، أو أن تُبطئ في تدبير مثل تلك الفرصة له، فذلك ما يُسمى الاستخفاف والتهافت «ومن الناحية المقابلة ف» أن

تجد فاسدًا سقيم الخلق وتقعد عن إقصائه، أو أن تقصيه عن موقعه دون أن تُلقي به خارج البلاد؛ فذلك هو التهاون والاستخذاء بعينه.

أن تحب ما يبغض الناس، أو أن تبغض ما أحبَّه الناس؛ فذلك مما يتنافى مع طبيعة البشر، ولا ينجم عنه إلَّا الشر الوبيل.

وهكذا، فلن يتيسَّر للعاقل أن يمضي قاصدًا الطريق القويم إلَّا متزودًا بالثقة والحق والإخلاص، ثم إنَّه لن يضل السبيل إلَّا إذا بلغ في التهاون غاية المدى، وجاوز في الاستخذاء حد الشَّطَط.

إنَّ الثراء يقوم على قاعدة أساسية (مذهبية) مفادها أن يزيد عدد المنتجين على المستهلكين، وأن يبذل الساعون إلى الغنى غاية الجد والمثابرة في الاستثمار، بينما يجتهد المستهلكون في التوفير والادخار، فتتضاعف الموارد وتزيد الثروات وتتحقق الوفرة «الهائلة»؛ فيسعى ذوو الخلق الإنساني؛ فأمَّا الحائد عن السبيل، فهو يبذل نفسه للمال، وينفق حياته للتزوُّد منه.

اعلم أنَّه من المستحيل أن يجتمع حاكمٌ رحيمٌ مع رعيةٍ ظالمةٍ غاشمةٍ، ولا اجتمعت رعية على مبدأ الحق والعدل مع سياساتٍ حاكمةٍ متهافتةٍ مستهترةٍ [حرفيًّا: بغير نظامٍ وانضباطٍ تامٍّ، على طول الخط]. وكذلك لم يحدث أبدًا أن تراكمت الموارد والثروات في خزائن الممالك، دون أن يكون للملوك حق التصرف فيها. ومما يُؤْثر عن أحد كبار موظفي البلاط الملكي في دولة «لو» [الوزير «منغ شيان»] قوله: «لا ينبغي لسائس الخيل أن يقوم بعمل المكلَّف بتربية الدواجن وإطعام الخنازير، ولا يصح للموظف المسئول عن إجراء الطقوس والمراسم أن يرعى الماشية والأغنام، وكذلك فليس لمن حاز مئات العربات والجياد المطهَّمة أن يرهق كاهل البسطاء والمعدومين بأثقال الضرائب الباهظة، وإلَّا فإنَّ يدًا تسطو على الخزائن الحكومية ستكون أرحم وأعدل من اليد التي تسرق مال الفقراء باسم تحصيل الضرائب والمكوس، وذلك هو المستفاد من المَثل السائر الذي يقول بأنَّه: ليس للبلد الطامح إلى المجد أن يرى في الثروة المالية رصيد مصلحته ونفعه العام؛ بل لا بد أن يكون العدل والاستقامة هما أسباب ازدهاره وحاصل نفعه، وعندما يجعل حاكم البلد — الطامح إلى المجد — من الثروة المالية، هدفه ومنتهى غايته، فلا بد أن يكون الباعث على ذلك التصور أفكارًا وضيعة المنبت، دنيئة المصدر، فإذا ما اعتقد الحاكم في صلاح مثل تلك التصورات السوقية المبتذلة، صار الانحطاط هو الحاكم بأمره، وحينئذٍ، تنهمر من السماء المصائب، ولا يُرجى للأحوال صلاحٌ، وإن جيء بالحكماء صفًّا، وبالفضلاء

مواكبَ متراصَّةً؛ فذلك هو ما يُشار إليه من أنَّ مصلحة الأمة لا تتحقق، أساسًا، بالمال،[1] وإنَّما تقوم قواعد المجد على الحق والإنسانية.»

[ذلك هو الباب العاشر من المرويَّات، وهو يتناول بالشرح مسألة «حكم الممالك والبلدان»] ومجموع المرويَّات عشرة أبواب، تدور الأربعة الأولى منها حول الفكرة الأساسية لرسالة المعرفة الكبرى؛ بينما تتناول الستة الباقية منها تفاصيل التطبيقات. ويتطرَّق الباب الخامس إلى شرح النقاط الجوهرية في مسألة «الخير الأسمى»؛ بينما يتعلق الباب السادس بتبيان أهمية «تقويم الخُلق» بوصفه الأساس الجذري الذي تقوم عليه فكرة الكتاب كلِّه. ونلفت نظر القارئ المبتدئ [هكذا] والمطالع العادي (غير المتصفِّح المدقِّق) إلى ضرورة تأمُّل الأفكار ومراجعتها بعمقٍ؛ إذ إنَّ ظاهر النص ببساطته الواضحة يغري بالتغافل.

[1] فلنتذكر أنَّ التقاليد الصينية القديمة لم تكن تُعظِّم من شأن المال، وكانت التجارة تأتي في ذيل قائمة المهن المحترمة، ولنُطالع النص في ظل الظروف التي رافقت إنتاجه، في القرن الرابع — تقريبًا — قبل الميلاد. (المترجم)

الكتاب الرابع

الاعتدال

«رسالة مذهب الوسطية»

المقدمة

تتفق مراجع التراث الصيني على أنَّ كتاب «الاعتدال» هو أحد أبواب «كتاب الطقوس»، ويرى بعض المؤرخين القدماء (منهم «صماتشيان أبو التاريخ الصيني القديم»)، وكثير من الدارسين الكلاسيكيين (الكونفوشيين، يعني) من جيل الروَّاد؛ مثل «جوشي»، «جنغ شيوان»؛ أنَّ الكتاب من وضْعِ زيس (٤٨٣–٤٠٢ق.م.) ولقبه الأصلي «كونجي»، وهو حفيد كونفوشيوس وتلميذه، وأحد أشهر أعلام المذهب الكلاسيكي من بعده؛ بل من أشهر الفلاسفة الذين ظهروا في الفترة التاريخية المعروفة باسم «عصر الدول المتحاربة» (٤٧٥–٢٢١ق.م.).

وكثيرًا ما تردَّد في المدوَّنات التاريخية أنَّ الفيلسوف الكونفوشي الكبير «منشيوس» قد تلقَّى العلم وأصول الفلسفة على يد أحد تلاميذ «زيس»، وأنَّه بآرائه الشهيرة في مؤلفاته لم يكن يضيف جديدًا؛ بل كان يطور أفكار زيس بالأساس، وينقحها، حتى أُطلق على مدرسته اسم «مذهب منشيوس وزيس».

وقد تم تجميع أفكار وأقوال زيس في ثلاثة وعشرين فصلًا، بين دفتي كتابٍ بعنوان «أقوال زيس»، إلَّا أنَّه، للأسف الشديد، ضاع من جملة ما ضاع من كُتب التراث، أمَّا النسخة الحالية من كتاب الاعتدال، فهي واحدةٌ من بين النسخ التي تم تحقيقها وضبطها على يد الكلاسيكيين في زمن أسرة تشين، وبعد توحيد الصين بزمن غير طويل (٢٢١–٢٠٧ق.م.)؛ حيث ضُبطت وجُمعت أجزاؤها لتصدر في كتابٍ مستقلٍّ.

والكتاب — كما هو واضحٌ من التسمية — يتناول أفكار التوسط والاعتدال حسبما وردت في إطار تصورات الفلسفة الكونفوشية (قل: الكلاسيكية الصينية) التي رأت أنَّ الحالة النفسية والذهنية التي يكون عليها المرء دون مغالاةٍ في الفرح أو الحزن وبغير شططٍ في الغضب أو الرضا؛ فتلك هي الحالة الوسطى بين حدودٍ متطرفةٍ؛ أمَّا الاعتدال

فهو المحاولة التي يبذلها المرء للتوازن بين أقصى أطراف التقديرات؛ بحيث يبقى في حال من التوافق مع الدورة الدائمة لمسار التطور دون تبدُّل أو زيادة أو نقصان، ويُشير الكتاب إلى أنَّ الوسطية، أو الاعتدال هو المعيار والمبدأ الذي ينبغي على المرء أن يلزم نفسه بالسير على منهاجه.

كانت الظروف التي أحاطت بصياغة أفكار ذلك السجل القديم تشهد ظهور طبقةٍ جديدةٍ من مُلَّاك الأراضي؛ وربما كانت الفرصة وقتئذٍ تساعد على رواج تصوُّراتٍ مناهضةٍ للتطرف أو التأرجح بين أقصى حدود التناقضات، ولكل زمانٍ تناقضاته التي تتجاذب وتتصارع ثم لا تلبث أن تنحل لصالح دورةٍ جديدةٍ من التناقضات، وهكذا دواليك!

وقد تطرَّق الكتاب إلى ملاحظة تراكم التناقض، ويطرح تصوراته لحلها، وذلك هو الجانب الذي يستحق الإشادة، برغم أنَّه بالغَ في تقدير الأدوار التي تقوم بها عمليات حل تناقضات، دون الاعتداد الكافي بعملية الصراع الحادث بينها، وهو ما يُسطِّح الجانب المعرفي، ويُبرز في الجانب الاجتماعي ضعف ورجعية طبقة ملَّاك الأراضي البازغة حديثًا في ذلك الزمان.

وتعرض فقرات مطولة من الكتاب قدرًا كبيرًا من التناقضات الاجتماعية القديمة التي عمل الحكام على حلها، والتجارب السياسية التي استهدفت مساندة العلاقات الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى ثمار من الحكمة ذات شأن في تهذيب السلوك والأخلاقيات، مما يكسبه صياغة تساعد على انتشاره وسط جمهورٍ عريضٍ من القرَّاء، وبالدرجة التي تجعله كتابًا مناسبًا للاطلاع حتى في العصر الحديث.

وفكرة الاعتدال ذات جذورٍ ضاربةٍ في ماضي الحضارة الصينية؛ حيث ارتبطت أنشطة الصيد في المجتمع البدائي بالرماح والسهام المستخدمة في القَنص، ومن ثم نشأت فكرة التصويب في المنتصف، عند الصيد بالسهم، وفي الصين القديمة ارتبطت دلالة «منتصف الشيء» بالاستقامة؛ فأوسط الأشياء غالبًا يقوم دليلًا على الخير؛ لأنَّ الإصابة تقع في منتصف الهدف، ومن هنا يتولَّد معنى الجزاء الطيب والصيد الثمين، والحق ... والخير ... والجمال أيضًا (دلالة المنتصف — في الوسطية — تُكتب في اللغة الصينية برسم مستطيل صغير ينصِّفه خط رأسي أطول قليلًا من ضلعيه المتوازيين!).

الطريف، أنَّ تناول المذهب الكلاسيكي للوسطية كان يثير أوجه شبه بالصيد والقنص، مما أبقى لدلالة اللفظ أجواء العصور البدائية. وعلى أيَّة حال، فالمهم هنا هو تلك الإشارة المؤكدة إلى ارتباط مفهوم «الوسطية» بالخلق والآداب والفضائل الكريمة.

ويعود الفضل إلى كونفوشيوس في الربط بين الوسطية والاعتدال؛ حيث استطاع تطوير مفهوم الوسطية على أساس من أفكار الاعتدال، مما شكَّل الفكرة الجامعة لمذهب «الوسط الاعتدالي».

«... ولنلاحظ أنَّ عطاء كونفوشيوس اقتصر على تأصيل مبدأ الاعتدال فقط، لكنه لم يخترعه من عدم، ولا كان كونفوشيوس مخترعًا أو مبدعًا لشيء مما يُعرف الآن بالكونفوشية، فليس هناك في الواقع شيء بهذا الاسم؛ بل مجرد مذهب كلاسيكي يسبق كونفوشيوس نفسه بزمان طويل جدًّا — كما أوضحنا في مقدمة كتاب «المعرفة الكبرى» — ولم يكن لذلك المعلم الأكبر دور سوى التأصيل والتطور، وإحياء التقاليد وإيقاظ الذاكرة القومية ... لا أكثر!».

قد تحول الاعتدال عبر جهد واهتمام المدرسة الكلاسيكية إلى فلسفة رسمية في أوائل عصر الدول المتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق.م.) إذ وضعت بين دفتي مدونة كلاسيكية اشتهرت باسم «كتاب المراسم»، لكنها لم تُثِر أدنى قدر من الاهتمام في ذلك الوقت؛ بل لم تكد تلقى القبول الواعد إلَّا في زمن أسرتي «سونغ» (٩٦٠–١٢٧٩م) و«مينغ» (١٣٦٨–١٤٦٦م)؛ حيث شهدت ازدهارًا بلغت به مراتب القداسة السماوية (الغريب أنَّه، وفي وقتٍ معاصرٍ لزمن ظهور كتاب الاعتدال في الصين ظهرت أيضًا فكرة الاعتدال في الفلسفة اليونانية، مما يُبرز تماثلًا في الظروف التي أنضجت مطلبًا إنسانيًّا عامًّا ينشد العدل والاستقامة)، لكن ... من المهم في هذا السياق التأكيد على الفارق الكبير بين مفهوم الاعتدال في كل من الحضارة الصينية والأوروبية؛ بل بين الفلسفة الصينية والغربية عمومًا!

فقد اقتصر اهتمام الفلسفة الصينية على الشأن الإنساني؛ إذ إنَّ مركز ثقلها الكبير هو المجتمع وليس الكون، فالفكر الصيني لم يتطرق أبدًا إلى موضوعات الطبيعة ولا حاول استكناه ما وراء الطبيعة، وإنَّما ركَّز اهتمامه على الإنسان «... والإنسان وحده!».

وجدير بالذكر، هنا، أنَّ الفلسفة الصينية في هذا المجال تختلف عن الفلسفة الإنسانية في الغرب الأوروبي؛ فالأولى عبارة عن ثقافة تقاليدية متوارثة، ولم تنجم عن ثورة فكرية مضادة للتقاليد، ولم يكن الإنسان، في نظر الفلسفة الصينية يعيش في عزلةٍ أبدًا، ولا كانت له حدود فردية تفصله عن الآخرين من حوله «... وهو ما تتجاهله الكثير المطالعات الغربية للثقافة الصينية!»؛ بل كان يُشار إليه وسط حشود وجماعات كبيرة تضغط بقوة على التمايز الفردي؛ قل: هو «الإنسان في المجتمع ذي الحشد الإنساني الهائل» فموضوع الفكر الصيني القديم، وبمنتهى الدقة، هو الإنسان داخل علاقة أو مجموعة علاقات،

وهدف الفلسفة هنا البحث عن النظام داخل العلاقات الممكنة بين الناس؛ وكثيرًا ما يتم تناول الفلسفة الصينية من منظور يقوم بتقسيمها إلى بنود أربعة؛ هي: نظرية الوجود – نظرية المعرفة – نظرية الوسائل – الجانب التاريخي الاجتماعي، وهو ترتيب يُسقط من حسابه الطابع الاجتماعي لها ويقلب البناء الفلسفي الصيني رأسًا على عقب، ليتحوَّل بكل تفرُّده وتاريخه إلى مجرد ظل باهت لكيان فلسفي غربي تبهت فيه الملامح وتلتبس السمات والمعاني!

ولئن كانت الفلسفة الغربية قد خرجت من عباءة الفيزياء وعلم الطبيعة لتناصر المنطق الشكلي، وتمجِّد الموضوعية والوضوح، فقد وُلدت الفلسفة الصينية على يد القضية الإنسانية، وتعلَّمت منذ نعومة أظفارها أسس المنطق الجدلي — قبل هيغل بزمانٍ — إذ دأبت على مراقبة الأحوال الاجتماعية ولاحظت ما يتصل بتطورها من تعاقب ودورات وتقلبات، لكنَّها أهملت ملاحظة وتحليل الجوانب المادية في الطبيعة، الأمر الذي وصم الفكر الصيني بكثير من عدم الوضوح وفقدان المنهجية والدقة «وهي نقاط تتفوق فيها الفلسفة الغربية».

وأهم فرق بين الفلسفتين، باختصار شديد جدًّا، هو أنَّ الفلسفة الغربية وُلدت على يد فلاسفة، أمَّا الصينية فقد كانت ميراثًا ينتقل عبر الأجيال … فلسفة بغير فلاسفةٍ تقريبًا!

ورغم أنَّ فكرة الاعتدال في الفلسفة اليونانية ظهرت في وقتٍ معاصر على وجه التقريب، لتداول كتاب الاعتدال، إلَّا أنَّ الفارق بين خصائص الوسطية في الفلسفة الصينية ومثيلتها الغربية يبدو هائلًا، بالنظر إلى حقيقة أنَّ الاعتدال في الصين قام على قاعدة السلوك الإنساني الأخلاقي، وفي أجواء مشبعة بدلالات الفضائل وآداب المعاملات؛ بينما في الغرب نشأ تحت ظلالٍ دينيةٍ. وفي حين أنَّه في الصين قد شهد طفرات تطورٍ سريعةً ومتلاحقةً، ولاقى انتشارًا كبيرًا وذيوعًا بين الناس «فالمدوَّنات الفلسفية الصينية مكتوبةٌ بلغةٍ بسيطةٍ، لغة رجل الشارع، لغة استطاعت أن تقرض نفسها فوق أيَّة محاولات للتأويل، لسهولتها — باستثناء كتاب الطاو — مما مكَّنها من احتلال ساحة الفكر واعتلاء منصة الأحداث وحدها، وفرضت وجودها، حتى أمام الديانات الوافدة، في حين كانت المدوَّنات الفلسفية الغربية تتوجه لنخبة من الناس وتحمل على صفحاتها إهداءات وتوقيعات لفلاسفة مناظرين، دون أدنى اعتبار للجمهور، وبغير أيَّة محاولة لاجتذاب أكبر عدد من الناس إلى دوائر النخب!».

وعلى أيَّة حال، فالفلسفتان وإن اختلفتا في منطلقاتهما، إلَّا أنَّ منطقهما كان متماثلًا؛ إذ قامت الفلسفة الغربية على أساس مبحث المادة، لتنطلق نحو تأسيس نظريتها

المعرفية، وكذلك تأسست الفلسفة الصينية على قاعدة الموضوع الإنساني؛ لتؤسس هي الأخرى نظريتها المعرفية الأساسية التي تبلورت في «مذهب الاعتدال».

وقد حملت نظرية المعرفة الأساسية (الاعتدال) في الفلسفة الصينية القديمة ثلاث دلالاتٍ رئيسية:

(١) المعنى الأول: يُفسِّر الاعتدال بوصفه رديفًا لمعنى «النمط الدائم» أو «النظام الأصولي» (نقيضه هو «التغير»)، فهو القانون أو النظام الموضوعي الثابت والدائم، والالتزام به يعني التقيد الأخلاقي بمبدأ مراعاة أسس الثبات والاستقرار، وهو الاتجاه الذي تبنَّته المدرسة الكلاسيكية فيما بعد؛ حيث الوسطية هي القاعدة الثابتة التي لا تبديل لها.

(٢) المعنى الثاني: يرى أنَّ الاعتدال هو الاستخدام الأمثل والتطبيق العملي للقواعد والمفاهيم الثابتة التي تتضمنها آداب ومبادئ الاعتدال.

(٣) بما أنَّ الاعتدال يمثِّل المنهج الثابت، والنمط الحياتي المألوف؛ فهو يمثِّل — بهذا المعنى — المجال الواسع الذي تتجسَّد فيه شئون الحياة ومجريات الأمور «فمن الطبيعي، بعد أن ينبذ المرء أقصى حدود الأمور، سلبًا وإيجابًا، أن يبقى في حال من التوافق مع الدورة والنمط الثابت لمجريات الأحوال دون ميلٍ أو شططٍ».

فكل تلك الدلالات كانت محل مراجعة وتأمل كونفوشيوس وهو إن لم يضمنها كتابه وأقواله في «المحاورات»، إلَّا أنَّه حرص على التطرق إليها في تأملاته الفلسفية في مواضعَ أخرى تمتلئ بها المؤلفات الكلاسيكية.

وسوف يلاحظ القارئ في ترجماتنا اللاحقة للتراث الكونفوشي إشاراتٍ متكررةً إلى مفاهيم الوسطية والاعتدال؛ فهي جزءٌ لا يتجزأ من البناء الفكري للفلسفة الصينية، تجده مبثوثًا في جنباته العريقة وأنحائه المتفرقة، في الكونفوشية مثلما هو في ظلال الطاوية، في تضاعيف الكونفوشية الجديدة، في النسيج الذي تشابكت فيه خطوط الثقافة والحضارة الصينية طولًا وعرضًا.

وبعد، فيسعدني أن أقدِّم للقارئ العربي ترجمة «كتاب الاعتدال» أو «رسالة مذهب الوسطية» [كما يحلو للصينيين أن يطلقوا عليه]، وهي ترجمةٌ عن الصينية مباشرةً، وعن نسخةٍ محققةٍ، مزوَّدةٍ بشروح على المتن الأصلي، وهي عبارةٌ عن إضافاتٍ قام بها «جوشي» (ذلك القطب الكونفوشي البارز، من روَّاد ما يُسمى بالكونفوشية الجديدة) يجدها القارئ

ملحقةً بالمتن بين قوسين مربعين، وقد ترجمتُها كالنص الأصلي سواءً بسواء وأوردتها، كما جاءت في النسخة المترجَم عنها، على النحو نفسه الذي وردت به في النسخة الأصلية، في آخر كل باب.

«مثلما نجد في معظم المؤلفات القديمة؛ حيث تمتلئ حواشيها بإضافات من تدوين «تشنغ هاو» و«جوشي» وأضرابهما من الكونفوشيين الجدد، في عصر أسرة سونغ الملكية، ومن المعلوم أنَّ الكتب الأربعة المقدَّسة هي أثمن ما خلَّفته الثقافة الصينية القديمة، وهي المدوَّنات التي تحمل أفكار كونفوشيوس (أو، بمعنًى أصح، طريقته الفريدة في التعبير عن مضمون وأهداف المدرسة القديمة) بوصفه أشهر روَّاد المذهب الكلاسيكي من زمن دولة تشين وما قبلها بوقتٍ غير بعيدٍ (٢٢١–٢٠٧ق.م.).»

وتحكي حوليات التاريخ الصيني بأنَّ قرارًا أصدره القصر الملكي الحاكم، في حقبة من عصر أسرة يوان الملكية (١٢٧١–١٣٦٨م) يقضي بأن تكون الكتب الأربعة (محاورات كونفوشيوس، الاعتدال، المعرفة الكبرى، منشيوس) ضمن الموضوعات التي يُمتَحن فيها المتقدمون للعمل في المناصب الوزارية العليا لدى البلاط الحاكم، وظلَّ هذا التقليد ساريًا حتى أواخر عصر أسرة تشينغ.

ونرجو القارئ مجددًا أن يُطالع النصوص في سياق ظروف إنتاجها، تاريخيًّا، باعتبارها مدوَّنات وثائقية لم تثبت نسبتُها إلى مؤلِّفٍ محددٍ (ولا حتى إلى زمنٍ معلومٍ!) ذات محتوى أَدخَلُ في مبحث وثائق التاريخ الاجتماعي منها في باب الفلسفة الأخلاقية، أو في تراث الفضائل الإنسانية، فكثيرًا ما كانت الفلسفة الأخلاقية الصينية تغري بالاجتزاء والتأويل خارج السياق، وكثيرًا ما تم توظيف نماذج وأمثلة من مادة الفضائل ومحتوى نصوص الأخلاق فيما لا علاقة له بالفضائل والأخلاق.

ثم إنَّ ملامح الصورة الثقافية للصين وتفاصيل حياتها الفكرية القديمة لن تتضح على نحوٍ معقولٍ إلَّا بمطالعة باقي الجهود والآثار الفلسفية لباقي المدارس الصينية (التي تجاوزت المائة، في صياغة بلاغية مشهورة!) تلك التي تصارعت فيما بينها برغم أنَّ منطلقاتها كانت، في الأساس، تدور حول مادة الإنسانيات والفضائل وآداب وأصول المعاملات؛ مما أرجو أن يحالفني التوفيق في تقديمه للقارئ من ترجمات لكتب التراث الصيني القديم.

المترجِم

الاعتدال

١

ما حازت «الطبيعة» اسمًا إلَّا بما أفاضت عليها السماء من أسماءٍ، وما صار «الطريق» طريقًا، إلَّا لأنَّه حذا حذو الطبيعة.

وليس طلب العلم إلَّا السعي على هدى الطريق، واستقصاء أسراره.

ليس للسائر أن يزل عن جادة الطريق طرفةَ عينٍ؛ فمَن حاد به الدرب، وزاغت منه الخطوات، فلا طريقًا مشى، ولا مشى به الطريق؛ فمن ثمَّ وجب على العاقل أن يلزم الحذر، حتى لو توارى عن أعين الرقباء، وليتجنب الهفوات [يعصم لسانه من الزلل]، حتى لو تناءى عنه السامع، وصُمَّت دونه الآذان.

لا تتسلط الأضواء إلَّا على أحلك المكامن، ولا يتعرَّى تحت شعاع النور إلا أشد البقاع ظلامًا.

ليس أظهر للعين من كمين منصوب في الخفاء، ولا يتجلى لنظر الرقيب سوى ما توارى — بِدَهاءٍ — في الزوايا والأركان؛ ولذلك، فينبغي للعاقل ذي الكياسة أن يتبصَّر الأمور، ويلزم جانب الحذر حتى وهو في كنَف العزلة، منفردًا بنفسه عن الدنيا كلها مِن حوله.

عندما تتوارى طي الجوانح بهجة الفرح، وسَوْرة الغضب، ومرارة الألم، ولذة السرور، فذاك هو حال «الاعتدال»، وإذا تبدَّت أمارات تلك الأحوال على نحوٍ ملائمٍ ومعقولٍ، فذلك هو ما يُطلق عليه «المواءمة»؛ فالاعتدال هو أصل كل الموجودات [التي تحت السماء]، والمواءمة هي المبدأ النافذ في أنحاء الكون كله، وحينما تبلغ الأمور جميعًا حد «الاعتدال والاتفاق»، وينبسط بساط الأرض، وتسمو أقطار السماء، [تلزم الأرض موضعها، والسماء قباءها] ويفيض الوجود على الكائنات حياةً ونماءً وفيرًا.

[ذلك هو الباب الأول، وقد ذكر فيه «زيس» — أحد روَّاد الكونفوشية — بعض أقوال وآراء كونفوشيوس، على سبيل الاستدلال بالحجة والبرهان، زاعمًا أنَّ للطريق صفاتٍ سماويةً أوليةً لا تتبدَّل، وأنَّ جوهر معناه قائم في نفوس الناس، مرتبط بها أشد الارتباط، ثم يتطرَّق من هذه النقطة إلى مسألة «تهذيب النفس وترويض الذات»، وصولًا إلى تبيان حدود «الرياضة الذاتية المقدسة» التي تهدف إلى محاسبة الذات؛ بغرض التعرُّف على اتجاهات الطريق «الصحيحة والكامنة في دفائن النفس، وكشفًا وتمكينًا لما هو فطري وأصيل من التحقق والتبدي، ونبذًا لكل مكتسبٍ أو زائف أو مشحون بالغواية والتضليل. فهذا الباب — على حدِّ تعبيرِ السيد يانغ — هو المبدأ الأساسي الذي يُلخِّص الأفكار الأساسية التي ستدور حولها الأبواب العشرة التالية، والتي تُمثِّل، في الحقيقة، استطرادًا من المؤلف «زيس» في التعليق والشرح والتوضيح».]

٢

قال جوني [كونفوشيوس]: «العاقل يلزم حد الاعتدال، وذو الجهالة يتناءى عنه، فالعاقل يهتدي بما قد تحقَّق [في طبعه المعهود] من طلب أوسط المسالك وأنسب الغايات، وما كان الجاهل ليصد عن الاعتدال إلَّا بما اقترف من البطش والتغفل وقلة الاحتراز.»

[ذلك هو الباب الثاني]

٣

قال كونفوشيوس: «قد بلغ الاعتدال من البهاء مبلغًا عزَّت به جنباته، وارتفعت به فوق سامق المجد عروشه، حتى صار النفر القليل من الناس هم فقط الذين يُخْلصون لمبادئه ويثابرون على الاسترشاد بمنهاجه.»

[ذلك هو الباب الثالث]

٤

قال كونفوشيوس: «لئن شقَّ المسير على طريق الاعتدال، فلِأنَّ الأذكياء النابهين يتجاوزون فيه المدى، في حين ينكص الحمقى عن بلوغ غاية الشوط، ولئن تحوَّل عنه جلُّ السائرين،

فلأنَّ الحكماء قد سبقوا به كل الخُطى، ولَمَّا يزَل الجهلاء في بدء الارتحال إليه. ليس في البشر إلَّا مَن قد طعِم الطعام، وشرب الشراب، لكنَّ قليلين جدًّا أولئك الذين ساغت لهم النكهة وطاب لهم المذاق.»

[ذلك هو الباب الرابع]

٥

قال كونفوشيوس: «لا أجد لمذهب الاعتدال بين الناس أتباعًا، ولا أتوقَّع أن يجد هذا المذهب نصيبًا من الذيوع والانتشار.»

[ذلك هو الباب الخامس]

٦

قال كونفوشيوس: «ألم يكن الإمبراطور الأعظم «شون» فطِنًا ذكيًّا؟ [بلى قد كان، وبرغم هذا فقد اشتهر بأنَّه كثيرًا ما ...] كان مولعًا بالاستفهام والسؤال عمَّا كان يعنُّ له من أشياء، ولم يكتفِ بأن يتلقى الإجابات؛ بل كان يُمحص ويُدقق ويستوثق، حتى في أبسط ما يتفوه به من كلمات؛ ثم لم يكن يتحدث إلَّا بما يُقيل به عثرة المخطئ، أو يثني به على مروءة الماجد. وعندما اجتمع في قبضته أقصى طرفي الخير والشر، نبذهما كليهما، واختار الحد الأوسط والمأخذ الأوفق وسيلةً لتحقيق النفع للناس والنهوض بما فيه مصلحتهم، فمن ثمَّ كان جديرًا بما حفظه له التاريخ من مجدٍ باقٍ على طول الزمان.»

[ذلك هو الباب السادس]

٧

قال كونفوشيوس: «الجميع يزعمون بأنَّهم نابهون أذكياء، ومع ذلك تجد مَن يقودهم [بأيديهم!] للوقوع في شَرَك ماكرة، لا يستطيعون تفاديها، ولا التبصر بمكامن أغوارها، الكل يرددون أنَّهم فاهمون ونجباء، وبرغم ذلك فإنَّهم يكادون لا يثابرون على المضي قُدمًا في طريق الاعتدال شهرًا واحدًا، حتى بعد أن تتبيَّن أمامهم ملامح الطريق ويشاهدون بأعينهم أوضح معالمه.»

[ذلك هو الباب السابع]

٨

قال كونفوشيوس: «كان «يان هوي» — أحد الأتباع — من ذلك الصنف من الناس الذي إذا رسخت خُطاه على طريق الاعتدال وثق قلبه بعهد المسير، وتوطدت في نفسه مشاهد اليقين، فحفظ الإيمان به مثل خصلة كريمة، أو طبع راسخ في جوهر الصفات، لا يضيع ولا يتبدَّل.»

[ذلك هو الباب الثامن]

٩

قال كونفوشيوس: «قد تنصاع الممالك للحُكم العادل، ويعمُّ النظام ربوع الدويلات والأقاليم، وقد تعف النفوس النبيلة عن قبول المنح والأوسمة والترقيات، ويتواضع الأَكْفاء ويشيح الفضلاء بأنظارهم عمَّا يُبسط لهم من موائد التكريم، وربما يقتحم الشجعان أبواب الرَّدى، ويطأ البواسل أَسِنَّة الرماح في مشاهد من الشجاعة النادرة، لكن هيهات أن تقوم شواهد الاعتدال.»

[ذلك هو الباب التاسع]

١٠

أقبل «زيلو» على كونفوشيوس، وسأله عن معنى القوة، فأجابه: «أيَّة قوةٍ تقصد، ومن أيَّة ناحية: أهي القوة الجنوبية أم الشمالية.

أو القوة التي تضبط بها نفسك وتُزكِّي بها إرادتك؟ «على أيَّة حالٍ فاعلم أنَّ ...» رجاحة العقل والحلم، والهداية بالحسنى، والصبر على مَن أساء إليك؛ كل ذلك من سمات القوة الجنوبية؛ فالعاقل مَن وطَّن نفسه على الأخذ بمفهوم تلك القوة، فإذا اخترت لنفسك أن ترقد على فراش من درع وسيف، ووسائد من رماح ونصال مُشْرَعة، فتبيت بعَتاد المقاتل، وتموت، إذا مت، غير آسفٍ ولا نادمٍ على شيء؛ فتلك هي القوة الشمالية، وهي ما يبتغيه كل قويٍّ جريء غير هيَّاب، فمن ثَمَّ كان الماجد الفاضل ليِّن الجانب من غير ضعف، متسامحًا دون خوفٍ.

وما أنبل القوة حين يكون التوسط بغير مَيل، والاعتدال دون شطط، وما أكرمه من عزم حين يكون هذا العزم سندًا للحق والأحوال رخاء، ما أبقاها من صلابة عندما تثبت إرادتك وتصمد في وجه الموت نفسه، حينما تعم الفوضى وتضل الأهواء، وتختلط الجهات، ويفقد الطريق الاتجاه، فتتفرق السُّبل في كل طريق.»

[ذلك هو الباب العاشر]

١١

قال كونفوشيوس: «إنَّ التفقه في الأمور الباطنية [السحر، التنجيم] والإتيان بالغرائب والخوارق (صنع العجائب)، يمكن أن يلقى الانبهار والإعجاب في قادم الأيام، عند أجيال المستقبل، لكنني لن أشغل نفسي بشيء من ذلك.

إنَّ العاقل مَن سار على هدى الطريق، والتزم جادة الصواب «وسأضع هذا الأمر نُصب عينَيَّ»، فلن ألتفت إلى مَن يتوقفون أو يتراجعون في منتصف الرحلة، ولن أتوقف؛ بل سأكمل وأواصل المسير.

إنَّ الفاضل مَن راض نفسه على نهج الاعتدال فقَبع في بيته، اعتزل الدنيا؛ فلم يُصِب مغنمًا ولا جاهًا، وهذه درجةٌ لا يبلغها إلا القديسون.»

[ذلك هو الباب الحادي عشر]

١٢

طريق العاقل واضح المسالك، واصل إلى المنتهى، لكنَّه، وبرغم ما اكتنف جنباته من أسرار، لا تخفى أدقُّ دروبه عن كل السائرين من رجال ونساء (من العامة) إلَّا موضعًا شريف الخُطى، لا يهتدي إليه سوى القديسين الحكماء.

يستطيع كل الناس الاهتداء إلى طريق العارفين الحكماء، دون أن يكون لهم نصيب من الحكمة، أمَّا المرتقى الأشرف من الطريق، فتدِق أسراره وتخفَى منعرجاتُه حتى عن أفطن العلماء والقديسين.

قد اتَّسعت أقطار السماء ورَحُبت مواطئ الأرض، وما زال بين الناس الطامع والمنهوم، «ومن ثم» فإذا وصف الفاضل الحكيم شيئًا ما بأنَّه «عظيم»، فلا بد أن يكون

قد بلغ درجة لا تحدُّها حدود، في الأرض أو في السماء، وكذلك إذا قال عن شيء بأنَّه «ضئيل» فربما كان الشيء قد تناهي ضآلةً، فما عاد له منظر مرئي، أو حيز معلوم. وقد جاء في كتاب الشِّعر القديم ما نصه:

«تأبى النسور إلا أن تحلِّق عاليًا،
والفضاء مشهد معراج سماوي أعلى؛
[بينما] تتسابق الأسماك
إلى أعماق سحيقة،
والبحر عالم مديد الأرجاء ...
بغير قاع ...»

والمعنى هنا يُشير، بالرمز، إلى ما يتسم به طريق الحكيم العاقل من جلال ووضوح، مع رحابة وبساطة، بما يشبه شموخ البُزاة وهي ترتقي أجواز الفضاء على مرأى من كل عين ناظرة؛ فكأنَّ طريق الحكماء يبدأ، في أول خطواته، سهلًا بسيطًا يدركه السائر عند موطئ قدميه، ثم يتدرج في معارج الرُّقِي حتى يبلغ عنان السماء.

(هذا هو الباب الثاني عشر، وهو من وضع «زيس» (أحد رواد الكونفوشية) ... وفي هذا الباب، يحاول أن يوضح معنى ما ورد في الباب الأول بخصوص الالتزام بأُسُس المنهج الأصلي، خاصةً ما يتعلق فيه بوجوب التقيد بالمبادئ الصحيحة، حيث ينصح السائر بضرورة اتِّباع «جادة الصواب»، مستندًا، في ذلك، إلى شواهد وبراهين مما قاله كونفوشيوس بنفسه في هذا المضمار).

[ذلك هو الباب الثاني عشر]

١٣

قال كونفوشيوس: «إنَّ طريق الاعتدال لا يُقصي أحدًا عن مساره، فإذا ضلَّ الطريق طالب المنهاج القويم، حاد به الدرب، فلم يكن ذاك هو الطريق، وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم ما نصُّه:

«اقطع الأعواد الجافة،
وانحت من الحطب مقابض للفئوس،

ضع في كل مقبض فأسًا صغيرة،
وتأمَّل الطريقة؛
فليس هناك سوى طريقة واحدة
لعمل آلاف المعاول.»

لكن جرِّب أن تأخذ فأسًا، لتقطع أعواد الحطب، التي تصنع منها مقابض للفئوس، وانظر بعين فاحصة، تجد الطرائق شتى، والفروق بغير حصْرٍ «ولنتدبر مليًّا، وبالمنطق نفسه، مهمة الحكيم ورسالته التي تنحصر في ...» تطبيق المبادئ الإنسانية التي تنطوي عليها مفاهيم «طريق الاعتدال» في تدبر شئون الناس وإصلاح أحوالهم؛ حتى إذا ما اعتدل ميلهم، تمَّت مهمته واختتمت كلمته. مع مراعاة أنَّ «الإخلاص» و«التسامح» يندرجان في قائمة المبادئ وثيقة الصلة برسالة الاعتدال؛ ومن ثَم، فلا ينبغي أن نفرض — قسرًا — على الآخرين، ما لا نحب أن يجبرونا عليه، (وفي هذا الصدد) فإنَّ هناك أربع علامات على طريق الاعتدال ينبغي للعاقل أن يتدبرها، ويواظب على التخلق بها، ولا أزعم أنِّي استطعت تحقيق هذا المبدأ على الوجه الأكمل الذي يتطلب: أن يُعامل المرء أباه بمثل ما يود أن يُعاملَه به ولده، وأن يُعامل رجل الدولة المتنفذ جلالة الحاكم بمثل ما يريد أن يعامله به الوزراء والمساعدون، وأن يُعامل الرجل أخاه الأكبر بمثل ما يتمنى أن يعامله به أخوه الأصغر، وأن يُعامل المرء أصدقاءه بمثل ما يرجو أن يعاملوه به.

إنَّ المبادئ الطيبة، مهما كانت عاديةً وبسيطةً، فيجب أن تكون موضع تطبيق؛ أمَّا الكلمات، فمهما كانت مألوفة فينبغي أن تخضع للتأمل والمراجعة «ومع ذلك ...» فإنَّني لم أستطع أن أفي هذه المبادئ حقها؛ فلذلك أسعى جاهدًا لتعويض ما فاتني منها. وحتى إذا كان في مقدوري أن أرأب الصَّدع وأسُد الثغرات، فلا أظنني أستطيع تبيان دلالة تلك الكلمات وصولًا إلى غاية القصد وتمام المعنى.

«وهكذا ...» فالكلمات مرهونة بالأعمال، مثلما أنَّ العمل مشروط بما يبين من معاني الكلمات، فكيف للعاقل (والأمر على هذا النحو) أن يحيد عن الصدق والإخلاص؟!».

[ذلك هو الباب الثالث عشر]

١٤

إنَّ العاقل الحكيم يقوم بأعباء مسئولياته في نطاق الوقت والمكانة والمناخ المتاح له، وعليه أن يرد نفسه عن الانشغال بما يقع خارج ذلك المجال، فإن كان غنيًّا ذا ثروةٍ وجاهٍ أو أي

مطمح آخر، فليفعل ما ينبغي للغني أن يفعله، وإن كان مُعدمًا ذا فقر وفاقة، فليتصرف حسب ما ينبغي للفقير في هذا النطاق. وإن كان مقيمًا — في حيز وقته وظروفه وإمكاناته — وسط قبائل همجية، فليعمل ما ينبغي على المقيم وسط أولئك أن يعمله، فإذا أحدقت به المتاعب ومنغصات العيش، فلينظر فيما يتوجب على من أحدقت به البلايا أن يفعله.

وأيًّا ما كان الحال التي يمر بها الماجد الكريم، فلا ينبغي أن يكون هناك ما يعوقه عن أن يتصرف في هدوء وبساطة دون تكلفٍ؛ فإذا كان وجيهًا فلا يحتقرنَّ مَن هم دونه، وإن كان وضيعًا فلا يتمسحنَّ بأذيال ذوي القدر الشريف، وليصلح المرء من شأن نفسه دون إلقاء التبعة على الآخرين، وحينئذٍ تنمحي من النفوس أسباب الاستنكار والشكوى. ولا يعود ثمة مرموقون يشتكون أقدار السماء، ولا مغمورون ينددون بظلم البشر.

فمن ثَم ينعم العاقل بوقته هانئًا يتأمَّل صفحة أقداره، بينما يخوض الأحمق في مسارب الغفلة والخطر، ويُمنِّي النفس (برغم ذلك) بكل السعادة والخير والحظ الطيب. قال كونفوشيوس: «إنَّ أخلاق السادة المهذبين أشبه ما تكون بآداب الرماية؛ ذلك أنَّه ما طاش السهم عن قلب المرمى، وعاد الرامي يُراجع نفسه ويصحح وجهته ليصوِّبَ من جديدٍ.»

[ذلك هو الباب الرابع عشر]

١٥

السالك في طريق الاعتدال كالمسافر في رحلة بعيدة؛ حيث لا ينبغي له أن يبدأ الترحال إلَّا عند أقرب نقطة من الطريق «وإنَّ السائر في طريق الاعتدال» كالمتسلق جبلًا عاليًا، فلا ينبغي له أن يشرع في الصعود، إلَّا عند أسفل موطئ قدم.

وقد جاء في «كتاب الشِّعر القديم» ما نصه:

«... ترفرف السعادة فوق أفراد عائلة متحابَّة،
كصوت أوتار متآلفة،
أو رنة عيدان متناغمة،
ما أسعد إخوةً متآزرين،
قلوبهم عامرة،
وأرواحهم صافية،

ما أجمل أن تكون لك أسرة هانئة،
وشمل عائلة موصولة بالسعادة.»

قال كونفوشيوس (مستطردًا): «بهذا، يتحقق رجاء كل أب وأم.»

[ذلك هو الباب الخامس عشر][1]

١٦

قال كونفوشيوس: «ما أعظم عالَم الروح، وما أدقَّ طلاسمه واحتجاب أسراره؛ فلا هو شكل يبصره البصر، ولا هو صوت تدركه الأسماع، «فهو عالم الروح الذي» خلق المخلوقات كافةً، وأنشأ كل حي، فلم يغفل عن أحد ولا أهمل شيئًا، قد أوجب على البشر طهارة القلب من الإثم بالموعظة، وإمساك الفم عن الطعام بالصوم، وارتداء أجمل الثياب لأداء الشعائر وإقامة أزكى وأبهى الطقوس والمراسم «حتى شملت الروح دنيا البشر من كل صوبٍ، فكانت ...» تحيط بهم من فوقهم وعن شمالهم ويمينهم. وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم ما نصُّه:

«ما من أحد يحيط علمًا بموطئ الروح،
«ومع ذلك» فهل هناك حقًّا ...
مَن يملك أن يتجاهل قدرها؟»

وهكذا، فلا يمكن إسدال حجاب الغفلة فوق معدن الإخلاص، بعد إذ خرجت مادة وجوده من خفاء الغيب إلى ساطع المشهد المبين.»

[ذلك هو الباب السادس عشر]

١٧

قال كونفوشيوس: «ما أكرم أخلاق الملك الحكيم «شون» وما أعظم سجاياه؛ فلا غرو أن يُضرب به المثل في الوفاء والإخلاص، قد كان ملكًا وقديسًا؛ ففاز ببهاء المُلك وأنوار الحكمة،

---

[1] لم ترد في هذا الباب العبارة المعتادة، التي صيغتها [... هذا هو الباب ...]، وذلك حسب ما هو وارد في النسخة الأصلية المترجَم عنها. (المترجِم)

ملأت خزائن أمواله ما بين البحور الأربعة «من أقصى الأرض إلى أقصاها»، وغمرت قرابينه كل المعابد، وصار ذلك دأبه، حتى جاء أولاده وأحفاده على شاكلته، فأكملوا مسيرته وحافظوا على أمجاده، فخلد ذكره على مرِّ السنين؛ فمن ثم كان لزامًا أن يتبوأ الماجد الأكرم مكانةً رفيعةً، وأن تكون له العزة والجاه والمال الوفير، وكان حتمًا أن يصيب شهرةً ذائعةً، باقيةً على مرِّ الأجيال.

ولذلك، كانت السماء عندما أنبتت الأشجار والأوراق والزهور، قد حفظت للأشياء طبائعها وعلَّمتها أسرار العناية والبقاء، فنبت من الغرس ما شبَّ ونما، وسقط من ذابل الأوراق ما جفَّ ونثرته الرياح، ونجد شيئًا من ذلك المعنى في «كتاب الشِّعر القديم»، وحيث ترد هذه الأبيات:

«ما أنبل السيد الماجد،
وما أكرم سجاياه؛
إذ بسط فوق الجميع رداء الوئام والسعادة،
فورِث ميراث العزة،
وحفظته السماء،
ومدت فوقه أياديها،
وجعلت له المكانة العالية، تبجيلًا له وتقديرًا،
وبصَّرته بأقدار، موعظةً ونذيرًا.»
فلذلك، كان محتَّمًا أن تؤازر السماء كل كريمٍ ذي خلقٍ عظيمٍ.»

[ذلك هو الباب السابع عشر]

١٨

قال كونفوشيوس: «لم يكن في الدنيا كلها رجلٌ سلِم قلبه من الهموم سوى جلالة الملك «أون»، وهو واحد من أشهر الملوك جميعًا؛ فأبوه هو الملك «وانغ جي»، وولده هو الملك «أو»، والمعروف عنه أنَّه سليل أُسرة ملكية ذات مآثر عظيمة، شهدت الكثير من مجدها أيام الملك الأب، ودامت أيام عزها إلى ما بعد الملك الابن، ذلك أنَّ جلالته لما ورث المجد الملكي عن آبائه: الملك الأكبر، الملك وانغ جي، الملك أون؛ فقد آلى على نفسه أن يحفظ في سجل

الزمان صفحات سجَّلها أجداده بالفخار، ثم أضاف إليها بحروف ساطعة بالنور أمجاد حملاته العسكرية التي أحرز فيها نصرًا مؤزرًا على أعدائه، فاتسعت أطراف مملكته، ودانت له كل ممالك الأرض بالخضوع، فذاعت شهرته وطار صيته في الآفاق، واستحق — عن جدارة — لقب «ملك الملوك ابن السماء»، وصار له المال والجاه العظيم فيما بين البحور الأربعة (من أقصى الأرض إلى أقصاها)، وأقيمت له المعابد وهياكل القرابين المقدسة، وظل أبناؤه وأحفاده أحفاده يعظِّمون ذكراه، ويقيمون في ضريحه المزار المقدس والقرابين جيلًا وراء جيلٍ بغير انقطاعٍ.

وقد تولى الملك «أو» الحكم، في عمر يناهز سن الشيخوخة. وقام الوالي «تشو» بإكمال الأفضال الجليلة لكل من الملكين «أُو» و«أون»، وأوصى لكل من «جي» و«تاي» بجدارة استحقاق اللقب الإمبراطوري الأفخم، وقدَّم القرابين للملوك الأقدمين طبقًا للمراسيم الإمبراطورية؛ بل قام بتعميم تلك المراسيم الجنائزية لتشمل النبلاء وكبار الموظفين والوجهاء والعامة أيضًا، وكانت تقضي بأنَّه إذا كان الوالد من كبار الموظفين والابن من الوجهاء (الطبقة الوسطى) فإنَّ طقوس دفن الوالد المتوفَّ تُجرَى وفق المراسيم الجنائزية لكبار الموظفين؛ أمَّا شعائر تقديم القرابين، فتقام حسب المراسيم الخاصة بالوجهاء؛ أما إذا كان الأب من الوجهاء والابن من طبقة كبار الموظفين، فإنَّ طقوس دفن الأب المتوفَّ تقام حسب المراسيم الجنائزية لطبقة الوجهاء، بينما تتم شعائر تقديم القرابين حسبما يتوجَّب على كبار الموظفين إقامته في مثل هذه الظروف، وقد نصَّت على وجوب حراسة جثمان المتوفَّ مدة عام كامل، هذا — فيما يتعلق بطبقة كبار الموظفين — ومدة ثلاث سنوات للملوك والأباطرة، وبالنسبة لما يختص بطقوس حراسة جثمان المتوفَّ من الآباء والأمهات فقد نصَّت اللوائح على إلزام جميع الأبناء — على نحوٍ متكافئٍ — بوجوب القيام بها، دون أدنى فرق بين غني وفقير أو شريف ووضيع.»

[ذلك هو الباب الثامن عشر]

١٩

قال كونفوشيوس: «إنَّ أعظم مَن أدرك معنى البر والوفاء للأسلاف هما الملك «أُو»، ووالي دولة «تشو»؛ ذلك أنَّهما واصلا مسيرة آمال أجدادهما واستكملا ما تأسس قبلهما من قواعد المجد، وقاما بإمداد المعابد بما يلزم في الأوقات المخصصة للعبادة، وارتديا الملابس

الدينية وأطعما الطعام الشعائري المقدس، وقربا القرابين ورتبا صفوف المتعبِّدين، وأقرَّا مبدأ تقسيم المصلين في أداء العبادات حسب الدرجة الاجتماعية، ليُعْرف الوجيه من الوضيع، وكذلك أخذا بالتقسيم حسب الدرجة الوظيفية؛ ليتميز الماجد عن السفيه، ويلزم كلٌّ مكانه ومكانته؛ حيث يرفع الشباب للشيوخ كئوس الشراب، ويحظى الشبيبة بشرف الحضور في مجلس قام فيه الملوك على قدم. وكذلك كان الجلوس على المآدب حسب السن؛ لأنَّه لا يستوي الصغير والكبير، «ومن دلائل البر عند الملك والوالي أنَّهما ...» قاما حيث كان يجب عليهما القيام، وقدَّما من القرابين ما كان يلزم من التقدمة، وعزفا من الألحان ما جرت به الطقوس، قدَّسا من الأسلاف ما قدَّس أجدادهما الملوك الأولون، وترفقا بما أوصى به آباؤهم أن يُترفَّق به من الرعية؛ فكان العمل لأجل الحي في قداسة العمل بوصيَّة الميت، وكذلك كانت مراعاة حق الراحل الغائب واجبةً وجوب مراعاة حقوق الباقين على قيد الحياة، فذلك هو أسمى معنًى للبر وأرفع ركن من أركانه.

إنَّ إقامة شعائر «الأرض والسماء» إجلالٌ لقداسة السماء، مثلما أنَّ تقديم القرابين في ساحات المعابد تبجيل لروح الأسلاف الأقدمين، فمَن أدرك دلالة طقوس «تقديم القرابين» و«تمجيد الأرض والسماء» عرف كيف ينظر في شئون الممالك وأحوال البلاد بيسر وسهولة (كأنَّه ينظر في راحة يده!).»

[ذلك هو الباب التاسع عشر]

٢٠

ذهب «آيكون» والي دولة «لو» إلى كونفوشيوس، وسأله عن الطريقة المثلى لإدارة الأمور السياسية، فأجابه: «كان الحكيمان العظيمان «أو» و«ون» يأمران بتدوين القرارات الرسمية في السجلات الحكومية «ومع ذلك، فلم تكن تلك السجلات تغني عن الرجال المسئولين عن القيام بأعباء الحكم؛ ففي ...» وجود الحكماء، ضمان للعمل بمقتضى اللوائح والقيام بالمسئولية التنفيذية، فإذا لم يُوجد هؤلاء الرجال، اندثرت كل المدونات التي بذل فيها الملوك العظماء غاية الجهد والدأب. إذا استقام شرع البشر صلحت أمور السياسة، وإذا سلمت طبيعة الأرض أينع الزرع والشجر، «ولقد كانت السياسة التي طبَّقها ذلك الطراز من الحكام، مثل «ون» و«أو»، تؤتي ثمارها وتطول فروعها ويتناثر ظلها في كل مكان»؛ فلا صلاح للسياسة إلا بالحكماء، ولا سبيل إلى ذوي الحكمة إلَّا

بتهذيب النفس، ولا مجال لتهذيب النفس إلَّا باتباع نهج الطريق، ثم لا مسير إلى الطريق إلَّا بالفضائل الإنسانية، و«الإنسانية» معنًى مشتق من لفظ «الإنسان». إنَّ المودة بين ذوي القربى لهي أعظم درجات الإنسانية.

إنَّ «الحق» قرين «اليسر» «النزعة الطبيعية للتشكل حسب مقتضى كل ما هو إيجابي» واحترام الحكماء هو أكبر دلالة على انتهاج «الحق».

في المودة بين ذوي القربى، هناك فرق بين القاصي والداني، وفي تبجيل ذوي الرأي والحكمة لا بد من ملاحظة ما بينهم من تفاوت في المكانة والدرجة، فهي كلها ضرورات تفرضها شروط المعاملات المقررة.

فمِن ثَم، كان لزامًا على العاقل أن يروض نفسه على الفضائل، ولكي يُحسن إلى أهله، فلا بد من أن يحيط علمًا بشريعة البشر، ولكي يعلم شريعة البشر فلا بد من أن يعي مبادئ الأرض والسماء.

إنَّ القاعدة الكبرى السائدة بين الناس، على الأرض تشتمل على خمسة بنود لا يتم تطبيقها إلا عبر ثلاث وسائل؛ فأمَّا البنود الخمسة الكبرى، فتتناول العلاقة بين الحاكم وشعبه، والأب وولده، والزوج وزوجته، والأخ الأكبر والأصغر، والصديق وصاحبه؛ أمَّا الوسائل الأخلاقية الكبرى (التي يُمكن، بواسطتها، تحقيق أفضل علاقة ممكنة في البنود الخمسة المذكورة ...) فهي الحكمة والإنسانية والشجاعة.

من الناس مَن يولدون وقد تنزَّلت في قلوبهم معرفة ذلك المبدأ الأكبر، ومنهم مَن يتلقاها بالدرس والتحصيل، ومنهم، كذلك، مَن يدركون معناها عبر دروب المحن والتجارب القاسية؛ فالجميع، في آخر المطاف، يتوصلون إلى دلالة واحدة للقاعدة السائدة تحت السماء.

بعض الناس يعملون في هدوء ويُسر وفق ما تتطلبه قواعد المبدأ الأكبر؛ بينما يطبق البعض الآخر تلك القواعد استجلابًا للنفع ودفعًا للخسارة، وهناك البعض ممن يجهدون في العمل بها في عسر ومشقة؛ فالوسائل مختلفة لكن النجاح واحد في النهاية.»

قال كونفوشيوس: «طلب العلم يُقرِّب طريق الوصول إلى الحكمة، والاجتهاد في العمل بها يُوصل إلى البر والتراحم، ومَن عرف الخزي والجبن، أوشك أن يقتحم أسوار الشجاعة، فمَن أدرك كنه تلك الثلاثة، عرف الوسيلة التي يروض بها نفسه ويُهذِّب ذاته، فمَن تأدَّب عرف كيف يسوس الناس، ومَن بلغ تلك المقدرة، فقد عرف كيف يقوم على أمر البلاد وحكم الممالك.

إنَّ كيفية حكم البلاد وسياسة الممالك تتدرج، بوجه عام في تسعة مبادئ أساسية، وهي: تهذيب النفس، وتوقير الحكماء، وصلة ذوي القربى، وتبجيل كبار الوزراء ذوي الرياسة، وتقدير مكانة صغار المسئولين والكتبة والموظفين (برغم تواضع أدوارهم؛ تشجيعًا لهم على الترقي)، والتودد إلى العامة والبسطاء، والتقرب إلى الحرفيين الجائلين وأصحاب المهن البسيطة، وإيواء الغريب ابن السبيل، والطاعة بإخلاص وثِقةٍ للأمير.

فتهذيب النفس يهدي المرء بكل ثباتٍ وإرادةٍ نحو الطريق، أمَّا توقير الحكماء فيصدُّ عن الزيغ والضلال عند النظر في الأمور كافةً، ثم إنَّ صلة ذوي القربى لا تدع في قلب الآباء والإخوة أي مجال للتبرم والشكوى، وتبجيل كبار الوزراء والمسئولين يصون النفس من الحماقة ويهدي إلى الرشاد، وتقدير مكانة صغار الموظفين عونٌ لهم على إقامة أبهى وأنبل قواعد المعاملات؛ فأمَّا التودد إلى العامة والبسطاء فيحثهم على التفاني في العمل، والتقرب إلى أصحاب الحرف البسيطة باعث على الربح والكسب والخير العميم؛ وإيواء الغريب ابن الطريق يُخْضِع رقاب الناس في شتى أنحاء الأرض بالطاعة.

واعلم أنَّ ثقتك بالأمراء تثبت لك المهابة والإجلال في نفوس الكافة. إنَّ تنقية النفس من الأوضار، وردَّها عن غواية الحاجة وذل الطلب، وستر البدن برداء الوقار، واجتناب الحماقة وسوء الأدب؛ كل ذلك من الأسباب التي يتأدَّى بها تهذيب الخلق؛ أما الترفع عن الخسة والصَّغار، والتأني عمَّا يفتتن به المرء من الخليلات وذوات الحُسن من النساء، والزهد في المال والمتاع، وابتغاء الخُلق الكريم؛ فذلك كله ممَّا يتوصَّل به المرء إلى الحكمة والفضل، ثم إنَّ احترام المكانة الاجتماعية لعشيرتك، والسخاء فيما تبذل لهم من مال، وعونك لهم في السراء والضراء؛ كل ذلك اجتهاد في الإخلاص والود لذوي القربى.

وفي إمداد الوزراء وذوي الرياسة بالأكفاء من الموظفين والعمال عونٌ على إنجاز الأعمال، وكذلك في إجزال العطاء لِمَن أبدى الإخلاص والأمانة من المسئولين تشجيعٌ للأكفاء والموهوبين «على التفاني بعزمٍ صادقٍ».

واعلم أنَّ في اتخاذ المزارعين للعمل في الأراضي حسب مواسم الزرع مع تخفيض المستحق من العوائد والرسوم تعزيزًا لدافع العمل والإنتاج لدى الكافة، وفي المتابعة اليومية والمراقبة الشهرية لنشاط ذوي المهن والصنائع مع توفير ما يلزم كل طائفة منهم من الحبوب والغذاء حافزٌ على الإجادة والإتقان، ثم في الترحيب بالضيف وتوديع المسافر، والثناء على ذوي المهارة وإقالة عثرة ذوي التقصير سندٌ ومئونة للوافد من أقصى البلدان.

وكذلك في دعم الأواصر بين العشائر، وصلة ما انقطع من نسل القبائل، ودعم ما تهالك من الممالك، وضم ما انفرط من عقدٍ، وما تحلل من عهدٍ، وفي إغاثة المنكوب، وسد

حاجات المكروب، وتحديد ميقات معلوم لزوَّار القصر الحاكم، مع تغطية قيمة العطايا المهداة وتخفيض رسم الضريبة المقررة — في كل ذلك — تبيانٌ للثقة الممنوحة للأمراء «وهكذا»، فتلك هي المبادئ التسعة المقترحة لإصلاح أحوال البلدان والممالك، غير أنَّها جميعًا تتبع نمطًا واحدًا في التطبيق.

«واعلم أنَّه ...» لا يخرج إلى حيز النجاح إلَّا ما رتَّبه الفكر وهيأه التدبير، والفشل قرين الارتجال والإهمال، فلا ينطلق اللسان مفوهًا بالعبارة إلَّا بسابق التبصر في المعاني، ولا انتكاسَ لعمل أعدت عدته التدابير، ولن يندم أمير قد حسب لخطته السياسية الإصلاحية ألف حساب، وكذلك لا تسقط مادة الأفكار في هُوة الفشل الذريع، إذا ما كان التطبيق مسبوقًا بوافر التبصر والحَيطة والاستعداد.

إذا عجز صغار المسئولين عن الفوز بثقة كبار المتنفذين وذوي الرياسة، فلن يتمكنوا من «ضبط الأمور، بمعنى ...» إصلاح أحوال العامة على النحو الأكمل، «ومع ذلك، فـ...» هناك من الوسائل ما هو كفيل بالحصول على ثقة كبار المسئولين؛ ذلك أنَّه إذا لم يستطع المرء أن يحوز ثقة أصدقائه، فلن يستطيع بالطبع أن يحظى بثقة رؤسائه، فإذا ما أراد المرء أن يحظى بثقة أصدقائه فهناك من الوسائل ما هو كفيل بتحقيق مطلبه؛ ذلك أنَّه إذا لم يكن المرء بارًّا بوالديه فلن يصدِّقه أصحابه، ثم إنَّ هناك من الطرق ما هو حقيقٌ بأن يؤدي بك إلى البر بوالديك علمًا بأنَّ مَن خلا قلبه من الإخلاص، غير أنَّ امرأً استغلق عليه معنى الخير لن يفلح أن يستنهض في قلبه دلالة الإخلاص.

إنَّ الإخلاص مبدأ قدسي (سماوي)، وهو المبدأ الأسمى الذي يحاول الإنسان السير على هداه مسيرة حياته.

إن حاز جوهر الإخلاص بفطرة قلبه فقد استقام بغير جهد، واستوعب المغزى بغير محاولة للفهم، وهذا أقرب شيء لطبيعة القديسين. إنَّ مجاهدة النفس لتطويعها لنوازع الإخلاص تقتضي انتقاء أشرف الغايات والالتزام بحدودها، بالإضافة إلى التعمق في العلم والاطلاع واستقصاء سبل المعرفة. والاستغراق في التأمل وجلاء البصيرة والعزم الصادق على إتيان كل مواطن للإخلاص.

فإذا لم يجد العاقل وسيلة للعلم والاطلاع، أو إذا طالع العلوم ولم يفقه منها شيئًا فلا يقعدن عن طلب العلم، وإذا لم يجد وسيلة لاستقصاء سُبل المعرفة، أو حتى إذا لم يبلغ في الاستقصاء الحد الذي يُمكِّنه من الفهم والدراية، فلا يقعدن عن البحث والتقصي في سبيل المعرفة، وإذا واتته الفرصة للتأمل أو إذا لم يصل — بعد التأمل — إلى ما

يبتغيه، فلا يصرفنَّ النظر دون أن ينقدح لديه زناد الرأي وثاقب البصيرة، فلا يتراجعنَّ عن المحاولة بدأب ومثابرة، وإذا لم يتيسر له أن يسلك في مواطن الإخلاص أو إذا سلك بعض الطريق وتعثرت به الخطوات، فلا ينكص عن مسعاه.

وإذا نجح الناس في مسعاهم عند أول محاولة فينبغي على العاقل أن يثابر ويصمد لمئات المحاولات، وإذا نجح بعض الناس في مسعاهم بعد عشر محاولاتٍ، فينبغي على الحكيم أن يثابر ويعكف على آلاف التجارب.»

[ذلك هو الباب العشرون]

٢١

إنَّ الفهم النابع من الإخلاص موهبةٌ من مواهب الفطرة والطبيعة؛ أمَّا الإخلاص الناتج عن الفهم والوعي، فهو نتاج العلم والتربية، والتوجيه، «وعلى كل حالٍ فإنَّ» الإخلاص هو التحصيل الواعي بالفهم، والوعي هو شفافية الحس الفطري المخلص «والإدراك الطبيعي الصادق».

(ذلك هو الباب الحادي والعشرون، وهو خلاصة ما استوعبه «زيلو» — أحد رواد الكونفوشية (المذهب الكلاسيكي) — وما أخذه عن أستاذه — كونفوشيوس — من آراءٍ حول «الفطري» و«المكتسب» (طريق السماء، وطريق البشر — حرفيًّا، وعلى التوالي —). والأبواب الاثنا عشر التالية هي أقوال زيلو التي تدور كلها حول هذا المبحث).

[ذلك هو الباب الحادي والعشرون]

٢٢

إنَّ أشد الناس إخلاصًا هم القادرون على شحذ قرائحهم واستخدام أقصى مواهبهم الطبيعية، وبموجب ذلك؛ فإنَّهم يقدرون أيضًا على حفز الهمم، والطاقات الكامنة في أعماق الناس، فإذا ما استطاعوا أن يبعثوا همم الآخرين، فلا بد أنَّهم يقدِرون كذلك على إيقاظ نفوس البشر أجمعين، وإذا تحقق أنَّهم يملكون تلك المقدرة حقًّا، فهم سندٌ لهداية السماء ونصرةٌ لرسالتها بين البشر، فإذا حازوا تلك المكانة، فلهم أن يتبوءوا منزلةً قدسيةً بعد السماء والأرض.

[ذلك هو الباب الثاني والعشرون]

٢٣

ثم يأتي من بعد أولئك (المشار إليهم آنفًا) نفرٌ من العوام يجتهدون في الاستقامة «يردون أنفسهم عن الميل»، فإذا ما استقاموا فقد بلغوا حد الإخلاص، وإذا بلغوا حد الإخلاص صاروا متفردين واتضحت سمات شخصياتهم، فإذا برزت سمات شخصياتهم عُرِف الإخلاص في سيماهم، فإذا ما تجلى سيماء إخلاصهم أشرقت أنوارهم، فإذا لمع بارق سناهم طاف أثرهم على الأشياء من حولهم، فإذا انطبعت آثارهم على الدنيا من حولهم، تبدَّلت من أحوالهم القلوب والأفكار، فإذا كانت لهم مثل تلك المنزلة في القلوب، انعقدت لهم ألوية الهداية بين الناس، وهي درجةٌ لا يبلغها إلَّا مَن ترقَّى إلى أسمى مراتب الإخلاص.

[ذلك هو الباب الثالث والعشرون]

٢٤

لن يعجز المخلص الذي بلغ في إخلاصه أرفع الدرجات أن يستشرف آفاق المستقبل، فتتكشف لبصيرته صفحة القادم من الأيام، وفي صفحة المستقبل تبدو بشائر نهضة الممالك، مثلما يبين فيها نذير خراب الدول وشؤم طالع الزمان؛ مما يمكن مطالعته في رموز التنجيم وطلاسم الكهانة وملامح وتصرفات البشر من نبوءاتٍ ونُذُرٍ؛ ذلك أنَّ امرأً صحيح الإخلاص يمكن أن تنكشف لبصيرته سعود الأيام ونحوسها، وحتى يصبح كالآلهة سواءً بسواءٍ.

[ذلك هو الباب الرابع والعشرون]

٢٥

الإخلاص هو استيفاء طلب النفس لغاياتها، أما الطريق فهو رشاد النفس بزمام الهدى. الإخلاص يستغرق الأشياء كلها من البدء إلى المنتهى؛ فلا وجود بغير إخلاص، ومن ثم يتحلى به العاقل ويتحقق بصفاته، ولا يقتصر الإخلاص على استيفاء غاية النفس لذاته؛ بل يتعدى ذلك إلى استقصاء أشرف الغايات للناس جميعًا وللدنيا كلها، ولئن كان السعي لتحقيق أغراض النفس طبعًا إنسانيًّا، فإنَّ استقصاء غايات الناس جميعًا بابٌ من أبواب الحكمة، وخلقٌ نابع من الفطرة الأصيلة تجتمع فيها فضائل الأرض والسماء، وأوضح

مقاصد كل ما هو باطني من دخائل النفس، وخارجي من شئون الغير؛ ولهذا فإنَّ العاقل يجد الأوقات كلها مواتيةً والظروف مناسبةً لتحقيق هذا المبدأ.

[ذلك هو الباب الخامس والعشرون]

٢٦

ولهذا يُقال إنَّ الإخلاص ليس له حد ينتهي عنده، ولأنَّه لا ينتهي عند حدٍّ، فهو باقٍ على مر الزمن، ولمَّا كان باقيًا على مر الزمن، فهو نافع، ولكونه نافعًا فهو بعيد الأثر، ثابتٌ على المدى، ولأنَّه بعيد الأثر، فهو واسع المعرفة، وبما أنَّه واسع المعرفة، فهو عظيم المهابة سامق النور، فأمَّا كونه واسع المعرفة، فهذا دليل على عظيم قدرته التي تحيط بالأشياء كافةً، وأمَّا أنَّه سامق النور، فلأنَّه قد أسبل ستره فوق كل شيء هو بعيد الأثر، ومن ثم، تفيض عنه الأشياء كلها وتتوالد كثرتها، وهو (الإخلاص) واسع المعرفة كامتداد صفحة السماء، وجلي النور، كجلاء مشاهد الأرض، متناهٍ بغير حصرٍ، ممتد بغير مدًى، بادٍ للعيان دون أن يتجلى للأبصار، ظاهر الفعل دون أن تصدر عنه نأمةُ حركة، بالغ مبتغاه في يسر دون أن تسعى به الجوارح. إنَّ طريق السماء والأرض يتضح معناه في عبارة واحدة وهي: أنَّه الدرب البسيط الذي لا شبيه له ولا مثيل، وهو الطريق الذي لا يُسبر غوره ولا يعرف كُنهه. وهو ذو طاقة مبدعة قادرة على الإتيان بما لا حصر له من المخلوقات.

إنَّ طريق السماء والأرض بالغ الرحابة والعمق، عظيم المهابة، جليُّ النور، بعيد المدى، قويم المنهاج.

إنَّ السماء، إذا تحدثنا عنها في حاضر الحال، فهي فضاء من نور، فضاء ممدود، تدلَّت منه ثُرَيات من أقمار وشموس تترامي كغطاء علوي، من أقصى الكون إلى أقصاه.

والأرض، إذا تحدثنا الآن عن طبيعتها، فلن نتجاوز القول بأنَّها ليست سوى تراب منثور؛ لكنَّها — برغم ذلك — خلاءٌ رَحْب، وجِرم واسع الأرجاء، يحمل فوق سطحه جبل «هواشان» بكل ثقله، فلا تنخسف به الأركان، وتتفرع لمسيل بحاره وجداوله قنوات وشطآن مترامية، دون أن يزيل قطرة من لُجَّة بحرها، «فالأرض» موطئ لكل شيء، وقد رصنت بحمل أثقالها وتجالدت لم تزُل.

وأمَّا الجبال، إذا تحدثنا عنها الساعة، فلن يسعنا إلا أن نقول بأنَّها لا تكاد تزيد على تلال من أحجار مبعثرة، لكنَّها (مع هذا) سلاسلُ متعرجة وتلال ممتدة آلاف الأميال، قد نبت بواديها العشبُ، وسكن بقفرها الوحش والطير، وقرَّ بباطنها الكنز الدفين.

ثم إذا تطرقنا إلى «الحديث عن» الماء، لألفيناه «مجرد» شربة ظامئ، أو غرفة كف ضئيل، ومع هذا فمسيل قطره موج متلاطم، وحدود بحره بغير مدى، وفى باطنه تتزاحم السلاحف والتماسيح، وينفث «تنين الماء» من فمه طوفانًا يغرق الشطآن (في الأساطير القديمة)، في أسماكه ثروة لا تفنى، وفي أحيائه الدر الثمين، وقد جاء في «كتاب الشِّعر القديم» (في هذا الخصوص) ما نصه:

«... إنَّ أمر السماء محفوظ بطيٍّ القدر،
وليس لأقدار السماء حدود.»

فربما كانت تلك الإشارة إلى السماء، في ذلك السياق، هي السبب في تدبر طريق السماء، «وقد جاء في نصوص «كتاب الشِّعر» أيضًا، ما نصه:»

«... ما أبهى وأطهر وأقدس
ما تحلى به الملك «أون» من أخلاق وفضائل.»

وقد تكون تلك العبارة، هي السبب فيما أُطلق على الملك «أون» من صفات جليلة؛ لما تميز به من سمات عظيمة، ظلت مضرب الأمثال على مدى الأجيال.

[ذلك هو الباب السادس والعشرون]

٢٧

ما أعظم ما سلك القديسون من سُبل، وما أرحب ساحتهم وأصفى موردهم، وقد زادت بهم الدنيا جلالًا، وفاضت بهم الموجودات كثرةً، حتى تمجدوا مجدًا بلغوا به عنان السماء. ما أوسع حلمهم، وأوفر ما اتسعت له صدورهم من الرحمة، «ولقد قيل»: إنَّ أصول المعاملات في ثلاثمائة مسألةٍ، والدرجة الرفيعة من الهيبة والجلال في ثلاثة آلاف «قاعدة مذهبية»، لا يتحقق منها شيء إلا على يد قديس؛ فمن ثم قيل: إنَّ أحدًا لن يبلغ أشرف غاية إلَّا إذا تزود بأرفع منزلة من الأخلاق، هكذا يتجه الفاضل الحكيم صوب أنبل الخلق، ويسلك طريقًا يطلب فيه العلم والمعرفة، ويدقق في أصول الأشياء، فإذا ما بلغ في مسيرة بحثه الحدود العامة للمعرفة، راح يستقصي أغوار التفاصيل؛ وإذا اهتدى إلى صفوة الحكمة، اجتهد في التزام حد «الاعتدال» الأوسط فهو، بذلك، يرسِّخ مبادئ قديمة قد سبق

له مطالعتها، ويفيد معرفة جديدة عرضت له في طريقه، هنالك ينشرح صدره لأصول الآداب في بساطةٍ وعمقٍ وإخلاصٍ.

ومن ثم، فلا يتكبرنَّ كريم «ذو مكانة»، ولا يتمردنَّ لئيم «وضيع»، وليجتهدنَّ في انتهاج السبيل القويم، إذا ما كانت الأحوال العامة تحض على أشرف المسالك، أو لينعزلنَّ خلف ستار الصمت، إذا فسد الزمان وانمحى الطريق، وتأمل هذا البيت من «كتاب الشِّعر القديم» حيث يرد بما نصه:

«إنَّ المرء، من فطنته،
وجلاء بصيرته
حصنٌ يلوذ به ووجاء.»
ألا تجد، هنا، غاية المعنى المشار إليه ودلالة مغزاه!

[ذلك هو الباب السابع والعشرون]

٢٨

قال كونفوشيوس: «لا تحيق النكبات إلا بغبيٍّ يَدَّعي الحكمة، وبليد يستبد برأيه، وابن حاضر الزمان، الذي ينكر يومه الماثل ليعيد سيرة الماضي بغير طائل.

واعلم أنَّه لا ينبغي لك — إن لم تكن إمبراطورًا — أن تضع معايير للأخلاق والآداب العامة، ولا أن تسنَّ القوانين، ولا أن تطالب حتى بتحسين خطوط الكتابة وضبط الحروف والأرقام، «ولحسن الحظ» فهناك الآن معايير موضوعة لتقدير أحجام العربات على نحو قياسي، وهناك أيضا قواعد قياسية لضبط الإملاء وهجاء الكلمات (كان ذلك في زمن توحيد الصين حيث قام الإمبراطور «تشين شيهوان» بوضع تلك القواعد العامة). وكذلك فإنَّ أسس الأخلاق والمعاملات تتبع نظامًا صارمًا ومعلومًا للكافة.

ثم إنَّه لا ينبغي لَمن حاز سلطة ونفوذ الإمبراطور أن يضع قواعد الآداب (ولا الموسيقى، بوصفها تعبيرًا عن القانون والنظام في أدق صوره الفنية الجمالية) ما لم يتحلَّ بالأخلاق الملكية الشريفة، وبالمثل أيضًا، فليس لَمن تخلق بأخلاق الملوك، دون أن يكتسب نفوذهم وسطوتهم، أن يقرر أيَّة مبادئ للأخلاقيات العامة، ولا يتدخل في قواعد الفن والموسيقى.»

وقال كونفوشيوس: «لئن كنت أستطيع أن أقوم بشرح وتحليل قواعد الأخلاق الباقية من أسرة «شيا» الملكية (٢٢٠٥–١٧٦٦ق.م.) فلا أستطيع الزعم بأنِّي أملك المقدرة نفسها على تحليل وثائق أرشيف دولة «تشي»؛ «ذلك أنِّي ...» بذلت اهتمامًا شديدًا في دراسة آداب أسرة «يين» الإمبراطورية، وهي آداب المعاملات نفسها التي ما زالت ساريةً، حتى الآن، في دولة «سونغ»، كما أنَّني تعمَّقتُ في دراسة وتحليل آداب معاملات أسرة «جو» الملكية، والتي بقيتْ حتى وقتنا هذا نمطًا سائدًا للأعراف والمعاملات، وهي مجموعة المبادئ التي ألتزم بها وأسير على منهاجها.»

[ذلك هو الباب الثامن والعشرون]

٢٩

عندما نتحدث عن حكم الممالك، فهناك ثلاثة مبادئ أساسية على درجة كبيرة من الأهمية، لا تستقيم الأمور إلَّا بها؛ ذلك أنَّك إذا كنتَ تتولى منصبًا ذا شأن وأحسنت قيامك بواجبات العمل، دون أن تكلف نفسك عناء التثبت والفحص والمراجعة لنتائج عملك، فسوف تفقد مصداقيتك، وإذا فقدت مصداقيتك، وسقطت في عين الناس «هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى، فـ...» إذا كنت واحدًا من العامة أو البسطاء وتسلك سلوكًا حسنًا «في كل ما تقوم به من تصرفات» دون أن تنال شيئًا من المجد وتصيب درجةً من الرفعة؛ فسوف تفقد مصداقيتك أيضًا، وعندئذٍ، فسيزدريك الناس ويزلقونك بأبصارهم، ويحيدون عن سبيلك، لهذا يسلك العاقل طريقًا واضحًا، وتصير أفعاله تحت رقابة الناس أجمعين، فيشهدهم على دقائق الأمور ويتخذ الحجة على نزاهته من أفواههم، وإذا ما وازن بين أفعاله وما خلد الحكماء الأولون من مآثر رجحت كفته، ولمس الناس صدق مقالته، وإذا أقيم له مجلس يُحصي عليه أفعاله على ملأٍ، بين السماء والأرض، ولم يتذمر أو يتخاذل، وإذا ما تجلَّت له روح أسلافه العظام تُسائله وتحاسب ضميره، صمد في ثبات وثقة، وإذا قيل له إنَّ حكيمًا يظهر بعد مائة سنة من الزمان أقام ينتظر ظهوره بغير كلل.

فإذا أقبلت عليك روح أجدادك تحاسبك، فصمدت لها إيمانًا وثقة، فقد أدركت ما خفي من أمر السماء، وإذا أقمت في انتظار حكيم يظهر بعد مسيرة أجيال، فقد سبرت غور الإنسان؛ ولذلك، كان العاقل يأتي من الأفعال ما يسبق به الناس قرونًا من الزمان، وكان يحوز من الفضائل ما حفظته الأيام قاعدةً راسخةً في أصول المعاملات. وهكذا

يتمجد الفاضل، حتى إذا نأت به الديار اشتاقت إليه النفوس، وتطلَّعت إلى عظيم أدبه وشريف خصاله، وإذا دنا به المكان راقت صحبته، وطاب بجواره المقام، وقد جاء في «كتاب الشِّعر القديم» ما نصه:

«عندما غاب، مَن غاب،
لم تحجبه أستار الكراهية،
ولَمَّا حضر،
لم يغمض للعين جفنٌ وهي ترنو إليه،
ففي كل وقتٍ،
وفي كل ساعةٍ،
تعقد له من المديح هالات
من النور ... حواليه.»

وهكذا، فإن لم يحظ السيد الكريم بمثل هذا، فلن يتيسَّر له الفوز بالمجد بين الناس.
[ذلك هو الباب التاسع والعشرون]

٣٠

كان كونفوشيوس يترسَّم خطى الحكيمين القديمين «ياو» و«شون»، وكان يقتدي في سلوكه بالملوك الحكماء من أمثال «أون» والملك الحكيم «أو»؛ فمن ثم تمجدَّت ذُرا خصاله مثلما تمجدَّت السماء في سامق علوها، وصارت تتراوح معها في مراتب شرفها وطبائع جريانها في الفصول والأزمنة، ورسخت في كونفوشيوس سماته الأصيلة مثلما نبتت في الأرض رواسيها وتحدرت في الوديان أنهارها، واتحد كل ذلك في طبعه كما اتحد في طبع الأرض والسماء كل عالٍ وخفيضٍ، وامتدت فيه ظلال السماء ستارًا علويًّا فوق ساحة الوجود، فكأنَّه فصول الأوقات في جريانها، أو مدارات الشموس والأقمار في فلكها.

والكل دفق جريان ونماء وكثرة، يحذو بعضها بعضًا، بغير تنافر أو نزاع؛ فكلٌّ يدور دورته، وكلٌّ يسلك طريقه المرسوم؛ حيث أدنى الجريان أنهار سابحة، وأعظم ما جرى به الزمان، واستصفته الأيام، نفوس تطهرت بالصدق والبساطة والإخلاص فمن ثم، كانت السماء والأرض أجل من كل وصفٍ، وأعظم من كل بيانٍ.

[ذلك هو الباب الثلاثون]

٣١

لا توجد الحكمة والكياسة على الأرض، إلَّا في قلب قديس جليل القدر، رفيع المكانة، وستجده أقدر الناس جميعًا على تولى زمام الأمور كافةً، ذلك أنَّ القديسين بما حازوا من حلم وأناة وسعة صدر وهدوء طبع، هم أقدر الناس على طي الدنيا بأسرها في قبضة أيديهم، وقد أوتوا من الجلال والإيمان والاستقامة ما مكَّن لهم التقدير والتبجيل في النفوس، وكذلك أيضًا فقد أصابوا القدر العظيم من الدقة والفهم في مطالعة الوثائق ومعرفة دقائق تبويبها وأقسامها، حتى استنارت بصائرهم وصاروا يفرقون بين الحق والباطل، واعلم أنَّ القديس الحكيم هو ابن الوقت الذي يعيش فيه، وعليه تسري أحكام زمانه؛ فيدور في فلك الوقت بغير مدى، ويغوص في باطن الزمان بغير حد، ويسمو حتى يُجاوز أقطار السماء (حدود الأبصار)، ثم يدنو حتى يستقر في جوف الماء (غياهب الأسرار)، فإذا فعل شيئًا فقد بلغ تمام الإجادة وكان جديرًا بالتقدير والإعجاب، وإذا تحدَّث، أصاب القول السديد حتى أُخذت عنه فنون المقال، وإذا وليَ أمرًا من الشئون العامة، سار بالحسنى حتى انشرحت له صدور الناس؛ ولهذا، تجد مثل ذلك القديس الحكيم ذائع الشهرة بعيد الصيت، قد تحدث الناس جميعًا بأمره، سواء داخل الممالك العامرة أو بين أهل القفار، وعلى تخوم الأحراش. فما من أرض عبرت بها سفائن، أو مرت في دروبها قوافل ومواكب، أو أظلها سحاب، أو أشرق في نهارها النور، وتداعى فوقها الليل والقمر، وبلل وديانها الندى وهطل المطر، وإلَّا تمجَّدت به، وما من روح حي تنسم نسمة الحياة إلَّا أحبه وعظَّمه غاية التعظيم، فمن أجل هذا صار الحكيم القديس إلى مرتبة تحاذي جلال السماء.

[ذلك هو الباب الحادي والثلاثون]

٣٢

لا تقوم المُثل أو تتأسس دعائم الأخلاق إلا بيد أكثر الناس إخلاصًا، ومَن أنشأ دعائم الخير على الأرض أدرك أسرار الأرض والسماء وتعاقُب الأيام، ومدار الأمور كلها حتى استغنى عن العون والسند؛ فهو صافٍ كجوهر الإخلاص، مطمئن كغور بئر سحيق، رحب الساحة كصفحة سماء ممتدة، فمَن ذا يدرك سر ذلك الوصف سوى مَن أوتي القلب الزكي العامر بالخلق الأسمى.

[ذلك هو الباب الثاني والثلاثون]

٣٣

جاء في «كتاب الشِّعر القديم» ما نصه:

«... قد توارى الرداء الحريري الموشَّى
خلف عباءة باهتة،
تكاد ألوانها ألَّا تبين.»

والمعنى، هنا، يتطرق إلى ما فعلَته صاحبة الرداء من عدم اكتراث بإظهار مفاتن ثوبها الداخلي، تمامًا مثلما ينبغي للعاقل أن يواري كريم شمائله طي الكتمان؛ لأنَّه كلما زاد تواضعًا «وإخفاءً لخصاله» تجلَّت للناس أشرف خباياه؛ أمَّا الغبي الوضيع فيمعن في الظهور حتى تخفت أضواؤه، ويتلاشى جوهره؛ وقد يُثرثر الفاضل الكريم بنافل القول، لكنك تجد لكلماته مذاقًا لا تجده في كل الكلمات؛ فهو يفصح في إيجاز، ويجمع إلى بلاغة القول منطق العقل وقوة الحجة والبرهان، ويعرف مبتدأ المعنى وغايته، وكيف يمكن لأوهى الأسباب أن تؤدي إلى عظائم الأمور، وإنَّ امرأً يتسم بهذه الخصال لجدير بأن يترقَّى إلى مرتبة القديسين الحكماء. وجاء أيضًا في «كتاب الشِّعر القديم» ما نصه:

«... قد تغوص الأسماك
في بواطن أعماق سحيقة،
لكنها لا تخفى عن بصيرة المتأمل.»

ذلك أنَّ العاقل هو مَن استطاع أن يسبر غَور ذاته التي بين جنبيه دون ترددٍ أو مواربةٍ، ولئن كان هناك ما يرفع من قدر الفاضل الحكيم فوق الناس جميعًا؛ فهو ثباته وشجاعته في مواجهة نفسه بغية الالتزام القويم بأنبل المقاصد.

ونجد أيضًا في «كتاب الشِّعر» ما نصه:

«... كن في خلوتك
خلف جدران بيتك،
كما لو كنت بين الناس،
أو في محراب قدسي،
وقد سطعت عليك أنوار الألوهية،

وليس لك أسرار تخزيك،
ولا سوأة تداريها.»

وهكذا، فالعاقل مَن أشاع في نفوس مَن حوله دواعي الاحترام والتقدير، دون حتى أن يتحرك له ساكن، وتتضح في سيماه معالم الصدق والإخلاص، دون أن ينبس بلفظٍ.
ومما ورد في «كتاب الشِّعر» أيضًا:

«... من قدَّم قربانًا
فليلزم الصمت،
وليحفظ لسانه في حضرة الأرواح القدسية،
فلا ثَمَّ جدل ... ولا ثرثرة،
ولا صخب رديء.»

فمن ثمَّ قيل: إنَّ العاقل هو مَن سلك بالناس سبيلًا إلى الرشاد، دون أن يحثهم على ذلك بسخِيٍّ العطاء، وكريم المكافأة، وهو أيضًا مَن يستطيع أن يوقع في النفوس مهابة الإجلال بغير أن يرفع عليهم سيفًا، أو يتهددهم بشَرِّ العاقبة.
وفي جانب من «كتاب الشِّعر» ورد هذا البيت:

«... لا تُرغم الناس على اتباع الفضائل؛
بل كن أنت نموذجًا يحتذى،
تتبعك المواكب،
ويترسم خطاك الملوك.»

ولهذا؛ فلم ينتشر السلام في ربوع الممالك إلَّا بما حاز الحكماء والقديسون من الإخلاص والصدق والتواضع.
وجاء في كتاب الشِّعر أيضًا:

«... أتأمل خصالك
التي تشيع في تصرفاتك،
دون كلماتٍ رنانةٍ،
أو استعراضٍ مظهري ساذج.»

وقد قال كونفوشيوس ذات مرةٍ: «ما أسخف المحاولات التي تستهدف حث الناس على الفضائل بالخطب والمواعظ الكلامية، والاستعراض الشكلي لمظاهر الخلق الكريم (دون تحقق جوهر الفضيلة ذاته)»، وهو المعنى الذي يبرُز فيما جاء بـ «كتاب الشِّعر» حيث يرد ما نصه:

«... الفضائل كالنسمات،
رقيقة، خفيفة،
مثل ريشة طائرة في الهواء.»
ثم إنَّ «الريشة»، أيضًا، لها مظهر شكلي واضح محدد ...
«... قد أوجدت السماء كل الأشياء،
ولم يكن ثمة مَن يستمع إلى الصدى،
ولا مَن يتشمَّم عطر الكائنات.»
وكانت تلك، هي الفضيلة الكبرى في أتم وأرقى وأكمل معانيها.

[ذلك هو الباب الثالث والثلاثون]

وقد راح «زيس» — تلميذ كونفوشيوس — يُحلِّل الأساس الذي استندت إليه أطروحة الفضائل في الباب السابق، موضحًا أثر ذلك في استتباب دعائم الأمن والسلام المشروط بالتزام السادة النبلاء بالصدق والفضائل الكريمة، مع ضرورة تطبيقها على نطاقٍ واسعٍ، وبالدرجة التي يبلغون بها مصاف الأخلاق التي تقدَّست مثل أفضال السماء في جوهرها الأصيل؛ لكونها تندُّ عن عالم روحي يتَّسم بالصمت والخفاء. وهذا الباب — في جملته — يُلخص الغاية التي يقصد إليها «كتاب المعرفة الكبرى»، أمَّا الغرض من ترديد تلك المعاني فيتمثَّل في ترسيخ فكرة الفضائل وتوضيح دقائق معانيها للدارسين.


هنداوي